جامعة أم درمان الإسلامية
كلية الدراسات العليا
قسم التاريخ

الحياة العلمية في دمشق في عهد الدولة البورية
في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي
٤٩٧-٥٤٩هـ / ١١٠٣- ١١٥٤م

بحث مقدم للحصول على درجة الدكتوراه
في التاريخ والحضارة الإسلامية

إعداد الباحثة : سمر مجيب زاهد

إشراف : الأستاذ الدكتور/ البروفسور/ عبد الباقي محمد أحمد كبير
أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة أم درمان الإسلامية

١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦ م

إهـــــــــــداء

إلى سيدي رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، صلاة كاملة وسلامًا تاماً . يا قمر الهداية وسراج القلوب ، يا من بنوره الوضّاء يستسقى الغمام .

وإلى صاحب الشرف الرفيع الأستاذ الدكتور عبد الباقي الكبير ، مربي الأجيال الإسلامية على محبة الله تعالى ، ومحبة رسوله وأصحابه سالكي طريق الإيمان ، إن شاء الله إلى الغفران . يا من لا يعرف الكلل طريقاً إليه ، ثابت الخطى لا يخاف في الله لومة لائم ، يسعى أن يحفظ الله الإسلام بكل ما استطاع إليه سبيلا .

وإلى الجامعة الإسلامية جامعتنا الميمونة أم درمان ، لا يفوتني أن أبعث بطاقة شكر واعتزاز ، وهذا من فضل الله علينا ، أن أسبغ علينا نعمه ، لننهل ينابيع حضارة الإسلام الزاخرة من أصولها ، من الأم التي احتضنتنا . فحمداً لله على ذلك ،والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الـحيـاة الـعلـمية فـي دمشـق
فـي عـهد الـدولـة الـبوريـة
في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي
٤٩٧ـ٥٤٩هـ/ ١١٠٣ـ١١٥٤م

المقدمـة :

تمهيـد:

الباب الأول : الدولة البورية واهتماماتها العلمية

الفصل الأول : نشأة الدولة البورية

الفصل الثاني : اهتمام الدولة البورية بالعلم

الباب الثاني : الدُوْر العلمية في عهد الدولة البورية

الفصل الأول : دَور المساجد والزوايا والربط والخانقاوات والأوقاف في الحياة العلمية

الفصل الثاني : الكتاتيب والمدارس وأبرزها في الحكم البوري

١ - **المدارس الحنفية** :
أ- المدرسة الصادرية
ب- المدرسة الطرخانية
ج - المدرسة الخاتونية
د - المدرسة البلخية الأكزية
هـ - المدرسة المعينية

٢ - **المدارس الشافعية** :
أ – المدرسة الأمينية
ب – المدرسة المجاهدية الجوانية
ج – المدرسة المجاهدية البرانية
د – المدرسة الجاروخية

٣ – المدارس الحنبلية :

أ – المدرسة الشريفية الحنبلية

ب – المدرسة المسمارية

الباب الثالث : العلماء والمعيدون والطلبة

الفصل الأول : دور العلماء في إثراء الحياة العلمية

الفصل الثاني : المعيدون والطلبة ونشاطهم التعليمي

الفصل الثالث : التصوف ونشاطه التعليمي

الباب الرابع : العلوم و أنواعها

الفصل الأول : العلوم الدينية :

١- علوم القرآن والتفسير
٢- علم الحديث
٣- علم الفقه
٤- علم الفرائض (المواريث)

الفصل الثاني : العلوم اللغوية :

- علم النحو
- علم الأدب والشعر والنثر والخطابة

الفصل الثالث : علم التاريخ والجغرافية

الفصل الرابع : العلوم العقلية والتطبيقية

١- علم الفلسفة والمنطق
٢- علم الفلك
٣- علم الطب
٤- علم الصيدلة والكيمياء والبيطرة
٥- علم الرياضيات والهندسة
٦- علم الموسيقى

مـــــــلخص

إن البحث الذي نتطرق إليه يتعلق بالحياة العلمية في دمشق في عهد الدولة البورية . في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي (٤٩٧- ٥٤٩هـ/ ١١٠٣- ١١٥٤م) والبوريون هؤلاء عنصر تركي ظهر مع قدوم السلاجقة إلى بلاد الشام ، ترافق ظهور هذه الدولة مع الهجمة الصليبية التي أطبقت على ديار الإسلام من أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي .

حيث شهدت البلاد في ظل الحكم البوري ازدهاراً علمياً شمل دمشق مركز الإمارة والمناطق التابعة والمحيطة بها وهي : بعلبك ، حمص ، حماه ، رفنية ، تدمر ، صرخد ، بانياس الداخل المعروفة بالصبيبة ، ومناطق أخرى تفاوتت بين مد وجزر، حيث أحاط بالإمارة البورية الخطر الفرنجي من جهة ، والمحاولات الحثيثة لعماد الدين زنكي وولده نور الدين من جهة ثانية للإطاحة بهذه الإمارة وتوحيد البلاد الإسلامية من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب لطرد الفرنجة الصليبيين وإبعادهم عن ديار الإسلام.

إن دراستنا للدولة البورية ليست دراسة سياسية ؛ بل دراسة حضارية علمية تهتم بتراجم العلماء ورحلاتهم وعلومهم الدينية والعربية والتطبيقية والطبيعية ، مراعين في ذلك حرص الإسلام الأكيد على طلب العلم والسعي لتحقيق مناله .

وقد تم تقسيم البحث إلى أبواب خمسة :

تناولنا في الباب الأول منه نشأة الدولة البورية واهتماماتها العلمية يشكل عام . ثم تم التطرق لجغرافية هذه الدولة ، والمناطق التي بلغتها في أوج اتساعها .

أما الباب الثاني فقد تم التطرق فيه للدوْرالعلمية في عهد الدولة البورية ، حيث دَور المساجد والزوايا والربط والخوانق والكتاتيب والمدارس ، التي زاد عددها على العشرة مدارس ، مراعية المذاهب الأربعة .

فالمذهب الحنفي مثلته المدرسة الصادرية ، والمدرسة الطرخانية ، والمدرسة البلخية والمدرسة المعينية . أما المذهب الشافعي فقد مثلته المدرسة الأمينية ، والمدرسة المجاهدية الجوانية والمجاهدية البرانية، والمدرسة الجاروخية . أما المذهب الحنبلي فمثلته المدرسة الشريفية الحنبلية ، والمدرسة المسمارية .

ولم يكن لأتباع المذهب المالكي مدارس في دمشق ؛ بل لهم حلقات في الجامع الأموي .

ولمكانة المدرسة فقد توفر فيها كادر علمي ضم الفقيه والعالم والمدرس والمعيد والإمام والمقرئ ، إلى جانب فريق يشرف على الشؤون الإدارية والمالية ، خاصة مع بروز دور الأوقاف التي صرف ريعها على المدارس والزوايا والربط ، مما دفع بالحياة العلمية إلى الازدهار .

وتطرق الباب الثالث للعلماء والطلبة ، فبرز دور العلماء في إثراء الحياة العلمية ، ودور الطلبة في النشاط التعليمي .

أما الباب الرابع فقد أفردت الدراسة فيه لازدهار العلوم بأنواعها الدينية من قراءات وتفسير وحديث وعقائد وأصول الدين ، والعلوم اللغوية من أدب وشعر ونثر وحطابة ، وعلمي التاريخ والجغرافيا ، والعلوم التطبيقية والعقلية من طب وصيدلة وهندسة ورياضيات وفلسفة وموسيقى ، وتم التركيز كذلك على حركة الترجمة ، ومكانة المكتبات في تلك الفترة .

أما الباب الخامس فقد تم التطرق فيه لطرق ووسائل التدريس واعتماد أسلوب المناظرة والمحاورة مع الطلبة لسبر معلوماتهم وتدريبهم وتنقيح أذهانهم لإدراك المعلومات والوصول إلى الحقائق بمنهج علمي قويم . ولا شك أن الإجازة العلمية اعتمدت في الحضارة الإسلامية في نطاق الدرجات العلمية . وأخيرا جاءت الخاتمة ملخصة لمضمون البحث .

والحق فإن ملامح النهضة العلمية في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي تجلت بظهور العلماء الموسوعيين في علم الحديث والقراءات واللغة والتاريخ ، فبرز منهم حافظ دمشق ومؤرخها ابن عساكر .

وعلى العموم فقد حرص العلماء المسلمون على الرحلة في طلب العلم وتحصيله من طرقه الصحيحة عبر الوصول إلى العلماء الأفذاذ ، ولم يكن بعد كل هذا من السهل على الطالب أن يجاري أستاذه ، إلا بعد أن يحوز الملكات والقدرات العلمية ، مع المواظبة على الدرس والبحث والغوص في مكنونات العلوم ، لذلك تعين على الطالب في الغالب الحصول على الإجازات العلمية من العلماء مباشرة وبدون واسطة. وفي الواقع فقد غلب على هؤلاء العلماء التطلع إلى التخصص الدقيق مع الإلمام بالعلوم والمعارف الأخرى ، حيث انفردوا بالجمع بين العلوم النظرية والعلوم التطبيقية .

كان هدفي من هذا البحث إعادة صورة الإسلام المشرقة إلى أبنائه لمواجهة التحديات التي تعترض الأمة الإسلامية ،وغرس لبنة في تاريخ الإسلام الحضاري .

هذا ما أمكن لنا إبرازه وتوضيحه عن مكانة الحركة العلمية وازدهارها في فترة الحكم البوري ، وإن كنا قد قصرنا فالأمل إن شاء الله تعالى في المحاولات القادمة .

والله ولي التوفيق

AN ABSTRACT

This research deals with the daily scientific life in Damascus during the stage of Borian State from the year 497 – 549 A. H., the 6^{th}. Century which corresponds to the 12^{th} century from 1103 – 1154 A.B. Those Borian people are a great Turkish Tribe . They have appeared with the advent of the Elslagiga to the country of Elsham. The above state came with the appearance of the Crusaders attack against the Islamic country which happened in the end of the 5^{th} century A.H. / 11^{TH} A.B..

Here the advent of the Borian State in the end of the 5^{th} century and the beginning of the 6^{th} century A.H. is very important. (497-549 A.H/ 1103 – 1154 A.B.) . Hence the state witnessed a scientific progress in Damascus, the center of emirates, with the other surrounding areas such as Ba'lbal, Homs, Hama, rufnea, Palmyra, Surkhad, Baneas Eldakhel which was known as Elsabeea and other more or less areas..where the Borian Emirate was surrounded by the Ferngaian danger from one side, and Emad Eddin AL- Zinki and his son's ,Noureddin fast attempts, on the other side, to undermine the above Emirate and unify the Islamic countries from the utmost north to the utmost south to repel the foreigner Crusaders afar from the Islamic countries.

Really, our study of the Borian State is not political ,it is a scientific civilized one. It interests in the scholars translations, their trips and their religious, Arabic, applied and natural sciences. Taking into consideration Islam definite care of science demand and the effort of realizing its objects.

The research has been divided into five chapters:

In the first chapter we have tackled the establishment of the Borian State and its scientific interests in general. In the second one the scientific role during the Borian State period concerning mosques, prayer rooms, leagues , AL Katateeb and schools which increased to ten .was tackled , but taking care of the four beliefs. Then to identify the above state geography and its other areas in its utmost extension..

- AL HANAFIAH BELIEF is represented by AL- Sadrieh , AL Mu'inieh and AL Balkhieh Schools. .

- AL SHAF'I BELIEF, represented by AL Aminiah , AL Mujahdieh AL Juwanieh, AL-Mujahdien AL Barranieh Schools and AL-Jaroutieh.
- AL HANBALI BEKIEF, represented by AL-SHARIFIEH AL HANBALIEH SCHOOL AND AL MISMARIEY SCHOOL.
- AL MALKI BELIEF HASN'T SCHOOLS IN DAMASCUS, BUT THEY HAD SEMINARS IN OMAYYAD MOSQUE.

But as for the school position, a scientific cadre has been secured included the fakeeh, the scholar, the tutor, AL Imam, the Reader/reciter , beside a team who supervise the financial and administrative affairs, especially, after the appearance of AL AWKAF DEPARTMENTS which their fiancé were spent on the prayer rooms and the leagues. That factor pushed the scientific life towards flourishing.

The third chapter covered the scholars and the students so that we find the appearance of scholars role of enriching the daily scientific life beside the students' educational activity.

Concerning the fourth chapter, the study tackles the progress of sciences of all types including the religious ones, reading and explanation , AL Hadeeth and the beliefs, the religious principles, linguistic sciences such as literature , poetry, prose, oratory, geography and history sciences, applied and mental sciences such as medicine, pharmacy, veterinary medicine, botany, chemistry, mechanics, engineering, mathematics, philosophy and music. Moreover, there was concentration on translation and the library potentiality during the above period.

But the fifth chapter tackled methodology and following dialogue and debate approach with the students in order to probe their information, training and revising and correcting their minds to obtain information

scientific certificate has depended on the Islamic civilization.
Finally we conclude the research. Generally, the Moslem scholars made sure to travel seeking science and obtain it from its right origin via dealing with the brilliant scholars. That wasn't easy to obtain it and the student parallel his teacher, just only after possessing the scientific capabilities and talents, plus attending research and probe the science potentialities. Therefore, the student must, mostly, obtain the scientific degrees directly from the scholars without mediation. In fact, the above scholars have concentrated on the accurate specialty plus the knowledge of the other information and sciences because the have decided to combine between the theoretical and applied sciences.

That is what must be specified about the rank of the scientific movement and its flourishing during the Borian Rule. Moreover, if we have failed , we are hopeful in the forthcoming attempt, by ALLAH WILL.

ALLAH IS THE MOST HELPER

بسم اللـــــه الرحمـــن الرحيـــم

مقدمـــــة :

إنّ الحمد لله وحده ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونتوب إليه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله . أرسله بالهدى ودين الحق ، على فترة من الرسل بشيرًا ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرًا فبلّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة ، فجزاه الله عنا خير ما جزى نبياً عن قومه ، ورسولاً عن أمته ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأنصاره ، والذين اتبعوه وعزروه ونصروه إلى يوم الدين .

إن فترة البحث هذه تعتبر ذات أهمية في التاريخ العالمي ، وأبرز ما يميزها الحروب العدوانية التي شنتها أوربا النصرانية باسم الدين على أرض الإسلام ، فولد ذلك الجهاد الذي جمع شمل المسلمين ووحد كلمتهم في تلك الفترة من الزمن .

خلال هذا الصراع كانت هناك مؤثرات متبادلة بين الشرق الإسلامي والغرب النصراني ، في شتى ميادين الحياة الاقتصادية والثقافية فضلا عن الناحية الحربية . وفي الاعتقاد أن الدولة البورية وإن أهملها بعض المؤرخين ولم يعطوها حقها أو وزنها ، مثل ما كان الحال مع الدولة الزنكية أو الدولة الأيوبية ، لكنها قامت بدور كبير في حركة الجهاد الإسلامي ، وكذلك في النهضة الثقافية والأدبية والعلمية ، التي هيأت للجهاد وأعدت الناس الاعداد الفكري اللازم في تلك الفترة أو المرحلة .

دخل الصليبيون الفرنجة إلى بلاد الإسلام تحت مزاعم دينية وسياسية ، تهدف في المقام الأول ، ضرب الحركة الإسلامية والقضاء على الحكم الإسلامي ، والإستيلاء على الأمامن الدينية المقدسة في الشرق الأدنى .

تميزت تلك الفترة من القرن الخامس والسادس الهجريين / الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين في تاريخ الشرق الإسلامي بظهور جماعة من المسلمين أعادوا للإسلام عزته ووحدته ، كما تزعموا حركة الجهاد ضد الفرنجة ، وهؤلاء هم السلاجقة وأتباعهم البوريون ، أصحاب الفضل في ازدهار الحركة العلمية المهمة في تلك الفترة .

والحق فإن فترة الحكم البوري رغم قصر الفترة ، من أهم الفترات في تاريخ الشرق الإسلامي ، ومن أهم المراحل التاريخية ، لتحقيق الوحدة الفكرية ، التي تعتبر أهم من الوحدة السياسية في مرحلة من المراحل ، كان من الممكن للدولة البورية أن تقوم بدور في الوحدة السياسية ، لولا قصر المدة التي قطعتها ، ومواجهة المخاطر المحدقة بها خاصة الخطر الفرنجي ، ثم مساعي الزنكيين لتوحيد أرض الإسلام مما قصّر في عمر هذه الدولة .

ومما لا شك فيه أن البوريين رسحوا معاني الفروسية والجهاد والحروب ، وأثاروا النخوة والشهامة والمروءة ، فكان الجهاد والنصر المؤزر قد تحقق في (الأدب من نثر وشعر وخطابة وبلاغة وفصاحة) وفي التاريخ بدءا بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وجهاده وحروبه وانتصاراته على أعداء الإسلام .

إن أهم نتائج الازدهار في الدولة البورية التي استمرت أكثر من خمسين عاما ؛ هو اتساع حركة الجهاد الذي هيأت له هذه الدولة ، فكانت الوثبة الجبارة في تحقيق العديد من الانتصارات على الصليبيين الفرنجة الذين دنسوا بقعا من أرض الإسلام .

فإن الحياة العلمية والثقافية في دمشق في ظل الدولة البورية ، هي الفترة الزمنية الفاصلة بين عامي ٤٩٧-٥٤٩هـ/١١٠٣-١١٥٤م . تمثل مرحلة الازدهار الثقافي والعلمي . مع أن الفترة المشار إليها هي مرحلة قريبة من عصر تكوين الإمارات الصليبية ١٠٩٧-١٠٩٩م ، ثم بدء حركة الجهاد الإسلامي ، وقيام عماد الدين زنكي باستعادة الرها ٥٣٩هـ/١١٤٤م

إن فترة الازدهار الثقافي والعلمي خلال العهد يعتبر فترة احتلال ومرحلة صعبة في حياة الإسلام ، ومع ذلك حصل الازدهار العلمي والثقافي . وبالمقابل فإن العهد العباسي على سبيل المثال كان عصر تفكك وانحلال سياسي وانحطاط ، ومع ذلك حصل الازدهار العلمي ، إنها فترة ازدهار الحضارة الإسلامية في القرون الهجرية الثالث والرابع والخامس منها . إذ ليس بالضرورة أن يستتبع ضعف الدولة سياسيا وانقسامها على نفسها ، ضعف الحركة العلمية فيها . لذلك توضح في ظل الحكم البوري ازدهار العلوم خاصة .
وقد تمثل ذلك مع انتشار المساجد ودورها في ربط عجلة التعليم بالزوايا والحلقات ، ترفد المدارس وتسهم في كثرتها وشيوعها ، مما كان له الأثر الفاعل في النهوض بالحركة العلمية . فتعددت مجالات التعليم وتنوعت بالإلقاء المباشر ، أو باعتماد الإجازة أو السماع أو المكاتبة . ونهضت علوم الرياضة والطب والفلك والهندسة .

أما بالنسبة للبحث الذي وقع اختياري عليه وهو جديد كل الجدة لم يتسن لأحد العمل به من قبل وعنوانه (الحياة العلمية في دمشق في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) في فترة ضعف الخلافة العباسية وامتداد نفوذ وجذوة الغزو الفرنجي الصليبي في أصقاع عديدة من بلاد الشام ، يلتهم منها كلما سنحت الفرصة له .

كان الدافع لاختيار هذا البحث ، جديته ، وعدم تطرق أحد من الدارسين إليه ، رغم ما يحمل من متاعب ، حيث تشتت المصادر ، بين المخطوطات والمطبوعات ، إلا أن الرجوع إلى المخطوطات مثّل المشكلة ذاتها ، فقد تناثرت المخطوطات هنا وهناك ، مع صعوبة تناولها ، حيث يغوص الدارس إلى الركب بحثاً عنها ، في أقبية مكتبة الظاهرية ومكتبة الأسد في دمشق ومكتبات أخرى في مناطق أخرى .

ومن أبرز عقبات البحث صعوبة قراءة بعض المخطوطات ، بعد تجاوز صعوبة الحصول عليها ، إما لسوء الخط ، أو لانعدام التنقيط ، فينغلق معها المعنى ، وتوضيح الفكرة ، وقد لقينا مثل هذه المشقات مع مخطوطة تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر .

ولقد لقيت مشقة كبيرة في جمع المادة العلمية ، التي تتمثل بدراسة مركزة ، تستدعى فرز تراجم علماء الإسلام للفترة المقررة والأماكن التي درسوا بها أو تنقلوا عبرها . فهنالك تراجم الوفيات في كتب خاصة بها ، وتراجم حسب الموضوعات ، مثل تراجم المحدثين وطبقاتهم، وتراجم الفقهاء وفق المذاهب الأربعة (فبرزت طبقات الحنفية ، والمالكية ، والشافعية ، والحنابلة) ، وتراجم لعلماء القراءات ، وتراجم لعلماء التفسير والمفسرين وطبقاتهم ، وكتب الأصول وعلوم الدين ، وتراجم علماء العربية من النحاة واللغويين والأدباء والشعراء والخطباء ، وأبرز تلك الكتب معجم الأدباء لياقوت الحموي ، بالإضافة لتراجم طبقات الحكماء والأطباء والصيادلة وتراجم علماء الهندسة والفلك ، والرياضيات والكيمياء وتراجم وردت في كتب التاريخ العام أو الخاص بمدينة محددة للأعيان في شتى العلوم والاختصاصات ، منها ، كتب السير وتراجم الرجال ، وكذلك تراجم الجغرافيين العلماء ، وكتب علم الكلام المخطوط منها والمطبوع .

لقد توخيت الاستفادة من المصادر الأصلية التي كتبها المعاصرون للحدث ، وعملت على مقارنة ما جاء فيها ، مع ما ذكرته المصادر الأخرى للوصول إلى الحقيقة والصواب ، إضافة إلى الاستفادة من غيرها بقدر ما تسمح لنا به هذه المصادر . أما المصادر المتأخرة ، فلم نعتمد عليها ، إلا حين التعذر عن الوصول إلى المصادر الأصلية ، أو لتوفر معلومات لديها هي من صميم البحث ، أو تفرّدت هذه المصادر بذكرها . وهكذا يمكن الإفادة منها كسند قوي وداعم .

لقد كان عملي مع هذه التراجم ، كمن ينقّب أو يبحث عن ثقب في وسط القاع ، حيث توجّب علي جمع هذه التراجم وغربلتها ، سواء من كتب المخطوطات ، أو المطبوعات ، والتوفيق بينها وفرزها في المجال العلمي المحدد لها، ثم إجراء دراسات مقارنة لتبيين أي العلوم كان له سبق الأفضلية على غيره في دمشق وما يحيط بها .

ولا شك أن علماء الأندلس أبدعوا في علم القراءات و علم النحو ، وشاركهم في ذلك الإبداع النحوي علماء من العراق والشام ومصر. فكان لا بدّ من تتبع الدور الذي تركه هؤلاء العلماء ، ورحلات طلبة العلم إليهم وأماكن تعليمهم . إن هذه المادة العلمية التي ما زلت أعمل بها صُنعت أو تكاد تصنع من ساعات عمل يومي طوال . قضّت مضاجعي في مكتبات دمشق وحلب ، فهنا أرى كتباً وكذلك هناك ، لكن الذي أثقل كاهلي العمل بالمخطوطات ، التي واصلتُ الجهد معها في غرف خاصة على جهاز الميكروفيلم في مكتبة الأسد ، أو مخطوطات غَصّت بها أقبية مكتبة الظاهرية . وإني لأشكر العاملين في تلك المكتبات على كافة المساعدات التي قدموها لي في هذا المجال .

لقد سعيت أن أكون موضوعية قدر الامكان، في إتباع منهج استقرائي تحليلي وموضوعي مع منهج وصفي سليم ، وأن أنسب المادة العلمية إلى مصادرها وأشخاصها لا أمقتهم حقهم بأمانة يقتضيها منهج البحث العلمي .

كان هدفي من هذا البحث ، إعادة صورة الإسلام المشرقة إلى أبنائه ، لمواجهة التحديات التي تعترض هذه الأمة ، وقد ساعدني عملي في مواصلة القراءة والتحري عن المعلومة العلمية والخوض في هذا البحث دون كلل أو ملل ، السعي لوضع لبنة سليمة في تاريخ الإسلام الحضاري ، وإعطاء انطباع علمي وأخلاقي سليم عن حضارة الإسلام للأجيال القادمة . واقتضت إبراز النتائج التي خرجت بها رسم صورة ثقافية علمية سليمة عن حضارة الإسلام ، مستخرجة بصعوبة بالغة تعتمد على الفكر والمعاينة الدقيقة بعيداً عن الأهواء .

لقد اعتمدت في رسالتي هذه على مجموعة كبيرة من المصادر والمراجع ، كان بعضها شديد الصلة بالموضوع يغطي كامل فصول الدراسة ، وبعضها الآخر يغطي بعض جوانب الموضوع . ولقد رأيت من المفيد افتتاح الرسالة بعرض لأهم المصادر التي استقيت منها مادتي ، وهي متنوعة من حيث المواضيع .

تضمنت المصادر والمراجع المعتمدة في البحث فهرسة تفصيلية . وقد اعتمدت في ترتيب المصادر مراعاة مايلي :

أولاً : المصادر التاريخية الحولية : منها
الكامل في التاريخ لابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد الجزري ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)
ولد ابن الأثير في جزيرة ابن عمر من أعمال الموصل ، من أسرة عملت في خدمة الملوك ، عاش في البلاط الزنكي ، ونشأ نشأة علمية أرستقراطية ، اشتمل كتابه الكامل في التاريخ على ثلاثة عشر مجلداً ، استهله بنشوء الخليقة حتى الفترة التي سبقت وفاته ، يعتبر كتابه خير ماُألف في الحوليات لغزارة مادته ، وجمعه أخبار الشرق والغرب ، وتراجم كبار الأعيان والرجالات والعلماء في نهاية كل سنة ، واعتمد تبويباً حسناً وأسلوباً شيّقاً ولغة واضحة . اعتمد في تدوين تاريخه على الثقة من الرجال ورواة الأخبار ، ومن أهم المصادر التي استقى منها معلوماته ، مؤلفات الطبري وابن عساكر والأصفهاني محمد ابن محمد العماد الكاتب صاحب الخريدة . ولابن الأثير كتاب آخر هو التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل . أرخه لملوك الموصل من أسرة عماد الدين زنكي ، يمكن الاستفادة منه في المادة السياسية على وجه الخصوص .

ثانياً : تاريخ المدن : ومن أبرز من أرّخ في تاريخ المدن ابن عساكر ، وابن القلانسي . نبدأ أولاً بابن عساكر الذي عاصر الدولة البورية والدولة النورية والدولة الأيوبية ، وقد توفي قبل وقعة حطين ٥٣٨هـ/١١٨٧م بسنين عديدة .
١ – تاريخ مدينة دمشق : ابن عساكر(أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي الدمشقي ت ٥٧١هـ/١١٧٥م)
كتاب في ثمانين مجلدة في تراجم الأشخاص رتّب ترتيباً على النهج الأبجدي للأسماء . يبدأ الكتاب أولاً بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم التعريف بمدينة دمشق . وعلى الرغم من أن الكتاب مخصص لمدينة دمشق ، إلا أنه مخصص لتاريخ بلاد الشام والعالم الإسلامي بشكل عام . فهو تاريخ حضاري يترجم فيه ابن عساكر ، لكل من قطن دمشق أو أقام بها ، أو مرّ في طريقه إليها ، وتتّضح شدة موضوعيته في نقل الرواية باعتماد السند . وقد خصص المجلدة الأولى والثانية من كتابه لفضائل دمشق ، فقدم دراسة طبوغرافية تاريخية عن المدينة واستوفاها وصفاً ، ذاكراً أسواقها وحماماتها وخاناتها وقنواتها ومساجدها وأنهارها ، فأعطى صورة حيّة عن دمشق في أيامه ، وقدّم صوراً اجتماعية مثيرة أثناء تراجمه للأشخاص ، كما تحدث عن الرحلات التي قام بها علماء عصره .
وقد استفدت من كتابه فيما أشار إليه من تراجم النساء ، وقد قدم لنا صورة استعرض فيها دور المرأة في مجتمعها ، سواء في التعليم أو التعلم أو الوعظ أو الإصلاح أو الاهتمام بالعمران والبناء . وكذلك استفدت منه في تركيزه الكبير على علم الحديث وخاصة السماع والإجازة والمناولة وكل ما يخص

المحدثين من سند ومتن وسلسلة رواة .

٢ – ذيل تاريخ دمشق : لابن القلانسي (حمزة بن أسد أبو يعلى التميمي ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) الأديب الشاعر المؤرخ . من أسرة دمشقية عاصر فترة الحكم البوري ، لذلك يعتبر شاهد عيان عن ذلك العصر إضافة إلى أنه من كبار رجالات الدولة البورية . أسهم عمله في ديوان الإنشاء ، إضافة إلى علو ثقافته ، اهتمامه بالصنعة والمترادفات ، فرئاسته لهذا الديوان جعلته عارفاً بدقة أخبار الوقائع والأحداث ، إلى جانب كونه مطلعاً على الوثائق الرسمية بمختلف أنواعها . قدم في كتابه وصفاً عن دمشق منذ سنة إحدى وأربعين وأربعمائة حتى وفاته ، معتمداً على روايات الثقات ، باحثاً ومستقصياً عن الحقائق لإثباتها ، واصفاً أحوال الدولة البورية من كافة الجوانب ، مشيراً للمعاهدات المبرمة بين البوريين والفرنجة ، وتطرق لتراجم رجالات عصره .

ثالثاً : كتب الرحلات : ومنها

١ - رحلة ابن جبير (محمد بن أحمد الأندلسي ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)
ولد في بلنسية بالأندلس وتلقى علومه فيها ، ثم قام برحلة واسعة إلى مشرق العالم الإسلامي ، وجمع ملاحظاته ومشاهداته عن المدن والبلاد التي مرّ بها . ويعتبر كتاب الرحلة أشبه بمذكرات يومية سجل فيه ملاحظاته ومشاهداته ، والكتاب من المصادر الهامة في فترة البحث .

٢ - رحلة ابن بطوطة : تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار :
(أبو عبد الله محمد اللواتي الطنجي ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)
يعتبر ابن بطوطة سيد الرحالة المسلمين العرب ، سعى كغيره من الرحالة لنقل معلومات دقيقة وأمينة ، لا تستند إلى السماع فقط بل تعتمد المعاينة والمشاهدة الدقيقة ، تطرق في كتابه لأخلاق أهل دمشق وعاداتهم ، وتطرق لفئة المغاربة في دمشق وطريقة التعليم في الجامع الأموي ، وقارن بينها وبين طريقة أهل الأندلس ، وقد لفت ذلك نظر الرحالة الأسبق ابن جبير .

٣ - معجم البلدان : ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)
معجم جغرافي في خمسة مجلدات ، مرتب على حروف المعجم ، يتحدث عن المناطق والمدن والقرى والوديان والجبال والأنهار وغيرها ، مما اشتملت عليه البلاد الإسلامية ، اهتم المؤلف بذكر موقع المدينة وأحداثها الهامة ، جمع الكتاب بين التاريخ والأدب ، والطرف والنوادر ، وقد اعتمد المؤلف الموضوعية والدقة المتناهية والأمانة ، مستنداً فيما يعتمده على المصادر التاريخية والأدبية والرواية الشفهية ، وتتضح مشاهداته الشخصية من كونه تاجراً كان يتنقل بين البلدان .

رابعاً : كتب الأدب : ومنها إلى جانب دواوين الشعراء المبرزين في فترة البحث، ابن الخياط وابن منير وابن القيسراني وأسامة بن منقذ وآخرون ، سوف نركز على كتابين هما كتاب الاعتبار لابن منقذ وكتاب الخريدة للأصفهاني:

- خريدة القصر وجريدة العصر :

(محمد بن محمد العماد الكاتب الأصفهاني ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)

عاصر حكم نور الدين محمود بن زنكي وكذلك صلاح الدين الأيوبي ، وشهد ارتداد الهجمة الفرنجية الصليبية عن أراضي الإسلام . وهو من المؤرخين والأدباء المعاصرين لفترة البحث ، وقد غلبت عليه الموضوعية ونسبة المصادر إلى أصحابها . وكتابه الخريدة كتاب أدبي وسجل وثائقي لحياة العصر الفكرية ، وهو مقسم إلى أقسام عديدة ، قسم خاص بشعراء الشام ، وقسم خاص بشعراء مصر ، وقسم خاص بشعراء العراق ، وقسم خاص بشعراء المغرب ، والذي يهمنا هنا شعراء الشام ، والكتاب على أهميته الأدبية نراه يضم مادة سياسية وعسكرية واجتماعية هامة جداً ، وقد أفادني كثيراً بغزارة معلوماته الأدبية بشكل خاص .

- كتاب الاعتبار: أسامة بن منقذ الشيزري (ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)

أبو المظفر مؤيد الدولة أديب شاعر ، نشأ في شيزر ، أمضى معظم شبابه بمصاحبة الملوك والأمراء ، وخاصة أمراء الدولة البورية والزنكيين .لذلك يعتبر مؤرخ الحروب الصليبية و كتابه يمثل مذكرات تصور الحياة السياسية و الاجتماعية التي عاشها أسامة ، وهي تصور الأحداث الكبرى ، والنوادر الطريفة ، ويعتبر وثيقة هامة لأن أديبنا عاصر الأحداث عن كثب ، فصور لنا الصراع مع الفرنجة الصليبيين ، وبرز في الكتاب أسلوبه الأدبي الرفيع . ولأسامة كتب أخرى عديدة أخذنا منها ما يخدم البحث ، منها كتاب العصا بأسلوبه البديع وبلاغته المنيفة .

خامساً : كتب علوم الدين : سنأخذ على سبيل المثال لا الحصر أحد كتب الإمام الغزالي ، و هو كتاب إحياء علوم الدين :

(لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م)

والكتاب في أربعة أجزاء يبحث في الأمور الدينية وخاصة العبادات ، فتطرق لعلوم الفقه والأصول والحديث والتفسير ، وقد قدم لنا معلومات رفدت البحث وأمدته ، وللغزالي مؤلفات أخرى في المنطق والأصول ردّ فيها على تيار الفلاسفة ، حتى قيل إن الغزالي أغرق نفسه بالأسلوب الفلسفي، أثناء رده على الفلاسفة ، حتى منطق علم الأصول .

والغزالي هذا عاصر دولة السلاجقة وسلاطينها العظام ألب أرسلان ، ملكشاه كما عاصر وزيرهم نظام الملك ، الذي قربه منه ودعاه للتدريسفي النظامية ببغداد . وكذلك عاصر عمر الخيام ، والحسن بن الصباح زعيم الحشاشين في قلعة ألموت في فارس، لذلك يعتبر الغزالي نتاج النهضة السلجوقية .

وتمشياً مع ضروريات قواعد البحث ، في تقسيمه إلى عدة أبواب وفصول ، ضمن إطار منهجي محدد ، ترتسم معه ملامح البحث . لذلك سأفرد بالتعريف لكل باب على حده .

الباب الأول : و يتناول نشأة الدولة البورية واهتماماتها العلمية . يتحدث الفصل الأول عن نشأة الدولة البورية ، بينما يتحدث الفصل الثاني . عن اهتمام الدولة البورية بالعلم والتعليم .

أما الباب الثاني : فهو يتعلق بالدُوْر العلمية في عهد الدولة البورية ، وهو يشمل فصلين. الفصل الأول يتكلم عن مكانة وأهمية المساجد والزوايا والربط والخوانق ، والأوقاف ومؤثراتها العلمية . و الفصل الثاني يتحدث عن الكتاتيب والمدارس .

أما الباب الثالث : فيهتم بالعلماء والطلبة ، وهو في ثلاثة فصول . الفصل الأول ويهتم بدَور العلماء في إثراء الحياة العلمية . أما الفصل الثاني ، فيهتم بالطلبة ونشاطهم التعليمي . وتضمن الفصل الثالث الحديث عن التصوف ومؤثراته التعليمية .

أما الباب الرابع : فقد أفردت فيه الدراسة لازدهار العلوم وأنواعها وذلك في خمسة فصول . الفصل الأول وتضمن العلوم الدينية ، بينما شمل الفصل الثاني العلوم اللغوية ، واهتم الفصل الثالث بعلم التاريخ والجغرافية وبحث الفصل الرابع العلوم التطبيقية والعقلية ، وركز الفصل الخامس على حركة الترجمة ومكانة المكتبات .

أما الباب الخامس: فتم التركيز فيه على المناهج وطرق التدريس والإجازة العلمية ، في فصلين ، الفصل الأول وتضمن وسائل التعليم وطرق التدريس ، أما الفصل الثاني وشمل الإجازة والدرجات العلمية . ثم تم التطرق للخاتمة .

وسوف نفصّل الحديث في كل باب على حده لإعطاء صورة توضيحية وتقريبية عن البحث .

تمهيـــــد :

حض الإسلام على طلب العلم والسعي من أجل مناله ، فبرزت مجالات من العلوم عديدة ، وأبرز هذه العلوم ، العلوم الشرعية أو النقلية ، وتشمل علم التفسير والحديث والفقه والأصول وغيره ، وهناك علوم العربية من شعر ونثر وخطابة ، والعلوم التطبيقية ، من طب وصيدلة وكيمياء وفلك ورياضيات وفلسفة الخ ...

وهكذا نلاحظ أنها شملت العلوم النقلية والعلوم العقلية ، هذه هي الفترة التي تميزت فيها العلوم وتم فيها التصنيف ، فهي فترة ازدهار الحضارة الإسلامية في المشرق فيما مضى قبل القرنين الثالث والرابع الهجريين ، حيث كانت العلوم تدرس كتلة واحدة ، ممتزجة من من تفسير وحديث وفقه ، وما يستلزمها من لغة وأدب ، كان جميعها يلقى في درس واحد غير ذي فروع أو أقسام .

فالعلوم في عهد الراشدين والأمويين كان نواتها القرآن الكريم والحديث الشريف ، منها يستنبط الفقه ، ومنها يبحث في مسائل النحو . ولما جاء العصر العباسي تم تمييز العلوم ، حيث جمعت مسائل كل علم على حدا ؛ بل وضعت المسائل المتشابهة تحت باب واحد .

ثم ظهر إلى جانب النواة الدينية نواة أخرى تجمعت حولها العلوم الدنيوية ، وهي نواة الطب ، فتكونت حول هذه النواة العلمية دراسة الطبيعة والكيمياء والمنطق وغيرهم . وبذا نجد نوعين من الدراسة في العهد العباسي : ١- دراسة دينية حول القرآن والحديث . ٢- دراسة دنيوية حول الطب وما يدور حوله . ولكل نوع من هذين النوعين مميزات خاصة ومنهج في البحث . وواضح أثر كل منهما في الآخر . وقد عبّر ابن خلدون عن هذين النوعين بقوله : (العلوم صنفان : صنف طبيعي الانسان يهتدي إليه بفكره ، وصنف يأخذه عن من وضعه) وهذا بلا شك ساعد في تطور مناهج البحث العلمي ، وهذه هي فترة ازدهار الحضارة الإسلامية أي فترة البحث الذي في متناول أيدينا وما قبلها بقليل .

مثلت حضارة الإسلام أعظم حضارة شهدها العالم أجمع في العصور الوسطى حتى باعتراف الباحثين الغربيين بذلك . ففي هذه الفترة التي بلغت فيها الدولة الإسلامية بصفة عامة والدولة البورية بصفة خاصة ، درجة سامية من الرقي الحضاري في الآداب والعلوم والفنون ، في الوقت الذي خيم فيه الظلام والجهل على أوربا ، وحين أفاقت أوربا من سباتها ، وجدت نفسها أمام بناء إسلامي عربي شامخ ، فهرع طلاب العلم والمعرفة من غرب أوربا إلى مراكز الثقافة الإسلامية في الأندلس وصقلية وبلاد المشرق .

وكما أشرنا ففي فترة ضعف الأوضاع السياسية للدولة الإسلامية في المشرق وما استتبعه من نشاط كبير في الحركة العلمية الفكرية ، لم تكن الأندلس في القرنين

الرابع والخامس الهجريين تمر بفترة ضعف سياسي كما في المشرق ، مما أتاح لهذا الموقع الاستقرار ، ثم ازدهار الحركة العلمية والثقافية ، ولما بدأت تلوح في الأفق بوادر الضعف السياسي في الأندلس بسبب النزاع الإسلامي الإسلامي ، والنزاع الإسلامي مع الفرنجة الصليبيين ، بدأ علماء الأندلس في كافة فنون المعرفة يتوجهون إلى المشرق الشام والعراق ومصر .

كان صدى النهضة العلمية الإسلامية قد اتضح سابقا في بلاطات الدول أو الدويلات التي ظهرت في المشرق والمغرب، وهذا يعني أن فترات ازدهار هذه النهضة العلمية متقاربة إلى الحد البعيد ، وإن كان المشرق قد سبق المغرب في ذلك ، لأن موطنه أرض الحضارات الإنسانية ألا وهي الحضارة الإسلامية .

وعلى كل خال فإن أول العلوم الإسلامية العلوم الشرعية ، وتشمل علم القراءات والتفسير ، أما علم القراءات فقد لقي اهتماماً خاصاً لدى العلماء ، وتوجب على المشتغل بهذا العلم ، حسن الإطلاع على معاني القرآن الكريم ، ليتمكن من تلاوة الجانب المخصص منه بتركيز وأناة . وقد اعتمد القرآن الكريم على القراءات العشر والقراءات السبع، وقد أخذت دمشق بهذا العلم منذ وقت مبكر ، واعتمدت قراءة عاصم ، وقد حمل الأندلسيون معهم إلى الشام علم القراءات إلى جانب غيره من العلوم الأخرى كالنحو وما شابه ، وقدموا في علم القراءات كل ما لديهم من تفوق ونبوغ ، فكانوا المعلمين الكبار ، منهم ابن الطحان الأندلسي (ت ٥٥٩هـ/١١٦٣م)، قيل إنه لم يكن بالمغرب الإسلامي قاطبة أعلم منه بالقراءات .

ولمع نجم علماء الأندلس أيضاً في التأليف والتصنيف في هذا الفن ، لمعرفتهم في وجوه القراءات وإجادتها وإتقانها . ضم الجامع الأموي شطراً منه لقراءة القرآن الكريم بشكل يومي ، عقب صلاة الفجر ، حيث يتم قراءة سبع من القرآن الكريم ، أما حلقات تدريس القرآن الكريم للطلبة ، فكان يتم بأن يجتمع اثنان أو ثلاثة من الطلبة ، ويأخذون على مقرىء معين القرآن الكريم . ولما حل القرن الخامس الهجري ظهرت في دمشق مدرسة متخصصة للقرآن عرفت بدار القرآن الرشائية .

وقد برع علماء الأندلس في علم التفسير إلى جانب أهل البلاد . وتفرد بعض العلماء بعقد مجالس خاصة في التفسير قد يسفر المجلس الواحد عن مجلدة واحدة في التفسير .

كان تدريس النحو يتم في المسجد أو البيت ، يَقدم الطلبة إلى بيت العالم للدراسة عليه . وقد دّرس علي بن أحمد بن قبيس الأندلسي(ت ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م) في بيته بدرب النقاشة بدمشق ، ونلاحظ من المثال السابق أن علماء الأندلس برعوا في النحو والأدب وفنون العلوم الأخرى ، وبرز منهم محمد بن سعدون العبدوي (ت ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م) وطارت شهرة أهل العراق في علم النحو وبرز منهم عمر بن إبراهيم بن محمد الكوفي النحوي اللغوي الفقيه المحدث توفي٥٣٥هـ/ ١١٤١م.

ولا شك أن علوم اللغة العربية تأتي بالدرجة الثانية بعد العلوم الدينية ، ويضم علم الأدب الشعر المنظوم المستند إلى القافية ، وكذلك النثر غير الموزون ، وكذلك علم العروض الذي يعطي الشعر قوامه و عموده ووزنه .

والشعر ترجمان الخيال المصور لأشجان النفس وأفراحها ووقارها وطيشها . لعب الشعر فترة الحكم البوري دوراً كبيراً في الحركة الجهاد ية ، فأولى الأهمية والعناية لشعر الجهاد ، كانت أقلام الشعراء سلاحاً مصلتاً على رقاب الفرنجة الصليبيين ، حيث رسموا في أشعارهم وصوروا الأحداث السياسية وما يجرى فيها من مآس وأمور صعاب ، صوروا المعارك بدقة متناهية ورسموا صورة الفرنجي بالشكل الرث القريب للقذارة مع الاستخفاف والهجاء المتلاحق والمتواصل . فغدى الشعر وثيقة اجتماعية سياسية تاريخية ، إنه رؤية حية لما يحدث ، تمكن الدارس من استخلاص المعلومات والقيم الهامة . وقد تطرق الشعراء عامة إلى أغراض شعرية عديدة منها المدح والذم والرثاء والوصف ، وكان التركيز على شعر الجهاد حيث وصف شعر هذه المرحلة المعارك بين المسلمين والفرنجة مصوراً حالتي النصر والهزيمة ، فهو يستهين ويستهزىء بنصر الفرنجة ، بينما ترتسم علامات الإشراق والبطولة والإقدام والشجاعة لدى تصدي المسلمين لأعدائهم الكفرة .

امتدح شعراء الدولة البورية جهود المسلمين لمواجهة خطر الفرنجة والتصدي لهم ، فكان منهم ابن الخياط الدمشقي وعرقلة الكلبي وهما من دمشق ، وأسامة بن منقذ الشيزري ، وابن القيسراني وابن منير وهما وافدان على الإمارة . ومن أبرز هؤلاء الشعراء ابن الخياط الشاعر المطبوع على الفطرة والسليقة ، الفصيح المتمكن ، جزل الألفاظ واضح المعاني ، امتلك القدرة على المدح والرثاء في آن معاً ، وخاض في فنون الوصف والتغني بالطبيعة ووصف جمالها ، ويرى الناظر في مراثيه اقتباس آثار أبي تمام الشاعر المعروف وديوانه بشكل عام سجل حافل بحياته ، سطّر فيه الوقائع والحروب والفروسيات والتأملات والحنين والمعاناة ، واتصف شعره بالضياء والبهاء والصفحات المشرقة المضيئة .

ولمع أيضاً عرقلة الكلبي كان حسن الشعر ، حلو المنادمة ، لطيف النادرة ، شعره قريب من القلب ، لكنه كان شيخاً خليعاً ، يستظرف الهجاء ، اعتز الشاعر بشعره وكان يصف ويقرن نفسه بكبار الشعراء ، تميز بالمدح والهجاء والوصف والرثاء والفراق .

ومن الشعراء الذين وفدوا إلى الإمارة البورية ، الشاعر الفارس المقدام الشجاع أسامة بن منقذ رجل المراسلات والمعارك والمصائب لأنه فقد أسرته الكبرى في زلازل شيزر ، ثم أصابته نوائب الهر حين عمّر و مات أولاده في حياته، صاحب الشعر الجيد المجيد ، غلب على شعره الحنين والألم والفراق للأحبة .

ومن الشعراء أيضاً ابن القيسراني ، تنقل في البلاد بعد سقوط عكا بيد الفرنجة ، وسكن دمشق ولمع نجمه بها ، كان صاحب ديوان شعر معروف ، وأدب مترسل بليغ ، تميز بملاحة المعاني والتطبيق والتجنيس ، وطرق أبواب الشعر ، ونجح في ذلك نجاحاً كبيراً، كان ابن القيسراني وابن منير جرير وفرزدق عصريهما في الهجاء . أشار بشعره إلى الواقع السياسي المؤلم ، فتغنى بالبطولات والأبطال ، وامتدح القادة الفرسان ، أمثال عماد الدين زنكي ونور الدين محمود بن زنكي وغيرهما ، غلب على شعره الجزالة والصلابة في الأسلوب والمعنى ، طرق باب الغزل والمديح والوصف ، ساعدت رحلاته وتنقلاته في غزارة مادته الشعرية وإثرائها .

وتميز ابن منير الطرابلسي الشاعر ، ذا الشعر الحسن والنظم المهذب ، كثير الفخر بشعره ، غلب على شعره كثرة الهجاء ، وقد عرّضه ذلك للسجن مراراً ، حتى عزم أمير دمشق بوري بن طغتكين مرة على قطع لسانه ، لولا تدخل أحد أعوان الأمير ، فأنقذه ونفي خارج دمشق ، لكنه عاد إليها ثانية بعد موت الأمير البوري . لم يقتصر هجاءه على الأمراء ، بل شمل أيضاً العلماء ، فهجا العالم الفقيه برهان الدين البلخي .

كانت المباريات الشعرية والمعارضات الأدبية سجالاً بينه وبين ابن القيسراني ، كل فريق يهجو الفريق الآخر . وصف ابن منير في أشعاره فتح المدن والقلاع ، وتحدث عن سقوط القتلى والجرحى والأسرى في المعارك ، كما صوّر الحياة العامة التي يعيشها بحلوها ومرها . ارتبط الشعر بعلم العروض ، لمعرفة صحيح الأوزان من سقيمها وفاسدها .

ازدهر علم النثر في ظل الحكم البوري ، وانبرى الكتّاب للخوض في غماره ، موجهين أقلامهم نحو الفرنجة ، مستخدمين أساليب الاستخفاف والهزىء ، وكان من أبرز الكتّاب المهذب الدمشقي ، وأبو طالب محمد اليمني ، كان نثره كالدر النظيم بالمنطق السليم ، بأسلوب سهل رائق جزل . أما أبرز كتاب الدولة البورية على الإطلاق فهو حمزة بن أسد أبو يعلى القلانسي الدمشقي ، الفاضل الأديب المسترسل المتميز بكتابتي الإنشاء والديوان في دمشق .

أما الخطابة فهي الشعر المنثور ، الذي يحرك العواطف ويوقظ الشعور ويثير النفوس ، لاغنى عن البلاغة فيها ، تقيم القوم وتقعدهم . واحتاج عصر الجهاد الذي نتناوله ، أمثال هؤلاء الخطباء ، ليثيروا في النفوس النخوة والشهامة والمروءة . والخطيب البارع هو الذي يعرف كيف يعّد لكل مقام مقال . ومن خطباء الدولة البورية محمد بن علي بن المسلم السلمي الدمشقي . ولمع صيت بعض قرى دمشق ، التي خَرّجت كبار العلماء في هذا الفن ، منهم أحمد بن الحسن بن أحمد أبو العباس الكفرطابي (ت٥٧٠هـ/١١٧٤م) خطيب سقبا من ضياع الغوطة ، أقام خطيباً في الناس ستين سنة . وجمع بعض العلماء بين منصب التدريس ومنصب الخطابة ، ولم يكن في ذلك أي حرج .

و اعتنى المسلمون بعلم التاريخ عناية فائقة ، وقد بدأ حرصهم على هذا العلم ، مع بدء تدوين سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبار الغزوات والفتوحات . كان الاعتماد قد انصب أولاً على الروايات الشفوية ، ثم برز مؤرخو السيرة والمغازي ، وكذلك مؤرخو الوقائع الإسلامية ، ثم برزت كتب الحوليات ، وكتب الأنساب ، وكتب الدول ، وكتب المدن ، وكتب التراجم ، وكتب الطبقات ، وبرزت التواريخ المطولة منذ بدء الخليقة وحتى عصور إسلامية متأخرة . وقد دون المسلمون العرب تاريخهم بدقة متناهية قل أن يجاريهم في ذلك أحد من الأمم .

وألف ابن القلانسي كتابه ذيل تاريخ دمشق ، وميزة المؤلف كسابقه ، أنه من معاصري الدولة البورية ، ومن كتاب الديوان لديها ، رسم في كتابه الإسلامي أحداث موجزة سابقة لعصره ، ثم تطرق بعد ذلك لأبرز الأحداث في دمشق ، واستند في تدوين كتابه على محفوظات الديوان بدمشق ، التي كان يعمل فيها ، وكان على تماس مباشر معها . إن كتاب ابن القلانسي هو نموذج للأدب التاريخي المتميز ، حيث العبارة الموجزة والأحداث المجملة ، ساعده على ذلك إلمامه بالأدب ، ومعرفته الجيدة للشعر ، الذي استشهد به كثيراً، وأقحمه لينطق عنه في العديد من الأحداث في صيغة الاستعارة .

ولمع اسم أسامة بن منقذ الشاعر الأديب المؤرخ المعروف ، تميز بكتابه الاعتبار ، الذي يمثل تسجيلاً أرشيفياً لعصره ، حيث تطرق فيه للفروسية والجهاد والحروب والنكت والنوادر وأخبار الصيد ، والغالب أن معظم كتبه التاريخية قد فقدت وضاعت .

أولى المسلمون العرب علم الجغرافية اهتماماً كبيراً، وقد زار دمشق في عهد الدولة البورية الرحالة الجغرافي الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد الحسني الطالبي (ت٥٦٠هـ/١١٦٥م) كان حلقة اتصال بين جغرافيي الإسلام وجغرافيي الفرنجة .

أما الفلسفة فهي علم يبحث بما وراء الطبيعة ، ويعرف بعلم المنطق أو الحكمة ، وهو علم تميز به اليونان . تأثرت الفلسفة الإسلامية بالمتغيرات السياسية ، وكانت موضع عناية لدى بعض الحكام . أما علم المنطق الوثيق الصلة بالفلسفة فهو مشتق من نطق ينطق نطقاً ، ويقصد بالمنطق النظر من قبل آلة الفكر في المعقولات . ويشمل علم المنطق العلوم النظرية والعلوم العقلية ، وقد سعى الإمام الغزالي جهده لمناظرة الفلاسفة، الذين اتخذوا الطريق غير الإسلامي في مسلكهم ، فرد على منطق أرسطو الوثني بكتابين هما : (معيار العلم) ويرى فيه أن العقل هو القسطاس المستقيم والمعيار القويم . وكتاب (محك النظر)

طرق الغزالي أبحاثا فلسفية وثيقة الصلة بالدين ، فعكس فلسفته بالنور اليقين ، وناقش فكرة الزمان والمكان وأزليتهما من دون وجود إله صانع لهما ، يتميز بالديمومة والأزلية والقدم بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير . والغزالي في هذا المجال ليس إلا وافد زائر قدم إلى دمشق في فترة قريبة من حكم الدولة البورية وبثّ علومه في منارة الجامع الأموي .

أما علم الفلك فيبحث في النجوم ومدارها في السماء ، وفي الكواكب وحركاتها ومواقعها وأسباب تغير مظاهرها وأمكنتها . وقد توجه الإنسان بنظره نحو السماء ومجراتها مستفسراً عن سر وجودها ، فاعتقد بداية أنها نهاية سوداء للكون محتوية على مصابيح تختلف في درجة لمعانها واستمر على ذلك فترة طويلة مسلماً بما يرى . ولكن الإنسان استطاع أن يستدرك الحقائق الفلكية فيما بعد .

وقد جعل المسلمون العرب علم الفلك علما استقرائيا ، يقوم على المشاهدة والاستنتاج ، ولم يقفوا فيه عند النظريات ، بل اطلعوا على الكتب القديمة فهضموها ، وعملوا على تصحيح ما يستوجب تقييمه منها . وطهّر المسلمون العرب علم الفلك من أدران التنجيم ، وقد ميزوا بين علم الفلك المنهجي القائم على أسس البحث العلمي التطبيقي ، والتنجيم القائم على الغرض العشوائي المستخف بعقلانية الإنسان مستغلاً جهله وتخلفه ، وعملوا له الأزياج ، وكان الذي دفع لهذا العلم ، معرفة القبلة واتجاهها ، ورؤية الهلال .

وقد اهتم بهذا العلم في فترة الحكم البوري العالم الفلكي أبو الفضل بن عبد الكريم المهندس (ت ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م) وقد ألف كتابا في معرفة رمز التقويم ، ووضع مقالة في رؤية الهلال ، ولكن على ما يبدو فإن مؤلفاته قد ضاعت . وتميز في هذا الفن أيضا الطبيب المهندس الفيلسوف الفلكي ابن الصلاح (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م) ترك مقالة في الشكل الرابع من أشكال القياس الحملي .

وكذلك برز أبو المظفر سعيد بن محمد بن عبد الله النيسابوري إزاء ما ذكرنا اندفع المسلمون العرب في البحث عن دوران الفلك. وأقام العلماء المسلمون المراصد الفلكية في دمشق وغيرها من المواقع لرصد الفلك الخارجي في فترة الحكم البوري .
أما علم الطب فيبحث في جسد الإنسان وحالته وبنيته الصحية والمرضية ، لالتماس سلامة الجسم من الأمراض أو العلل .

وقد حارب الإسلام السحر والشعوذة ، ورفض ربطه بالطب . وللطب أهمية ذات خصوصية متفردة في فترة الحكم البوري ، حيث برز أطباء العيون ، الكحالون المتميزون ، والجراحون أساتذة العالم في ذلك الوقت ، وكان من أبرز أطباء العهد البوري رضي الدين الرحبي ، وأبو الحكم عبيد الله بن المظفر الباهلي الشاعر الطبيب الذي ربط في منهجه التطبيق العملي في المشافي أو البيمارستانات ، مع الدراسة النظرية خلف مكتب الأستاذ تحيط به كتب الدراسة والبحث الملزم ، تحيط به حلق الطلبة .

وانتشرت المستشفيات أو المشافي في عهد الدولة البورية ، وكان بعض هذه المشافي معروفاً قبل الحكم البوري ، فكان هنالك البيمارستان القديم ، والبيمارستان الدقاقي ، وبيمارستان باب البريد والبيمارستان الصغير ، وتدخل ضمن المشافي العامة . وعرفت أيضاً المشافي الخاصة بالمساجين و المشافي المتنقلة . وقد ساد المشافي نظام الهدوء ومراعاة راحة المريض ، وتأمين وسائل التسلية خاصة في طور النقاهة . وعُرفت الدور الخاصة بالأمراض المعدية ، وأمراض الجذام .

أما علم الصيدلة فقد وضع المسلمون أسسه ، وأسموه الأقرباذين ، وقد صنعوا أنواعا عديدة من العقاقير ، وامتازوا بمعرفة كيفية استخدامها ، وغالبا ما نصحوا بعدم التداوي بالأدوية ما أمكن الاستغناء عنها بالأغذية وقد نادى بها سابقا ابن سينا والرازي . وكان الطلب على الدواء يكثر مع انتشار الأمراض والأوبئة ، ومن أبرز صيادلة فترة الحكم البوري عمر بن علي ابن البذوخ ، كان لديه دكان عطارة باللبادين بدمشق يجلس فيها ويعالج من يأتي إليه .

ولقي علم الكيمياء رواجاً كبيراً لدى المسلمين ، وكان يسمى عندهم بعلم الصنعة . وقد تواصلت المحاولات واستمرت لتحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب ، حتى سلك البعض طريقاً لتحويل النحاس إلى ذهب أصفر بإيقاد النار عليه .وأقيمت لهذا العلم المعامل والتجارب الخاصة به . وأُدخلت الكيمياء في المجال العسكري ، وطُورت عبرها أساليب لهدم أسوار وقلاع الفرنجة . ورغم حذق الكيميائيين وبراعتهم في صنعتهم ، إلا أن الكثيرين أنكروا عليهم ذلك ، وتشدّدوا على آرائهم التي تقول بتحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب أو فضة ، وظن البعض أن الكيمياء تستخف بالمعارف العلمية ، وتلجأ إلى الحيل بعيداً عن المعرفة وضبطها .

لمع تاريخ الطب البيطري أو كما يعرف بعلم الحيوان ، في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وقد رحب الإسلام بالاهتمام بالخيل وأكد على دراسة أنسابها وأمراضها ، واحتياجاتها الغذائية ، والدافع للاهتمام بالجياد والخيول ، أهميتها في الجهاد والقتال ضد الأعداء ، وقد وجد في دمشق دار للخيل .

وتميزت العلوم الرياضية ولقيت أهمية كبيرة ، في فترة الحكم البوري ، والرياضيات علم بقوانين استخراج مجهولات عددية من معلومات مخصوصة ، فقد اطلع المسلمون على حساب الهنود وأخذوا منه نظام الترقيم وهذبوه ، وكونوا منه سلسلتين عرفت إحداهما بالأرقام الهندية والثانية بالأرقام الغبار ية .

تميز المسلمون بعلم الجبر حتى غدا علماً إسلامياً ، وقد طبقوا الجبر على الهندسة وجمعوا بين العلمين ، في حل بعض المسائل الرياضية ، وبذلك يكون المسلمون ، قد وضعوا أساس علم الهندسة التحليلية ، مما ساعد على ظهور علم التكامل والتفاضل . ويبحث علم الهندسة أيضاً في أحوال المقادير من حيث التقدير ، أدرك المسلمون أهمية الهندسة وأثرها على الإنسان ، فالنظر في الهندسة يؤدي إلى الحذق في الصنائع والمساحة ، وقد استفاد المسلمون من ثقافات القدماء ، ثم أظهروا شخصيتهم العلمية ، وعملوا على تصحيح الأخطاء بدقة ودخل علم الهندسة في المساحة ومسح الأراضي .

وبرز في ذلك المضمار الحسن بن الحسن بن أحمد بن أبي الفضائل الكلابي الماسح (ت٥١٧هـ/١١٢٣م) . ولمع نجم دمشق في فن الهندسة البنائية ، فكان بناء المساجد والمدارس والحصون والقلاع وأسوار المدن والقصور ، ودخلت أيضاً في هندسة المياه وتوزيعها في الأقنية الحلوة والمالحة إلى الطوالع والبيوت والمجاري بطرق فنية متقنة .

أما الموسيقى فهي فن رياضي يبحث في أحوال النغم من حيث الإتقان والتنافر. ولما مال المسلمون إلى الترف وغلب عليهم الرفه ، صاروا إلى مضارة العيش ، فكثر المغنون ، وكثرت المعازف والمزامير ، وتعددت آلات الموسيقى وتنوعت منها : الدف والطنبور والعود والرباب والناي والصنوج والأرغون والقيثار .

وقد استخدمت الموسيقى دواء روحياً للمصابين بالأمراض النفسية . وقد عرفت الموسيقى في العهد البوري وبرز موسيقيون برعوا بصناعة الآلات الموسيقية . فقد صنع أبو المجد ابن أبي الحكم أرغناً وكذلك صنع أبو زكريا يحيى البياسي أرغناً للعب به. ومن الموسيقيين الذين درّسوا الموسيقى في العهد البوري ابن النقّاش ، فقد دَرس عليه البياسي . ولا يمكن فصل الموسيقى عن الغناء في العهد البوري ، بسبب

وصول الموالي ، ونشر المغاني في البلاد . وقد وقف العلماء والزهاد من الغناء موقفاً حاسماً ، لأنه يُذهب المروءة وينقص الحياء ويفتك بالأدب ، وقد حرمه العديد منهم .

أما حركة الترجمة فقد أظهر المسلمون العرب اهتماماً كبيراً ورعاية فائقة للثقافات والعلوم القديمة كاليونانية والسريانية والهندية والصينية ، وقد نشطت الترجمة في العهد الأموي وتواصلت في العهد العباسي . وهي تهتم بنقل المعارف والعلوم والثقافات الأعجمية إلى اللغة العربية . تمت عملية الترجمة عبر مراحل عديدة منها : الاستنساخ والتصنيف والمطالعة والتسويد والتبييض والمعارضة والبحث والنقل والتعليق على ما يلزم . وقد سهلت الترجمة انسياب الكثير من الكلمات والمصطلحات الضرورية في مجال العلوم. وهكذا فإن حركة الترجمة واصلت ازدهارها في زمن الحكم البوري .

مثلت المكتبة الإسلامية جامعة ثقافية متكاملة ، فقد غدت مدارس للتعليم ،ومدارس ينفق عليها رجالات البلاد الكبار لنشر العلم بين الناس . كانت الكتب تنسخ على أيدي أناس نساخين متخصصين لهذا العمل .ولما كان الكتاب من الصعب على الإنسان العادي اقتناءه ، لذلك يُسرَ له الأمر عن طريق الاستعارة لتتم الفائدة والمصلحة . أتحفت المكتبة الإسلامية بكمّ هائل من الكتب ، ساعد على إثرائها المؤلف والمترجم والمنقح والمهذب ، فظهرت المكتبة المتخصصة ، في العلوم الدينية والأدبية والتاريخ والجغرافية والفلسفة والفلك والطب والرياضيات .

لم يظهر في دمشق مكتبة متخصصة على شاكلة مكتبة بغداد ، إلا أن ما أوقف على الجوامع والمدارس والمستشفيات من خزائن الكتب ، يؤكد عناية أهل المدينة وحتى العلماء بذلك الفن . وقد ضمت مكتبة الجامع الأموي نفائس الكتب .

نلاحظ مما سبق أن المسلمين يحق لهم أن يفخروا بإنجازهم العلمي المكتبي ، وابتكارهم الفنون العديدة كفن الفهرسة ، وقد امتلكوا في علم المكتبات ، فهرستان وجامعتان ، واهتموا بالمكتبات العامة والخاصة إضافة إلى الكتب .
وهكذا نشطت الحركة المكتبية الإسلامية ، تأليفاً وتصنيفاً وتبويباً وفهرسة ، ورسّخ وقف الكتب وإعارتها ، دعائم الحضارة الإسلامية التي تميزت بالإبداع بالعظمة .

حكمت الدولة البورية في الفترة الحرجة من تاريخ الإسلام ، حيث الغزو الفرنجي الصليبي قد أحدق ببلاد الشام ، في هذه الفترة لمع نجم الدولة البورية في دمشق ، في الموقع القريب من الفرنجة الصليبيين . و البوريون عنصر تركي حكم دمشق وما يحيط بها ، من الفترة الواقعة ما بين ٤٩٧ـ ٥٤٩هـ/١١٠٣ـ١١٥٤م .

في الحقيقة ابتليت الأمة الإسلامية في هذه الفترة بابتلاءات كثيرة منها :
١- ضعف الدولة العباسية وانقسامها إلى دويلات كثيرة .
٢- بروز الدولة الفاطمية ومحاولات التوسع ونشر المذهب الشيعي .
٣- انهيار وتفكك الدولة السلجوقية .
٤- ظهور خطر فرقة الحشاشين في العالم الإسلامي ، وقيامهم باغتيال العديد من قادة العالم الإسلامي .
٥- ظهور الخطر الفرنجي المحدق ومحاولات التوسع في المنطقة الإسلامية.

لكن صمود الدولة البورية ، ومكانة دمشق ، واهتمامها بالعلم والعلماء ، ساعد على ازدهار الحياة العلمية على كافة الصعد سواء العلوم الدينية أو العلوم الأدبية أو ازدهار الندوات والمجالس العلمية ، وانتشار الثقافة الإسلامية ، ودور المساجد في بث الوعي وبناء المدارس ، ومكانة التصوف والصوفية ، ودور المرأة العلمي ن كل ذلك كان بمثابة غذاء روحي هيأ لحركة الجهاد ضد الفرنجة الصلبيين .

كانت أوضاع البلاد في الفترة السابقة للحكم البوري في غاية من الاضطراب والفوضى ، خاصة مع تدهور النفوذ الفاطمي ، الذي كان قد أخضع الشام لنفوذه ، لكن الصراع اشتعل بين أفراد البيت الفاطمي ، فمهد ت تلك الأوضاع للسلاجقة ، فاجتاحوا بلاد الشام ، واستخلصوها من الفاطميين . وتولى أمر دمشق تاج الدولة تتش السلجوقي ، ولما توفي تصارع ولداه ، دقاق في دمشق ، ورضوان في حلب ، للهيمنة على المنطقة ، وباءت محاولات رضوان بالفشل للوصول إلى دمشق . (١)

أثناء هذه الأوضاع المتأزمة ، لمع نجم طغتكين ، الرجل العسكري المعروف لدى السلاجقة ، فقدم وطرح خدماته على السلطان دقاق بن تتش ، فعينه مقدماً للعسكر ، ولما مات دقاق تسلم طغتكين الأمور ، وأعلن قيام دولته الجديدة ، وسط التيارات المتهالكة المتصارعة المحيطة به من كافة الأطراف . (٢) ومع ذلك بدأ يتوسع على حساب مجاوريه ، مستغلاً حنكته ومهاراته العسكرية ، وأساليبه المراوغة في التعامل مع الأحداث ومع الجوار فضم بعلبك ، ورفنية ، وحماه ، وحمص ، وبانياس الداخل . أما موضوع البحث الأساسي فيتعلق بالحياة العلمية ومكانتها في دمشق وما يجاورها من المدن ، والاهتمام بالعلم والعلماء ، والتخصصات التي برع فيها علماء الإسلام ؛ من علوم الدين وعلوم الأدب ، إلى العلوم الطبيعية والتطبيقية . وقد صنف المسلمون العرب العلوم كما يلي : علوم.

==

(١) ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة بن أسد) ذيل تاريخ دمشق تحقيق د. سهيل زكار ط١ دمشق دار حسان للطباعة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص ٢١٤-٢١٥
(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢١٢-٢١٣-٢١٤

تتصل بالقرآن الكريم ، وتسمى العلوم الشرعية أو النقلية ، وتشمل علوم القراءات والتفسير، والحديث والتشريع والفقه ، والنحو والأدب. إضافة إلى العلوم التطبيقية والعملية.

كان تلقي العلوم ينحصر في دُور ممثلة بالكتاتيب لتعليم الصغار ، ثم المساجد والجوامع لتعليم الكبار . مثلت المساجد المدرسة الأساسية والأم للتعليم ، وغدت مراكز مهمة لبث ضياء نور العلم ، وبث أنوار الهداية والرشاد . ضمت حلقة الجامع الواحد عالماً أو اثنين أو ثلاثة ، يتحلق حولهم الطلبة لتعليم العلوم الأساسية ، والعلوم المساعدة ، التي تهيىء لفهم نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، بالإضافة إلى التخصصات الأخرى . ثم تتابع تعليم العلوم في المدارس لاحقاً ، لتحتل المدرسة موقعاً وحيزاً كبيراً إلى جانب المسجد . وهكذا قامت المدرسة ، وغلب على الدراسة فيها ، الطريقة المتبعة اليوم للمرحلة الثانوية والعالية . ثم برز إلى جانب المدارس ، الربط والخوانق والزوايا ، والحلقات والندوات والمناظرات والسماعات والإجازات .

كان للندوات والمجالس العلمية أكبر الأثر في نشر الثقافة ، وذيوع العلم وارتقاء الذوق العلمي في الأوساط الثقافية ، فقد تنوعت هذه المجالس ، ونافست المساجد والمدارس ، ومثلت مظهراً رائعاً من مظاهر اليقظة الفكرية . كانت تلك المجالس والندوات التي يحضرها الخاصة ، وكذلك العامة ، أشبه بالمباريات العلمية والأدبية ، حتى بلغ الشغف بالعلم والظمأ إليه ، ينُم عن مدى ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية من رقي وبهاء . ويمكن للمجالس الموما إليها ، أن يحضرها العلماء والفقهاء والأدباء ، لكن الظاهر أن الصبغة الأدبية غلبت عليها في بعض الأحيان .

أما المواد المدّرسة ، فكانت تتمثل بعلوم القرآن الكريم والتفسير ، والحديث والفقه وعلوم العربية ، وعلوم الطب والهندسة ، والحساب والفرائض ، والفلك والكيمياء وغيرها . وقد بُهر ابن جبير ، حين زار دمشق ، ورأى النهضة العلمية فيها لهم طرق البحث والعلم والدراسة . (١) ، وقد أثاره احتضان دمشق لطلبة العلم الغرباء بصورة خاصة ، الذين لا يقعون تحت حصر ، وقد انبثوا في الجوامع والمساجد والمدارس والزوايا ، ورُصدت لهم جملة من الأوقاف ، التي تؤمن لهم المطعم والملبس والمسكن والمشرب ، وكل ما يهيىء لهم طرق البحث والعلم والدراسة .

لا شك أن الشمولية وتوسع التخصصات العلمية ، التي تميز بها العلماء المسلمون ، قد أنضج فكر الحضارة الإسلامية العربية ، وحولها إلى موقع الإبداع والابتكار، في كافة مجالات العلوم والمعرفة ، وغذى المكتبة الإسلامية والعربية ، بفيض من المعارف ، التي زخرت بمكنون ما يمتلكه العقل الإسلامي المتنامي .

==

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير دار صادر للطباعة دار بيروت ١٣٧٩هـ|١٩٥٩م نسخة أخرى ص ٢٥١ - النعيمي : (عبد القادر بن محمد) الدارس في تاريخ المدارس تحقيق جعفر الحسني مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٨م ج٢ ص١٥١

مثلت الربط والخوانق مراكز علمية عالية ، ومقرات للعبادة لدى الصالحين ، وقد برز من الخوانق ، الخانقاه الدويرية في درب السلسلة بباب البريد ، جانب أسوار دمشق . ويرى البعض أن تلك الخانقاه هي أقدم ما عُرف من مراكز الصوفية في دمشق ، وهنالك الخانقاه السميساطية ، وقد بنيت لتكون مأوى للفقراء ، (١) وقد قصدها العلماء من كل حدب وصوب ، إلى جانب ما احتضنته الدار من الطلبة والغرباء ، وممن توجه إليها الإمام الغزالي ، وتميزت ولمعت زاوية الشيخ نصر المقدسي ، التي تحول اسمها ليصبح الزاوية الغزالية ، نسبة للإمام الغزالي الذي استقر فيها عدة سنين .

هذا وللأوقاف مكانة أخرى في نشر التعليم في الإمارة البورية . فقد تركت مؤثرات كبيرة على ازدهار النشاط العلمي ، وشجعت على تواصل الرحلات من خلال ما سعت لتأمينه من خدمات للطلبة ، في المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمرتب ، الذي لاغنى عنه في وقت الضائقة التي تلحق ببعض الطلبة ، وهكذا دخلت الأوقاف في ظل الإسلام ، في نطاق البر والتقوى ، وأُنشيء بسبب الوقف ما لا يحصى كثرة من المساجد والمدارس ، والمشافي والحمامات ، والقصور والفنادق ، والطواحين والأفران ، لتأمين المصلحة العامة للمجتمع .

والوقف في اللغة حبس الأصل وتسبيل الثمرة ، وهو مورد ثابت لا يدفع المستفيد منه إلى العوز أو الحاجة لأحد . كان الأمراء والأغنياء والتجار ، يتسابقون في بناء المساجد والمدارس والزوايا والربط ، وإقامة الوقف عليها ، لكي يبقى استمرارها ويتم المحافظة على استقرارها . ومن المساجد التي أقيمت عليها الأوقاف في دمشق ، مسجد الوزير المزدقاني ، كما كانت أوقاف مسجد الأقدام بدمشق كثيرة . كان إقبال الطلاب على الأوقاف كبير جداً ، حيث جعلوا بيوتهم في المدارس أو الربط . ولما بنيت الخانقاه السميساطية ، دفع بانيها جزءاً من أوقافها الكثيرة على من يختم القرآن الكريم على قبره كل جمعة مرة .

ومن المساجد التي أقيمت عليها الأوقاف في دمشق ، مسجد الوزير المزدقاني ،(٢) كما كانت أوقاف مسجد الأقدام بدمشق كثيرة . (٣) كان إقبال الطلاب على الأوقاف كبير جداً ، حيث جعلوا بيوتهم في المدارس أو الربط . ولما بنيت الخانقاه السميساطية ، دفع بانيها جزءاً من أوقافها الكثيرة على من يختم القرآن الكريم على قبره كل جمعة مرة .

---

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير دار الكتاب اللبناني ص١٩٥-١٩٧
- سبط ابن الجوزي : (أبو المظفر شمس الدين يوسف) مرآة الزمان مخطوط مجمع اللغة العربية دمشق ب ١٩٤٤ ج٨ ص٨٣

(٢) ابن جبير : رحلة ابن جبير دار الكتاب اللبناني ص١٩٥-١٩٧

(٣) SAUVAGET REPERTOIRE CHRONO FRANCALIS LOGIQUE DEPIGRAPHIE ARABE DELINSTITUT P.8 P 206

أثار ابن جبير ما رأى في المشرق من كثرة المساجد والمدارس ، والغلات الوافرة ، التي تغلها الأوقاف ، هذا غير ما يوقف على طلاب العلم ، وتابع ابن جبير ، فَمن رغب الفلاح من أبناء المغرب ، فليرحل إلى هذه البلاد ، حيث سيجد من الأمور المعينة على طلب العلم الشيء الكثير ، ذلك فراغ البال من أمر المعيشة .(١)

أما الحديث عن أعمال دمشق ، وما كان يرصد فيها للمساجد والمدارس والربط، فلا حصر له ، وقد تم إيراد أمثلة كثيرة في ثنايا البحث عن مكانة الأوقاف ، وأهميتها في دفع النهضة العلمية المترامية في فترة الحكم البوري . والحديث عن دمشق وكثرة أوقافها ، لا حصر له ، حيث تجاوزت الأراضي الزراعية إلى العقارات وغيرها . كان وقف المدرسة الأمينية كبير جداً ، لدرجة أنها سميت بحق الذهب . (٢)

تميزت الترب والمشاهد بأوقافها أيضاً ، فقد بنت صفوة الملك خاتون ، والدة دقاق أمير دمشق ، تربة ومشهداً مؤبداً محرماً ، لا يباع و لا يشترى ، وتحل اللعنة من الله تعالى ، على مَن يحاول تبديل أو تغيير شيء فيه . وتواصل الوقف أيضاً من قبل العلماء ، يوقفون أموالهم ، وممتلكاتهم ، وكتبهم ، على المساجد والمدارس والزوايا والربط والخوانق .

أما المدارس فقد انتشرت في الشام ، في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وكانت أول مدرسة قد أسسها رشأ بن نظيف بن ما شاء الله الدمشقي، وجعلها داراً للقرآن الكريم ، ثم تلاحقت المدارس وفق المذاهب الأربعة . (٣)

وكان لبناء المدارس أكبر الأثر في تطور الحياة العلمية واتساعها ، لما قدمته للطلبة من دعائم تفيدهم في تلقي العلم ، فيدفعهم ذلك للنزوع إلى البحث والدارسة على العلماء والاستقاء من معينهم . ولا ينكر ما تركته الدولة البورية من مؤشرات الاهتمام بالعلم ، فأنشأت بعض المدارس وساعدت في بناء المساجد

ولما كان للمدارس أهميتها العلمية ، فقد تنوعت واتخذت أسماء عدة موافقة ومتمشية مع مذهب العالم ، فكانت مدارس على المذهب الحنفي ، مذهب الدولة البورية ، منها المدرسة المعينية ، والمدرسة الصادرية ، والبلخية ، ومدارس أخرى. وانتشرت مدارس الفقهاء الشافعية ، وأبرزها المدرسة الأمينية ، والمدرسة المجاهدية .وعمت مدارس الفقهاء الحنابلة ، منها المدرسة المسمارية ، والمدرسة الحنبلية . وقد لقي الحنابلة العنت الشديد من السلطات ، حيث سعت لمنعهم من إنشاء

---

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير نسخة أخرى ص٢٥٨

(٢) النعيمي : (عبد القادر بن محمد) الدارس في تاريخ المدارس تحقيق جعفر الحسني مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٨م ج١ ص١٧٧-١٧٨

(٣) العلموي : مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس تحقيق د.صلاح الدين المنجد مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٧ ص٧

مدارس خاصة بهم ، إلا أن المحاولات باءت بالفشل .(١) أما المالكية ، الذين يمثلون العلماء والطلبة الغرباء ، القادمون من المغرب والأندلس ، فلم تكن لهم مدارس خاصة بهم ؛ بل اقتصر تناول التعليم ، لدى الأئمة المالكية على زوايا خاصة بهم داخل الجامع الأموي وفي المساجد الأخرى والربط.(٢)

دفع الإهتمام بالمدارس ، إلى جلب النخبة المثلى من العلماء ، المقرئين ، والمحدثين ، والفقهاء ، ممن يعوّل عليهم تنشئة الطلبة الدارسين ، فكان العالم لا يخرج من مدرسة إلى أخرى ، إلا لفائدة ترتجى في ازدياد الإقبال على العلم . كانت المدارس تلقن العلوم الدينية ، والعربية ، والتطبيقية ، وهذا يدل على تنوع العلوم والمعارف التي كانت تُدرّس .

واقتضى وجود المدارس ، تأمين أساتذة يشرفون على تدريس الطلبة ، مع مساعدين لهم يعيدون على الطلبة ما لحق بهم من مصاعب ، وربما يمهّد المعيد للأستاذ ما سوف يقرره على الطلبة من محاضراته المحددة . أما الباب الثالث فهو في خمسة فصول ، فقد تم البحث فيه عن أبرز العلوم المدرّسة في العهد البوري ، وعلى رأسها علوم الدين ثم العربية والتطبيقية .

فقد درّس الفقه والتفسير وعلم القراءات والحديث . كما تم تدريس العربية من أدب وشعر ونثر وخطابة . بالإضافة إلى علمي التاريخ والجغرافية . واشتمل الفصل الرابع على العلوم التطبيقية من طب وهندسة ورياضة وفلك ، وأبرز العلماء المتمكنين في هذا المجال ، ثم اشتمل الفصل الخامس على أهمية الترجمة والمكتبات في النصف الأول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي .

وهكذا ضمت المدرسة الفقيه والمدرس ، والمعيد والمفيد ، والإمام والمؤذن ، والخادم والقيم ، والبواب والفراش . وتضمنت المدارس وظائف عديدة منها : وظيفة المقرىء ، وهو العالم بالقراءات السبع أو العشر ، المتقن لها، المجود في فنها ، والمأذون له بتدريس الطلبة ، حيث يعلمهم ضبط قراءة القرآن . أما المعيد ، فهو الذي يعيد على الطلبة ، ما يقرره الأستاذ في الحلقة ، وغالباً ما كان المعيد عوناً للمدرس ، يعيد على الطلبة الدرس ، بعد انتهاء المدرس من إلقاء درسه ، ولا بدّ للمعيد أن يكون مرهف الحس ، لديه انتباه شديد لتفهم الدرس من الأستاذ ، وتفهيمه للطلبة، مع تقديم النصح والإرشاد لهم .(٣)

وهنالك كاتب الغيبة : وهو المسؤول عن تسجيل أسماء المتغيبين من الطلبة ،

==

(١) ابن رجب الحنبلي (أبو الفرج عبد الرحمن): كتاب الذيل على طبقات الحنابلة تحقيق ونشر هنري لاووست سامي الدهان دمشق ١٣٧٠هـ/١٩١٥م ج١ ص ٢٣٨

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) تحقيق سكينة الشهابي ١٩٨١م ص٢٩٦

(٣) ابن جماعة(أبو إسحق إبراهيم): تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم نشر محمد هاشم النوري جمعية دائرة المعارف العثمانية طبع ١٣٦٣هـ ص٢٠٤

عن حضور الدروس ، فيقوم الكاتب برفع أسماء المتغيبين إلى ناظر الوقف ، الذي يتولى إدارة أموال وقف المدرسة ، فيشطب ويحسم لكل طالب على قدر تغيبه ، إلا إذا كان الغياب قد ربط بعذر مقبول . ومن المسؤولين عن المدرسة أيضاً ، نائب الناظر الذي يعينه الناظر ، لينوب عنه في أعماله . وهنالك المشرف الذي يتولى الإشراف على نظافة المدرسة . (١)

وهناك أيضاً شيخ المدرسة ، وهو رئيسها ومديرها العالم ، وتوفر في المدرسة أيضاً ناظر المكتبة ، المسؤول عن حفظ الكتب ، وترتيبها وإعارتها ، ومتابعة إعادة المستعار من الكتب إليها ، وفتحت كل مدرسة غرفة للمدرس ، وأكثر من غرفة للطلبة ، وغرفة للمعيد ، وتوفر المصلى ، والمطبخ ، وكان لكل علم قسم خاص به (٢).

لقي العلماء في فترة الحكم البوري خاصة وفي ظل الإسلام عامة ، كل اهتمام ورعاية وتقدير ، وكانت شهرة العالم تسبق العالم نفسه ، بفضل الجهود التي أودعها عمقه الذهني ، وطريقة التدريس التي يسلكها ، والمعارف الواسعة التي يقدمها ، والشمولية في فنون العلوم التي يمتلكها ، حتى لقد عملت عدة مدارس في العالم الإسلامي على انتداب خيرة العلماء ، فقد نُدب الإمام الغزالي للتدريس في المدرسة النظامية ببغداد .

كما نُدب الفقيه علي البلخي ، التوجه من دمشق إلى حلب ، لتفقيه أهل المدينة . وكان للواقف دور في هذا المجال ، لربما أصدر أمراً بتعيين فلان العالم في مدرسة أنشأها ، وقد يقوم ببناء مدرسة خاصة بعالم بعينه ، فقد بنيت المدرسة البلخية في دمشق خصيصاً للعالم الإمام الفقيه علي البلخي .(٣) ولا يخفى أن لعلماء الأندلس المالكية الدور الأكبر في نشر علوم القراءات والتفسير والعربية ، وفي ترسيخ أركان التعليم في الشام . ولا ننسى ما كان للمغاربة من مكانة وحظوة لدى أهل دمشق ، فقدّروهم حق قدرهم واحتضنوهم وجعلوا لهم القربى على كل وافدٍ ، فتمسك هؤلاء بالشام لتكون مقاماً وسكناً لهم .

عقد العديد من العلماء مجالس العلم ، في أوقات متعددة أيام الجمع ، هذا مع العلم أنه لم يكن يجلس للتدريس إلا من شهد له الشيوخ والعلماء بالكفاءة . وإذا أساء المدرس التدريس ، واعتمد طرائق منهجية سيئة ، فإن ذلك غالباً ما كان يعرّضه للعزل والمنع من التدريس في تلك المدرسة أو سواها .

يعدّ القرن الخامس والسادس الهجريين ، قرن العلماء الكبار ، أمثال الحافظ ابن عساكر وحجة الإسلام الإمام الغزالي ، والحافظ السمعاني ، وكُثرٌ جاهدوا لنشر العلم دون أجر . وسعى الإمام الغزالي لتطبيق نفس المسعى في أواخر أيامه .أما الحافظ

---

(١) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ط١مؤسسة الكتب الثقافية بيروت١٩٦٨ص٦٨

(٢) السبكي : معيد النعم ص٦٨

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط نسخة مصورة عن المكتبة الظاهرية ترتيب الطرهوني ج١٢ص٢٠

ابن عساكر فقد شغف بالتدريس لايبتغي سوى مرضاة الله تعالى .
وكان للنساء العالمات دورهن في ازدهار الحركة العلمية وترسيخها ، عبر الإهتمام بالتعليم والتلقين . وقد سلكن طريق العلماء في العلم عبر الرحلة والبحث العلمي ، وقد درس الكثير من العلماء على عالمات فاضلات ، منهن آمنة بنت محمد ابن الحسن القرشية (كانت حية ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م)وقد تلقى ابن عساكر جُلّ علومه على أمثال تلك العالمات ، اللواتي زدنَ على ثمانين عالمة في مروياته . (١)
وهكذا تركت الدولة البورية إسهامات كبيرة في نشر العلم ، والحض على التعليم ، بتهيئة المناخ المناسب لذلك عبر المدارس ، وتقديم العطايا وجذب العلماء ، وتكليف البعض منهم بالمهام الصعبة ، وكذلك الضغط على بعض العلماء ، كي يرسموا صورة حسنة عن الدولة البورية ، لدى رعيتها ، متجاوزين المفاسد والمظالم التي لم يسكت عنها هؤلاء العلماء في الغالب .
إن تحقيق العلوم وتحصيلها بالبراهين الحقيقية ، مما ينبغي على طالب البحث أن يأخذه بعين الاعتبار ، مع الحرص على تصفح مبادىء هذه العلوم والتحقق من مضامينها ، خصوصاً في كتب الأصول والهندسة والمنطق . إن اهتمام المسلمين العرب بما لديهم من تخصصات علمية ، يمثل نوعاً من الغذاء الروحي للعلماء والمفكرين ، ولا مندوحة أن العلوم الرياضية تستوجب رغبة العقل في تحرّي المعرفة وطلب الحقيقة ، سواء في علوم الهندسة أو الجبر الرياضي ، أو الطب لا سيما أن العقل الإسلامي لم يولد من الفراغ ، بل بمشاركة علوم الدين والتاريخ ، لذلك شارك هذا العقل في صنع التاريخ بالعودة إلى الينبوع ، لاستمداد المعرفة ، واستخلاص الحكم والقوانين ، فكانت التجربة العلمية قد جرت بانسياب لا مست فيه المنهجية النقدية ، وأكدت على الأسلوب التحليلي العلمي ، وهذا ما دفع بالحضارة الإسلامية إلى الازدهار في كل مجالات العلوم ، دونما استثناء ، وثبّت لها موقعها على مدى القرون .
وأولت الدولة البورية العلماء والطلبة كل عناية ، فكان ذلك بعيد الأثر في تصاعد النهضة العلمية ، حيث حدد نظام تعليمي صارم يخضع له الطلبة ، ينتقل فيه الطالب من مرحلة الكتاتيب إلى مرحلة المسجد أو المدرسة ، ويمكنه أن يصبح طالباً نظامياً ، يتقيد بنظام المدرسة المعتمد ، أو أن يتحول إلى طالب غير نظامي يتلقف الدروس من العلماء في المساجد وغيرها .
وحين يرغب الطالب النظامي أن يستكمل دراسته ، فإنه يستطيع بمطلق حريته أن يختار العلماء الذين يرغب نهل العلم منهم ، على مدار العام ، ليخضع بعد ذلك لامتحان في مجال الدارسة التي تخصص بها ، فيعطى إجازة بعد نقاش يدور بينه وبين أستاذه في كتاب معين . ولا يمكن للطالب أن يحصل على الإجازة عشوائياً ،

---

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص ٤٩-٥٠

بل لا بد له من الدرس والتأني والتدقيق والفهم والتحليل ، حيث يخضع لمساءلة عن دقائق الأمور ، وبعد اختبارات عدة يمنح الإجازة عن كفاءة واستحقاق وجدارة على ضوء ما يرتئيه العالم الممتحن له .

كانت بدايات التعليم تشمل مراحل أربعة ، المرحلة الأولى المكتب ، المرحلة الثانية الجامع ، والمرحلة الثالثة مجالس العلم والأدب ، والمرحلة الرابعة المدرسة . أما مرحلة الكتاب ، فتمثل اليوم المرحلة الابتدائية ، ويعلم فيها الطفل القراءة والكتابة والنحو والشعر والحساب ، بالإضافة لأخبار العرب . وقد امتدح ابن جبير طريقة تعليم الصبيان في دمشق حين زارها ، ورأى أن تلك الطريقة التي يقوم فيها المعلم بتلقين الولد كتاب الله تعالى ، وتعليمه الخط بيده - حتى يخرج صورة عن خط معلمه - يعتبر أنجع من طريقة التعليم لدى المغاربة . (١)

انقسم طلبة العلم إلى فريقين : فريق ينقطع لطلب العلم خالصاً منصرفاً عن أعمال الدنيا ، يمضي الساعات الطوال في مجالس العلماء ودروس الفقهاء ، وفريق آخر جمع بين العلم وأعمال الكسب ، يندفع لطلب العلم من وقت صلاة الفجر ، إلى ما بعد شروق الشمس بساعة ، ثم يعاود من بعد صلاة العصر ، إلى ما بعد غاية ثلث الليل الأول . وتوجب على الطلبة الرحلة في طلب العلم لتحصيل العلوم والمعارف أما السماع على العالم ، فيكون عاماً على الملأ . (٢)

لم يكن العلم في الحضارة الإسلامية العربية حكراً لفئة على حساب أخرى ، فكان لأسلوب تكافؤ الفرص الدور الكبير في استيعاب أكبر نسبة من الطلبة لتلقي العلم ، وإذا أخذنا في الاعتبار ما نعرفه عن وضع الإمام الغزالي ، الذي فقد والده صغيراً ، فإن الأوقاف وسياسة التعليم المعتمدة قد أسهمت في شدّ عوده ، وجعله عالماً له ميزانه واعتباره في عصره. والإمام الغزالي هو مقياس لدينا في الحديث عن أمثاله .

كانت علاقة الأستاذ بتلميذه ، تمثل علاقة الأب بولده ، فالأستاذ : هو العالم والمربي والمعلم والمؤسس ، وغالباً ما خرج الطلبة صورة عن أساتذتهم ، فيثير ذلك لدى العالم الغبطة والسرور ، فيدنيه منه ويقربه إليه ، وربما ربطه به بالنسب . ويتوجب على المعلم ، أن يدفع الدارس نحو المادة العلمية ، حتى يتلقاها طالب العلم بالسرور . ولابد للمعلم أن يودع في طلبته مكنون علمه ، وفيض ذهنه ، وأن يفتح لهم أبواب المناقشة والمناظرة والحوار ، والابتعاد عن أسلوب الشغب ، واعتماد أسلوب التكرار والشرح قدر الامكان ، لأنها تؤدي إلى تمكين المادة العلمية من عقولهم . ولا يجوز أن يقول للطلبة هل فهمتم ، بل يلين لهم جانبه ، ويتفحص بمقدرته ، هل فهم الطلبة المادة الملقاة عليهم أم لا ؟

---

(١) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٩١ - ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص٢٧٥
(٢) العلموي : المعيد في أدب المفيد والمستفيد ص٥٥

كانت مناهج تعليم الطلبة تعتمد في الغالب على :

١ ـ الإملاء : حيث يملي المدرس ما وقف عليه من قراءات أو علوم ، ثم يترك الباب مفتوحاً لدى الطلبة لإبداء الرأي والمناقشة .

٢ ـ المحاضرة : يلقي فيها الأستاذ مادة معينة ، يتفكر فيها الطلبة السامعون ، ويترك لهم باب الاستفسار للحصول على ما يرغبون من إيضاح .

٣ ـ القراءة والشرح : يقرأ أحد الطلبة النص المعين لهم ، ثم يعيد المدرس قراءة الدرس ، قراءة النص ، فقرةً فقرةً ، يُخرج الألفاظ الواردة ، ويشرح كل الدرس ، ويقارن ما سبق بما لحق ، وبعد انتهاء الدرس يفسح المجال أمام الطلبة للسؤال ، حتى يخرج الدرس ، وقد شرح شرحاً معمقاً .

هكذا كانت دمشق قبلة الثقافة الإسلامية في بلاد الشام والعالم الإسلامي ، في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي خاصة ، ومما عزز هذا المركز وأثراه وفود الكثير من علماء الدين والعربية والعلوم الرياضية ، وممن قدموا إليها من مصر والعراق وخراسان وبلاد المشرق والمغرب ممتداً حتى الأندلس . وكانت الرحلات العلمية متبادلة حيث غادر العلماء من دمشق أيضاً إلى المشرق والمغرب الإسلاميين ، وزادهم في ذلك ما عرفوه وخبروه من الإجازات والسماعات ، وما اطلعوا عليه من كتب جديدة في مجالات العلوم ، يسلكون في رحلاتهم هذه طريق الحج الذي رسخ قواعد الثقافة والمعرفة بين المسلمين ، حيث المساجلات والمناظرات والدراسات المفتوحة على أذرعها .

وأخذ السماع موقعه ضمن صور التعليم البارزة ، إلى جانب الرحلة في طلب العلم وحيازة الإجازة العلمية لاحقاً . والسماع نوعان : سماع عام ، وسماع خاص . أما السماع الخاص ، فهو الذي يحصل عليه الإنسان من أهله ، أما السماع العام فيتم وفق خطة مرسومة تحدد أيامه في الاثنين والخميس والجمعة ، ويبلغ الناس عنه ليحضروه ، وقد عهدعن ابن عساكركثرة الإملاءعلى الناس في الجامع الأموي (١)

حاز المتخرجون من المدارس على إجازات علمية يعطيها شيوخ المدارس ، وهي أشبه بالشهادات العلمية المتداولة في عصرنا . وقد اهتم العلماء المسلمون بالإجازات كثيراً، لكونها ذات أهمية في تلقي العلوم عن العلماء في المساجد ، ثم المدارس والزوايا . ولابدّ للإجازة حتى تُقَر من توفر المجيز ، والمجاز له ، (٢)

وقد ارتبطت الإجازة أساساً بعلم الحديث ، وسمح للطالب أن يحوز عدة إجازات من خلال ما رَشَحَ إلى ذهنه من سماعات العلماء ، وكلما كثرت إجازاته ، وتعددت دلت على سعة مادته وأفقه العلمي .

==

(١) ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب تحقيق د. سهيل زكار دمشق ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨ م ج٤ ص١٦١٨ـ١٦١٩

(٢) التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون تحقيق د. لطفي عبد البديع ترجمة النصوص الفارسية عبد النعيم محمد حسنين مراجعة أمين الخولي ج١ ص٢٠٨

أما التصوف وارتباطه بالمؤثرات العلمية فقد تم الإهتمام به ، وبأبرز رجال السلوك ، وعلى رأسهم الإمام الغزالي ، الشيخ أرسلان الدمشقي الذي كان لأهل دمشق به رأي وحصافة ، والشيخ محمد بن محفوظ الحوراني الإمام العالم الورع ، والشيخ قضيب البان الموصلي ، والشهيدان يوسف الفندلاوي وعبد الرحمن الحلحولي وغيرهم ممن كان لهم دور في الدفاع عن الإسلام في دمشق وأعمالها ضد الهجمات الفرنجية الصليبية المحدقة .

والتصوف هو تجرد القلب لله تعالى والتوبة له وحده بالجوارح والقلب **(١)** ، بدأ التصوف منذ أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجريين / الثامن والتاسع الميلاديين ، بسبب مخالطة الناس الدنيا ، فتحول المتصوفة إلى العبادة ، ولم يصل القرن الخامس ويطل القرن السادس الهجري إلا وقد بلغ التصوف ذروته ، يغرس في الناس قواعد الإيمان . وقد أطلق أهل دمشق على المتصوفة اسم الفقراء ، وتحدث ابن جبير عن أحوال المتصوفة في المدينة وأشار إلى أنهم الملوك في هذه البلاد وقد وكفاهم الله مؤنة الدنيا وفضلاتها . **(٢)**

أما أماكن الصوفية فتركزت في الربط والخوانق والدويرات والزوايا ، إلى جانب المساجد . فالرباط يدخل فينطاق الحياة العلمية ، لأنه عالم قائم بذاته ، فيه أماكن العبادة والدعوة والاستعداد للجهاد في سبيل الله تعالى ، ومراقبة الثغور والحدود . وقد كانت زاوية الشيخ نصر المقدسي ذات شهرة واسعة في الجامع الأموي .

وشاركت المرأة المسلمة في تيار التصوف وأطلق عليهن اسم الفقيرات . أما المغاربة فكان لهم أكبر الأثر في نشر التصوف والزهد في دمشق وما حولها ، وكان البعض منهم يعتكف وينقطع عن الناس في رباط ما ، كما يمكن أن يجاهد في سبيل الله ويدافع عن ديار الإسلام من خلال تلك الربط ، كما فعل المجاهدان عبد الرحمن الحلحولي وأبو الحجاج يوسف الفندلاوي ، حيث تصديا للفرنجة الصليبيين ، واستشهدا في الحملة الصليبية الثانية على دمشق ٥٤٣هـ/١١٤٨م حين هاجم الفرنجة المدينة بحملة صليبية شرسة . **(٣)**

أما علم التفسير فيعني الإيضاح ، وفسر الشيء أي وضحه وأزال عنه الإبهام . وعلم التفسير يبحث في أحوال القرآن الكريم ، من حيث دلالته على مراد الله تبارك

==

(١) الغزالي (محمد بن محمد): إحياء علوم الدين مكتبة الدروبي دمشق درويشية ج٢ ص٢٥٠

(٢) الغزالي : أيها الولد ص٣٩

(٣) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٢١

وتعالى بقدر الطاقة البشرية ، وقد استدعت الحاجة له لما غمض على الناس وأشكل العديد من المعاني ، رغم أن القرآن الكريم نزل بلغة قريش اللسان العربي المبين. (١)

جاء الحديث الشريف في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم كمصدر من مصادر التشريع ، وهو أشرف العلوم بعد كتاب الله تبارك وتعالى ، ويعرف بأنه ما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة ، وقد حض رسول الله صلى الله عليه وسلم على تعلم الحديث وحفظه . (٢)
رحل دارسو الحديث جرياً وراء العلماء في الأصقاع ، وكان ممن رحل في فترة الحكم البوري طلباً لهذا العلم الشريف الحافظ ابن عساكر ، فقد تعب في الجمع ، وبالغ في الطلب ، رحل إلى العراق مرتين ، وسمع بالمدرسة النظامية ، (٣) وتعمق في بحث العوالي . وقدم إلى دمشق زائراً أبرز علماء الحديث ، مسند الدنيا العالم أبو طاهر السلفي ، ساعياً في طلب الحديث ، وقد سمع بدمشق وحدث بها أيضاً . (٤)

أما تعلم علم الحديث ، فيكون بقراءة الحديث على الطلبة ، ثم التعرف على الألفاظ الغريبة فيه ، والتراكيب العويصة الداخلة في هذا الفن ، حتى يصبح سهلاً مستوعباً بيناً ، ولا بأس أن يتوجه بعض الطلبة إلى بيوت المحدثين للدراسة عليهم .

ويحبذ للطالب أن يملي ما يقوله الشيخ بالكتابة والشيخ يقوم بالإملاء وقتئذ . وعلى هذا فالسماع إما أن يكون إملاء أو تحديثاً من غير إملاء من لفظ الشيخ المحدث أو من كتابه ، وقد كثر إملاء العلماء على الطلبة ، ولابد للعالم المملي أن يحدد يوم المجلس حتى يحضر الناس ، ولا يطيل مجلسه كثيراً فيمل الناس، ويؤدي بهم إلى الشرود والتشتت ، وقد أملى ابن عساكر أربعمائة مجلس وثمانية مجالس في فن واحد في الجامع الأموي . وتميزت بعلبك أيضاً باهتماماتها بالحديث ، وبرز العديد من علمائها ، وكذلك لمع علماء من حوران وحماه في هذا الفن .

أما علم الفقه فيعني الفهم والدراسة والعلم بالشيء ، أي العلم بالأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية ، فهو مجموعة الأحكام الشرعية المستنبطة من الكتاب

==

(١) السخاوي : إرشاد القاصد إلى سنى المقاصد نسخة مصورة ص٦١
(٢) السمعاني(أبو سعد عبد الكريم) : أدب الإملاء والإستملاء ط١ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨١م ص٣
(٣) ابن النجار(محب الدين محمد): المستفاد من ذيل بغداد تحقيق محمد مولود خلف - بشار عواد معروف ط١ بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م ص٣٣٢-٣٣٣
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ج٧ ص١٧٩

والسنة والإجماع والقياس ، (١) ومن الرأي والاجتهاد . والفقه المصدر الأول والرئيس في تنظيم حياة الناس أفراداً وجماعات ، روحياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً، ويسمى بعلم الحلال والحرام ، والشرائع والأحكام ، والفقه يعتمد المذاهب الأربعة ، المذهب الحنفي ، والمذهب الشافعي ، والمذهب المالكي ، والمذهب الحنبلي . كان المذهب الحنفي مذهب الدولة البورية الحاكمة ، أما المذهب الشافعي فهو الغالب على أهل دمشق وأعمالها ، والأكثر شيوعاً في جوامعها ومدارسها وربطها .

كان لكل مذهب مدارسه الخاصة به باستثناء المذهب المالكي ، مذهب الغرباء المغاربة ، وقد اقتصر تدريس الفقه المالكي على زوايا الجامع الأموي . وتزايد الخلاف الفقهي بين أتباع المذاهب بسبب اختلاف وجهات النظر . وتخرج من تلك المدارس الفقهية الفقهاء والقضاة والعلماء . لم يكن الاهتمام بالفقه حكراً على دمشق وحدها ، بل لعبت أعمال دمشق أدواراً مهمة ، ومواقع خاصة ، فمن حرستا برز الفقيه عبد الكريم محمد أبو الفضائل الحرستاني ، وكذلك تميزت داريا وبعلبك وأماكن أخرى .

ووصل إلى مركز الإمارة علماء من المشرق والمغرب ، فمن المشرق وصل الإمام الغزالي ، واعتكف بالزاوية الغزالية فترة من الزمن ، وكذلك قدم علماء المغرب والأندلس .

أما علم أصول الفقه ، فهو عبارة عن أدلة الأحكام ووجوه دلالتها من حيث التفصيل ، ويتم التعرف فيها للأصول الشرعية الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، واحتاج هذا العلم كغيره من العلوم إلى الرحلة في طلبه ، وقد جمع العديد من العلماء بين علمي أصول الفقه وأصول الدين ، منهم الإمام الغزالي وقد ذكر في مؤلفاته عن هذا العلم : إن علوم الشرع ثلاثة ، الكلام والأصول والفقه .

أما علم الفرائض ، فهو جمع فريضة بمعنى مفروضة ، أي حصة صريحة مقدرة من التركة ، وهو فرع من فروع علم الفقه ، ويرتبط بعلم الحساب من جبر ومقابلة ، وقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على تعلمه . وقد حدد الإسلام الفرض المقرر لكل وارث تقديراً صريحاً . و أبرز من تميز في هذا العلم جمال الإسلام علي بن المسلم السلمي ت ٥٣٣هـ/١١٣٨م كان الاعتماد عليه في القسمة . **(٢)**

---

(١) الغزالي : المستصفى في علم الأصول دار إحياء التراث العربي بيروت ج١ص٤-٦٥

(٢) يوسف الأسير : شرح رائض الفرائض طبع بيروت ١٢٩٠هـ ص٢٥

ولا شك أن علم الفرائض ارتبط بالمذاهب الفقهية الأربعة ، وسعى لإيجاد الحلول للمشكلات والمعضلات التي كان يتعرض لها المجتمع الإسلامي في القسمة والتقدير

اضطر المسلمون بعد اختلاطهم في بلاد الشام بالروم وغيرهم ، وفي العراق بالفرس والعجم ، إلى وضع قواعد اللغة العربية وحمايتها من اللحن والخطأ . تضمنت اللغة العربية النحو والأدب والشعر والنثر والخطابة .

النحو هو قانون اللغة العربية وميزان تقويمها ونظمها ، حيث يمكن تمييز الفاعل من المفعول عن المبتدأ أو الخبر ، والقصد التماس الدقة في ضبط معاني القرآن . والعرب أفصح الناس لسانا وأبلغهم بياناً ، يقولون فيعربون وينطقون فيفصحون ، (١) لا يتطرق اللحن إلى لسانهم ولا إلى بيانهم . وتم الاهتمام أيضاً في فترة البحث بالعلوم التطبيقية من فلسفة و فلك وطب و صيدلة ورياضيات وكيمياء وهندسة وبيطرة مما كان لها دور في ازدهار الحياة العلمية في فترة الحكم البوري .

هذه صورة سريعة عن الأوضاع العلمية في فترة الحكم البوري ، الذي سعيت قدر الامكان إلى الوصول إلى الحقائق المجردة ، وإن كنت قد قصّرت فلي أمل في المحاولات المقبلة وقبل أن أطرح القلم لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل للأستاذ الدكتور عبد الباقي الكبير لتفضله بالإشراف على البحث وتوجيهي بالملاحظات السديدة القيّمة .

كما أتوجه بالشكر إلى أصحاب المكتبات العامة والخاصة ، التي وضعت بين أيدينا نفائس الكتب من مخطوطات ومصادر قيّمة ومراجع مطبوعة .

والله ولي التوفيق

---

(١) الأصبهاني (علي بن الحسين بن محمد القرشي): من محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء طبع مطبعة القاهرة الشرقية بمصر ١٣٢٦هـ ج١ص١٥

الباب الأول

الدولة البورية واهتماماتها العلمية

الفصل الأول : نشأة الدولة البورية

الفصل الثاني : اهتمام الدولة البورية بالعلم

الفصل الأول

نشأة الدولة البورية

ـ **الحياة السياسية :**

الأوضاع السياسية والثقافية قبيل قيام الدولة البورية :

عاشت منطقة بلاد الشام قبل تأسيس الإمارة البورية صراعاً ، أخذ اتساعه بين أفراد البيت السلجوقي ، فتحملت دمشق جزءا من أعبائه ، إضافة إلى أعباء الوجود الفاطمي العبيدي في المدينة ، وما رافقه من خراب ودمار أثر كثيراً على البلاد . وعاشت المنطقة أيضاً مرحلة خطيرة دبّ فيها الضعف والوهن في أطراف الخلافة العباسية ، بالرجوع إلى ما رافقه من هجمات صليبية فرنجية متلاحقة ، تعتمد أسلوب النهب والسلب والتدمير ، فجرّ ذلك الويلات على البلاد .

كانت بداية الأحداث تتلاحق مع تدهور النفوذ الفاطمي عن دمشق سنة ٤٧١هـ/ ١٠٧٨ م ، حين استولى تاج الدولة تتش السلجوقي ابن ألب أرسلان على المدينة ، وتلاحقت الاضطرابات السياسية بحدوث انتفاضات الجند بين الفينة والأخرى ، وتعرض بعض الخلفاء الفاطميين للقتل على يد الباطنية . (١)

وللأهمية الفترة فإننا سوف نتطرق لأوضاع السلاجقة والفاطميين والفرنجة في إشارة سريعة .

أما السلاجقة فهم من الأتراك الغز ينتسبون إلى جدهم سلجوق بن تقاق (٢) عاشوا أول أمرهم في إقليم تركستان في بعض أعمال بخارى من بلاد ما وراء النهر ، ثم نزحوا باتجاه الغرب إلى بلاد الإسلام ، ووصلوا إلى حدود نهر جيحون ، وهناك اعتنقوا الإسلام . (٣) نجح السلاجقة بعد ذلك من السيطرة على أرجاء العالم الإسلامي والوصول إلى بغداد وتأسيس سلطنة قوية ، لكن سرعان ما بدأ التنازع بين

===

(١) ابن أبي الدم : (أبو إسحق إبراهيم بن عبد الله بن علي) مخطوطة الشماريخ في التواريخ جامعة أكسفورد ص ١٤٥

ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢١٠ ـ ٣٦٢ ـ ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ج ١٠ ص ٢٣٥ ـ ٦٦٤

(٢) الحسيني : كتاب أخبار الدولة السلجوقية ، تصحيح محمد إقبال ط١ بيروت ١٩٨٤ م ص ٢

البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ط١ بيروت ١٩٧٨م ج١ ص٧ ـ أبو الفدا : تقويم البلدان ص٤٤٨ العوفي : (محمد) مقال الحركة الصليبية وأثرها في تطور العلاقات بين مصر والشام جامعة الإمام محمد بن سعود عدد ١٨ /١٩٨٤ ص ٢٦ سلجوق : رجل شهم من مقدمي الأتراك أقام بنواحي بليدة وراء بخارى ، صار يغزو الترك الكفار . ـ أبو الفدا : المصدر نفسه ج١ ص ٦٣ . ومعنى تقاق القوس الجيد . ابن الأثير : المصدر السابق ج ٩ ص٤٣٣

(٣) ـ الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية ص٢ ـ عاشور (عبد الفتاح) الحركة الصليبية مطابع سجل العرب ط٢ ١٩٧١م ج١ ص٧٩

. السلاجقة ينشب للقبض على السلطنة . فهذا بركياروق (١) اشتبك مع أخيه محمد (٢) في صراع للإستحواذ على السلطنة لنفسه ، وقامت الحروب الطويلة بينهما منهما المصاف الخامس ٤٩٦هـ/١١٠٣م فأسهم هذا في إضعاف السلاجقة مع أن الصلح قد تم ٤٩٦- ٤٩٧هـ /١١٠٣-١١٠٤م ، وقسمت بينهما البلاد ، ولما مات بركياروق تسلم السلطنة السلطان محمد . ، بعد أن أدت الحرب إلى انتشار الفساد وسفك الدماء ، ونهب الأموال ، وخراب البلاد . (٣)

كما كان الصراع جلياً بين بركياروق وأخيه سنجر في خراسان ، وقد حلت الهزيمة بالسلطان بركياروق . (٤) أدى تدهور أوضاع الفاطميين وضعفهم إلى وصول السلاجقة إلى الشام ٤٧١هـ/١٠٧٨م بطلب من صاحب دمشق أتسز الذي استنجد بالسلاجقة ضد الفاطميين ، حاول الفاطميون مضايقة المدينة لكن وصول تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان بن ملكشاه فوت على الفاطميين الفرصة ؛ فاستولى تاج الدولة على دمشق . (٥) وكان ممن خدم مع السلطان تاج الدولة أحد أتباعه وأعوانه طغتكين الذي وقع في الأسر إثر الكسرة التاجية في عانة على الفرات التي أسفرت

==

(١) السلطان ركن الدين أبو المظفر بركياروق بن ملكشاه بن ألب أرسلان ، ولد سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، غزا بلاد ما وراء النهر ، كان شهما كريما شجاعا حكم ثلاث عشرة سنة ، واقتتل مع عمه تاج الدولة تتش حتى استقرت السلطنة له ، ثم قامت الحرب بينه وبين أخيه السلطان محمد طبر . مات سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م . الحسيني : المصدر نفسه ص٧٥-٧٦- ٧٧- ٧٨ ابن الجوزي : (أبو الفرج الحافظ جمال الدين عبد الرحمن بن علي) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ط١ ١٣٥٨- ١٣٥٩هـ - سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ص١٤٤

(٢) محمد شاه قسيم أمير المؤمنين ابن السلطان ملكشاه أبو شجاع غياث الدين السلجوقي ، قامت الحروب بينه وبين أخيه السلطان بركياروق حتى صار سلطانا سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م بعد وفاة بركياروق . توفي سنة ٥١٢هـ/١١١٨م . الحسيني : المصدر السابق ص ٧٩-٨٠-٨١ – ابن تغري بردي : (أبو المحاسن جمال الدين بن يوسف) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة نسخة مصورة عن مطبعة دار الكتب المصرية ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي مصر ١٩٦٣م ج٥ ص٢١٤

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١٠ص٣٥٩- الحسيني : كتاب أخبار الدولة السلجوقية ، تصحيح محمد إقبال ط١ بيروت ١٩٨٤ م ص٧٩-٨٠ -٨١ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، تصحيح أنطوان اليسوعي دار الرائد اللبناني ط٣ ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م ص ٣٤٢- ٣٤٣

(٤) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشرج١ص٢١٣

(٥) ابن القلانسي : المصدر نفسه ١٨١-١٨٢ – ابن الأثير : المصدر نفسه ج١٠ ص١١١

عن مقتل تاج الدولة .(١) في تلك الكسرة ، ٤٨٨هـ/١٠٩٥م أمام السلطان بركياروق ابن أخي تاج الدولة ثم أطلق سراح طغتكين بعد قليل ، ووصل إلى دمشق وخدم عند دقاق ابن تاج الدولة .

والحق إن انقسام الدولة السلجوقية بعد موت السلطان ملكشاه ٤٨٦هـ/١٠٩٢م إلى ممالك خمسة متنافسة ، مهد لوصول الفرنجة إلى أرض الإسلام . وهذه الممالك هي : مملكة فارس ، مملكة حلب أو إمارة حلب ، مملكة دمشق أو إمارة دمشق، سلطنة سلاجقة الروم ، سلطنة سلاجقة العراق . (٢)

وقد شاب العلاقة بين البوريين والسلاجقة الكثير من التوتر مما أوغر صدر السلاطين السلاجقة على طغتكين وقرروا توجيه حملات خاصة للإطاحة به وبدولته ، لكن التودد أخذ مجراه بعد قليل ، سيما وأن ارتباط البوريين بالسلاجقة كان قائما ، حتى وجهوا له في إحدى المرات أمير الموصل مودود لتقديم العون ومحاربة الفرنجة في موقعة الأقحوانة . (٣) وهكذا استمرت علاقة البوريين مع السلاجقة حتى وصل أعوان السلاجقة من الزنكيين الذين كتب عليهم مواصلة دفع البوريين عن الساحة للإطاحة بهم عما قريب .

لم ينس دقاق خدمات طغتكين فرد إليه أمور الحكم في دمشق . (٢) وبقي محافظاً على تلك المكانة حتى توفي دقاق ، فتسلم زمام الأمور ونقل السلطات إلى سلالته سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م (٤).

وأخذت الأحداث تتصاعد بصراع أفراد البيت السلجوقي ، خاصة بين ولدي تُتُش ، دقاق صاحب دمشق ، ورضوان صاحب حلب ، وذلك حين خرج دقاق عن سلطان أخيه رضوان ، وفرّ من حلب بخواصه ، إلى دمشق ، وتولى إمارتها . ولم تنجح محاولات رضوان في القبض على أخيه وقصد بجنده دمشق سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٥ م وحاصرها وخرج الدماشقة دفاعا عن مدينتهم وطلب جماعة من العسكر والأحداث الخروج إلى جيش رضوان ومواجهته، بعد أن بلغت قواته سوق الغنم ،

---

(١) ابن القلانسي : المصدر نفسه ٢١٢-٢١٣ ابن العديم : (أبو القاسم الصاحب كمال الدين عمر) زبدة الحلب في تاريخ حلب تحقيق د. سامي الدهان دمشق ١٩٥٤م ج٢ص١٢٠-١٢١- ابن الأثير : المصدر نفسه ج١٠ص٢٤٥

(٢) د. جميل عبد الله المصري : حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة ط٤ مكتبة العبيكان الرياض ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م ج١ ص٦٣

(٣) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٢١٣ ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ص١٢٠-١٢١- ابن الأثير : المصدر نفسه ج١٠ ص٢٤٨

(٤) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٢٩٤-٢٩٥العظيمي : المصدر نفسه ص٣٦٦ وليم الصوري : تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار ترجمة د. سهيل زكار قسم ١-٢ قسم ١ذكتاب ١١ ص٢١٦ ابن الأثير : المصدر نفسه ج١٠ ص٤٩٥

واقترب من سور المدينة والباب الصغير ، فأصدر السلار بختيار شحنة البلد (١) والرئيس أمين الدولة أبو محمد ابن الصوفي ، رئيس البلد ، أمراً بالامتناع عن مقاتلته وجهاً لوجه، والاكتفاء بقتالهم على الأسوار ، ومنعهم من الوصول إلى المدينة . ولما خابت آمال الملك رضوان ، ولم ير جدوى من الحصار ، عاد إلى حلب ، وفي طريقه اجتاز ناحية مرج الصُفّر خارج دمشق ، وعاث بأراضي حوران ، فخرج إليه شمس الملوك دقاق ، وتقارب المدى بين الفريقين ، وكاد الصدام يقع ، ثم غير رضوان خطته وعاد إلى حلب منكفئاً (٢) . كان حبه لدمشق التي ترعرع فيها هو الدافع الذي دفعه للنزول عليها ، وطلب النجدات من مجاوريه الأراتقة (٣) ، لكن طموحه أوقفه عند أبواب المدينة ، ومن ثم التراجع عنها . (٤)

أما الحديث عن الدولة الفاطمية ووصول نفوذها إلى الشام ، فالمعروف أن الدولة الفاطمية تأسست خلافتها في مصر ٣٦٢-٥٤٤ هـ/٩٧٣-١١٤٩م وكان أبرز خلفائها المعز الفاطمي (ت ٣٨٦هـ) ثم جاء من بعده الحاكم لدين الله (ث ٤١١هـ) ثم حل الظاهر لدين الله (ت ٤٢٧هـ) ثم الآمر بأحكام الله (ت٤٩٥هـ) فالحافظ لدين الله (ت ٥٢٤هـ) وهو الذي عاصر الدولة البورية ، وكذلك الظاهر إسماعيل (ت ١١٥٤/٥٤٩م) وسوف تستمر الدولة الفاطمية حتى يتم القضاء عليها أيام نور الدين محمود عبر قائده صلاح الدين الأيوبي . (٥)

ضم الفاطميون الشام إلى نفوذهم ، فكتب على الشام أن تعيش على الكفاف منهكة ترهقها المظالم والفتن والحروب والمجاعات . وقد ذكر ابن القلانسي في أحداث سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م "واشتد غلاء الأسعار في دمشق وعدمت الأقوات ونفذت الغلات

---

(١) شحنة البلد : مشتقة من الشحنكية ، وهي مؤسسة ترجع إلى العهد السلجوقي ، تشبه منصب المحافظ، يوكل إلى موظفها الشحنة مسؤولية إدارة المدينة وحفظ الأمن فيها . ـ الجواليقي : تكملة ما تغلط به العامة ، تحقيق التنوخي ، مطبعة ابن زيدون ص ٤٨ ـ الزبيدي تاج العروس ١٣٠٦ هـ ج ٩ ص ٢١٥ ـ حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة طبعة ١ الكويت ١٩٧٥ م ص ٢١٧

(٢) ابن القلانسي :المصدر السابق ص ٢١٤ ـ ٢١٥

(٣) امتد نفوذ الأراتقة إلى بغداد ومّيافارقين ، وقلعة مارد ين وحلب ، وأتابكية بيت المقدس ، التي خرجت عن يدهم مبكراً ، مع وصول الفاطميين إليها ، ثم الصليبيين . من أبرز قادة الأراتقة إيلغازي (ت ٥١٦ هـ/ ١١٢١م) تولى شحنة بغداد ، وحارب الصليبيين مراراً ، تولى ابنه حسام الدين تمرتاش حكم قلعة ماردين ، وتولى ابنه الآخر سليمان ميّافارقين ، وتولى على حكم حلب ابن أخيه بدر الدين سليمان بن عبد الجبار بن أرتق . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٦٠٤

(٤) ابن القلانسي :المصدر السابق ص ٢١٥

(٥) د.حسن إبراهيم حسن : الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية مكتبة النهضة المصرية ط٣ ١٩٦٤م ص١٥٦-١٦٤-١٦٨-١٧١- ١٧٣

منها ، فاضطر الناس إلى أكل الميتات وأكل بعضهم بعضا " (١)

بدأت أحوال الصراع تأخذ منحى آخر مع وصول الحملات الفرنجية (٢) إلى أرض الإسلام سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م هذا على صعيد المشرق ، أما المغرب فقد بدأ احتلال أرض الإسلام به من عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م فملكوا طليطلة من أرض الأندلس ، ثم قصدوا صِقلية سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م وانحرفوا إلى أطراف إفريقية فملكوا منها ، ثم تحولوا عقب ذلك إلى المشرق فكانت الحملة الفرنجية الأولى التي خُطط لها لتحويل بلاد الإسلام إلى النصرانية ، وكذلك لنهب خيراتها وثرواتها ، فمن هذه البلاد يتدفق اللبن والعسل والذهب . فاحتل الفرنجة في طريقهم نحو بلاد الشام أنطاكية الواقعة على ساحل البحر المتوسط. (٣)

ثم تحولوا واحتلوا معرة النعمان(٤) وقتلوا من المسلمين أكثر من مائة ألف إنسان . (٥) وكان على كل فريق من المسلمين في حلب أو دمشق ، أن يستعد للقاء العدو المتربص . واستكمل الفرنجة احتلال البلاد ، فاحتلوا بيت المقدس ٤٩٢هـ/١٠٩٩م ، وقتل الفرنجة بمسجد بيت المقدس ما يزيد على سبعين ألف إنسان ، وأسس الفرنجة إماراتهم الصليبية في المشرق وهي الرها ، أنطاكية ، بيت المقدس ، طرابلس ، ثم جعلوا من القدس مملكة لهم وعاصمة، ونقطة انطلاق لاحتلال أراضي الإسلام . (٦)

كان المتوجب على حكام دمشق من البوريين ، أن يرتضوا التصدي لمواجهة الفرنجة الصليبيين من ناحية ، ومواجهة تدهور الأحوال العامة السياسية والاقتصادية من ناحية أخرى ، لكن تعمق المشاكل الداخلية خاصة مع سوء الأحوال الاجتماعية التي كانت تمر بها البلاد أفسد الأمور، فأسفر ذلك عن أزمة ، وقعت بين دقاق ورئيس دمشق ابن الصوفي ، انتهت إلى مصالحة مادية . (٧)

حكمت الدولة البورية المنطقة المعروفة باسم دمشق وأعمالها ، في فترة ضعف القوى الإسلامية والعربية، وتزايد قوة الفرنجة الصليبيين ، في الوقت الذي ظهرت فيه على الساحة السياسية قوة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود المعروف

==========

(١) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص١٧٤

(٢) ابن القلانسي :المصدر السابق ص ٢١٨

(٣) ابن الأثير : المصدر نفسه ج١٠ ص٢٧٢-٢٧٤ - د. جميل عبد الله المصري : حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة ج١ ص٦٤ أنطاكية: بينها وبين حلب مسيرة يوم وليلة . ياقوت الحموي : معجم البلدان دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ج١ ص٢٦٧

(٤) مدينة كبيرة وقديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة

(٥) ابن الأثير : المصدر نفسه ج١٠ ص٢٧٨

(٦) ابن الأثير : المصدر نفسه ج١٠ ص٢٨٣ ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٥ ص١٥٦ د. جميل عبد الله المصري : المرجع السابق ج١ ص٦٤

(٧) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٢٦

بالخليفة السادس .
بلغت الدولة البورية أقصى اتساع لها ، حتى وصلت إلى الرحبة(١) على الفرات شرقاً ، وبمجاورة أراضي الدولة الفاطمية ومملكة الفرنجة الصليبيين غرباً ، أما جنوباً ، فامتدت حتى طبرية وبانياس ، وشمالاً إلى حمص وحماة بين مد وجزر.
أما البوريون فهم أتراك مسلمون حكموا دمشق في الفترة ما بين ٤٩٧ ـ ٥٤٩ هـ/١١٠٣ ـ ١١٥٤ م . (٢) وتعني كلمة بوري في اللغة التركية الذئب ، وقد عرفت الدولة باسمها هذا تجاوزاً ، ونسبة إلى اسم الشخص الثاني منها ، ويدعى بوري بن طغتكين ، مع العلم أن مؤسسها الحقيقي هو طُغْتكين ، ظهير الدين أتابك (٣) أحد رجالات تُتش بن ألب أرسلان ، أعتقه وزوجه بأم ولده دقاق ، فصار أتابكاً لدقاق مدة .(٤) أما دقاق فهو ابن تتش أبو نصر المعروف بالملك شمس الملوك ، ولي أمرة دمشق بعد مقتل أبيه تتش سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤م ، فراسله نائب قلعة دمشق وسلمه المدينة .
واستمر دقاق في حكم دمشق حتى مقتله سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م . (٥) فتسلم الإمارة في دمشق طُغتكين ، واستمر حكمه فيها حتى سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م تاريخ وفاته . فخلفه ابنه تاج الملوك بوري ، ثم أحد أولاد تاج الملوك ويدعى شمس الملوك إسماعيل ، ثم ولده الآخر شهاب الدين محمود ، ثم جمال الدين محمد ، وأخيراً مجير الدين أبق ابن جمال الدين ، وظل في الحكم حتى سقوط دمشق في قبضة السلطان نور الدين محمود الشهيد ٥٤٩هـ / ١١٥٤م .

==

(١) تقع بين الرقة وبغداد على شاطئ نهر الفرات . ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٣ ص٣٤
(٢) ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM NEW EDITION LONDON BRLLY 1979 ARTICLE BURIDS P 1. 1332
(٣) الأتابك : معناه "الأب الأمير " يطلق على من يعهد إليه تربية الأمراء ، ومراقبتهم وتصريف أمورهم . القلقشندي صبح الأعشى في صناعة الإنشا نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية ج٦ ص ٦٠٥
(٤) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٢٣٣ العظيمي الحلبي : تاريخ حلب تحقيق إبراهيم زعرور دمشق ١٩٨٤م ص ٣٨١ ـ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٣٧٧ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢١٣ ـ الحريري : الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين تحقيق د . سهيل زكار دار الملاح ١٤٠١هـ/١٩٨١ م ص ٦٩ ـ د. سهيل زكار الحملتان الأولى والثانية حسب روايات شهود عيان تحقيق وترجمة سهيل زكار دار حسان طبعة ١ دمشق ١٩٨٤ م ج٢ ص ٧٠٢
(٥) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٢١٣- ابن عساكر : مخطوط تاريخ مدينة دمشق ص ج٦ص٩٩ الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ص٢١٠

سياسة الدولة البورية الداخلية والخارجية :

ساعدت أوضاع السلاجقة المتردية في العراق وفارس ، والانهماك في المشاكل الداخلية ، إلى تقديم فرصة مواتية للبوريين ، من أجل إنشاء دولتهم ، دونما معترض على ذلك . فقد استغل البوريون النزاع الذي نشب بين السلطان بركياروق بن ألب أرسلان ، وبين أخيه السلطان محمد ، من أجل الإستحواذ على السلطنة ، وذلك تسبب في نشوب الحروب الطويلة بينهما ، (١)

في غمرة هذه الأحداث ظهر طُغتكين ، واحتل مكانته وسط الخلافات المتفشية ، لاسيما أنه كان معروفاً عند السلاجقة ، فأقبل باندفاع وحماس على السلطان تتش ، وأظهر له حسن التدبير ، وسلامة الرأي ، فقدمه على خيرة رجالاته ، وأسند له الإسفهسلارية ، (٢) ونيابة دمشق في غيابه ، فأحسن السيرة فبها ، وأقام العدل والنظام ، فوجهه بعد ذلك إلى ميّافارقين من ديار بكر (٣) سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م لإصلاح ما فسد منها ، فأقام أركان الهيبة ، وحسن التدبير ، مع سرعة ودقة في تحليل الأمور ، وكشف ما يترتب عليها من خيانة أو مؤامرة ، تجوس النيل من هيبة الدولة ، التي أقامها في البلاد . دفع إخلاصه للسلطنة السلجوقية ، أن يسلمه السلطان تتش تربية ولده شمس الملوك دقاق ، ليكون أتابكاً ومرشداً ومربياً له ، كما أشركه في صراعه مع ابن أخيه بركياروق ، ولما خرّ السلطان صريعاً في منطقة الري من فارس سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م ، وقع طغتكين أسيراً ثم نجا بنفسه ، وتوجه نحو دمشق ، ودخل في خدمة شمس الملوك دقاق ، فحظي بمكانة ومنزلة لديه . (٤)

اعتمد دقاق عليه في تدبير أمور إمارة دمشق ، ثم زوجه من والدته الخاتون صفوة الملك ، فاستقام له المقام والحال في دمشق ، وشارك في الدفاع عن المدينة عند تعرضها للخطر . (٥) وعقد شمس الملوك همته عليه في قيادة العسكر ،

==

(١) الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية ص٧٧ – ابن الأثير : المصدر نفسه ج١٠ ص٣٥٩ ابن العبري (أبو الفرج غريغوريوس) : تاريخ مختصر الدول تصحيح أنطوان اليسوعي دار الرائد اللبناني طبع ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م ص٣٤٢-٣٤٣

(٢) لقب من ألقاب أرباب السيوف ، ومعناه : مقدم العسكر ، وهو مركب من لفظين أسفه بالفارسية بمعنى المقدم ، وسلار بالتركية بمعنى العسكر . ـ القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج٦ ص٧ ـ ٨

(٣) ديار بكر : حدّها ما غرّب من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة ، ومنه حصن كيفا ، وآمد ، وميّافارقين . ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٢ ص٤٩٤

(٤) ابن القلانسي :المصدر نفسه ص٢١٢-٢١٣-٢١٤- العظيمي : المصدر نفسه ص٣١٥- ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ج٣ ص٥١٨

(٥) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٢١٤

وتوسيع رقعة الدولة ، وحماية دمشق في حال غيابه عنها .

وساعد سيده في الاستيلاء على جبلة، وهزيمة الفرنجة سنة ٤٩٤هـ / ١١٠٠م فتوّج له عمله بتسليمه المدينة سنة ٤٩٥هـ / ١١٠١م . (١) وتحرك مع دقاق سنة ٤٩٦هـ / ١١٠٢م ، قاصداً الرحبة ، فأجبر المقيمين عليها على طلب الصلح والأمان بعد حرب طويلة . (٢)

في ذات الوقت كانت الدولة الفاطمية على أسوأ أحوالها حتى سنة ٤٩٨هـ/١١٠٣م وكان الخليفة المستعلي الفاطمي (ت٤٩٥هـ / ١١٠٠م) مجرداً من أي نفوذ ، وقد سيطر الأفضل أبو القاسم شاهنشاه أمير الجيوش على الأمور في مصر . (٣) كما تعرض الخلفاء الفاطميون للقتل على يد الباطنية . (٤) كان إنجاد الفرنجة لأرتاش (من أفراد البيت السلجوقي في دمشق) الخارج على طغتكين والمطالب بالعرش منه ٤٩٩هـ/١١٠٥م العامل الأساسي في توطيد طغتكين علاقاته مع الفاطميين ، فاتحد الفريقان في معركة حاسمة ٤٩٩هـ/١١٠٥م ، وكانت خسائر الفرنجة فادحة ، مما جعل ملك الفرنجة يثني رأيه ويتراجع عن دعم أرتاش ، والتفكير الجدي بهذا التحالف الجديد ، الذي بدأ يهدد الفرنجة مباشرة . (٥)

وقدم طغتكين العون المباشر لصور لما عجز الفاطميون عن حمايتها من الخطر الفرنجي ، فتحرك الأمير البوري على رأس قواته ورفد المدينة بالمقاتلة لصد الفرنجة ، ورغم محاولاته الناجحة للدفاع عن المدينة إلا أنه لم يضمها إلى أملاكه ، أو يعلن الخطبة فيها للعباسيين ، بل أعلن أنه يسعى لإبقاء الجبهة الإسلامية موحدة. (٦) فحقق توازنه المنشود مع الفاطميين من جهة والسلاجقة من جهة أخرى ، مؤكداً على إبقاء العلاقة قوية مع الخلفاء العباسيين .

وهكذا أقامت الدولة البورية علاقات وطيدة مع الدولة العبيد ية الفاطمية ؛ فقد نهج طغتكين في إمارته سياسة التوازن كما أشرنا ، واستكمل ذلك ، وأقام علاقات

---

(١) العظيمي : المصدر نفسه ص٣٦٠-٣٦

(٢) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٢٢٩

(٣) ابن القلانسي :المصدر نفسه ص١١ ٢ ابن الأثير: المصدر نفسه ج١٠ص٢٣٥

(٤) ابن القلانسي :المصدر نفسه ص٣٦٢ ابن الأثير : المصدر نفسه ج١٠ص٦٦٤

(٥) رنسيمان :(ستيفن) تاريخ الحروب الصليبية ترجمة الباز العريني ط١ دار الثقافة بيروت لبنان ١٩٨٦ج٢ص١٤٦ولم

(٦) المقريزي : (تقي الدين أحمد) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا تحقيق محمد حلمي أحمد القاهرة طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ج٣ ص ٥١- العوفي : (محمد) مقال الحركة الصليبية وأثرها في تطور العلاقات بين مصر والشام جامعة الإمام محمد بن سعود عدد ١٨ /١٩٨٤ ص ٢٤-٢٥

دبلوماسية مع الفاطميين وبعث بحجابه إلى مصر ، (١) وأنفذ في طلب النجدات لصد الهجمات الفرنجية عن صور سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م . وأبقى السكة والخطبة في المدينة للفاطميين ، (٢) واستمر في دعمه للمدينة حتى سقطت بيد الفرنجة الصليبيين سنة ٥١٨هـ / ١١٢٣م . (٣)

توطدت العلاقة البورية مع الفاطميين ، يوم قدّمت مملكة الفرنجة مساعداتها العسكرية لأرتاش شقيق السلطان تاج الدولة تتش الخارج عن نفوذ طغتكين (٤٩٩هـ/١١٠٥م) (٤) فتحالف طغتكين مع الفاطميين ، وشارك في أسطوله سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م، لكن الهزيمة لحقت بالمسلمين . (٥)

تعرض الأسطول الفاطمي لنكبة أودت به أثناء تراجعه من ميناء صور ، وكذلك تكبد الفرنجة الصليبيون خسائر فادحة ، جرّاء هذه المعركة ، التي دفعت ملك الفرنجة للتراجع عن مساندة أرتاش ، والتفكير بجدوى التحالف الإسلامي الجديد الذي بدأ يشكل تهديداً مباشراً عليه (٦).

وتم تبادل العتاب بين الدولة البورية والخلافة الفاطمية، خاصة حين وجّه الوزير المصري الأفضل (٧) إلى طغتكين مستفسراً ، عن عدم مطاردة الأخير للفرنجة الصليبيين عن طريق مصر بموجب الاتفاق العسكري بينهما ، بإحكام الحصار عليهم من جميع الجهات وإبادتهم ، فلو كان وراءهم مثل ما كان أمامهم ، ما عاد منهم

==

(١) ابن القلانسي :المصدر السابق ص٣٣٥

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ص٢٨٨-٣٣٧

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ص٣٣٦ العظيمي : المصدر السابق ص٣٧٣
- ابن ميسر : من أخبار مصر ، تصحيح هنري ماسيه طبعة المعهد الفرنسي ١٩١٩م ج ٢ ص٦٣ - المقريزي : إتعاظ ج ٣ ص١٠٧ - الحريري : الإعلام ص٧٥

(٤) ابن القلانسي :المصدر السابق ص٢٣٥ - المقريزي : إتعاظ ج ٣ ص٣٥

(٥) ابن القلانسي : المصدر السابق ص٢٤٠ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص٣٩٤-٣٩٥ - ابن ميسر : من أخبار مصرج ٢ ص٤١
- المقريزي : المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر ، تحقيق المعهد الفرنسي القاهرة مصر ١٩٨١م ج ٢ ص٧٥ -

(٦) رنسيمان : المرجع نفسه ج٢ ص١٤٦

(٧) الأفضل : كان متولي الغربية بمصر ، تسلم منصب الوزارة سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦ م ، أيام الحافظ الفاطمي ، ثم استوحش منه ، ودبر عليه مؤامرة ، حتى ثارت فتنة في وجهه ، فخرج إلى الشام ، ثم عاد فقبض عليه الحافظ ، واعتقله وقطع رأسه . - ابن القلانسي : المصدر السابق ص٤٢٣- المقريزي : اتعاظ ج ٣ ص١٦٩- ١٧٢ - ١٨٤

أحد (١) .

أثـار هـذا العتـاب طغتكـين فـنهض بقواتـه نحـو عسـقلان واشـتبك مـع الفرنجـة ، وهـزمهم سـنة ٥٠٩ هــ / ١١١٥م ، فـأكرم الفـاطميون وفادتـه ، وخلعـوا عليـه خيمـة كبيرة " وكان مقدار ما حصل له ، ولأصحابه ثلاثين ألف دينار . " (٢)

دخلت الدولـة البوريـة مرحلـة جديدة مـع الخلافـة الفاطميـة ، بعد وفـاة طغتكـين ؛ خاصــة حــين وصــل إلــى الحكـم شـمس الملـوك سـنة ٥٢٦هـــ / ١١٣١م ، فتحـول الفاطميون لدعم شقيقه سونج (٣) الخـارج عن طاعتـه ، والطامع بالسلطة بمعزل عنه . (٤) وقد تدخل الخليفة الفاطمي الحـافظ لدين الله (٤٦٨ ـ ٥٢٤ هــ / ١٠٧٥ ـ ١١٢٩م) لحل الخلاف بين الأخوة ، وتهدئة الأمور لفترة وجيزة . (٥) لأن مصـالح الفاطميين لازالت قائمة فـي المنطقـة ، ولا يخفـى أن دمشق كانـت فـي السـابق منطقـة نفـوذ لهم ، أخرجهـا مـن أيـديهم السـلاجقة ، وأبعـدوهم عـن المنطقـة . وحكـام دمشـق الحاليون هم من أعوان السلاجقة .

ولما اشرأبت الفتنة في دمشق سنة٥٣٠هـ / ١١٣٥م ، ساهمت الدولـة الفاطمية في تهدئة الأحوال ، ووضع نهاية للاضطرابات سنة ٥٣٠هـ / ١١٤٤م ، واستقبل الشاعر أسامة بن منقذ ، (٦) ووزير دمشق (٧) ،لإرضاء رغبة رئيس المدينة ابن الصوفي ، أبو الفوارس مؤيد الدين ، الذي استوحش من الشخصين . (٨)

سكنت الأحداث بين الطرفين ، ثم عادت ونشبت وتفجرت من جديد ، حيـــن استقبلت دمشق سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م الوزير المصري الأفضل رضـــــــــوان الولخشي،

==

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفاج ٢ ص٥٣ ـ٥٤

(٢) المقريزي اتعاظ الحنفا ج ٣ ص٥٣

(٣) سونج بن تاج الملوك ، قتله أخوه شمس الملوك ، حين حبسه في بيت حتى مات من الجوع سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٣م ـ ابن القلانسي : ذيل ص٣٨٣

(٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ص٣٧٢ـ٣٧٣

(٥) ابن القلانسي : المصدر نفسه ٣٧٢-٣٧٣ المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ج٣ ص١٤٦

(٦) مؤيد الدولة ، أبو المظفر ، ولد سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م ، من بني منقذ في شيزر ، كان فارساً شهماً شجاعاً ، مقاتلاً أديباً شاعراً ، عاش في بلاطات الدولة البورية ، والفاطمية ، له مؤلفات كثيرة ، توفي سنة ٥٨٤هـ /١١٨٨م . ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص٤٣٤ـ ابن عساكر :مخطوط ج ٢ ص٧٠٢

(٧) المقريزي : إتعاظ ج ٣ ص١٧٩ ـ وزير دمشق : أبو الكرام البعلبكي ، عزل من منصبه لأسباب أنكرت عليه من قبل رؤساء دمشق من بني الصوفي ، الذين لم يروا فيه ما يبحثون عنه من السلطة والنفوذ .
ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص٤٣٤

(٨) ابن القلانسي : المصدر السابق ص٤٣٤

الهارب من الخليفة المصري ، استقبله أميــن الدولـــــــــة كُمُشْتِكين (١) والي صرخد . وكما استضافت الدولة الفاطمية الخارجين عن أركان الدولة البورية ، كذلك قامت الدولة البورية بالمقابل باستضافة الخارجين عن الحكم الفاطمي . كان الوزير المصري قد خرج عن سلطة الخليفة ودخل عسقلان ٥٣٣هـ/١١٣٨م ، ثم نزل على أمين الدولة كمشتكين والي صرخد، فأكرمه وأبره ، ولما عاد إلى مصر لقي مصرعه على يد الحافظ الفاطمي ٥٣٤هـ/١١٣٩م. (٢)

ولما قامت الفتنة الداخلية في دمشق ٥٣٩هـ/١١٤٥م بسبب الخلاف الذي وقع بين ابن الصوفي(شجاع الدولة مؤيد الدين) ووزير دمشق أبو الكرام ، فأصر الرئيس على إخراج الوزير ومعه أسامة بن منقذ إلى مصر ، فأكرم مثواهم وأفيضت عليهم العطايا والهبات . (٣)

كان الدافع لدى حكام دمشق ترسيخ أركان دولتهم مع الفاطميين لضمان ما يلي :

١ ـ استقلالية إمارة دمشق

٢ ـ إبعاد المخاطر الفرنجية الصليبية عن الشام ، والحيلولة دون انفرادهم بالمنطقة، لأن الصليبيين كانت لهم القوة الضاربة في تلك الفترة ، فحتم الموقف وجود قوتين ترقب تحركاتهم ، وتقطع عليهم فرصة الانقضاض ، ومحاولة فرض الأمر الواقع .

٣ ـ إبعاد الطموحات الزنكية عن إمارة دمشق ، وتخوف البوريين منهم .

٤ ـ الإبقاء على التبعية الإسمية للخلافة العباسية ، والسلطنة السلجوقية ، لأن قوة دمشق السياسية والدينية مستمدة منهما . (٤)

نلاحظ مما سبق أن البوريين وطدوا علاقتهم مع الفاطميين كطرف رئيس في الصراع في المنطقة ، مع التأكيد على التوازن الذي سعوا لتحقيقه ، فقد أحكموا ضبط الأمور كيما يتمكن الفرنجة من الإنفراد بالمنطقة وبالبوريين بصورة خاصة ، لذلك توجب قيام قوتين تؤمن الوضع السياسي ، وترقب تحركات الفرنجة لمنع

==

(١) والي صرخد وبصرى ، حاز لقب الأتابكية ، أيام شهاب الدين محمود ، بنى المدرسة الأمينية ، توفي سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م ابن القلانسي : المصدر السابق ص٣٩٨ ـ الدارس في تاريخ المدارس تحقيق جعفر الحسني مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٨م ج ١ ص١٧٧ ـ العلموي : المصدر نفسه ١٩٤٧م ص٣٣

(٢) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٤٢٣ المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ج٣ ص١٧١-١٧٢

(٣) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٤٣٤ المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ج٣ ص١٧٩ ابن ميسر : (محمد بن علي) من أخبار مصر تصحيح هنري ماسيه طبعة المعهد الفرنسي ١٩١٩ج٢ ص٨٦

(٤) العوفي : مقال الحركة الصليبية وأثرها ص٢٥

فرصتهم من الوصول إلى دمشق والانقضاض عليها ، وفرض سياسة الأمر الواقع من خلال ما ترتئيه الدولة البورية وتقره .

أما علاقة الدولة البورية مع الخلافة العباسية ، فقد اتصفت بالاسمية والشكلية ، حيث أدرك طغتكين ضعف الخلفاء العباسيين عن تحريك أي ساكن ، ولم تكن سيطرة الخلافة العباسية تتجاوز بغداد وما يحيط بها . (١) لأن سلاطين السلاجقة استبدوا بالخلفاء وفرضوا سيطرتهم على الأمور .

ومع ذلك لم يكن طغتكين ليتخلى عن الخلافة العباسية رغم تحالفه السياسي مع الفاطميين ، وإبدائه النوايا الحسنة بالتقارب السياسي والعسكري (٢) ، لأن هدفه الأسمى كان دعم استقلالية الإمارة بعيداً عن السلاجقة والعباسيين، مع البحث الحثيث عن المصالح العسكرية قبالة الفاطميين ، لصد الهجمة الفرنجية الزاحفة ، وهكذا دعم استقلاله عن السلاجقة مع الإبقاء على الاتصال الشكلي والسياسي والديني بالخلافة العباسية .

ولا شك فإن الخلافة العباسية اتصفت هيمن عليها الضعف ، إزاء استبداد السلاطين السلاجقة وسطوتهم على الحكم . وعلى الرغم من كل ما أشرنا إليه فإن الحكام البوريين ، سعوا للتقرب من الخلافة ، من أجل دعم استقلالية إمارتهم عن التبعية السلجوقية ؛ ففي عام ٥١٠ هـ / ١١١٦م توجه طغتكين إلى بغداد ، والتقى الخليفة المسترشد بالله (٣) ٥١٠هـ/١١١٦م ورفع إليه رقعة يذكر فيها

---

(١) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٤٢٢ العظيمي : المصدر نفسه ص ٣٩٤ ابن الأثير: المصدر نفسه ج١١ص٦٨- ٦٩ سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٠٤

(٢) العوفي : (محمد) مقال الحركة الصليبية وأثرها في تطور العلاقات بين مصر والشام جامعة الإمام محمد بن سعود عدد ١٨ /١٩٨٤ ص ٢

(٣) المسترشد بالله أبو منصور الفضل ابن المستظهر بالله أمير المؤمنين ولد سنة ٤٨٦ هـ كانت خلافته سبع عشرة سنة ، تميز بالإقدام والرأي ، والهيبة ، والشجاعة والثبات في الحروب قتل على يد الباطنية سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م

- ابن القلانسي : المصدر السابق ص٣٩٣-٣٩٤ - ابن الأثير : - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ، تحقيق عبد القادر طليمات ١٤٠٢هـ /١٩٨٥م ص٤٨-٥٠ - الحسيني المصدر نفسه ص٩٧ -ابن أبي الدم : مخطوط الشماريخ ص١٤٣ - الفاسي (محمد الحسني) : المقنع من أخبار الملوك والخلفاء وولاة مكة الشرفاء تحقيق محمد التونجي ، دار الملاح ط١ ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ص٥٢
- النووي مخطوط كتاب طبقات الفقهاء الشافعية ، رقم ١٢٢٨٤ ص ٨٧و- ظ
- ابن العجمي : الطبقات الصغرى للشافعية السبكي مخطوط ١٣٥٥٤ ص٢٨١و- ظ - كتاب الجمان المختصر في التاريخ مخطوط ٧٨٤٣ ص٢٤٧

الأراضي الخربة في عمل دمشق لتأمين الانتفاع بها وعمارتها للحصول على الريع والغلة وصرف أثمانها في الجهاد في سبيل الله تعالى ، وفي مصالح المسلمين ، فأذن الخليفة له بذلك . (١) فأصدر له منشوراً، تضمن اعتراف الخلافة بإمارة دمشق ، وأبرز بنوده : ا ـ استصلاح الأراضي الخربة ، وإعادة إعمارها ، وصرف ريعها في الجهاد في سبيل الله ومصالح المسلمين (٢). ٢ ـ إعلان الخليفة العباسي ثقته بأمير دمشق ، واعتباره أحد أعوانه وأتباعه .
٣ـ تجاهَلَ المنشور الخط السياسي الذي انتهجه الأمير البوري مع الفاطميين ، لكي لا يثير الموقف ، ويعطي الفاطميين فرصة استغلاله، فيفوزون على حساب الخلافة العباسية . (٣) ويؤكد المنشور المذكور تمسك العباسيين بالأتابك طغتكين ، وإعطائه الثقة الأكيدة.. ولا يخفى أن المنشور لم يتطرق بالذكر للنهج السياسي الذي تسلكه الدولة البورية وما زالت من خلال التقارب مع الفاطميين ، حتى لا تعطي للفاطميين فرصة استغلال الموقف فيفوزون بالبوريين على حساب الخلافة العباسية . (٤)

والجلي في الأمر أن طغتكين عرف كيف يستغل المواقف ، فتقرب إلى الفاطميين ، وأعلن ولاءه للعباسيين ، وتخلص من ضغط السلاجقة ، وعرف كيف يتعامل مع الفرنجة ، فحقق توازنه المنشود ، ولم ينجح أحفاده من بعده ، من الاستفادة من ظروف كهذه تحقق استراتيجية الإمارة البورية على كافة الصعد.

مهد موت دقاق لقيام الدولة البورية ، التي تقلبت حدودها مع جوارها بين مد وجزر؛ فتارة يتوسع نفوذ الدولة وتارة ينقبض ، أمام الأخطار الكبيرة . و قد تساعد بعض الظروف الأمير البوري على استرجاع ما قد فقد من مواقع مهمة ، معتمداً على مهارته العسكرية ؛ وقد تناصبه الظروف سوء الطالع ، حتى يفقد ما وقعت سيطرته عليه ، فيخرج من قبضته إلى غير رجعة ، خاصة مع بروز ملامح وجرأة دولة عماد الدين زنكي وولده نور الدين محمود التي واجهت البوريين ، وسعت بكل جهودها للإطاحة بهم ، وقد تم ذلك على يد نور الدين كما سنرى فيما بعد .

ملك عماد الدين زنكي الموصل سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م ، وسعى لتوجيه الضربات

---

(١) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٤٩ العوفي : (محمد) مقال الحركة الصليبية وأثرها في تطور العلاقات بين مصر والشام جامعة الإمام محمد بن سعود عدد ١٨ /١٩٨٤ ص ٢٦

(٢) ابن القلانسي :المصدر نفسه ص ٣٤٩ سبط ابن الجوزي :المصدر نفسه ص٧٩

(٣) العوفي : (محمد) مقال الحركة الصليبية وأثرها في تطور العلاقات بين مصر والشام جامعة الإمام محمد بن سعود عدد ١٨ /١٩٨٤ ص ٢٦

(٤) العوفي : (محمد) مقال الحركة الصليبية وأثرها في تطور العلاقات بين مصر والشام جامعة الإمام محمد بن سعود عدد ١٨ /١٩٨٤ ص ٢٦

للفرنجة الصليبيين ؛ خاصة حين توجه نحو حلب ، وجعلها مركز انطلاق لشن هجماته على الفرنجة ، كان قربه من إمارة دمشق قد مهد للاصطدام مع البوريين والفرنجة على السواء. لذلك توترت العلاقة بين الطرفين سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م حين طلب زنكي النجدة البورية لمهاجمة الفرنجة ، فأجابه بوري إلى ذلك ، لكن زنكي قبض على العسكر الدمشقي ، وعلى ابن بوري سونج ، ثم توجه إلى حماة واستخلصها من البوريين ، سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م وترددت المراسلات للإفراج عن سونج مقابل مبلغ من المال رفضه زنكي ، ثم توجه الأمر لتسليم مطلوب كان يبحث عنه زنكي مقابل الإفراج عن سونج . (١)

ولما تولى شمس الملوك بن بوري الحكم ، توجه إلى حماة واستعادها من زنكي سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م مستغلاً ظروف الخلاف التي قامت بين زنكي والخلافة العباسية . (٢) . وتابع شمس الملوك إسماعيل أعماله العسكرية و هبط على ثغربانياس ، مفاجئاً حماته الفرنجة ، فاستولى عليه .(٣)

وعندما تحرّج موقف شمس الملوك بسبب تدخل رجالات الدولة البورية في أمور الحكم ، قرر التوجه إلى زنكي لطلب المساعدة ، وأن يصل بسرعة إلى دمشق ، والجلي في الأمر أن شمس الملوك كان يرغب تسليم البلاد لزنكي ، لكن زنكي وصل متأخراً بعد مقتل شمس الملوك وتولي شهاب الدين محمود ، الذي أعلن المواجهة العسكرية مع زنكي . (٤) .

ولما قتل شمس الملوك بن بوري نازل عماد الدين زنكي ثغر بانياس، وضمه

==

(١) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٣٦١ - ٣٦٢ - العظيمي : المصدر نفسه ص٣٨٣- ٣٨٧ابن الأثير : المصدر نفسه ج١٠ ص٦٥٨-٦٥٩

(٢) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٣٧٨ - ابن الأثير : المصدر نفسه ج١٠ ص٦٥٨- سبط ابن الجوزي : المصدرنفسه ج٨ ص٨٩

(٣) ابن القلانسي :المصدر نفسه ص٣٧٥ - وليم الصوري : الأعمال قسم٢ كتاب ١٤ ص٧١ ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM : ARTICL BANYIAS P1 P1017

(٤) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٣٨٨ ابن عساكر : تاريخ دمشق مخطوط ج٢ ص٨٢٨ - ابن الأثير : المصدر نفسه ج١١ص٢١- سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص٩٣- ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص٢٥٦ ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM ARTICLE BURIDS P1.P. 1332

إليه سنة ٥٣٠هـ / ١١٣٥م ، (١) على الرغم من تزايد الأطماع الفرنجية ، التي أثمرت عن معاهدة ٥٣٤هـ / ١١٣٩م ، بين دمشق والفرنجة ، حيث أقرت دمشق تسليم الثغر إليهم ، بعد استخلاصه من عماد الدين . (٢) ولا يهمنا الدخول في تفاصيل واسعة عن الثغر ، لأنه لن يعود إلى السيطرة البورية بعد الآن . (٣)

ويمكن أن نلاحظ مما سبق أن التوسع البوري ترافق مع شخصيات أساسية في الدولة البورية ، أحدهما طغتكين ، والثاني شمس الملوك اسماعيل ، والثالث معين الدين أنر ، الذي يعتبره البعض الممثل الحقيقي للسلطة في الحكم البوري . وهو شخصية غلب عليها الترقب والحذر ، وضبط النفس ، خاصة أمام التحركات الزنكية .

ولا شك أنه استفاد كثيراً من وفاة زنكي ، فاسترجع معظم ما خسرته الدولة البورية ، من مناطق حمص وحماة وبعلبك . (٤) وحين أدركته المنية ، عادت الدولة البورية إلى الإنكماش والتقلص ، تحت ضربات نور الدين محمود . (٥)

قدم زنكي وحاصر دمشق ، لكن محاولاته فشلت مع وصول رسل الخليفة العباسي ، التي تدعوه لترك دمشق وحصارها . (٦) لما رأى زنكي أن مصالحه لن تتحقق بالطرائق العسكرية ، لجأ إلى العمل الدبلوماسي ، وقرر الزواج من الخاتون زمرد والدة شهاب الدين سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م . كان اعتقاده حيازة دمشق بعد أن

==

(١)ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤١٣

(٢) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٢٦-٤٢٧وليم الصوري : المصدر نفسه قسم ٢كتاب ١٥ص١٠٠

(٣) ابن الأثير : المصدر نفسه ج١١ ص١٣١ الذهبي : العبر في خبر من غبر تحقيق فؤاد سيد ط٢ مصورة عن مطبعة حكومة الكويت ١٩٨٤م ج٢ ص٢٤٦

(٤) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٤٩

(٥) ابن العبري: المصدر نفسه ص٣٦٠

(٦) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٣٩٤ - ابن الأثير : المصدر نفسه ج١١ص٢٢ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ص٢٥٨ ابن الوردي : المصدر نفسه ج٢ص٦٢

حاز حمص ، لأن الخاتون كانت صاحبة الحل والعقد في دمشق . (١)
أثار مقتل شهاب الدين محمود سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م غضب والدته ، وأزعجها تنصيب ولد زوجها جمال الدين محمد ، فأرسلت إلى زنكي تطلب منه الحضور إلى دمشق سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م للثأر من قتلة ولدها (٢)، فاتجه إلى دمشق ، وفي طريقه ضم بعلبك ، ثم حاصر دمشق ٥٣٤هـ/١١٣٩م، وكاد أن يحقق مناله ، لكن الثبات على مواجهته من قبل البوريين، ثم طلب النجدة الفرنجية للتخلص من قبضته.وسطوته أفشل مشروع ضم دمشق. (٣)

ثم تلاحقت الأحداث بموت أمير دمشق جمال الدين محمد فازداد طمع زنكي بالمدينة ، لكن آمال زنكي وطموحه في أخذ دمشق لم يتحقق لأن الموت خطفه ، وترك مهمة استخلاص دمشق من البوريين لولده نور الدين محمود . ولتخفيف عواقب الخطر الزنكي على دمشق زوّج معين الدين أنر نائب أمير دمشق إحدى بناته لنور الدين محمود . (٤)

ومع وصول الحملة الفرنجية الثانية على دمشق ٥٤٣هـ/١١٤٨م كتب على المسلمين الجهاد لرد هذا الخطر الذي تعود أسبابه ؛ لمطامع الفرنجة والسعي لتحقيق أهدافهم في دمشق منها :

١- غنى المنطقة بمواردها الزراعية ، التي ستدر على الفرنجة مورداً اقتصادياً جيداً إذا ما أمكن الاستيلاء عليها .

---

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ص٣٥٤العظيمي : المصدر نفسه ص ٣٩٤ ابن الأثير : المصدر نفسه ج١١ص٥٥ سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ص٩٣-١٠٠ ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص٢٦٩

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ص٤٢٢العظيمي : المصدر نفسه ص ٣٩٤ ابن الأثير : المصدر نفسه ج١١ص٦٨-٦٩ سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ص١٠٤

(٣) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٤٢٥-٤٢٦ - ابن الأثير : المصدر نفسه ج١١ص٦٨-٦٩-٧٤ الذهبي : (الحافظ شمس الدين محمد) العبر في خبر من غبر تحقيق فؤاد سيد ط٢ طبعة مصورة مطبعة حكومة الكويت ١٩٨٤م ج٢ص٤٤٦

ALPTEKIN(COSKUN) DIMASK,ATABEGLITOG-TEGINILERT STANBUL 1985 P.127

(٤) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٥١- وليم الصوري : الأعمال المنجزة فيما وراء البحار قسم ٢ كتاب ١٦ ص١٣٨- د. عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص٦١٥- ٦١٦

٢- قرب دمشق من مملكة الفرنجة في القدس مما يشكل موقعها خطراً على الفرنجة . (١)
٣- ضعف حكام دمشق شجع الفرنجة على تزايد أطماعهم في دمشق ، لعدم توفر الحامي القوي المدافع عنها .
٤- فصل الشمال الإسلامي عن الجنوب الإسلامي ، والانطلاق من دمشق إلى الرها لتوجيه الضربة القاصمة لنور الدين محمود ، واستعادة الرها .

كان عامل خروج الرها من قيضة الفرنجة وتحولها إلى السيادة الإسلامية ، ثم الانتصارات الزنكية المتوالية على الروم ، كان السبب في إثارة الحملة الصليبية الثانية . ولما رأى الفرنجة قوة نور الدين وبطشه ، خافوا مما أملوه في استعادة الرها ، فيمموا أنظارهم شطر دمشق . (٢)

عرفت هذه الحملة بحملة الملوك ، حيث خرج ملوك أوربا لأول مرة خارج بلادهم ، واتحدت فرنسا بملكها لويس السابع مع ألمانيا بملكها كونراد الثالث رغم عدائهما الشديد والتقليدي . وشارك في الحملة أيضاً الإنجليز والفلامنديون والطليان . (٣) وانطلق الفرنجة في أضخم جيش نحو دمشق لتطويقها . (٤)

كان رأي الفرنجة أن الوصول إلى دمشق أهم من الوصول إلى الرها ، لأن خطر نور الدين وصل إلى دمشق ، ومعنى ذلك أنه غدا على مقربة من مناطق الفرنجة . ولم يشفع لدمشق تحالفها مع الفرنجة ضد خطر زنكي ، لأن الرأي استقر على أخذ المدينة ، والانطلاق منها نحو الرها . (٥)

وصل الدعم إلى دمشق من المناطق المجاورة ، فوصل نور الدين محمود ، واجتمع بمعين الدين أنر نائب الأمير البوري . كما وصل سيف الدين غازي بعساكره من الموصل لصد خطر الفرنجة وإبعادهم عن المدينة . وقد اندفع نور الدين لحماية المدينة ، وقدم سيف الدين غازي بعساكره إلى دمشق ، (٦)

==

(١) وليم الصوري : المصدر نفسه قسم ٢ كتاب ١٧ ص١٧٣
(٢) الحريري (سيد) : الأخبار السنية في الحروب الصليبية ط١ المطبعة العمومية بمصر ١٣١٧هـ/١٨٩٩م ص ٦١-٦٢
(٣) وليم الصوري : المصدر نفسه قسم ٢ كتاب ١٦ ص١٥٦كتاب ١٧ ص١٦٦
التميمي : الحروب الصليبية مطبعة اللواء القدس طبعة أولى ١٩٤٥م ص٧٦-٧٧
(٤) عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص٦٣٢
(٥) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٦٣- وليم الصوري : الأعمال المنجزة فيما وراء البحار قسم ٢ كتاب ١٧ ص١٧٢- ١٧٣
(٦) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٤٦٦- ابن الجوزي : المنتظم ج١٠ ص١٣١
ابن كثير : المصدر نفسه ج١٢ ص٢٢٣

فأوقع الرعب في قلوب الفرنجة . (١) وانتهت الحملة الفرنجية بهزيمة المعتدين ، وإقرار إمارة دمشق معاهدة مع الفرنجة تدفع بموجبها الجزية السنوية ، مقابل دفع خطر نور الدين وإبعاده عن دمشق . (٢)

ولا شك أن نجاح طرد الفرنجة من دمشق يعود لسياسة اتبعها أنر تتلخص بما يلي: ١- تخويف الفرنجة من سيف الدين غازي الذي وصل ليتسلم البلاد من الحكام البوريين .

٢- الإيقاع بين الفرنجة أنفسهم ، بتحذير فرنجة الشرق من فرنجة الغرب ، وأن للأخيرين أطماع بكل ما يملكه فرنجة الشرق . (٣)

٣- الاتفاق مع فرنجة الشرق وإقرار الانسحاب من المواقع تحت مزاعم سوء الموقع ما ألصق بفرنجة الشرق عار الهزيمة والخيانة والتأخر. (٤)

٤- تسليم فرنجة الشرق مبلغاً من المال المزيف قُدر بـ ٢٠ ألف دينار من النحاس الأصفر . (٥)

أما أسباب فشل الحملة الفرنجية فتعود للآتي :

١- المفاسد الأخلاقية التي ظهرت على سلوكيات الفرنجة ، وتحول جنود الفرنجة لقضاء الأوقات مع النساء اقتداء بمفاسد زوجة ملك فرنسا . (٦)

٢- الخلافات العميقة بين الفرنجة حول من سوف يتسلم دمشق بعد سقوطها . (٧)

---

(١) ابن الأثير : المصدر نفسه ج١١ص١٣٠- ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص٢٩١ الذهبي : سير أعلام النبلاء تحقيق شعيب أرناؤوط ط١ بيروت ١٩٨٤م ج٢٠ ص٤٠٥

(٢) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٤٧٨-٤٧٩ - سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٢٧- ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢ ص٢٢٩

(٣) ابن الأثير : المصدر نفسه ج١١ ص ١٣٠ - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل – عبد القادر أحمد طليمات القاهرة ١٤٠٢هـ/١٩٨٥م ص٨٩ الذهبي : العبر في خبر من غبر ج٢ ص٤٦٣ - ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي : تحقيق أحمد رفعت البنداري ط١ ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م ج ٢ ص٧٥

(٤) وليم الصوري : المصدر نفسه قسم ٢ كتاب ١٧ ص ١٧٨
STEVENSON: THE CRUSADERS IN THE EAST 1968 P. 161

(٥) وليم الصوري : المصدر نفسه قسم ٢ كتاب ١٧ ص ١٧٨ د. سهيل زكار : الحروب الصليبية ، الحملتان الأولى والثانية حسب روايات شهود عيان كتبت أصلا بالإغريقية والسريانية والعربية واللاتينية تحقيق وترجمة سهيل زكار دار حسان دمشق ط١ ١٩٨٤م ج٢ ص٥٢٤

(٦) وليم الصوري : المصدر نفسه قسم ٢ كتاب ١٦ ص ١٦٧

٧) وليم الصوري : المصدر نفسه قسم ٢ كتاب ١٧ ص١٨٠
STEVENSON: THE CRUSADERS IN THE EAST p. 162

٣- الدور الذي لعبه أمير أنطاكية في إفشال المشروع من أساسه ، لنزاع وقع بينه وبين ملك فرنسا ، فضغط على نبلاء الجيش الملكي لإجبار الملك الفرنسي التخلي عن مشروعه . (١)
٤- نفاذ المؤن والمواد الغذائية على أبواب دمشق ، مما حدا بالفرنجة للانسحاب وعدم إضاعة الوقت . (٢)
أما نتائج الحملة الفرنجية الثانية فكانت كما يلي :
١- أتت الحملة الفرنجية الثانية إلى المشرق لتثبيت دعائم الإمارات الصليبية واسترداد الرها من قبضة الزنكيين ، والحد من نفوذ المسلمين المتزايد على يد زنكي وولده نور الدين محمود . (٣)
٢- بذرت الحملة الفرنجية الثانية بذور الشك بين الصليبيين القادمين من الغرب والصليبيين المقيمين في الشرق .
٣- جعلت الحملة الصليبية الثانية من الشرق الإسلامي مهاباً من قبل الفرنجة ، حيث اعترف الغرب بقوة الإسلام الكامنة .
٤- كانت الحملة الصليبية الثانية مقدمة لتوسيع نور الدين محمود مملكته ، وتوحيد القوى الإسلامية ، إزاء انحطاط هيبة الصليبيين الفرنجة ومكانتهم في الشام . (٤)
٥- أدى الهجوم غير الناجع على دمشق من قبل الفرنجة ، إلى توجيه عيون نور الدين نحو المدينة ، والتعجيل قدر المستطاع لضمها وقد حقق ذلك خلال ست سنوات ، فحاز المدينة سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م . (٥)
٥- كان من عوامل هزيمة الفرنجة الصليبيين الأخطاء الكبيرة التي حصلت ، منها خداع بيزنطة للفرنجة وزجهم في الطريق المضلل الذي سلكوه أثناء عبور القسطنطينية للوصول إلى الشرق ، وكذلك خيانة نصارى الشرق لنصارى الغرب بقبول الرشوة من الدولة البورية ، مقابل التفريط بفرنجة الغرب .
٦- كانت الخطيئة السياسية الفاحشة التي ارتكبها الفرنجة الصليبيون ، حين توجهوا إلى حليفتهم دمشق وحاصروها بدل أن يستفيدوا من العون والمساعدة ، فكان ذلك من الأسباب التي أفشلت الحملة .

ولما ازدادت تدخلات الفرنجة الصليبيين بأمور دمشق ، مستغلين ضعف حكامها ، اضطر أبق أمير البلاد سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م للاتفاق مع نور الدين لرد مخاطرهم السافرة عن دمشق . (٦) ولما احتل الصليبيون عسقلان٥٤٨هـ/١١٥٣م،

---

(١) وليم الصوري : المصدر نفسه قسم ٢ كتاب ١٧ ص١٨١
(٢) وليم الصوري : المصدر نفسه قسم ٢ كتاب ١٧ ص١٧٨-١٧٩
(٣) عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص٦٣٥- ٦٣٦
(٤) عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص٣٥٠
(٥) ماجد (عبد المنعم) : العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى طبع بيروت ١٩٦٦م ص١٥٩
(٦) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٤٨٠ - سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٢٥

أدرك نور الدين خفايا أطماعهم للوصول إلى دمشق ، فأعمل الحيلة مع أبق للحصول على المدينة والسبق إليها واستلامها قبل وصول الفرنجة الصليبيين (١). وقد نجح في ذلك سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م حين أغراه بالهدايا ، ثم أوقع بينه وبين أصحابه ، واستمال أحداث المدينة ورجالاتها ، ففتحوا له الباب الشرقي ثم دخل المدينة ، ولم تُجد النجدة الفرنجية لأن نور الدين كان قد ضم دمشق بشكل نهائي إلى سلطانه ونفوذه . (٢)

أما الحديث عن مناطق نفوذ الدولة البورية ، فإن طغتكين سعى منذ تأسيس الإمارة البورية البحث عن مواقع جديدة ، فضم بعلبك سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م . (٣) وبقيت المدينة في قبضة البوريين حتى ظهر خطر عماد الدين ، ومحاولاته تقليص النفوذ البوري ، فحاصر المدينة سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٧ م ، (٤) ثم عاود الكرة عليها في السنة المقبلة ، وكانت رغبته السعي لضم دمشق ، وربطها مع بعلبك ، لكنه فشل في الاستيلاء على دمشق ، فعاد أدراجه إلى بعلبك ، مثبتاً أركانه فيها ، ومواصلاً محاولاته الاستيلاء على دمشق حتى توفي سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م . (٥) أعطت وفاة الأتابك زنكي حكام دمشق فرصة مواتية لاستعادة بعلبك وضمها ثانية إلى الحاضرة البورية ، فتوجه إليها الأمير معين الدين أُنر ، نائب أمير دمشق مجير الدين أبق (٦) ، و بالرغم من هذا لم تَسلم المدينة من هجمات نور الدين محمود بن زنكي ، وتَربُص الفرنجة الصليبيين بها . (٧) وتعرضت رَفَنِيةُ (٨) لهجمات الفرنجة

---

(١) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٨٠- وليم الصوري : الأعمال المنجزة فيما وراء البحار قسم ٢ كتاب ١٧ ص ٢٠٤ - سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٣١- أبو شامة : (شهاب الدين عبد الرحمن) تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية دار الجيل بيروت ج١ ص٨٩-٩٠

(٢) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٥٠٥ ابن عساكر : تاريخ دمشق مخطوط ج٢ ص٥٧٩ - ابن الأثير : المصدر نفسه ج١١ص٢١- سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٣٥- ١٣٦-١٣٧ أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار حرره فيليب حتي ط١ ١٩٨١م ابن أبي الدم : مخطوط الشماريخ في التواريخ ص١٥٠ - وليم الصوري : المصدر نفسه قسم ٢ كتاب ١٧ ص ٢٠٨

(٣) ابن القلانسي :المصدر السابق ٢٢٦- ٢٦٧

(٤) ابن القلانسي المصدر السابق ص٤١٣

(٥) ابن القلانسي :المصدر السابق ص٤٢٣ - العظيمي : المصدر نفسه ص٣٩٥

(٦) ابن القلانسي :المصدر السابق ص٤٤٩ - أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، دار الجيل بيروت ج١ ص٤٨

(٧) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٤٨- سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٢٧

(٨) كورة ومدينة من أعمال حمص يقال لها رفنية تدمر . ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٣ ص٥٥

الصليبيين سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م ، فاستولوا عليها سنة ٥٠٩هـ / ١١١٥م ، وأفسدوا ما حولها . (١) فتوجه طُغتكين لحربهم واستعاد المدينة . (٢) واستمرت المدينة تحت سيطرة الدولة البورية حتى سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م ، حين أعاد الفرنجة الصليبيون احتلالهم لها ، لتخرج بصورة نهائية عن القبضة البورية(٣)

ولم تستمر حماه أيضاً في نطاق العصمة البورية ؛ ومردّ ذلك تجرؤ طغتكين على إغضاب السلطنة السلجوقية ، فقبض السلاجقة على المدينة وسلموها إلى صاحب حمص قراجا سنة ٥٠٩هـ / ١١٠٥م . (٤) وبقيت المدينة في يد قراجا ثماني سنين حتى وفاته ، ثم عادت حماه بعد ذلك إلى السلطة البورية ، عن طريق إحدى بنات طغتكين ، التي كانت متزوجة من قراجا . (٥) لكن هجمات زنكي طالتها ، وأحدقت بها سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م (٦)

وأصبح الصراع عليها سجالاً ، إلى أن نجح شمس الملوك باسترجاعها سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٢م حتى سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م ، حين عاد زنكي وسيطر عليها مجدداً. (٧) ولما توفي ، أشرف الأمير أنر بنفسه على استعادة المدينة. (٨) وهكذا نلاحظ أن حمص لم تخضع للحكم البوري حتى سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م (٩)، أيام إمارة شهاب الدين محمود ، حين تخلى ابن قراجا عن المدينة ،

==

(١) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٢٦٨- ٢٦٩- ٣٠٦ - ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، تحقيق أحمد رفعت البنداري ط١ ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م ج٢ ص٣٩ - عاشور : الحركة الصليبية طبعة٢ ١٩٧١م ج١ ص٣٧٥- ٣٧٦
ALPTEKIN(COSKUN) DIMASK,ATABEGLITOG-TEGINILERT STANBUL 1985 P50

(٢) ابن الأثير :المصدر نفسه ج١٠ ص٥١٢

(٣) ابن القلانسي :المصدر السابق ص٣٤٤ - العظيمي : المصدر نفسه ص٣٧٦ - ابن الأثير : المصدر نفسه ج١٠ ص٦٤٠

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص ٥٠٩ - ٥١٠ - عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص٣٣٧- ٣٣٨ - ALPTEKIN: OP,CIT P 50

(٥) ابن القلانسي : المصدر السابق ص٣٣٥ - العظيمي : المصدر نفسه ٣٧٣ ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تعليق جمال الدين الشيال ، القاهرة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣م ج١ ص٤١

(٦) العظيمي :المصدر نفسه ص٣٨٣ - ابن القلانسي : المصدر نفسه ٣٦٢

(٧) العظيمي :المصدر نفسه ص٣٨٦- ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٣٧٨ - أسامة بن منقذ : كتاب الإعتبار حرره فيليب حتي طبعة ١ ١٩٨١م ص١٢٦ - العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ١٩٥٤م ج٢ ص٢٥٣

(٨) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٤٩

(٩) ابن العبري :المصدر نفسه ص٣٦٠

بسبب الهجمات الزنكية المتواصلة عليها . (١)
ولما تزوج عماد الدين زنكي من زمرد خاتون ، والدة شهاب الدين محمود ، تنازل الأخير لزنكي عن حمص سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٧م ، (٢) ثم عادت المدينة إلى النفوذ البوري بعد وفاة زنكي ، وبقيت لمدة ثلاث سنوات ، إلى أن ضمها نور الدين محمود إلى سلطانه . (٣)

وكانت بانياس هي الأخرى ذات أهمية كبيرة ، فقد تحولت الأطماع الفرنجية للحصول عليها ، فحمل طغتكين عبء الهجمات المتكررة ، وحافظ على الثغر ، وحماه ، إلى أن صانع داعي الباطنية بهرام (٤)، وسلمه الثغر ، (٥٤) فشكل بذلك تهديداً مباشراً على دمشق ، لأن الباطنية دفعت بالثغر إلى الفرنجة الصليبيين بعد أربع سنوات ، أي في العام ٥٢٤هـ/١١٢٩م. (٦)

وبذلك يكون طغتكين قد عرّض دمشق لمخاطر الباطنية ، لذلك قرر بوري أن لا مناص من الفتك بهم ، خاصة حين اتفقوا مع الفرنجة على تسليم دمشق إليهم عبر أعوانهم المتواجدين في المدينة ، لقاء تسلم صور من الفرنجة ، أدرك بوري الأمر فكسر شوكتهم سنة ٥٢٣هـ/١١٢٨م قبل أن يكملوا مشروع تسليم دمشق ، وقتلهم شر قتلة . (٧) وانتقاماً منهم ورداً على ما فعله بوري من تنكيل بالباطنية ، أقدموا على

==

(١) ابن القلانسي :المصدر نفسه ٣٩٧ ـ أبو الفدا :المختصر في أخبار البشر طبع دار الكتب اللبناني ج٢ ص١٧ـ١٨ ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM : ARTICL HAMAT P 3 P 120

(٢) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤١٨ ـ العظيمي :المصدر نفسه ص٣٨٨ ـ ابن الأثير : المصدر نفسه ج١٠ ص٥٥
ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM : ARTICL HIMS P3 P399

(٣) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٤٩

(٤) استخدم الاستتار والاختفاء والتجول في البلاد ، وجذب إليه الجهال والغوغاء من الناس قتل سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م في وادي التيم من البقاع . ابن القلانسي : المصدر السابق ص٣٤٢ـ٣٥٣ا بن الأثير : المصدر نفسه ج١٠ص٦٣٢ـ ٦٣٣ ص ٦٥٦ الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ص٥٢٠

(٥) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٣٤٣ ـ العظيمي : المصدر نفسه ص٣٧٦

(٦) العظيمي : المصدر نفسه ص٣٨١ـ ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٣٥٦ ـ ابن الأثير : المصدر نفسه ج١٠ص٦٥٧
ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM : ARTICL BANYIAS P1 P 1017

(٧) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٥٤ العظيمي : المصدر نفسه ص٣٨٢ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٣ص٤٣٣ ابن الأثير : المصدر نفسه ج١٠ ص٦٥٧ـ٦٥٨

اغتياله سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م، فجرحوه جراحات عديدة تسببت في موته بعد قليل. ومع ذلك لم يقم للباطنية بعدها أي مقام في دمشق. (١)

أقامت الدولة البورية علاقات مع جوارها من الخلفاء العباسيين ، والسلاطين السلاجقة ، والخلفاء الفاطميين . أما الخلافة العباسية ، فكانت تعاني من الضعف ، ولم تكن سيطرتها تتجاوز بغداد وما يحيط بها . (٢)

وكان للدولة البورية أيضا علاقاتها مع السلاجقة الأتراك "الغزّ" الذين سيطروا على الخلافة العباسية ، لكن النزاع سرعان ما دبّ بينهم ، خاصة في صدام الأخوة ، طمعاً في الإستحواذ على السلطنة . (٣)

وما لبث أن شاب العلاقات بين الدولة البورية والسلطنة السلجوقية التوتر بخروج أرتاش (٤) على طغتكين مطالباً بالعرش ، إلا أن الأمور عادت إلى نصابها . (٥) وقد أدت التحرشات الفرنجية بالإمارة البورية إلى تقارب طغتكين مع السلاجقة ، حيث أرسل ولده بوري محملاً بالهدايا والتحف ، (٦) حاثاً سلاجقة فارس على تقديم العون إليه ، فوجهوا من الموصل الأمير مودود ، فاشترك مع إمارة دمشق في معركة الأقحوانة أو طبرية سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٣م . (٧) وقد رأى البعض أن المعركة ، قرّبت بين طغتكين ومودود ، لتقويض الأخطار الفرنجية المتكررة على دمشق ، بعد تزايد أطماعهم بها . (٨) وتقول رواية أخرى إن المعركة باعدت

---

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ٣٦٥ العظيمي : المصدر نفسه ص ٣٨٤ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٣ص٤٣٣ ابن الأثير : المصدر نفسه ج١٠١ص٦٧٠- سبط ابن الجوزي :المصدر نفسه ج٨ ص٩٣-

ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM ARTICLE BURIDS P1.P. 1332

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ص١٩٤ - ٣٥٤ العظيمي : المصدر نفسه ص ٣٩٤ ابن الأثير : المصدر نفسه ج١١ص٥٥ سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص٩٣- ١٠٠ ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص٢٦٩

(٣) الحسيني : المصدر السابق ص٧٧

- ابن الأثير المصدر نفسه ج١٠ ص٣٥٩ - ابن العبري : المصدر نفسه

(٤) أرتاش هو عند ابن الأثير بكتاش ، أخو الملك تتش ، ولد سنة ٤٨٣هـ /١٠٩٠م ، أقامه طغتكين مكان ابن أخيه تتش سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م . وقعت الوحشة بينه وبين طغتكين ، لأن والدته خوّفته منه ، فأفسد الأعمال الدمشقية .

ابن القلانسي :المصدر نفسه ص٢٣٤ - ابن عساكر : مخطوط تاريخ دمشق ج٢ ص٦٥٩-٦٦٠

(٥) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٢٣٥ - ٣٤٢- ٣٤٣

(٦) ابن القلانسي : امصدر نفسه ص٢٥٧-٢٦٣

(٧) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٢٩٤-٢٩٥

(٨) ابن القلانسي :المصدر نفسه ص٣٣٦ - العظيمي : المصدر نفسه ص٣٦٥

بين طغتكين ومودود أمير الموصل ، لأن طغتكين توجس خيفة من كثرة العسكر المودودي ، وما في ذلك من خطر على دمشق وإمارته ، فرأى أن يقنع مودود بالتوجه إلى دمشق ليتمكن من التخلص منه . (١) وكان من مساوىء معركة الأقحوانة ، مقتل الأمير مودود في دمشق . (٢) مما دفع بالسلطان السلجوقي تسيير حملة تأديبية إلى دمشق سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م بقيادة الأمير آقسنقر البرسقي . (٣)

وقد نجحت الحملة باستخلاص حماه من الحكم البوري ، فاندفع طغتكين مستنجداً بالفرنجة لضرب العساكر السلطانية . (٤) وبما أن الفرنجة لايؤمن جانبهم ، كان على طغتكين أن يأخذ الحيطة لنفسه ، ويعمل على تخويف الفريقين من بعضهما ، وقطع الطريق على المدد السلجوقي أن يمتد إلى الشام . (٥)

==

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص١٧ـ١٨

(٢) البندا ري : المصدر نفسه ص١٦١ . انظر حول ذلك ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص٣٩٨ـ٣٩٩ـ العظيمي :المصدر السابق ٣٦٦ ـ الحسيني : أخبار ص١٠٦ ـ ابن الأثير : الكامل ج١٠ ص٤٩٧ ـ الباهر ص١٩ ـ سبط ابن الجوزي : مرآة ج٨ ص٣١ ـ أبو شامة : الروضتين ج١ ص٢٧ ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء الزمان تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت ج١ ص٢٤٢ ـ ابن العبري : تاريخ ص٣٤٦ ـ أبو الفدا : المختصر ج١ ص١٤٥ ـ الذهبي : دول ص٢٦٢ ـ ابن الوردي : المصدر نفسه ج٢ ص٣٦ ـ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية وزارة الثقافة والإرشاد القومي مصر ١٩٦٣م ج٥ ص٢٠٧ ـ رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العريني ط١ دار الثقافة بيروت ١٩٦٨م ج٢ ص٢٠٦

(٣) المملوك التركي قسيم الدولة، أقطعه السلطان محمد الموصل بعد مقتل مودود ، قتل على يد الباطنية سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م ـ العظيمي : تاريخ ص٣٧٦ ـ ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ط١ ١٣٥٨ـ١٣٥٩هـ ج٩ ص٢٥٤ـ الذهبي : سير أعلام النبلاء تحقيق شعيب أرناؤؤط ط١ بيروت ١٩٨٤ ج١٩ ص ٥١٠

(٤) أسامة بن منقذ : الإعتبار ص١١٧

(٥) منتخبات من بغية الطلب في تاريخ حلب ، لـ كمال الدين ابن العديم , RECUEIL HISTORIENS DESCROISADES DEL,ACADE MIEDES INSCRIPTIONS ETBELLESLETTRS HISTORIEN TAUX TOME III PARIS IMPRIMERIE NATIONALE M D CCC L XXX IV

ـ ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ج٢ ص٣٨

ثم اقتضت الظروف المستجدة في المنطقة بعد ذلك ، أن يوثق طغتكين علاقاته مع السلطان السلجوقي ويتوجه إلى بغداد ، سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م ماثلاً أمامه ، داعياً إلى نسيان ما وقع في النفوس من ضغائن ، حاملاً معه أثمن الهدايا والتحف ، فرضي السلطان عنه ، وكتب له ولاية الشام حرباً وخراجاً، (١) في محاولة إبعاده عن التحالف الفاطمي الفرنجي . وقد رأى طغتكين من سياسة التقارب هذه فرصته لتثبيت التوازن في المنطقة ، من أجل الحفاظ على مواقع ، ومصالح الدولة البورية ، بعيداً عن أي خطر يتهدده .

وفي تلك المرحلة العصيبة ، تعرضت دمشق لحملات عديدة من الصليبيين ، أبرزها زحفهم على المدينة ، خلال الحملة الصليبية الثانية ، سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م ، فكان على دمشق أن تضع في حسابها ردّ هذا الخطر ، إضافة إلى المساهمة في إيقاف زحف الفرنجة ، من الوصول إلى باقي البلاد الإسلامية المحيطة بها ، مستعينة برفع ، وإعلاء راية الجهاد ، بمساعدة العلماء ، منهم - أهل الطريقة الصوفية - وموقفهم الجريء ، المشهود له بالبسالة ، حيث جندوا الرعية لخدمة الإسلام ، والدفاع عنه ، ضد الخطر المحدق بالبلاد .

ولشدة تمسك أهل الشام بالإسلام ، فقد نصّبوا ، من علمائهم وزهادهم ، مجاهدين يدافعون ، ويحامون عن الإسلام . فحمل الفقيه العالم الزاهد ، يوسف بن دوباس الفندلاوي المالكي ، وصاحبه المتصوف الحلحولي ، شعار الجهاد ، ولم يمنع كبر سنهما من خوض غمار المعركة ، بين الإسلام والكفر ، فاندفعوا لمواجهة ومقاتلة ملك الألمان ، الذي جاء من بلاده ، واجتمع معه الفرنجة القابعون في الشام ؛ فخرج أهل الشام ، ومعهم الزّهاد والعلماء والمقاتلة ، ولما قاربوا المصاف ، تقدم الفندلاوي ، يذكر اسم الله تعالى ، وقاتل مع صاحبه حتى استشهدا في مكان واحد . (٢)

وحمل لواء الدفاع عن الإسلام ، إضافة إلى من سبق ذكرهم ، العالم الزاهد أرسلان الدمشقي ، وقد سعى لتحريض العامة والخاصة على السواء ، حتى لقبه الدماشقة بـ " حامي بر الشام " (٣) . وقد جعل من رباطٍ له ، خارج دمشق ، ثغراً للجهاد ، وزاوية للعبادة والتحريض ، وتعليم المسلمين أصول العبادة والسلوك .

==

(١)ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٣٠٧-٣٠٨- ابن الوردي : المصدر نفسهج٢ ص٣٩

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ص٤٦٤ - السخاوي : طبقات الأولياء مخطوط ١٦٦٢٧ ص٤٩ظ

(٣) ابن طولون : غاية البيان في ترجمة الشيخ أرسلان الدمشقي ، نشرها أحمد إيبش ، راجعها الأستاذ هاني المبارك ، شارك فيها محمد عامر القباني ط ١ دمشق ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤م ص١٥

هكذا أسهم أهل الطريقة ، في الإمساك بزمام الأمور ، والأحداث التاريخية ، ومنع الفرنجة من تنفيذ مآربهم ، في الوصول إلى الديار المقدسة ، فباءَ مشروعهم بالفشل ، وكان الإسلام وأهله وجنده الحرب الحقيقية على الفرنجة ، هزّت أوتاده ، وقطّعت شراكه .

نستنتج مما سبق أن الدولة البورية ،عاشت سياسات متناقضة ، فقد وطدت علاقاتها مع الفاطميين ، بما لا يتضرر مع العباسيين ، وهادنت الفرنجة الصليبيين لدى إحساسها ، بأدنى بادرة تهدد وجودها في المنطقة ، لايهمها سوء علاقاتها مع السلاجقة ، والزنكيين ، طالما في ذلك إرضاء لمصالحها .

ارتبط تأخر سقوط الدولة البورية فترة من الزمن ، بواقع الظروف الراهنة ، التي ساعدت على بقائها ، وحين فكر زنكي بالقضاء عليها ، تدخل الخليفة العباسي ، وردّ الخطر عنها ، كما نجت في المرة الثانية حين أحدق الخطر البيزنطي الزاحف نحو حلب ، واشرأبت مرة ثالثة ، بمساعدة القدر الإلهي لها حين اختطف الأتابك عماد الدين زنكي ، لكن الستار أسدل على وجودها ، وأسقطت سلالتها على يد نور الدين محمود ابن زنكي ، وبذلك انطوت صفحة هذه الدولة بشكل نهائي .

أهم المدن في الدولة البورية:

ـ الجوانب الجغرافية :

شملت الجوانب الجغرافية الحديث عن موقع دمشق وأهميتهاالإستراتيجية/ وكذلك موقع أعمال دمشق ، التي سنشير إليها تباعاً .

تمثلت حدود الدولة البورية بامتدادها واتساعها إلى الرحبة على الفرات شرقاً مجاورة الدولة الفاطمية ومملكة الفرنجة الصليبيين غرباً بينما امتدت جنوباً حتى طبرية (١) وبانياس ، وامتدت حدودها شمالاً إلى حمص وحماه بين مد وجزر . وبسبب أهمية هذه الدولة على الصعيد الجغرافي والتجاري ، فإننا سنعطي لمحة عن أبرز مدنها للتعريف بها .

ـ دمشق :

مدينة تقع وسط سهل جاف جدب ، ينحدر من شعابها الجبلية نهر بردى تنقل مياهه عبر قنوات إلى الوسط السهلي ليتم توزيعه في مختلف المناطق المنخفضة جالبا الخصب لها بمختلف أنواع الأشجار المثمرة واهبة إلـــى المدينـــة الازدهار والنماء .(٢) وقد أفرد حافظ دمشق ابن عساكر مجلدة تتحدث عن مدينة دمشق (٣)

تعود أهمية دمشق في فترة الحكم البوري إلى أسباب عدة :

١ـ مقابلة المدينة لمملكة بيت المقدس ، وإمارة طرابلس المحتلة من قبل الفرنجة الصليبيين . (٤)

٢ ـ كون مدينة دمشق حاجزاً بين الدولة الزنكية والدولة الفاطمية .

٣ ـ وقوعها على الطريق المؤدي إلى الحج . (٥)

٤ ـ توجه القوافل التجارية منها إلى مصر ، ووصول القوافل المصرية إليها . (٦)

==

(١) طبرية: بليدة مطلة على بحيرة طبرية ، وهي من أعمال الأردن في طرف الغور ، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام ، وهي مستطيلة على البحيرة . ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٤ ص١٧

(٢) وليم الصوري : تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار ترجمة د. سهيل زكار قسم ٢ ص١٧٤ ـ وليم الصوري : (نسخة أخرى) الحروب الصليبية ترجمة د. حسن حبشي الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤ م ج٣ ص٣٠٩

(٣) ابن عساكر : كتاب الأربعين البلدانية عن أربعين من أربعين في أربعين تحقيق محمد مطيع الحافظ دار الفكر المعاصر ط١ ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م ص٥٧

(٤) عاشور عبد الفتاح : الحركة الصليبية ط٢ ١٩٧١م ج١ ص ٣٠٧

(٥) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، نبذ من كتاب الخراج ١٣٠٦هـ / ١٩٨٩م ص ١٩١ ـ ابن عساكر مخطوط تاريخ دمشق ج١٨ ص ١١٦ ـ الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ١٩٧٤م ص ٣٧٦

(٦) ابن القلانسي :المصدر السابق ص ٢٧٤ ـ ٢٩١ ـ ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٤٧٢ ـ ياقوت الحموي : معجم البلدان ط٢ دار الفكر ١٩٨٠م ج٤ ص٤٦١ ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ج٣ ص٤٦

ساعد امتداد الطرق الطبيعية الممتدة لمسافات طويلة إلى قطع بلاد الشام الشمالية عن بلاد الشام الجنوبية ، (١) مما جعل من دمشق مركزاً مهماً لتجارة الشمال (٢) والعراق و الجزيرة وبلاد العرب (٣) ، ومنطقة لعبور القوافل التي تربط النيل بالفرات عبر تدمر . (٤) إن إطلاق تسمية مصر الشام على دمشق ، (٥) يؤكد على موقع هذه المدينة الجغرافي ، ومكانتها الإستراتيجية والاقتصادية .

- **حوران :**

منطقة واسعة من أعمال دمشق تقع وسط سهل كبير ، يتصل مع جنوب دمشق (٦) تتميز أرضه بالخصوبة ، وتختص بزراعة الحبوب (٧) ويدخل ضمن أراضي حوران بصرى وصلخد أما بصرى فتعتبر قاعدة حوران ومدينتها السفلى(٨) ، ثم أصبحت منذ القرن السادس الهجري دار ملك لحكام دمشق البوريين ومركزا من مراكز الدفاع المحصنة لصد الهجمات الفرنجية (٩) .

==

(١) E LISSEEFF NUR AD DIN DAMAS 1967 P 1 P 255

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٥٠٢

(٣) دائرة المعارف الإسلامية : ترجمة أحمد الشنتناوي ، إبراهيم خورشيد ، عبد الحميد يونس ج٩ ص٢٦٤ ـ مقال الصالح (محمد علي) : ـ نتائج الصدمة الاقتصادية لغزو الفرنجة ١٩٨٧م دمشق ندوة حطين ص١٧

(٤) ELISSEEFF: OP, CIT P 1 P 255

(٥) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم بيروت ص١٥٦ ـ بنيامين التطيلي : رحلة بنيامين ترجمة عزرا حداد ط١ مطبعة الشرقية ١٩٤٥ م ص ٧٥

(٦) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٢ ص ٣١٧ ـ القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر بيروت ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠م ص١٨٥ ـ البغدادي : مراصد الإطلاع، تحقيق علي محمد البجاوي طبعة ١ بيروت ١٩٥٤م ج١ ص٤٣٥ ـ الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بولس راويس طبعة مدينة باريس مطبعة الجمهورية ١٨٩٤م ص٤٧

(٧) ELISSEEFF: OP,CIT P 1 P 262

(٨) أبوالفدا : تقويم البلدان ط مدينة باريس دار الطباعة السلطانية ١٨٤٠م ص٢٥٣ ـ الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار تحقيق إحسان عباس طبعة ٢ ١٩٨٠ م ص١٠٩ ـ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار تحقيق فؤاد سيد دون تاريخ ، دون مكان ص١٢٠

(٩) مقال د. صلاح الدين المنجد : الكتابات العربية في قلعة بصرى ، مستخرج من مجلة الأديب آب ١٩٤١م ص ٣٨ ـ٣٩

صلخد:

أمـا صـلخد (صـرخد) فهـي بلـدة صـغيرة تشـرف علـى قلعـة مرتفعـة تتميـز بكرومهـا الكثيـرة (١) . تقلبـت بصـرى وصـرخد فـي أيـدي الدولـة البوريـة فقـد استخلصهما طغتكين من أولاد سيده تتش سنة ٤٩٩هـ / ١١٠٥ م (٢) ، لأهميتهما العسكرية وبذلك تاخمت دمشق مملكة الفرنجة الصليبيين الذين فكروا في السيطرة على الإمارة البورية لاختصار الطرق والمسافات والوصول إلى دمشق . (٣) لهذا السبب حصّن طُغتكين المنطقة الجنوبية ، وقوى دفاعاتها لصد الهجمات المرتقبة ، ثم سلم الموقعين بصرى وصرخد ، إلى خيرة قواده العسكريين للدفاع عنهما . (٤) فتسلم مجاهد الدين بُزان حصن صرخد سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م ، وأُخذت عليه العهود للدفاع عن الحصن وحمايته . (٥)

بانياس :

إحدى كور حوران ، تشكل المنطقة ، إحدى الممرات الطبيعية القليلة عبر نهر الأردن ، وقد شغلت مكانة جيدة من حيث وفرة المياه والأراضي الخصبة (٦) ويغلب عليها كثرة الأشجار والحوامض ، ويزرع فيها الأرز ، وينقل مباشرة إلى دمشق . (٧) ولهذا الثغر أهمية ارتبطت بقلعته الحصينة المعروفة بالصبيبة ، (٨) ورافقه طمع فرنجة بيت المقدس لاحتلاله عبر أساليب متعددة ، لكن طغتكين فوّت

======================================

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٣ ص٤٠١

(٢) العظيمي الحلبي : المصدر نفسه ٣٦٣ ـ ابن أبي الدم(أبو إسحق إبراهيم بن عبد الله) : مخطوطة الشماريخ في التواريخ جامعة أكسفورد وجه ١٤٣

(٣) وليم الصوري : الأعمال قسم ٢ كتاب ١٢ ص١٣٧

(٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ص٢٥٤ـ ٤٦٠ ـ ابن شداد : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، قسم مدينة دمشق تحقيق د . سامي الدهان قسم ٢ج١ مدينة دمشق ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م قسم ٢ ج١ ص٥٦ ـ د . المنجد : مقال الكتابات ص٣٨ـ ٣٩٤

(٥) ابن القلانسي: المصدر السابق ص٤٦٠

(٦) د. الحياري (مصطفى) : مقال مدينة بانياس في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، مجلة دراسات العلوم الإنسانية ، الأردن مجلد ١٣ عدد ١٢ /١٩٨٦م ص١٦٢ ـ ١٦٣ : ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM : ARTICL BANYIAS P1 P 1017

(٧) شيخ الربوة الدمشقي : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر بارسبورغ ١٢٨١ هـ / ١٨٦٥م ص٢٠٠ ـ الظاهري : زبدة ص٤٦

(٨) ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM : ARTICL BANYIAS P1 P 1017

على الفرنجة محاولاتهم ، وحافظ على الثغر فترة ، ثم صانع أحد أدعياء الباطنية ويدعى بهرام ، فسلمه الثغر اتقاء لشره سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م (١)

. حمص :

مدينة تتمتع بأهمية اقتصادية وتجارية ، لوقوعها في منتصف الطريق التجاري بين دمشق وحلب . (٢) ساعد وجود نهر العاصي على خصوبة التربة ، وإحاطتها بسور من البساتين الوارفة . (٣) دخلت المدينة تحت النفوذ البوري سنة ٥٣٠هـ / ١١٣٥م ، أيام شهاب الدين محمود ، حين تخلى أولاد خيرخان ابن قراجا صاحب حمص عن المدينة ، بسبب مضايقة عماد الدين زنكي لها ،وحرصه على الاستيلاء عليها ، باذلاً كل جهده ، بعد مثول حماه ، فضعفت نفوس أهل حمص عن حماية مدينتهم ، من غارات زنكي المتواصلة ، بعد أن أطبق حصاره ، وضم المناطق المجاورة لحدودها ، فساعد ذلك في وصول البوريين إليها . (٤)

يتبع إقليم حمص مدينة قديمة ، على مقربة من البادية تعرف بتدمر . (٥) دخلت إلى السلطان البوري سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م ، (٦) حيث تمت استعادتها بعد ذلك من المتمردين ، الذين وثبوا على ابن أخي طُغتكين أمير دمشق ، فاستقر الأمر له بها ، ونصب الأمير شهاب الدين محمود ابن تاج الملوك والياً عليها . (٧) ومن أعمال حمص ، رفنية ، حصن منيع استولى عليه طغتكين ، بعد غفلة من أهلها ، واستخلصها من الفرنجة ، وهدم أبراجها ، وقتل من بها سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٤م (٨).

حماه :

أرض ذات سهول خصبة يؤمّها نهر العاصي ، تتميز بأهميتها التجارية ، تحفها

==

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ص٣٤٣ ـ الحياري : المقال نفسه ص١٦٢ـ ١٦٤

(٢) بنيامين التطيلي : رحلة حاشية ص١٢٠

(٣) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تاريخ لبنان وفلسطين والأردن ، تحقيق سامي الدهان ، قسم ١ ج٢ ١٣٨٢هـ /١٩٦٢م ج٢ ص٣٢٤

(٤) ابن القلانسي :المصدر السابق ص ٣٩٧ العظيمي الحلبي : المصدر نفسه ص٣٨٨

(٥) ابن خرداذبه : المسالك ص٧٦ المقدسي : أحسن ص ١٥٦

(٦) العظيمي : المصدر نفسه ص٣٧٦

(٧) ابن القلانسي : المصدر السابق ص٣٤٢

(٨) العظيمي : المصدر نفسه ص٣٦٢ ـ٣٦٣ ـ ابن القلانسي المصدر السابق ص٢٣٩

البساتين ، (١) وتغلب عليها الغراس الفائقة ، والثمار الغريبة . (٢) تطل المدينة على طريق القوافل التجارية ، وقوافل الحج القادمة من بلاد الشام ، ومن الشمال الشرقي والغربي ، تتوسط حماه الطريق بين دمشق وحلب ، فأعطاها ذلك تلك الأهمية (٣) .

جبلة :
ثغر بحري مهم ، يضم قلعة مشهورة على الساحل الشامي قرب اللاذقية . (٤) كانت هذه المدينة جزءاً من أراضي الدولة البورية ، لكنها سقطت سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م تحت النفوذ الفاطمي ، وقبض الفاطميون على واليها ، فخر الملك ابن عمار ، المعتمد من قبل الدولة البورية . (٥)

صور :
بلدة حصينة قديمة ، تقع غرب دمشق ، تحفها الأراضي الخصبة ، ويحيط بها البحر من ثلاث جهات ، تتمتع المدينة بشهرتها التجارية . (٦) تعرضت المدينة للخطر الفرنجي الصليبي سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م ، (٧) فأسندت الدولة الفاطمية أمر الدفاع عنها إلى البوريين ، وفوضت إليهم صد الهجمات الفرنجية التي تلاحقت منذ عام ٥٠٥هـ / ١١١١م . (٨)

==

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٢ ص٣٠٠ ـ ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، تحفة النظار لغرائب النظار وعجائب الأسفار ، دار التراث بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ص ٦٢ ELISSEEFF OP,CIT P 1 P 220.

(٢) القلقشندي صبح الأعشى ج٤ ص١٤٠

(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير دار الكتاب اللبناني ص١٨١

(٤) ابن خرداذبه : المصدر نفسه ص ٢٥٥ ص١٠٥

(٥) ابن القلانسي :المصدر السابق ص٢٥٨ ج١ ص٤٥٤

(٦) الإدريسي : نزهة المشتاق ص٣٦٥

(٧) العظيمي الحلبي : المصدر نفسه ص٣٦٣

(٨) ابن القلانسي :المصدر السابق ص٣٣٧

بعلبك :

مدينة مختصرة عن دمشق ، تقع في الجهة الشمالية ، ذات أشجار وأنهار وأعين، وغلات وافرة وفواكه كثيرة . (١) ضم طغتكين بعلبك إلى إمارته سنة٤٩٨هـ / ١١٠٤م ، بعد أن تتالت هجمات الفرنجة الصليبيين وهموا باحتلالها ، إلى جانب ما بلغه من تنكر واليها كُمشتكين في بذل الطاعة له ، فأعاد قبضته عليها ، وأصبحت تحت إمرته . (٢)

هكذا اشتملت الدولة البورية في أقصى اتساعها على دمشق ، وما جاورها من مناطق ، جبلة والبثنية وحوران ، وتدمر وجبل عاملة ، وبصرى وصرخد ، وبانياس وصور ، وبعلبك والشقيف . (٣) وحمص ورفنية وحماه ، لكن النفوذ البوري بقي متماسكاً في دمشق وحوران ، وصرخد وبصرى ، بينما تقهقر وتراجع في مناطق أخرى ، فأسقط من نفوذهم إلى قبضة الزنكيين ، حماة وحمص ، وبعلبك وبانياس وصور ، ليتوقف المد البوري قبالة اندفاع النفوذ الزنكي على الإمارة البورية ، فتحول أمراء دمشق نحو الفرنجة ، مستنجدين بهم حين يشتد الخطر عليهم ، ويحيق بهم .(٤)

==

(١) المقدسي : المصدر نفسه ص١٦٠ ـ أبوالفدا : المصدر نفسه ج١ ص٢٥٥ ـ الظاهري : المصدر نفسه ص٤٧ ـ القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص١٠٩ ـ ابن الشحنة : مخطوط نزهة النواظر في روض المناظر ص٢٨و

(٢) العظيمي : المصدر نفسه ص٣٦٢ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص٢٣٩

(٣) شقيف أرنون : يقع بين دمشق والساحل بالقرب من بانياس ، ويقال : إنه قلعة بالقرب من صور . ـ ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٣ ص٣٥٦

(٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ص٤٢٦ ـ ٤٢٧

الفصل الثاني

اهتمام الدولة البورية بالعلم

النشاط التعليمي قبل الحكم البوري :

مــدخـــل :

اهتم المسلمون العرب بالعلم والتعليم ، فطرقوا مجال العلوم الدينية والعربيـــة والتطبيقية ، وبرزت دور العلم بما أضفي عليها من المظهر العربي الأصيل عبـــر المساجد والزوايا وحلقات العلم ، وطرائق البحث العلمي ، وتم السعي لتناقل العلوم ودراسة المؤلفات والكتب ، وبحث الندوات والمناظرات والسماعات والإجـــازات العلمية ذلك النمط الفريد الذي انفردت به الدراسات الإسلامية العربية . (١) وقد أخذ السماع موقعه ضمن صور التعليم البارزة وهو عبارة عن سمعت (٢) أو قرأت عن ، فيقول أخبرنا أو حدّثنا ، وقد يختصرها فيقول : " أرنا " ، " ثنا" (٣) وهكذا . وقد يستغرق الكثير من العلماء أعمارهم في السماع والرحلة ، وفي جمع الطرق الكثيرة للحديث الشريف ، وطلب الأسانيد العالية . ويمكن أن يقبل البعض على السمـــــاع بصورة غير صحيحة فيتحرك ليقال عنه إنه لقي فلاناً من الناس ، وجمع أو سمع كذا من الأسانيد . (٤)

==

(١) د. موسى باشا : (عمر) مقال دور العلم مجلة التراث العربي عدد٣ مطبعة الكاتب العربي بدمشق سنة ١ عدد٣ ١٩٩٠ م ص٨٩-٩٠

(٢) ابن كثير : الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث دار الفكر بيروت ص٥٧

(٣) ابن عبد البر النمري القرطبي : جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحماه إدارة المطبعة المنيرية بمصر ص٤-٧

(٤) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، المطبعة المحمدية ١٣٦٨هـ ص١١٤

تعرضت دمشق قبل الحكم البوري بفترة قليلة ، لكثير من المصاعب ، فالحروب الصليبية ، بلغت الذروة في احتلال الأراضي والبلاد ، ناهيك عن أن وضع البلاد السياسي كان متأزماً مع وصول البوريين ، حيث تعيش البلاد حالة من التأخر الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، لما خلّفه الفاطميون من آثار سلبية ، بعد أن انتهت سيطرتهم على دمشق . (١) وزاد الوضع سوءاً خضوع المنطقة للسلاجقة وما أثاروه من مشاكل داخلية ، أثرت على البلاد والأوضاع العامة .

في غمرة هذه الأحداث نجح طغتكين في السيطرة على الأمور ، والوصول إلى السلطة ، وتأسيس دولة استمرت بين سنتي ٤٩٧ -٥٤٩هـ / ١١٠٣ـ ١١٥٤م . لم يمنع أثر الأحداث السابقة دمشق أن تكون مدرسة عريقة للعلم ، حيث تلاحقت فيها الدروس وتتابعت عبر جوامعها ومدارسها المنتشرة ، وعقدت حلقات التدريس ، فأقبل الناس على التزود من الثقافة العلمية بها . (٢)

لم يمنع تدهور الاستقرار السياسي ، أن يتوجه العلماء الدماشقة في رحلاتهم العلمية ، نحو الشرق والغرب . (٣) وتنوعت أساليب التعليم ، فكانت المساجد تلقن علوم القرآن ، والعربية ، إضافة لمكانتها في العبادة والصلاة . وحازت الربط والخوانق والمدارس ، على أهمية خاصة ، في نشر الحركة العلمية ، فتم تخريج أو استقبال أعداد لا بأس بهم من العلماء والأدباء ، والمفكرين ، في شتى مجالات العلم والمعرفة .

كانت بدايات النهضة العلمية قد تسارعت منذ القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، حيث بدأت المؤسسات الدينية يتسع انتشارها في دمشق والأماكن الأخرى ، التي أهلت المدرسين ، لتعليم الطلبة ، في القرن السادس

==

(١) GILBERT. J . E : THE ULAMA OF MEDIEVAL DAMASCUS AND THE INTERNTIONAL WORLD OF ISLAMIC SCHOLARSHIP LONDON ENGLAND 1978 P . 1

(٢) البدوي : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، مطبعة النهضة بمصر ص١١ـ٩٠

(٣) ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM : ARTICLE IBN ASAKIR P. 3 P . 714

الهجري (١) .

فبرز الحافظ المحدث ابن عساكر ، والأديب المؤرخ ابن القلانسي ، والشاعر المعروف ابن الخياط ، والعالم المرموق ابن الموازيني ، والمقرىء المتميز سبيع بن قيراط (٥٠٨هـ / ١١١٤م) والفقيه المتمكن ابن الأكفاني ، وكثر غيرهم .

كان للتشجيع العلمي والمادي أكبر الأثر في ازدهار الحركة الثقافية ، حيث أنفقت الأموال الطائلة على العلماء ، والشعراء ، والندوات العلمية والأدبية . وتلقى بعض العلماء والأدباء مرتبات دائمة ، وحصلوا على المناصب العالية ، فكان منهم القضاة ، والولاة ، والأمراء . وكان هذا حافزاً لوفود العلماء إلى دمشق أمثال الإسفراييني ، وأسامة بن منقذ ، والطبيب المعري ، وغيرهم من علماء العالم الإسلامي .

وكذلك وفد العلماء المغاربة ، إلى دمشق ، وجلسوا في كنف الجامع الأموي ، والزوايا ، والمشاهد الأخرى . ولم يلغ هذا الأمر دور علماء البلاد الذين قدّموا لمدينتهم ، معارف وعلوم ورجالات عصرهم ، فتحولت معارف ابن عساكر نحو بغداد وغيرها ، في رحلات ـ سنأتي على ذكرها في حينها ـ تركت بصمات جليّة، حيث أصبح هذا العالم ، منبعاً من منابع علوم الحديث ، يغترف منها كل قادم ، أو دارس لهذا العلم .

رفدت دمشق مدن العالم الإسلامي ، بجملة من العلماء ، حط رحالهم في بغداد ، والري ، ومناطق المشرق الأخرى ، فعمّ نشاط هؤلاء العلماء ، والأدباء ، في الزوايا والحلقات ، والمساجد والمدارس ، مشتركين في تنشيط الحركة الثقافية .

اتخذ الطابع العام للثقافة في عهد الدولة البورية ، الشكل الإسلامي العربي الخالص ، في العقيدة واللغة والصياغة والأسلوب ، وبرزت جذوره في علوم القرآن والتفسير ، والفقه والحديث ، والأدب والشعر . وعمت الندوات والمطارحات الشعرية في حضرة الأمراء ، ونشط التصوف أيضا في هذا النطاق . وانبرى فريق من الزّهاد العلماء إلى الربط والزوايا والخوانق يفرغون حمولتهم العلمية ، فدرس فيها الشيخ نصر المقدسي ، وجمال الإسلام السلمي .

وبرز العلماء الكبار في الفلسفة والعلوم التطبيقية من طب وفلك وهندسة . واشتهر الكثير من العلماء بإتقان فنون من العلوم تجمع بين علم الفقه والتفسير والحديث وعلوم القرآن والفرائض والنحو ، وربما جمع البعض إلى جانب ذلك

==

(١) اليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان مطبعة دائرة المعارف النظامية حيدر آباد الدكن طبعة١ ١٣٣٩هـ ج ٣ ص١٩٧ـ٢٢١ـ٢٦١

- GILBERT: OP,CIT P . 2

علوم الطب والفلسفة وعلم الكلام . وأتقن بعض العلماء اللغات الأخرى ، التي تساعد في مجال البحث والدراسة . فقد أودع الإمام الغزالي كتباً عديدة بالعربية و الفارسية منها كتاب " التبر المسبوك في نصيحة الملوك " . ولما كانت اللغة العربية ، هي لغة القرآن ، فقد توجه العلماء لإتقان فنونها وقواعدها .

توجه الطلبة لتلقي العلم في المساجد والمدارس ، من القرآن والحديث والتفسير ، والفقه وعلوم العربية ، إضافة إلى علوم الطب والهندسة والصيدلة والحساب والفرائض والفلك . وقد تعجب ابن جبير حين زار دمشق ، فأثارته النهضة العلمية التي بهرت عينيه ، فسرّ لاحتضان دمشق لطلبة العلم الغرباء ، الذين لا يدخلون تحت حصر ، وقد انقطعوا إلى الزوايا في الجامع الأموي وكذلك في الربط والمدارس ، وأوقفت عليهم جملة من وجوه المعايش ، مما يدخل تحت صفة الأوقاف لخدمة العلم وأهله . (١)

ونشطت وازدهرت حركة التأليف والتصنيف ، في النواحي الفكرية والدينية والأدبية ، وبلغت مبلغاً عظيماً في علوم القرآن والتفسير ، على اختلاف مناهجها وطرائقها . فترك ابن عساكر مؤلفات عديدة في علوم الفقه والحديث والمذاهب والتاريخ ، وخصص مؤلفاً ضخماً لمدينة دمشق ، وعلى منواله سار باقي علماء العصر .

وتوجه الإهتمام أيضاً إلى كتب الطبقات ، والعلوم التطبيقية ، فكتبت المجلدات في الطب والصيدلة ، والفيزياء (علم الحيل) والكيمياء (علم الصنعة) وعلم الفلك والموسيقى . (٢)

ولا غرو فإن الشمولية لدى العلماء المسلمين ، وتوسع تخصصاتهم ، أنضج فكر الحضارة الإسلامية العربية ، وتحول بها إلى الإبداع في كافة فنون المعرفة المكتبية، بما احتوته من شروح ، وتفاسير ، لمفردات اللغة ومواطن البلاغة . هذا غير ما خاضته الفرق الإسلامية ، في العديد من المسائل في الأصول والفروع ؛ فهذا الكاساني (أبو بكر ت ٥٧٨هـ / ١١٨٢م) قدم إلى دمشق ، وحضر بين يدي الفقهاء ، وطُلب منه الكلام معهم في بعض المسائل فقال : لا أتكلم في مسألة فيها خلاف أصحابنا ، فعينوا له مسائل كثيرة ، أوجد لها حلولاً بما ذهب إليه مذهب الإمام أبي حنيفة ، وانقضى المجلس على ذلك . (٣) وقد مثّل المجلس الموما إليه صورة لمجالس عديدة ، ومناظرات علمية مفتوحة ، تفتحت عن قرائح ما حمله هؤلاء العلماء من المعرفة .

==

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير دار الكتاب اللبناني ص١٩٤ـ١٩٥

(٢) ظافر القاسمي : مقال المرأة في تاريخ ابن عساكر ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، في ذكرى مرور تسعمائة عام على ولادة ابن عساكر ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩مص٦٢٥ـ ٦٢٦

(٣) الحنائي : مخطوط طبقات الحنفية رقم ٨٩٥٠ مكتبة الأسد ص٥٦ وجه ـ قطلوبغا : تاج التراجم في طبقات الحنفية ص٨٤ ـ ٨٥

وعقد العديد من العلماء عدة مجالس علم في أوقات متعددة منها أيام الجمع. (١) وكان باستطاعة أحدهم أن يملي في جامع دمشق أربعمائة مجلس . (٢) عقدت هذه المجالس لقراءة كتب التفسير ، والحديث ، والفقه . (٣) وقد أملى العالم علي بن المسلم الدمشقي (٥٣٣هـ / ١١٣٨م) عدة مجالس مهمة . (٤)

ومما زاد من روح التفتح والإبداع ، عدم تبرم العالم أو انزعاجه إذا ما التفت إليه أحد من الطلبة ، بإيماءة مصححاً له ما قد زل به بحياء ووقار ، فيشكر له العالم حسن البادرة تلك ويقدم على تصحيح الخطأ ، لما قد يجرّه الاستمرار به ، إلى حرف الطلبة عن سواء السبيل .

وتنافس التلامذة مع أساتذتهم في مسائل الخلاف ؛ حتى تميز بعض الطلبة على الرغم من صغر سنهم ، بحدة الذهن وصفائه ، مع المقدرة على دراسة الأفكار مع الأستاذ من غير ما منازعة أو إفحام ؛ ومع ذلك يشير الحضور من الفقهاء على الأستاذ أن يمسك قليلاً ، ولا يلتفت لخوض مثل تلك المنازعات (٥) ، حتى لا يصبح الدرس عبارة عن مناظرات ، لا جدوى منها بين جمع من الطلبة ، الذين جاءوا لغرض الدرس ، لا لتبديد الوقت ، وتشتيت الذهن .

ومما لا شك فيه أن الأوضاع السياسية لها أثر كبير في التعليم ، من حيث انتشار المدارس والربط والزوايا ، بالإضافة إلى الدور الأساسي للمساجد ، وخاصة الجامع الأموي . وقد أعطى هذا السلطة الحاكمة دوراً هاماً وبارزاً ، بما تركته من أثر على التعليم في البلاد . فكانت زمرد خاتون (٥٥٧هـ / ١١٦١م) ذات اهتمام كبير في تنشيط النهضة العلمية ، حيث بنيت المدرسة الخاتونية ، وأوقفت عليها الأوقاف الكثيرة ، (٦) ونصّبت عليها أول مدرّس حنفي ، الفقيه برهان الدين البلخي (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م) . (٧)

أدت العصبية المذهبية في بعض الأحيان ، لإثارة بعض المشكلات ، وتسليط الأضواء السياسية على التعليم ، وتدخل السلطات الحاكمة ، وفق مصالحها ،

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوطة ج ٢ ص٨١٩

(٢) ابن النجار : المستفاد من ذيل بغداد تحقيق محمد خلف ، بشار عواد معروف طبعة ١ بيروت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ص٣٣٥

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوطة ج ٥ ص١١١

(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوطة ج ١٢ ص٥٤٥ ـ ٥٤٦ ـ السيوطي : طبقات المفسرين ط ١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨١م ص٧٣

(٥) السبكي : طبقات الشافعية تحقيق محمد محمود العتاهي ط ١ ١٩٦٧م ج ٦ ص٩

(٦) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج ٨ ص١٣٤

(٧) ابن شداد : الأعلاق ج ٢ ص٢١٨ ـ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص٥٠٢ ـ العلموي : المصدر نفسه ص٨٦

لوقف تحرك العلماء المخالفين لأراء البعض . وكان الصراع حثيثاً بين الحنابلة والشافعية ، والأحناف والحنابلة ، والحنابلة والمالكية ، لاختلاف وجهات النظر في بعض المسائل الشرعية .

كانت سياسة الدولة البورية ، تعتمد تقوية نفوذ المذهب الحنفي ، مذهب الدولة ، فسعت لنشر المدارس الحنفية . ولما قامت محاولات الحنابلة لبناء مدارس خاصة بهم، تحرك العالم عبد الوهاب الحنبلي (ت ٥٣٦هـ / ١١٤١م)داخل باب الفراديس ولم يلق ذلك رواجاً عند السلطة الحاكمة ؛ بل خرجت عليه زمرد خاتون ، تمنع بناءه للمدرسة الحنبلية ، وتوجه مخالفو الحنابلة إلى زمرد خاتون قائلين : إن دمشق عامتها شافعية ، وبناء مدرسة كهذه تثير الفتن والاضطرابات والمفاسد ؛ فأوحت إلى ابن الحنبلي بإيقاف ما يسعى إليه ، فاستجاب ملياً ، ثم تابع بناء المدرسة ، ونصب المحراب ، مخالفاً أوامر زمرد ، وقال : " قد بنيت بيتاً من بيوت الله تعالى ، ونصبت محراباً للمسلمين " فإن رغبت بهدمه فلترسل من يهدمه ، وصاح على الصناع أن اعملوا . فبلغ الأمر زمرد فقالت :" أنا مالي وللفقهاء " (١) .

ومن المدارس التي أنشأتها الدولة البورية ، المدرسة المعينية ، نسبة إلى الأمير معين الدين أنر ، فجلب إليها المدرسين والعلماء من داخل الإمارة وخارجها(٢) . وبنى كمشتكين بن عبد الله المعروف بأمين الدولة ـ والي صرخد ـ المدرسة الأمينية ، (٣) وأوقف عليها غالب ما حول سوق السلاح ، وقيسارية القواسين ، كانت تسمى حق الذهب ، لضمان بقائها واستمرارها . (٤)

كما بنى مدرسة في بصرى على المذهب الحنفي من ماله الخاص ، ووقفها على

==

(١) ابن رجب الحنبلي : كتاب الذيل على طبقات الحنابلة تحقيق ونشر هنري لاووست د. سامي الدهان دمشق ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م ج ١ ص٢٣٨ـ٢٣٩

(٢) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ج ٢ ص٢١٠ـ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص٥٨٨

ـ الصفدي : نكت الهميان في نكت العميان القاهرة دار المدينة ١٩١٩م ص١٢٠ـ١٢١ ـ SAUVAGAT: REPERTOIRE CHRONOL GIAUE DEPIGRAPHIE ARABE DELINSTITUT FRONCALIS P 8 . P . 165 N . 3033

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق تحقيق د. صلاح الدين المنجد قسم ١ مجلد ٢ دمشق ١٩٥٤م ج٢ ص٧٤

(٤) الصفدي : الوافي بالوفيات طبعة ٢ دار صادر بيروت ١٩٨٢م ج ٥ ص٨٨ ـ النعيمي : المصدر نفسه ج ١ ص١٧٨ـ١٧٩ ـ بدران : منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ، منشورات المكتب الإسلامي للطباعة والنشر بدمشق طبعة١ مطبعة روضة الشام ١٣٣١م ص٨٦

الفقهاء والمتفقهة ، الذين يلازمون دروس العلم ، وتلاوة كتاب الله تعالـــى على المذهب الحنفي . (١) وبنى طرخان بن محمود الشيباني(ت ٥٢٠ هـ / ١١٢٦م) وهو أحد الأمراء الكبار ، المدرسة الطرخانية (٢) . ووقف مجاهد الدين بزان المدرسة المجاهدية الجوانية والبرانية (٣) ، ويعتبر أحد مقدمي الجيش، ناب بصر خد (٤) . وأوقف المجاهدية البرانية على جماعة الفقهاء الشافعية . (٥) وتابع رجال الدولة بناء المدارس فأنشأ الأمير أكز الدقاقي (ت٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م) مدرسة للفقيه البلخي أوقفها في محلة الكنيسة . (٦)

لم يمنع بناء المدارس من قبل الحكام أن يتدخل هؤلاء في أحوال وشؤون العلماء سلباً أو إيجاباً . فقد حظي معظم العلماء بالاحترام والرعاية أيام طغتكين ، وأشار طغتكين على ولده بوري أن يقربهم ، وسلم إلى بعض منهم الأعمال السلطانية ، والمناصب المهمة في الدولة ، وكذلك أماكن التدريس في المساجد والربط وبعض المدارس (٧) . ومن هؤلاء العلماء محمد ين الخليل بن فارس أبو العشائر المعروف بالكردي ، أوكل إليه منصباً في الأعمال السلطانية ، ثم ترك هذا العالم عمله ، وخرج من دمشق وسكن بعلبك وقدم على واليها ثم ترك التصرف في الخدمة لديه وعاد إلى دمشق لنشر العلم وتسميع الحديث وغيره توفي سنة٥٤٩هـ / ١١٥٤ م(٨)

ومارس بعض العلماء مهام الرسل إلى بغداد ، حيث دار الخلافة ، أو إلى حلب حيث مركز السلطنة النورية ، وغيرها من الأماكن الأخرى . (٩) فتوجه عبد الوهاب الحنبلي الفقيه رسولاً من قبل الأمير بوري سنة ٥٢٣ هـ /١١٢٨م إلى بغداد ، طلباً للنجدة ، والتحريض على الجهاد ضد الفرنجة وهجماتهم المتكررة

==

(١) SAUVAGET : OP,CIT P. 8. P.199 N. 3077

(٢) ابن شداد : الأعلاق ج٢ ص٢٠١ _ النعيمي : الدارس ج١ ص٥٣٩

(٣) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج١ ص١٢٣- العلموي : المصدر نفسه ص٧٢

(٤) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٥٣

(٥) SAUVAGET : OP,CIT P.194 N.3072

(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ٢ ص٧٥
النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٨١

(٧) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٣٤٧ -٣٤٨
ALPTEKIN : OP,CIT P. 86

(٨) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٣٠٤

(٩) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٠٢ - ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب تحقيق د. سهيل زكار دمشق ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م ج٨ ص٣٦٣٢ ـ ٣٦٣٣ ص٣٦٣٥

على دمشق . (١) ووصل إلى دمشق من الرسل ، عبد الرحمن بن الحسن العجمي الفقيه الحلبي ، قادماً من قبل صاحب حلب ، وقد توفي سنة ٥٦١هـ / ١١٦٥م . (٢)

وأوكلت الدولة البورية مهمة نقل الرسائل إلى البلاد الأخرى ، فحمل العالم هبة الله بن طاووس المقرىء (ت ٥٣٦هـ / ١١٤١م) رسالة من تاج الدولة تُتش إلى السلطان ملكشاه . (٣) وهذا محمد بن عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الله الشيباني كان يَنفذ بالرسائل إلى الشام وخراسان مراراً، كان معروفاً بالإقدام ، محمود السيرة والمصدر والمورد ، صاحب رأي سديد . وعلى الرغم من تميزه بالكتابة والشعر والأدب ، ألا أنه كان يتحين فرص وصوله لدمشق ، للاستماع إلى محمد بن نصر القيسراني ، توفي الشيباني سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م . (٤)

ومع قيام بعض العلماء بالمهام الدبلوماسية المقررة لحل المشكلات والأزمات ، إلا أن هذا لم يجعل منهم أناساً متغافلين عن المفاسد ، فالغاية الأولى بالنسبة لهم ، إيجاد الحلول والمشكلات ، وردع الحكام ، وإعادتهم إلى جادة الصواب ، والكشف عن ستار الظلم والفساد إن وجدا . كان العالم الزبيدي محمد بن يحيى الإمام ، عالماً قدوة واعظاً ، قدم إلى دمشق ، بناء على طلب الخليفة العباسي المسترشد ، لبحث مشكلة الباطنية في دمشق ، فلم يتحمل الظلم الذي رآه في دمشق ، فأخذ يحضّ على الإصلاح ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لم يحتمل طغتكين تصرفاته ، فأجبره على مغادرة دمشق . (٥)

اتبع فريق من العلماء سياسة تجنب السلطة البورية وغيرها ، فكان نصر المقدسي (٤٩٠هـ / ١٠٩٦م) يتجنب السلاطين ، ولا يقبل منهم صلة ، ولم يحمل نفسه على القيام لهم حين يفدون عليه مستفسرين ، وسائلين عن أمور وأحوالٍ تخص شؤون البلاد . ورفض مرة مبلغاً من مال الجزية وقال : لا حاجة لنا إليه ، ورده مع الرسول ، فلامه تلميذه الفقيه نصر الله المصيصي وقال له : " قد علمت حاجتنا إليه ،

==

(١) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٠٨ ـ ابن رجب الحنبلي : طبقات ج١ ص٢٣٧

(٢) ابن عساكر : تاريخ مطبوع ج٤ ص٢٦٢ ـ السبكي : طبقات ج٧ ص١٤٧ ـ الطباخ الحلبي : من أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ط١ ١٣٤٢هـ / ١٩٢٣م ج٤ ص٢٥٠

(٣) السبكي :طبقات ج٧ ص٣٢٤ ـ الجزري : (محمد بن محمد) غاية النهاية في طبقات القراء مكتبة السعادة مصر ج٢ ص١٣٣

(٤) ابن قاضي شهبة : مخطوط طبقات النحاة واللغويين مكتبة الأسد رقم ٣٤٦٨ ـ ٧٨٤٠ ص٧٣ ـ ٧٤

(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٣١٦- ٢١٧

فلو كنت قبلته " جعلته لنا ، فقال له : " لا تجزع عن فوته ، فسوف يأتيك من الدنيا ما يكفيك فيما بعد " (١)

وسلك الفقيه نصر الله المصيصي (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م) طريق أستاذه ، متجنباً الدخول على السلاطين والحكام . (٢) ورفض العالم نجم الدين بن شرف الدين ، أن يلي أية ولاية من جهة السلطان حتى مات ، وأشار صراحة إلى ذلك قائلاً : " أنا ما توليت القضاء ولا حبست ولا ضربت ولا ظلمت أحداً ، ولا حكمت بين الناس " (٣)

وأعرض الحافظ ابن عساكر عن رجالات الدولة والمناصب ، من إمامة وخطابة (٤) ، وتبرم من الأمراء الكبار فاضحاً كل مخالفة ، آمرا بالمعروف ناهياً عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم . (٥) وعندما فضح العالم برهان الدين البلخي (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣ م) مظالم مجير الدين أبق ، وأصر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، اعترض الأمير البوري طريقه ، فخرج من دمشق إلى صرخد ثم أعيد تقديراً لمكانته ، وهذا ما أعطاه مسحة من الاحترام. (٦)

كانت للشيخ البلخي مساهمات في حل بعض المشاكل السياسية في الدولة البورية ، مثل نزع فتيل الحرب وإقامة الصلح بين نور الدين وأمير دمشق سنة ٥٤٦هـ / ١١٥٠ م ، وأن لا حاجة أن يقتتل بعضهم مع بعض ، لأن الصحيح عمله مجاهدة الفرنجة وبذل الروح والنفس لقتالهم . (٧) وكان للفقيه البلخي دور مهم في تزويج زنكي من زمرد خاتون سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦ م . (٨)

أما شخصية أسامة بن منقذ فكانت مهمة للحكومة البورية ، فقد اعتمدت عليه في السفارة السياسية مع الفرنجة الصليبيين ، أيام الأمير جمال الدين محمد ، يتردد

==

(١) ابن عساكر :تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٧ ص٥٣٦ ـ٥٣٧ ـ ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية بيروت ١٤٠٧ه/ ١٩٨٢م ج١ ص٢٨٣

(٢) ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج١ ص٣٣٤

(٣) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٦٩

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٥٦٥

(٥) ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج١ ص٣٤٥ـ ٣٤٦ـ اليماني : غربال الزمان في وفيات الأعيان تحقيق محمد ناجي العمر بإشراف عبد الرحمن الإرياني مطبعة زيد بن ثابت دمشق ١٩٨٥م ص٤٥٤ـ٤٥٥

(٦) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٨٩

(٧) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٨٩

(٨) العظيمي : المصدر نفسه ص ٣٨٨

في الصلح بينهما ، مستغلاً الفرص السانحة لتخليص الكثيرين من أسرى المسلمين من القبضة الفرنجية . (١) وتابع العالم عبد الله بن محمد بن هبة الله بن أبي عصرون ، أبو سعد التميمي (ت٥٨٥هـ / ١١٨٦م) (٢) ، دوره السياسي ، وتوجه إلى بغداد رسولاً من الشام ، حين دخلها سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م .

ووقفت الدولة البورية من جانب آخر ، موقفاً سلبياً من بعض العلماء ، فلم يحفل طغتكين بالعالم عبد الرحمن بن الحسين بن أبي عبد الله الطبري البغدادي الفقيه (كان حياً ٥٣١هـ / ١١٣٦م) حين نزل بالمرج ظاهر باب البريد ، طالباً منصب القضاء ، فلم يتحقق له مراده ، فأراد الضغط عليه عبر مجموعة من الكتب ، أنفذها إليه دونما جدوى . (٣)

هكذا كان للدولة البورية وأمرائها إسهامات ، اتضح الكثير منها في الوقف من أجل نشر العلم والتعليم ، وبناء المدارس والربط ، إضافة إلى جذب العلماء ، وتكليفهم المهام الصعاب ، وسَعَت من جهة أخرى للضغط على بعض العلماء وتسخيرهم لأداء المهام المطلوبة منهم ، أمام الرعية ، وفي رسم صورة حسنة للسلطة الحاكمة ، ومتجاوزين المفاسد والمظالم التي لم يسكت عنها هؤلاء العلماء .

==

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الإعتبار ص١٠٥

(٢) ابن الدبيثي : المختصر المحتاج إليه من تاريخ أبي عبد الله بن الدبيثي ، انتقاء محمد بن أحمد الذهبي ، عني بتحقيقه والتعليق عليه د. مصطفى جواد مطبعة المعارف بغداد ١٣٧١هـ / ١٩٥١م ج٢ ص ١٥٨-١٥٩

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٤٠ ص٢٦٧-٢٦٨

الباب الثاني

الدُوْر العلمية في عهد الدولة البورية

الفصل الأول : دَور المساجد والزوايا والربط والخانقاوات والأوقاف في الحياة العلمية

الفصل الثاني : الكتاتيب والمدارس وأبرزها في الحكم البوري

١- **المدارس الحنفية** :
أ- المدرسة الصادرية ب – المدرسة الطرخانية
ج – المدرسة الخاتونية د – المدرسة البلخية الأكزية
هـ -المدرسة المعينية

٢- **المدارس الشافعية** :
أ – المدرسة الأمينية ب – المدرسة المجاهدية الجوانية
ج – المدرسة المجاهدية البرانية د – المدرسة الجاروخية

٣ – **المدارس الحنبلية** :
أ – المدرسة الشريفية الحنبلية ب – المدرسة المسمارية

الفصل الأول :

دَوْر المساجد والزوايا والربط والخانقاوات والأوقاف في الحياة العلمية

دَور المساجد والزوايا والربط والخانقاوات والأوقاف في الحياة العلمية :

أولاً : المساجد :

لمّا كان التعليم عبارة عن حلقات دراسية ، فقد توجب على الطالب المتعلم أن يجتاز مراحل العلم ، مرحلة إثر أخرى ، لذلك فإن أهمية المساجد استمرت ، وتزايدت، حتى غدت مجمعاً وملتقى للعلماء في فنون العلوم ، من علوم القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وعلوم العربية ، وما يتفرع عنها من شعر ونثر ونقد ومناظرة ، بالإضافة إلى علوم الطب والهندسة والرياضيات . (١)

وسيبقى المسجد الإسلامي ، مصدر إشعاع لكل الدراسات الدينية والعلمية والإنسانية ، بكل ما يحمله من أصالة ووفاء . وكان المسجد المركز الأساسي للجهاد في سبيل الله تعالى ونشر الإسلام ، كما كان المعهد الأول لتعليم القراءة والكتابة، وأمور الدين ، ففي المسجد وُضعت لبنات الثقافة الإسلامية .(٢)

تحولت المساجد إلى معاهد مفتوحة لكل راغب في الإستزادة من العلوم والمعارف والآداب . وأوقف العلماء والفقهاء والزهاد أنفسهم لبث العلم بين الناس ابتغاء مرضاة الله تعالى . كان التعليم أحد ضرورات الحياة ودعائمها لترسيخ التربية الصحيحة التي حثت الدعوة عليها ، فتسابق الطلبة ، إلى المساجد لتغدو المكان الملائم لاجتماع المسلمين ، تعقد فيها حلقات الإقراء والتدريس والحديث والوعظ ، وكان الحافظ ابن عساكر يتلقى العلوم في الجامع الأموي . (٣)

اقتصر التعليم في المسجد في بداية الأمر على تعليم القرآن الكريم وحفظ آياته ، وفهم ألفاظه ومعانيه ، وعلوم السنة الشريفة ، والشريعة ، وعلوم اللسان . (٤)

ثم استتبعت الحلقات العلمية في المساجد ، لخلق حركة علمية وازدهار ثقافي وديني ، ثم العمل على تطوير الدراسة العقلية ، والتفكير المنطقي ، والبحث في المسائل بكل موضوعية . فكانت مسلكاً لوضع الأسس القويمة لعلم الفقه الإسلامي، كان المنهج التعليمي قد بدأ في المسجد بالعلوم الدينية والوعظ والإرشاد ، ثم بدأ يدلي بدلوه في المواضيع العلمية الأخرى ، خاصة بعد أن دخل

==

(١) نبيلة حسن : تاريخ ص٢٣٩ ـ حسين أمين : مقال ، المسجد وأثره في تطور التعليم ، مجلة الدراسات التاريخية عدد خاص بمناسبة حلول القرن الخامس عشر الهجري ص٩-١٠

(٢) حسين أمين : مقال المسجد ص٥

(٣) د. فائق بكر الصواف : مقال : ابن عساكر مؤرخاً المجلس الأعلى للعلوم ص٥٤٣

(٤) حسين أمين : مقال المسجد ص٥-٦ ـ علي الطنطاوي : الجامع الأموي وصف وتأريخ مطبعة الحكومة بدمشق ص٥

الأعاجم في الإسلام . وتعرضت اللغة العربية للوثة هؤلاء ولحنهم ، إضافة إلى اتخاذ الشعراء المسجد لرواية الشعر . (١)

كان الجامع الأموي وجوامع دمشق الأخرى في ظل الدولة البورية ، قد حظيت بنصيب في نشر الثقافة والعلم . لكن الجامع الأموي تفوق على كل المساجد الأخرى ، فقد كان له دور كبير على مرّ التاريخ ، كما كان له أثر كبير في الحياة السياسية والجهاد في سبيل الله ، بالإضافة إلى أدواره العلمية والدينية الأخرى ، فهو أحد عجائب الدنيا .مكانة وأتقنها صناعة ، وأبدعها حسناً وبهجة وكمالاً ، بناه الوليد بن عبد الملك الأموي ، وأنفق عليه أموالاً عظيمة . (٢) ثم غدا أحد المراكز العلمية التي تنعقد فيها الحلق الدراسية ، فمن فضائله أنه لا يخلو من قراءة القرآن الكريم والصلاة ، وأما أئمته فثلاثة عشر إماماً ، أولهم إمام الشافعية – كون أهل دمشق شافعية – ثم إمام المالكية ، ثم إمام الحنفية ، ثم إمام الحنابلة . (٣)

أقيم في المسجد حلقات التدريس في فنون العلوم كلها . فالمحدثون يقرؤون كتب الحديث على كراسي مرتفعة ، وقراء القرآن يقرؤون القرآن بالأصوات الحسنة صباحاً ومساء . وضم الجامع أيضاً جماعة من المعلمين لكتاب الله تعالى ، يستند كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد لتلقين الصبية وإقرائهم القرآن الكريم. (٤)

ويسعى جاهداً أن يسترعي ويشد انتباه الطلبة وحضورهم القوي للدرس والنسخ . فهو أول المؤسسات التعليمية في دمشق ، وأهمها على مدى القرون . (٥)

تُرك للمعلمين حرية تنظيم العمل وتحديد الزمان والمكان في المسجد ، وكذلك توفيق ساعات العمل ، بحيث لا يحدث أي تضارب في العمل بين المعلم

==

(١) حسين أمين : مقال المسجد ص٦-٧-٨

(٢) ابن بطوطة : المصدر نفسه ص٨٣- الحميري (أبو عبد الله محمد) : الروض المعطار في خبر الأقطار تحقيق إحسان عباس ط٢ ١٩٨٠م ص١٨٩-١٩٠ – ابن الوردي (سراج الدين أبي حفص عم ٦٨٩ ص٧٤٩هـر):خريدة العجائب وفريدة الغرائب القاهرة المكتبة الشعبية بيروت لبنان ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م ص ٣٨- البدري (أبو البقاء عبد الله) : نزهة الأنام في محاسن الشام دار الرائد العربي بيروت لبنان ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ص٢٣-٢٤

(٣) ابن بطوطة : المصدر نفسه ص٨٨

(٤) ابن بطوطة : المصدر نفسه ص٨٨-٨٩

(٥) زغلول : (سلام) الأدب في العصر الأيوبي مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٧ م ص ٦٤ ـ ملكة أبيض : مقال ، تنظيم التعليم بالمسجد الجامع بدمشق قبل نشوء المدارس ، التراث العربي عدد ٢٢ ص١٩٨

و زملائه الآخرين في المهنة .

ويجب على المعلمين أن يقدموا ما يتناسب وأفكار الطلبة ، وقد اتبع المدرسون أكثر من نموذج في التدريس ، مستمدين ذلك من شموليتهم ، ومقدرتهم على تدريس أكثر من موضوع . (١)

كانت الحرية متوفرة لكل فرد في المسجد ، يختار ما يرغب الاستماع إليه من العلوم ، وما يرغب فيه من الدروس ، دون وضع أي قيود عليه ، تحدّ من حريته ، إلا أنه أمكن تقسيم الطلبة الحضور إلى قسمين : الطلاب المنتظمون في الدراسة ، المواظبون على الدروس من الصباح إلى المساء ، لإتمام المنهج ، والحصول على الإجازة من الأستاذ المختص ، بعد الدراسة عليه سنوات عديدة ، يبكرون في الحضور إليه ، وينكبون على الدرس معه .

أما الطلاب غير المنتظمين ، أو المستمعين ، فهم الذين يحضرون لاستماع بعض الدروس من دون الحصول على الإجازة . (٢) ومما لاشك فيه أن الجامع الأموي ، كان المؤسسة التربوية الأم ، الذي تحمّل مسؤولية التعليم في المدينة وما حولها ، وما يصل إليها . وتتابعت أهمية الجامع الأموي ليغدو مدرسة قائمة بحد ذاتها، تحولت فيما بعد إلى ميادين متخصصة ، على شكل حلقات يُدّرس فيها جميع العلوم ، مثل النحو ، وقراءة القرآن الكريم ، والفقه ، (٣) وعلم الحديث ، لتعليم الطلبة . وقد درّس الفقه في المسجد الجامع، الفقيه سديد الدين، أبو عبد الله محمد بن يوسف العقيلي الحوراني المتوفى سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م . (٤) ودرس النحو في الجامع علي بن الحسن الكلابي إلى جانب علوم الدين الأخرى . (٥)

لم يقتصر التعليم الإسلامي على الجامع الأموي ودوره كمؤسسة تربوية ترفد الدولة بمتعلمين تفيد منهم في كل العلوم ، بل قامت بدوره مساجد التعليم الأخرى في دمشق وخارجها ، نذكر منها المسجد الذي في المدرسة الصادرية (٦) التي على باب الجامع مما يلي البريد ، والمسجد الذي في المدرسة المعينية في قصر الثقفيين (٧) والمسجد الذي في المدرسة المعروفة بدار طر خان ، (٨) والمسجد الذي في مدرسة

---

(١) ملكة أبيض : مقال ، تنظيم التعليم ص٢٠٠

(٢) فهمي : مبادىء ص٣٧ - الوشلي : المسجد ص٤٩

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم عيد الله بن جابر) ص٢٣٦ - مجلد ٤٠ ص٢٦٢

(٤) الأصفهاني : خريدة ج١ ص٣٠٩

(٥) القفطي : إنباه الرواة ج٢ ص٢٤١-٢٤٢

(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ج٢ ص٧٥ - ابن عبد الهادي : ثمار المقاصد ص٩١

(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ٢ ص٧٦ - ابن عبد الهادي : ثمار المقاصد ص٩٤

(٨) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ج٢ص٧٢ - ابن عبد الهادي : ثمار المقاصد ص٨

الحنابلة عند قناة جيرون ، (١) والمسجد الذي في المدرسة الأمينية مقابل دار الخيل . (٢) وكان مسجد خاتون مدرسة رئيسية للتعليم بنته زمرد خاتون . (٣) وهناك مسجد في مدرسة مجاهد الدين بزان .

حفلت المساجد بألوان الحياة الثقافية ، وزاد عددها في دمشق على مائتين واثنين وأربعين مسجداً في دمشق وحدها ، غير المساجد التي ربضت خارج المدينة مما يدل على اهتمام أهلها بالدين وكثرة المتعبدين والمصلين . (٤) وأخذت المساجد أهميتها العلمية أيضاً خارج دمشق ، فكان دور مسجد بصرى (٥) والمسجد الجامع في بعلبك ، (٦) الذي ترك بصمات تدل على دوره العلمي ، وبرز من علمائه أبو علي الحسن بن أحمد بن المبارك ، قرأ على محمد بن أبي المضا البعلبكي في المسجد الجامع ببعلبك وتوفي سنة ٥٦١هـ/ ١١١٥ م (٧)

وكان للمسجد الكبير في حماه دور كبير في نشر العلوم ، حيث تولى تدريس النحو فيه عبد الله بن خلف الكفرطابي المعروف بطيح توفي سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠ م .

==

(١) ابن عساكر : تاريخ ج٢ ص٧٣ - ابن عبد الهادي: ثمار ص٨٧
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ج٢ ص٧٤
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص١١٢ - ابن الأثير : المصدر نفسه ج١١ ص٥٥ - ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢١٨ - سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٣٤-١٣٥-١٤٩- النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٥٠٢ - العلموي : المصدر نفسه ص٨٦ - ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب من أخبار من ذهب دار الفكر ط/ ١٣٩٩هـ/١٩٧٩ م ج٤ ص١٧٨ - بدران : منادمة الأطلال ومسايرة الخيال منشورات المكتب الإسلامي للطباعة والنشر بدمشق ط١ مطبعة روضة الشام ١٣٣١هـ ص١٧٨
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ج٢ ص٧٨ - ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص١٥٦
- النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٥١
(٥) SAUVAGET: OPCIT N. 2951 P. 94-93
(٦) ابن عساكر : تاريخ مجلد ٤٠ ص٢٦٢
(٧) ابن عساكر : مخطوط ج١٥ ص٦٩٥
ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM - BALABAKK P.1 P. 971 .

ودرس في جامع حماه اثنتي عشرة سنة . (١) وتميز التدريس في المساجد بالحرية المطلقة ، وكان للمدرسين الخيار في اختيار مناهج الدراسة وأسلوبها وأوقافها ضمن شروط الواقف (٢) . إلا أن الجامع الأموي كان من أكثر المساجد نشاطاً علمياً بلغ أوجه في ثلاثة صوامع واحدة ، منها في الجانب الغربي تحتوي على مساكن منسقة وزوايا يقطنها أقوام من الغرباء ، وكان البيت الأعلى منها المكان الذي اعتكف فيه الإمام الغزالي . وهناك صومعة ثانية في الجانب الآخر وثالثة في الجانب الشمالي على الباب المعروف بباب الناطفيين . (٣)

فتميز الجامع الأموي من خلال مرافقه وأوقافه التي أقيمت لخدمة طلاب العلم (٤) واستهوى ألباب المغاربة والأندلسيين ، وسارعوا إليه وإلى دمشق لأخذ العلم عن علمائه وعلماء المدينة ، مع تقديم ما لديهم من علوم ومعارف . وقد صدحوا بقولهم : إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها . (٥) ونعود فنقول إن للمغاربة نصيب في المذاكرة أو التدريس ونشر العلوم . (٦)

أقيمت الأوقاف في المسجد الأموي ، لخدمة الفقهاء المشتغلين في الفقه ، وقد حبست فاطمة بنت علي بن قبيس الغساني وأختها وقفاً على محراب الجامع الأموي ، وعلى الفقهاء المالكية، المشتغلين بالفقه في جامع دمشق . (٧) ساعدت الأوقاف التي وضعت في الربط والخانقاوات لخدمة الفقراء والفقيرات وخاصة من النساء على حل الكثير من المشاكل التي كانت تعترضهن ، وأسهمت في حمايتهن وصونهن ، فقد أوقفت آمنة بنت محمد القرشية (كانت حية ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) رباطاً لسكنى الفقيرات من النساء . (٨) وأوقفت زمرد خاتون ، زوج الأمير تاج الملوك ، ووالدة الأمير شمس الملوك ، أوقفت خاتقاه تنسب إليها على نهر بانياس . (٩)

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ٤٠ ص٢٦٢

SA UVAGET : OP,CIT. N. 3073 P. 196 – 195 -

(٢) عبد المهدي : الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس الهجري ط١ الجامعة الأردنية عمان ١٩٧٧ م ص١٤ - فهمي : المرجع السابق ص٢٨

(٣) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٨٧ - ابن بطوطة : المصدر نفسه ص٨٥

(٤) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٩٩-٢٠٠

(٥) مقال الوهراني و رقعته عن مساجد دمشق : تحقيق د. صلاح الدين المنجد مطبعة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٨٤هـ/١٩٦٥ م ص٣ - ابن جبير : المصدر نفسه ص١٨٤

(٦) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٩١

(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص٢٩٦

(٨) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص٥٠

(٩) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق(تراجم النساء) ص١١٢ ـ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٥٠٣

وشاركت النساء الخواتين في بناء الأربطة والمساجد ، وإنفاق الأموال عليها ، بالإضافة إلى الأوقاف التي أوقفت لذات الغرض . وأوقفت زمرد خاتون زوج الأمير البوري تاج الملوك الأوقاف على مسجد خاتون ، لخدمة العلماء وطلبة العلم . (١)
واتخذت الزوايا والربط أماكن لنشر العلم ، وتعليم فئات الناس ، حتى الطاعنين بالسن وذوي العاهات . (٢) وكثرت زوايا التدريس في الجامع الأموي ، واقترنت بعناية الواقفين ، (٣) وعوّل عليها تعليم الطلبة ، وتدريسهم ، ونسخ ما يتوجب عليهم . فكان لدى المالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي من الجامع الأموي ، يجتمع فيها الطلبة المغاربة، ويتقاضون مرتبات معلومة . (٤)

ثانياً: الربط أو الزوايا :

الرباط زاوية تعني في اللغة ركن البيت ، وهي ما يُتخذ مقراً للعبادة والمأوى ، فالرباط بيت الصوفية ومنزلهم وقد اتخذ للفقراء (٥) وتعرف أيضاً بالخانقاه . والرباط هو زاوية إسلامية محصنة ، مشتقة من الأصل ربط ، وتعني المكان الذي يجتمع فيه الفرسان . (٦)
وقد ورد ذكر الرباط في القرآن الكريم بقوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) (٧)
أقيمت الربط لتحصين الثغور والاستعداد الدائم للجهاد . وقد عرف الرباط في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حيث أقام الربط على سواحل الشام ومصر ، ورتب فيها المقاتلة ، فكانت هذه الأربطة الحربية تقوم بوظيفة المحارس وتشرف على تحصين القلاع ، وإلى جانبها أو من خلالها ظهرت الأربطة التي غدت أقرب ما تكون إلى الخلوات يقيم فيها الصوفية والزهاد ، ينقطعون للعبادة وكذلك الجهاد . (٨)
كان الرباط يقوم على حياة الزهد والتقشف ، وترديد الصلوات ، ويعتبر مقراً للصالحين ، يقضون فيه كل حياتهم . كانت وظيفة الرباط تجمع الجانب الديني إلى

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص١١٢
النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٥٠٣
(٢) الديوه جي : التربية والتعليم في الإسلام ص١٢-١٣
(٣) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٨٦-١٨٧
(٤) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٨٦-١٨٧-١٩١
(٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار دار صادر بيروت طبعة جديدة بالأوفست ج٢ ص٤٢٧
(٦) دائرة المعارف الإسلامية ج١٠ ص١٩
(٧) سورة الأنفال : آية ٦٠
(٨) د. تاج السر أحمد حران : العلوم والفنون في الحضارة الإسلامية الرياض دار إشبيلية ط١ ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م ص٢٧٣

الجانب الجهادي العسكري لحرب الفرنجة الصليبيين ، وطردهم خارج ديار الإسلام وارتبطت الربط أيضاً بالنساء اللاتي يفدن إلى تلك الأماكن لظروف طرأت عليهن . ولم يقتصر المتصوفة على الربط والخوانق والدويرات ، التي سنعمل على ذكرها بل انفرد بعضهم بالزوايا من المساجد .

وأبرز الزوايا في الجامع الأموي هي :

الزاوية الغربية :

وتعرف بالخزانة أو الحلقة أو المنارة الغربية ، والزاوية الغزالية ، نسبة للإمام الغزالي وتعود إلى ما قبل عام ٤٨٢هـ / ١٠٨٩م . (١) وتعتبر حلقة لتدريس الفقه الشافعي ، وإن تخلله نفوذ جزئي ، لأصحاب المذهب الحنفي ، حيث درّس بها العالم أبو بكر البلخي السمرقندي الحنفي(٢) .

تقع هذه الزاوية في الجهة الشمالية الغربية ، شمال مشهد عثمان من الجامع الأموي . (٣) لقيت هذه الزاوية اهتماماً كبيراً من حيث الاشتغال بالعلوم الشرعية وسماع الدروس ، فقد درّس بها الشيخ نصر المقدسي ، عندما قدم دمشق سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م ، وأقام بالركن الشمالي الغربي من الجامع حيث موقع الزاوية ، واستمر بها حتى مات سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م ، كان يدرّس فيها حسبة ورغبة في تعليم الناشئة(٤)

كانت الزاوية مركزاً أساسياً للتدريس ، (٥) ولم تقتصر على المتصوفة ، بل ضمت إليها الكثير من العلماء الأكفاء .

ودرّس في الزاوية أيضاً الإمام الغزالي ، حيث أقام فيها مدرساً قبل أن يتوجه إلى بيت المقدس . (٦)

درّس في الزاوية تلميذ الشيخ نصر المقدسي ، نصر الله المصيصي الفقيه توفي سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م ، وتبعه جملة من التلامذة ، منهم العالم جمال الدين الدولعي،

==

(١) الهروي : كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات ، تحقيق جانين سورديل ـ طومين المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٥٣م ص١٥ ـ دهمان : في رحاب دمشق ص٧٤

(٢) ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ج١٠ ص٤٣٤١-٤٣٤٣-٤٣٤٣

(٣) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤١٣ ـ ابن شداد : المصدر نفسه

(٤) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١قسم ٢ ص٢٤٦-٢٤٧

ـ النعيمي : الدارس ج١ ص٤١٣

ELISSEEFF : NUR AD- DIN DAMAS 1967. P 3 . P . 919 .

(٥) الإسنوي : طبقات ج٢ص٤٢٨ ـ الذهبي : العبر في خبر من غبر ج٤ ص٩٢ الصفدي : الوافي بالوفيات ج١ ص٢٧٤- ٢٧٥

(٦) الصفدي : المصدر نفسه ج١ ص٢٧٤-ص٢٧٥ ص٢٤٦

ELISSEEFF : NUR AD-DIN DAMAS1967. P3. P919

ثم شقيقه شرف الدين . (١) وكذلك أبو الحجاج يوسف بن مكي علي الحارثي الدمشقي المتوفى سنة ٥٦٤هـ / ١١٤٧م ، وكان المصيصي قد أوصى له أن يتولى تدريس الزاوية من بعده ، فلم يصح له ذلك . (٢) كما درّس في الزاوية أيضاً الخضر بن الحسين بن شبة بن أبي عبد الله الأزدي الصقّار ، كان حياً سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م . (٣) ومارس التدريس في الزاوية ، الخضر بن شبل أبو البركات ، المتوفى سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٦م . (٤)

ودرّس في الزاوية أيضاً الفقيه جمال الإسلام ، أبو الحسن علي بن مسلم السلمي الشافعي ، توفي سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م . (٥)

ودرّس في الزاوية أيضاً الصائن هبة الله بن عساكر ، أبو الحسين الدمشقي (٦) وأبو الفضائل عبد الرحيم الزنجاني ، وقد تحرك من المدرسة المجاهدية ، إلى الزاوية الغزالية ، بطلب من الشيخ نصر المقدسي ، للإعادة بها ، لما قدم إلى دمشق سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م وقد توفي سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م . (٧)

ودرّس بالزاوية الغزالية الغربية ودَرس العالم المقرىء والأديب والفقيه على المذهب الشافعي عبد الوهاب بن صدقة . (٨) ودرّس بالزاوية أيضاً أبو البركات بن عبد ، (٩) وكذلك درّس بها عبد الله بن محمد بن هبة الله بن أبي عصرون التميمي ، كان قد تلقى القرآن الكريم والفقه في بغداد ، توفي سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م (١٠) . واشتغل بالزاوية أيضاً ، أبو بكر محمد بن علي بن المسلم . (١١)

==

(١) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج١ ص٢٦٣
ـ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤١٥

(٢) الذهبي : المصدر السابق ج٤ ص١١٦ ـ النعيمي : المصدر السابق ج١ ص٢٢٣ص٤١٥ـ٤٥٤

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص٦٥٣

(٤) سبط ابن الجوزي (أبو المظفر شمس الدين يوسف) : المصدر نفسه ج٨ ص١٦٨ـ ١٦٩ ـ ابن العجمي : مخطوط الطبقات الصغرى للشافعية مكتبة الأسد رقم ـ ١٣٥٥٤ ص٢٤٨ظ

(٥) اليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان طبعة١ مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن ١٣٣٩هـ / ج٣ ص٣٦١

(٦) السبكي : طبقات الشافعية ج٧ ص٣٢٤ـ٣٢٥

(٧) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ص ٤١٦ـ٤١٨
ـ ابن العجمي : الطبقات الصغرى للشافعية مخطوط ص٢٦٣و

(٨) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٦٠٠ـ٦٠١

(٩) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٤٧ ـ النعيمي : الدارس ج١ ص٤١٦

(١٠) الدبيثي : المصدر نفسه ج٢ ص١٥٨ـ١٥٩

(١١) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٨١

اختلفت رواية ابن شداد عن الروايات التي أوردتها المصادر الأخرى ، في أمر الفقيه نصر الله المصيصي ، حول تعيينه خليفة للشيخ نصر المقدسي ، وعلق بقوله : " وأول من درّس بها الشيخ نصر المقدسي ، ثم من بعده ابن عبد خطيب الجامع الأموي ، ثم من بعده ، جمال الدين الدولعي (ت ٥٩٨هـ / ١٢٠١م) ثم من بعده أخيه شرف الدين ٠٠٠ " (١) وقيل إن الدولعي درّس بالزاوية ا الغزالية مدة طويلة .

كانت الزاوية الغزالية تدرس علوم القرآن ، وعلوم الحديث إلى جانب علوم الفقه ، (٢) ولم تصرّح المصادر المتوفرة عن المواد المدرَّسة في الزاوية سوى ، علوم القرآن الكريم ، والقراءات ، والفقه والحديث (٣) ، ولا بد أنها كانت من حيث الشمولية عريقة ، فقد اهتمت بعلوم الدين أولاً ، وتطرقت إلى العلوم العربية ثانياً . واقتصرت الإشارة على ذكر بعض من دَرَس في هذه الزاوية . وقد تردد إليها عبد الوهاب بن صدقة ، أبو محمد الضرير المقرىء، لسماع الدروس . (٤)

ولأهمية هذه الزاوية ، فقد عمد بعض العلماء ، للجمع في التدريس بينها ، وبين التدريس في مدرسة أخرى ، فقد انضم عبد الكريم بن محمد أبو الفضائل الحرستاني الفقيه إلى الشيخ الفقيه الشافعي سعد بن عصرون ، فاستنابه بالتدريس بها ، وضم إليه المدرسة الأمينية ، فكان يدرس في الموضعين معاً توفي سنة ٥٦١هـ/١١٦٥ م .(٥)

ومن خلال استقرائنا للمادة نلاحظ أن الزاوية الغزالية مثلت مدرسة قائمة بذاتها ومركزاً ثالثاً من مراكز دور العلم في دمشق بعد دار القرآن الرشائية وخانقاه دويرة حمد ، وسوف نتطرق إلى ذلك فيما بعد . (٦) وتتابع نشاط الجامع الأموي في حلقات التدريس للعلوم الدينية والعربية ، فكانت هذه الحلقات وسيلة هامة من وسائل نشر العلم والثقافة بطريقة لا كلفة فيها ولا مشقة ، حيث يقوم الطالب بالاتصال الوثيق مع أستاذه لمناقشته والإفادة منه ، فوقع قسط من حلقات الدرس على المساجد ، ووقع القسط الآخر على دور العلماء .

استعملت الزوايا مراكز لتدريس القرآن الكريم ، وإقامة الذكر ، يشرف عليها

==

(١) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٤٧ ـ ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج١ ص٣٦٥ ـ الإسنوي : طبقات الشافعية ج١ ص٥١٣

(٢) السبكي : طبقات الشافعية ج٧ ص٢٣٥ـ٢٣٦ـ٣٢٤ـ٣٢٥

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٢٢ ـ النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٤١٣

(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٦٠٠ـ٦٠١

(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص ٤٣٣

(٦) أكرم العلبي : خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة على مدى ألف عام دار الطباع ط١ ١٤١٠هـ/١٩٨٩ م ص١٥٠

شيخ الزاوية . وقد أقبل عليها الكثير من العوام ، نتيجة للفقر والعوز ، فكانت هذه الزوايا تمتص جذوة الأسى والألم ، وتقدم المساعدات المادية المخففة للمحتاجين .

لم يقتصر دور الجامع الأموي في مساره التعليمي والصوفي على الزاوية الغربية، فقد وجدت فيه زوايا عديدة ، منها زاوية التدريس في الجانب الغربي ، التي يجتمع فيها الطلبة المغاربة ، مع ما يحصلون عليه من مرتب محدود . (١)

ولا شك أن انتشار الزوايا في أرجاء الدولة البورية ، لم يقتصر على دمشق ، فقد عرفت الزوايا في حماه ، وكان يشرف عليها شيخ الزاوية ، يُقرىء فيها القرآن الكريم وأحكامه على الطلبة . (٢)

وانتشرت الربط في بعلبك (٣) ، من دون أن توضح لنا المصادر ماهيتها ، ومسمياتها بدقة . وشاركت المرأة المسلمة في هذه الفترة في تيار التصوف ، وأطلق على المتصوفات منهن اسم الفقيرات ، وكان حال النساء المتصوفات كما هو الحال بالنسبة للرجال من حيث البيوت والخانقاوات ، يقمن فيها ويعكفن على حياة الزهد والعبادة مع الالتزام بشدة الضبط وغاية الاحتراز .

وقد استخدمت هذه الربط مكاناً للنساء المطلقات والأرامل لتكون بمثابة ملاجىء لهنّ . ويؤكد هذا أهمية الرباطات ووظيفتها الاجتماعية إلى جانب صفتها الدينية . (٤)

أما الخوانق فهي كلمة فارسية أصلها خونكاه ، أي الموضع الذي يأكل فيه الملك (٥) بدأ في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، تأسيس نموذج جديد للصوفية أطلق عليه اسم الخانقاه . (٦) وأقيمت الربط الخاصة بالرجال والنساء فانحصر في دويرة السميساطي مكان خاص بالرجال وآخر بالنساء . (٧) وقد تحمل الدويرة تسمية الخانقاه مثل خانقاه دويرة حمد . (٨)

ويعتقد البعض أن الخوانق كانت أكثر اتساعاً وأعظم شأناً من الزوايا والربط ،

==

(١) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٨٦-١٩١

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٦١٦

- راضي عقدة : مقال زوايا حماه مجلة الحوليات مجلد ٣١ - ١٩٨١ م

(٣) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج١ ص٢١٤

(٤) د. عاشور : مقال أضواء ص٢٣٠-٢٣١

(٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج٢ ص٤٢٧ - الحصني : كتاب منتخبات التواريخ لدمشق ج٣ص٩١٦

(٦) GILBERT : OP,CIT P. 105

(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص٣٩٣

(٨) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة قسم تاريخ دمشق ص١٣٩

يدّرس فيها الفقه على أحد المذاهب الأربعة مع تدريس الحديث إضافة لإقراء القرآن الكريم بالروايات . (١) ومن أبرز الخوانق والربط الموجودة في دمشق خانقاه دويرة حمد ، والخانقاه السميساطية ، والخانقاه الطواويسية .

- **خانقاه دويرة حمد :** عرفت قبل ٤٠١ هـ/ ١٠١٠ م

تعرف بالخانقاه الدويرية، تقع في درب السلسلة بباب البريد جانب أسوار المدينة . (٢) وقد أنشئت في بداية القرن الخامس الهجري ، ويعتبرها البعض من أقدم ما ذكر عن مراكز الصوفية في دمشق أنشأها حمد المدفون بباب الصغير ، كان مقرئاً معدلاً وجد مع زوجه في داره هذه مذبوحين ، وقد سكنها كثير من العلماء وأقيم عليها أوقاف كثيرة بين بساتين وحصص وجناين وقطعة أرض منها جنينة من حصة في الطريق الوسطاني الآخذ إلى المزة ، ونصف حصة أيضاً عن البستان المعروف بالصوفية من أرض اللوان بالمزة أيضاً . (٣)

ونزل في هذه الدويرة عبد الوهاب بن صدقة أبو محمد الضرير المقرىء الشافعي ، توفي سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٤ م . (٤) ونزل أيضاً عبد الله بن رزيق بن محمد الأذربيجاني الدويني المقرىء الضرير درس بها القرآن الكريم و أقرأ بها في علم القراءات ، توفي سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩ م . (٥)

وتحول العالم ، أبو المظفر سعيد النيسابوري من تدريس دويرة حمد إلى تدريس خانقاه السميساطية ، وحدث بعلوم الحديث مما سمعه عن الحافظ ابن عساكر ، وقد توفي سنة٥٦٠هـ / ١١٦٤م . (٦)

ومن الدويرات دويرة الفقراء أو السميساطية يعود ذكرها إلى سنة ٤١٩هـ/١٠٢٨ م تعتبر من المراكز الصوفية القديمة في دمشق فقد نزلها في سنة ٤١٩هـ /١٠٢٨م عبد الله بن أحمد أبو محمد البالي الصوفي . (٧)

و توفي في دويرة الفقراء محمد بن الحسن بن محمد أبو الفتح بن أبي علي الأسد أباذي الصوفي سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤ م ، (٨) وربما تكون الدويرة هي نفسها الخانقاه السميساطية .

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٦١٦ ، ج١٥ ص٦٨

(٢) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة قسم تاريخ دمشق ص١٩٣

GILBERT : OP,CIT P 105 -

(٣) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٤٦-١٤٧

(٤) ابن عساكر : المصدر نفسه مخطوط ج١٠ ص٦٠٠-٦٠١

(٥) ابن عساكر : المصدر نفسه مخطوط ج١٠ ص٦١٦

(٦) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٢٢-٤٢٣

(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق(عبادة بن أوفى) ص٣٥٩

(٨) ابن عساكر : المصدر نفسه مخطوط ج١٥ ص٢٤٦ - النعيمي : دور القرآن في دمشق ص ٥٠

- **الخانقاه السميساطية أو الشميساطية : وتسمى دويرة السميساطي**

تقع على باب الجامع الأموي الشمالي إلى يمين الخارج ، وهي متاخمة للسور الشمالي من الجامع . وقد حدد ابن جبير موقعها في الدهليز عند الباب الشمالي ، المعروف بباب الناطفيين . (٢) يعود تاريخ بناء الخانقاه ، إلى مؤسسها علي بن محمد بن يحيى السلمي المعروف بالشميساطي، المتوفى سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م وقبره بها. (٣) لذلك سنقف عند هذا التاريخ لعدم إشارة المصادر إلى العام الذي بنيت فبه .

وقد بنيت لتكون مأوى للفقراء ، الذين زاد عددهم وكثر في تلك الفترة . (٤) أما السميساطي ، فكان بارعاً في علم الهندسة وعلم الهيئة ، صاحب حشمة وثروة واسعة(٥) . كانت هذه الخانقاه داراً لعبد العزيز بن مروان بن الحكم ، اشتراها أبو القاسم السميساطي ، بسبب سكنه أولاً بدرب الخزّاعين ، حيث فتح من خلال مسكنه باباً لهذه الدار ، وبنى فيها الخانقاه ، ووقفها على الفقراء الصوفية ، وأوقف علوها على الجامع ، وجعل أكثر أوقافه الواسعة على هذه الخانقاه . (٦)

ذُكر أن بعض الناس سألوا السلطان تاج الدولة تتش ، أن يفتح لها باباً في دهليز الجامع ، فأذن لهم ففتحوه ، ثم عمّرت ، وكان أول من شرع فيها الوزير المعروف بالفلكي ، أبو المظفر سعيد بن سهل النيسابوري (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م) فبنى البركة والضفة الغربية ، والطباق على دهليزها . (٧)

لم تقتصر السميساطية على النازلين بها من العلماء ، فقد قصدها الإمام الغزالي ، عند وصوله إلى دمشق ، حيث منعه المتصوفة من دخولها لقلة معرفتهم به ، فتوجه إلى الزاوية الغربية ، ولما أدركوا مكانته ، حضروا بأجمعهم ، واعتذروا إليه

==

(٢) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج١ ص٢١٤
- النعيمي : دور القرآن في دمشق تحقيق د. صلاح الدين المنجد بيروت ١٩٧٣م ص٥٠ GILBERT : OP,CIT P. 108

(٣) ابن شداد : الأعلاق (تاريخ دمشق) ص١٩١ - النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥١

(٤) ابن جبير : المصدر نفسه ص٢٠٣

(٥) الصفدي : الوافي بالوفيات ج٢٢ص١٥٦

(٦) ابن جبير : المصدر نفسه ص٢٠٢ - النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥١

(٧) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥٢

وأدخلوه الخانقاه . (١)

ووصل إلى الخانقاه إسماعيل بن محمد أبو الخير الكاني الخوارزمي الصوفي ، قدم إلى دمشق طالباً للعلم ، فنزل فيها ، وأقام مدة ، توفي سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م . (٢) وسكن دار السميساطي محمد بن أحمد إسحاق أبو عبد الله البسطامي الغزي الصوفي توفي بدمشق سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩ م . (٣) واستوطن السميساطية الفلكي الوزير المولى أبو المظفر سعيد بن سهل النيسابوري الخوارزمي ، نزل بها وجدد بعضها ، توفي سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٤ م . (٤) ونزلت المتصوفة ملكة بنت داود العالمة في الفرع المخصص للنساء من الخانقاه . (٥)

- **الخانقاه الطواويسية :** تأسست حوالي ٥٠٤هـ/ ١١١٠ م

تنسب الخانقاه إلى دقا ق بن تتش شمس الملوك المتوفى ٤٩٧هـ/ ١١٠٢ م صاحب دمشق كان قد وليها بعد أبيه ثم مرض ومات . وقيل إن بانيها ابن دقا ق . تقع الخانقاه خارج دمشق في مسجد يضم قبر دقا ق في قبة معروفة بقبة الطواويس بالشرف الأعلى ، وفي الرباط بيت أم دقا ق . (٦) ضمت هذه الخانقاه مدافن للحكام ، فقد دفنوا عند دقا ق . (٧) وكذلك ضمت قبر صفوة الملك والدة شمس الملوك . وقد اختفت آثار الخانقاه عام ١٩٣٨ م . (٨)

وفيما رواه أسامة بن منقذ أنه سار مرة مع الأمير معين الدين أنر في دمشق فقال له : أرغب النزول إلى دار الطواويس وزيارة المشايخ بها ، فوافقه أسامة بن منقذ على الأمر فسارا إلى منزل ودخلاه ، وما توقعا أن يوجد أحد في الدار ، وإذ هم بنحو مائة سجادة على كل سجادة رجل من الصوفية عليه السكينة والخشوع ظاهر بيّن ، فأعجب بذلك أسامة ين منقذ وقال : سرّني " ما رأيت منهم وحمدت الله عز وجل ، ورأيت من المسلمين من هو أكثر اجتهاداً من أولئك القسوس " ويقصد بقوله ، من رآهم يتعبدون بكنيسة في أعمال نابلس .

==

(١) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة قسم تاريخ دمشق ص٢٤٦
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٨ ص١٧٨-١٧٩
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٦٨
(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٢٢-٤٢٣
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص٣٩٣
(٦) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة قسم دمشق ص١٩٢ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٦٤-١٦٥
(٧) الذهبي : العبر في خبر من غبر ج٢ ص٣٧٤
(٨) المنجد : خطط دمشق ص٥٩-٦٠ - ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM : DIMASHK P.2 P283
- SAUVAGET : OP,CIT N . 2942 P 8 – P86

و لم يكن أسامة بن منقذ على حد قوله قد رأى الصوفية في دارهم ولا عرف طريقتهم (١) .

حفلت هذه الخانقاه بوقف الكتب عليها فقد أوقف محمد بن عبد الرحمن بن مسعود أبو سعيد البنجديهي الخراساني كتبه على الخانقاه حين نزل بها وتوفي سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨ م . (٢)

ـ خانقاه القصر :

تطل الخانقاه على الميدان الأخضر عند القصر الأبلق ، ويربض مكانه الآن التكية السليمانية ، أنشأها شمس الملوك في ظاهر دمشق عند المرجة ، وقد انمحت آثارها . (٣) وقيل إن بانيها شمس الملوك إسماعيل سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤ م على ما أشار إليه جلبرت GILBERT ، (٤) وقيل بل بانيها شمس الملوك دقاق ، وبقي الشك في وضع الخانقاه مستمراً إلى أن نسبها بعض المعاصرين إلى شمس الملوك إسماعيل بأنه هو الباني للخانقاه سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٣ م . (٥)

ومن الخوانق الأخرى التي انتشرت في فترة الحكم البوري ، خانقاه بنيت على نهر بانياس من قبل زمرد خاتون زوج تاج الملوك بوري ، ولكن ليس هناك تحديد دقيق للعام الذي تم فيه بناء الخانقاه . (٦)

أخذت الربط هي الأخرى موقعاً آخر لها في الإمارة البورية وكان أبرزها رباط الطاحونة ورباط القصاعين ، ورباط عذراء خاتون داخل باب السلامة ، وحدد النعيمي موقعه داخل باب النصر . ورباط السهروردي (أبو النجيب) انقطع فيه أبو الحجاج يوسف بن محمد بن مقلد التنوخي الجماهيري الدمشقي الصوفي ، المتوفى سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٢ م . (٧)

==

(١) أسامة بن منقذ : كتاب العصا ج١ ص٢٠٥
(٢) ابن قاضي شهبة : طبقات النحاة مخطوط ص٧٠
(٣) ابن شداد : الأعلاق قسم تاريخ دمشق ص١٩٢
(٤) GILBERT : OP,CIT P 138
(٥) بدران : منادمة الأطلال ص٢٨٤ ـ العلبي : خطط دمشق ص٤٠٤
(٦) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٥٠٣
(٧) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج١ ص٢١٤

ساعد بناء الربط والخانقاوات على ازدياد عدد المتصوفة القادمين إلى دمشق مركز الإمارة خلال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، وكان نصف هؤلاء المتصوفة من علماء الفقه والحديث الشريف ، وعلوم إقراء القرآن ، وقد شجّع ذلك وصول موجة كبيرة من العلماء إلى الربط ، مما أدى إلى دفع الحركة العلمية نحو النمو والازدهار .

نلاحظ مما سبق أن الزوايا وكذلك الأربطة والخوانق ، قد استقر فيها المتصوفة ، وتم جلب العلماء إليها ، وكذلك المتعلمين ، وتم استقطاب كبار العلماء للتدريس في هذه الأماكن ، فأسهمت هذه المواقع في توثيق العرى الدينية والعلمية مع المساجد ، بالدرجة الأولى ، ثم مع المدارس بالدرجة الثانية . ولا يخفى أن إنشاء هذه المراكز في دمشق والمناطق الأخرى على يد الأمراء السلاجقة أيضاً ، قد أعلا من مكانة الفئة الصوفية وكذلك فئة العلماء ، حيث حازتا على الاحترام والاهتمام ، واندفاع الأمراء لبناء المراكز الدينية .

وبعد أن تطرقنا للربط والزوايا لابد أن نتطرق لحلقات التدريس ، وأهمية الحلقات والدروس في تنشيط الحركة الدينية في المساجد ، ويهمنا هنا نشاط حلقات التدريس في المسجد الجامع بدمشق ، وقد استفاد من حلقات التدريس ، الغرباء إلى جانب أهل البلاد ، فقد كان للمغاربة والأندلسيين حلقة خاصة بهم ، تُدفع نفقاتها من مرافق الأوقاف ، القائمة على رعاية المسجد . (١) ومما يفخر به المسجد وجود السارية القديمة ، الواقعة بين مقصورتين ، وهي تحظى بوقف معلوم ، يأخذ نصيب منه الطالب المستند إليها للمذاكرة والتدريس .

وتتابعت حلقات التدريس في المسجد ، فالمحدثون يقرأون كتب الحديث الشريف على كراس مرتفعة ، ويتلون آيات القرآن الكريم صباحاً ومساء . (٢) وقد تولى عيسى ابن هارون بن يوسف المغربي المالكي الفقيه ، التدريس في الحلقة المالكية في دمشق مرتين ، وكان عالماً بمذهب الإمام مالك ، توفي سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م . (٣) وكان الفقيه الفندلاوي من أبرز العلماء المالكية المدرسين بدمشق . (٤)

نلاحظ مما سبق أن دروس العلماء المالكية ، كانت تلقى في المسجد الجامع ، سواء لتلقين قراءة القرآن ، أو لتعليم العلوم الدينية الأخرى . وإلى جانب حلقة المالكية ، برزت حلقة الحنابلة ، فكان الحسن بن مسمار الهلالي الحوراني ، يصلي بجامع دمشق في حلقة الحنابلة ، ويقرأ فيها بعدة روايات ، يردد الحرف المختلف فيه، وقد أنكر عليه العلماء عمله ، خشية أن يذهب ترتيب النظم في القرآن . (٥)

==

(١) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٩١ ـ مطيع الحافظ : الجامع الأموي ص٢٦

(٢) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٩١ ـ ابن بطوطة : المصدر نفسه ص٨٩

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٤ ص١١٤

(٤) الذهبي : سيرأعلام النبلاء ج٢٠ ص٢٠٩

(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٤ ص٥٩٩ ـ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١١٤

وجلس بعض العلماء الحنابلة لتلقين القرآن الكريم ، تحت قبة النسر بجامع دمشق ، ففي عام ٥٤٠هـ / ١١٤٥م جلس العالم أحمد بن الحسن ، أبو العباس العراقي الفقيه الحنبلي ، لتلقين القرآن العظيم لقاصديه ، وقد توفي سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م . (١)
وكان للشافعية حلقة في الجامع الأموي ، يشرف على قيادتها علماء المذهب الشافعي منهم العالم جمال الإسلام علي بن المسلم السلمي الفقيه ، وقد اختص بحلقة تعرف به ، تسمى حلقة جمال الإسلام . (٢) وقاد العالم علي بن الحسن بن أبي الفضائل الكلابي حلقة للشافعية في موقع الجامع توفي سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٦م . (٣)
أشرف العلماء على حلقات علمية متنوعة ، وقادوا تلك الحلقات بالمقدرة والكفاءة التي كان يتمتع بها العالم حتى غدا للبعض حلقات خاصة بهم ، يشار إليها بالبنان ، وتعرف الحلقة باسم عالمها ، وقد لاحظنا قبل قليل حلقة جمال الإسلام السلمي ، وهنالك حلقات أخرى كثيرة وعديدة ، في الفقه والحديث والعربية ، وخاصة النحو ، ويمكن أن تستضيف الحلقة العلماء الأكفاء ، ومن هنا كانت شهرة الحلقة إضافة إلى ما تتمتع به من شهرة مؤسسها .
وقد ارتبطت حلقة النحو بالعالم طاهر بن أبي الحسن القيسي السلمي (ت ٥٠٠هـ / ١١٠٦م) . (٤) وعرفت أيضاً حلقة ابن الفرات ، وحلقة اللتاني ، وهي نسبة إلى العالم المشرف على التدريس فيها ، وكان الفقيه الخضر بن شبل قد درّس الفقه سنة ٥١٨هـ/١١٢٣م في حلقة ابن الفرات ، ودرّس الفقيه الخضر بن الحسين ابن شبه الأزدي الصفّار الفقه أيضاً في حلقة ابن الفرات . (٥) وعمل أبو الوحش سبيع بن قيراط على إقراء الناس ، في الحلقة التي عرفت باسم العالم اللتاني ، يُقرىء الناس من ثلث الليل ، إلى قريب الظهر ، وقد انتهت إليه الرئاسة في قراءة القرآن في دمشق ، وبقي على ملازمة الجامع الأموي وحلقاته الدينية حتى توفي . (٦)

---

(١) ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ج١ ص٥٠١
(٢) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٠٣
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص١٠- ١١
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص٤٣٤
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص٦٥٣
(٦) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص٣٢ ـ الذهبي : العبر في خبر من غبر ج٤ ص١٦

وتفرعت الحلقات الرئيسة المعروفة في الجامع الأموي إلى عدة حلقات ، فقد أقام الفقيه علي بن الحسن الكلابي ، حلقته في العمود الثاني من الرواق الشرقي المتوسط ، في حلقة أبي الحسن طاهر النحوي ، (١) ولا تقل أثراً وأهمية ودوراً عن الحلقات الرئيسية الكبرى ومن أبرز من اهتم بالمناظرات العلمية ، العالم عبد الله ابن سعيد القيسراني ، أقام حلقة المناظرة في الجامع الأموي وتوفي سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م . (٢)

وتخصص المسجد الأموي وأفردت له مشيخة الإقراء ، وحفل بحلقات إقراء القرآن ، حيث يلقن شيوخ الإقراء طلاب العلم القراءات التي رووها بأسانيدهم ، إضافة إلى المحدثين الذين تحولوا إلى الحلقات لرواية الحديث الشريف والفقه وغيرهما من العلوم ، (٣) وعقد القضاة جلساتهم العلمية في رحاب المسجد أيضاً(٤)

لم تقتصر أهمية العلم على المسجد الأموي فقط ، بل شاركته في تنشيط مجالات التعليم ، مساجد أخرى داخل دمشق ، نذكر منها مسجد خاتون ، الذي انقلب إلى مدرسة عريقة ، درّس فيه العالم البلخي ، وأبو بكر البلخي السمرقندي . (٥)

وشاركت أرباض دمشق ومساجدها ، بدور في النهضة العلمية ، وأوشكت أن تجاري مسجد دمشق الأموي ، ومن هذه المساجد ، مسجد داريا ، مسجد حرستا ، مسجد جوبر ، والدليل على تزايد مكانة هذه المساجد ، حمل أهل دمشق أحد أئمة داريا وهو العالم علي بن داود بن عبد الله المقرىء ليؤم الناس في الصلاة في جامع دمشق ، بعد وفاة إمام الجامع ، فرفض أهل داريا تسليم إمامهم ، فخرج إليهم أحد القضاة وقال لهم : " يا أهل داريا أما ترضون أن يشيع في البلاد أن أهل قرى دمشق احتاجوا إلى إمام أهل داريا ليصلي بهم " فقبلوا ورجعوا عن العنف . (٦) ويكفي أن يؤَلف كتاب في تاريخ داريا ، ليظهر تلك المكانة العلمية التي وصلت إليها هذه القرية ، والملاحظ أيضاً اهتمام علماء دمشق بأعمال مدينتهم ، فقد ألّف الحافظ ابن عساكر ووضع أجزاء صغيرة في أحاديث أهل قرى دمشق ، فوضع جزءاً في حديث أهل برزة ، وكذلك في حديث أهل حرستا ، وكذلك في حديث أهل بيت لهيا ، وكذلك أهل جوبر ، وكذلك من نزل المِزة وحدّث بها ، وكذلك حديث أهل

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص١٠- ١١ ، النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٠٣

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ج١٧ ص٢٣٧-٢٣٨

(٣) النعيمي : دور القرآن في دمشق، ص١٠

(٤) د. حسين أمين : مقال المسجد ص٨-٩

(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص٢٠ - القرشي : الجواهر المضية في طبقات الحنفية ط١ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن الهند ج١ ص٣٥٩- ٣٦٠

(٦) الخولاني : تاريخ داريا ص١١٧

كفربطنا ، ودوما ، ومسرابا ، والقصر ، وكفرسوسية ، وفذّايا . (١)

وكانت صور من المراكز العلمية والثقافية المهمة ، بقي لها اتصال وثيق مع دمشق، حتى سقطت بيد الفرنجة الصليبيين سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م ، وأبرز علمائها ، العالم نصرالله المصيصي ، الذي وصل دمشق للدراسة فيها ، والاستزادة من العلوم والمعارف (٢) حيث كانت دمشق مهوى وملتقى العلماء من أصقاع الأرض . وشمخت بعلبك وحماه في المجال العلمي ، فخرج من تلك المدن علماء كبار مثّلوا مشاعل العلوم النورانية ، وتميزت المدينتان بمسجديهما الكبيرين ، اللذّين نهض منهما العلماء والطلبة ، ينهلون من بحار العلوم الزاخرة . وأبرز علماء بعلبك : أبو علي الحسن بن أحمد بن المبارك ، قرأ على الشيخ محمد بن علي بن أبي المضا البعلبكي ، توفي سنة ٥٠٩هـ / ١١١٥م . وتولى التدريس أيضاً في الجامع الكبير الفقيه عبد الرحمن بن الحسن بن العجمي المتوفى سنة ٥٦١هـ / ١١٦٥م . (٣)

وهكذا أسهمت المساجد الإسلامية والربط والخوانق والزوايا والحلقات فيما اتبعته من منهج علمي في تخريج العلماء الكبار ، إلى جانب تهذيب النفوس ، وصقل العقول وتفتح الضمائر ، فأنجبت الفكر المؤمن والضمير اليقظ ، فكانت المدارس ترسم صور الجهاد والعلم والعدالة والفضيلة عبر الاشتغال بالفنون العلمية والقضاء ، وتخريج الأطباء والمهندسين والفلكيين ، فحملت المساجد عن جدارة واستحقاق ما استؤمنت عليه ، فأكملت رسالتها التعليمية والثقافية ، وكانت النواة والركيزة لتأسيس المدارس الجامعة في العالم الإسلامي .

ورغم تأسيس المدارس لاحقاً ، إلا أن المساجد حافظت على عراقتها ، واستمرت تسهم في ازدهار النهضة الفكرية ، فالقراءة لا تخلو منها صباحاً أو مساءً ، وصارت تمد المدرسة وترفدها بالطلبة المتميزين بالعلم الرفيع . فعّبرت المساجد بجدارة عن أهدافها العلمية ممثلة صورة الإسلام الحيّة بما تقدمه للعالم من النتاج الإسلامي المستمد من روح العقيدة والإيمان

==

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج١٣ ص٨١
ـ الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٥٦٠

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٧ ص٣٣ ـ النعيمي :الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ٣٤ - GILBERT : OP,CIT P. 92

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٦٩٥ ، مطبوع مجلد ٤٠ ص٢٦٢

- SAUVAGET : OP,CIT . N. 3073 P. 196 – 195
- ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM :
BALABKK P. 1 P. 971

ـ الأوقـــاف وآثارها على الحياة العلميـــة :

يعتبر الوقف في الإسلام من أعمال البر والتقوى ، وقد أقيمت خدماته للمصلحة العامة الإسلامية ، فأنشئت المساجد والمدارس والبيمارستانات والخوانق . والوقف في الإسلام حبس الأصل ، (١) وارتبط انتشار الأوقاف بعامل الثروة ، فقد نَظَمتْ هذه الحبوس الحياة في المعاهد الدراسية خاصة والدينية عامة ، (٢) أما الغرض الرئيس من هذه الأوقاف ، فتأمين المصلحة العامة لخدمة المجتمع ، واندفع الأثرياء من المسلمين إلى التسابق في هذا المجال لنشر العلم وبث الفضيلة والترفيه عن الفقراء .

كان للأعمال الوقفية دور كبير في بقاء واستمرار الحضارة الإسلامية ، لأنه كان يشكل مورداً ثابتاً لا يدعو إلى العوز أو الحاجة لأحد . فبرزت الأوقاف القائمة على العاجزين عن الحج ، تعطى لمن يقوم بالحج نيابة كفايته . ومن الأوقاف أيضاً تجهيز البنات إلى أزواجهن ، لانعدام مقدرة أهلهن على تجهيزهن ، ومنها أوقاف فكاك الأسرى ، ومنها أوقاف لأبناء السبيل، يعطون منها ما يتزودون به حتى يصلوا إلى بلادهم ، وأوقاف لرصف الطرق، وأوقاف لما يكسر من الأواني الفخارية ، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب . (٣) وأشار ابن عساكر في تاريخه مترجماً لسلطان بن علي بن منقذ الكناني في وصف دمشق والإشادة بفضلها قائلاً :

ومدارس لم تأتها في مشكل إلا وجدت فتى يحل المشكلا
ما أمَّها مرء يكابد حيرة وخصاصة إلا اهتدى وتموَّلا
وبها وقوف لا يزال مغلها يستنقذ الأسرى ويغني العيِّلا (٤)

اشتملت الأوقاف على الدور والقصور والحوانيت والحمامات والأفران والطواحين والأسواق . (٥) ومن الأوقاف التي حبست على المدارس ، الثلث من طاحون اللوان على المدرسة الأكزية ثم المجاهدية . (٦) وكانت المدرسة الأمينية

==

(١) الإمام البخاري : صحيح البخاري ج٣ ص١٠١٩
(٢) رمضان محمد : المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ص١٤٧
(٣) ابن بطوطة :المصدر نفسه ص٩٩ـ ١٠٠
(٤) د. مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا ، دار الوراق بيروت ط١ ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م ص٢١٥
(٥) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٩٩
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٧٩ ـ النعيمي: المصدر نفسه ج١ ص١٦٦-٤٥٣

تسمى حق الذهب لكثرة الأوقاف التي وضعت لها ، خاصة وقف الأراضي الزراعية منها حصة من بستان الخشاب بكفرسوسية ، وغالب ما حولها من سوق السلاح ، وقيسارية القواسين . (١)

ومن أوقاف المدرسة المجاهدية الديروسة ، (٢) وحين بنى الفقيه شرف الإسلام الحنبلي المدرسة الشريفية الحنبلية ، أوقف عليها الأوقاف من أراضي المرج الشرقي والشجرة . (٣) وساعدت المرأة في بناء المدارس ، فقد حبست زمرد خاتون الأوقاف للمدرسة الخاتونية البرانية ، وكانت أكثر المدارس معلوماً في الوقف ، وقد جعلت قسطاً من الوقف لخدمة الشيخ أبي الحسن البلخي ، ومن بعده للشيخ فخر الدين القارىء . (٤)

بدأ الوقف على المدارس في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وتحولت أوقاف كثيرة لأغراض علمية يتم الإنفاق فيها وفق شروط الواقف ، ولا يمكن أن تمس أيدي التبديل هذه الأوقاف وقد استكملت هذه الأوقاف مهمتها الاجتماعية والعلمية ، حتى صرف قسم منها على حلقات التدريس للطلبة تشجيعاً لهم في الإقبال على طلب العلم ، واعتمد كاتب الغيبة المسؤول المباشر عن تغيب بعض الطلبة عن الدروس ، ليتم حذف أسمائهم من المعلوم الوقفي خاصة إذا لم يبرر غيابهم بعذر مقبول . (٥)

وأقيمت الأوقاف على الربط والخوانق منها الخانقاه السميساطية ، فقد أقرّ بانيها دفع جزء من أوقافها الواسعة على من يختم القرآن على قبره كل جمعة مرة مقدار رطل من خبز الحوارى . (٦) وأقيمت أيضاً على دويرة حمد الأوقاف الكثيرة من بساتين وحصص وجنان وقطعة أرض وأسهم منها حديقة هي النصف من حديقة بني وهبان في المزة .

==

(١) النعيمي: المصدر نفسه ج١ ص١٧٩ - الصفدي : نكت الهميان في نكت العميان القاهرة دار المدينة١٩١١م ص١٢٠-١٢١
(٢) النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٤٥٣
(٣) النعيمي: المصدر نفسه ج٢ ص١١٤
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص١١٢
النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٥٠٢-٥٠٤
(٥) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٩١ - السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ص٨٦ - الهيتمي: تحرير المقال في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال ص٧٥
(٦) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٣ ص٢٥٨- النعيمي : المصدر نفسه ج٢ ص١٥١

وكذلك النصف من البستان المعروف بالصوفية من أرض اللوان بالمزة من حصة الطريق الوسطاني الآخذ إلى المزة ، ومنه جمع قرار أرض البستان المعروف بحسين الآمدي بالمزة ، ومنه أحد عشر سهماً ونصف سهم ، من المزرعة المعروفة بالعصامية بزقاق الماء بالمزة ، ومنه سهم واحد من البستان المعروف بالقاطوع بالمزة ، ومنه نظير الحصة المذكورة في الحديقة قرب القاطوع الملاصقة لحمام الطوخي بالمزة . (١)

وتم وقف الأوقاف أيضاً على رباط أبي البيان داخل باب الحجر . (٢) وكانت الأوقاف المقامة على المساجد مهمة جداً ، لأن المسجد يعتبر ملجأ للفقراء والمساكين ولما كان للجامع الأموي مكانة كبيرة ، فقد حبست عليه الأوقاف الكثيرة ليس فقط للفقهاء العاملين في الفقه ، بل أيضاً الغرباء يجبون رزقهم من زاوية من وزايا الجامع تقوم معها وجوه معاشهم . وتم حبس الأوقاف من الممتلكات على إمام محراب الأموي للفقهاء المشتغلين بالفقه . (٣)

وأقيمت الأوقاف أيضاً على مسجد الوزير المزدقاني ، (٤) وكانت أوقاف مسجد الأقدام بدمشق كبيرة ، وإن لم يتم تحديدها ، وكذلك تم وقف الأوقاف على مسجد دوما سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م (٥) . وأوقفت الحمامات على بعض المساجد لتعليم قراءة القرآن وعلى المدارس أيضاً ، فكان الداخل إلى الحمام لا يدفع أجراً . (٦)

أما الترب والمشاهد وهي أماكن الدفن فكانت لها أوقافها أيضاً ، منها ما بنته صفوة الملك خاتون (ت٥١٣هـ/١١١٩م) والدة الملك دقاق ، من تربة ومشهد ، أوقفت عليها البستان المجاور للموقع وبستان قرية كسفانية ، والمعصرة والبيوت والدور المجاورة على أن يكون وقفاً مؤبداً محرماً ، لا يباع ولا يشترى ، وتحل لعنة الله على من يحاول تبديل أو تغيير شيء فيه . (٧)

==

(١) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٤٧
(٢) الإسنوي : طبقات الشافعية ج١ ص٢٣٤
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص٢٩٦ - الوهراني : منامات الوهراني و مقاماته ورسائله تحقيق إبراهيم شعلان ، محمد نقش عبد العزيز الأهواني القاهرة ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م ص٦١
(٤) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٩٥-١٩٧ - سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص٨٣
(٥) SAUVAGET : OP,CIT N. 8 P. 206
(٦) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٩٩ - المقداد : بصرى دليل أثري ص ٥٥- ٥٦
(٧) SAUVAGET : OP,CIT N. 8 P. 86

واستقر الوقف برسم من يحفظ قسماً من القرآن الكريم على قبر أحد الموصين ، كأن يوقف أحدهم مائة وخمسين ديناراً في السنة ، لمن يحفظ القرآن على قبر فلان من ذوي اليسار تقرأ فيها من سورة الكوثر إلى الفاتحة ، وقد يوصي أحدهم أن تجعل الأوقاف على قبره كثيرة تصل إلى نحو ألف دينار أو أربعمائة دينار في السنة زائداً لقراء سبع القرآن الكريم كل يوم ، وتوقيت الاجتماع لقراءة هذا السبع كل يوم بعد صلاة الصبح في الجهة الشرقية من مقصورة الصحابة أو مقصورة الخضر بجامع دمشق داخل باب الزيادة . (١)

أما الإشراف على الأوقاف فكان يباشر شؤونها مسؤول عنها ، ينظر في أوقافها بوصية من الواقف ، ولما بنى مجاهد الدين بزان المدرسة المجاهدية أوصى للقاضي زكي الدين ابن الزكي بالمدرسة ، وجعل النظر لعقبه على أوقافها . (٢)

ولم تقتصر الأوقاف على الخدمات الشخصية للمجتمع ، وإنما اتسع نطاقها ليشمل الاهتمام بالأوضاع الصحية أيضاً ، مثل البيمارستانات ، فحفرت القنوات وأقيمت عليها الأوقاف ، لكن أوقافها لا تحصى لكثرتها وتعددها ، (٣) وكذلك رعت الأوقاف العاجزين عن الحج وفكاك الأسرى ، وأبناء السبيل ، حيث يقدم لهم ما يتزودون به من لباس وطعام حتى يصلوا إلى بلادهم سالمين غانمين ، وكذلك أقيمت الأوقاف ، لرصف الطرق والأرصفة في المدينة . (٤)

أوقف بعض العلماء أموالهم وممتلكاتهم على وجوه البر ، فقد أوقف نصر الله المصيصي ما تيسر له من الأوقاف وتوفي سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م (٥) وترك العالم ابن صدقة الحراني التاجر أوقافاً كثيرة جاء بها ووضعها في خدمة المحتاجين بدمشق . (٦)

لم يقتصر وقف الأوقاف على الأراضي والأموال النقدية ، بل ساهم كثير من العلماء في وقف كتبهم على المساجد أو المدارس أو الزوايا أو الربط والخوانق ، فقد

==

(١) ابن جبير : المصدر نفسه ص٢٠٣
- أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج١ ص١٢٤
(٢) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٥٣
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ٢ ض١٥٤
(٤) ابن بطوطة : المصدر نفسه ص٩٩-١٠٠
(٥) الذهبي :سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص١١٨ - النعيمي: المصدر نفسه ج١ ص٢٢٧
(٦) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٢٢

تم وقف خزانة كتب على الجامع الأموي بدمشق ، (١) وكذلك أوقف العالم عبد الله عبد الكريم أبو المعالي المعروف بابن الطويل ، كتبه في الزاوية الغربية من الجامع الأموي وتوفي سنة ٥١٥هـ/١١٢١م . (٢)

وتم إيداع الكتب الوقفية أيضاً على الخانقاوات ، فقد حبس العالم محمد بن عبد الرحمن بن مسعود أبو عبد الله البنجديهي ويقال البندهي (ت٥٨٤هـ/١١٨٨م) كتبه على الخانقاه السميساطية ، لعدم وجود وارث له ، (٣) وأوقف العالم قطب الدين النيسابوري مسعود بن محمد كتبه على طلبة العلم في إحدى مدارس دمشق و توفي سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م . (٤)

وضمت البيمارستانات جملة من الكتب المفيدة ، إضافة إلى ما اشتملت عليه الأوقاف من المخطوطات القديمة ، وما خلفه الأطباء المسلمون العرب . وإذا عرفنا ما قدم لبيمارستان دمشق من كتب طبية قيّمة ، نعرف أهمية البيمارستان لتنشيط الحركة العلمية الطبية . (٥)

وهكذا أقيمت الأوقاف على الربط والخوانق والمساجد والمدارس والزوايا ، والبيمارستانات لتؤدي دورها على صعيد العبادة والعلم والإرشاد والهداية ، بالإضافة إلى دورها في مواساة كل مقعد وعاجز لا يمكنه العمل ، حيث يجد في بعض تلك الأماكن ما يحتاجه من طعام ومنام وكسوة ، ولما كانت الأوقاف تطلق غالباً على ما يقع من الأرض من الغلات ، لذلك تم التأكيد على حفظها وإقامة المسؤولين عنها من النظّار والعمال لحفظها وصونها ، فلعبت الأوقاف دوراً مهماً في تنشيط الحياة العلمية والدينية في فترة الحكم البوري ، مؤدية دورها الحقيقي في عمل البر والخير للمحتاجين بشكل عام .

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ص٣٤٣-٤٣٥

(٢) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٢٢

(٣) ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج١ ص٣٧٠ ، طبقات النحاة واللغويين مخطوط ص٧٠

(٤) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج١ ص٢١٤

(٥) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٣٨

الفصل الثاني

الكتاتيب والمدارس في الحكم البوري

١ ـ الكتاتيب وتعليم الصبيان :

سنعمل الآن على البدء بفكرة التعليم الأساسية التي اهتم بها الإسلام ، وهي مرحلة الكتّاب وتعليم الصبية عند معرفة أصول الدين علماً و عملاً . (٢) وقد وقع الإصرار والتشديد على إنماء الكتاتيب وزيادة عددها لتحسين طرق التعليم فيها ، فلم يكن يرجى منها زينة جدران أو زخرفة قاعات تتميز بحسن البناء ، بل حملت أشكال بناء بسيط على هيئة البيت المربع أو المستطيل ، ويكون مفروشاً بحصر عادية ، يجلس عليها الأولاد متربعين حول المعلم ، الذي يختص بسرير أو كرسي مرتفع ، وربما استبدل الكرسي بمصطبة (دكان) ليس عليها سوى بساط بسيط . (٣) فالكتّاب مكان متواضع يتسع لعدد من الصبية ، يشرف عليهم معلم أو أكثر . وقد يكون التعليم في بضع حجرات من المنزل . (٤)

سعى فريق من المتعلمين ، نشر الكتاتيب في المساجد ، ثم عدلوا عنها ، بسبب ما يقوم به الصغار من إساءة وعدم اكتراث ، أو احترام للمكان ، ويرى البعض أن الصبي إذا بلغ موضع الأدب ولا يعبث بما يراه فلا بأس أن يجلسه معلمه في المسجد . لكن الرأي الأقوى يرى التحول إلى حصر الصبية في بيت أو حانوت ، (٥) لكي لايسببوا أضراراً لجدران المساجد ، ويجترئوا على النجاسة فيها . (١)
وأبرز مساجد التأديب في بحثنا ، دهليز الباب الشمالي للجامع الأموي ، حيث أقيمت فيه الزوايا ، لتكون محاضر لمعلمي الصبيان . (٢) وهنالك مسجد رحبة البصل ، أدّب فيه أحمد بن عمر أبو الحسن الصقلّي

==

(١) القابسي : التعليم ص٨١
(٢) القابسي : التعليم ص١٨
(٣) ابن سحنون: آداب المعلمين طبعة جديدة تعليق محمد العروسي المطوي تونس ١٤١٢هـ/١٩٧٢م ص٥٥
(٤) ابن سحنون : المصدر نفسه ص١١٤ ـ القابسي : التعليم ص٤٦
(٥) ابن سحنون : المصدر نفسه ص١١٤ ـ القابسي : التعليم ص٢٩٥
(٦) ابن الأخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة ، تصحيح روبن لوي مطبعة دار الفنون بكمبرج ١٩٣٧م ص١٧٠
(٧) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٩٠

(ت ٥٠٥هـ/١١١١م) . (١) ومن المساجد أيضاً مسجد سوق الأحد ، أدّب فيه ابن طاووس هبة الله البغدادي . (٢) وعلى العموم ضم سوق الأحد موضعاً ومكاناً لتعليم الصبيان وتأديبهم . (٣)
وكان مسجد سوق اللؤلؤ يعتبر مكاناً آخر لتأديب الصبيان ، وقد درّس فيه الحسن بن الحسن أحمد أبو الفضائل بن أبي علي الكلابي المؤدب ، توفي سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م . (٤)

يؤكد ما سبق ذكره مدى أهمية ومكانة ودور المسجد في تأديب الصبية ، وتعليمهم . ولم يقتصر تعليم الصبيان على المساجد والمكاتب ، بل كان بعضهم يلقن التعليم في المدارس منهم علي بن جوسن بن رميح بن الحسن الثعلبي ، قدم دمشق ، وعلم الصبيان في المدرسة الأمينية ، وقد توفي سنة ٥٦٠هـ / ١١٦٤م . (٥)
وقد امتدح ابن خلدون طريقة التعليم في المشرق الإسلامي فقال : " إنها طريقة راسخة وبحورها زاخرة ". (٦)

يبدأ تعليم الصغير في سن مبكرة ، فيرى البعض أنها تبدأ في الرابعة من العمر إلى الخامسة ، أو من السادسة وحتى السابعة مدة سنتين دراسيتين . (٧) وإذا ثبت فقر والد الصبي ، فإن المسؤولية تقع على الأقارب ، أو يُطلب من المعلم أن يعلمه احتساباً . (٨) ولا شك أن التعليم منذ الصغر مهم جداً ، لأن التعليم في الصغر كالنقش على الحجر ، يوسع مدارك الطفل لتلقي المعارف مبكراً قبل أن تتراكم عليه الأعمال والاشتغال بغير التعلم ، وفوات فرصة التعلم في الكبر . (٩)

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٧٦٧ - ابن منظور : مختصر مدينة دمشق لابن عساكر ، تحقيق مطيع الحافظ ، نزار أباظة ط١ دار الفكر دمشق ١٤٠٦هـ / ١٩٨٤م ج٣ ص١٥٩

(٢) الذهبي : معرفة القرّاء الكبار على الطبقات ، مؤسسة الرسالة تحقيق عواد معروف ، شعيب الأرناؤوط ، صالح مهدي عباس ، طبعة ١ بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ج١ ص٤٨٧-٤٨٨

(٣) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٠٩ - الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٩٨

(٤) ابن عساكر :تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٤ ص ٤٢٩-٤٣٠

(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١١ ص٨٨٨

(٦) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص٢٧٥

(٧) القابسي : التعليم ص٢٦٤ - عمر فروخ : إخوان الصفا دراسة وتحليل بيروت طبعة٣ ١٤٠١هـ/١٩٨١ م ص١١٥ - ابن سحنون : المصدر نفسه ص٥٠ الغزالي:إحياء علوم الدين مكتبة الدر وبي دمشق درويشية ج٢ ص٦٤

(٨) القابسي : التعليم ص٢٦٦ - الديوه جي : التربية والتعليم في الإسلام ص٨

(٩) الأصبهاني : من محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء مطبعة القاهرة الشرقية ١٣٢٦هـ/ ج١ ص٢٠

ويجب أخذ الصبي بالرفق في المعاملة والتأديب وعدم الاستبداد معه . (١) ويتعلم الصبي في الكتّاب الخط ، وأصول الحساب الأولى ، (٢) فإذا حذق فيه نقل من المكتب إلى المقرىء ، ليلقنه من كتاب الله خمس آيات بشكل متقن وجيد يحفظ منه في كل يوم ربع حزب أو نصف حزب ، ولربما يجعله يحفظ حزباً كاملاً ، وقيل بل يُقرئه في كل يوم عشر آيات حفظاً ، فإذا حفظ القرآن يعلمه الفقه والحديث . (٣)

وأشار ابن جبير إلى تعليم القرآن للصبيان في الشام فقال : "إن تعليم القرآن إنما هو بطريق التلقين ، ثم تعليم الصبية الخط في الأشعار (٤) تنزيهاً لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو " (٥) . وقد أثارت هذه الطريقة إعجاب ابن خلدون ففضل طريقة أهل المشرق على طريقة أهل المغرب . (٦)

وبعد أن يحفظ الصبية ما تلوه حفظاً أمام المعلم ، يلجئون إلى الكتابة على ألواحهم مما قد خصصه لهم المعلم ، فإذا أنهى الصبي عمله عرضه على المعلم ليرشده إلى مواطن الضعف والخطأ كي يمسحها . (٧) ولنا برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، حين سلك في منهجه أسلوب الوسائل الإيضاحية السريعة للفهم والمؤدية لترسيخ المعلومات المبتغاة في الدرس ، فذكر الصحابي ابن مسعود رضي الله عنه ما يلي : خطّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خطّاً بيده ، ثم قال : " هذا سبيل الله مستقيما" وخط عن يمينه وشماله ثم قال : (" هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ") ثم قرأ: ((وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)) (٨) .

كما اعتمد الإشارة الحسية التي تربط العقول بشيء محسوس كقوله صلى الله عليه وسلم (" التقوى ها هنا وأشار إلى صدره ") وقوله : (بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بإصبعه السبابة والوسطى ، وفرّق بينهما) فلا بد من تخير أحسن الأساليب وأنفعها وأقربها لتفتح عقل وقلب المتعلم ، فيغدو وقعه في السمع والبصر له الأثر البالغ في شدّ المتعلمين حتى يندفعوا بكليتهم نحو الغرض الذي يبحث به المعلم (٩)

==

(١) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون ص٣٣٥

(٢) ابن سحنون : المصدر نفسه ص٤٤ - ابن العربي : أحكام القرآن ج٢ ص٢٩١

(٣) ابن سحنون المصدر نفسه ص١٤٠ السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ط١ مؤسسة المكتبة الثقافية بيروت ١٩٨٦ م ص١٠١

(٤) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٩١ - القابسي : التعليم ص١٥٠

(٥) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٩١

(٦) ابن خلدون : المصدر نفسه ص٢٧٥

(٧) الديوه جي: التربية والتعليم في الإسلام ص١٧-١٨

(٨) سورة الأنعام : آية ١٥٣

(٩) الوشلي : المسجد ودوره ص٢٨-٢٩

كانت طريقة معلمي الكتّاب في دمشق ، تعتمد التلقين على حده ، ثم تكتيب الصبية ، وهذا الأمر يعتبر جيداً ، لأن التكتيب يخّرج تلامذة متميزين بحسن الخط ، لأن المعلم كان شغله الشاغل تعليم الصبي إتقان الخط وتجويده ، ليخرج مطبوعاً على نسق أستاذه . (١) وقد يحمل الصبي في يده لوحاً يكتب فيه ما يريد أن يحفظه أو يمحوه كل ذلك بمثابة المعلم له . (٢)

قدّم ابن بطوطة صورة عن التعليم في الجامع الأموي قائلاً : " وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله ، يستند كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد ، يلقن الصبيان ويقرئهم ، وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً لكتاب الله تعالى ، وإنما يقرأون القرآن تلقيناً ، ومعلم الخط غير معلم القرآن " يعلمهم الكتابة بالأشعار وسواها،" فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب " وبذلك يجود خطه. (٣)

وممن عمل على تلقين الصبية القرآن ، نصر بن القاسم أبو الفتح الأنصاري المقدسي الفقيه المقرئ ، قدم إلى دمشق ولقن القرآن في مسجد عمر بدمشق .(٤) وكان أبو الوحش سبيع بن قيراط يُقرى القرآن من الصباح إلى قريب الظهر . (٥) أسهم تعليم الصبية إعراب القرآن وتعلم الحساب والنحو وأيام العرب ، في إصلاح نطقهم ، وتهجئتهم للارتباط الوثيق بالقرآن الكريم ، شريطة أن يكون تلقين هذه العلوم تدريجياً ، بحيث تراعي مقدرة الصبي العقلية على التحمل وقبول ما يتلقاه (٦).

كان الأسلوب الذي يعتمده المعلم الإشراف بنفسه على الأولاد ، و إعمار

==

(١) ابن جبير : المصدر نفسه ص ١٩١ .
(٢) القابسي : التعليم ص٢٨٩
. الغزالي : تهافت الفلاسفة ، سليمان دنيا القاهرة طبع دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٧م ص٢١٢ . القفطي : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ط١ مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦هـ ص١٦٧
(٣) ابن بطوطة : رحلة ص٨٩
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٧ ص٥٤٨ـ ٥٤٩
(٥) الذهبي : معرفة القراء ج١ ص٤٦٢ـ٤٦٣
(٦) الأصبهاني : من محاضرات الأدباءج١ص٢٣ . ابن سحنون : المصدر نفسه ص٣٥ـ٤٤
. المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ج١ ص٤٣٠
. العبدري : كتاب المدخل المطبعة المصرية بالقاهرة ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م ج٢ص١٦٣

أوقات فراغه بالنظر فيما يعود على الصبيان بالنفع ، لا ينشغل دونهم ، وإن تعذر عليه ذلك فإنه يأمر الصبية ، أن يُقرىء بعضهم بعضاً وذلك بحضرته . (١)

ويمكن استخدام الأسلوب الاستنتاجي الاستنباطي للوصول إلى الحقيقة المنشودة من أفواه السامعين ، فكرة إثر فكرة ، وقد وجهنا رسول الله صلى لله عليه وسلم لسلوك هذه الطرائق ، التي طبقها في منهجه التعليمي ، فهي تساعد على تفتيح الأذهان لتلقي ما تتشوّف النفس إليه ، ومثال ذلك طرح سؤال معين وطلب الإجابة عليه ، وتستدعي الطريقة الإلحاح في الإجابة الصحيحة ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :" إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي : فوقع الناس في شجر البوادي قال عبد الله - ابن عباس - ووقع في نفسي أنها النخلة ، فاستحييت ثم قالوا حدثنا ما هي يا رسول الله قال : هي النخلة " (٢)

وكذلك ما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس وهم حضور في مجلسه ، إذ رأى امرأة ترضع ولدها فقال رسول الله لأصحابه ، أترون هذه المرأة تلقي بولدها إلى النار ! ! قالوا لا يا رسول الله ، فقال للناس : إن الله أرحم بعباده من هذه المرأة لولدها .

ومما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس في حجة الوداع قوله للناس : في أي يوم أنتم فظن الناس أنه سيقول شيئاً آخر فسكتوا فقال ألستم في يوم عرفة ، ثم تابع في أي شهر أنتم فسكت الناس حتى ظنوا أنه سيقول شيئاً آخر فقال ألستم في شهر ذي الحجة ، ثم تابع في أي بلد أنتم فسكتوا حتى ظن الناس أنه سيقول لهم شيئاً آخر وهو يسترعي انتباههم الشديد ، في طريقته المؤثرة ، فقال ألستم في البلد الحرام ، فأقروا ، ثم أراد الوصول للنتيجة المهمة والمستقطبة لعقولهم وأفكارهم ، بقوله : " أيها الناس اسمعوا قولي ، فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً . أيها الناس إن دماءكم ، وأموالكم ، " وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ٠٠٠ حتى تلقون ربكم ٠٠٠ وتابع ألا هل بلغت اللهم فاشهد . (٣)

==

(١) ابن سحنون : المصدر نفسه ص٤٩-٩٨-١٢٣-١٣٠ - العبدري(الشهير بابن الحاج) : كتاب المدخل المطبعة المصرية بالقاهرة ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م ج٢ص٦٤

(٢) ابن حجر العسقلاني: (أحمد بن علي٧٧٣-٨٥٢هـ) فتح الباري بشرح صحيح البخاري قرأ أصله تصحيحاًعبد العزيز بن عبد الله بن باز دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان ج١ ص١٤٥

(٣) ابن الأثير :الكامل في التاريخ ج٢ ص٣٠٢

يستدعي هذا الأسلوب مراقبة الحضور والمتعلمين في أقوالهم وأفعالهم، وتصحيح أخطائهم وإرشادهم إلى الصواب ، وتشجيع المحسن والثناء عليه ، والإشارة إليه ليزداد نشاطاً وفهماً .

يتلقى الصبي دروسه في الكتّاب مع كل صباح في أسبوع دراسي ، يبدأ من صباح يوم السبت ، وينتهي في عصر يوم الخميس . وخلال العمل ، يراقب المعلم ما أقدم عليه الصبيان من تحضير الواجبات المطلوبة ، ويقف عند آخر الأسبوع ، وقفة قصيرة ، لتقييم مبلغ ما حصّلوا من ا لقرآن والكتابة ، وسائر العلوم الأخرى .

أما منهاج الدراسة الأسبوعي فيسير على النحو التالي :

أولاً : يدرس الصبيان القرآن الكريم من أول النهار في وقت مبكر حتى الضحى .

ثانياً : يتعلم الصبيان الكتابة من الضحى إلى وقت الظهر . (١)

يسهم المعلم في طريقة تدريسه التركيز على مواهب الصبي ، حين يستخدم المعلم معه طريقة الحفظ والتكرار ، فتبقى ذاكرة الطفل قوية لحفظ القرآن واستظهاره ، إضافة للحفظ من الكتب الأخرى . ولا شك أن الصبي المتميز ، هو من تمتع بالذاكرة القوية ، حيث يجيد كل ما تم تلقينه إياه مباشرة .

ولا يخفى خمول ذهن بعض الصبية بالنسبة لغيرهم ، فيلقى المعلم صعوبة ، مع أمثال هؤلاء ، خاصة في طريقة توجيههم ، فيكثر من مكثهم في المكتب ، لمتابعة أحوالهم ، بالنسبة للصبية المتفتحين ، الذين يعجّلون التعلم ، والأخذ بكل فضيلة .

وعلى هذا الشكل تم تقسيم الصبية إلى مجموعات حسب مستوى ذكائهم ، فيعلّم الأذكياء بالتلقين والحفظ ، أما الآخرون فتتم الكتابة لهم على الألواح ليعملوا على تكرار ما درسوه ، بحيث لا يتأخرون عن رفاقهم ، ويقسم المعلم وقته لكل جماعة على حده ، ثم يراقب ميول الصبية والوقوف على مستوى ذكائهم ، ولا يكون ذلك إلا بالتفرغ التام للدرس وعدم إكراههم عليه أو على قطعه ، وإعطاء كل صبي ما يتناسب مع ذكائه من المعلومات ، (٢) وأن يعطي الصبية الحرية التامة ، فيما يرغبون مناقشته ومراعاة احترام آ رائهم.

==

(١) ابن سحنون : المصدر نفسه ص٤٦-٩٧ ـ القابسي : التعليم ص١٦١- ص٢٩١

(٢) الأصبهاني : من محاضرات الأدباء ج١ ص٢٣ ـ ابن سحنون : المصدر نفسه ص ٩٧ ـ ١٠٨

وحرصاً على استمرلر النظام في المكتب ، وابتعاداً عن المفاسد ، كان يحظّر خروج الصبي منفرداً لقضاء حاجته ، ولا يسمح بخروج صبي آخر معه ، لئلا يعبثا ويلعبا ، ويعودان متأخِرَان إلى الدرس . (١) لذلك تم التأكيد على المعلم حماية الصبيان ، ومراقبتهم في غدوهم ورواحهم ، وإعلام أوليائهم حال تغيبهم بلا عذر ، خوفاً عليهم من الفسّاق ، الذين يحتالون على الصبيان ، لذلك لابد لهم من سائق ثقة أمين ، ويفضل أن يكون متزوجاً وعجوزاً . وكان أهل دمشق يأتمنون المغاربة على كفالة أولادهم ، فيقومون بحملهم إلى محاضرهم ، وصرفهم وإعادتهم إلى بيوتهم سالمين . (٢) طُلب من الصبيان المداومين في الكتّاب ، الالتزام والتحلي بالصفات الخلقية ، والتعود على النظام والطاعة ، وعدم الهروب من الكتّاب ، وتجنب التثاؤب والكسل ، وكثرة الكلام ، وعدم تمضية الوقت إلا بالمتابعة والفائدة ، ويقع عبء التنبيه لمثل هذه الأمور على المنزل والمعلم معاً ، ويلزم المعلم الانتباه إلى ما قد يصدر عن بعض الصبية الذين من طبائعهم إيذاء بعضهم بعضا . (٣)

ولا مانع أن يُترك للصبيان فرصة ووقتاً للهو واللعب ، وأخذ قسط من الراحة بعد تعب الدراسة ، لكن دون أن يفرّط الصبي في اللهو ، وله أن يلعب لعباً جميلاً ، يستريح إليه من الدرس ، فإذا مُنع الصبي من اللعب ، فإن ذلك قد يرهقه في التعلم ، ويميت قلبه ، ويبطل ذكاءه ، والرياضة بشكل عام ضرورية لنمو أبدان الصبيان وسلامة أجسامهم . (٤)

أما صفة المعلم فالزهد والعبادة وتقوى الله ، ومما تلقاه من صفات وسجيات ، ومواقف صدرت عن المعلم ، كانت بالنسبة للصبية قدوة يحتذى بها ، لأن فساد عقيدة الصبي ، تعود إلى فساد عقيدة معلمه، ويجب على المعلم أن يكون رقيقاً في تعامله مع تلامذته ، لا يستخدم الأذى والعنف والإرهاب ، والضرب والعقوبة الجسدية ، بل يوجه الصبية نحو الطريق السوي .

---

(١) العبدري : المصدر نفسه ج٢ ص١٦٣

(٢) ابن سحنون : المصدر نفسه ص٤٩ ـ ابن جبير : المصدر نفسه ص١٦٥ ـ ابن الأخوة : المصدر نفسه ص١٧١ ـ الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق السامرائي مطبعة المعارف بغداد ١٩٦٨م ص١٠٤

(٣) القابسي : التعليم ص ٤٧ـ١١٤ـ١١٥ـ٢٨٦ـ٢٨٩

(٤) الغزالي : إحياء علوم الدين ج٣ ص٦٣ ـ ابن سحنون : المصدر نفسه ص٥٢ـ٥٣ ـ كبره زاده : مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم طبعة ١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ج٣ ص٣٤٤

وإذا انصرف الصبي إلى اللعب في أوان الدرس ، أو الهرب من الكتّاب ، عاقبه المعلم ، بالتهديد تارة ، والنصح والرفق في المعاملة تارة أخرى . (١) ولا يحبذ في المعلم أن يكون عبوساً ممقوتاً متشدداً بالعقاب ، لأنه يجعل الصبيان يتجرأون عليه ، فإن كان لابد من الضرب ، فلا يوقّع إلا على ذنب ارتكبه الصبي من غير أن يُثار غضب المعلم . (٢)

ويشترط في الضرب ألا يزيد على عشر ضربات ، لأن العشر ضربات هي غاية الأدب . وتشدد البعض على أن لا تزيد العقوبة على ثلاثة أسواط ، توقع على الرجلين ، لأنها آمن وأحمل للألم مع سلامة الصبي . وليتجنب رأس الصبي ووجهه ، وقد قيل : في تربية الأولاد " مَن أدب ولده صغيراً قرّت به عينه كبيراً " . إن الشدة في معاملة الأولاد مضرة ؛ لأن التشدد في التعامل معهم ، يفسد على النفس ويعيق نشاطها ، ويؤدي بها إلى الكسل والحمل على الكذب والخديعة ، والمكر ، وفساد تأثيرها في العقول . (٣)

كانت وصية الأمراء والحكام إلى المؤدبين في تربية أولادهم ، أن يجعلوا يدهم على صبيانهم مبسوطة ، والطاعة إليهم محكمة ، وأن يعملوا على جذبهم بالحسنى والملاينة ، ومنعهم من الضحك إلا في وقته ، وإذا استلزم الأمر فلا بأس بالشدة والغلظة . (٤)

أما آلة الضرب المستخدمة في الكتاتيب فهي الفلقة أو الدّرة ، وينبغي أن يكون عود الدّرة رطباً مأموناً ، من جلد البقر أو الجمل . (٥) ويبدو أن آلة الضرب تطورت

==

(١) ابن سحنون : المصدر نفسه ص٦٦ ـ الغزالي : الأدب في الدين ، المكتبة الثقافية بيروت ص١١٠

(٢) ابن سحنون : المصدر نفسه ص٨٩

(٣) ابن سحنون : المصدر نفسه ص٥٣-٨٩-٩٠ ـ القابسي : التعليم ص٢٨٦- ص٢٨٧

(٤) المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص٤٣٠-٤٣١

(٥) ابن سحنون : المصدر نفسه ص٥٢-١٠٢-١٠٤ ـ القابسي : التعليم ص١٣٤- ص٢٨٦

وتمحورت إلى القسوة في ضرب الصبيان ، فاستخدمت عصا اللوز اليابس ، والجريد المشرح ، والأسواط النوبية ، والفلقة ، وهذا شيء ممقوت لا يجوز استعماله من قبل من يحمّل نفسه تعليم الكتاب العزيز . ولا شك أن المحتسب طارد أمثال هؤلاء المعلمين ، ونهى عن ضرب الصبي بعصا غليظة تكسر العظام ، ولا عصا رقيقة لا تؤلم الجسم ، بل تكون وسطاً ، يُضرب بها أسافل الرجلين ، والأفخاذ بحيث لا يخشى منها الأذى .

وهذه الصورة تكذّب ادعاءات من يتحدثون عن منهج التعليم عند المسلمين العرب ، بأنه منهج قائم على الضغط والعنف خاصة في الكتّاب ، وللتأكيد على ما سبق فإن الطرق التربوية المتبعة اليوم ، ما هي إلا اقتباس عن التعليم التربوي المعمق والمتين لدى المسلمين العرب ، وخبرتهم ، وتمكنهم من أساليب التعليم ومذاهبه .

اعتبر يوم الجمعة يوم عطلة رسمية للصبية ، إضافة إلى أيام الأعياد ، حيث ينصرف الصبي قبل العيد بيوم أو يومين أو ثلاثة أيام ، وكذلك بعده ، ثم يعود بعد ذلك إلى المكتب . وينصرف الصبي أثناء دوامه إلى المنزل لتناول الغداء ، ثم يعود بعد الظهر ، ويمنع من حمل الطعام معه إلى المكتب ، أو حمل النقود ، ليشتري بها ما يرغب من المكتب ، وسبب ذلك الرفق والخشية من انكسار نفوس وقلوب الفقراء من الصبية ، فيرجع الصبي الفقير إلى بيته منكسراً خاطره غير راض بنفقة والديه عليه . (١)

و يحق للمعلم إدخال الأيتام وتعليمهم مجاناً وبدون أجر وفقاً لسياسة التعليم الإسلامي ، فيتم تحقيق المساواة في التعليم بين أبناء الأغنياء ، وأبناء الفقراء ، بل هما سواسية في التعليم ، وهذا يعني أن أخذ الأجر بكل المقاييس لا مانع فيه على ختم القرآن ، أو إكمال كتاب في النحو ، ولا يتم دفع الأجر إلا عند تمام العمل .

ثم تطور أمر الأجر بعد ذلك حتى أصبح مرتباً شهرياً ، يختلف و يتفاوت بحسب مقدرة المعلم وشهرته ، وإمكانيات والد الصبي المادية . (٢)

==

(١) العبدري : المصدر نفسه ج٢ ص١٦٣-١٦٨

(٢) الهيتمي: تحرير المقال في آداب وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الصبيان ، تحقيق محمد سهيل الدبس ط١ دار ابن كثير دمشق ١٩٨٧م ص٦٠-٩٢

وبعد أن يتم الصبي مرحلة التعليم في الكتّاب يجتاز امتحاناً حول ما حفظ من القرآن وما تلقى من الكتابة ، ليحق له بموجب ذلك الالتحاق بمرحلة دراسية أعلى .
(١) حصلت المرأة في الإسلام على نصيبها من التعليم أسوة بالذكر ، وقد تمت الدعوة لذلك منذ عهد الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ، حيث تم التأكيد على تعليم الفتاة وتأديبها ، ولم ير الإسلام مانعاً من ذهاب البنات إلى الكتاتيب في الصغر ، أما النساء البالغات ، فكان يتم تعليمهن بواسطة النساء الأخريات ، أو بواسطة محارمهن . أما البنات غير البالغات ، فكن يتعلمنّ ممن أردن .

أقر النظام التعليمي الإسلامي فصل الذكور عن الإناث ، وأكد وحض على عدم الاختلاط ، كي ما يجرّ وراءه المفاسد . أما تعليم البنات دراسة الخط ، فكان يتم تلقينه عن طريق معلمات عرفت الواحدة منهن باسم الخجا . وإذا كانت المرأة من ذوي النفوذ واليسر ، فإن عائلتها تهيئ لها من يعلمها ، من المؤدبات والمؤدبين ، فهذه زمرد خاتون بنت جاولي ذات المكانة في الحكم البوري ، قرأت فيما مضى ، القرآن الكريم على أبي محمد بن طاووس ، وأبي بكر القرطبي ، وسمعت الحديث الشريف من نصر المقدسي . (٢) ويؤكد ما سبق ذكره عدم صحة ادعاء من يطالب بتجهيل المرأة .

وبعد أن ألقينا الضوء على تعليم الصبيان ، تستوجب الأهمية ، تسليط الأضواء أكثر والتركيز ، على معلمي الأولاد والصبية ، ويمكن أن نلاحظ أولاً الفرق بين المعلم والمؤدب ، أما المعلم فهو الذي يهتم بالمعلومات ، بينما المؤدب يهتم بالأخلاق والآداب التي يجب أن يتحلى بها الصبيان . وبالإجمال فإن كلمة مؤدب كانت مرادفة لكلمة المعلم ، فلم يكن مستبعداً ، أن يكون المؤدب معلماً خصوصياً ، يذهب إلى بيوت الخاصة ، لتأدب أولادهم ، ويسمى المعلم الخصوصي . (٣)

تم التركيز في الفترة الإسلامية على راحة المعلم وسلامته ، وحثه على تقديم فرص التعليم السليمة والمرجوة للصبية ، ولم يحبذ أن يدرّس المعلم إذا كان يعاني

==

(١) القابسي : التعليم ص٤٧-٢٨٩

(٢) ابن سحنون :المصدر نفسه ص٣٨-٤١ - القابسي : التعليم ص٢٦٦-٢٨٧-ص٣٦٣

- الأبادي : عقود الجمان في جواز تعليم الكتابة للنسوان ، ط١ دمشق ١٣٨١هـ / ١٩٦١م ص٢١ - الأهواني : التربية في الإسلام دار المعارف بمصر ١٩٦٢م ص١٠٦

- شفيق جبري : مقال الكتاتيب ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مجلد ٣٦ ج٤ ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م ص٥٣٢

(٣) طوطح : المصدر نفسه ص٤٩

من حالـة مرضية ، أو غضب ، أو قلــق ، أو نعــاس ، أو جــوع أو عطش ، وبالمقابـل ، لايحق له أن يدفع الأولاد إلى حمل الطعام إليه ، ولا تكليفهم ما لا طاقة لهم به من هدية ، أو استغلال أوليائهم لمصالحه الشخصية .(١)

واشترط على المعلم أن يتقيد بالتعليمات التالية :

١- أن يعطف على الصبيان ، كعطفه على أولاده .
٢- أن يقدم ما لديه من تعليم ، وأن ينصح الأطفال بالتعلم ، والتقرب إلى الله تعالى .
٣- أن يزجر المتعلم عند خروجه عن الخلق القويم ، وينهاه عن الصفات الخلقية السيئة ، الخالية من القيم ، ويعمل على زجره وإعادته إلى الخلق الحسن .
٤- أن يحبب المتعلم بجميع العلوم ، لا أن يثير في نفسه الابتعاد عن علم من العلوم ، مثل الفقه ، أو العربية ، بحيث يعطي اهتمامه لكل العلوم ، بالقسط نفسه ، وبنفس العناية ؛ والتركيز معه بحيث لا تطغى مادة على حساب مادة أخرى .
٥- أن يكون المعلم عاملاً بعلمه ، فلا يكذّب قوله فعله . (٢)

ومن أبرزمؤدبي الخاصة في فترة الحكم البوري ، عبد القادر بن علي بن يحيى ، أبو الفضل الشريف الواسطي ، كان أديباً شاعراً ، اتصل بالأمير محمد بن بوري ، وأشرف على تعليم ولده أبق . (٣) وكان الشاعر أبو الخير الموزة من أهل حرّان ، يعلم الصبية ، ويعلم أولاد الأمراء بدمشق . (٤) وممن وفد إلى دمشق من المعلمين لتعليم الأولاد ، المحسن بن سليمان بن أبي مكرم ، أبو البركات الفارسي البعلبكي المؤدب سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م ، وبقي حتى توفي سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م . (٥) وعمل في الكتاتيب من المؤدبين محمد الهروي البسكاني توفي سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م . (٦) وحاز المؤدب أحمد بن عمر أبو الحسن الصقلي وظيفتي الإقراء والتأديب ، في مسجد

==

(١) ابن سحنون : المصدر نفسه ص٩٦ ـ ابن الأخوة : المصدر نفسه ص١٧١ ـ العلموي : المعيد في أدب المفيد والمستفيد طبعة١ مطبعة الترقي بدمشق ١٣٤٩ هـ ص٥٥

(٢) القابسي : التعليم ص٢١٧ـ٢١٨

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٤١٤

(٤) ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ج١٠ ص٤٤٤٢- ٤٤٤٣

(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٦ ص٢٨٠

(٦) ابن طولون : قضاة دمشق (الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام) تحقيق د. صلاح الدين المنجد ١٩٥٦م ص٤٤

رحبة البصل ، وكانت وفاته سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م . (١) وأقرأ الصبية بدمشق محمد ابن أبي إسحاق أبو عبد الله البسطاوي الغزي الصوفي ، وقد توفي سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م . (٢)

وعمل الطبيب المهندس الأديب ، أبو الحكم المغربي (ت ٥٤٩هـ / ١١٥٤م) مدة في تعليم الأولاد ، (٣) ولما تولى هبة الله بن طاووس البغدادي منصب الإمامة في جامع دمشق ترك تأديب الصبية . (٤)

وعمل المسلم بن الحسين بن الحسن ، أبو الغنائم المؤدب بتأديب الصبية ، فحسن أثره في ذلك ، وتوفي سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م (٥) . وكان نصر بن إبراهيم بن أبي الهيجا البازيار الحلبي ، قد عمل سائقاً لصبيان المكتب في دمشق ، ثم صار معلماً فائقاً وشاعراً بارزاً ، توفي سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م (٦) . وشغل الدميك بن أبي الخرجين ، أبو منصور ابن المسلم الحلبي التميمي السعدي ، معلماً بدمشق يعلم الصبية في المكتب ، وقد درس عليه الشاعر ابن الزغلية ، كان شيخاً مليح الخط والعبارة ، جمع بين التأديب والشعر والنحو توفي سنة نيّف وعشرين وخمسمائة .(٧)

يستنتج مما سبق أهمية الكتاتيب ، ذلك الصرح الذي مثّل التربية الأولية والمعهد التعليمي الابتدائي الأول في الإسلام ، فحاز على عناية ورعاية المفكرين والحكام ، وخرّج القطاف اليانعة الدواني ، وصقل المواهب ، على أرضية صلبة ، فأعطت ثمراً يطيب ويزكو في المدارس العليا ، ويأتي في الأهمية أيضاً حلقات التدريس في المساجد ، حيث يسهل على الطالب أن يحصّل علومه من كل الفنون التي يرغب الخوض فيها ، وييسر مداركه بالتخصصات المعمقة .

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٧ ص٧٧
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٦٨
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص١٢٣
(٤) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٠٩-١١٠
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٦ ص٤٦٣
(٦) الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ج٢ ص١٦٥
(٧) الأصفهاني :خريدة القصر وجريدة العصر ج٢ ص ١٦٩
ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج١٩ ص٩٤

ـ المدارس وأبرزها في الحكم البوري :

انطلق تأسيس المدارس من بلاد ما وراء النهر الإسلامية ، وخرجت لتكون مدارس فقهية مستقلة عن المساجد . ظهرت أقدم مدرسة فقهية في أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، وتوالى بعدها تأسيس المدارس من قبل الحكام أو الأمراء أو التجار العرب والعجم . فانتشرت المدارس في العراق بمناطق البصرة والكوفة وبغداد والموصل وإربل وواسط ، وفي الجزيرة والأناضول .

تحدث الجغرافي المقدسي عن انتشار المدارس في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . (١) إلا أن إنشاء المدارس الكثيرة ، يعود إلى نظام الملك الوزير السلجوقي وعرفت بالنظاميات . (٢) أما في فترة الحكم البوري فقد ازدادت أهمية المدارس ، وأقيمت إلى جانب المساجد كمدارس ملحقة بها ، نتج عنها ظهور عوائد الأوقاف المخصصة ، (٣) لتأمين الاحتياجات الضرورية من الأرزاق والمعاشات للطلاب والمدرسين على السواء .

وارتبط بناء المدارس بطبيعة المذهب المتبع ، ودفع الاهتمام بالمدارس إلى جلب النخبة المثلى من العلماء ، من المقرئين والمحدثين والفقهاء ، ممن يعول عليهم في تنشئة الطلبة الدارسين ، فكان العالم المدرّس لا يخرج من مدرسة إلى أخرى ولا من مسجد إلى آخر إلا لفائدة ترتجى منه في زيادة العلم وتقديم الفائدة المرجوة في التوكيد والحض على بحث مسائل العلم .

كانت المدارس تلقن العلوم الدينية وما تستلزمه هذه العلوم من فنون أخرى معينة أو مساعدة ، من العلوم العربية إلى العلوم التطبيقية . وبرزت أهمية المدارس في تحركها نحو التخصص في ميادين العلوم المختلفة .

يطول الحديث عن دمشق ومدارسها التي زادت على اثنتي عشرة مدرسة في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، وتعني في عرفنا اليوم اثنتي عشرة جامعة لمدينة دمشق ، تستقطب علم الأعيان وحكمة الحكماء وفقه الفقهاء ، وحديث المحدثين . فكانت مدارس علوم القرآن والحديث والفقه على المذاهب الأربعة التي

==

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم بيروت ص٤٤
(٢) الديوه جي : التربية في الإسلام ص٧٤
(٣) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ص٨٤

كان دافعها تأسيس هذه المدارس لنشر المذاهب الفقهية التي اندفع الطلبة إلى الدراسة فيها ، وقد جلبت كبار هؤلاء العلماء لبث معارفهم فيها تحت رعاية وكنف وتشجيع الولاة والأمراء .

وإذا انتقلنا إلى سمات هذه المدارس وما ميزتها عن غيرها وما قدمته فهو الكثير ونبدأ بسمة هامة ألا وهي تنوع العلوم التي تدرّس فيها ، هذا بالإضافة إلى ما تقدمه من المعاليم والجرايات التي تُدفع للمنتسبين إليها ، فتمت كفالة الطالب في المسكن والنفقة والإعاشة والمعالجة وتقديم الثياب والكتب . (١)

وقد رتّب أهل دمشق عقب بناء المدارس الضروريات للطلبة والفقراء من الخبز واللحم والزبيب والجلود والصابون لكل شهر على الدوام . (٢) واحتوت كل مدرسة على غرفة للمدرس وأكثر من غرفة للطلبة ، وغرفة للمعيد والمصلى والمطبخ ، وكان لكل علم قسم خاص به . (٣)

وألحقت كل مدرسة بالمدرسين والمعيدين ، (٤) وغدت المدارس بعد بنائها أكمل استعداداً لتلقي الطلبة المتفقهة حيث لهم الغرف للسكنى والانقطاع إلى الدراسة بأعداد ترتبط وموارد المدرسة المالية . (٥) ولم يقتصر بناء المدارس على دمشق وحدها ، بل عرفت أيضاً في بصرى (٦) وبعلبك وحمص (٧) ،

==

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٧٣٣
- الديوه جي : التربية في الإسلام ص٣٢-٧٦ -
زغلول : الأدب في العصر السلجوقي مطبعة دار المعارف مصر ١٩٦٧ م ص١٨-٢٨

(٢) البدري : نزهة الأنام في محاسن الشام ط١ دار الرائد العربي بيروت ١٩٨٠ م ص٤١

(٣) ابن العبري : مختصر ص٤٢٥ - الديوه جي : التربية ص٨٢

(٤) الديوه جي : المرجع السابق ص٧٨

(٥) السبكي : معيد النعم ص٨٤ - الهيتمي : تحرير المقال ص٩٣ - رمضان محمد : المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية طبع ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧ م ص١٤٨

(٦) ابن عساكر : مخطوط ج٧ ص٣٨٨ - المقداد : بصرى دليل أثري وتاريخي دمشق ١٩٨٥ م ص١٨ - بدران : المرجع السابق ج٦ ص١٨٩

(٧) الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك تصحيح بولس رواس باريس مطبعة الجمهورية ١٨٩٤ ص٨٧

وحماه (١) ، وغيرها من المناطق التابعة للحكم البوري .
وكنا نوهنا من قبل أن الغرض الأساسي من بناء المدرسة تدريس الفقه على مذهب محدد ، فانتشرت المدارس الشافعية التي تدرس الفقه الشافعي، (٢) والمدارس الحنفية التي تدرس الفقه الحنفي (٣) والمدارس الحنبلية التي تدرس الفقه الحنبلي (٤) . وانعدمت المدارس الخاصة بالمذهب المالكي . وتم تعيين المدرس في مدرسة بتوقيع يكتب له " أن يستقر في نظر الوقف الفلاني ، واشترط أن يكون المدرس في حدود الأربعين عاماً . (٥)
بدأت الدروس في دمشق تأخذ شكلاً استقلالياً عن المسجد في أماكن خاصة ، فكانت العلوم تدرّس في دويرة حمد في حدود عام ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩ م . ثم حلت مدرسة دار القرآن الرشائية التي أسست في أوائل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، ثم ظهرت المدرسة الثالثة في دمشق وعرفت بالمدرسة الصادرية ، وهي أول مدرسة فقهية حنفية ، ولكنها لم تكن أقدم مدرسة للتدريس على غرار ما تبين معنا (٦) . وبنيت المدارس الحنفية والشافعية خلال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، مساوية بالعدد من حيث العلماء .
فالمدارس الحنفية وفد إليها العلماء من بخارى وخراسان ، (٧) وازدحمت المدارس في دمشق بين القلعة والجامع في الجزء الشمالي الغربي من المدينة (٨) ،

==========

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص١٠٠٥-١٠٠٦
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٤ ص٤٣٧-٤٤٠-٤٤٩
- ابن العديم : بغية الطلب ج٥ ص٢٣٥١-٢٣٩٠
(٣) الحنائي : مخطوط طبقات الحنفية رقم ٨٩٥٠ مكتبة الأسد ص٥٦٤ وجه
- قطلوبغا : تاج التراجم ص٨٤-٨٥
(٤) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٦٤
- د٠ بيطار : مقال التعليم ص٢٦٨
(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج١١ ص١٢٤
- السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ طبعة مصورة بيروت ١٩٧٩ م ص١١
(٦) أكرم العلبي : خطط دمشق ص٥١
(٧) GILBERT : OP,CIT P. 101
(٨) GILBERT : OP,CIT P- 63-65-91

فأقيمت داخل أسوار المدينة مدارس الفقه المتمثلة بشكل خاص بالشافعية والحنابلة ، بينما اقتصر أمر المالكية على حلقات ضمن الجامع الأموي . (١) ومارس الحنابلة تعليمهم في البيوت حتى تسنى لبعض العلماء والتجار بناء المدارس الفقهية المتخصصة بالمذهب فبنى الفقيه عبد الوهاب الحنبلي (ت٦٣٥هـ/ ١١٤١ م) المدرسة الشريفية، وبنى التاجر مسمار الهلالي الحوراني (ت٥٤٦هـ/ ١١٥١ م) المدرسة المسمارية . (٢)

ولقي الاهتمام بالطلبة وأحوالهم عناية بعض الأمراء والحكام ، فظهرت المدارس الخاصة ، التي تابعت تواصل عمل المسجد لا تختلف عنه فبنى أمين الدولة كُمشتُكين المدرسة الأمينية ، ومجاهد الدين بزان المدرسة المجاهدية الجوانية والبرانية ، وبنى معين الدين أنر للأحناف المدرسة المعينية وبنت زمرد خاتون المدرسة الخاتونية .

وقد كان لأغلب المدارس أروقة أمام الحجرات والغرفات ، إضافة إلى ساحة أو رحبة أو فناء واسع يعرف بالصحن ، تحيط به حجرات في الطابق الأسفل وغرف في الطابق الأعلى ، وضمت أغلب المدارس إيواناً واحداً أو إيوانين . ولم يكن لعدد الأواوين في المدرسة صلة بعدد المذاهب التي تدرس بها . وجلب لبناء المدارس المهندسون والمعماريون والرسامون والنحاتون . وقد تحيط المدرسة بالأسوار العالية والقبة والمآذن المزينة بالقاشان ، ووجدت الأروقة من أجل المدرسين يجلسون بها وبجوارهم المعيدون .(٣)

وضمت كل مدرسة الفقيه والمدرس والمعيد والمفيد والإمام والمؤذن والخادم والقيّم والبواب والفرّاش ، وفق شروط الواقف وعلى مذهب المدرسة . (٤)

==

(١) GILBERT : OP,CIT P.116

(٢) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٦٤-١١٤

(٣) ناجي معروف : علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي مطبعة الإرشاد بغداد طبعة١ ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣ م ص١٢١

(٤) د. موسى باشا : أدب الدول المتتابعة ط١ بيروت الفكر الحديث ١٩٦٧ م ص١٣٢ - معروف : علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي ط١ مطبعة الإرشاد ١٣٩٣هـ/١٩٧٣ م ص١٩٨

ويشـرف علـى إدارة المدرسـة النـاظر والمشـرف ، ومهمتـه الإشـراف علـى أمـور المدرسة من نظافة وخدمة . وقد يكون للنـاظر نائـب أو وكيـل يعينـه النـاظر ، مـن بـين الموثوق بهم .

وهناك الكاتب ويتولى تحرير الكتب والرسائل بين النـاظر وأقسـام المدرسـة ، أو التي ترد من الخارج ، ويقوم بحفظها في سجلات رسمية ، (١) ويعيّن الشـاهد بـنص الواقف ، وهو كالمراقب للناظر أو نائبه ، فإذا بـاع أو اشـترى أو أجّر أو أعطـى شيئاً لأحد فإن ذلك يكون بحضوره ، ويضع شهادته على الصكوك والعقود . وهنـاك كاتـب الغيبـة علـى الفقهـاء ، عليـه أن يكتـب كـل مـن لـم يحضـر ويستفسـر عـن سـبب تغيـب المدرّس والفقيه ، ويقوم بإعلام الناظر ، إن ثبت لعذر بيّنه . (٢)

زودت المدرسة بالكتب مرتبـة فـي خـزائن خصصـت لهـا ، يشـرف عليهـا خـازن الكتب والمناول الذي يعير الكتب إلـى الطلبـة، ثم يعيـدها إلـى مكانهـا . (٣) وقـد تكـون المدرسة خانقاه للصوفية ، يعمل على وقفها للدرس والحفظ ، فالبعض اعتبـر الغزاليـة مدرسة ومنزلاً للصوفية ، ومركزاً للتدريس والتعليم .

وكـان افتتـاح المـدارس يـتم بحضـور العلمـاء ورجـال الدولـة وفئـات المجتمـع الأخرى . (٤) وبذلك تبين لنا ما حظيت به المدارس من موقع تعليمـي كبيـر ، يـدفعنا إلى وقفة نطل بها على أبرز مدارس دمشق ، ومن ثم ننتقل إلى المدارس التـي عرفـت في المناطق التابعة للحكم البوري .

ـ دار القرآن الرشائية :

تعتبر أقدم دار للقرآن الكريم في دمشق ، أنشأها رشأ بن نظيـف بـن مـا شـاء الله (ت٤٤٤هـ/ ١٠٥٢ م) في حدود عام ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩ م . (٥) كان رشأ عالماً

==========

(١) ابن طولون : القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية تحقيق محمد أحمد دهمان طبعة ١٩٤٩ م ص١٤

(٢) ابن طولون : القلائد الجوهرية ص١٤ ـ السبكي : معيد النعم ص٦٨

(٣) معروف : علماء ص١٩٩ ـ الديوه جي :المرجع السابق ص٩٩-١٠٠

(٤) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٤٦-٢٤٧ ـ الديوه جي : المرجع السابق ص٩٩-١٠٠

(٥) العلموي : المصدر السابق ص٧

بالقراءات ، أوقف داره على القرّاء ، (١) أما موقع هذه الدار فإلى جانب الخانقاه السميساطية بدمشق في باب الناطفائيين . (٢) كان رشأ يقرأ القرآن بحرف ابن عامر على أبي الحسن بن داود الداراني . (٣)

روى عنه القراءة أبو الوحش سبيع بن قيراط ، وكان خرج إلى العراق ومصر ، أملى القرآن على جماعة من العلماء في مصر والشام والعراق ، انتهت إليه الرئاسة في قراءة ابن عامر . (٤) أقيمت هذه المدرسة لمساعدة الطلبة على حفظ القرآن الكريم ، وتلقينهم إياه على حرف أو حروف متعددة . وقبل وجود دور القرآن هذه كان القرّاء يتصدرون لتعليم القرآن الكريم في المسجد الجامع بدمشق .

وما يميز هذه المدارس القرآنية عن غيرها ، اعتمادها على التجار أو العلماء ، بينما الحكام والأمراء هم مَن تولوا إنشاء مدارس الفقه . وعلى الرغم من أن المدرسة الرشائية تعتبر أول مدرسة لتعليم القرآن الكريم ، إلا أن بناء مدارس على شاكلتها ، كان يسير ببطء شديد على غرار المدارس الفقهية .

ومع أهمية هذه المدرسة إلا أن المصادر لم تقدم تفاصيل عن أسماء العلماء ، الذين درّسوا علوم القرآن الكريم في المدرسة ، ومكان تدريسهم بالدار المذكورة . مع العلم أن علم القراءات كان من المواد المدرّسة في الجوامع والمدارس . (٥)

ونقرأ على سبيل المثال أن العالم جمال الأئمة ابن المانح (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٦م) قرأ على أبي الوحش سبيع بن قيراط ، (٦) وكذلك قرأ أبو البركات الحارثي على

==

(١) ابن عساكر :تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٦ ص٢٥٦ ـ النعيمي : الدارس ج١ ص١١ ـ الصفدي : الوافي بالوفيات اعتناء يورينغ المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ١٩٨٢ م ج١٤ ص١٢٢

(٢) ابن الجزري : طبقات القراء ج١ ص٢٨٤ ـ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١١

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٦ ص٢٥٦ ـ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١١

، دور القرآن ص١١-١٢-١٣ ـ العلبي: خطط دمشق ص٦٦

(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٦ ص٢٥٦ ـ العلبي : خطط دمشق ص٦٦

(٥) البدوي : المرجع السابق ص٩٣ ـ

(٦) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٠٣

أبي الوحش سبيع (١) ، كما قرأ الصائن ابن عساكر هبة الله (ت ٥٦٣ هـ/ ١١٦٧ م) القرآن الكريم بالقراءات على جماعات منهم أبو الوحش سبيع ، (٢) ولا ندري إن كان المقرىء أبو عبد الله محمد بن علي بن ياسر الأنصاري الجياني ، يعلّم القرآن الكريم في المسجد أو في المدرسة الرشائية لدى وصوله إلى دمشق قبل سنة ٥٢٠ هـ/ ١١٢٣ م . فقد ورد أنه سكن قنطرة سنان ، وكان يعلّم بها القرآن الكريم . (٣)

وكان أبو الإصبع عبد العزيز المعروف بابن الطحان الإشبيلي المقرىء(ت ٥٥٩هـ/ ١١٦٣ م) قد وصل إلى دمشق ، وكان من القرّاء المجوّدين الموصوفين بالإتقان ، ومعرفة وجوه القراءات ، ولم يكن ببلاد المغرب تلك أعلم بالقراءات منه ، درّس في دمشق القرآن الكريم . (٤) وما يجب أن نعرفه في الحقيقة الجوهرية أن ما ورد من أخبار صحيحة تذكر دور الجامع الأموي بأنه بقي مستمراً ، وذلك ممالاشك فيه ، فقد أقرأ الكثير من القرّاء القرآن الكريم في الجامع حسبة لله عز وجلّ . (٥)

برزت المدارس الفقهية المتمثلة بأصحاب المذاهب المعروفة إلى جانب مدرسة إقراء القرآن الكريم . ولم يقدم ابن عساكر صورة مفصلة واضحة عن هذه المدارس إلا ما أشار إليه إشارة عابرة . وقد أوردت إحدى النقوش أن عمر بن الحسين الجبيري أنشأ مدرسة في دمشق دون أن تذكر المصادر توضيحاً عنها أو تعرفنا بالمذهب الذي أوقفت عليه المدرسة . (٦) والآن نبدأ بأقدم المدارس الفقهية المتمثلة بالمذهب الحنفي ، مذهب الدولة البورية .

١- **المدارس الحنفية** :

١- **المدرسة الصادرية** : أنشئت ٤٩١هـ / ١٠٩٧م
أنشأها شجاع الدولة صادر بن عبد الله ، وهي أول مدرسة فقهية ، أنشئت بدمشق ، وثالث مدرسة بعد الرشائية و دويرة حمد .

==

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ج١٣ ص٣٤٠
(٢) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارسج١ ص٤١٦
(٣) المقري : نفح الطيب ج٢ ص١٥٧
(٤) المقري : المصدر نفسه ج٢ ص٦٣٤
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٦ ص٦٤٨
(٦) SAUVAGET : OP,CIT . N . 2926. P. 8 . 72 .

تقع داخل الجامع الكبير إلى الغرب من المدخل عند باب البريد ، فقد ذكر العلموي تاريخاً خاطئاً لبنائها ، حيث نسبها إلى عام ٣٩١هـ / ١٠٠٠م ، وربما يعود ذلك إلى عدم دقة الناسخ . (١)

تقع المدرسة إلى جوار المدرسة البلخية ، (٢) وقد درّس فيها من العلماء ، العالم الإمام علي بن زنكي ، أو مكي الكاساني وقيل الكاشاني ، ولم يزل بها إلى أن نزل عنها للشيخ الإمام أبي الحسن علي البلخي سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م (٣) ، فعُقد له مجلس المناظرة ، وجلس للوعظ فيها ، فوقع له القبول في قلوب الناس ، فحسده الكاساني ، وطلب منه مغادرة دمشق ، ثم ندم على إخراجه من دمشق ، وكاتبه بالعودة إلى دمشق ، وسلمه الصادرية ، تعبيراً عن رضاه عليه ، وتعويضاً له عما فات . (٤) وولي بعده المدرسة الشهاب ابن أبي العيش الدمشقي (٥) ثم من بعده محمد بن أسعد العراقي (٦) ودرّس في الصادرية أيضاً الفقيه الحنفي إبراهيم بن محمد ، أبو إسحاق الدهستاني المتوفى سنة ٥٦٠هـ / ١١٦٥م .(٧) كما درّس بالمدرسة علي بن أحمد

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ٢ قسم ١ ص٧٥ ـ ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص١٩٩-٢٠٠ ـ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٥٣٧

(٢) ELISSEEFF: OP,CIT . P3 . P919 .

(٣) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٥٣٧

ـ العلموي : المصدر نفسه ص٩٤

ELISSEEFF : OP,CIT . P3 . P 919 .

(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص٢٠

ـ القرشي : الجواهر المضية ج١ ص٣٥٩-٣٦٠

(٥) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٥٣٧

ـ ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص١٩٩

(٦) الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق محمد بهجت الأثري ، منشورات وزارة الإعلام العراق ١٩٧٦م مجلد ١ ج٣ ص٢٦٦

ـ القرشي : الجواهر المضية ج٢ ص٣٢

ـ ابن قاضي شهبة : مخطوط طبقات النحاة واللغويين ، مكتبة الأسد رقم ٣٤٦٨ ميكرو فيلم ٧٨٤٠ ص٢٥

(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٤٠ ص٥٥-٥٦

القرشي : المصدر نفسه ج٢ ص٣٦٨

- ALPTEKIN: OP,CIT P. 130

الرازي ، إمام الحديث الشريف في المدرسة ، قدم دمشق وسكنها ، توفي سنة ٥٩٨هـ / ١٢٠١م . (١) ودرّس بالمدرسة أيضاً علي بن أحمد بن المكي (ت ٥٩٣ هـ/ ١١٩٦ م) وكذلك درّس بها إبراهيم بن محمد إبراهيم الموصلي (ت ٥٦٠ هـ/ ١١٦٥ م)(٢) ، دون أن نستوضح المواد التي درّسها . وكان الحديث يدرّس إلى جانب الفقه ، بالإضافة إلى العلوم الدينية الأخرى .

وللأسف لم يكن مصير هذه المدرسة أفضل من غيرها من المدارس التي اندثرت وضاعت معالمها ، ولم يبق من آثارها إلا بعض من صحنها ، وبه بركة الماء . وفي الجانب القبلي حجرة صغيرة ، وقد تعرضت المدرسة للسرقة من قبل المختلسين ، فصارت دور للسكن ، وانمحت آثار المدرسة بعد هدم سوق المسكية والمنطقة المحيطة بالأموي من الجنوب والغرب ، وفتح شارع القلعة . فتحول مكان المدرسة إلى مرآب للسيارات في النهار ، وملعب للأولاد في الليل . (٣)

ب – المدرسة الطرخانية : أنشئت ٥٢٥ هـ/ ١١٣٠ م

بنيت المدرسة الطرخانية بجيرون داخل البلد لأصحاب المذهب الحنفي ، وهي المدرسة المعروفة بدار طرخان . (٤) كانت داراً للشريف أبي عبد الله بن أبي الحسن ، ثم أصبحت داراً للحاج طرخان ابن محمود الشيباني ، ويعود بناؤها وتأسيسها إلى ناصر الدولة طرخان هذا أحد الأمراء المعروفين بدمشق (ت ٥٢٠ هـ/ ١١٢٦ م) وتوقف دوره عند بنائها فقط ، وإطلاق اسمه عليها ،

==

(١) القرشي : المصدر نفسه ج٢ ص٥٤٣-٥٤٤

(٢) قطلوبغا : تاج التراجم ص٤٢ - بدران : تهذيب تاريخ دمشق ج٢ ص١٦٣-١٦٤

(٣) بدران : منادمة ص١٧٨ - العلبي : خطط ص١٩٧

(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ٢ ص٧٢ - ابن عبد الهادي : ثمار المقاصد ص٨٦

- ELISSEEFF : OP,CIT P3. P921

فكان له شرف التسمية . ومن ثم آلت إلى سنقر الموصلي فأوقفها لأصحاب الإمام أبي حنيفة . (١)

ولكن أول من درّس بها ، هو الشيخ برهان الدين البلخي ، جعلت له مدرسة (٢) وتوالى من بعده عدد من الشيوخ الذين ساهموا في التدريس بها ، نذكر منهم رشيد الدين الحواري الفقيه ، (٣) ومحمد بن أسعد بن محمد بن نصر الفقيه ، وأبو المظفر ابن الحكيم البغدادي ، المتوفى سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م ، (٤) وبلغ عدد من تابع التدريس فيها أحد عشر مدرساً . (٥)

ألحق بالمدرسة مسجد ومسكن للأساتذة على طراز نظام المدارس المعروفة لدى بناء المدرسة . (٦) وتعتبر المدرسة وقفاً تم إعماره للشيخ البلخي في سنوات قليلة . وغدت في عام ٥٢٥ هـ/ ١١٣٠ م ، مركزاً علمياً من مراكز تعليم المذهب الحنفي ، وقد طالتها يد الزمان وعبثت بها ، فكان حظها كغيرها من المدارس التي انمحت معالمها ، وتحولت إلى دور للسكنى تخدم مصلحة قلة من الناس . (٧)

ج – المدرسة الخاتونية البرانية : (مسجد خاتون) أنشئت ٥٢٦ هـ/ ١١٣١ م

وهي من المدارس الحنفية غير المدرسة الخاتونية الجوانية . تقع على الشرف القبلي خارج الأسوار ، (٨) أوقف هذه المدرسة الخاتون زمرد أم شمس

==

(١) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق مجلد ٢ ص٧٢ - ابن شداد : الأعلاق قسم دمشق ص٢٠٠-٢٠١ - النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٥٣٩-٥٤٠
- ALPTEKIN : OP,CIT P. 177
- ELISSEEFF : OP,CIT .P.3 P921

(٢) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٣٤
- القرشي : الجواهر المضية ج٢ ص٥٦٠

(٣) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٠١ - العلموي : المصدر نفسه ص٩٥

(٤) القرشي : المصدر نفسه ج٢ ص٣٢

(٥) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٠١

(٦) د. بيطار : مقال التعليم ص٢٨٤

(٧) بدران : منادمة الأطلال ص١٧٩-١٨٠ - العلبي : خطط دمشق ص١٩٨

(٨) دهمان : في رحاب دمشق ص٧٥ - ELISSEEFF : OP,CIT P.3 P.921

الملوك ، كانت من اللواتي تلقين علومهن على رجال عصرهم ، فقد سمعت الحديث من الفقهاء ، واستنسخت الكتب وقرأت القرآن الكريم ، وعملت على إكرام أهل العلم وكانت محبة للبر والصدقات . (١)

أوقفت المدرسة على الشيخ أبي الحسن البلخي (ت ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م) وهو أول من درّس فيها سنة ٥٢٦ هـ/ ١١٣١ م، وقد دفن حين وفاته بمقابر باب الصغير بدمشق . (٢) ثم درس بها فخر الدين القاري ، وولده من بعده ، (٣) ودرس أيضاً مسعود بن شجاع برهان الدين الأسدي ، توفي سنة ٥٩٩ هـ/ ١٢٠٢ م . (٤) ووصل من حلب إلى دمشق رضي الدين السرخسي ، وتولى التدريس فيها توفي سنة ٥٤٢ هـ/ ١١٤٧ م (٥) ، كما درس فيها أيضاً أبو بكر السمرقندي البلخي . (٦)

كانت المدرسة الخاتونية من أبرز المدارس الحنفية وأجودها معلوماً ، وقد وصفها البدري قائلاً : " إنها من أعاجيب الدهر يمر بصحنها نهر بانياس ونهر القنوات على بابها ، ولها شبابيك تطل على المرجة وبها ألواح رخام " . لم يسمع بمثلها وتوالى الهدم على المدرسة حقباً حتى لم يعد لها أثر في يومنا هذا (٧) .

==

(١) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص١١٢ ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢١٨
- القرشي : الجواهرالمضية ج٢ ص٥٦٠-٥٦١ - النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٥٠٢ ALPTEKIN : OP,CIT P.177
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢
- النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ٥٠٢ - القرشي : الجواهر المضيئة ج١ ص٣٥٩-٣٦٠
(٣) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢١٩
(٤) قطلوبغا : تاج التراجم في طبقات الحنفية ص٧٦
(٥) الحنائي : طبقات الحنفية مخطوط ص٥٧
(٦) ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ج٣ ص٤٣٤١-٤٣٤٢-٤٣٤٣
(٧) البدري : نزهة ص٤٤ - العلبي : خطط دمشق ص١٨٥

د – المدرسة البلخية (الأكزية) : أنشئت بعد ٥٢٥ هـ/ ١١٣٠ م

مدرسة حنفية تقع في محلة الكنيسة ، وتعرف بخربة الكنيسة ، ثم بدار أبي الدرداء (١) ، أوقفها أسد الدين أكز الدقاقي بعد سنة ٥٢٥ هـ/ ١١٣٠ م ، وقدّم ألسيف ELISSEEFF عام ٥٣٦ هـ/ ١١٤١ م تاريخا لبناء المدرسة للشيخ برهان الدين البلخي ، (٢) الفقيه الحنفي تفقه في بلاد ما وراء النهر وغيرها ، واشتغل بالتذكير والتدريس ، واشتهر عنه الورع والدين والعفاف ، وعرف عنه جلالة القدر وكثرة العلم ، درّس بالمدرسة وكان شيخ الحنفية بدمشق ، وانتقل من البلخية إلى الخاتونية البرانية ، (٣) وإن ثبت هذا فإن المدرسة البلخية بنيت في نفس الفترة التي بنيت بها الطرخانية والخاتونية ، هذا إن لم تكن قبلهما . وهكذا فإن البلخية هي المدرسة الثانية للفقيه البلخي بالإضافة إلى الطرخانية .

بنيت المدرسة من الأوقاف سنة ٥٣٦ هـ/ ١١٤١ م بناها أكز الدقاقي الحاجب لدى شهاب الدين محمود . وأكز هو الشخص الذي ذكره ابن القلانسي سنة ٥٣٨ هـ/ ١١٤٣ م فقال : " فيها قبض على الأمير الحاجب أسد الدين أكز ، وأخذ ماله وسُملت عيناه ، واعتقل " (٤) . ويشير ألسيف ELISSEEFF أن بناء المدرسة قد تم سنة ٥٣١ هـ/ ١١٣٦ م ، (٥) ولم ينسب ابن القلانسي إلى أكز بناء المدرسة مع أنه أشار في مواضع من كتابه إلى بعض من أسهم في بناء المدارس . (٦)

أما الدكتور ألبتكين ALPTEKIN فقد وقع في السهو ، حين داخل بين المدرسة البلخية الحنفية التي انشأها أكز وبين مدرسة أخرى تعرف بالأكزية ، وهي

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ٢ ص٨٦ - ابن عبد الهادي : ثمار المقاصد ص٩٠
- العلموي : المصدر نفسه ص٨٠ - ELISSEEFF : OP,CIT P.3 P.922

(٢) ابن شداد: الأعلاق ص٢٠١ - النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٨١ - ELISSEEFF : OP,CIT P.3 P.922
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص٢٠ - القرشي : الجواهر المضية ج١ ص٣٥٩-٣٦٠
- اللكنوي : الفوائد البهية في تراجم الحنفية طبعة١ مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٤ هـ/ ص١٢٠ – ١٢١
(٤) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٣٣
(٥) ELISSEEFF : OP,CIT P.3 P922
(٦) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٥٤٧

مدرسة شافعية انتهت عمارتها أيام الملك الناصر صلاح الدين والدنيا ، واختلط عليه الأمر أكثر حين نسبها إلى أكز صاحب نور الدين ، وذكر أنها بجوار المدرسة الشبليّة والحنفية ، بينما كانت المدرسة الأكزية لصيقة المدرسة الصادرية . (١)

والجدير بالذكر أن المدرسة كان يجري عليها نسبة من الأوقاف المخصصة لها ، منها الثلث من طاحونة اللوان . (٢) وإذا انتقلنا إلى ذكر أسماء العلماء الذين درسوا بها ، فيطالعنا منهم العالم بدر الدين أبو محمد يوسف بن الخضر الحنفي ، ثم ولده شمس الدين أبو عبد الله محمد . كان باب المدرسة البلخية عند حمام باب البريد ، يفتح إلى الصادرية ، ويقال أنه فيما بعد جعل من الصادرية . (٣)

وبمرور الزمن تحولت إلى بيوت للسكنى بعد أن تعرضت مرات عديدة للاختلاس ومصيرها الأخير الهدم عام ١٤٠٣ هـ/١٩٨٤م ، متزامناً مع هدم المدرسة الصادرية عند إزالة المناطق المحيطة بالأموي . (٤)

هـ المدرسة المعينية : أنشئت ٥٢٤ هـ/ ١١٢٩ م

مدرسة أقيمت لأصحاب المذهب الحنفي ، أنشأها داخل دمشق معين الدين أنر (ت ٥٤٤هـ/ ١١٤٩ م) ، كان أتابك مجير الدين أبق ، (٥) وتنسب المدرسة خطأ إلى تاريخ متأخر ٥٥٥هـ/ ١١٦٠ م ، والصحيح أن المدرسة تعود إلى ما قبل ذلك التاريخ . أما موقع المدرسة فهو في قصر أو حصن الثقفيين غربي الجامع الكبير في باب البريد . (٦)

==

(١) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٦٦-٥٣٧
العلموي : المصدر نفسه ص٨٠ - ALPTEKIN : OP,CIT P.178
(٢) النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٣٦٦-٤٥٣
(٣) النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٥٣٧ - العلموي : المصدر نفسه ص٨٠
(٤) بدران : منادمة الأطلال ص١٥٥ - العلبي : خطط دمشق ص١٧٤
(٥) أبو شامة : تاريخ الروضتين ج١ ص٦٤ - ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢١٠
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ٢ ص٧٦
- ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢١٠
- النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٥٨٨
ELISSEEFF : OP,CIT P.3 P.920

وقد تم بناؤها في عام ٥٢٤ هـ/ ١١٢٩ م ، استناداً إلى شاهدة وجدت على باب المدرسة تقول : " أنشأ هذه المدرسة المباركة الأمير الكبير الاسفهلار معين الدين أنر ابن عبد الله المجاهد المرابض ٠٠ وذلك في سنة أربع وعشرين وخمسمئة " (١) أنشئت المدرسة للعالم أبي المظفر محمد بن أسعد بن الحكيم العراقي (ت ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م) . (٢)

وإذا أتينا على ذكر من درّس بالمدرسة بعد العراقي ، تفيدنا المصادر بأنه برهان الدين البلخي ، ولا يفوتنا أن نفسر أسباب تدريسه في هذه المدرسة فهو حنفي المذهب ، وهذا ما يؤكد الخطأ الذي وقعت به بعض المصادر ، حين نسبت إليه تدريسه بالمدرسة الأمينية ، (٣) المتخصصة بالمذهب الشافعي ، ولم تكتف بذلك ، بل أضافت معلومة أخرى ، تفيد أنه أول مدرّس بها ، فكيف يكون ذلك . ثم إن الأمير أنر بنى مدرسته المعينية خصيصاً للفقيه أبي المظفر محمد بن أسعد العراقي ، بتأكيد من أكثر من مصدر ، أشار أن البلخي قد درس بالطرخانية والصادرية ثم تحول للمعينية . (٤)

ويمكن أن نرجع وقوع بعض المصادر في هذا الخطأ إلى التباس لفظي وقع في تشابه أكثر الحروف بين المدرستين الأمينية الشافعية ، والمعينية الحنفية ، أو يعود ذلك إلى النقل الحرفي للمصادر عن بعضها دون تدقيق أو تمحيص .

ولم يكن هذا هو الالتباس الوحيد ، بل وقع إشكال آخر حول جمال الدين بن سيما السلمي الفقيه الشافعي (ت ٥٣٣ هـ/ ١١٣٨ م) الذي ذكر اسمه خطأ في بعض المصادر ، ونسب إليه تدريسه في المدرسة المعينية ، (٥) والصحيح أنه درّس بالمدرسة الأمينية قطعاً نظراً لمذهبه الشافعي . ولكن السيف ELISSEEFF سهى عن هذا الخطأ لنقله عن النعيمي ، في كتابه الدارس عن تدريس الفقيه السلمي في المدرسة المعينية .

==

(١) :SAUVGET- الأصفهاني : خريدة القصر ج٣ ص٢٦٦
OP,CIT. N. 3033 P. 8 P.165

(٢) ابن قاضي شهبة : طبقات النحاة مخطوط ص٢٥

(٣) القرشي : الجواهر المضية ج٢ ص٥٦١

(٤) الأصفهاني : خريدة القصر ج٣ ص٢٦٦
- النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٥٣٧
الداودي : طبقات المفسرين تحقيق علي محمد عمر طبعة١ مطبعة الاستقلال ١٣٩٢هـ/١٩٧٢ م ج٢ ص٨٧-٨٨

(٥) الذهبي : العبر في خبر من غبر ج٤ ص٩٢ - النعيمي : الدارس ج١ ص١٨٠
- ELISSEEFF : OP,CIT P.3 P.920

وممن درّس بالمدرسة أيضاً العالم عبد الخالق أسد بن ثابت المتوفى سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م ، وقد درس علو السند في الحديث لكونه محدّثاً . (١) ودرس في المدرسة أيضاً، رشيد الدين الغزنوي إلى حين وفاته بها ، وتبعه في التدريس بالمدرسة الفقيه نجم الدين النيسابوري إلى أن توفي . (٢)

هذا وقد انمحت آثار المدرسة التي ثبت تحديد موقعها في أول الطريق المتجه إلى العصرونية ، ويرى بدران وجود آثار مقابل باب الفرج ، تدل على مدرسة ربما تكون هي ، (٣) هذا ما يتعلق بالمدارس الحنفية ، ومن انضوى في ظلها من العلماء والفقهاء والمحدثين على المذهب الحنفي .

وقامت مدارس أخرى لأصحاب المذهب الشافعي .

٢- المدارس الشافعية :

أ – المدرسة الأمينية: أنشئت ٥١٤ هـ/ ١١٢٠ م

بنيت المدرسة لأصحاب المذهب الشافعي ، وهي أول مدرسة بنيت لأتباع هذا المذهب بدمشق ، وكانت تسمى بحق الذهب ، وتعود هذه التسمية إلى الأموال الكثيرة التي رُفدت بها ، ومصدرها أوقاف عديدة ، إضافة إلى ما يأتيها من سوق السلاح ، وقيسارية القواسين ، (٤)بسوق الخيل . أشرف على بنائها نائب قلعة بصرى وصرخد ، أمين الدولة ربيع الإسلام كمشتكين (ت ٥٤١هـ/ ١١٤٦م) (٥).
تقع المدرسة قبالة دار الخيل ، وجوار باب الزيادة احد أبواب الجامع الأموي ،

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٤٠ ص٥٥-٥٦
- قطلوبغا : تاج التراجم ص٣٧
- ALPTEKIN : OP,CIT P.180 انظر علو السند حاشية ٧ ص١٥٩
(٢) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢١٠ - العلموي : المصدرنفسه ص١٠٧
(٣) العلبي : خطط دمشق ص٢١٩
(٤) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٧٧-١٧٨-١٧٩
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ٢ ص٧٤
- الصفدي : نكت الهميان القاهرة دار المدينة ١٩١١ م ص١٢٠- ١٢١
- ELISSEEFF : OP,CIT P . 3 P . 920

المسمى بباب الساعات سابقاً ، وموقعها اليوم في سوق الحرير ، (١) تطل المدرسة على المجاهدية شرقاً ، فهي بجوار قيسارية القواسين .

يرتبط تاريخ المدرسة بأحداث المشادّة المذهبية التي حصلت بين الحنفية والشافعية ، التي أشعل فتيلها القاضي الحنفي أبو عبد الله محمد البلاساغوني التركي (ت ٥٠٦هـ / ١١١٢م) حين عزم على نصب إمام حنفي بالجامع الأموي ، فامتنع شافعية دمشق من الصلاة خلفه ، وصلوا جميعهم في دار الخيل ، التي هي قبلي الجامع الأموي ، مكان المدرسة الأمينية وما يجاورها فجُعلت من ذلك اليوم مدرسة للشافعية . (٢)

تنفرد هذه المدرسة بتميزها وتفوقها على غيرها من المدارس ، بما تضم من مُدرّسين ، ومعلمين ، ومحدثين ، ومعيدين في الفقه والعلوم الأخرى ، ومن طلبة واظبوا على سماع الحديث بها ، وفقهاء مبرزين ، لازموا سماع الدروس ، ثم تحولوا إلى مدرسين بارزين ، ويعود السبب في ذلك كون أهل دمشق شافعية ، لذلك أعطوها كل هذا الاهتمام .

نبدأ حديثنا الآن بأول مدرس درس فيها وهو ، الفقيه جمال الإسلام ابن المسلم السلمي الدمشقي (ت ٥٣٣هـ / ١١٣٨م) كان قد جمع بين تدريس المدرسة الأمينية والزاوية الغزالية (٣) وولي من بعده ولده محمد بن علي بن المسلم ت٥٣٣هـ/١١٣٨ م) التدريس في المدرستين معاً . (٤) ومن الذين شاركوا بالتدريس فيها ، الخطيب بن عبد ، ثم من بعده أبو البركات عبد الرحمن بن أبي عصرون ، (٥) ودرّس بالمدرسة ، وحدث أيضاً محمد بن عبد الرحمن أبو عبد الله القيسي الأندلسي " كان يجلس بمجلس البطاقة " بعد سنة ٥٠٨هـ/١١١٤ م، توفي سنة ٥٦٥ه/١١٦٩ م . (٦)

ورغم التشدد على عدم الجمع بين أصحاب المذاهب في التدريس بمدارس مخالفة لمذهب على حساب آخر في الغالب ، إلا أن الملفت للنظر ورود دور العلماء الأندلسيين المالكية في مدارس الشافعية وربما في مدارس غيرها أيضاً ، وقد يعود السبب في ذلك إلى المكانة الكبيرة لطاقم من هؤلاء العلماء الأجلاء وما حازوه من

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ٢ ص٧٤
ELISSEEFF : OP,CIT . P.3 P920
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢ ص١٨٧
(٣) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٢٤ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٨٠ -ELISSEEFF : OP,CIT P. 3 P920
(٤)الذهبي : العبر في خبر من غبر ج٤ ص٩٢ ـ الإسنوي : طبقات الشافعية ج٢ ص٤٢٩ ـ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٨١
(٥) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٣١ ـ العلموي : المصدر نفسه ٣٣
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص ٦٠٩

علوم جليلة ، أو لتعويضهم عن عدم توفر مدارس خاصة بالمذهب المالكي وبالمُدَرسِين من أتباع هذا المذهب .

لم تحفل المدرسة الأمينية بالمدرسين فقط ، بل اشتملت على المعيدين ، فأعاد بها عبد الرحمن الملحي عن الفقيه جمال الإسلام السلمي . (١) كما أعاد ودرّس بالمدرسة الفقيه الصائن ابن عساكر هبة الله المتوفى سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧ م . (٢)

وأعاد الفقيه علي بن الحسن الكلابي بن المانح (ت٥٦٢هـ/١١٦٦ م) عن الفقيه السلمي . (٣) كما أعاد وهب بن سليمان الدمشقي المعروف بابن الزيف الفقيه الشافعي درّس الفقيه أبي الحسن السلمي بالمدرسة توفي سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤ م، (٤) وعمل عبد الرحمن الخرقي الدمشقي (ت٥٨٧هـ/١١٨٢ م) معيداً في المدرسة عند الفقيه جمال الإسلام السلمي . (٥)

هذا ما أمكن إحصاؤه من معيدين أعادوا درس الفقيه السلمي في الأمينية حصراً ، ويبدو أن الأمينية تميزت بذلك وتفوقت على غيرها من المدارس . وضمت المدرسة أيضاً الطلبة الذين واظبوا على سماع الحديث الشريف فيها ، منهم ، الحسين النهربيني (ت ٥٣٠هـ / ١١٣٥م) سمع الحديث الشريف في المدرسة الأمينية . (٦)

وضمت المدرسة فقهاء مبرزين ، لازموا سماع الدروس فيها ، فهذا علي بن جوسن بن رميح الشلبي الفقيه (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٥م) لزم السماع وتدريس الفقه في المدرسة الأمينية بعد العالم الفقيه أبي الحسن السلمي . (٧)

وتحولت الأموال التي خصصت للمدرسة من الأوقاف إلى غيرها من المدارس ،

==

(١) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٠٤

(٢) السبكي : طبقات الشافعية ج٧ ص٣٢٤-٣٢٥

- النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص ٤١٧ ALPTEKIN : OP,CIT P. P.180

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص١٠-١١ - النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٠٣

(٤) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٧ ص٩٤٥ - الإسنوي : طبقات الشافعية ج١ ص٥٣١

(٥) السبكي : طبقات الشافعية ج٧ ص١٥٣-١٥٤

- الإسنوي : المصدر نفسه ج١ ص٥٣٤

(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص ١٢٥

- الحصني : كتاب منتخبات التواريخ لدمشق ج٢ ص٤٧٣

(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١١ ص٨٨٨

فأدى ذلك إلى أن تصبح مكتباً لتعليم الصبيان (١) وعملاً بالجهود المبذولة من قبل الواقف على المدرسة ، تم السعي لتأمين ما يلزمها من سكن للطلبة والمدرسين . وقد استدعت الضرورة تأمين قناة لسد حاجة المدرسة من المياه ، وتأمين خزانة كتب تعتبر جزءاً مهماً ومرفقاً أساسياً لكل مدرسة . (٢)

ب – المدرسة المجاهدية :

وهي مدرسة من مدارس الشافعية ، وسبب تسميتها يعود إلى بانيها مجاهد الدين بزان (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠ م) أحد مقدمي الجيش بدمشق . وتعرف بالمدرسة الكردية . (٣) يمكن أن نقسم المدرسة إلى قسمين هما : المدرسة المجاهدية الجوانية ، المدرسة المجاهدية البرانية . وسنتحدث عن المدرستين ، إلا أننا سنجد صعوبة في الفصل بينهما ، وإعطاء صورة واضحة ودقيقة عن العلماء الذين وفدوا إلى كل مدرسة منهما ، ودرسوا فيهما ، خاصة أن المصادر تشير إلى أن مجاهد الدين بزان الباني ، والواقف للمدرسة مشهور عنه مواظبته على الصدقات وإشرافه بنفسه على نظر أوقافها . (٤)

- **المدرسة المجاهدية الجوانية :** أنشئت ٥٢٩ هـ/ ١١٣٤ م

تقع المدرسة داخل دمشق بالقرب من باب الخوّاصين ، داخل أسوار المدينة في الجنوب الغربي للجامع الأموي ، غربي المدرسة الأمينية سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤ م (٥) وقد تم الكشف عن تاريخ تأسيس المدرسة من النقش الوارد على بابها " وقف هذه المدرسة المباركة طلباً لثواب الله تعالى وابتغاء مرضاته ، في أيام مولانا الأمير الأجلّ السيد الاسفهلار الكبير شهاب الدين ··· محمود بن بوري بن أتابك الأمير الأجلّ المخلص مجاهد الدين ثقة السلاطين صارم الدولة شجاع الملك ، سيف الأمراء عز الخواص أبو الفوارس بزان بن مامين بن علي الكردي الجلالي ··· على

==

(١) بدران : منادمة الأطلال ص٨٧ - كردعلي : خطط الشام بيروت ١٩٧٠ -١٩٧١ ج٦ ص ٧٧

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ٢ ص١٥٥

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد٢ ص٧٥

- النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٥١

(٤) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٥٤٧-٥٤٨

- النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٥١-٤٥٥

(٥) ابن شداد :الأعلاق الخطيرة ص٢٣٢ - النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٤٥١

ALPTEKIN : OP,CIT P.178 -

ELISSEEFF : OP,CIT N.3072 P.921 -

جماعة من الفقهاء والمتفقهة على مذهب عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ٠٠٠ وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وخمس مائة ". (١)

أما أول من درّس في المدرسة ، فهو قاضي القضاة منتخب الدين أبو المعالي محمد بن قاضي القضاة أبو الفضل يحيى بن علي بن عبد العزيز القرشي (ت ٥٣٧ هـ/ ١١٤٢ م) (٢) . ودرّس من بعده ولده قاضي القضاة زكي الدين أبو الحسن علي (ت ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م) . (٣) أما ما قيل بأن القطب النيسابوري (ت ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م) أول من درّس بها فليس صحيحاً لأنه قدم إلى دمشق في المرة الأولى سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥ م ، ثم عاد ثانية حيث انتزعها من يد القاضي زكي الدين ، ولما غادر النيسابوري دمشق استعاد القاضي المدرسة وتدريسها . (٤)

وولي التدريس في المدرسة الفقيه أبو الفتح نصر الله المصيصي ، استمر فيها حتى تاريخ وفاته . (٥) ثم درّس بالمدرسة الخطيب بن عبد ، ثم الخضر بن شبل ابن الحسين (ت ٥٦٢هـ/١١٦٦ م) . (٦) وتولى تدريس المدرسة المجاهدية أيضاً ، جمال الأئمة علي بن الحسن أبو القاسم بن أبي الفضائل الكلابي المانح (الماسح) كانت وفاته سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦ م. (٧) ثم درس عبد الرحيم بن رستم الزنجاني (ت٥٦٣ هـ/١١٦٧ م)(٨) وصل إلى دمشق من بعلبك سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٤ م (٩) .

كان للمدرسة أوقاف تقوم على مصالحها منها ، الديروسة وطاحونة اللوان بأواخر المزة ، والمدرسة اليوم في سوق الحرير ، تعرف بجامع الحجازية . (١٠)

==

(١) SAUVAGET : OP,CIT N. 3072 P.164

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ج٤ ص١٧٠ ALPTEKIN : OP,CIT P.178
- ELISSEEFF : OP,CIT P.3 P.921

(٣) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ٤٥٣

(٤) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٣٢- ابن العجمي : مخطوط الطبقات الصغرى للشافعية رقم١٣٥٥٤ ص٢٨٥ ظ - ابن الشحنة : نزهة النواظر في روض المناظر فيلم ١ مديرية الوثائق التاريخية بدمشق ص١٣٩ و

(٥) النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٤٥٣
- ELISSEEFF : OP,CIT P.3 P.922

(٦) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٦٨-١٦٩
- النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٤٥٥

(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص١٠-١١

(٨) النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٢٠٣ - الذهبي : معرفة القراء ج٢ ص٥٢٤

(٩) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٦٩-١٧٠
- النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٤١٨

(١٠) النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٤٥٣ - د٠ بشير زهدي : دمشق وأهميتها العمرانية والمعمارية عبر العصور التاريخية ، محاضرة ، الاثنين ١٩٨٢/٥/١٧ م سلسلة محاضرات جمعية أصدقاء سورية .

ـ المدرسة المجاهدية البرانية : أنشئت ٥٣٨هـ/١١٤٣ م

تقع المدرسة بين بابي الفراديس جنوب الجامع الأموي بجانب دار الشريف القاضي ابن أبي الجن . (١) وقفها الأمير مجاهد الدين بزان خارج سور المدينة على ضفاف بردى وبها دفن . (٢) ونقل عن واقفها أنه فرغ من بنائها مع المسجد سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤ م. وتمثل المدرسة اليوم جامع السادات ، وقد تم إعمار باب المسجد سنة ٥٣٨هـ ، بأمر من بزان . وشوهد على باب المسجد لوحة كتب عليها العبارة التالية : " بسملة، أمر بعمارة هذا الباب والسور المبارك الأمير الأجلّ الاسفهسلار الكبير مجاهد الدين ٠٠٠ أبو الفوراس بزان بن مامين ٠٠٠ طالباً لثواب الله وابتغاء لمرضاته ٠٠٠ وذلك ثمان وثلثين وخمس مائة " . (٣)

ولا تحدد المصادر عدد المدرسين في هذه المدرسة ، فقد ورد ذكر اسم شمس الدين عبد الكافي ، (٤) وربما كان أول مدرّسيها . ودرّس في المدرسة أيضاً الخضر ابن الحسين بن شبة بن أبي عبد الله الأزدي الصقّار . (٥) وحدّث في المدرسة محمد ابن علي بن عبد المنعم أبو بكر المراغي الشافعي مدة . (٦)

وآثار هذه المدرسة موجودة اليوم بجامع السادات ، وقد تعرضت كغيرها من المدارس للإختلاس ، (٧) وبني مع المدرسة مسجد يعرف بمسجد السادات كتب على حائطها النقش التالي : " أمر بعمارة هذا المشهد المبارك في أيام الملك السلطان العادل المجاهد الغازي المرابط ، ناصر الملة والدين ، قامع المشركين مبيد الملحدين أمير المؤمنين عماد الدين زنكي بن اقنسقر الجمالي ، خلّد الله ملكه الأميري الكبيري المقدّمي السيفي رستم بن علي بن محمد بن مروان الكردي الجلالي ناصر أمير

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ٢ ص٧٥
ـ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٥٥
- GILBERT : OP,CIT P.213

(٢) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٥٤٨ ـ ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٣٣٣
ـ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٥٥
- ELISSEEFF : OP,CIT P.3 P.213

(٣) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٤٠ - ALPTEKIN : OP,CIT 178
- SAUVAGET : OP,CIT N. 3117 P.8 P.233

(٤) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٣٣٣ ـ النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٤٥٥
- ALPTEKIN : OP,CIT 178

(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص٦٥٣

(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٧٥٤

(٧) بدران : منادمة الأطلال ص١٤٨ ـ العلبي : خطط دمشق ص١٦٠
ELISSEEFF : OP,CIT P.3 P.923 - ALPTEKIN : OP,CIT 178

المؤمنين وذلك سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة " ، (١) ولا يستبعد هذا التاريخ المذكور لأن تحركات عماد الدين كانت مكثفة على دمشق لضمها و استخلاصها من الحكم البوري .

ج – المدرسة الجاروخية : أنشئت ٥٣٨ هـ/ ١١٤٣ م

أقيمت المدرسة لأصحاب المذهب الشافعي . تقع في دمشق داخل باب الفرج والفراديس ، شمالي الجامع الأموي ، والمدرسة الظاهرية ، يعود بناؤها إلى الأمير جاروخ التركماني الملقب سيف الدين . (٢) وقد أسست عام ٥٣٨ هـ/ ١١٤٣ م ، ونسب البرفسور ألبتكين ALPTEKIN خطأ تاريخ بنائها إلى عام ٥٤٦ هـ/ ١١٥١ م ونسبها غيره إلى عام ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م ، وأعاد بدران تاريخ البناء إلى حدود التسعين وخمسمائة (٣) ، والحقيقة أن المدرسة بنيت في عام ٥٣٨ هـ/ ١١٤٣م لأن الفقيه نصر الله المصيصي درّس بها ، وتوفي سنة ٥٤٢ هـ/ ١١٤٧ م .

وقد تم بناء المدرسة لأحد المتفقهة في المدرسة النظامية ، وهو العالم الفقيه الشافعي ، المجير الواسطي ، محمود بن المبارك البغدادي (٥٩٢هـ/ ١١٩٥م)(٤) ولا شك أن شهرة بعض العلماء ، كانت تدفع فريقاً من الأثرياء من محبي العلم ، إلى بناء مدرسة معينة لعالم يطرح فيها البحث والدرس . وقد توجه المجير الواسطي إلى المدرسة التي بنيت له، ونشر فيها علومه ومعارفه من علم الطب ، إلى جانب مالديه من علم الفقه الشافعي مذهب المدرسة . (٥)

ودرّس في المدرسة أيضاً العالم الفقيه نصر الله المصيصي الأشعري إلى جانب تدريسه بالزاوية الغزالية. (٦) ودرّس في المدرسة من بعده ، الفقيه قطب الدين

==

(١) SAUVAGET : OP,CIT N.3039 P.8 P.213-214

(٢) ابن شداد : الأعلاق ص٢٢٩ ـ النعيمي : الدارس ج١ ص٢٢٥
- ELISSEEFF : OP,CIT P. 3 . P923

(٣) بدران : منادمة ص٩٣ - ALPTEKIN: OP,CIT P. 178
- ELISSEEFF : OP,CIT . P3 . P. 923

(٤)السبكي : طبقات : ج٧ ص٢٨٧ ـ الذهبي : العبر ج٤ ص٢٨٠
ـ النعيمي : الدارس ج١ ص٢٢٦ ـ اليافعي : مرآة الجنان ج٣ ص٤٧٣
- ELISSEEFF : OP,CIT : P . 3. P . 923

(٥) النعيمي : الدارس ج١ ص٢٢٥

(٦) النعيمي : الدارس ج١ ص٢٢٧ ـ ابن قاضي شهبة : طبقات ج١ ص٢٥٣ ـ
ELISSEEFF : OP,CIT . P. 3 P 923

مسعود النيسابوري الطريثيثي، ثم من بعده الشيخ فخر الدين أبو القاسم علي ابن عساكر . (١)

وموقع المدرسة اليوم داخل باب الفراديس في زقاق السبع طوابق ، أو حارة الحمّام . ويمكننا القول إن حظّ هذه المدرسة أفضل من غيرها التي اندثرت وانمحت معالمها ، وتحولت إلى أماكن للسكن ، فهي لم تتعرض للهدم ؛بل المرجح أن آثارها موجودة ضمن البيوت القائمة في تلك المنطقة . (٢)
وأقيم في دمشق أيضاً مدارس لأصحاب المذهب الحنبلي وهي :

٣- المدارس الحنبلية :

أ – المدرسة الشريفية الحنبلية : أنشئت ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م
أقيمت المدرسة عند قناة جيرون داخل باب الفراديس . (٣) أشرف على بنائها الفقيه شرف الإسلام عبد الوهاب الحنبلي ، قبل سنة ٥٣٦ هـ/ ١١٤١ م ، شيخ الحنابلة بالشام ، وأبرز مدرّسيها ، (٤) درّس الفقه ، برع وناظر في المذهب الحنبلي ، درس على يديه كثير من الطلبة ، (٥) ثم خلفه ولده بهاء الدين الشيرازي .

واستمر حتى عام ٥٤٥ هـ/ ١١٥٠ م . (٦) ودرس في المدينة أيضاً زين الدين ابن نجا ، (٧) والمدرسة لا يعرف مكانها وإن ورد أنها عند القباقبية العتيقة المعروفة

(١) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٣٨
(٢) العلبي : خطط دمشق ص١١٣-١١٤ ـ الحصني : المرجع السابق ج٣ ص٩٤٤
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ٢ ص٧٢
ـ ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٥٥
- ALPTEKIN : OP,CIT P. 178 .
- ELISSEEFF: OPCIT . P .3 P 922 .
(٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ص٤٨٣ ـ النعيمي : المصدر السابق ج٢ ص٦٥ - ELISSEEFF : OP,CIT . P3 . P922
. GILBERT: OP,CITP 101
(٥) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٦٤
(٦) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٦٥ ـ العلموي : المصدر السابق ص١٢٤ - ELISSEEFF : OP,CIT P.3 P.922
(٧) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٦٤
ـ العلموي : المصدر نفسه ص١٢٤

اليوم بالعمارة الجوانية بالقرب من الجامع الأموي ، شرقي حمام السلسلة ، ولا تزال آثارها هناك في حارة ضيقة ومغلقة مقابل " قربة الغزى تماماً " . (١)

تعرضت هذه المدرسة لاعتراض الشافعية والحنفية ، باعتبار أن بناءها يثير الاضطرابات خاصة أنها المدرسة الأولى للحنابلة ، ولقيت هذه الدعوة أذناً صاغية من السلطة البورية ، فتوجهت خاتون إلى عبد الوهاب الحنبلي محذّرة إياه من بناء المدرسة ، لما تجرّه من المفسدة والضرر والفتنة ، فأجابها بالسمع والطاعة .

ولما انصرف جندها أمر صنّاعه ليلاً أن يشرعوا في تأسيس حائط القبلة ونصب المحراب ، متجاوزاً الأوامر والتعليمات ، وأطلق بنيانه ورفع المحراب ، وأعلن أنه أقام بيتاً من بيوت الله ، وأنه نصب محراباً للمسلمين ، وأبلغ زمرد إن أرادت أن تهدمه فلتعمل على ذلك ، فتراجعت الخاتون وقالت : ما لي وللفقهاء ، وهكذا استقر حال المدرسة ودّعم بنيانها . (٢)

ب – المدرسة المسمارية : أنشئت ٥٤٦ هـ/ ١١٥١ م

أقيمت بالقرب من مئذنة فيروز قبلي القيمرية الكبرى داخل دمشق ، (٣) وهي المدرسة الثانية لأصحاب الفقه الحنبلي . وقف المدرسة الشيخ مسمار الهلالي الحوراني التاجر (ت ٥٤٦ هـ/ ١١٥١ م) ، (٤) كان يحفظ القرآن الكريم بعدة روايات يخلطها ويردد الحرف المختلف ، فأنكر عليه فريق من العلماء ذلك لأن هذا يذهب نظم القرآن الكريم . (٥)

==

(١) العلموي : المصدر نفسه ص١٢٤ - العلبي : خطط دمشق ص٢٣٥ - ELISSEEFF ; OP,CIT P.3 P.922

(٢) ابن رجب الحنبلي : كتاب الذيل على طبقات الحنابلة تحقيق هنري لاوست – سامي الدهان دمشق ١٣٧٠ هـ/ ١٩٥١ م ج١ ص٢٣٨

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ٢ ص٧٣
- النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١١٤
- العلبي : خطط دمشق ص٦٠٢

(٤) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٥٦ - النعيمي : المصدر نفسه ج٢ ص١١٤
- ALPTEKIN : OP,CIT P.178
- ELISSEEFF : OP,CIT P.3 P.924

(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٤ ص٢٥٣-٢٥٤
- النعيمي : المصدر نفسه ج٢ ص١١٤

ولكن المصادر لم تشر أبداً عن عدد مدرسي هذه المدرسة ، كما فعلت بالنسبة لغيرها ، وإن كان ابن شداد قد ذكر أن وجيه الدين ابن المنجا ، يعتبر من أبرز مدرّسيها ، وأشارت رواية أخرى إلى أن الشيخ مسمار بنى المدرسة لوجيه الدين المذكور ، (١) ثم جاء من بعده ولده صدر الدين ابن منجا . (٢)

أما المدارس التي وجدت خارج دمشق فأبرزها :

- **مدرسة بصرى :** أنشئت ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م

تدخل المدرسة ضمن جامع مبرك الناقة ، فهي عبارة عن مسجد ومدرسة معاً ، أوقف المدرسة وأمر بعمارتها أمين الدولة كمشتكين الحنفي ، وقفاً على الفقهاء والمتفقهة الذين يلازمون دروس العلم وتلاوة كتاب الله تعالى على مذهب الإمام أبي حنيفة ، (٣) وقد أشار ابن كثير في كتابه البداية والنهاية ، إن كمشتكين أوقف مدرستين تعرفان بالأمينية الأولى في دمشق والثانية في بصرى . (٤)

درس في مدرسة بصرى الأمينية سلطان بن عبد العزيز القرشي أبو المكارم (٥) وكذلك درّس إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الموصلي الدهستاني الفقيه الحنفي (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٥ م) استنابه في التدريس بها الفقيه البلخي . (٦) وهذا يعني أن العالم البلخي درّس فترة في مدرسة بصرى ، وبقيت المدرسة الأثر الوحيد المحتفظ بشكله إلى وقتنا الحاضر . (٧) تضم المدرسة باحة مسقوفة وأواوين وحرم مسقوف ، وغرف تتكون من طابقين ، وقد زُوّد البناء بمئذنة مربعة الشكل . (٨)

كما أوقف الأمير شمس الدين سنقر مدرسة على الفقراء الحنفية في بصرى ، من دون تحديد تاريخها ، لكن مما ورد أنه تم تجديد التربة المباركة من قبل الشيخ

---

(١) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٥٦ - العلموي : المصدر نفسه ص١٣٢

(٢) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٥٦ ELISSEEFF: OP,CIT P.3 P.924

- الريحاوي : العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية ص١٠٥

(٣) – SAUVAGET : OP,CIT N.3077 P.8 P.199

- ALPTEKIN : OP,CIT P. 179

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢ ص١٦٩

(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٢ ص٣٨٨

(٦) بدران : المرجع السابق ج٢ ص١٦٣-١٦٧

(٧) المقداد : بصرى دليل أثري وتاريخي ، دمشق ١٩٨٥م ص ١٨

(٨) الريحاوي : المرجع السابق ص١٠٥

أبو الشيخ أيوب ، في سنة ثلاثة وخمسمائة . (١)

وكان في بعلبك مدرسة تعود إلى أيام وجود المدرسة الأمينية في دمشق وبصرى وربما إلى أقدم من ذلك بقليل . (٢) وتتابعت المدارس في حماه وحمص ، مع عدم المقدرة على تحديد مدرسة معينة في فترة البحث ، لشح المصادر المطلوبة حول المادة . ولا ندري إن كان المسجد قد أخذ دور المدرسة آنذاك ، وإن كنا نسمع أثناء الترجمة لبعض العلماء بأن فلاناً قد درّس فقه الشافعية بحماه أو حمص ، من دون الإشارة إلى الموقع أو المكان وتحديده ، فهذا الفقيه أحمد بن علي الموصلي ، كان من مدرسي الشافعية المتميزين بحماه ، توفي سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م . (٣)

وهذا المهذب ابن اسعد الموصلي الفقيه ، أبو الفرج عبد الله بن أسعد بن الدهان الموصلي ، وصل إلى حمص ودرّس في المدرسة هناك ، توفي سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م . ولا ندري إن كانت المدرسة معروفة في فترة الحكم البوري ، أو أقيمت مع وصول نور الدين محمود إلى دمشق . (٤)

وهكذا نلاحظ أن المدارس تركت أثراً كبيراً على الحياة العلمية في البلاد ، وحازت عناية الولاة ، ورعاية الأسرة الحاكمة ، وكذلك المفكرين ، وقدّمت ثمراً يانعاً ومواهب متفجرة ، ترافق ذلك مع دور حلقات التدريس المعقودة في المساجد ، فخرّج هذا الجهد المكنون الأطباء ، والأدباء ، والفلاسفة ، والعلماء في كل مجال علمي ، مما أثرى الحضارة الإسلامية العربية ، ودعّم بنيانها في البحث والمناظرة والإبداع .

==

(١) SAUVAGET : OP,CIT . N . 2932 . P . 8 . P . 80

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢ ص١٦٩

(٣) الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ج٢ ص٢٤٨

(٤) الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ج١ص٢٧٩-٢٨٠

الباب الثالث : العلماء و المعيدون والطلبة

الفصل الأول : دور العلماء في إثراء الحياة العلمية

الفصل الثاني : المعيدون والطلبة ونشاطهم التعليمي

الفصل الثالث : التصوف ونشاطه التعليمي

الفصل الأول

دور العلماء في إثراء الحياة العلمية

دَور العلماء في إثراء الحياة العلمية :

إن ما يسترعي الانتباه في فترة الحكم البوري وجود ما يزيد على عشرة مدارس في فترة لا تتجاوز الخمسين عاماً، لقيت كل اهتمام ورعاية ، واحتضنت عدداً كبيراً من العلماء الذين وفدوا إليها ، وتم توزيع المدرسين في عدة مدارس تتناسب وفق مذهب العالم الذي يعتنقه .

كان الشرط اللازم لهؤلاء العلماء المدرسين الإلمام والمعرفة بالعلوم الدينية ، حتى يتسنى لهم تولي المنصب التدريسي المناسب ، والتصدي لجملة العلوم الأخرى؛ من تفسير وحديث شريف وفقه ، ونحو وتصريف ، وطب وهندسة ، وإعراب القرآن الكريم ، والفرائض أو المواريث ، والفلسفة والجبر ، مع إجادة القراءات القرآنية الشاذة ، والتصانيف المعمقة بكل علم من هذه العلوم . (١)

ساعد على دعم هذه الثقافة الواسعة ، اشتغال بعض العلماء بمهن متعددة ، تدرّ عليهم الأموال التي يصرفون جلّها في تحصين أنفسهم علمياً ، وقد يُعين بعضهم أنفسهم وعلمهم من دخل عائلاتهم . (٢)

ويمكن أن نُجمل العلماء المدرسين ، ونذكر منهم ، العالم البلخي الحنفي ، الذي درّس في أكثر من أربعة مدارس منها : المدرسة الصادرية ، والمدرسة الطرخانية ، والمدرسة الخاتونية ، والمدرسة البلخية (الأكزية) . (٣) وهذا الكاساني أو الكاشاني (٤)علي بن مكي أبو الحسن الفقيه الحنفي تفقه في بلاد ما وراء النهر ، وقدم دمشق وسكنها ، ودرّس في المدرسة الصادرية ،كان يفتي على مذهب الإمام أبي حنيفة ويشهد ويناظر في مسائل الخلاف ، وقد ذكر ابن عساكر وقال : "وما أظنه سمع الحديث " . (٥)

ودرّس الفقيه العالم أبو المظفر ابن أسعد بن الحكيم العراقي الحنفي (ت ٥٦٧هـ / ١١٧١م) بالمدرسة الطرخانية ، والمدرسة الصادرية ، والمدرسة المعينية ، وقيل إنه

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية ج٥ ص٤٦
- المراكشي : الذيل والتكملة ص٥٤٨ ترجمة رقم ١٠٨٨ - المقري : نفح الطيب ج٢ ص٤٢٠ - ابن شطي : مختصر طبقات الحنابلة ص٥١
- GILBERT : OP,CIT P . 2 .

(٢) GILBERT : OP,CIT . P7 .

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص٢٠
- القرشي : الجواهر المضية ج١ ص٣٥٩

(٤) ترجم له ابن عساكر ترجمة مقتضبة أشرنا إليها في هذه الفقرة ولم يذكر له تاريخ وفاة .

(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري دار الفكر بيروت ١٩٩٥م ج٤٢ ص٢٥٢

درّس بالطرخانية والصادرية ، ثم بنيت له المدرسة المعينية . (١) وعلى هذا فقد درّس الفقيه العراقي في المَوضعين معاً . وهذا عبد الكريم بن محمد ، أبو الفضائل الأنصاري ، استنابه ابن عصرون للتدريس في الزاوية الغزالية ، ثم ضم إليه المدرسة المعينية ، فكان يدرّس في الموضعين معاً . (٢)

ودرّس العالم عبد الخالق أسد بن ثابت (ت ٥٦٤هـ / ١١٦٨م) بالمدرستين المعينية والصادرية .(٣) وكان الفقيه جمال الإسلام ابن المسلم علي السلمي ، قد درّس بالمدرسة الأمينية والزاوية الغزالية . (٤)

وقد وفد العلماء إلى مركز الدولة البورية من بلاد المغرب والعراق ، لرفد هذه المدارس بالخبرات ، وتنويع نشاط الحركة العلمية . وقد سُمح لبعض العلماء أن ينيبوا من يقوم بالتدريس بدلاً عنهم في المدارس ، إما بسبب سفرهم أو انتقالهم لمدرسة أخرى أو انشغالهم بحركة التأليف .

وقد أناب الإمام الغزالي أخاه في التدريس عنه ببغداد ، حين دخل دمشق . (٥) واستناب الفقيه البلخي العالم إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الموصلي الدهستاني الحنفي (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٥ م) للتدريس بدلاً عنه في مدرسة بصرى . (٦) وهذا عبد الكريم ابن محمد أبو الفضائل الأنصاري الحرستاني الفقيه الشافعي (ت ٥٦١ هـ/ ١١٦٦ م) ، استنابه الفقيه سعد ين عصرون للتدريس في الزاوية الغزالية . (٧)

واعتمد أسلوب الندب في التدريس ، في المدارس وخضع لها كثير من العلماء المشهود لهم بالعلم والمعرفة ، فقد ندب الإمام الغزالي للتدريس في النظامية في بغداد

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٧١
- الذهبي : العبرفي خبر من غبر ج٤ ص١٩٩
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٤٣٣
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٤٠ ص٥٥-٥٦
- الذهبي : سيرأعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٩٧
- ALPTEKIN : OP,CIT P 180 .
(٤) الذهبي : العبرفي خبر من غبر ج٤ ص٩٢
- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٤ ص١٠٢
(٥) كبره زاده (أحمد): مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ط١ دار
الكتب العلمية بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ج٢ ص٣٠٣
(٦) بدران : المصدر نفسه ج٢ ص١٦٣-١٦٤
(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٤٣٣
- سبط ابن الجوزي :المصدر نفسه ج٨ ص١٦٦

سنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م ، (١) وندب الفقيه علي البلخي من دمشق إلى حلب ليفقه أهل المدينة . (٢) وكذلك ندب الفقيه أبو الحسن الأندلسي المرادي (علي بن سليمان ت ٥٤٤هـ/ ١١٤٩ م) (٣) ولم تصح الوصاية في التدريس كأن يعلم فقيه أحد طلبته بقوله : أنت مدرّس في المدرسة من بعدي ، شريطة أن يكون الطالب مستحقاً لذلك المكان .

ومع هذا لم تنجح وصاية الفقيه نصر المقدسي في أن يعمل أحد تلامذته وهو أبو الحجاج يوسف بن مكي بن علي الحارثي الدمشقي ، مدرساً بعد أستاذه ، بل تولى المدرسة الفقيه نصر الله المصيصي ، (٤) وقام اختلاف نزيه في وجهات النظر من أجل التدريس في المدارس ، يدفعه تلفيق التهم لفريق من العلماء لصرف الأنظار عنهم في مدرسة ما . (٥) وكان من نتائج التنافس الشريف أن حمل في طياته الغيرة خاصة حين يتسلم عالم بارز في مكان ما، مدرسة، أو مهمة علمية، متقدماً في منصب التدريس أو غيره على من سواه .

فقد حصل عبد الرحمن بن أبي الربيع الأندلسي الغزناطي (ت٥٦٥هـ/١١٦٩ م) على مكانة كبيرة ، عندما قدم إلى دمشق ونزل في المدرسة الأمينية . (٦) تميز بالعلم والفقه ، كان ينثر ويطرح كل ما لديه من ملكات علمية تسهم في بلورة الفائدة لدى الطلبة وتنقية أذهانهم ، ورفدهم بسلسلة ما يحتاج إليه الطالب من صفوة المعارف والعلوم . وقدم إلى دمشق أيضاً ، البرهان البلخي ، ونزل في المدرسة الصادرية سنة ٥١٩هـ/١١٢٤ م منافساً مدرسها أبا علي بن مكي الكاساني فوقعت الغيرة منه . (٧)

==========

(١) الإسنوي : طبقات الشافعيةج٢ ص٢٤٢-٢٤٤ - سعيد نفيس : مقال المدرسة النظامية في بغداد المجمع العلمي العراقي ج١ مجلد ٣ ١٣٧٣ هـ/ ١٩٥٤ م ص١٥٠-١٥١

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص٢٠

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص١٠٥
- السبكي : طبقات الشافعية ج٧ ص٢٢٤-٢٢٥

(٤) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٢٧-٤١٥-٤٥٤
- الإسنوي : طبقات الشافعيةج١ ص٥٣٢- ٥٣٣ ، ج٢ ص٤٣١-٤٣٢ -
- الذهبي : العبر في خبر من غبر ج٤ ص١١٦

(٥) د. بيطار : مقال التعليم ص٢٣٩

(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٦٠٩

(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص٢٠
- سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٣٤

ولا شك أن شروط الواقف كانت تدفع بالعالم للانتقال من مدرسة إلى أخرى بحثاً عن شروط تدريس أفضل في مدرسة أخرى . (١) وكان المجير الواسطي قد وصل إلى دمشق ودرس بالمدرسة الجاروخية التي بنيت له ، ثم عاد إلى بغداد وتولى تدريس المدرسة النظامية . (٢) وقد يتنازل المدرس عن مدرسته ليتحول إلى أخرى أو يتنازل عن ثلث التدريس أو نصفه مجاناً إلى مدرس آخر ، وقد يأخذ عليه تعويضاً . (٣) وقد يتنازل المدرّس عن مدرسته للتحول إلى مدرسة أخرى ، فقد تنازل الفقيه علي الكاساني عن المدرسة الصادرية للفقيه الشيخ البلخي . (٤)

ويمكن أن نأخذ بعين الاعتبار دافع الزهد الذي يجعل من العالم يعتذر عن منصب ما ، فقد رفض الإمام الغزالي المناظرة في نظامية بغداد تقشفاً وانصرافاً عن الدنيا إلى الآخرة ، لا بحثاً عن مرتب أفضل في مدرسة أخرى . والمدرسة النظامية كانت من أفضل المدارس أساتذة وأجوراً ، ومع هذا رفض الإمام الغزالي التدريس فيها وبقي في موطنه طوس يدرّس من يرغب تحصيل العلم والانشغال بالقليل أو النذر اليسير مع الاقتصاد والقناعة . (٥)

ولا بدّ للمدرس الراغب في الحصول على عمل في مدرسة ما ، أن يحوز تزكية أحد العلماء لفترة زمنية محددة . أما مرتب المدرس في المدرسة ، فكان يساوي عشرة دنانير في الشهر ، (٦) فلم يمنع هذا وصول القطب النيسابوري إلى المدرسة المجاهدية ، والحصول على تدريس المدرسة من يد القاضي زكي الدين القرشي ، ولما سافر القطب استعاد القاضي الزكي مدرسته . وكذلك فعل جمال الأئمة أبو القاسم ابن المانح ، حين حصل على المدرسة نفسها من الخطيب ابن عبد . (٧)

==

(١) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٤ ص ١٤٨
- د٠ بيطار : مقال التعليم ص٢٥٠
(٢) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٢٦
(٣) د٠ بيطار : مقال التعليم ص٢٣٩
(٤) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٠٠
(٥) طبقات الشافعية : مؤلف مجهول ، مكتبة الأسد مخطوط رقم ميكروفيلم ٤٠٦٧ ص٥٥ ظ - سعيد نقيس : مقال ، المدرسة النظامية ص١٥٢
(٦) الوهراني : المصدر نفسه ص٥٥
(٧) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٥٤

ويمكن للفقيه أن ينتقل من مدرسة إلى أخرى ضمن شروط معينة ، وكذلك الحال مع الفقيه علي بن جوسن بن رميح الثعلبي (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٥م) وصل إلى دمشق ودرّس في المدرسة الأمينية ، ثم انتقل منها إلى المدرسة النورية . (١)

وبالإمكان أن ينتقل عمل التدريس في المدرسة إلى عالم آخر ، بعد وفاة ذلك العالم الذي تمكّن بمقدرته العلمية ، الاستحواذ على المدرسة لفترة زمنية طويلة . فهذا الفقيه علي بن الحسن أبو القاسم بن أبي الفضائل الكلابي الفرضي الشافعي (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٦ م) النحوي العارف بالتفسير ، تولى التدريس في المدرسة المجاهدية فترة من الزمن . (٢) ودرّس الشيخ رشيد الدين الغزنوي بالمدرسة المعينية حتى وفاته (٣) .

وإذا تابعنا جملة العلماء الذين استمروا في التدريس على مدارسهم ، فنرى الفقيه عبد الوهاب الحنبلي وولده محمد بن علي بن مسلم ، قد استمرا بالمدرسة الشريفية الحنبلية حتى وفاتهما . (٤)

وهكذا نلاحظ بروز امتيازات خاصة أعطيت لابن العالم في التدريس في مدرسة والده ولا مانع إذا حصَل ولد الفقيه العلم في الزمن القليل ، أن ينزل على مدرسة يدرّس بها والده ، ويدرّس بها عوضاً عنه . (٥) وهناك حالة من حالات أنظمة المدارس تستدعي إعطاء الحرية للفقيه أن ينتقل من مدرسة إلى أخرى ضمن شروط محددة.

فهذا الخضر بن شبل المعروف بابن عبد ، قد درّس بالمدرسة المجاهدية مدة ثم ترك التدريس بها وتولى تدريس الزاوية الغزالية . (٦)

وقد يتعرض المدرسون للعزل من التدريس في المدارس ، إذا أساؤوا تطبيق الطرائق المنهجية المعتمدة في التدريس . فقد عزل الفقيه رضي الدين السرخسي (ت ٥٤٢ هـ/ ١١٤٣ م) صاحب كتاب المحيط ، بشكوى من قبل بعض الفقهاء ، عن

---

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١١ ص٨٨٨
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص١٠-١١
- الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢ ص٤٦٨
(٣) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢١٠
(٤) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٢٤
- النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٨١
(٥) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج١١ ص٢٢٨
(٦) بدران : المرجع السابق ج٥ ص١٦٥

سوء مقدرته التدريسية ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل أنكر عليه أيضاً أن يكون هو مؤلف كتاب المحيط . ولا يحق لنا أن نحكم على الأمر ، فربما يكون للغيرة مكان في هذا الأمر . فانتقل الفقيه إلى التدريس في المدرسة الخاتونية بدمشق . (١) وعزل عن التدريس عبد الرحمن بن الحسين بن محمد أبو محمد الطبري البغدادي ، حين قدم إلى دمشق سنة ٥٢١هـ/١١٢٧ م ، لأنه لم يكن مرغوباً به .

وأبرز الأسر العلمية الهامة في دمشق ، بنو القرشي أخوال الحافظ ابن عساكر بسطت هذه الأسرة نفوذها وسيطرتها على منصب القضاء ، واستمر نفوذها قوياً في التدريس ، وفي الاتصال بعلماء المدينة ومن يصل إليها ، وحتى الاتصال بعلماء المناطق المجاورة عن طريق الرحلة .

كان من أفراد هذه الأسرة القاضي سلطان بن يحيى بن علي بن عبد العزيز زين القضاة (ت٥٣٠هـ/١١٣٥ م) . والقاضي يحيى بن عبد العزيز القاضي الزكي أبو الفضل الدمشقي (ت٥٣٤هـ/١١٣٩ م) ، والقاضي زكي الدين أبو الحسن بن القاضي المنتخب أبو المعالي محمد بن يحيى القرشي (ت٥٦٤هـ/١١٦٨ م) . (٢)

برع المسلمون العرب في دراسة مختلف العلوم ، ساعدهم على ذلك عناء الرحلة في طلب العلم الشامل أيام الشباب والدراسة ، ولم يكن مستغرباً أن يستمر بعضهم في الرحلة لطلب العلم حتى الموت ، على أن يكون التعليم خالصاً لوجه الله تعالى لا فرق بين عالم وعالمة . (٣)

فقد ينشأ أحدهم في قطر ويتلقى علومه في قطر آخر ، لا يعرف الاستقرار سالكاً طريق التدريس والإفادة من مدرسة إلى أخرى ، فندر من استقر من العلماء في بلده . وأعطي العالم فرصة حرية التعامل مع المادة المدرّسة إلى درجة التحقيق والتركيز في المنهج إن أحب . وبما أن المدارس اعتمدت التركيز على فقه المذاهب الإسلامية المعروفة ، فإن كل مدرسة ارتبطت بشروط الواقف على المذهب الذي يحدده لها ، ويمكن أن نلاحظ انتشار مدارس تدرّس علوم القرآن الكريم أو الحديث حصراً ، ومثال ذلك مدرسة دار القرآن الرشائية .

==

(١) الحنائي : مخطوط طبقات ص٥٧ وجه ظهر

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٧ ص٣٨٨

- أبو شامة : تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين ج١ ص١٧

(٣) ابن بشكوال : كتاب الصلة مطابع سجل العرب الناصرية قسم الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م ج٢ ص٥٧٢

وإذا حدد الواقف تنويعاً في العلوم مع التركيز على نوع محدد فيجب على القائمين بشؤون المدرسة تطبيق ما أقره الواقف ، (١) وكان المدرس العالم الذي يعهد إليه العمل في مدرسة ما، بشكل رسمي يحصل على توقيع من المدرسة قاعدته ما يلي : " أن يستقر في تدريس المدرسة الفلانية على عادة من تقدمه " . (٢)

حصل علماء الدولة البورية على ألقاب جليلة منها ، لقب الشيخ الإمام ، العلامة مفتي الشام . وقد جمع بين هذه الألقاب الفقيه جمال الإسلام علي بن المسلم السلمي (ت٥٣٣هـ/١١٣٨ م) (٣) أما ألقاب الفقيه نصر المقدسي المتوفى ٤٩٠هـ/١٠٩٦ م فهي : الشيخ الإمام العلامة القدوة المحدث مفيد الشام ، وشيخ الإسلام . (٤) وحاز القاضي الزكي يحيى بن علي القرشي أبو الفضل ، على لقب الشيخ الإمام الفقيه الكبير . (٥)

وحمل شرف الإسلام عبد الوهاب بن الحنبلي لقب شرف الإسلام الشيخ الإمام العلامة الواعظ شيخ الحنابلة .(٦) أما الفقيه نصر الله المصيصي ، فقد حاز على ألقاب الشيخ الإمام المفتي الأصولي شيخ دمشق . (٧) وهذا العالم الزبيدي حمل من الألقاب لقب الإمام القدوة العابد الواعظ . (٨) وحمل ابن الحبوبي لقب الشيخ الإمام العلامة القدوة شيخ الإسلام . (٩)

وتلقب الإمام أبو الحسن ابن قبيس الغساني (ت٥٣٠هـ/١١٣٥ م) بالفقيه النحوي الزاهد العابد القدوة ، (١٠) ومن ألقاب السمعاني أبو سعد عبد الكريم ، الإمام

==

(١) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ص٥٦-٥٧-٨٤-٨٥
(٢) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج١١ ص١٢٤
(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٣١-٣٢
(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ ص١٣٦
(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٦٣
(٦) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص١٠٣- النعيمي : المصدر نفسه ج٢ ص٦٤
(٧) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص١١٨
(٨) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٣١٦
(٩) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٣٥٧
(١٠) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص١٨

الحافظ الكبير الأوحد ، محدث خراسان ، وإمام المحدثين في وقته ، انتهت إليه الرئاسة في الحفظ والإتقان . (١) عُرف الإمام الغزالي بلقب الإمام البحر الشيخ حجة الإسلام ، أعجوبة الزمان ، إمام الأئمة . (٢)

ارتدى المدرسون العلماء زياً خاصاً بهم ، فكانت عمامة العالم أكبر من غيرها ، إضافة إلى الجبة والطيلسان ، (٣) والغاية من حصر العلماء بهذا الزي ، تمييز العالم عن الجاهل . هذا بالإضافة إلى أن ارتداء العلماء لملابسهم الرسمية يجعلهم يحافظون على الحشمة والوقار . كان لباس السواد مع العمة ، مما يلتزم به المدرس في المدرسة ، ولبس العلماء أيضاً الجبايب ذات الأكمام والجبايب العريضة . (٤)

ساعدت العلاقات الثقافية التي توطدت في العالم الإسلامي إلى تحرك العلماء من مكان إلى آخر دون قيود . لقد حضّ الإسلام على طلب العلم ، لذلك لم يقنع كثير من العلماء بعلمه ، أو بعلم محدد ، بل سعى للإستزادة والطلب ، فالطريق مفتوحة أمامه ، واللغة واحدة ، ومجال التعليم متيسر ، وكان بعض العلماء يشدّ الرحال إلى بلد ناءٍ ليصحح خبراً ، أو ليقف على حقيقة . (٥)

أخذ العلماء طريقهم إلى الرحلة في طلب العلم ، فكانت أسرة الحافظ ابن عساكر خير مثال على ذلك . واستمرت رحلات الإمام الغزالي حتى تاريخ وفاته ، بين العراق والحجاز والشام والإسكندرية ، إلى أن عاد واستقر في بلاده ، (٦) ورحل أيضاً من العلماء أبو عبد الله بن عبد الرحمن المازني القيسي الغزناطي، رحل إلى الإسكندرية ، وحدث بدمشق ، ورحل إلى العراق وخراسان ، توفي سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م . (٧)

ورحل أيضاً في طلب العلم عبد الكريم بن محمد أبو سعد التميمي المروزي السمعاني الشافعي الحافظ إلى نيسابور وبلاد ما وراء النهر وخراسان والري

==

(١) الذهبي : سيرأعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٥٦
- ابن النجار : المستفاد من ذيل بغداد ص٣٣٢
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٩٢٠
- الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٣٢٢ -
السخاوي : طبقات مخطوط ص٦٥و - اليماني : غربال ص٤٠٠
(٣) هو شاش يوضع على الرأس وعلى الكتف . طوطح :التربية في الإسلام ص٥٢
(٤) د. بيطار : مقال ، التعليم ص٢٤٤
(٥) القنوجي : أبجد العلوم ج١ ص٢٢٣
(٦) الإسنوي : طبقات ج٢ ص٢٤٢-٢٤٤ - . GILBERT : OP,CIT P 26
- ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM : ART . IBN ASAKIR P. 3 P. 714
(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص ٦٠٩
- المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج٢ ص٢٣٥-٢٣٦

وأصفهان والجزيرة والعراق والشام ، فحدّث بها جميعاً (١) ، وجاب البلاد أيضاً الحافظ السِلفي الأصفهاني ، أبو طاهر أحمد ، تنقل في البلاد إلى العراق والشام والجزيرة ومصر وبلاد الري ، مما لا يحصى له حتى انتهى إليه علو الإسناد في طلب الحديث الشريف . (٢)

ونشطت الرحلة لدى العالم محمد بن حمزة بن أبي جميل القرشي الشروطي المعروف بابن أبي الصقر ، أحد محدثي دمشق ، توفي سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م . (٣)

وبناء على ما سبق يمكن أن نجعل علماء الدولة البورية في أقسام ثلاثة :

أولاً : علماء دمشق الذين شاركوا في التعليم في الإمارة ، وكانوا من جملة من حاز السمعة والمكانة ، بعد أن تحولوا لفترة من الزمن في الرحلة لطلب العلم ، (٤) منهم الحافظ ابن عساكر . واستقر بعضهم في الأماكن التي رحلوا إليها ، فهذا العالم شرف الدين يوسف الدمشقي ، بنيت له مدرسة في بغداد سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م فاستقر بها . (٥)

وبرز العالم جمال الإسلام علي بن الحسن ، المتميز في الفرائض والتذكير والحساب والفقه والتفسير والمذاهب والأصول ، (٦) وكان علي بن الحسن أبو القاسم ابن أبي الفضائل الكلابي الفقيه الشافعي ، عالماً بالفقه والنحو والفرائض والتفسير والناسخات وقراءة القرآن بحرف ابن عامر . (٧) وتميز الخضر بن شبل ، أبو البركات الحارثي الدمشقي المعروف بابن عبد ، خطيب دمشق كان متقناً في علوم شتى ، كثير المحفوظ والعلم . (٨)

ثانياً : علماء دمشق : وهم يمثلون مجموعة من الدارسين الطامحين، والعلماء الذين أوجدوا لأنفسهم المكانة المرموقة ، (٩) علماً بأن البعض منهم لم يقم بالرحلة في طلب العلم ، بسبب انشغاله بوظائف حكومية وإدارية ، وعلى رأسهم ابن القلانسي ، المؤرخ الأديب الذي شغلته المناصب الإدارية في الدولة عن التحول إلى الرحلة .

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٤٣٣
- ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص٢٠٩

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٧ ص١٧٩
- سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص٢٣٠

(٣) ابن الدبيثي : المختصر في تاريخ بغداد ج١ ص٤٢

(٤) GILBERT : OP,CIT P . 23

(٥) الأصفهاني : خريدة قسم شعراء العراق ، تحقيق محمد بهجت الأثري مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٥م ج١ ص١٤٤

(٦) السبكي : طبقات الشافعية ج٧ ص٢٣٦

(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص١٠-١١

(٨) ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ج٧ ص٣٣١٢-٣٣١٣

(٩) GILBERT: OP,CIT P 23 .

ثالثاً : علماء وفدوا إلى دمشق بحثاً عن الدراسة والعلم ، ومن ثم المشاركة في نهضة النظام التعليمي ، (١) مثّل هذا الفريق الشيخ نصر الله المصيصي ، كان قد نشأ في صور ، وسمع بها أبا بكر الخطيب ونصر المقدسي ، ثم قدم إلى دمشق وسكن بها، وسمع من علمائها أبي القاسم ابن أبي العلاء ، وغيره .

وكان المصيصي آخر من حدث بدمشق عن أبي بكر الخطيب ، (٢) ولا يخفى الدور الذي لعبه المصيصي في نشر التعليم في دمشق عبر مساجدها ومدارسها ، فقد درّس بالزاوية الغزالية ، والمدرسة المجاهدية ومدارس أخرى عديدة .

كان معظم هؤلاء المهاجرين من بلاد الشام الجنوبية والشمالية ، والجزيرة والعراق بصورة خاصة ومصر . وقد ازدادت أعداد الوافدين ، مع بداية النصف الأول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي . (٣)

وهناك فئة العلماء المهاجرين أو العابرين الذين بحثوا عن فرص العلم والحياة الأفضل في دمشق أو خارجها .(٤) وغادر المغاربة بلادهم إلى المشرق نتيجة الأوضاع لديهم والظروف المختلفة ، فعلى صعيد العدد فقد كانوا أضعافاً مضاعفة بالنسبة للقادمين من المشرق ، وعلى صعيد المكانة العلمية ، فقد كان معظمهم من كبار العلماء .

شكّل العلماء مجموعة مترابطة ، داخل الفئات الاجتماعية ، تركز اهتمامها العلمي على الدراسات الفكرية التخصصية ؛ وبموجب ذلك يمكن أن نقسم دراسة العلماء إلى أربعة مجموعات : المجموعة الأولى : وتضم علماء القراءات والتفسير ، أما المجموعة الثانية : فتضم علماء الدراسات الفقهية ، وتهتم بالتطبيق الفعلي والعملي للفقه الإسلامي . أما المجموعة الثالثة : فتضم الدراسات المتخصصة بعلوم الحديث والمحدثين ، حيث يصب العلماء اهتمامهم على كل ما يروى من أحاديث قالها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وكذلك على الأفعال التي طبقها في ذلك المنحى . وضمت المجموعة الرابعة فئة المتصوفة والشيوخ والزهاد . (٥)

تمتع علماء الدولة البورية الوافدون بشكل عام ، وعلماء الدولة البورية بشكل خاص ، بمكانة مرموقة ، فبرزت صفوة من هؤلاء العلماء تمثل شخصيات ذات نفوذ وسلطة ، من بين العائلات المثقفة ؛ بالإضافة إلى مكانة خاصة تمتعوا فيها وسط المجتمع البوري ، بينما غدا بعض الأتراك من الفئة الحاكمة أكثر انفصالاً عن العلماء في بعض مجالس العلم .

==

(١) . GILBERT : OP,CIT P 23

(٢) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٦٠

- ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٧ ص٥٣٣

(٣) . GILBERT : OP,CIT P. 23

(٤) GILBERT : OP,CIT P. 92 – 94

(٥) GILBERT : OP,CIT P . 3

أما ما ورد ذكره عن الخلاف الذي كان يجري بين فريق من العلماء ، على أنه كان يتأثر بعامل الاختلاف المذهبي ، فالصحيح أنه يدخل في الغالب في نطاق الحوار الذي يطرأ حول وجهات نظر قائمة ، في مسائل فقهية ، يجوز فيها الاجتهاد ، وفق مذهب العالم المعتنق له ، وهذا ميدان رحب ، يحق للجميع أن يطرقه ، ولا ضرورة أن يجر ذلك إلى العنف والصدام ، على زعم المرجع الفرنجي ، لتضارب وجهات النظر . (١)

نال العلماء والفقهاء والأدباء المكانة والحظوة الكبرى ، والتكريم من السلطات الحاكمة ، وتنافس البعض من أهل العلم والدين لنيل تلك المكانة ، فقد خلع طغتكين على الشاعر زائدة بن نعمة بن نجيح ، لأنه أنشد أمامه قصيدة نونية ، فخلع عليه خلعة تامة ، وحمله على فرس عتيقة . (٢)

تحول بعض العلماء إلى زخرف الحياة الدنيا ومتاعها ، وهذا ما دفع الإمام الغزالي للإنكار على علماء عصره ، الذين رأى في سلوكهم أنهم أدلة الطريق إلى الله تعالى ، فمن سعى متزلفاً وراء الدنيا ، فإن ضرره أكثر من نفعه (٣) ، لربما رخص الواحد منهم للحاكم ما لا رخصة فيه ، لينال من أغراض الدنيا ، فيقع بذلك الفساد لثلاثة أوجه : الوجه الأول الأمير حيث يقول : لولا أني على صواب لأنكر علي الفقيه ، وكيف لا أكون مصيباً ، وهو يأكل من مالي . والوجه الثاني العامي إنه يقول : لا بأس بهذا الأمير ، ولا بأس بماله وأفعاله ، فإن فلاناً الفقيه لا يبرح عنده . والوجه الثالث الفقيه ، فإنه يفسد دينه بذلك . (٤)

ولا شك أن الثقافة أهّلت رجال الدين والعلم ، لاستلام الوظائف العامة والهامة ، من أمانة السر ، وكتابة التوقيع ، وتولي ديوان الإنشاء ، والإشراف على الدواوين السلطانية ، بينما عكف فريق آخر من العلماء على الاشتغال بالدين والعبادة ، كما انشغل البعض بالتدريس والقضاء ، والخطابة والوعظ ، ورفض كثيرون منصب القضاء ، أو أية مناصب أخرى في الدولة ، وأعرضوا عن الحكام ، حرصاً منهم على المصلحة العامة للمجتمع .

وانخرط فريق من العلماء والأدباء والأطباء ، في بوتقة الفئة الوسطى ، ونشأ معظمهم وتربى في المساجد والمدارس ، والخانقاوات والربط والزوايا ، فغدوا مدرسين ومدربين ، لهم نفوذ كبير لدى الرعية ، ومن الكتّاب مَن عمل في تحرير الرسائل ، في بعض المصالح العمومية ، وربما صار للبعض منهم قوة اعتبارية ونفوذاً واسعاً. (٥)

==

(١) GILBERT : OP,CIT P . 6 . 7

(٢) ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ج٨ ص٣٧٣٨

(٣) الغزالي : المنقذ من الضلال ص١١٢

(٤) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص١٢١

(٥)الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٣١٧

ELISSEEFF : OP,CIT P 3 P 836 -

ودخل في نطاق فئة العامة بعض العلماء والأدباء ، حتى غدوا من العوام ، وقد عانت هذه الفئة من آلام الجوع والحرمان والفقر ، حيث التفاوت الشاسع بينها وبين فئة الخاصة من العلماء . وقد تصدى بعض العلماء لهذه الظاهرة ، وأخذوا يأمرون الناس بالمعروف وينهونهم عن المنكر . (١)

ولا مندوحة أن نرى بعض العلماء والأدباء قد دفعوا الثمن غالياً ، وعانوا من لوعة الفقر و الحرمان ، لعدم التفافهم و اتصالهم بالفئة الحاكمة، وغالباً ما رغب البعض من العلماء أن يفترش المساجد والزوايا والربط ، لتكون أماكن للدرس والإقامة والسكن والمطعم والمشرب، ساعدهم على ذلك وفرة المصادر الوقفية ، التي لم تحتضن الإنسان فقط مع كثرتها ، بل عمّ خيرها الحيوان والجماد .

ونرى في شعر الشعراء الفقراء مصداقاً على ذلك ، حيث شملت تلك الأشعار ألواناً من الصور الإنسانية المؤلمة ، التي تثير الشفقة والحرقة ، وبلغ بالبعض منهم ، أن يفخر بالخبز ، مع سوء مقدرته في الحصول على اللحم . وكان ابن الخياط أحد شعراء دمشق الفقراء ، قبل أن يرتقي لمصاف الفئة الخاصة ، ويتقرب إلى الحكام . ومن شعره يصف الفقر والحرمان :

ومُستخلِصي من قَبْضَةِ الفقرِ بَعْدَما   تَملَّكَ رقي ذُلّةٌ وحَوَانِي (٢)

كما عانى الشاعر عرقلة الكلبي من مرارة الفقر ، فكل النفثات التي ظهرت في شعره تدل على ذلك . (٣)

وكان الشاعر سالم بن سليمان بن عبد الله الحموي (توفي بعد سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م) فقيراً صالحاً ، مقبلاً على شأنه وعياله ، يعاني سوء الحياة وضائقاتها الاقتصادية ، ومظالمها الاجتماعية . (٤)

والواقع إن فساد أوضاع الفئة العامة ، يعود لاضطراب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، والإستغلالات التي لحقت بالعوام ، بسبب فرض الضرائب المجحفة ، وفساد النظام الإقطاعي ، والهيمنة على الأرض واستغلالها بشكل تعسفي ، لاستدرار الأموال بعيداً عن جهود العاملين الفقراء .

==

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٣١٧
(٢) ابن الخياط (أبو عبد الله محمد) : ديوان ابن الخياط تحقيق خليل مردم بك المطبعة الهاشمية بدمشق ص٢١
(٣) عرقلة الكلبي : ديوان عرقلة الكلبي تحقيق أحمد الجندي مطبعة دار الحياة دمشق ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م ص٣٤
(٤) ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ج٨ ص٤١١١

ترك هؤلاء العلماء أثراً كبيراً في المناطق التي استقروا فيها ، عبر مساهماتهم في أوجه النشاط الفكري .وحاز بعضهم على المناصب الإدارية والتعليمية والدينية ، وحملوا معهم كل ما خلّفوه من تراث علمي رفيع ، فهذا أبو الحسن الأندلسي المرادي الشقوري القرغليطي المحدث ، الحافظ ، قصد حافظ دمشق ابن عساكر بكتبه ، فأقبل عليه الحافظ فرحاً . وصل هذا العالم إلى دمشق سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م وتوفي في حلب
سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م . (١)

وهكذا رحل أهل المغرب بالعلم وغادروا في سبيل طريق العلم ، ونقلوا معهم معارفهم التي برزوا فيها ، منها علوم القرآن الكريم ، والقراءات ، وعلوم النحو بشكل خاص حيث برزت مقدرتهم ومواهبهم في هذين الفنين على الخصوص .

وشدّ الرحال إلى الإمارة البورية بعض علماء العراق ، فوصل من الكوفة العالم عمر بن إبراهيم بن محمد بن أحمد القرشي العلوي أبو البركات الكوفي ، تميز بعلوم الفقه والحديث والتفسير واللغة والأدب والنحو ، توفي سنة ٥٣٩هـ /١١٤٤م (٢) . كان غاية في الذكاء والنفاذ في العلوم الرياضية والطبية والهندسية ، والمنطق وفنون النجوم والأحكام والمواليد ، وعلم تواريخ الأخبار والسير والآداب ، بحيث وقع الإجماع عليه بأنه لم يكن له مثيل في جميع العلوم . (٣)

ووصل من علماء العراق أيضاً الحسن بن صافي ، أبو نزار البغدادي (ت ٥٦٨هـ / ١١٧٢م) كان متمكناً من علوم الحديث والمذاهب وأصول الدين ، وعلم الخلاف وأصول الفقه والنحو والقراءات . (٤)

إن ما ورد ذكره من أسماء بعض العلماء هو نذر يسير، من العلماء الذين وفدوا أو رحلوا ، وكانت لهم مكانة كبيرة ، وباعاً كبيراً في مجال التدريس ، وطلب العلم ، وهذا غيض من فيض أتينا على ذكر البعض منهم وليس الكل ، وقد مررنا بأسماء البعض منهم أثناء البحث ، فكان لابدّ من وقفة ومحطة للتعريف بهم اعترافاً منا بمكانتهم الجليلة المهيبة ، وما قدموه من كمّ كبير من المعارف والعلوم والإبداعات ، وإن فاتنا الكثيرون ممن لم نتعرض لذكر أسمائهم ، ومردّ ذلك الرجوع إلى تفاصيل تفيد البحث لا أكثر .

ولاشك أن فريضة الحج تركت تأثيراً كبيراً في دفع العلماء إلى الرحلة في طلب العلم ، فصار العلماء يتصلون ببعضهم عبر هذا الركن الحصين ، فأسهم ذلك في

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص١٠٥-١٠٦
- الإسنوي : طبقات الشافعية ج٢ ص٤١٣
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢ ص٢٣٦
(٣) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٩٨-٤٩٩
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٤ ص٤٣٧-٤٣٨

الحصول على العلوم من منابعها بالنسبة للعلماء والطلبة . ولما شدّ الإمام الغزالي رحاله إلى الحج سنة ٤٨٨هـ / ١١٩٢م ، (١) رأى نفسه يتابع طريق الرحلة ماراً بالمدن الرئيسية ، التي غدا بعض منها مراكز لاستقبال العلماء في الذهاب والإياب . وكان من حظ دمشق موقعها الممتاز وسط الطرق التجارية فغدت موئلاً للوافدين .

ومن أبرز العلماء الذين احتضنتهم دمشق ، صالح بن إسماعيل أبو الخير الكاني الخوارزمي الصوفي ، وصل دمشق وحجّ منطلقاً منها وزار بيت المقدس ثم خرج غازياً في سبيل الله ضد الفرنجة في بانياس توفي سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩ م . (٢)

وكان أبو الحكم عبيد الله بن المظفر الباهلي ، خرج من الأندلس وحج سنة ٥١٦هـ/١١٢٢ م ، ثم حج ثانية سنة ٥١٨هـ/١١٢٤ م ، ودخل دمشق وغيرها من البلدان . كان أديباً طبيباً بارزاً . (٣) ووصل إلى دمشق أيضاً أبا محمد بن عبد الله بن طاهر الأزدي سمع بدمشق من أبي طاهر الخشوعي ، وابن عساكر وغيرهما ، ثم عاد إلى الأندلس . (٤)

وكان للمرأة هي الأخرى مكانة في الرحلات العلمية ، فكان لهن دور كبير في ازدهار تلك الحركة العلمية في الإمارة البورية ، ومن أبرز العالمات الواصلات فاطمة ست العجم رحلت بحثاً عن العلماء والمتفقهة . (٥) وهذه فاطمة بنت علي بن منصور ابن قبيس الغساني حجّت مع أختها ، وكانت قد سمعت من أبيها الفقيه وأبي الحسن المالكي توفيت سنة ٥٦٧هـ/١١٧١ م . (٦)

كان للنساء العالمات أيضاً دورهن في ازدهار الحركة العلمية في الإمارة حيث اشتركن مع العلماء في ترسيخ الاهتمامات العلمية من تعليم وتلقين .

حازت المرأة في ظل الحكم البوري مكانة محترمة ، فلعبت دوراً بارزاً في تسيير السياسة العامة للبلاد ، مثال ذلك زمرد خاتون زوجة بوري ، ووالدة شمس الملوك إسماعيل ، و شهاب الدين محمود ، حيث كانت لها السطوة والنفوذ ، وهذا الذي دفع عماد الدين زنكي للزواج منها بقصد استلام البلاد . (٧)

وكان لدى المرأة أيضاً الحرص الشديد على تلقي العلوم الدينية وتعلمها . وقدم ابن عساكر وصفاً جلياً عن المرأة في عصره وتطورها علمياً واجتماعياً وسياسياً ، فقد أسهمت في مجالات عديدة ، ففي مجال التعليم كانت تعطي علمها للرجال والنساء على السواء .

==

(١) الإسنوي : طبقات الشافعية ج٢ ص٢٤٢-٢٤٤
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٨ ص١٧٨
(٣) المقري : نفح الطيب طبعة قديمة ج٣ ص٣٩٣-٣٩٤
(٤) المقري : نفح الطيب ج٢ ص٤٢١
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص٢٨٨
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص٢٩٦
(٧) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤١٨- العظيمي : المصدر نفسه ص٣٨٨

وأبرز العالمات في الدولة البورية آمنة بنت محمد بن الحسن بن طاهر القرشية ، (كانت حية سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠ م) وهي من أسرة علم وفقه ابنة خالة ابن عساكر ، سمعت جدها لأمها القاضي أبو المفضل يحيى بن علي القرشي وغيره ، كان لوالدها دور فيما استنسخه لها من كتاب السنن لأبي داود ، فسمعت من هذا الكتاب عن عبد الكريم بن حمزة ، وبعد أن أتقنت علومها قامت بتلقينها لابنها ولكل طالب علم . (١) ومن عالمات دمشق أيضاً ست العشيرة بنت عبد الله السلمية ، تلقت علومها عن جدها القاضي الخطيب ، وكانت أسرتها من سلالة علم ودين . توفيت سنة ٥٥٦هـ/١١٦١ م . (٢)

ووصلت إلى دمشق بعد رحلة علم العالمة فاطمة بنت سعد الخير بن محمد بن سعد الأنصاري ، رحل بها أبوها إلى أصبهان ، ثم قدم بها إلى بغداد ، فأسمعها من هبة الله الحريري ، وابن السمرقندي وغيرهم ، ثم قدمت مع زوجها أيضاً "فسمع منها بعض طلبة الحديث " (٣)

وتلقى الحافظ ابن عساكر علومه على فاطمة بنت علي بنت الحسين العكبري وقد تألم وأسف حين علم بوفاتها ، وكان قد قرأ عليها جزء " صفة المنافق " سنة ٥٢٦هـ/١١٣١ م ولما رغب في متابعة العلم عليها لم يدركها ، (٤) وأجازت العالمة ملكة بنت داوود بن محمد بن سعيد القرطكي العالمة الصوفية (ت٥٠٧هـ/١١١٣ م) جميع حديثها لابن عساكر وكانت أكثرت من أسفارها لسماع الحديث في مصر ومكة ، ثم سكنت دمشق . (٥)

وقدمت العالمة المدرّسة فاطمة ست العجم بنت سهل بن بشر الاسفراييني من رحلتها من مصر، كان الحافظ ابن عساكر يلقبها بالعالمة الصغيرة ، روت الحديث وعملت في التدريس في المساجد أو الدور كغيرها من العالمات . وكانت قد سمعت أباها ، وروت الحديث ، ولم يقتصر دورها على التدريس ، بل تحولت إلى وعظ النساء في المساجد وفي الأعزية . وسمع منها بعض طلبة الحديث ، ويأسف ابن عساكر أنه لقي هذه العالمة الصوفية ولم يسمع منها . (٦)

وبرزت العالمة في الفقه فاطمة بنت علي بن أحمد بن منصور بن قبيس . (٧) سمعت من فاطمة بنت سعد الخير الأندلسية في أصبهان وبغداد ودمشق . الفقه سماعاً عن أبيها أبي الحسن المالكي . اتصفت بتدينها ووقفها الأوقاف على المذهب المالكي

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص٤٩-٥٠
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص١٣٨
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص٢٨٧
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم) ص٢٩٦-٢٩٧
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص٢٩٣
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم) ص٢٨٧-٢٨٨
(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم) ص٢٩٦

في جامع دمشق . (١) وما أشرنا إليه لا يساوي نسبة من سمع منهن ابن عساكر فيما ذكر عن مروياته ، إلا أن المصادر لم تذكر لنا إلا القليل منهن .

حازت المرأة العالمة على الدور الكبير والمكانة العلمية الرفيعة ، فسلكت طريق العلماء في تلقي العلوم ، بالرحلة والبحث العلمي ، فما أكثر النساء اللواتي رحلن في طلب العلم ليتلقين علومهن على كثير من الشيوخ . وهكذا كان للمرأة مساهمات علمية بارزة في فترة الحكم البوري ، تطرق في مسلكها السوي منهج البحث العلمي التخصصي على جمع من المدرسين لرفد المجتمع الإسلامي بالثقافة .

وهذا مؤشر يدل على كثرة النساء المشتغلات بالعلم ، وانفراد الحافظ ابن عساكر بالأخذ عن ثمانين امرأة . كما أن المرأة حازت المكانة العلمية الكبيرة ، فكانت تلقى كل تقدير واحترام من معاصريها ، ولم يلحظ اعتراض طالب علم عن أخذ علمه عن امرأة .

وهكذا برز دور النساء العالمات اللواتي ارتبطن بقضايا مجتمعهن وهن من المتعلمات العالمات . كان بإمكان المرأة أن تتلقى علومها من دون حرج ، إما في بيت زوجها أو في بيت أبيها ، أو عن ذوي قرابة لها من خال أو عم أو أخ ،أو في المسجد من علماء عصرها أوفي دارها . فقد تلقت زوج الحافظ ابن عساكر عائشة بنت علي بن الخضر الحديث في داره على فاطمة بنت علي بن الحسن العكبرية ، ثم قامت بإسماع أولادها في بيتها . (٢)

وكان للنساء دور في حبس الأوقاف على دور العلم ، وقد سابقن الرجال في هذه المآثر . (٣) فقد بنت زمرد خاتون المدرسة الخاتونية ووقفت عليها الأوقاف (٤) وحبست فاطمة بنت علي بن أحمد بن قبيس الغساني وقفاً أمام محراب جامع دمشق ، ووقفاً على الفقهاء المالكية المشتغلين بالفقه في جامع دمشق . (٥)

وبعد أن ينهي العالم رحلته العلمية يتحول إلى موقع التدريس والتهذيب وصقل أفكار ومواهب الطلبة بما أمكنه جمعه من مادة علمية . واستوجب عزم المدرس على مجلس التدريس أن يكون تعليمه خالصاً لوجه الله تعالى لا يريد به رياء ولا سمعة ولا جاهاً ، وأن يقتدي بخير سيد الخلق ويسعى لخير الخلق ، وأن يستقبل القبلة ، والبدء بقراءة شيء من كتاب الله تعالى والاستعاذة بالله والحمد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والترضي عن أئمة المسلمين ، والدعاء للحاضرين وواقف

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم) ص٢٨٧

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص٤٩-٥٠

(٣) القاسمي : المرأة في تاريخ ابن عساكر المجلس الأعلى للعلوم ١٩٧٩ص٦٢٦-ص٦٢٧

(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء)ص١١٢- سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ص١٤٩الذهبي : العبر في خبر من غبرج٤ص١٦٢

(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص٢٩٦

المدرسة ثم يبدأ الدرس . (١)

وقد تعددت المواد المدرّسة ، من قرآن وتفسير وعلم حديث وأصول الدين وأصول الفقه ، ثم المذهب والخلاف ، والنحو والتصريف والجدل والعلوم الرياضية والتطبيقية من صيدلة وطب وهندسة وعلم الحيوان . (٢)

وللمدرس الحق أن يقدم أشرف العلوم على ما سواها ، فيقدم علم التفسير على علم الحديث الشريف ، ويقدم الفقه على الأصول وهكذا ، ولابد له أن يكون ملماً بتفسير كتاب الله تعالى ، وإدراك عمق معانيه ، والاهتمام بالحديث رواية ودراية . (٣) تم التأكيد على المدرس أن يحسن إلقاء الدرس وتفهيمه للطلبة ، وأن يكون أهلاً له ، حسن التعليم ، جيد التلقين ، ضابطاً له ، فلا يلقي عليهم ما لا تستوعبه عقولهم ، بل يدربهم ويأخذ بيدهم نحو الأهون حتى ينتهوا إلى درجة الفهم المرجوة . ولا يذكر في الدرس علماً لا يعرفه ، ولا يطيل الدرس تطويلاً مملاً ، يمل معه الطالب ، أو يقصر عن الغاية والهدف ، فيخلّ معها بالفائدة المرجوة لمصلحة الطالب . (٤)

وحظّر على المدرس البحث فيما لا جدوى للطالب منه ، بل يعطي الدرس حقه ، ولا يقتصر على مسألة أو مسألتين معاً مما لا يجوز معه الدرس ، ثم يلحقها ببطالة لأيام عديدة .

وقد عمل الغزالي في مجال التدريس والإفادة لثلاث مائة نفر من الطلبة في بغداد وحدها . (٥) وعلى المدرس أن يبتعد عن ما يجر إلى تعاطي المنافسة والشحناء ، لأنها تسبب العداوة والبغضاء ، وتُذهب ميل أهل العلم عن الهدف المرجو . وخضعت تربية الدارس لتعاليم الإسلام ، فهي منبثقة من روح القرآن الكريم والسنة الشريفة ، تستمد أصولها من العادات والتقاليد الإسلامية الأصيلة . (٦)

ولا تخفى مضامين وآراء الإمام الغزالي في حقل التربية والتعليم ، منها واجبات الأهل تجاه أولادهم ، وقد يشعر الإنسان أن آراء الإمام الغزالي ، تدل على أنها مستمدة من واقع الحياة المجربة الخبيرة ، مع ما طغى على نصحه ورشده من توكيد

==

(١) الغزالي : إحياء علوم الدين ج١ ص٤٩ ، ميزان العمل ضبط سليم البواب منشورات دار الحكمة بيروت ١٩٨٧ م ص١٢٣ ـ ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ص٣٤ـ٣٥ـ٤٥ـ٤٧

ـ العلموي : المصدر نفسه ص٢٦ـ٥٣ـ٥٤

(٢) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص٣٦ـ٣٨

ـ العلموي : المصدر نفسه ص٥٥

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج١١ ص٢٣٧

(٤) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ص٨٣

ـ ابن جماعة : تذكرة السامع ص٤٥ـ د٠ حسين أمين : الغزالي فقيهاً وفيلسوفاً ومتصوفاً مطبعة الإرشاد بغداد ١٩٦٣م ص٧٨

(٥) الغزالي : المنقذ من الضلال ص٦٩ ـ السبكي : معيد النعم ص٨٦

(٦) د٠ حسين أمين : مقال المسجد ص٩

العامل الديني ، والغاية الأكيدة في بلوغ النفس كمالها وقوامها ، بالخلق الحسن والآداب الحميدة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والشهامة والمروءة والتعاون على عمل الخير ، والتزام الشجاعة وضبط النفس . (١)

ومن هنا تخرج مقدرة المدرّس على توقير طلبته ، ووعظهم ، وأن يخرج أمامهم بالخلق الحسن والبشاشة ، ويعمل على تقديم النصح والزجر إذا أخلّ طالب بآداب الدرّس ، وأن يمتلك القدرة والمهارة في السيطرة على الطلبة وضبطهم .

ويحبذ أن يكون الزجر عند المدرس ، بالتعريض لا بالتصريح ، وأن يحمل في نفسه الوقار والصبر على تعليم الطلبة ، حازماً ضابطاً يضع الأمور في نصابها ، وأن يكظم غيظه عند الدرس ، وأن يعطي الطالب الفرصة للاستفسار عما لا يقدر على فهمه ، فيكون الاستفسار على شكل سؤال ، يهدف إلى تأمين الفائدة المرجوة ، لإيضاح الفكرة المبهمة عند الطالب ، وإزالة الغموض حول المعلومة المطروحة ، التي يُراد إيصالها بوضوح لفكر الطالب ، ليكون استيعابه وتلقينه حسناً .

ولا يجوز للطالب أن يجادل أستاذه في كل مسألة ، وإن علم خطأه فيها ، (٢) وأن يعمل ما يأمره به بالسعة والطاقة الممكنة ، وعلى المدرس أن يُعنى بأسلوب إلقاء الدرس ، وأن يعمل على تحضير المادة العلمية ، ويعدّ نفسه ، لاعتماد طريقة تنويع الأسلوب ، تارة بإخبار الطلبة ، وأخرى بإلقاء المسألة على شكل سؤال يشركهم في صياغته ، وكذلك فهم أفكاره الرئيسية بأسلوب حسن ، مازجاً بين الجد والهزل ، ليشوق الطلبة ، ويحببهم بالمادة العلمية ، بعد أن يكون قد أودع فيهم فيض فكره ومكنون علمه ، باذلاً لهم جهد طاقاته وإمكاناته . (٣)

ويحبذ أن يختار العالم الأسلوب الذي يشدّ الطالب إليه كي يتلقاه بسعادة وسرور ، شريطة أن يبذل له الطالب النفس ، ويفرّغ له الأوقات ، ويأخذ بنصحه من الفوائد والنكت ، لأن العالم قد يجمع جميع العلوم ، فتحصل لديه الملكة العلمية ، ويمسك بناصية العلم ، والدليل على ذلك علاقة الإمام الغزالي مع طلبته ، الذين كانوا يستفيدون من دروسه استفادات كثيرة ، ويسّرون به سروراً عظيماً . (٤)

ولا بد للعالم أن يفتح باب المناقشة والمجادلة مع الطلبة ، ويتوجب على الطالب أن يتوجه نحو المشاورة ، والمجادلة ، والمناظرة ، والمذاكرة ، والابتعاد قدر المستطاع عن الشغب ، ففي المناظرة والمذاكرة ، مشاورة تهدف إلى الكشف عن

---

(١) د٠ حسين أمين : الغزالي ص٧٤ ، مقال المسجد ص٩

(٢) الغزالي : إحياء علوم الدين ج١ ص٥٠-٥١ ، ميزان العمل ص١٢٤ ، أيها الولد ص٣٨

(٣) النعيمي : المصدر نفسه ج٢ ص٦٧ - القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج١١ ص٢٤٣-٢٤٤-٢٤٧

(٤) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص٢٩٢ القلقشندي : صبح الأعشى ج١١ ص٢٣١

الصواب ، لأن " فائدة المطارحة والمناظرة ، أقوى من فائدة مجرد التكرار " .

ويجب على العالم تصوير المسائل ثم توضيحها بالأمثلة ، فإذا فرغ من شرح الدرس ، يعمل على مطارحة الطلبة بأسلوب الامتحان ليكشف عن مكنون ما تخفيه عقولهم من أفكار الدرس . إن استتباع المدرس للتكرار في إعطاء المادة يؤكد استحكام فهم المادة لدى الطلبة ، لاسيما إذا كان جواب الطالب جواباً استفسارياً واستيضاحياً يدفع المدرس لشكره والثناء عليه ، لكن يبقى هنالك بعض الطلبة ممن يستح أن يُعلم أستاذه بمدى فهمه للمادة العلمية ، فلا ينبغي للمدرس أن يقول للطالب هل فهمت ؟ إلا إذا آمن حق اليقين من قوله نعم . ثم يعمل الطلبة فيما بينهم على إعادة ما قد شرحه المدرس ليثبت الدرس في الذهن . (١)

وقد أصر بعض المدرسين على احترام الدرس ومتابعته واستيفائه ، ولو كلفه ذلك تلقي خبر وفاة أحد أقرانه أو ذويه ، ذكر أن أحد المدرسين أُبلغ يوماً أن ولده قد مات ، فأمر بتجهيزه ، وتابع هو الدرس ، ولم يذكر شيئاً مما حصل أمام الحاضرين حتى فرغ من درسه ثم قال : " إن محمداً أُدعي فأجاب " (٢)

واستُقبح على المدرس أن يحفظ سطرين أو ثلاثة من كتاب ثم يجلس ليلقنها إلى الطلبة ، ومن المدرسين من يحضر للدرس ، ويذكر مسألة أو مسألتين من غير تحقيق ولا إفهام ، وطبعاً لقاء مثل هذا الدرس ، لا يجوز أن يعطى المدرس جامكية (مرتباً) من المدرسة . (٣)

وينحصر إلقاء الدروس داخل المدارس أو المسجد الجامع ، أو غيره من المساجد ، كان الأستاذ العالم يجلس على كرسي ، أو مكان مرتفع ، يلتف حوله الصدور والأعيان من الناس ، ويلتف حوله قلة من الطلبة ، فيلقي دروسه شفاهاً أو من كتاب يقع بين يديه ، وتتم المناقشة والاستفسارات عن المشكل من الأمور ، كما يتم التعرض للعديد من المسائل الفقهية ، ووضعها تحت ميزان البحث والتحليل والسبر والتعليل والمناقشة .

==

(١) ابن جماعة : تذكرة ص٥٢-٥٣-٥٤ ـ العلموي : المعيد ص٥٥
ـ الزرنوجي : تعليم المتعلم طريق التعلم ط ١٩٣١م ص٤٤

(٢) الحسيني : طبقات الشافعية تحقيق عادل النويهض ط٢ بيروت ١٩٧٦م ص٢٠٣
طبقات الشافعية : مؤلف مجهول رقم ٥٥١٦ ص٦٢ظ ـ العلموي : المعيد ص٥٧ ـ د٠ بيطار : مقال التعليم ص٢٣٨

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء تحقيق نزار رضا دار مكتبة الحياة بيروت ص٧٣٣ـ السبكي : معيد ص٨٤

وكان الإمام الغزالي من أبرز المدرسين ، ممن أثاروا العجب بطريقة التدريس المعتمدة ، فقد غلب عليه سرعة العبارة ، وقوة الطبع ، وسرعة جريه في النطق والكلام . وكان لاسم المدرس دوراً في ذياع صيته وشهرة المدرسة ، وملاحقة الطلاب له أينما حلّ والرغبة في مدرسته دون أخرى ، نظراً لشهرة المدرّس بها لا لشهرة المدرسة . (١)

ولا شك أن هؤلاء الأساتذة والشيوخ ، يتم تخيرهم ممن عرف عنهم كثرة الرحلة وتحصيل الأسانيد العالية ، حتى انتهى إلى العديد منهم رئاسة العلم . وتأصلت فيهم نزعة البحث والتحري عن الحقائق العلمية ، ما فيه مصلحة وخدمة الطلبة . (٢) وكثر من اعتمد في حلقته التدريسية على خزانة كتب أعدها لنفسه للتحضير عبرها لما فيه مصلحة الطلبة .

مارس بعض العلماء التدريس في سن مبكرة ، بعد أن ملكوا ناصية العلم والخبرة ، فهذا نجم الدين ابن شرف الإسلام ، أفتى ودرّس وهو ابن نيف وعشرين سنة حتى توفي . (٣) ومن أوجه معاشرة العلماء قبول أقوالهم والرجوع إليهم عند الملمّات والمهمات ، وملازمتهم وتأكيد الحرمة والخدمة لهم ، والقيام بأشغالهم وتوقيرهم . (٤)

وهكذا حاز الأساتذة العلماء على المكانة الكبيرة ، وأجلهم الطلاب أيما إجلال فعند وفاة أحد العلماء يقع في نفس الطلبة من الألم والحرقة الشيء الكثير ، ويعلنون الحداد ، ويجتمع الناس في السكك والشوارع ، وقد عم البكاء والصياح ، ويخرجون وراء جنازة العالم بأعداد كبيرة ، فهذا نصر المقدسي (ت٤٩٠هـ/١٠٩٦ م) حملت جنازته من وقت الظهيرة ولم يتم دفنه حتى وقت الغروب ، لكثرة الناس الذين تزاحموا عليه من غير أن يوارى الثرى ، فلم ير الدماشقة مثيل جنازته (٥) .

---

(١) ابن عساكر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري دار الكتاب العربي بيروت ط٣ – ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص٢٩٢-٢٩٥
ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٣١٩ .
(٢) النعيمي : المصدر نفسه ج٢ ص٦٩ - معروف : نشأة المدارس ص٢٥
(٣) النعيمي : المصدر نفسه ج٢ ص٦٩
(٤) الديوه جي : التربية والتعليم في الإسلام ص٨٣
(٥) ابن عساكر : تبيين كذب المفتري ص٢٨٧
- ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج١٠ ص٧

وخرجت للعالم المدرس سبيع بن قيراط (ت٥٠٥هـ/١١١١م) جنازة عظيمة (١) وكانت وفاة العالم المدرس شرف الإسلام عبد الوهاب الحنبلي (ت٥٣٦هـ/١١٤١ م) من الأيام المذكورة ، فقد كان يوم دفنه مشهوراً لكثرة المشيعين والباكين عليه ، والمؤبنين لأفعاله ، والمتأسفين عليه . (٢) وحضر خلق عظيم دفن العالم هبة الله بن طاووس (ت٥٣٦هـ/١١٤١ م) . (٣)

وخرجت أيضاً للعالمات من النساء جنائز مشابهة ، فقد حضر جمع كبير من الناس جنازة العالمة ملكة بنت داود ، وقد شارك أبرز تلامذتها ابن عساكر في الصلاة عليها ، (٤) يعود هذا الاحتفاء بالعلماء إلى أنهم ملكوا ناصية العلوم وقدموا إلى المحيطين بهم كل ما امتلكوا من علوم وفنون ، فكان حريّ أن تمثل جنائزهم تظاهرة كبيرة تضم الطلبة والعوام من الناس .

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٧ ص٦٨
(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص١٠٣-١٠٤
- ابن رجب الحنبلي : كتاب الذيل على طبقات الحنابلة ج١ ص٢٣٨
(٣) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١١٠
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ٣١٣

الفصل الثاني

المعيدون والطلبة ونشاطهم التعليمي

المعيدون والطلبة ونشاطهم التعليمي :

استعمل المدرسون الفقهاء المعيدون في مدارسهم ، ليكونوا عوناً لهم ، يدفعون إليهم فرصة الحصول على الخبرة ، كي يكونوا أساتذة المستقبل. وكان المعيد أقل درجة من الأستاذ (١) ، ويليه من حيث الرتبة ، يعينه إذا اقتنع بكفاءته وجديته ومواظبته معيداً يعيد الدرس على الطلبة ، بعد انتهاء المدرس من إلقاء الدرس ، فيوضح الغامض من الكلمات ، ويعود إليه الطلبة لاستيضاح أو فهم ما خفي من الدرس عليهم . (٢)

يعتبر المعيد مساعد المدرس الأيمن ، يساعده في التدريس ، فهو يقرأ في معظم الأحيان النص الذي يحدده الأستاذ إلى الطلبة ، ويقوم الأستاذ بعد ذلك بشرحه ، فوظيفة المعيد بموجب ذلك تهيئة الأذهان لفهم الدرس من الأستاذ ، والقيام بعملية تحضير لتفهم الأفكار ثم توضيحها ، وعلى هذا يقع على المعيد رهف الحس والانتباه الشديد ، لتفهم الدرس من الأستاذ ، من أجل تفهيمه لبعض الطلبة ، وتقديم النصح والإرشاد في الغامض عليهم من الأمور ، وأن يستمع إلى أسئلتهم ، ويجيبهم عنها ، كما يقع عليه الإملاء أو التلقين . (٣)

ويتابع المعيد عمله ، ويقوم بما يتم تكليفه به من مراجعة أمور الطلبة ، وعرض محفوظاتهم ووظائفهم عليه . ويبلغ المدرس عمن يرجى فلاحه من الطلبة ، وينوب عن المدرس في التدريس في حال غيابه ، وقد يشغل وظيفة المدرس حين لا يوجد العالم المناسب لتولي المنصب . (٤)

ولابد أن يتوفر في المدرسة معيد أو أكثر ، ويدخل هذا ضمن ما يشترطه الواقف . وقد عمل الإمام الغزالي (ت٥٠٥هـ / ١١١١م) في فترة دراسته معيداً للطلبة (٥) .

==

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج٥ ص٤٦٤ ـ الأدفوي : الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد تحقيق سعد محمد حسن ١٩٦٦م ص٩٣

(٢) ابن جماعة : تذكرة السامع ص٢٠٤ ـ القلقشندي : صبح الأعشى ج٥ ص٤٦٤

(٣) السبكي : معيد النعم ص٨٥ - الأدفوي : الطالع ص٩٣

(٤) ابن جماعة : تذكرة السامع ص٢٠٤ ـ د. موسى باشا : مقال دور العلم عدد ٢ ص١٠٤

(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٣٢٣

وعمل العالم جمال الإسلام علي بن الحسن السلمي معيداً عند الفقيه نصر المقدسي ، (١) وعمل كذلك علي بن الحسن بن الحسين بن أبي الفضائل الكلابي (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٦م) معيداً للفقيه أبي الحسن السلمي في المدرسة الأمينية(٢) . وعمل صائن الدين ابن عساكر ، أبو الحسن هبة الله (ت ٥٦٣هـ / ١١٦٧م) معيداً في نفس المدرسة عند الفقيه جمال الإسلام السلمي . (٣)

واشتغل جمال الأئمة ابن المانح (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٦م) معيداً في المدرسة الأمينية ، لدى العالم جمال الإسلام السلمي . (٤)

وأعاد وهب بن سليمان بن أحمد السلمي المعروف بابن أبي الزيف (ت ٥٤٩هـ / ١١٤٩م) الفقه عند الفقيه أبي الحسن السلمي بالمدرسة الأمينية . (٥) وكذلك عمل عبد الوهاب الخرقي الدمشقي (ت ٥٨٧هـ / ١١٩١م) معيداً في المدرسة الأمينية عند العالم جمال الإسلام السلمي . (٦)

استطاع بعض المعيدين أن ينجحوا ، وأن يصبحوا مدرسين مقتدرين ، بعد تجاوزهم وظيفة المعيد ، فقد برع الإمام الغزالي في الفقه ، وأعاد به للطلبة ، (٧) ثم تحول إلى مدرس وعالم كبير . وتفقه جمال الإسلام علي بن المسلم (ت ٥٣٣هـ / ١١٣٨م) على الفقيه نصر المقدسي ، وأعاد له الدرس، ثم صار مدرساً بعد ذلك في المدرسة الأمينية وغيرها . (٨) وكان جمال الأئمة ابن المانح معيداً لدى جمال الإسلام بالأمينية ، ثم درس بعد ذلك في المجاهدية . (٩) وكان أبو الحجاج يوسف بن مكي الدمشقي الحارثي (ت٥٦٥هـ/١١٦٩ م) ملازماً للشيخ نصر الله المصيصي ،

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص٥٤٥-٥٤٦ ، تبيين ص٢٢٦-٢٢ - ابن العجمي : مخطوط الطبقات ص٢٧٧ظ

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص١٠-١١ - السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص٢١٤

(٣) السبكي : المصدر نفسه ج٧ ص٣٢٤-٣٢٥ - النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٤١٧

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٦٨ - النعيمي : المصدر نفسه ج١ص٢٠٣

(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٧ ص٩٤٥

(٦) السبكي : المصدر نفسه ج٧ ص١٥٣-١٥٤ النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٢٠٤

(٧) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٣٢٢-٣٢٣-٣٢٥

(٨) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ص٥٤٥-٥٤٦ - النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص١٨٠

(٩) النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٢٠٣

وأعاد له وأوصى بتدريس الزاوية الغزالية إليه فلم يصح له . (١) وهذا يعني أن المعيد كان يلازم أستاذه فترة طويلة حتى وفاة العالم . وقد ينتقل المعيد خارج مدينته وحتى إمارته لإعادة الدروس ، فقد غادر إلى بغداد ابن بندار الدمشقي يوسف بن عبد الله (ت٥٦٣هـ/١١٦٧ م) ، وتفقه بها وأعاد عند نصر أسعد الميهني ، (٢) وغادر إلى بغداد أيضاً علي بن فتيان الدمشقي (ت٥٧٩هـ/١١٨٣ م) وتفقه على أبي المحاسن يوسف الدمشقي في المدرسة النظامية ، ثم أعاد عنده .(٣)

وكان يحق للمعيد أن يحصل على معلوم الإعادة ، لأنه يعيّن في مهمته تعييناً وحتى ينتقل المعيد إلى مرتبة المدرس ، لا بد له أن يرحل في طلب العلم للاتصال بالعلماء والسماع عنهم ، فقد سمع المعيد عبد الكريم الحرستاني (ت٥٦١هـ/١١٦٥ م) من جمال الإسلام السلمي وابن قبيس ، ورحل إلى بغداد وخراسان فسمع بهما . (٤) ومن المعيدين الذين خرجوا للرحلة والسماع ، الصائن هبة الله بن الحسن الدمشقي توفي سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧ م ، رحل لسماع الحديث ثم عاد إلى دمشق سنة ٥١٤هـ/١١٢٠ م . (٥)

وتحرك وجيه الدين ابن المنجّا إلى بغداد في رحلة علم ، حيث تفقه وبرع بالمذهب ثم عاد (ت٥١٩ – ٦٠٦ هـ/ ١١٢٥ – ١٢٠٩ م) (٦) وبعد أن يتجاوز المعيد الرحلة غالباً ما يصبح مدرسا ، ويتولى المدرسة بعد أستاذه ويصبح من العلماء الكبار (٧)

ارتبط الطلبة بدافع الحاجة الماسة للعلم بأساتذتهم ، ولازموهم ملازمة أكيدة

===

(١) النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٢٠٣- ٥٣٣- ٤١٥
- الإسنوي : طبقات الشافعية ج١ ص٥٣٣

(٢) ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعيةج١ ص٣٥٣ - الإسنوي : طبقات الشافعية ج١ ص٥٤٠ ص ٥٤١ ALPTEKIN: OP,CIT P . 18 0

(٣) الإسنوي : طبقات ج٢ ص٢١٥

(٤) ابن عساكر : مخطوط ج١٠ ص٤٣٣ - النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٢٠٣

(٥) الإسنوي : طبقات الشافعية ج٢ ص٢١٥

(٦) النعيمي : المصدر نفسه ج٢ ص١١٤

(٧) النعيمي :المصدر نفسه ج١ ص٢٠٤ - د. بيطار : مقال التعليم ص٢٥٢

فتحول بعض الطلبة لسماع العالي والنازل (١) ، وتتبع الأشياخ في الزوايا ، ونقل السماعات عنهم ، خاصة عمن حاز المكانة العالية وعظيم القدر ، والسماع ممن يشهد بامتلاك ناصية العلوم . فربما سمع الطالب من ثلاثة آلاف شيخ ، هذا غير مجالسة الحفاظ والسماع عنهم وتلقي الإجازات الكثيرة مع كثرة التدرب على ذلك الدرس . (٢)

وانقسم الطلبة إلى فريقين : المبتدؤون فعلى المدرس أن يقدم لهم الواضح والهين ، ولا يدخل بهم فيما لا قدرة لهم على فهمه ، فإذا تجاوزوا مرحلة المبتدىء إلى مرحلة المنتهي ، فلا يلقي عليهم الواضحات من العلوم بل يدخلهم في مشكلات الفقه ويدفعهم إلى خوض عبابه وتمرين الذهن وتمريسه على التحليل والتعليل ، وتم التأكيد على طالب العلم بالعودة إلى مصنفات أساتذته لطلب ما يحتاج إليه ، ليتكشف أمامه ما يجهله أو يريد معرفته . (٣)

وقد يجلس المدرس ودونه الطلبة ، يشرف على دروسهم ويصف ما يجد من صعوبة لكل فريق ، ثم يتابع استفساراته مع فئة أخرى باحثاً عن جوابه المرجو منهم ، فإن أصابوا أحسنوا ، وإلا تكلم المدرس في الإجابة الدامغة الشافية لتشوق الطلبة إلى قرارها . (٤)

وقدم الإمام الغزالي نصيحة قيمة للمدرس ، وهي أن لا يتبع مع الطلبة نمطاً من الرياضة الدرسية ، لأن حال المدرس كحال الطبيب في مرض المريض . (٥) وكان أبو الحكم عبيد الله الباهلي يدور في البيمارستان الكبير بدمشق ، يتفقد أحوال الطلبة ويتتبع أمورهم ، يقرىء التلاميذ ويشتغل معهم في مباحثهم والنظر متواصل إلى

---

(١) السماع العالي أو علو الإسناد : يراد منه القرب والبعد من الرسول عليه السلام، بإسناد نظيف ، غير ضعيف ، وكذلك القرب من إمام من أئمة الحديث وإن كثر العدد من ذلك الإمام ، إلى الرسول الكريم ، فإذا وجد ذلك في إسناد وصف بالعلو ، نظراً لقربه من ذلك الإمام ، وإن لم يكن عالياً بالنسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ـ السماع النازل : يجب فيه على الراوي أن يجتهد في معرفة جرح من يروي عنه ، وتعديله والاجتهاد في أحوال رواة النازل . وقيل السماع العالي أفضل من السماع النازل ، لأن السماع النازل يُبطل الرحلة ، وقد رحل العلماء قديما وحديثاً طلباً لعلو الإسناد . ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٣٩٨هـ/١٩٨٧م ج١ ص٥٠- ١٣٠

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج٢٠ ص١٣٧

(٣) الغزالي : أيها الولد ص٤١ ـ السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ص٨٤
ـ د. موسى باشا : مقال دور العلم ص١٠٤

(٤) ابن النديم :الفهرست مطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٨هـ ص٤١٥-٤١٦
ـ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص٤١٦

(٥) الغزالي : مكاشفة القلوب ص٢٢٩

الكتب مقدار ثلاث ساعات . (١)

ويأسف الغزالي على تراجع التعليم في أيامه قائلاً : " وقد عزّ مثل هذه الأمور في أيامنا " (٢) ورغم محاولة بعض المدرسين حمل الطلبة على درس العلم حباً بالعلم وعملاً فيه لا مماراة به . وتعمق بعض المدرسين في تطبيق التدريس العملي على مسائل تمثل أساليب من آلات رصد وأدوات هندسية ومصورات جغرافية . (٣)

ويراعى في توقيت الدوام مصلحة الطلبة في الحضور إلى الدرس بأوقات مبكرة أو متأخرة ، وهذا يمثل أبعد مدى وصلت إليه عدالة الدرس . (٤) وإذا قدم المدرس ودرّس قبل طلوع الشمس أو أخّره إلى ما بعد الظهر لا يستحق عليه معلوماً إذا خالف العرف المعتاد ، إلا أن يقتضيه شرط الواقف . ويستوجب البحث عما فيه مصلحة الطالب وتأمين الراحة النفسية له .

وانحصرت مواعيد الدروس في المدرسة بين طلوع الشمس وأذان العصر متوافقة مع الصلاة ، فإما أن تكون قبل الصلاة أو بعدها . ونظمت الحصص الدرسية لكل مادة مدرّسة مع مراعاة الظروف العامة للطلبة وما يتوافق مع استيعابهم للدراسة والتحضير . (٥)

وتفاوت عدد الطلبة في المدارس وفقاً لمكانة المدرسة ، فقد يصل عدد الطلبة في المدارس الذائعة الصيت إلى ستة آلاف طالب مثل المدرسة النظامية التي درس بها الحافظ ابن عساكر . وقد يصل عدد الطلبة في المدارس الأخرى ما بين الأربعمائة إلى ستين طالباً . والحق أن ألمعية العالم تجعل الطلبة يتدفقون إليه من كل حدب وصوب . وقد أدركوا مكانته العظيمة و تلك من خلال المجالس العلمية التي يشرف على عقدها ، والتي يصل عدد المتلقين فيها بالآلاف . (٦)

كان مؤرخنا الحافظ ابن عساكر قد درس سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦ م في بغداد مع أخيه الصائن ثم توجه لمواظبة المحاضرات في النظامية ، فأخذ الفقه الشافعي عن العالم أسعد الميهني سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢ م(٧) ومن ابن البرهان ، وتتلمذ في الفلسفة

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٦٢٨

(٢) الغزالي : مكاشفة القلوب ص٢٢٩-٢٣١

(٣) الديوه جي : التربية والتعليم في الإسلام ص٩٠-٩١

(٤) ابن جماعة : تذكرة السامع ص٤٤
- العلموي : المعيد في أدب المفيد والمستفيد ص٥٥

(٥) العلموي : المصدر نفسه ص٥٥ - كحالة : دراسات ص٥١

(٦) الديوه جي : المرجع السابق ص١٠٦-١٠٧

(٧) أسعد الميهني : (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م) الإمام الكبير النظار أبو الفتح صاحب التعليقة والطريقة الأسعدية برع في الفقه ،وفاق أقرانه في حدة الخاطر وقوة الاعتراض وجري اللسان ، قصد بغداد ودرّس بالمدرسة النظامية ، توفي بهمذان - النووي : مخطوط كتاب طبقات الشافعية رقم ١٢٢٨٤ ص٥١ و

على الشاذلي وغيره (ربما كانت مادة مقررة غير أساسية ، أو مادة غير مقررة بل تدرس اختياراً لمن يرغب) ، وواظب في المدرسة على محاضرات الفقيه سعد الخير أبو الحسن الأنصاري الحنبلي ، وصار من تلامذة البرمكي والتنوخي ، وأبو محمد الجوهري ، وحضر محاضرات الحديث لدى أبي سعيد إسماعيل بن أبي صالح الكرماني ، وابن الحسين أبو القاسم ، ثم عاد إلى دمشق سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠ م . (١)

وألزم الطلبة بالمواظبة على الدوام في المدارس ، ويقوم وكيل الناظر أو نائبه بإعلامه عن الطلبة المتغيبين ، فيقوم بمنع صرف المرتب المخصص لهم طيلة أيام الغياب ، ويرد ذلك المعلوم الفائض على الوقف (٢) .

وينبغي أن يقوم تحت تصرف المدرس نقيب فطنٌ، يرتب الحاضرين من الطلاب على قدر منازلهم ، ويأمر الجميع بسماع الدروس والإنصات ، ويرى البعض أن نقيب الطلبة هو من جملة الطلبة . (٣)

استدعى تنظيم المدارس في فترة الحكم البوري ، تهيئة الراحة النفسية للمدرسين والطلبة ، فلم يكن يُسمح للمدرسين في أيام المطر والبرد الشديد ، ممارسة التدريس ، واعتبر يوم الجمعة يوم عطلة رسمية . وتراوحت أيام الدراسة بين ثلاثة أيام وخمسة من كل أسبوع ، حسب شروط الواقف .

وتبدأ العطل الرسمية عادة من شهر شعبان ورمضان ، وعشر من شوال ، وأيام الأعياد والتشريق ، وأيام تاسوعاء وعاشوراء من كل سنة . (٤) وقد تكون عطلة أيام الأعياد في عيد الفطر قبل العيد بيومين أو ثلاثة ، فيسمح بعيد الفطر بثلاثة أيام ، وعطلة عيد الأضحى بخمسة أيام ، يوم قبل النحر وثلاثة أيام النحر ، واليوم الرابع وهو آخر أيام التشريق ، ثم يعود الطلبة والمدرسون إلى مدارسهم . (٥)

وألحّ على الطالب أن يحمل معه إلى مكان الدراسة محبرة ، حتى يتسنى له أن يكتب ما وقع على سمعه من فوائد جليلة ، فقد قيل : " ما حفظ فرّ وما كتب قرّ " ولا بد من الحفظ والمواظبة بجدية . وليس له أن يتكبر على العلم وأهله ، ولا يتأمّر

==

(١) ابن النجار : المستفاد من ذيل بغداد ص٣٣٢-٣٣٣

ـ سعيد نفيس : مقال المدرسة النظامية ص٥٧

ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM : ART IBN ASAKIR P.3 P.714

(٢) الهيتمي : تحرير المقال ص٧٥

(٣) ابن جماعة : تذكرة السامع ص٤١ ـ د٠ بيطار : التعليم ص٢٥١

(٤) القابسي : تعليم ص٢٩٠ ـ ابن سحنون : آداب المتعلمين ص٩٧

(٥) ابن سحنون : المصدر نفسه ص٩٧ ـ القابسي: تعليم ص١٦٢-٢٩٠

على المدرّس ، بل يلقي إليه بزمام الأمور ويذعن لنصحه ، ويتّبع مراسمه . (١)

ولا شك أن من أبرز سمات الإمارة البورية في دمشق بناء المدارس ، التي تقوم على خدمة الطلبة ، وتأمين الراحة لهم ، حيث وُضعَت في أماكن المنتزهات ، يطل الطالب من شبابيك المدرسة ، فينظر إلى الماء والخضرة ، فتنبعث في نفسه روح العمل المتواصل ، والتعلق بالدرس . وكانت المدرسة الخاتونية تمثل أكمل صورة لكل ما وصفناه . (٢)

أطلق البعض على الطلبة اسم فقهاء المدارس ، الذين يتفقهون في العلوم ، ويتعمقون في المعارف . وأطلق على الطلبة اسم القارئون ، السامعون ، المريدون ، التلاميذ ، ولم يكن يشترط سن معينة لقبول الطالب مع تأكيد بعض الواقفين على المدارس أن يتمتع الطالب بالفطنة والذكاء (. ٣)

أما على صعيد العلوم ، فيجب على الطالب أن لا يخوض في فنون العلم دفعة واحدة ، بل يراعي ترتيب العلوم ، فيبدأ بالأهم فالمهم ، وأن يقدم العلوم الأشرف بعضها على بعض ، كعلوم الدين ، ثم علوم الطب والرياضة والهندسة وهكذا ، وأن لا يدع فناً من فنون العلم ونوعاً من أنواعه ، إلا ويأخذ بأهدابه . وعلى الطالب أن يأخذ العلم من الكتب ، حتى لو وثق بنفسه ، فلا بدّ له من الاعتماد على العلماء والأساتذة في كل علم يطلب اكتسابه ، والاكتساب عن الأستاذ ضرورة ، ولو كان ناقصاً فعليه أن يجد من هو أكمل منه . وبكثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها . (٤)

ولابد للطالب المبتدىء أن يتفكر ويباحث الأقران ، ويتعلم ويستفيد ، فلا بد له من قراءة التواريخ حتى يطّلع على السير وتجارب الأمم ، فيصير بذلك كأنه في عمره القصير ، قد أدرك الأمم السابقة . وليتدارك الطالب نفسه ويُعدّها لتصل إلى درجة من الاقتدار ، ليغدو من أصحاب القوة والحفظ ، ولابد له أن يكرر ما قرأه في الأمس خمس مرات ، وما قرأه قبل يوم الأمس أربع مرات ، واليوم الأسبق ثلاث مرات

---

(١) الغزالي : ميزان العمل ص١١٠-١١١ ـ القنوجي : أبجد العلوم ج١ ص١٣٢

(٢) البدري : نزهة الأنام ص٤١

(٣) السبكي : معيد النعم ص٨٣ ـ د. بيطار : مقال التعليم ص٢٥٤

(٤) الغزالي : إحياء علوم الدين ج١ ص٤٦-٤٧ ، ميزان العمل ص١١٢-١١٨ -١١٩، ميزان الاعتدال ص١١٩-١٢٠ ـ ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٩١

فمرتين فمرة ، كل ذلك أدعى للحفظ وأصوب لطريق الجد والمواظبة على قراءة القرآن ، لأنه أزيد للحفظ وأوثق . (١)

ولا يصل الطالب إلى مرتبة عالية ، إلا بعد أن يحصل على الإجازة العلمية من أستاذه المشرف ، سواء بالتدريس والإلقاء أو الإفتاء ، أو عراضة الكتب ، حيث يخضع لجملة من الأسئلة في كتاب معين ، في الفقه أو الحديث الشريف أو غيره من العلوم ، أمام ملأ من الناس ، فتتم المناقشة علنية ، فإن أحسن الطالب الإجابة ، طرح الأستاذ الإجازة عليه وكتبها بتوقيعه . (٢)

سمع كثير من الطلبة بالإفادة من العلماء أو الأقارب الثقات ، فهذا أبو الفضائل ابن أبي علي الكلابي المؤدب الماسح ، سمع بإفادة أخيه لأمه علي بن الخضر القرشي العثماني (ت ٥١٧هـ / ١١٢٣م) . (٣) وكذلك سمع الحافظ ابن عساكر (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م) بإفادة أخيه الأكبر سنة ٥٠٥هـ/١١١١ م ، من أبي الحسن الموازيني ، وأبي الوحش سبيع بن قيراط . (٤)

وهكذا يمكن للطالب أن يمتثل للدرس بالإفادة على أكثر من أستاذ وعالم ، ويقع عليه بعد ذلك أن يفيد العديد من الطلبة الذين هم أدنى منه قليلاً . وكان يحيى بن سعدون ابن تمام الأزدي (ت٥٦٧ هـ/ ١١٧٢ م) من أهل قرطبة ، أقام للإفادة بالموصل ودمشق وغيرها .(٥) وحرص على الإفادة أيضاً جملة من الطلبة أمثال جمال الأئمة ابن المانح ، (٦) ومحمد بن حمزة بن أبي الصقر أبو عبد الله القرشي (ت٥٨٠هـ/١١٨٤ م) . (٧)

==

(١) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٩١ - الزرنوجي : تعليم المتعلم ص٦٦
(٢) المقري : نفح الطيب ج٢ ص٣٦٣ - د. بيطار : مقال التعليم ص٢٤٥
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٤ ص٤٢٩-٤٣٠
(٤) ابن النجار : المصدر نفسه ص٣٣٢
(٥) اليماني(عبد الباقي عبد المجيد) : إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين تحقيق عبد المجيد دياب طبع مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ط١ ١٩٨٦ م ص٢٨٠
(٦) النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٢٠٤
(٧) ابن الدبيثي : المصدر نفسه ج١ ص٤٢
- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٤ ص٢٦٨

أما الفقيه الذي وصل رتبة المنتهي ، فعليه من البحث والمناظرة فوق ما دونه من الطلبة ، يتناول علوماً أكثر منهم لزيادة علمه . (١) ولا شك أن للرحلة على الطالب أبعد الأثر لما يرافقها من ثمرة الديمومة ، التي يتلقاها الطالب أينما حل من أفواه الفقهاء المستوثقين ، شعلة النور والضياء له ليشق طريقه العلمي ويسير على المنهج الذي اعتمدوه وساروا عليه في التحصيل .

بدأت الرحلة أول أمرها التركيز على علوم الحديث ومعرفة المحدثين ، (٢) ثم سلكت طريقها وسرى مفعولها إلى باقي العلوم ، فلقيت اهتماماً كبيراً واندفع الناس في طلبها . وتم تحديد أماكن الرحلة ، بالمواقع العامرة بالعلماء . والواجب على الطالب أن يهتم بكثرة المادة العلمية المجموعة لديه ، ثم بكثرة المسموع كما عليه أن يعتني بالمذاكرة والتحقق والتعمق في العلم ، (٣)

وصارت الرحلة ركناً ثابتاً من أركان الحياة العلمية ، حيث يتنقل طلاب العلم من مكان إلى آخر ، يحصلون فيه على الإجازات العلمية من كبار المشايخ والعلماء ، فإذا بلغوا مرحلة النضج الفكري تحولوا إلى إسماع الطلبة ، وكان هدف الرحلة تحقيق أداء الفريضة ومن ثم الالتقاء بالعلماء الكبار والاستفادة من معارفهم وكسب الوقت لسماع الحديث والفقه والعلوم الأخرى من أفواه الفقهاء بصورة مباشرة فيجتمع بذلك لدى الطالب السماع الكثير .

يأخذ الطلبة غالباً معارفهم العلمية تارة باللقاء والمحاكاة والتلقين المباشر وتارة أخرى بالتعلم ، إلا أن حصول الملكات لا يكون أشد استحكاماً إلا بالحصول على المعارف العلمية ورسوخها ، وحتى تكتمل الملكات لابد من المباشرة والتلقين حتى تكتمل معلوماته بالاكتساب والفوائد عبر مباشرة العلماء ولقاء الرجال ، لذلك يسعى الطالب إلى الرحلة لينتهي من جمع مادته الكافية والموثقة ، ثم يعود إلى بلاده مستوثقاً بما حصل عليه . (٤)

وقد مثل هؤلاء الطلبة الإمام الغزالي ، والحافظ ابن عساكر. وقد شدّ الإمام الغزالي رحاله إلى الحجاز حاجاً ، ثم رجع إلى دمشق وتابع رحلته العلمية ، وكان قد

==

(١) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ص٨٥

(٢) البغدادي : الرحلة في طلب الحديث تحقيق د. نور الدين العتر ط١ بيروت ١٩٧٥م ص ١٧

(٣) البغدادي : الرحلة في طلب الحديث ص٢٩-٣٠

- القنوجي : أبجد العلوم ج١ ص١٣٢

(٤) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص٣٣٦ - GILBERT : OP,CIT P.17

حثّ نفسه على مراجعة العلوم ، والخوض في الفنون الدقيقة ، والجري وراء أرباب العلم . (١)

بدأت رحلة ابن عساكر مع بلوغه سن العشرين من عمره ، حين سمحت له والدته بالسفر إلى بغداد ، وكانت الرحلة الأولى ، فأقام ببغداد خمسة أعوام ، ثم حج إلى مكة والمدينة سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ، وأتبعها بأصبهان ونيسابور ومرو وهراة (٢) وتبريز وهمذان والموصل ، فكانت أطول رحلاته ، وبلغ عدد شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ وثمانون امرأة . (٣) ثم خرج برحلته الثانية عام ٥٢٩هـ/١١٣٤ م ، وتابع إلى بسطام ، فسمع بها وبدامغان (٤) والري (٥) وسِمْنَانْ (٦) ، ثم عاد إلى دمشق سنة ٥٣٣هـ/١١٣٤ م وقيل أنه في هذه الرحلة رحل إلى ٣٤ مدينة ، وجمع ما لم يجمعه غيره . (٧)

وكان الأستاذ أبو الحسن بن قبيس لما عزم ابن عساكر على الرحلة قال له : إني لأرجو أن يحيي الله تعالى بك هذا الشأن فكان كما قال ، وتوقف ابن عساكر في رحلته الثانية في بغداد سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨ م ، وسمع من شيوخها وحدث وواظب على حضور الدروس في النظامية ، (٨) وكانت بغداد تمثل في مطلع القرن السادس الهجري ، أعظم المراكز العلمية ، خاصة علوم الفقه والحديث والتاريخ والأدب واللغة . ثم عاد إلى دمشق ليبدأ معه العطاء العلمي الغزير الذي لم ينقطع طيلة حياته . (٩)

==

(١) الإسنوي : طبقات الشافعية ج٢ ص٢٤٢
- الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٣٢٣-٣٣٣
(٢) مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان . ياقوت الحموي معجم البلدان ج٥ ص٣٩٦
(٣) ابن النجار :المصدر نفسه ص٣٣٢-٣٣٣
- النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص١٠٠-١٠١ - بشار عواد معروف : مقال ابن عساكر في بغداد ص٤٥
(٤) بلد كبير بين الري ونيسابور ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٢ ص٤٣٣
(٥) مدينة مشهورة وهي محط الحاج ، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً . ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٣ ص١١٦
(٦) بلدة بين الري ودامغان . ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٣ ص٢٥١
(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٤ ص١٠٢ ، مطبوع ج٣٩ ص٤١٤-٤١٥
- النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص١٠٠-١٠١
(٨) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ج٣ ص٢١٧
(٩) بشار عواد : مقال ابن عساكر ص٤١-٤٣-٤٧
- خالد معاذ : مقال دمشق أيام ابن عساكر ص١٣٣

لما كان الطلب على الرحلة حثيثاً من أجل الأسانيد والسماع ، فإن ابن عساكر قد حقق هذا المقصد ، وسار على نفس طريقه علماء آخرون بدأوا السعي وراء هذا الهدف ، فخرج عبد الله بن أحمد بن أبي الأشعث أبو محمد بن أبي بكر السمرقندي (ت٥١٦ هـ/ ١١٢٢ م) إلى دمشق في طلب الحديث وسماعه ، ثم خرج إلى بغداد واستوطنها ، ورحل إلى خراسان ونيسابور وبلخ والبصرة وغيرها من البلدان وأكثر من السماع . (١)

وكان نصر الله المصيصي قد قطن دمشق وسمع في بغداد ونيسابور والأنبار(٢) وأصبهان ، (٣) ورحل عبد الخالق بن أسد بن ثابت أبو محمد الفقيه الحنفي (ت٥٦٣ هـ/١١٦٧ م) في طلب الحديث والفقه ، وسمع في بغداد . (٤)

وتابع أبو طاهر السِلفي (ت٥٧٦هـ/١١٨٠ م) رحلته فوصل إلى الحرمين الشريفين وسمع بهما وبغيرهما مستغلاً موسم الحج . (٥) وخرج عبد الكريم السمعاني لسماع الحديث ، وزار بلاداً عديدة ثم حج وتابع رحلته ، سمع بمرو ودخل إلى نيسابور وسمع من الفقيه نصر الله المصيصي وسمع بمكة والكوفة والبصرة وواسط وحلب وهراه وبلخ (٦) .

ووفد إلى دمشق طلباً وبحثا عن السماع ، أبو الفتيان الدهستاني الرواسي عمر بن عبد الكريم الحافظ الرحال (ت٥٠٣هـ/١١٠٩ م) رحل إلى خراسان والعراق والحجاز والشام ومصر والسواحل . (٧) وقدم إلى دمشق في رحلته محمد بن علي بن عبد الله ابن ياسر الأنصاري (ت٥٦٧هـ/١١٦٧ م) من أهل جيّان . دخل إلى بلاد مصر والشام ورحل إلى خراسان وما وراء النهر ، وتوجه إلى مكة وحج ثم انصرف إلى الشام وسمع بدمشق قبل عام ٥٢٠هـ/١١٢٥ م، ورحل مع ابن عساكر إلى بغداد . (٨)

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٨ ص١٠١٩
- الذهبي : العبرفي خبر من غبر ج٤ ص٣٧
(٢) مدينة قرب بلخ بخراسان . ياقوت الحموي : معجم البلدان ج١ ص٢٥٧
(٣) الإسنوي : طبقات الشافعية ج٢ ص٣٤١-٤٣٢
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٤٠ ص٥٥-٥٦
(٥) الذهبي : العبر في خبر من غبر ج٤ ص٢٢٧-٢٢٨
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٤٣٣
- ابن خانكان : وفيات الأعيان ج٣ ص٢٠٩
(٧) الصفدي : الوافي بالوفيات ج٢٢ ص٥١٧
(٨) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٦ ص١٥٣-١٥٤
- المقري : نفح الطيب ج٢ ص١٥٧

ومن الذين وفدوا على دمشق طلبا للرحلة محمد بن عبد الرحمن القيسي الغرناطي الأندلسي (ت٥٦٥هـ/١١٦٩ م) . وكان رحل إلى الاسكندرية وسمع بها ، ثم عاد إلى دمشق ورحل إلى العراق وسمع بها ، ودخل خراسان وأقام بها مدة. بعد ذلك رجع إلى الشام ونزل حلب وأقام بها مدة ثم قفل إلى دمشق وصار من أبرز المحدثين بها . (١)

ومحمد بن عبد الله أبو بكر العربي أتى دمشق في رحلة طلبا للعلم ، رحل مع أبيه إلى المشرق ودخل إلى الشام يتفقه على العلماء والمحدثين . (٢) ورحل إلى دمشق أبو الحسن الأندلسي المرادي علي بن سليمان ودخل بغداد وخراسان وسكن نيسابور (٣) .

وطاف في طلب العلم محمد بن طاهر بن علي أبو الفضل المقدسي الحافظ (ت٥٠٧هـ/١١١٣ م) المعروف بابن القيسراني رحل في طلب الحديث وسمع بالشام ومصر والعراق وخراسان والجبل وفارس واستوطن همذان . (٤) ووصل في رحلته إلى دمشق أبو نزار النحوي ملك النحاة (ت٥٦٨هـ/١١٢٧ م) تحرك في رحلته إلى خراسان وكرمان (٥) وغزنة (٦) ورحل إلى الشام واستوطن دمشق . (٧)

وقدم إلى دمشق أيضا الحسن بن سعيد بن عبد الله بن بندار الشاتاني الدياربكري(٨) العالم الفقيه الأديب رحل إلى بغداد والشام والموصل وسمع الحديث والأدب في بغداد .(٩)

ومن خلال سرد أبواب الرحلة التي طرقها الطلبة يتبين لنا أن معظم الطلبة الرحالة كان مستودع قرارهم بغداد ، حيث النظامية التي لا يخفى على طالب أو دارس أن يلهث وراء علمائها أمثال أسعد الميهني ، وابن السمرقندي للإفادة وقنص

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٦٠٩
- المقري : نفح الطيب ج٢ ص٢٣٥-٢٣٦
(٢) السيوطي : طبقات ص٣٤
(٣) الإسنوي : طبقات الشافعية ج٢ ص٤٣٣
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٤٨١
(٥) ولاية مشهورة ومعمورة بين فارس و مكران و سجستان وخراسان . ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٤ ص٤٥٤
(٦) مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان . ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٤ ص٢٠١
(٧) ابن العديم : بغية الطلب ج٥ ص٢٣٩٠
(٨) هي ماغرّب من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة . ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٢ ص٤٤٩
(٩) ابن العديم : بغية الطلب ج٥ ص٢٣٥١

ما يتسنى للطالب من سماعات يغذي بها ما يحصل عليه من إجازات يرفدها لتكون تقييماً لشخصه العلمي أينما حلّ ، وميزة خاصة يعرف بها أينما استقر .

فالغاية من الرحلة أولاً وأخيراً الجري وراء من لديه فقاهة واسعة ، وسعة علمية سامية ، فالإمام الغزالي كانت تشدّ إليه الرحال عندما درّس في النظامية والغزالية والقدس والإسكندرية وطوس وغيرها من البلاد التي تحول لزيارتها ، فاندفع الطلبة وراءه للإفادة من علمه الواسع . (١)

ويلاحظ مما سبق أن الفترة المطروحة للبحث شهدت علواً وازدهاراً في المستوى العلمي في المدارس ، وكان هناك تقابل في مستوى المدرسين إلى عدد الطلبة المتلقين لصنوف العلوم . (٢) وأسهم تقسيم الطلبة إلى حلقات أو زمر بإشراف الأساتذة ، إلى تسهيل مهمة الدراسة على الطالب ، ورفع مستوى الهمة العلمية ورقيّ المعهد العلمي ، فغالباً ما حصر المدرس نفسه بعشرة طلاب ، فأعطاه هذا فرصته للتعامل مع الطلبة ، وغربلتهم ، وخلق نوعية أبعد ما تكون عن الجمود ، وأقرب ما تكون إلى الحافظة الحاضرة والفكر الثاقب .

==

(١) الإسنوي : طبقات الشافعية ج٢ ص٢٤٢-٢٤٤

(٢) معروف : نشأة المدارس المستقلة في الإسلام مطبعة الأزهر بغداد ١٣٨٥ هـ/١٩٦٦م ص٢٦-٢٧

الفصل الثالث :

التصوف فــي فتــرة الحكــم البـــــوري

الفصل الثالث :

- التصوف فـي فتـرة الحكـم البـــــوري :

مدخل :

التصوف هو تجرد القلب لله تعالى والتوجه له وحده ، واستحقا ر كل شيء والعودة إلى عمل القلب والجوارح لما يرضي الله ، (١) وقيل بل هو تصفية الروح وتطهير القلب من الوهم والخيال وهو من أجلّ العلوم قدرًا وأعظمها محلاً وأسناها شمسًا وبراً لأنه " لباب الشريعة ومنهاج الطريقة ، ومنه تشرق أنوار الحقيقة ، (٢) ويفترض في الصوفي تلاوة القرآن وتفهم معانيه .

وقيل إن أصل كلمة التصوف من (ص و ف) أو(ص ف و) فنسبوها إلى الصوف. (٣) ونسبها بعضهم إلى الصفة ، أي أنهم منسوبون إلى صفة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذي ينسب إليه فقراء الصحابة ، ومن قال إنه مشتق من الصفاء فهو بعيد في مقتضى اللغة . ومن قال إنه مشتق من الصف فكأنهم في الصف الأول من حيث المحاضرة مع الله تعالى فالمعنى صحيح في ذلك . وبالرغم من كل ذلك فإن هذه الفئة أشهر من أن يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ أو استحقاق اشتقاق .

تعرض هذه الفئة عن الدنيا وتشتغل بالعبادة ، وتعتمد كل خلق سني وتبتعد عن كل خلق دنيء .

==

(١) الغزالي : إحياء علوم الدين ج٢ ص٢٥٠

(٢) ابن عجيبة(أحمد بن محمد) : إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عطاء السكندري مع الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية لابن بنا السرقسطي طبع دار الفكر ص٢ - القنوجي : أبجد العلوم ج١ ص٢٥٥

(٣) القشيري : الرسالة القشيرية ص١٢٦ - الذهبي : التفسير والمفسرون ج٣ ص٣ - عفيفي(أبو العلا): التصوف الثورة الروحية في الإسلام دار المعارف ط١ ١٩٦٣م ص٢٩-٨٥-١١٧

أطل التصوف على الناس منذ أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل القرن الثالث لما جنح الناس إلى مخالطة الدينا فاختص المقبلون على العبادة باسم المتصوفة .

ولما جاء القرن الخامس الهجري وتبعه القرن السادس بلغ التصوف الذروة الفلسفية وحمل معه رجالا حازوا المكانة الكبيرة في التصوف ،يغرسون في نفوس الناس قواعد الإيمان ورغم قوة ذلك إلا أن البعض التفت لاستغلال طريقة أهل التصوف ، فكانت جهود العلماء الذين جعلوا جلّ عملهم الرجوع به إلى أصوله ، وإخضاعه كما كان في مراحله الأولى إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة .

وتابع الغزالي حديثه عن التصوف ، وأوضح وجهة نظره في حجاب القلب عن الملكوت وأن ارتفاع الحجاب يكون بالتقوى ، ومن ارتفع الحجاب بينه وبين قلبه تجلّى في قلبه صورة الملك والملكوت ، فيرى جنة عرضها السموات والأرض بل أكثر سعة . أما عالم الملكوت فهو معرفة الحقائق والأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بإدراك البصر فلا نهاية له ، ويسمى عالم الملك والملكوت الحضرة الربوبية ، لأن الحضرة محيطة بكل الموجودات فليس في الوجود شيء سوى الله ، وإن مراد الطاعات وإعمال الجوارح تصفية القلب وتزكيته ومراد تزكيته حصول أنوار المعارف فيه . (١)

وهكذا نلاحظ من خلال ما ورد أن أفكار الإمام الغزالي في قضية الحجاب (حجاب النفس) يتشابه مع أفكار الشيخ أرسلان كثيرا ، وهذا يعني أن الغزالي بدأ في السلوك ثم تبعه في نفس الطريقة الشيخ أرسلان ، وسنرى تفصيل ذلك فيما بعد .

يقوم التصوف في الإسلام على ثلاث خصال " التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار ، واسترسال النفس مع الله تعالى على ما يريد " (٢) ولا بد فيه من الاستقامة والسكون عن الخلق ، فمن استقام وأحسن خلقه بالناس وعاملهم بالحلم فهو صوفي . والاستقامة أن يحمي الإنسان ذاته

==

(١) الإمام الغزالي : معارج القدس في مدارج معرفة النفس مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر طبع محي الدين صبري الكردي ط١ ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م ص١٠٣- ص١٠٤-١٠٥

(٢) الطوسي: اللمع في التصوف طبع بريل مدينة ليدن ١٩١٤م ص٣ القشيري : رسالة ص١٢٧ - ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (عبادة بن أوفى) ص٣٥٩ - ابن عجيبة : إيقاظ الهمم ص٤ - اليافعي (عبد الله بن أسعد) : نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية الملقب كفاية المعتقد ونكاية المتقد تحقيق إبراهيم عطوة عوض مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ط١ ١٣٨١هـ/١٩١٦م ص٣٩٦

عن ميولها وشهواتها، وأن لا يحمّل الناس على مراد نفسه ، ويحمل نفسه مراده بما لا يخالف الشرع .

حصل الصوفية على ألقاب منها ، لقب الفقراء . ولا يأتي هذا اللقب إلا بوسائل وسلوك التقرب إلى الله تعالى عبر طريق الأدب والتربية وصحبة العارفين الموصلين إلى رب العالمين ، لأن التأدب بآدابهم والتخلق بأخلاقهم يشكل سلما يربط العبد بربه جلّ وعلا . (١)

ينحصر طريق التصوف بالزهد والتوكل ، والزهد من أهم المقامات وأساس الأحوال الرفيعة والمراتب السنية ، وهو أول قدم القاصدين إلى الله تعالى ، والمنقطعين والراضين والمتوكلين فمن لم يحكم أساسه في الزهد لم يصح له شيء مما بعده ، فالزهد رأس كل خير . وقيل في التوكل أيضا هو طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية ، فهو اعتماد القلب على الله تعالى في جميع الأحوال . (٢)

ولا يأتي التصوف من العلم والدراسة بل لا بد من سلوك طريق المجاهدة بالذوق والحال ، والإقبال بكل الهمة على الله تعالى بالنية والإرادة الصادقة والزهد في الدنيا ، والعزوف عن الأهواء ، فالصوفي يبحث عن الحقيقة الوجودية في ذاتها ، ويعرف صلته بها لأنه في قلبه يحمل شعاعا من نورها .

والمفترض في الصوفي حتى يصبح صوفيا التمسك بعلم الشريعة ، وترك الشهرة في اللباس وإظهار التجمل واستشعار التوكل ، واختيار الفقر ودوام الذكر وكتمان المحبة ودوام دراسة القرآن (٣) وتهيئة النفس وتصفيتها ، ومع هذا فلا بد لسالك هذا الطريق أن يمر بثلاثة مقامات أساسية وهي ، مقام الطالب ، ومقام السالك ومقام المريد ، " ومن علامات صدق المريد انقطاعه عن الخلق " وفراره عنهم والتوجه للحق . (٤)

---

(١) الغزالي : أيها الولد ص٣٩ - النعيمي : دور القرآن في دمشق تحقيق صلاح الدين المنجد ط٢ بيروت ١٩٧٣م ص٥٠
- ابن عجيبة : إيقاظ الهمم ص٣-٧

(٢) الطوسي : اللمع في التصوف ص٤٦-٥٢-٥٣
- د. زكي مبارك : التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ط١ مطبعة الرسالة ١٣٥٧ هـ/١٩٣٨م ج٢ ص١٥٦

(٣) الإمام الغزالي : القواعد العشرة من خلال كتاب المنقذ من الضلال تعليق محمد محمد جابر ، المكتبة الثقافية ، بيروت لبنان ص١١٤-١١٥-١١٦

(٤) ابن الملقن : طبقات الأولياء ، تحقيق نور الدين شريبة ،دار المعرفة ، بيروت طبعة٢ ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ص٤٣٨

لا شك أن تحول المتصوف إلى طريق الله تعالى عمل شاق ، لخروجه من عالم الملذات إلى العالم الروحي ، حيث يمر باضطرابات نفسية حادة هي أعنف الحالات وجدانية يصحبها الشوق نحو الله تعالى وحساسية دينية عميقة . وقد مر الإمام الغزالي بتلك الحالة المرضية التي رمته في الحيرة والاضطراب والتفكر بين عالمين قبل أن يستقر به تفكيره إلى الطريق الصوفي ، وإلى البعد عن شهوات الدنيا إلى العمل والمرض الذي أقعده وأصابه بعقدة اللسان حتى استقرت نفسه إلى الصوفية ورياضتها ، (١)

كانت مكانة الحركة الصوفية قوية جدا في دمشق في فترة الحكم البوري ، فتميز أهل الشام بإطلاق كلمة الفقراء على المتصوفة مستندين إلى ذلك ما أطلقه الله تعالى في تسميته الفقراء على المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم في مكة . فالفقر مقام شريف لأنه شعار الصالحين ودأب المتقين . (٢)

وتحدث ابن جبير حين زار دمشق واصفا ما رآه من أحوال الصوفية فقال : " هذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أسباب المعاش وأسكنهم في قصور " هي أشبه بقصور الجنان " فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم – بفضل الله تعالى – نعيم الدنيا والآخرة " . وهم مستمرون على الطريقة الشريفة وحسن المعاشرة والالتزام ومجمل أحوالهم بديعة يرجون عيشا طيبا هنيئا . وأقيمت لخدمتهم الربط والخانقاوات " وهي قصور مزخرفة على أحسن منظر يبصر " . (٣)

تقرب أمراء البلاد بصورة عامة من هذه الطائفة وأوقفوا عليهم الأوقاف واختص هؤلاء الصوفية في دمشق بمقبرة خاصة بهم تعرف بمقبرة الصوفية ، وقد دفن فيها من المتصوفة الحسن المهدي الصوفي المتوفى سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م (٤) ودفن بها أيضا صالح بن اسماعيل بن محمد أبو الخير الكاني الخوارزمي . (٥)

سلك أهل الطريقة في منهجهم مبدأ تعذيب النفس لتهذيب الروح ،حتى تتضح طهارة النفس وأنافتها ، بعد تأديب الجوارح وترك الشهوات . وتخرج رياضة النفس " بالقوت من الطعام ، والغمض من المنام ، والحاجة من الكلام ، وحمل الأذى من

==

(١) الغزالي : المنقذ من الضلال ص٩٧-٩٨ ، ميزان العمل ص٣٩-٤٠
(٢) الطوسي : اللمع في التصوف ص٢٦-٤٨
(٣) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٩٩
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٤ ص٦٤٤-٦٤٥
- الإسنوي : طبقات الشافعية ج١ ص٢٣٤
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٤ ص١٧٨-١٧٩

جميع الأنام " . (١) ومن سيطرت عليه نفسه صار محصورا في حب شهواتها ،وحتى يتخلص الإنسان من هذه الآفات يمكنه أن يتخذ صديقا قويما متدينا ينصبه على نفسه ، يلاحظ أحواله وأفعاله ، فيذكره عيوبه لأن المؤمن مرآة المؤمن " ، " فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ، ويعلم أن الطباع متقاربة في أتباع الهوى " (٢)

وتعبد بعض العلماء الصوفية في أماكن خاصة داخل المساجد ، فقد استقر الشيخ أرسلان الدمشقي داخل مسجد صغير في باب توما يعرف بمقام الشيخ رسلان (٣) . وانفرد الصوفي أبو البيان نبأ بن محفوظ القرشي الشافعي الدمشقي ابن الحوراني في المسجد الذي في رأس درب الحجر في آخر السوق الكبير قريبا من الباب الشرقي وقيل إن مسجده يقع إلى جوار مسجد الشيخ رسلان . (٤)

لا بد لنا من الإشارة إلى أبرز العلماء المتصوفة الذين أثروا في الحياة الصوفية وتركوا بصمات واضحة منهم ، الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي الفقيه الشافعي الزاهد من أرض نابلس ، سكن بيت المقدس ودرّس بها وتفقه بصور ثم قدم دمشق سنة٤٨٠هـ/١٠٨٧م وأقام بها عشر سنين يحدث ويدرس إلى أن مات .تميز بالفقه والزهد وكان لا يقبل من أحد صلة يقتات من غلة تحمل إليه من أرض نابلس فيخبز له منها كل ليلة قرص في جانب الكانون .

اعتمد على الزهد في حياته وترك الشهوات وتنزه عن الدنيا وسار على طريق أهل السلف الصالح معتمدا على التقشف وتجنب السلاطين . ذكر أن السلطان تاج الدولة تتش زاره يوما فلم يقم له ، وسأله عن أحلّ الأموال التي يتصرف فيها السلطان فقال الفقيه أحلها أموال الجزية ، فخرج من عنده وأرسل إليه مبلغا من المال ، وقال هذا من مال الجزية فرفضه لنفسه وطلب منه أن يوزعه على أصحابه ، فقال لا حاجة لنا إليه فغادر الرسول بالمال فتحرك الشيخ نصر الله المصيصي أحد تلامذته وقال له قد علمت مدى حاجتنا إليهم فلو كنت قبلته وفرقته بنا فقال له ، لا تجزع من

==

(١) الغزالي : مكاشفة القلوب ص٢٣١

(٢) الغزالي :مكاشفة القلوب ص١٧-٢٢٩-٢٣٠

(٣) الذهبي :سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٣٧٩-٣٨٠

- الحصني : المرجع السابق ج٢ ص٤٧٣

(٤) ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج١ ص٣٣٣-٣٣٤

- الإسنوي : طبقات الشافعية ج١ ص٢٣٤ - اليافعي :مرآة الجنان ج٣ ص٢٩٨

فوته فسوف يأتيك من الدنيا ما يكفيك ، فكان من تفرس الشيخ ما حصل . وقد قيل عن الشيخ نصر أنه لو كان من السلف لم تقصر درجته عن واحد منهم ، لكنهم فاتوه بالسبق .

استغرق الشيخ نصر المقدسي أوقاته بنشر العلم وعمل الخير ولما توفي سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م ، خرجت جنازته بعد الظهر إلى قريب المغرب ولم يكن لجنازته مثيل في دمشق ، وأقام الناس على قبره سبع ليال يقرأون كل ليلة عشرين ختمة ، كان قبره في الباب الصغير . (١)

ومن الزهاد الورعين الفقيه برهان الدين علي البلخي الحنفي (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م) وهو عالم موصوف بالهيبة والوقار ، كان مجردا لا يملك شيئا من متاع الدنيا ، وإذا بلغه ما يكرهه من أمر حمل سجادته على كتفه وغادر قائلا " إيش على قلب علي " ومدرسته داخل الصادرية . ومما يؤكد صدق هذا العالم في طريقته أنه كان يخاطب السلطان نور الدين باسمه محمود ولا يجد في ذلك حرجا .

وقيل لنور الدين مرة قل له أن يخاطبك باسمك فقال نور الدين إن البلخي إذا قال يا محمود قامت كل شعرة في جسدي هيبة له ورقّ قلبي . أما إذا خاطبني القطب النيسابوري الشافعي وقال لي يا محمود يقسو قلبي ويضيق صدري ولو كان صادقاً كالبلخي لأثّر في قلبي . ويؤكد هذا أن القطب كان عريقا في متاع الدنيا بينما البلخي كان مجردا عن متاع الدنيا توفي ودفن في مقابر باب الصغير المجاورة لقبور الشهداء . (٢)

ومن العلماء الصوفية الوافدين من المشرق إلى دمشق الشيخ سليمان بن ناصر بن عمران بن محمد أبو القاسم الأنصاري النيسابوري كان إماما في علم الكلام والتفسير وأحد النبلاء من تلامذة إمام الحرمين الجويني (٣) ، له كتاب الغيبة ،

---

(١) مؤلف مجهول : طبقات الشافعية رقم٥٥١٦ ص٧٠ و - السخاوي : طبقات الأولياء ص٧٠ ظ – ٧١ ظ - الحسيني : طبقات ص١٨١-١٨٢

(٢) السخاوي : طبقات الأولياء مخطوط رقم ١٢٢٨٤ ص٥٦ و

(٣) ضياء الدين أبو المعالي ، عبد الملك إمام الحرمين ، ولد سنة تسع عشرة وأربعمائة ، وهو من أئمة خراسان دَرَس الفقه والأصول ، ورحل إلى بغداد والحجاز وجاور بمكة ، ثم ذاع اسمه مع تواضعه الشديد ، توفي في إحدى قرى نيسابور سنة ثمان وسبعين وأربعمائة .الإسنوي: طبقات الشافعية ج١ ص١٩٧-١٩٨

تميز بالزهد والورع التصوف من أهل الصلاح والتقوى صحب الشيخ أبا القاسم القشيري وحصّل عليه من علم التصوف ثم سافر إلى الحجاز وبغداد ووصل إلى الشام وصحب مشايخها وزار المشاهد ، ثم عاد إلى نيسابور أما قدمه في التصوف وطريقته فمحموده كانت معرفته فوق لسانه ، ومعناه أكثر من ظاهره ، لديه نظر دقيق في المعاملة ، عفيف في مطعمه يكتسب رزقه بعمل الوراقة ، لا يخالط أحدا ولا يباسط في أمر دنيوي ، توفي سنة ٥١٢هـ/١١١٨م . (١)

ووصل إلى دمشق محمد بن حاتم بن محمد الطائي أبو الحسن الطوسي (ت٥١٢هـ/١١١٨م) وهو من الفقهاء المتصوفة ، رحل إلى العراق والحجاز والشام ، ودرس بدمشق على أبي القاسم ابن أبي العلاء المصيصي والشيخ نصر المقدسي . (٢) ووصل إلى دمشق اسماعيل بن أحمد بن محمد أبو البركات بن أبي سعد الصوفي المعروف بشيخ الشيوخ ، استوطن بغداد ثم نزل السميساطية بدمشق توفي سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م . (٣)

كان للمغاربة والأندلسيين أكبر الأثر في دمشق في التصوف والزهد والعبادة ، فقد تحول الواحد منهم في زهده وتصوفه إلى حد الاعتكاف والانقطاع ، ومنهم من رابط وجاهد مدافعا عن ديار الإسلام في الشام ضد الفرنجة ، فقد حملوا على الفرنجة حملا ثقيلا مما جعل حقد العدو عليهم أبعد الأثر من حقدهم على أهل الشام أنفسهم . تردد اسم الصوفية المغاربية والأندلسية كفئة مقاتلة تتصدر الصفوف في المعارك الكبرى كما حدث في الحملة الفرنجية الثانية على دمشق ، حيث أصرّ العالمان المجاهدان الزاهدان عبد الرحمن الحلحولي وأبو الحجاج يوسف الفندلاوي على الجهاد ضد الفرنجة ، وشق كل منهما طريقه إليهم سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م ، واستشهدا في قتالهم ورغم كبر السن لديهما ، إلا أن ذلك لم يعفهما من المشاركة في القتال والحضّ على خوضه .

أما الفندلاوي فكان خطيب بانياس ومدرس المالكية بدمشق ، طويل المناظرة حسن المفاكهة حلو المحاضرة كريما مطرحا للتكلف قوي القلب استشهد مع صاحبه بالنيرب ، ذُكر أن أمير دمشق معين الدين أنر قال له : يا شيخ إن الله قد عذرك وليس

==

(١) النووي : طبقات الشافعية ص٦٠ ظ – ٦١ ظ
- الداودي : طبقات المفسرين ج١ ص١٩٣-١٩٤
(٢) ابن الصلاح : طبقات الشافعية تحقيق محي الدين علي نجيب دار البشائر الإسلامية بيروت ١٤٣١هـ/١٩٩٢م ج١ ص١١٣-١١٤
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٢ ص٨٢١
- بدران : المرجع السابق ج٣ ص١٥

لك قوة على القتال أنا أكفيك ، فقال : قد بعت واشترى لا أقيله ولا أستقيله . (١)

واشتهر عن أهل الأندلس الآذان الذي تنبعث منه روح الجهاد والرغبة إلى الاستشهاد " لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت وهو على كل شيء قدير . أشهد مع الشاهدين وأحملها عن المجاهدين وأعدها ليوم الدين ، وأشهد أن رسول الله كما أرسل والكتاب كما أنزل ... " (٢)

وبعد ما ذكرنا لا بدمن التعريف بعالمي الأندلس المذكورين أولهما عبد الرحمن الحلحولي فقد ولد بحلب ونشأ بها ثم انتقل إلى مصر وأحب الصالحين بها ، ثم عاد وسكن دمشق في ثغر بين المسلمين والفرنجة حتى استشهد في الواقعة المذكورة . وكان يسير نحو الجهاد في سبيل الله ذاكرا اسم الله ، وقبره في بستان الشعباني ، وكان المسجد المجاور له يسمى بالشعباني وهو مسجده ثم سمي بمسجد طالوت وهو ظاهر دمشق (٣) .أما الفندلاوي فقد شوهد في المنام وسئل ما فعل الله به فقال واصفا محياه في جنات عدن على سرر متقابلين ، وقبره يزار بالباب الصغير من ناحية المصلى وعليه بلاطة كبيرة مفقودة .

ومن أبرز زهاد الأندلس ومشايخها الصالحين أبو النجاء الأندلسي التاجر أحد الأولياء المعروفين حج وقدم العراق والموصل والشام وحلب ودمشق ، مات بمصر . (٤)

ومن أبرز شخصيات المغرب أيضا أبو النجا المغربي المتوفى ٥٣٣هـ/١١٣٨م ذكر انه وقف مرة على جبل الربوة بدمشق وقال : يارب هذا الذي يطير في الهواء كيف يفعل هذا ، فما فرغ من الكلام إلا وارتفع في الهواء صوب السماء إلى أن صارت دمشق تحته كدور الدرهم فقال : أشهد أنك على كل شيء قدير ، ثم عاد إلى موضعه . (٥)

==

(١) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٢١ - ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٤ ص٢٧٧ - الذهبي : العبر ج٤ ص١٢- السخاوي : طبقات الأولياء مخطوط ص٤٩ ظ - العدوي : كتاب الزيارات بدمشق ص٦٢

(٢) ياقوت الحموي :معجم البلدان ج١ ص٢٣٣

(٣) السخاوي : طبقات الأولياء ص٤٩ ظ

(٤) ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ج١٠ ص٤٦٣٩

(٥) ابن الملقن :طبقات الأولياء ص٤٣٥-٤٣٧

ومن العلماء الزهاد في فترة الحكم البوري عدي بن مسافر بن اسماعيل بن موسى العبد الصالح الزاهد الشامي الهكاري (ت٥٥٧هـ/١١٦١م) المشهور الذي تنسب إليه الطائفة العدوية ، أصله من قرية بيت فار من بعلبك والبيت الذي ولد فيه يزار . صحب الشيخ عقيل المنبجي والشيخ حماد الدباسي ، وصحب أبا النجيب السهروردي وعبد القادر الجيلي كانت بينه وبين الشيخ الجيلاني رسائل يذكر فضل الشيخ ويقر له بالخطوة خاصة حين قال : (قدمي هذه على رقبة كل ولي) وكان الشيخ قضيب البان ممن يتردد بالرسائل بين الشيخ عدي بن مسافر والشيخ الجيلاني (١) .

سار ذكر الشيخ عدي في الآفاق ، وتبعه خلق كثير وجاوز حسن اعتقادهم فيه الحد حتى جعلوه قبلتهم التي يصلون إليها وذخرتهم في الآخرة التي يعولون عليها ، صحب الكثير من أعيان المشايخ والصلحاء ، ثم انقطع بجبل الهكارية من أعمال الموصل وبنى لنفسه بها زاوية ، فوصل إليه الناس من تلك النواحي ، حتى لم يسمع لأرباب الزوايا ما حصل لمثله . وهناك اختلاف حول تاريخ وفاته فالسخاوي يذكر سنة ٥٥٧هـ بينما يذكر الأيوبي سنة ٥٥٥هـ . (٢)

ومن العلماء الصوفية الذين سنوليهم اهتماما أكبر في البحث الإمام الغزالي والشيخ أرسلان الدمشقي ، وأبو البيان ، وقضيب البان .

==

(١) عبد القادر الجيلي ، ابن أبي صالح أبو محمد الجيلي ، ولد سنة سبعين وأربعمائة دخل بغداد فسمع الحديث ، وتفقه بها على علمائها ، كان له سمت حسن ، وصمت غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان فيه تزهد كثير ، وله أحوال صالحة ومكاشفات ، وقد كان صالحاً ورعاً، وصنف من الكتب فتوح الغيب، كان من سادات المشايخ ، توفي سنة إحدى وستين وخمسمائة . ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢ ص٢٧٠

(٢) السخاوي : طبقات الأولياء ص١٥٣ - الأيوبي : التذكرة الأيوبية مخطوط رقم ٧٨١٤مكتبة الأسدج٢ ص٣١٥ ب
- الشطنوفي : بهجة ص٦ و – ٥٠ أ و ب

- **الإمـــام الغــزالـــي :**

أحد نوابغ علماء الإسلام وكبار قادته ، سلك طريق الزهد والانقطاع وتبوأ مركز الصدارة في التصوف . وهو رجل من متوسطي الناس ، كان والده يغزل الصوف ويبيعه في دكان له بسوق الصوافين بطوس ، ولما حضرته الوفاة وصىّ بولديه ، صديق له من أهل التصوف فاشرف هذا الصوفي على تربيتهما فكان كمال السعد للولدين حين أدخلهما التعليم (١) فنبغا ، وتميز الإمام الغزالي . وجد الإمام الغزالي التصوف مذهبا قد توضحت معالمه وقواعده وكيانه المستقل . ومن عناية الله تعالى أن وجهت الغزالي للانضواء تحت لواء الصوفية ساعده على ذلك الذكاء الخارق والعلم الغزير ، تميز بفكره الثاقب الذي لا يؤمن بشيء حتى يفهمه ويدرسه ، فاجتمعت لديه كل ما وعته العقول والأفكار ، ورغم كل هذا فإنه لا مطمع لديه في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى وقطع علائق القلب عن الدنيا .

كان الإمام الغزالي إمام أئمة الدين وحجة الإسلام والمسلمين ، لم تر العيون مثله لساناً وبياناً ونطقاً وخاطرًا وذكاءاً وطبعاً (٢) " إمام الفقهاء على الإطلاق ، ورباني الأمة بالاتفاق ومجتهد زمانه " . (٣)

كان أوحد أقرانه من أخطر رجال زمانه يمتلك سرعة العبارة وقوة الطبع ، رحل إلى نيسابور والعراق والشام ،جالس في بغداد نظام الملك مؤسس المدارس ، ولقي عنده القبول ، فظهر اسمه وحسن مناظرته ، وعم خبره الآفاق ، ونظر في الفقه والأصول والديانات والمنطق والحكمة يتعلم طرائق الجدل والمناظرة ، وصنف فيها التصانيف حتى علت حشمته ودرجته في بغداد وأخذ أدوار الأمراء والأكابر في علومه وزهده ، ووجد في مجالسته لأستاذه نصر المقدسي ما ينشده من الزهد في الدنيا . (٤)

ولا يعقل أن يسلك الإمام الغزالي طريقا إلا بعد أن يجوسه بعلمه ويختبره بعقله فاتجه لسماع وقراءة علوم أهل الطريقة ، ووصل به الأمر إلى التيقن أن الصوفية هم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال وليس لديهم إلا الذوق والسلوك . لذلك ساهم الإمام

==========

(١) السخاوي : طبقات الأولياء ص٥٥ و ٦٤ ظ ٦٥ و
(٢) ابن النجار : الصدر نفسه ص١٢٨
(٣) ابن النجار : المصدر نفسه ص١٢٨
- ابن الصلاح : طبقات الشافعية ج١ ص٢٦١-
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٩١٩-٩٢٠
مؤلف مجهول : طبقات الشافعية ٥٥١٦ ص٥٥ ظ - السخاوي : طبقات الأولياء ص٦٤ ظ – ٥٦ و

الغزالي في بث الروح الدينية والدعوة إلى حقيقة الإسلام والتمسك بأهدابه ، واعتمد في منهاجه الصوفي طريقة العابد في التقرب إلى الله بحيثيات تلك الصفة بتجريد القلب لله تعالى ، واحتقار ما سواه . (١)

لم يتبين الإمام الغزالي الصوفية إلا بعد مقاساة ومعاناة كشف خلالها حقيقة المذاهب في عصره ، فسعى لاستخلاص الحق ، ولم تنتج الفلسفة فكرا مبتكرا كالإمام الغزالي ، فقد وقف مناهضا لها بالحجة والإقناع ، ومنها تحول فيما بعد إلى التصوف بعد مطالعة واسعة للكتب وتحصيل عميق للعلوم والتعلم حتى بالتعلم ، لأنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال ، فانعقد لديه الإيمان اليقيني بالله تعالى والنبوة واليوم الآخر . (٢) وأن أهل التصوف عنده هم السالكون لطريق الله تعالى وسيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق . (٣)

كان للتشكيك دور بارز في شخصية الإمام الغزالي ، حيث دفعه إلى انعزال الحياة العامة يفكر ويتأمل ، حتى تحول إلى ميدان التصوف والبحث عن الأسباب والقرائن والتجارب التي خاضها عمليا للتوصل إلى صحة العلم بالبراهين المنطقية . ثم اعتزل التدريس وترك أهله وولده وماله ووطنه ، وتحول مع مرض شديد إلى التصوف والدفاع عن عقيدة الإسلام ، والإعراض عن الدنيا والإقبال على الله (٤) .

تحدث الإمام الغزالي عن الدوافع التي جعلته يسلك طريق المتصوفة ، فقد وجه انتقادات كثيرة إلى علماء عصره ، ورأى أن الوسيلة الوحيدة للخلاص هي ترك التدريس والتحول إلى طريق آخر .

ويقول رأى آخر أنه خاف على نفسه من الباطنية فغادر بغداد ثم لمس في نفسه رغبة في سلوك منهج الصوفية فشاور مقدما من الصوفية في المواظبة على تلاوة

==

(١) زروق : قواعد التصوف ص٣٥ - السيوطي : كتاب إتمام الدراية لقراء النقاية دار الكتب العلمية ، بيروت ط١ ١٩٨٥م ص١٦٣

(٢) الغزالي : المنقذ ص٥٥-٩٧ - عزة حصرية : إمام السالكين ص٣٦

- ATIYA : CRUSEDE COMMERCE P. 217

(٣) عزة حصرية : المرجع السابق ص٣٦

(٤) الغزالي : المنقذ من الضلال ص٩٧-٩٨ ، ميزان العمل ص٣٩-٤٠

- ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٩١٩

- حسين أمين : الغزالي ص٥٣

- ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM : ART . ALGHAZALI P. 2 P. 1039

- ATIYA : OP,CIT P. 217

القرآن قائلا : الحل أن تقطع علائقك بالدنيا وعدمها وتبتعد عن الأهل والولد (١) حتى تصير إلى حالة يستوي عندك وجود الدنيا وعدمها وتقدم على الله بقلب فارغ ، ولا تزال تقول الله الله مع حضور القلب وإدراكه إلى أن تنتهي إلى حالة لو تركت لسانك لرأيت تلك الكلمة تجري عليه لكثرة اعتيادك ومواظبتك على تكرارها إلى أن ينمي أثر اللسان ، وتصادف نفسك وقلبك مواظبين على هذا الذكر من غير حركة فيه ، ثم تواظب حتى لا يبقى في قلبك إلا معنى المجرد حاضرا في قلبك على الدوام (٢)

هذا سلوك الصوفية المحض ، يستدعي تصفية وجلاء وطهارة وتهذيب الأخلاق والأعمال والمعارف بالتقرب إلى الله تعالى ، فإذا نظر إلى همته فلا همة له سواه ، مشغولا بكله به ، يسير إليه على قدم المجاهدة والرياضة خالصا لحق العبودية لله ولا بد أثناء هذه المجاهدة أن تحدث أحوال تطرأ على من سلك هذا المذهب فقد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن . (٣)

لا شك أن السير على طريق المتصوفة دفع الإمام الغزالي الاعتكاف بزاوية المنارة بالجامع الأموي مما يلي باب الزيادة ، ولبس الثياب الخشنة وسعى الإقلال من المطعم والمشرب واعتزال الناس . وقد بدأ الإمام الغزالي بمجاهدة النفس وتحسين الشمائل وتهذيب المعايش والأخلاق ، يزور الترب والمساجد ويروض نفسه في المجاهدات ويكلف مشاق العبادات إلى أن لان له صعبها وسهل له بعد ضيقها (٤) " فانقلب شيطان الرعونة وطلب الرياسة والجاه والتخلق بالأخلاق الذميمة إلى سكون النفس وكرم الأخلاق " وسعى لوقف الوقت على هداية الخلق والاستعداد للرحيل والانتباه لكل من يشم منه رائحة المعرفة (٥) والفراغ من الترغيبات و التزيي بزي الصالحين .

وكان سلوكه طريق التصوف قد غلب عليه في كل حال في التحقق والطبع ، وارتاض كل رياضة وظهرت له الحقائق كما لو كان الظن به ناموساً . (٦) ورأى

==

(١) الغزالي : ميزان ص٣٩ –
ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM : ART ALGHAZALI P2 P.1039

(٢) عرجون : التصوف في الإسلام وأطواره ١٩٦٧م ص١٢٢-١٢٣

(٣) الغزالي : ميزان العمل ص٣٨-٣٩ - عرجون: المرجع السابق ص١٢٢-١٢٣

(٤) السخاوي : طبقات الأولياء ص٦٤ ظ - الحسيني : طبقات الشافعية ص١٩٤

(٥) ابن الصلاح : طبقات الشافعية ج١ ص٢٦١-٢٦٢
- النووي : طبقات الفقهاء ص٢٨ ظ

(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوطة ج١٥ ص٩٢٠-٩٢١
- السخاوي : طبقات الأولياء ص٦٥ ظ

الإمام الغزالي في التدريس أنه غير خالص لوجه الله تعالى ، بل هو الباعث إلى الجاه والصيت ، فقرر مغادرة بغداد طلبا للآخرة والابتعاد عن الدنيا ، فكان الرحيل لأن العمر لم يبق منه إلا القليل . ونزع الشيطان في قلبه لكنه رفض الإذعان ، وأقبل على المجاهدة وأصابه مرض يئس الأطباء في سبيل العلاج إليه ، إلا بالتخلي عما في باطنه من الهم والغم ، وسقط اختياره وأمله إلا بالله وترك أهله وتوجه في رحلته الصوفية فحط مقامه في الشام وأقام على الخلوة والعزلة والرياضة والمجاهدة وتهذيب الأخلاق وإخلاص النية والقلب لله تعالى ، في عزلة تامة ، يقضي معظم أوقاته في العبادة والخلوة مواظبا على القراءة في الكتب الصوفية وتأليف الكتب التي ترك لنا أبرزها كتاباه " الإحياء " و " المنقذ " .

ثم تابع الاعتكاف في الجامع الأموي في منارة المسجد يغلق عليه بابه ، واستمر على تلك الحال عشر سنين حتى انكشفت له أمور لا يمكن إحصاؤها ، وعلم علم اليقين أن الصوفية هم السالكون طريقا إلى الله ، وأن سيرتهم بلا شك أحسن السير ، وطريقتهم هي أصوب الطرق وأخلاقهم هي أزكى الأخلاق . (١)

وهكذا دفعته أحداث عصره إلى التجرد عن الدنيا على التفكر في الأمور الإلهية وتصفية نفسه للوصول إلى السعادة ، والعمل بالطاعات ونهج المجاهدة للوصول إلى اليقين . ورأى الإمام الغزالي في المتصوفة أنهم أهل المشاهدة والمكاشفة السالكون لطريق الحق ، فطابت نفسه لسلوك طريقهم . وتابع أن العلم أيسر عليه من العمل ، فاطلع على كتبهم وحصّل ما يقدر عليه بالتعلم والذوق ، فأصبحت لديه معرفة الله بالحال الذي يرد على القلب من غير تصنع ولا اكتساب ، ومن أقواله : الأحوال مواهب والمقامات مكاسب ، فالأولى تأتي من عين الجود والثانية من بذل المحمود . (٢)

وتطرق إلى المكاشفة قائلاً : " إن المحسوسيات تنكشف بنور الشمس كما تنكشف المقولات بالعقل " ، ويجب البحث عن العلم بحقائق الأمور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم ولا تظهر حقيقته إلا بالبحث والتحليل ، فينكشف العلم اليقيني انكشافا لا يبقى معه ريب ولا تمتد إليه سبل الخطأ والوهم . (٣) وتتابع الحالة بالذوق ، فمن لم

==

(١) الغزالي : المنقذ ص١٠٠-١٠١ - النووي : طبقات الفقهاء ص٢٨ ظ
- اليافعي : مرآة الجنان ج٣ ص١٧٧ - الحسيني : طبقات ص١٩٤
ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM
: ART ALGHAZALI P. 2 P. 1039 -

(٢) الغزالي : المنقذ من الضلال ص٦٤-٦٥-٩٥-٩٦ - ابن الطفيل : ابن الطفيل ورسالته حيبن يقظان تحقيق عبد الحليم محمود دار الكتاب اللبناني بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص١٤

(٣) الغزالي : المنقذ من الضلال ص٥٩

يرزق الذوق فيتيقنها بالتجربة والتسامح حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال والتحقق بالبرهان . (١)
وهكذا نلاحظ أن الإمام الغزالي ميز بين الصوفية الإسلامية الصحيحة والصوفية الدخيلة ورأى أن الصوفية الصحيحة يتعلمها المسلم من كتاب الله تعالى وقراءة آياته واستخراج المعاني من الكلمات الروحانية والأسرار الخفية مما ييسر له الوصول إلى علم التصوف . ولا يمكن للتصوف أن يكون وقفا على إنسان ، ولا أن يختص به فريق من العلماء أو المحدثين والفقهاء وحتى مشايخ الطرق ، بل هو حق لكل مسلم مهما يكن لأنه بنيان المسلم وركنه الدائم يعمل به على إصلاح نفسه وإصلاح مجتمعه معه .

ويتابع الإمام الغزالي إن التصوف الأصلي هو التفقه بالفقه الباطني ، وهو العلم بأحكام الدين ، والواجب على كل مسلم ومسلمة الإيمان به ، وتناول الأفكار الصوفية بعد أن حررها من السخافات بحثا عن السعادة الروحية والروحيات ، وأن هذه السعادة لا تأتي من الإيمان الفلسفي ، بل بالعمل المؤدي إلى الاتصال بالروح الأعلى وبذلك يكون الإمام الغزالي قد قدم انتقادات كثيرة على علماء عصره . (٢)

وتحدث الإمام الغزالي عن الوعظ بقوله : " فلست أرى نفسي أصلا ، لأن الوعظ زكاة نصابه الاتعاظ ، ومن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة ، وهل يستقيم الظل والعود أعوج " (٣) وذكر أنه توجه إلى بغداد وعقد بها مجلس الوعظ ، وتكلم على لسان أهل الحقيقة ، وقواعد أرباب الطريقة بكلام أطرب الناس وأعجب به الخاص والعام . (٤)

نلاحظ من خلال ما سبق أن الإمام الغزالي كان شخصية دينية ثقافية متفهمة مبادىء العلوم وأسسها ، تعمق في استدراك الحقائق الدينية ، وربطها في مجالات العلوم ،فتركت بصمة كبيرة في الحياة المجربة والمعاناة ، ودفعته للبحث عن حقيقة الصوفية وأدعيائها ، فكان لآرائه ومبادئه أبعد الأثر في الفكر الإسلامي وعقيدته ، حيث بذل قصارى جهده للوصول إلى الحقيقة حين يصعب عليه أمر ما ،فهو يفتت كل مسألة ويخضعها للسبر والتحليل والاستقراء وإعمال العقل فيبدأ عمله ينقد تلك الاحتمالات حتى يصل إلى قرار ، ولا يمكن أن يخرج القرار عنده إلا بعد الفحص

==

(١) الغزالي : المنقذ من الضلال ص١٠٣-١٠٤

(٢) ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM : ART ALGHAZALI P.2 P. 1039

(٣) ابن الملقن : طبقات الأولياء ص١٠٤

(٤) السخاوي : طبقات الأولياء ص٦٤ ظ

- مؤلف مجهول : طبقات الشافعية ٥٥١٦ ص٥٥ ظ

المعمق لذلك نراه قد سلك طريق الشك الذي دفعه لانعزال الناس وأوصله هذا الطريق إلى التصوف مستدركا واقع عصره وتياراته فكان لذلك عميق الأثر في فكره القويم .

ذكرت بعض المصادر الإسلامية ما روى عن الإمام الغزالي من محاماة الرسول صلى الله عليه وسلم ، له من قبل المتحاملين عليه . فقد ذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد باهى به الأنبياء في رؤية رآها أحد الصوفية في اليمن ، حين قدّم الرسول صلى الله عليه وسلم الإمام الغزالي للأنبياء معرفا إياهم على كتابه الإحياء (١) .

وذكر اليافعي أيضا فيما ثبتت رؤياه عن أحد الصوفية أن الرسول صلى الله عليه وسلم جلد من طعن بالإمام الغزالي الذي جمع بين " الملاحة والفصاحة والترتيب العجيب الغريب ، والفوائد الكثيرة في الألفاظ اليسيرة ، والعبارات البارعة والبراهين القاطعة وغير ذلك من المحاسن الفائقة والمعاني الرائعة " .

وبهذا نلاحظ أن الإمام الغزالي كما ذكر بعضهم إنه " قطب الوجود والبركة الشاملة لكل موجود وروح خلاصة أهل الإيمان والطريق الموصل إلى رضى الرحمن والتقرب إليه ، نلاحظ أن فكرة عصره مثله .وخير ما نختم به الحديث عن الإمام الغزالي قوله : " ما أسهل على العارف إرشاد الجاهل بأن يقول : إن كان المراد من النزول إلى السماء الدنيا ليسمعنا فما سمعنا ، فلا فائدة في النزول " (٢) .

==

(١) اليافعي : مرآة ج٣ ص١٤٥-١٧٧-٣٢٨-٣٢٩

(٢) مؤلف مجهول : طبقات الشافعية ٥٥١٦ ص٥٦ و

- مقتطفات من تواريخ ابن خلكان : مخطوط ص١٥٦ ظ

- اليافعي : نشر المحاسن الغالية ص٢٢٣-٢٤٣- ص٢٤٦-٢٤٧

ومن علماء الصوفية نذكر أيضاً :

- الشيـخ أرسلان الـدمشقـــي :

وهو أرسلان بن يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد الله الجعبري الأصل الدمشقي الدار والوفاة ، الشيخ الصالح القدوة الزاهد توفي بحدود سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م ، ودفن خارج باب توما وقبره معروف إلى الآن ويزار . أما معنى اسم أرسلان بالتركية فهو الأسد . ويعيد بعضهم نسبه إلى سيدنا جابر بن عبد الله الأنصاري . (١) صحب شيخه أبا عامر المؤدب ولما احتضر الشيخ أوصى لتلميذه أرسلان من بعده ورفض أن يوصي إلى ولده عامر وقال : " عامر خراب ورسلان إلى عامر " أي نسب العمران إلى أرسلان والخراب إلى عامر ، فقام الشيخ أرسلان مقامه ، ثم رفع قبة فوق ضريح شيخه ، لما أعطاه بعض التجار مبلغا من المال . (٢) وأرسل السلطان نور الدين الشهيد إليه مبلغا من المال رفضه ثم وزعه على الفقراء والمساكين والأيتام بحضور حامل المال نفسه . (٣)

كان الشيخ أرسلان يقول : " لا تأكل النار لحما دخل زاويتي " وقيل : إن أحدهم دخل الزاوية للصلاة ومعه لحم نيء فطبخه فلم ينضج . (٤) استقر الشيخ أرسلان في منزل مجاور لدكانه الذي عمل فيه مدة عشرين سنة في نشر الخشب يقسم الأجرة التي يحصل عليها أثلاثا ، ثلث ينفقه على نفسه ، وثلث يتصدق به ، وثلث يكتسي به . وقيل بل كان يعطي شيخه أبا عامر ما يحصل له من أجرته ، فتارة يشبع وتارة يجوع . وقد كلمه المنشار مرتين وقيل إن لسان الحال كلمه ، والمقصود بذلك أنه ألهم

==

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٣٧٩-٣٨٠ - الصفدي :الوافي بالوفيات ج٨ ص٣٤٥ - ابن طولون : غاية البيان في ترجمة الشيخ أرسلان الدمشقي نشرها أحمد إيبش راجعها الأستاذ هاني المبارك شارك فيها محمد عامر القباني ط١ دمشق ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م ص٤٧ - الأيوبي : تذكرة الأيوبي ج٢ ص٢٦٨ ب - مخطوط أوله ضوء المعاني ، مجموع في التصوف ١٣٤٦هـ ، هذه ترجمة الشيخ رسلان ص١١٦ و - مجموع ١٥ رسالة ترجمة الشيخ رسلان رضي الله عنه ٣٠٦٥ ص١٤٠ - الخطيب : شرح رسالة الشيخ رسلان ١٤٤٩ ص٢و

(٢) ابن طولون : غاية البيان ص٤٨ - الصفدي : الوافي ج٤ ص٣٤٦ - الأيوبي : تذكرة الأيوبي ص٢٦٨ ب – ٢٦٩أ - مجموع ضوء المعاني : ص١١٦ظ

(٣) ابن طولون : غاية البيان ص٥٢-٥٣

(٤) المناوي : مخطوط الكواكب ص٣٩٥ظ

الأمر ، وفي المرة الثالثة انقطع المنشار بين يديه ثلاث قطع وقال له : ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت ، فترك العمل وجلس في مسجده الصغير داخل باب توما جوار بيته ، (١) وقد حصل السلطان نور الدين على قطعة من المنشار وأمر أن توضع له في كفنه .وقام السلطان نور الدين بأعمال منها شراء الدار المجاورة لمسجد الشيخ وتوسيعها وبناء منارة ووقف عليها ، (٢) لكنها ضاعت مع الأيام وهي ما تعرف اليوم بمقام الشيخ أرسلان .

ومن الأعمال التي برزت للشيخ أرسلان حفره البئر التي بجوار المسجد وتحول أهل تلك الجهات للشرب منها تبركاً بمائها ، فمن تعرض لوجع في جوفه أو حصل له ألم شرب من تلك البئر فعمته العافية بإذن الله . وشوهد قرب قبة الشيخ أرسلان من أحد أبوابها ، مكان يوضع فيه الزيت المنذور وغيره . (٣) وذكر مما كان يوجد بجوار ضريح الشيخ عند النهر المسمى بنهر الشيخ أرسلان ، سرب من البط يعيش هناك ، وهو برسم الشيخ .تصل الناس لزيارة الضريح فيتبركون به مع أطفالهم ويلقون الفتات من الخبز لتلك البطات . (٤)

وكما نلاحظ فإن لأهل دمشق رأي في الشيخ أرسلان ، وأن الدعاء عند قبره مستجاب يشاركهم في ذلك اليهود والنصارى والسامرة ينذرون عنده النذور إضافة إلى الزيت والشمع والدراهم وغير ذلك ، والناس يزدحمون على قبره ، ويتنافسون في خدمة ضريحه وقد أقيمت عليها الأوقاف والغلال ، وبلغ من رفعة مكانة مقام الشيخ أرسلان أن يسافر أحدهم إلى باب السلطان ويأتي بالتواقيع فسيأخذ التنافس أبعاده حتى شمل أهل العلم الراغبين بالمدارس أو الخوانق أو الوظائف للعمل بها ببركة الشيخ أرسلان بعد قصد زيارته . (٥)

==============================

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٣٧٩ - مجموع في التصوف ١٣٤٦ ص١١٦ظ - مجموع فيه ١٥ رسالة ص١٤٠و – ١٤١ظ - الصيادي : الروضة البهية ص٨٦ - حصرية : إمام السالكين ص١٦٠-١٦١

(٢) مجموع في التصوف هذه ترجمة ص١١٦ظ – ١١٧و - ابن طولون : غاية ص٤٩ - ابن الحوراني : كتاب الزيارات ص٥٠ - الحصني : المرجع السابق ج٢ ص٤٧٣-٤٧٤ - الصيادي : المصدر نفسه ص٨٧

(٣) مجموع : هذه ترجمة ١٣٤٦ ص١١٦ظ – ١١٧و - ابن الحوراني : الزيارات ص٨٩-٩٠-٩١ - الصيادي : المصدر نفسه ص٨٦-٨٧ - العدوي : كتاب الزيارات ص٥٠

(٤) ابن طولون : غاية البيان ص١١٨-١١٩

(٥) الأيوبي : التذكرة ج٢ ص٢٦٨ب - ابن طولون : غاية البيان ص٦٤

شكل الشيخ أرسلان مع الشيخ أبي البيان محمد بن محفوظ القرشي اتحاداً وثيقاً في العمل والهدف ، وكان كل واحد منهما يتمم الآخر فتقاسما الجهد والعناء ،وتحملا أنواع الشدائد في أحلك وقت مرت به دمشق عند تعرضها للغزو الفرنجي . واتصف كل شيخ بشخصيته الدينية المرهفة ومناقبه وآثاره التي سنتعرف عليها تباعاً .

وبالرغم مما اتصفت به هذه الشخصية من الفضل إلا أن البعض اتهم الشيخ أرسلان بعرائه عن العلم الظاهر أي أنه لم يتلق شهرة به . ولكن كما نعلم فإن ولي الله لا بد له من معرفة أحكام العبادات . وما ضمت رسالته الفلسفية في التوحيد من علوم تدل على معرفة الشيخ بها وقد نقلها بشكل صحيح ، وإن ما اتهم به عار على الحقيقة لغاية في نفس أحدهم للطعن به . (١)

استقر الشيخ أرسلان أول أمره في مسجد صغير يتعبد به داخل باب توما مجاورا لبيته ودكانه ، ثم انتقل إلى مسجد درب الحجر وجلس بالجانب الشرقي بينما استقر الشيخ أبو البيان في الجانب الغربي منه ، يتعبد كل منهما بأتباعه في ناحية من نواحي المسجد ثم قرر الشيخ أرسلان الخروج إلى ظاهر باب توما حيث جامع سيدنا خالد بن الوليد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . (٢) وقد شوهد على لوحة حجرية كتب عليها بالخط الكوفي بسم الله الرحمن الرحيم " الله لا إله إلا هو الحي القيوم " (٣) ، " إنّ الدين عند الله الإسلام " (٤) هذا مسجد خالد بن الوليد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رضي الله عنه وعن جميع أصحابه .

استمر الشيخ أرسلان على العبادة في مكانه مدة طويلة يتعبد فيه حتى توفي ، لذلك فإن الإنسان حين يتحدث عن الشيخ أرسلان يرى نفسه أمام تصوفه المتمثل بالصفاء وصدق التطلع إلى الله والإخلاص في العبادة ، لا ليدخله الله الجنة أو يجنبه النار ، بل
لثمرة العبادة نفسها ، وحب الله تعالى حق الحب بقلب صاف لا يعرف إلا التواضع والزهد وتزكية النفس وإخلاص الباطن المتأثر بالظاهر الحسن دون الالتفاف إلى الوفاق الشكلي الذي لا يجدي إلا إذا صدق الباطن وتجاوز الرياء والمراءاة .

==

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٣٧٩ - مخطوط مجموع ١٥ رسالة ٤١٣٤ ص١٤٢و - مخطوط : مجموع هذه ترجمة ص١١٧ظ

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٣٧٥-٣٨٠ - مجموع : أوله ضوء المعاني ١٣٤٦ ص١١٦ظ - ابن طولون : غاية البيان ص٥٠

(٣) سورة البقرة : آية ٢٥٦

(٤) سورة آل عمران : آية ٢٠

عاين الشيخ أرسلان في منهجه الذي طبقه خصيصاً على رسالته التوحيد ، عاين حقيقة التصوف من خلال استمداده علومه وأحواله من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف مستخلصا الآيات الكريمة ومحللا لمضامينها وكذلك الأحاديث ، ثم صهر من تحليلاته بعد إيمان عميق وقوي من التصوف الإسلامي الفلسفي ما أخذ فيه بالنظرة الفلسفية الدينية لاعتماده عليه في المناقشة والمناظرة بفلسفة صوفية صافية نقية يخدم الدين ومبادئه بأمانة أبعدته عن أفكار فلسفة من يخلط الحابل بالنابل بين فلسفة تدعو إلى الإيمان والإسلام والصفاء ، وفلسفة تدعو إلى الكفر والإفساد (١) .

وتحدث الشيخ أرسلان في طريقته الصوفية عن الدرجة الأعلى بقوله : " فأودعناك سرنا " ، وقال أيضاً : " إن كنت قائماً بأمره خضعت لك الأسباب ، وإن كنت قائما به تضعضعت لك الأكوان " فالصوفي لا ينفي العبودية ، ولا يصل إليها إلا بعد الفناء عن ذاته وعن إرادته وعن هواه فكأنه يندفع نحو عمل يريده الله تعالى فالإنسان منفذ لإرادة ربه بالعبودية . (٢)

إن مقام الإنسان المحبوب عند ربه لا يتم إلا بالتقرب إليه بالنوافل أو بسمعه الذي يسمع به أو بصره الذي يبصر به ، فهذا المقام إذا لا يصله إلا خواص الخواص وهم الصديقون . طرح الشيخ أرسلان رسالته في التصوف على شكل نظريات ولم يكن هدفه منها إلا تحريك النفسية البشرية نحو العمل الخالص الصافي لوجه الله تعالى . (٣)

ينظر الصوفي دائماً إلى العالم من مرآة ذاته ، ويهدف إلى تحرير الفكر الإنساني من القيود المادية ، ويسمو إلى المثل الأعلى الرفيع . فقد امتلك الشيخ أرسلان تفكيراً متميزاً في عرض فكرة التوحيد التي لم يسبقه إليها أحد من معاصريه ، وظلت طروحاته يعود إليها الناس في أمور دينهم .

وكذلك عرض لفكرة الإخلاص وحدد لها درجات أربعة وهي ، درجة المتقين ودرجة المحبين ودرجة العارفين ودرجة الفانين ، وهي أرقاها وأعلاها حين لا يبقى عليك حركة لنفسك عندها يكمل يقينك ومع زوال هواك تنكشف لك الحقيقة فتفنى إرادتك بالعلم وبإفناء هذه الإرادة يكشف لك جل وعلا عن الوجدانية فتتحقق به أنه هو" بلا أنت " فتضمحل العبودية للواحد في الوحدانية ويصبح القلب صالحا لاستيعاب الأسرار " فإذا حولت عن السوى أفنيناك عنك فصلحت لنا فأودعناك سرنا

==============================

(١) حصرية : إمام السالكين ص٥٣-٥٤

(٢) النابلسي : خمرة الحان ص٥٤-٦٥-١٠٩-١١٠ حصرية : إمام السالكين ص٦٧

(٣) النابلسي : خمرة الحان ص٩٥ - حصرية : المرجع السابق ص٦٧-٦٨

" أي الكشف وهو تمام المعرفة . (١)

تميزت نظرية التصوف عند أرسلان الدمشقي باعتماد المعرفة أو نظرية المعرفة لذلك يعتبر الشيخ من أبرز من وضع أركان هذه النظرية ، وخاصة وأنه يوجه اهتمامه
بشكل أساسي إلى العقل والمعرفة فلا تنفصل عنده عن الأخلاق ، وكذلك لا تنفصل الأخلاق عنده عن المعرفة ، ويرى أن مصدر المعرفة نور الله الذي يقذفه في القلب بينما مصدر الأخلاق قلب المؤمن " ، متى طلبت الحق بالعقل ضللت أما المؤمن فينظر بنور الله وأما العارف فينظر به إليه " . (٢)

ونتطرق إلى طريقة الشيخ أرسلان في التصوف ، فقد ذكر أن الخرقة الأرسلانية تناقلت إلى أصحاب الطريقة عن طريق سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، واستمرت في سلسلة حتى تسلمها الشيخ أرسلان من شيخه فتم تناقلها من الشيخ إلى مريده ، وهكذا حيث تسلم له الخرقة قبل وفاة الشيخ . (٣)

لم يكن غرض الشيخ من عمله طلب النفس والهوى ، بل إنه سعى دائماً لطلب الآخرة رافضاً حبّ الدنيا أو استعباد الناس ، كان جهاده شراء الحياة الدنيا بالحياة الآخرة ، رافعاً شعار الجهاد في سبيل الله تعالى وحده لا شريك له . ونلاحظ من هذا أن زاوية الشيخ كانت من أساسها زاوية قتال ، إضافة إلى كونها زاوية تعبد وزهد ، تلهب النفوس المسلمة لمواجهة الغزو الفرنجي ، فاستحق عن جدارة لقب حامي البر والشام . (٤)

وذكر من كرامات الشيخ رضي الله عنه أن الشيخ أحمد بن الرفاعي نظر في بستان نخل له فأعجبته نخلة حسنة الرطب والبلح ، وأشار إلى أصحابه مبلغاً في حال استوت فيه النخلة تحمل هدية إلى الشيخ أرسلان ، فتردد لها مرة ورأى أكثرها قد ذهب فسأل أصحابه مستفسراً منهم وزاجراً للبعض الذي فرّط بالنخلة ، فأقسموا له

==

(١) النابلسي : خمرة الحان ص١١٠ - حصرية : المرجع السابق ص٦٠
(٢) النابلسي :خمرة الحان ص١٠٩
(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٣٧٩ - ابن طولون : غاية البيان ص٦٩- ص٧٠ - مخطوط مجموع فيه ١٥ رسالة ٤١٣٤ ص١٤٠و
- عبد الرحيم : العارف بالله الشيخ أرسلان سيرته وكراماته ط١ ١٤١٤ هـ/١٩٩٣م ص٣٦
(٤) ابن طولون : غاية البيان ص٥٨ - التادفي (محمد بن يحبى الحنبلي): قلائد الجواهر مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ص٩٨

أنه ما تناول أحد منها قطعة ، بل إنه في كل يوم كان يصل إلى المكان باز أشهب يأكل منها ولا يقترب إلى غيرها ، فقال لهم : إن هذا الباز الذي يجيء إليها هو الشيخ أرسلان . (١)

لاشك أن إخلاص الشيخ أرسلان في العمل والعبادة وثبوته في الصدق والعدالة والثقة قد دفعه لإحراز لقب الباز الأشهب رضي الله عنه وأرضى . ومما ذكر عن بناء الشيخ زاويته خارج باب توما ، أن السلطان نور الدين محمود بعث إليه بألف دينار مع مملوك ليساعده في استكمال بناء الزاوية ، وأشار السلطان العادل إلى المملوك بقوله : إن أخذ منك المال فأنت حر لوجه الله تعالى ، فوصل المملوك والشيخ يبني مكانه ، واستغرب أن يرسل له نور الدين مالاً وهو يعرفه أنه لا يقبل من أحد شيئاً فقال له: أما
يستحي نور الدين أن يبعث لي بهذا وفي عباد الله تعالى من لو أشار إلى ما حوله لصار ذهباً وفضة ، وشاهد المملوك الحيطان والطين ، وكل ما حوله قد تحول إلى ذهب وفضة ، فأخذته الحيرة وقال للشيخ أقبل المال لأنه به حريتي ، فاستلم منه المال وصرفه على المساكين والأيتام والأرامل بحضور المملوك نفسه . (٢)

لم يكن السلطان نور الدين قد همّ وحده بمساعدة الشيخ أرسلان في بناء زاويته بل شارك في المحاولة أيضاً الشيخ أبو البيان حين أرسل للشيخ ذهباً مع أصحابه ليتم صرفه على العمارة ، فاستغرب الشيخ أرسلان من الموقف وقال للرسول : أما يستحي
شيخك يبعث لي هذا وفي عباد الله من لو شاء لجعل ما حوله ذهباً وفضة ، وأشار بيده فرأى الرجل الطين وكل ما حوله تحول إلى ما نطق به الشيخ . ثم قال له : عد إلى شيخك ورد عليه ماله ، فقال المملوك : والله لا أرجع بل أكون في خدمتك إلى أن يحل الموت ، وانقطع في الخدمة عنده . (٣)

==

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ج٨ ص٣٤٥-٣٤٦ - ابن طولون : غاية البيان ص٥٤ - مجموع في التصوف : هذه ترجمة الشيخ رسلان ١٣٤٦ ص١١٦ظ - ابن بطوطة : رحلة ص٩٣-٩٤ - النبهاني : جامع كرامات الأولياء ، تحقيق إبراهيم عطوة عوض طبع مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ط٢ ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م جامع ج٢ ص٤٧- ٧٥

(٢) ابن طولون : غاية البيان ص٥٣ - مجموع في التصوف هذه ترجمة ص١١٧و

(٣) مجموع فيه ١٥ رسالة ٤١٣٤ ص١٤٠ظ - مجموع في التصوف هذه رسالة الشيخ ص١١٦ظ - ابن طولون : غاية البيان ص٥٢-٥٣ - العدوي : الزيارات ص٥١ - النبهاني : جامع كرامات الأولياء ج٢ ص ٧٤ - ٧٥

وبعد أن تطرقنا لنبذة عن الشيخ العارف رحمه الله ، نتعرف إلى رأيه بأولياء عصره . (١) كان الشيخ أرسلان يحترم أولياء الله تعالى ويقتفي آثارهم ، ومن أبرز معاصريه الشيخ عبد القادر الجيلاني فقد ذكر أمامه الشيخ الجيلاني فقال : هو من " صدور الحضرة وأفراد الوجود ، قد نطق بالحكمة وسلّمت إليه أحكام التصريف في قريب وبعيد من أهل زمانه في الأخذ والعطاء والقبول والرد " (٢) .

والشيخ عبد القادر هو القائل : " قدمي هذه على رقبة كل ولي " وحتى كل الأولياء رقبتهم للقطب الجيلاني ، بما فيهم الشيخ أرسلان الدمشقي ثم أخبر أصحابه بذلك وأمرهم وقال لهم : " لله در من شرب من بحار القدس وجلس على بساط المعرفة ، وشاهد سر تعظيم الربوبية ، وإجلال الوحدانية فتلاشى وصفه في شهود الكبرياء وفني وجوده عند معاينة الهيبة ، ونشر عليه رداء الأنس أو سمى في مراقي العناية حتى بلغ مقام القرار ، وهب على رفعة نسمات روح الأزلية ، فنطق بالحكم من معادن الأنوار وامتزج بسويداء سره مكنون الأسرار . فهو في الحضور ما صحا وفي الصحو ما انمحى . واقف بالحياء ، منبسط بالأدب ، متكلم بالتواضع ، مُدَلّل بالافتقار ، مقرب بالتخصص ، مخاطب بالإكرام ، فعليه من ربه تحية وسلام . فقيل له : هل في الوجود أحد هذا وصفه قال : نعم والشيخ عبد القادر سيدهم رضي الله عنه .(٣)

والشيخ عبد القادر هو محيي الدين عبد القادر بن أبي صالح الجيلي (أبو محمد) علم الهدى شيخ الإسلام ، مقتدى الأولياء وعبارته : " قدمي هذه على رقبة كل ولي" هي الفريدة اليتيمة في عقد الزمان وسلك البيان ، وحلة مجد حلى منها قايلها ، دانت له الأولياء في عصره ، ولد سنة أربع وستين وأربعمائة ، وظهرت معه عظيم الكرامات والقبول التام ، واندرجت الأولياء تحت قدميه حين صعد على الكرسي ونطق أمام الملأ بعبارته تلك فانحنى الجميع برقابهم إجلالاً له . (٤)

سلك الشيخ أرسلان اتجاهاً خاصاً تميز فيه لدى عرضه فكرة التوحيد حتى غدا من أوائل الذين ناقشوا هذه الفكرة خلال القرن الخامس والسادس الهجريين / الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين / فرسالته في التوحيد تقدم فكرة حية وواضحة عن مدرسة التوحيد والمجاهدة . وقد أهّله اجتهاده هذا إلى طريق مشيخة الإسلام في الشام

---

(١) مخطوط الخطيب : رسالة الشيخ رسلان ص٢و
(٢) ابن طولون: غاية البيان ص٥٩ - حصرية : إمام السالكين ص١٥٦
(٣) الشطنوفي : مخطوط بهجة ص١٢و - التادفي : المصدر نفسه ص٢٥
- اليماني : نشر المحاسن الغالية ص٢٨٩
(٤) الشطنوفي : بهجة الأسرار ص١-٣و -٣ظ-٥ و

فتربع على عرشها الروحي بسلاحي العلم والتقوى ، إضافة إلى الاحترام ، يتدفق عليه الناس من كل حدب لمعالجة مشاكلهم الدينية والحياتية .

تميز الشيخ أرسلان في مجال التوحيد بالعديد من الأقوال والأفعال ، حيث كان يعمل على " إكمال الأعمال بالعلم والأحوال بالسر ، وقسّم الأحوال إلى حاضر وغائب وغريب فالحاضر بلطائف العلم ، والغائب بشواهد الحقيقة ، والغريب بانقلاب السبب بينه وبين من سواه . (١) فمن قابله بغير نفسه احترق ، وحقيقة الغربة سقوط الأين ومحو الرسم ، وعلامته أن يكشف الله تعالى له الأسباب ويرفع عنه الحجاب " ومن أقوال الشيخ رحمه الله تعالى " قلب العارف لوح منقوش بأسرار الموجودات ، فهو يدرك حقائق تلك السطور ، ولا تتحرك ذرة حتى يعلمه الله بها " (٢) على اختلاف أطوارها ، ويدرك أسرار الأفعال ، فلا تتحرك حركة ظاهرة أو باطنه في الملك والملكوت إلا ويكشف الله تعالى له عن بصيرة إيمانه وعين عيانه فيشهدها علماً وكشفاً ، وهذا هو الذي يسعد بسره في أكوان الملكوت كالشمس فلا يطاق النظر إليه .

وهكذا يطلعه الله تعالى على بواطن الأمور كشفاً وفراسة فبالكشف يدركها جملة وبالفراسة يدركها تفصيلاً على أصل الوضع وحقيقة الرسم ، فيخاطب الأرواح من وضعها ، ويخاطب الأجسام من حيث تركيبها ، وتسير إلى العلم برموز الإشارة مع فهم كشف العبارة . (٣)

وللشيخ من الأقوال المأثورة : " الحدة مأوى (مفتاح) كل شر ، والغضب يموج (يقيمك) إلى ذل الاعتداد . (٤) وتابع " مكارم الأخلاق ، العفو عند المقدرة ، والتواضع عند المقدرة (في الذلة) والعطا بغير منّة " وقال سبب الغضب هجوم ما تكرهه النفس عليها ممن هو فوقها فتحدث السطوة والانتقام " (٥) وتابع : إن الغضب يتحرك من باطن الإنسان إلى ظاهره ، والحزن يتحرك من ظاهر الإنسان إلى باطنه ، فيحدث عن الحزن والمرض والإسقام ، وعن الغضب السطوة والانتقام " . (٦)
ويقول أيضا : " إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو منه شكرا لقدرتك عليه " ، وتابع

==

(١) الشطنوفي : مخطوط بهجة ص١٤٣أ
(٢) الشعراني : الطبقات الكبرى ج١ ص١٥٣ - المناوي : مخطوط الكواكب ٣٩٥ظ
(٣) الشعراني : طبقات ج١ ص١٥٣-١٥٤
(٤) المناوي : مخطوط الكواكب ص٣٩٥ظ - الشطنوفي : مخطوط بهجة ص١٤٣أ - ابن طولون : غاية البيان ص٨٦ - حصرية : المرجع السابق ص١١٥
(٥) المناوي : مخطوط الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ص٣٩٥ظ
(٦) الشعراني : الطبقات الكبرى ج١ ص١٥٤ - حصرية : المرجع السابق ص١١٥

في قوله : القوي من احتمل الأذى ولم يشك عند السلوى " و" أحسن المكارم عفو المفتقر " . (١)

ومن كلامه الجميل في مناهج الحقيقة : " مشاهدة العارف بعيدة بمكين التحكيم ويرد التفرقة في الإطلاع " وقيل بل " تفيده تمكيناً في الجمع لا بروز المعرفة في الإطلاع لأن العارف واصل ، إلا أنه من يرد عليه أسرار الله تعالى جملة وكلية فهو مصطلم بأنوارها ٠٠٠ فأخذه عن نفسه تغريب ومردوده على نفسه تهذيب ، وتمكنه من قلبه تخصيص ، فالتغريب يشهده والتهذيب يوجده والتخصيص يفرده ، فتفريده وجوده ووجوده شهوده ، وشهوده فبإدراكه الأبصار شهدته البصائر " . (٢)

ومن أقواله وحكمه المأثورة : " أول المقامات الصبر على مراده ، وأوسطها الرضى بمراده وآخرها أن تكون بمراده " . " لو احتجبت عني طرفة عين تقطعت من ألم البين " أي يكون ذلك في التقرب من الله تعالى بالقربى إليه ، والابتعاد عن مفارقته بالمعاصي لا بالتوبة والمقصود بالمفارقة الفرقة الأبدية . وقال : " الحسد مفتاح كل شر " و" الكريم من احتمل الأذى ولم يشك عند البلوى " ، ومن قوله أيضا : " المتقي مجتهد والمحب متكل ، والعارف ساكن والموجود مفقود ، لا سكون لمتق ، ولا عزم لمحب ، ولا حركة لعارف ، ولا وجود لمفقود " . (٣)

وقد ترك الشيخ أرسلان رحمه الله رسالة مشهورة في التصوف أولها " كلك شرك خفي " شرحها العديد من العلماء منهم الشيخ عبد الغني النابلسي ، وعلاء الدين بن صدقة وغيرهما وسنفرد لها دراسة خاصة .

تميز الشيخ أرسلان بنظم الشعر فكان شاعراً ظريفاً خاشعاً ، من فحول الشعراء في عصره ، يقدم لنا معنى رفيعاً من معاني الحب الوجداني الذي لا يوصف . ويختلف شعره عن أشعار غيره في الوسيلة والغاية ، من خلال تعبيره عن مشاعره وفكره كما في تصوير الأشياء ويعود إليه الفضل في التجديد في الشعر الصوفي ، حيث عرض في أشعاره قواعد الصوفية ، مثل التوحيد بالواقعية أكثر من الرمزية . ونظم القصائد في كل باب من أبواب التصوف في المحبة والشوق والأنس والهيبة والوجد ، والوصول والحياء والفناء والبقاء والقرب .

==

(١) الشطنوفي : مخطوط بهجة ص١٤٣أ - ابن طولون : غاية البيان ص٨١ - الشعراني : الطبقات الكبرى ج١ ص١٥٤ - حصرية : المرجع السابق ص١١٥

(٢) ابن طولون:غاية البيان ص٨١ - الشطنوفي : مخطوط بهجة ص١٤٣أ - حصرية : المرجع السابق ص١١٣

(٣) ابن طولون : غاية البيان ص٨١ - حصرية : المرجع السابق ص١١٥

واختلف هذا الأسلوب عن شعر متصوفة القرن الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين ، بتفسير قصائد الغزل وفق ما يتفق مع وجهة النظر الصوفية فصار الشعر يُقرأ بالمعنى الظاهر والمعنى الباطن ، وتواصل الشعر في أيامه أكثر فأكثر (١) وقد ضاع الكثير من شعره وبقي لنا القليل من ذلك قوله :

يا من علا فرأى ما في العيوب وما | تحت الثرى وظلام الليل منسدل
أنت الغياث لمَنْ ضاقت مذاهبـــُـهُ | أنت الدليل لمـن حارت به الحيَلُ
إنا قصدناك والآمـــالُ واثقـــــــــةٌ | والكـل يدعـوك ملهوفٌ ومبتهلُ
فإن عفوتَ فذو فضلٍ وذو كـــــرمٍ | وإن سَطوْتَ فأنت الحاكمُ العدلُ (٢)

وقـــولــــه :

ما أحسنَ الجامع في ليلة النـــــــ | ـصفِ وقد لاحَ عليه السروُرْ
وأشبهَتْ زهــــــر قناديلــــــــــه | كَاساتِ راحٍ للندامى تــَـــدُورْ
وقـــارَنَ النسرُ الثُريّـــا بـــــــه | وقابـَـل البــدرُ هنــاكَ البـُـدُورْ

ولـــه أيضــــاً :

ما مثلُ جامعُنَا ومِثلُ وَقيده | كضياء طَلْعَةِ شاهِدي ومَواصِلي
فكأنّ َذاك الوجْهَ قنديِلٌ يُرى | وَمِن العِـذارِ معلـــــقٌ بسلاسلِ(٣)

وقـــولــــه :

سَقى جَنّةً بالنيربيْن غُصُونُها | قدوُدٌ وأزهارُ الغُصُونِ قدوُدُ
كأنّ نظيرَ الدَّوحِ فيها عرائِسٌ | لَهُنَّ مِنَ الدُّرِ النظيـمِ عقـودُ (٤)

نلاحظ مما سبق أن الآثار التي تركها أرسلان الدمشقي ، تتميز بالندرة سواء في الشعر أو الرسائل أو الأقوال أو المعلومات المتعلقة بسيرته وحياته ، رغم ضياع الكثير من المعلومات عن شخصيته ؛ إلا أن رسالته المشهورة في التوحيد والتصوف قد وصلتنا وحازت على الشهرة لدى العلماء والناس على السواء . وهي بديعة في بابها ، جُعلت على حسب الموضوعات المدرجة فيها ، فأفرد لها العلماء الشروح بين إطناب وإيجاز (٥) والملفت للنظر بها قوله : " يا أسير العبادات ، يا أسير المقامات ، يا أسير
المكاشفات ، كلك شرك خفي " ، فقد بدأها بالشرك الخفي لدى الإنسان . شرحها العديد من العلماء منهم : القاضي أبو يحيى زكريا الأنصاري شيخ الإسلام وسماها "

==

(١) حصرية :المرجع السابق ص٨٠-٨٢
(٢) ابن طولون : غاية البيان ص٧٩-٨٠ - الحصني : المرجع نفسه ج٢ ص٤٧٤
- حصرية : المرجع السابق ص٨٠ - عبد الرحيم : المرجع السابق ص٣٧
(٣) عبد الرحيم : المرجع السابق ص٦٢
(٤) عبد الرحيم : المرجع السابق ص٦٢-٦٣
(٥) ابن طولون : غاية البيان ص٧٥-٧٦

فتح الرحمن بشرح رسالة الولي أرسلان " (١) وكذلك العالم شهاب الدين الطيبي ، وهناك شرح أيضاً لعلي بن محمد الخطيب موجود بالظاهرية برقم ١٤٤٩ ، (٢) قدم فيه شرحا لطيفاً على رسالة الشيخ أرسلان قال فيه : " ورسالته هذه تغني السالك عن كتب كثيرة في هذا الشأن فإنها احتوت فوايد جمة ونكت مهمة ، ولا بد للكامل منها ولا غنى للعارف عنها " . (٣)

وكذلك شرحها الشيخ عبد الغني النابلسي (ت١١٤٣هـ/١٧٣٠م) (٤) فذكر أنها مشمولة بالأنظار الإلهية المعطرة و" بالأنفاس الطيبة والنفحات القدسية ، تتألق بروق المعارف من مطالع أفلاكها ، وتتناثر درر اللطائف من قلائد أسلاكها تنفح في رياضها كمائم القبول ، فليس من العجائب أن أنشد في وصفها وأقول :

عن أرسلان جاء علم الحقائق   حيث أهدى رسالة للخلائـــق
كل حرف منها يشير لمعنـــى   سائق نحو ذروة المجد شائق

وقد أطلق الشيخ النابلسي على شروحه تلك " كتاب خمرة الحان ورنة الألحان ، شرح رسالة الشيخ أرسلان " . (٥)

إن رسالة الشيخ أرسلان في التوحيد والتصوف لا يتجاوز متنها عشر صحائف ، ومن أبرز موضوعاتها الحديث عن الشرك الخفي ، والإيمان واليقين ، الشريعة والحقيقة ، المؤمن والعارف والمقامات ، والعلم والعمل ، الفناء واليقين ، درجات الإخلاص والمحبة ، البلاء والنعمة ، العبد والرب ، الشريعة والطريقة والمعرفة ، العوام والخواص ، خواص الخواص .

التوحيد عند أهل التصوف على وجهين شريعة وحقيقة أو طريقة يرتبط بهما علما الظاهر بالشريعة ، والباطن بالحقيقة . وقد أخذ الشيخ أرسلان بجانب الشريعة أكثر من الحقيقة ، مستعيناً بالفكرة دون اللفظ ، ومبسطاً فكرة التصوف لأذهان الناس دون التعمق في مصطلحات الصوفية العويصة وفلسفتها المبهمة . (٦)

==

(١) نقل المخطوط إلى مكتبة الأسد
(٢) الأيوبي : مخطوط تذكرة ج٢ ص٢٦٩أ - ابن طولون : غاية البيان ص٨٧-ص١٠٠-١٠١
(٣) الخطيب :مخطوط رقم ١٤٤٩ ص٢ظ
(٤) هو العالم العارف صاحب التصانيف العالية والتآليف البديعة وله الكرامات والكشوف الظاهرة ، دفن بداره بالصالحية - الصيادي : الروضة البهية ص٨٩
(٥) ابن طولون : غاية البيان ص٨٧ - النابلسي : خمرة الحان ص٣-٤ - حصرية : المرجع نفسه ص١١٧
(٦) ابن طولون : غاية البيان ص٧٦

لم تخرج رسالة الشيخ أرسلان إلى النور إلا بنور الإيمان الذي لاح في نفس مؤلفها قولاً وفعلاً في الإخلاص والصدق والتقرب إلى الله تعالى فإن العمل بالجهاد المقدس يقود الناس إلى ما يرضي الله تعالى ، وهذا ما يؤرق أجفان الفرنجة الصليبيين ، ويحرمهم من لذة الوصول إلى دمشق وقد أوشكوا السيطرة عليها .

إن من مزايا هذه الرسالة أنها تعالج سر هذا الكون ، وتنبه الإنسان بأنه لا يوّحد الله تعالى حق التوحيد بل يدخل مضمون توحيده تحت الشرك الخفي ، وأن عليه أن يحاسب نفسه قبل أن ينزل به حساب ربه ، وأن يرى نفسه قبل أن يراه الله بالأفعال الصالحة . لم يحدد كتاب الله تعالى تعريفاً عن الشرك الخفي ، بل أشار صراحة إلى الشرك المطلق ، ولكن النوعين بنظر الأرسلاني شرك محقق ، مصير صاحبه إلى النار وتحريم جسده عن الجنة ، والشرك الخفي لا يبدو لصاحبه بل يظهر لاستيلاء الغفلة على قلبه .

أما نص الرسالة الأرسلانية فقد أخذناها من كتاب الشيخ عبد الغني النابلسي وعنوانها " خمرة الحان ورنة الألحان" فيمكن تلخيصها بقوله : كلك أيها الإنسان في ذاتك عموماً وخصوصاً في صفاتك وأسمائك وأفعالك وأحكامك شرك خفي عنك غير ظاهر لك ، كلما أخلصت لله بخروجك عن نفسك ، يظهر لك أنه سبحانه وتعالى الموجود بالوجود القديم الأزلي ، ولا وجود لك مطلقاً ، لأنك مخلوق ، ولا بد لك من أن تجدد له تبارك وتعالى الإيمان والتوحيد لأنه هو الله القادر الفعال ، إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، أما أنت فعبد موحد مؤمن ، لأنك مخلوق ، ولابد لك أن تجدد له تبارك وتعالى .

ولا بد من الجمع بين التوحيد ، والإيمان لأن أحدهما لا يقوم بدون الآخر، ومن ليس لديه إيمان أو تصديق بحقيقة توحيده ، فهو هالك . وكلما أعرضت أيها العبد عن أنانيتك زاد إيمانك تصديقاً بالله تبارك تعالى وابتعدت عن الحجاب يا أسير الشهوات والعبادات ، يا أسير المقامات والمكاشفات ، مغرور أنت مشتغل بك عنه ، أين الاشتغال به في الطاعة وإخلاص العبودية عن ذاتك ونفسك ، وهو عز وجل حاضر ناظر ، وهو معكم أينما كنتم في الدنيا والآخرة ، فإذا كنت معه حجبك عنك ، وإذا كنت معك استعبدك له . الإيمان أيها العبد خروجك عن شركك الخفي به واليقين خروجك عنك إليه بإخلاص الطاعة له . (١) إذا زاد إيمانك نقلت من حال من التقوى والرضا إلى حال آخر بموجب الطاعات الظاهرة عبر الجوارح ، والباطنة عبر الإيمان والتوحيد ، وإذا زاد يقينك به عز وجل نقلت من مقام إلى مقام . الشريعة المحمدية جعلت لك ولكل الأمة من الله تعالى . والحقيقة هي حقيقة الشريعة ، أو حقيقة البيان الإلهي على ما هو عليه ، لا على حسب فهم القاصرين له .

---

(١) النابلسي : خمرة الحان ص١٠٨

الأعمال متعلقة بالشرع الشريف تتمثل بالأوامر القطعية والظنية ، التي يقوم بها العباد ، أما التوكل عليه سبحانه وتعالى ، فمتعلق بالإيمان ، والتوحيد متعلق بالكشف الصحيح . وأشار إلى أن الناس تائهون عن الحق متكلون إلى العقل ، الذي يخدم أغراضهم ، التي يدركون بها الأشياء بصورها ، مبتعدون عن الحق تعالى ، فضلوا ، مع أن الله تبارك وتعالى خلق العقل ليكون نور الروح ، وهو بمنزلة اللسان للجسد ، لكنهم بقوا تائهين عن الآخرة بالهوى فمتى طلبت الحق بالعقل أيها الإنسان فقد ضللت ، و كذلك متى طلبت الآخرة بالهوى فقد ضللت (زللت). المؤمن الحق هو الذي ينظر بنور الله.

وأشار بعد ذلك إلى أن أول المقامات المؤدية لرضا الله تعالى : الصبر على مراده ، وأوسطها الرضا بمراده ، وآخرها أن تكون بمراده . وذكر أن العلم طريق العمل والعمل طريق العلم والعلم طريق المعرفة ، والمعرفة طريق الكشف ، والكشف طريق الفناء (١) .

وتابع بعد ذلك موضحاً أن اليقين بالله تعالى يكون بسكون القلب إلى الشيء والطمأنينة به حتى لا يبقى في القلب حركة إلى سواه مطلقاً . واليقين عند الشيخ يدخل في ثلاث مراتب : أما الأولى فعلم اليقين ، ومن ثم عين اليقين ، ويفهم منه وجدان ذلك في النفس وشهوده في العبد وذوقه له ، بحيث يستغني عن الاستدلال على صحته . وفي المرتبة الثالثة يأتي حق اليقين ، فتجد ذلك فيك ، وتجد فهمك لذلك فيعين وجدانك له ، وإن وجودك ينمحي مع وجود الحق تعالى . (٢) وتطرق الشيخ أيضاً إلى الشريعة والحقيقة ، فقال : إن الشريعة المحمدية حق لكل أمة ، والحقيقة هي حقيقة الشريعة أو حقيقة البيان الإلهي على ما هو عليه لا على حسب فهم القاصرين له ، فلا فرق بينها وبين الشريعة إلا بحسب كمال الفهم وقصوره .والأعمال المتعلقة بالشرع هي الأوامر القطعية والظنية التي يقوم بها العباد . (٣)

ثم شرع بعد ذلك في ذكر أحوال المحبوبين وبيان ما هم عليه من الانحراف عن الحق المبين ، فهم تائهون في الحيرة واقعون لتحقيق أغراضهم في الدنيا ، بعيدون عن الحق تعالى ، متكلون على العقل الذي يحققون عبره أغراضهم بعيداً عن رضا الله تعالى ، مع أن هذا العقل نور خلقه الله تعالى للروح ، اعتمد فيه الناس على معرفة الله تعالى لكنهم ضلوا وأضلوا ، وفهموا خلاف المقصود وآمنوا بخلاف

---

(١) النابلسي : خمرة الحان ص١٠٩
(٢) حصرية : المرجع السابق ص٩٤-٩٥
(٣) النابلسي : خمرة الحان ص٢٥ - حصرية : المرجع السابق ص٩٥-٩٦-٩٨-١٠٠

المراد من معرفة الشريعة والدين اعتقاداً وعلماً وعملاً ، فابتدعوا وخالفوا القرآن والسنة الشريفة . (١) العبادات للمعاوضات ، والمحبة للقربات (٠٠٠ أعددت لعبادي ٠٠٠) الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . لما أرادوني لي أعطيتهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت .

ثم انتقل بعد ذلك لتقسيم المقربين إلى الله تعالى وهم العوام والخواص وخواص الخواص ، فالعوام يؤدون ما تفرضه الشريعة عليهم من عبادات وطاعات مفروضة ظناً منهم أنهم يتقربون بها إلى الله ، وما أدراهم أن عبادتهم كلها قامت على الجهل وعدم الفهم لتعاليم الدين فأوصلتهم إلى الشرك الخفي .

وتحدث بعد ذلك عن طبيعة الإنسان ، كيف خلقه الله في أحسن تصوير ووجهه بالعقل ينفرد به على سائر المخلوقات ، فكيف يفكر أن يعصي الله ويكفر بنعمه ، لذلك فإن الخواص يتحولون بطاعاتهم وعبادتهم امتثال أوامر الله ، فيجب عليك أيها الإنسان أن تترك أهواءك ونفسك العدوة لك حتى ينفك الحجاب عنك فالله تعالى ليس بمحجوب على أحد من خلقه ، بل إن الذين اتبعوا الشهوات ، هم المحجوبون عن رضوان الله تبارك وتعالى. (٢)

أما الحديث عن وفاة الشيخ أرسلان رضي الله عنه ، فقد تضاربت آراء المصادر في تحديد سنة وفاته ، لتناقلها المعلومات عن مصدر واحد فوقع الخطأ ، لكن هذا لا يمنع اختلاف بعض المصادر الأخرى في نسبة الوفاة . لذلك اعتمدنا على التحليل لمعرفة تاريخ الوفاة من واقع عصره ومعاصريه ، فبعض المصادر أشارت إلى أن تاريخ وفاته كان سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م (٣) وآخر يقول : إن تاريخ الوفاة يعود لعام ٥٩١هـ/١١٩٤م ، وثالث يعتبره من وفيات نهايات القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي وهكذا ٠٠٠ فإذا كانت وفاة الشيخ أرسلان سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م فكيف سيتسنى للسلطان نور الدين أن يعمل على بناء زاويته الأرسلانية ، علماً بأن السلطان العادل نور الدين ، لم يدخل دمشق حتى عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م (٤) .
ولما كانت وفاة الشيخ أرسلان تقع بين عامي ٥٥٠ – ٥٦٠ هـ/ وهذا يفيدنا أن السلطان الزاهد أرسل له مبلغاً من المال ، لكن الشيخ رفض طلبه في قبول المال ، أو حتى المشاركة في بناء الزاوية هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فإن الشيخ أبو البيان

==

(١) النابلسي : خمرة الحان ص٤٣ - حصرية : المرجع نفسه ص١١٥
(٢) النابلسي : خمرة الحان ص٩٠-١٠١-١-٣-١٠٤-١٠٥
- حصرية : المرجع نفسه ص١١٢
(٣) حصرية : المرجع نفسه ص١٥٤
(٤) ابن طولون : غاية ص٥٢-٦٠

حاز على ترجمة لسيرة حياته من قبل معاصريه والمتأخرين ، ولم يخطىء أحدهم في تاريخ وفاته سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م وقد أرسل هو الآخر للشيخ أرسلان مبلغاً من المال لبناء زاويته ، فكيف يتسنى للشيخ أرسلان بناء زاويته هذه بحدود ٥٤٠هـ/١١٤٥م ، فهل يعقل أن يكون الشيخ أرسلان الذي شاهده الشيخ أبو البيان قد توفي ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م(١) وأن الزاوية الرسلانية قد تم بناؤها بين عامي ٥٤٩هـ/١١٥٤م ، أو ٥٥٥هـ/١١٦٠م ، وهو تاريخ وفاة أبي البيان رحمه الله أي بعد وفاة الشيخ أرسلان بين تسع سنوات إلى أربعة عشر عاماً متقاربة .

وهذا يؤكد عدم صحة ما ورد حول السنة التقريبية لوفاة الشيخ أرسلان رحمه الله تعالى ، وتنقل رواية أخرى أن وفاة الشيخ أرسلان هي سنة ٥٦٠-٥٦١هـ/١١٦٥-١١٦٦م ، وهو اجتهاد من الإمام الذهبي ، أو أنه نقله عن شيوخه بطريق الإجازة ونقل عنه الصفدي في كتابه الوافي ونقل عنه أيضاً علي بن محمد الخطيب لأن كل المصادر المتأخرة هي في الغالب نقول عن الذهبي . (٢)

والملفت للنظر أن يعود المناوي وهو من أحياء القرن الحادي عشر الهجري لمناقضة نفسه حين يترجم لابن أرسلان ، ويذكر أنه قد توفي سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م ، ثم يترجم للأب بعد ذلك على أنه من وفيات القرن السابع الهجري (٣) ، فكيف تكون وفاة الابن في أواخر القرن السادس الهجري ، ووفاة الأب في القرن السابع الهجري ، علماً بأن المصادر تشير إلى أن الشيخ لم يعقب أبدا .(٤)

ومن الأخطاء الفادحة ما يحكى أن شيخ الإسلام تقي الدين السبكي ، ذكر أنه حضر سماعاً فيه الشيخ أرسلان ، فأنشد القوال والشيخ يثب في الهواء ويدور ثم ينزل إلى أن استقر على الأرض ، فاستند إلى شجرة يابسة فأثمرت . (٥) هذه الرواية ورد فيها حضور تقي الدين السبكي للسماع ، ولا يعقل هذا قطعاً ، لأنه كان

==

(١) البدري: نزهة الأنام ص٩١ - الصيادي : الروضة البهية ص٨٧
(٢) الذهبي :سير ج٢٠ ص٣٧٩ - الصفدي : الوافي ج٨ ص٣٤٥
- مجموع مخطوط ١٥ رسالة ترجمة الشيخ رسلان ٤١٣٤ ص١٤٠ظ
- الخطيب : مخطوط شرح عقيدة الشيخ ١٤٤٩ ص٢ و
- النبهاني : جامع كرامات الأولياء ج٢ ص٧٥
(٣) المناوى : مخطوط الكواكب الدرية ص٣٩٥ظ ، الكواكب مطبوع ص١٠١
(٤) ابن طولون : غاية البيان ص٧١ - المناوي : الكواكب مخطوط ص٣٥٩ظ
(٥) المناوي : الكواكب مخطوط ص٣٥٩ظ

من أحياء القرن السابع والثامن الهجريين أيام الحكم المملوكي ، فكيف أدرك الشيخ أرسلان وشاهده في القرن السادس الهجري ؟ ...

والملاحظ هنا أن المناوي لم يوضح لنا من هو تقي الدين السبكي ، وفي أي عصر عاش ، وماذا تولى من المناصب ، لربما يكون هذا الرجل معاصراً للشيخ وهو من غير آل السبكي المعروفين في القرن الثامن الهجري وما بعده ، (١) أو أن هناك التباساً وقع به المناوي منذ البداية ، حين أرخ وفاة الشيخ أرسلان في نهاية القرن السابع الهجري ، ويكون السبكي المذكور جد الأسرة قبل أن تنال مكانتها وحظوتها في القضاء والخطابة والإفتاء والتاريخ والحديث والفقه والتدريس بصورة عامة في المدارس والمساجد في تلك الفترة ، أو أن يكون هذا شخصية غير معروفة بالنسبة لنا في فترة ظهوره أيام الشيخ أرسلان .

وعلى كل حال لا بد من الكشف عن نوع الالتباس عبر البحث الدقيق مع المصادر المخطوطة التي لم يتح لنا الاطلاع عليها للكشف عن حقائق غير واضحة إلى الآن . وبكل الأحوال فإن ابن طولون أكد على وفاة الشيخ أرسلان سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م ،(٢) وهو الأقرب إلى الصحة والإقناع ، ولا شك أنه جاء بها من مصادر هي ليست في متناول أيدينا حتى الآن ، إلا ما ورد حول تشابه الآراء مثله بين ٥٥٠ ـ ٥٦٠ هـ/ ١١٥٥ ـ ١١٦٥م .

والذي أربك وجعل سنة وفاة الشيخ رحمه الله غامضة ، تجاهل المصادر المعاصرة للشيخ مثل ابن عساكر وابن القلانسي ، علماً بأن الحافظ ابن عساكر لم تفته شخصية وصلت إلى دمشق ، فكيف بمن هو من أبنائها ؟

==

(١) ابن طولون : غاية البيان ص١٢٣- ١٢٤- حصرية: المرجع نفسه ص١٥٤ -١٥٧

(٢) ابن طولون : غاية البيان ص٥٢-٥٣

- **الشيـخ أبـــو البيـــــان :**

ومن أولياء الله الصوفية الشيخ أبو البيان محمد بن محفوظ القرشي الدمشقي الصوفي المعروف بابن الحوراني ، شيخ الطريقة البيانية المنسوبة إليه بدمشق . كان عالماً إماماً عابداً كبير القدر ، عاملاً زاهداً ورعاً ، لغوياً تقياً ملازماً للعلم والمطالعة ، كثير العبادة والمراقبة ، كبير الشأن ، بعيد الصيت ، ملازماً للسنة والأثر والعلم والأدب سلفي المعتقد ، له مؤلفات ومجاميع وتعاليق وطرق وأشعار ربانية وزهدية ، وردّ على المتكلمين ، وأذكار مطبوعة مسجوعة ، سمع من أبي الحسن ابن الموازيني ، وأبي الحسن ابن قبيس المالكي . وللشيخ أصحاب ومريدون وفقراء بهديه يقتدون . (١)

كان هو والشيخ أرسلان شيخي دمشق في عهدهما ، علماً أن مناقب الشيخ وفضائله وبركاته كانت كثيرة مشهورة ومعروفة . (٢)

ومما حكي عن الشيخ أبي البيان ، أنه دخل مرة من باب الساعات إلى الجامع الأموي ، فرأى جماعة في الحائط الشمالي يثلبون أعراض الناس فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال : اللهم كما أنسيتهم ذكرك فأنسهم ذكري . (٣)

لقي الشيخ مكانة كبيرة في عصره ، فقد جلس مجاوراً للشيخ أرسلان في المسجد الذي عند باب توما بدمشق ، (٤) وكان الشيخ أرسلان قد انتقل قبل ذلك إلى مسجد درب الحجر ، وجلس في الجانب الشرقي منه ، بينما استقر الشيخ أبا البيان في الجانب الغربي منه ، وتلازما زماناً يتعبدان ، ولكل واحد منهما أصحابه ، ثم خرج الشيخ أرسلان إلى ظاهر باب توما إلى مسجد خالد بن الوليد .توفي الشيخ أبو البيان سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م ، (٥) وشيعه خلق كثير، وقبره يزار بباب الصغير ، وقد ذكر العدوي أنه بجانب قبر الشيخ الفندلاوي ، (٦) ومما يؤسف له أن الحافظ ابن

==

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٣٥٦ ، العبرفي خبر من غبر ج٢ ص١٤٤-١٤٥ - اليافعي : مرآة الجنان ج٣ ص٢٩٨ - السخاوي : طبقات الأولياء ص٧٠ظ - مجموع ١٥ رسالة ترجمة الشيخ رسلان ٤١٣٤ ص١٤٢ و - ابن العجمي : الطبقات الصغرى للشافعية مخطوط ١٣٥٥٤ ص٢٨٨ و - ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢ ص٢٥٣
- العدوي : المصدر نفسه ص٥٣

(٢) العدوي : المصدر نفسه ص٥٣

(٣) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٣٩
- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٤ ص١٦٠

(٤) الحصني : المرجع السابق ج٢ ص٤٨١

(٥) مجموع ١٥ رسالة ٤١٣٤ ترجمة ص١٤٠ظ
ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٤ ص١٦٠

(٦) العدوي : المرجع نفسه ص٥٤

عساكر لم يذكر له ترجمة مع أنه أحد أشياخ دمشق الكبار ، كما لم يرد له ذكر لدى ابن خلكان في وفياته ، ربما يكون السبب في ذلك عدم ميل الحافظ ابن عساكر للصوفية وأعيانها .

أسس الشيخ أبو البيان رباطاً مثلما فعل الشيخ أرسلان داخل باب شرقي ، وتداخل المريدون على الشيخين ينهلون من العلم والأدب ، يفيدون من التوجيه والإرشاد إلى طريق الحق سبحانه وتعالى ، يضيء أمامهم ما أظلم من جوانب النفس حتى يصدق المريد في عبادته لله تعالى باليقين ونور البصيرة . (١)

وذكر أن الشيخ نصر تلميذ الشيخ أبي البيان الدمشقي شيخ الطائفة أو الطريقة البيانية المنسوبة إليه بدمشق ، قد أرسل إليهم السلطان نور الدين الشهيد يمنعهم من بناء الرباط ، لأن الرباط المنسوب للشيخ أبي البيان لم ينشأ إلا بعد موته بأربع سنوات .

لكن السلطان نور الدين تراجع وأرسل لهم المال والخشب لبنائه ، وأوقف عليه مكاناً بجسرين ، (٢) خاصة حين أبلغه موفده بما سمع من الشيخ نصر قوله : أنت رسول محمود الذي يمنع الفقراء من البناء ، ارجع إليه وقل له " بعلامة ما قمت في جوف الليل ، وسألت الله في باطنك أن يرزقك ولداً ذكراً من فلانه " لا تتعرض إلى جماعة الشيخ وتمنعهم ، فعاد الرسول إلى السلطان ، وقصّ عليه ما جرى فقال : والله العظيم ما تفوهت بهذا لمخلوق ، ثم أمر بعشرة آلاف درهم لبناء الرباط . (٣)

اتحد الشيخ أرسلان مع الشيخ أبي البيان اتحاداً وثيقاً في العمل والهدف ، يتمم أحدهما الآخر في أحلك وقت عاشته دمشق ، في مواجهة الغزو الفرنجي ، فتردد المريدون إلى الرباطين ينهلون من العلم والأدب والإرشاد إلى الطريق الحق ، لإضاءة ما أظلم من جوانب النفس ، وليتم تعبد الله تعالى على علم اليقين والبصيرة ، يتقدم المريدون لمبايعة الشيخين الابتعاد عن دنيا الشهوات والمفاسد والتحلي بالمثل العليا الرفيعة للالتحاق بركن الإحسان ، الركن الطليعة عند أهل الحقيقة . (٤)

==

(١) حصرية : المرجع السابق ص٧٨ - عبد الرحيم : المرجع السابق ص٣٦
(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٣٢٦ ، العبر في خبر من غبر ج٤ ص١٤٤-١٤٥
(٣) مجموع ١٥ رسالة ترجمة الشيخ ص١٤٣ و
(٤) حصرية :المرجع السابق ص٧٩

ـ الشيـــخ قـضيـب البـــان الموصلــــي :

ومن العلماء المتصوفة البارزين الوافدين إلى دمشق أيام الحكم البوري الشيخ قضيب البان الموصلي رضي الله عنه ، أحد أولياء الله تعالى المشهود له بالأحوال والكرامات ، اتصل بأولياء الله في المناطق المجاورة له منهم ، الشيخ عبد القادر الجيلاني صاحب الطريقة الجيلانية ، فوقع منه القبول التام من الأولياء المخصوصين بالبركة والفضل ، ومن العامة التي استهواها تقواه وورعه وصدقه ، فحاز المكانة المرموقة في أطباق الأرض . كتب الشيخ الصالح في علوم الحقائق واستحضار النفس للوصول إلى طريق النجاة والخلاص بما يرضي رب العزة جلّ وعلا . وعرف الشيخ رحمه الله ، في مجال الشعر الذي أخذ موقع الترجي إلى الله تعالى ، أن يتقبل شكوى المتقربين إليه ، والمحبين له بفضل منه وكرم ينقذهم من الضلال والعذاب . كان الشيخ رحمه الله يتردد إلى دمشق وأوليائها ، لذلك كانت له هذه الوقفة المهمة معنا ، دراسة تعرف به من فاته التعرف به .

ولد الشيخ القدوة قضيب البان وعاش في الموصل وهو في النسب يعود إليها وتوفي بها سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م ، وبها دفن وقبره معروف يزار هناك . (١) عرف بكراماته الظاهرة وأحواله الباهرة ، رحلة السالكين المعروفين بالعرفان (٢) " أحد الأولياء المشهورين ، صاحب الأحوال الفاخرة والإشارات النورانية والأنفاس الروحانية والهمم العليّة والمقامات السنية ، له المعارف الجليلة والحقائق السامية والطور العالي في الكشف ، واليد البيضاء في علوم أحكام الطريقة ، والتصريف النافذ في أحوال النهاية ، والقدم الراسخ في مقامات التمكين ، والحل الأرفع في أسرار العرب " صاحب الهيبة المتوفرة في الصدور ، صرفه الله تعالى في العالم " وفرق له الفوايد ، وسارت الركبان بآثاره ومناقبه مشرقاً ومغرباً . (٣) أظهره الله سبحانه وتعالى إلى الوجود في الحياة الدنيا وأوقع له قبول الناس به وحبهم له .

حاز الشيخ القدوة احترام والتفاتة المشايخ والأولياء ، يذكرونه ويشيرون إلى فضله ووقائعه معهم . كانت الرسائل بينه وبين الشيخ عبد القادر الجيلاني كثيرة حضر مرة مجلس الشيخ الجيلاني وسمع قوله : قدمي على رقاب جميع الأولياء وكان في مجلسه خمسين شيخاً أحدهم شيخنا هذا ، ولم يبق أحد من الأولياء الحضور منهم والغائبين في جميع الأرض إلا حنى له رقبته إلا واحداً لم يفعل فسلب حاله (٤)

==

(١) المناوي : الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ص٣٣٤ظ
ـ الشطنوفي : مخطوط بهجة ص١٥٢ و
ـ التادفي : قلائد الجواهر ص١٢٠
(٢) المناوي : الكواكب الدرية ص٣٤٤ و
(٣) الشطنوفي : مخطوط بهجة ص١٥٠أ
(٤) الشطنوفي : مخطوط بهجة ص١٥٠أ ـ التادفي : نشر المحاسن ص٢٨٩

غلب على الشيخ الوله والاستغراق في العبادة ، فكان من نتائج ذلك أن أظهر له الله الكرامات التي انتشرت في أصقاع الأرض . (١)

وذُكر الشيخ قضيب البان مرة عند قطب الأولياء الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنهما فقال عنه : " هو ولي مقرب وذو حال مع الله ، وقدم صدق عنده عز وجلّ وإخلاص و يقين بالله. (٢)

ولما قال الشيخ عبد القادر الجيلاني " قدمي هذه على رقبة كل ولي " شوهد الشيخ قضيب البان الموصلي رضي الله عنه بين يديه متواضعاً صاغراً وهو يقول : الشيخ عبد القادر رضي الله عنه " قائد ركب المحبين وقدوة السالكين وإمام الصديقين وحجة

العارفين وصدر المقربين في هذا الوقت " . (٣) وكان الشيخ قضيب البان من الحاضرين لمجالس الشيخ عبد القادر ، خاصة حين ينزل الشيخ الجيلاني في رباطه بالحلبة في بغداد ، فيجتمع حوله عامة مشايخ العراق بما فيهم قضيب البان . (٤)

ومن كلام الشيخ قضيب البان في علوم الحقائق قوله : " تصحيح البدايات هو انتقاء الرخصة لمواظبة النفس ، وتحكيم السنة بامتثال الأمر ، وامتثال المشايخ بعدم الاعتراض وإستحقار العمل واستشعار الأجل والتمسك بعروة الإخلاص للنجاة والخلاص ، ولا بد من مشاهدة الحكم والعزم في السلوك بترك الراحة " . (٥)

وقوله : " التحقيق امتزاج الأسرار بالأنفاس مع الحضور " والسر " يتصرف بنورين نور الروح ونور السر ، فيكشف الظاهر بنور الروح ، ويكشف الباطن بنور السر ، وهؤلاء هم الذين جعلهم الله عز وجلّ في زوايا الأرض أوتاداً ومهاداً " . وإن الله عز وجلّ برحمة منه " يودعها ... في قلوبهم بحضورهم وتحقيقهم " . (٦)

ومن أشعار الشيخ رحمه الله :

ياناهري لما وقفت ببابــــــه	والرفق بالشاكي هـو الأولـى بــه
أكذا جرى رسم الذين تقدموا	يشكو المحب الجور مــن أحبـابــه
قال اشتكاني بعد ما قربتــــه	وجعلت لمح الطرف بعض ثوابــه
فوحق حاجته إلـــي وفقـــره	لأوصلــن نعيمـــه بعذابـــــه (٧)

==

(١) التادفي : المصدر نفسه ص١١٨

(٢) المناوى : مخطوط الكواكب الدرية ص٣٤٤ و - الشطنوفي : مخطوط بهجة ص١٥٢ ب - التادفي : المصدر نفسه ص١٢٠

(٣) الشطنوفي : مخطوط بهجة ص١٥٢ و - التادفي : المصدر نفسه ص١٢٢

(٤) الشطنوفي : مخطوط بهجة ص٥ظ

(٥) الشطنوفي : مخطوط بهجة ص١٥٠ ب

(٦) الشطنوفي :مخطوط بهجة ص١٥٠ ب

(٧) الشطنوفي : مخطوط بهجة ص١٥٠ ب - التادفي : المصدر نفسه ص١١٩

هذه نبذة سريعة عن سيرة الشيخ قضيب البان وأبي البيان التقطنا النذر اليسير عنهما مع الإشارة إلى الكتب التي أمكن التوصل إليها .

نلاحظ مما سبق أن رجال التصوف وخاصة الكبار منهم وأصحاب الطرق حازوا على ولاء الرعية وانجذابها إليهم ، وقد مثلوا أقرب صورة واقعية لمأساة الإنسان المتضرر البائس ، فرأى الناس في التصوف وشيوخه ملاذاً دينياً ومهرباً من هموم الحياة ، فكانت وفاة أحد المتصوفة الكبار ، يعمق الألم في القلوب والصدور ، ويكثر الأسف الشديد حتى لتكون ساعة وفاة أحد الشيوخ من الأيام المشهودة لكثرة المشيعين والشهود ، كما حصل في وفاة الشيخ نصر المقدسي والشيخ أبي البيان وكثر من أصحاب الطريقة .

لقي العلماء الصوفية في الدولة البورية مكانة مرموقة فاندفع الأمراء يقدمون لهم الأعطيات والهبات حتى غدت الصوفية ملكة عصرها وفريدة قرنها ، تشغل قلوب الناس وعواطفهم بحب الله تعالى وحب رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .

وأسهمت الصوفية أيضاً في تقديم الدعم والعون للفقراء في الأعطيات ، وفرص التعليم الذي قام على مبدأ التعفف والمساواة ، وهكذا فقد عَلّمَ التصوف الناس سلوك طريق الإيمان للوصول إلى محبة الرحمن ، عبر المكاشفة والمجاهدة بالقضاء على شهوات النفس وتصفية القلب من الأكدار ، فتكون الأعمال الصالحة نقية محوطة بالنورانية الكشفية وأحوالها ، لا يدركها إلا المواظب الصادق في الطاعة لله تعالى .

الباب الرابع

العلوم في دمشق في عهد الدولة البورية

الفصل الأول : العلوم الدينية :

١- علوم القرآن والتفسير
٢- علم الحديث
٣- علم الفقه
٤- علم الفرائض (المواريث)

الفصل الثاني : العلوم اللغوية :

- علم النحو والأدب والشعر والنثر والخطابة

الفصل الثالث : **علم التاريخ والجغرافية**

الفصل الرابع : العلوم العقلية والتطبيقية

١- علم الفلسفة والمنطق
٢- علم الفلك
٣- علم الطب
٤- علم الصيدلة والبيطرة والكيمياء
٥- علم الرياضيات والهندسة
٦- علم الموسيقى

الفصل الخامس :
١- الترجمة
٢- المكتبات

الفصل الأول

العلوم الدينية

مدخل :

دفع الإسلام المسلمين صغاراً وكباراً للسير في طريق العلم والتعلم . وقد بدأ ذلك منذ أيام رسالة النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم ، حين بدأ معه الوحي بقوله تعالى في سورة العلق (اقرأ باسم ربك الذي خلق)(١) والإسلام بشكل عام يدفع الإنسان إلى طلب العلم الذي يهدي إلى الخير والبر ، وقد كرّم الله تعالى الإنسان حين منحه ، أدوات التعلم للتعرّف على حقائق الأمور والأشياء .

وعلى هذا فإن العلم والتعليم والتربية ، من الفضائل الإسلامية الخلقية لتحقيق سعادتي الدنيا والآخرة ، ونبينا الكريم صلى الله عليه وسلم هو المعلم الأول والمربي الأكمل ، وقد اتخذ صلوات الله تعالى وسلامه عليه المسجد الوسيلة الأولى للعبادة ، ثم غدت المدرسة الأم لبث ضياء العلم .

كان العلماء والفقهاء والوعاظ ، يتأسون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتخذون من الكتاب الكريم والسنة الشريفة ، أنواراً للهداية ، يعقدون حلقات العلم والفتيا في أروقة المساجد وحجرات المدارس .

حازت مدينة دمشق مركزاً هاماً في فترة الحكم البوري ، كونها دار قرآن وحديث وفقه ، بما استمدته من قوة مسجدها الكبير ، بما له من مكانة ونفوذ ، ودور مهم في الحركة العلمية ، وبما ضمه من علماء بارزين ، على الرغم من أن ازدهار الأوضاع العلمية ، قد أصابه تقهقر وتراجع خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين .

ولما كان العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، فقد استوجب ذلك واستدعى تقسيمه إلى علوم شرعية ، وعلوم أخرى غير شرعية أو عقلية ، بعضها مباح بدأ معظم الطلبة يتلقونه كعلوم أساسية ، لابد من معرفتها والإلمام بها ، مثل علم الحساب ، وعلم الطب ، وعلم الهندسة ، علم الهيئة ، وقسمة الوصايا والمواريث ، إلى جانب اهتمام بعض الطلبة الغوص بالعلم الرياضي ، متعمقين بمواضيعه في الكمية والمقدار والعدد .

هذا واستدعت الحاجة التعمق في علوم الدين ، من علم الكلام ، وعلم الفقه وأصوله ، وعلم الحديث الشريف ، وعلم التفسير ، وعلم الباطن ، بالإضافة إلى علوم الآداب ، التي يدخل في مضامينها ، علم الكتابة والقراءة ، وعلم اللغة ، وعلم النحو ، وعلم الشعر والعروض والأمثال والإنشاء ، والدواوين ، والتصريف ، بالإضافة إلى فروع من العلم الطبيعي كعلم الطب ، وعلم البيطرة ، وعلم النبات ، وعلم الحيوان والفلاحة ، وعلم المعادن ، وعلم أحكام النجوم ، وعلم الكيمياء ، وعلم السيمياء .

بعد هذا المدخل يمكننا أن نرسم صورة عن الحياة الثقافية والعلمية في ظل الإمارة البورية ، من خلال إسهام فريق من العلماء ورجالات الثروة ، في نشر العلم والتعليم ، عبر بناء المدارس ، وتوسيع بناء الربط والخانقاوات ، مع التركيز الأكبر على المساجد والجوامع الجامعة ، لتنشيط مجالات العلوم والمعارف

==============================

(١) سورة العلق : آية ١

١ـ علوم القرآن والتفسير :

لقيت العلوم الدينية الممثلة بعلوم القرآن والتفسير والحديث والفقه وأصول الفقه ، الاهتمام الأكبر من العلماء والفقهاء ، إلى جانب دعم الحكام والأمراء لهذه العلوم ، ومردّ ذلك أن هذه العلوم تشكل تلبية مباشرة للحاجات الشخصية ، بالإضافة إلى خدمات تنظيم المجتمع الإسلامي عموماً .

والحق يقال ، إن تتابع حركة إحياء علوم الدين فتح المجال واسعاً أمام أبحاث دراسة القرآن الكريم ، والحديث الشريف والفقه . وتوجه العلماء إلى التخصص في بعض الموضوعات من العلوم الدينية ، على الرغم مما عرف عنهم من باع طويل في رواية الحديث ، أو القراءات ، فأحاطوا بجزء من هذا العلم ، ومن ذاك .

ومع هذا فالإلمام والشمولية ، كانت واضحة في هذا العصر ، بالنسبة لكل العلوم ، وبرز الإهتمام بالثقافة الدينية ، إلى جانب غيرها من العلوم ، ولم يسمح للمدرس أن يتحول إلى التدريس ، من دون الحصول على الموافقات والتواقيع ، على مختلف أنواع الموضوعات ، من تفسير وحديث وفقه ولغة ونحو .

أ – **علم التفسير** :

التفسير في اللغة هو الإيضاح والتبيين ، وهو مأخوذ من الفسر وهو الإبانة والكشف ، وفي الاصطلاح هو معرفة معاني كتاب الله عزّ وجلّ ، وما أريد به ، المنّزل على الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ، والغاية من ذلك ، معرفة أحكامه وحكمه ، وكذلك معرفة العلوم الموصلة إلى علم التفسير ، وأحكام الناسخ والمنسوخ . ويستعان من أجل ذلك بعلم أصول الفقه وعلم الجدل . (١)

دفع الاهتمام بعلم التفسير ، التعمق في معرفة أسباب النزول ، وناسخ الآيات ومنسوخها ، واشترط على الدارس امتلاك الموهبة والمنهج العلمي الواسع . ولابد من الإلمام باللغة والنحو والتصريف ، والاشتقاق والمعاني ، والفقه والأحاديث .

وتخصص بعض الدارسين بفقرة معينة من فقرات علم التفسير ، كأن يبحث الدارس في الناسخ والمنسوخ ، أو أسباب النزول ، أو أحكام القرآن الكريم . (٢)

==

(١) السخاوي : إرشاد القاصد إلى سنى المقاصد نسخة مصورة ص٦١
ـ محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ١٩٦٢م ص١٣ـ١٤
(٢) البدوي : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام مطبعة نهضة مصر ص١٠٨ـ١١١

وتخصص بعضهم بعلم التفسير حتى صار إماماً من الأئمة في هذا العلم ، فكان العالم مسعود بن محمد الطريثيثي قطب الدين النيسابوري ، إماماً في التفسير توفي سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢ م . (١) ومن أئمة التفسير أيضاً ، يحيى بن خلف بن نفيس أبو بكر الغرناطي ، ويعرف بابن الخلوف ، كان إماماً حاذقاً وأستاذاً عارفاً بالتفسير كثير التصنيف فيه ، توفي سنة ٥٤١هـ/١١٤٦ م . (٢)

وجمع عدد من العلماء بين التفسير وعلم القراءات ، فتصدر محمد بن عبد الرحمن المخزومي الشاطبي للإقراء ، كان إماما في التفسير والقراءات توفي سنة ٥١٩هـ/١١٢٥ م . (٣) ودرّس العديد من العلماء التفسير في المسجد الجامع والمدارس لكن الدور الأكبر تركز على المساجد ، فهذا علي بن الحسن أبو الفضائل الكلابي (ت٥٦٢هـ/١١٦٦ م) الفقيه كانت له حلقة في المسجد الجامع في العمود الثاني من الرواق الشرقي في المتوسط ، يدرّس علوم التفسير . (٤)

وتفرد بعض العلماء لعقد مجالس خاصة في علم التفسير ، فقد عقد الشيخ عبد الوهاب الحنبلي الفقيه (ت٥٣٦هـ/١١٤١ م) مجالس يذكر في المجلس الواحد مجلدة في التفسير (٥) .

وبرز الفقيه جمال الإسلام ابن المسلم أبو الحسن السلمي (٥٣٣هـ/١١٣٨ م) بالمامة بعلم التفسير إضافة إلى إلمامه بعلوم أخرى، وقد وضع في مجال علم التفسير مصنفات عديدة منها ، الجريد في تفسير القرآن المجيد . (٦) ونزل محمد بن أسعد ابن نصر أبو المظفر ابن الحكيم البغدادي العراقي الحنفي ، دمشق وألّف كتاباً في تفسير القرآن الكريم توفي سنة ٥٦٧هـ/١١٧١ م . (٧)

سمع كثير من الطلبة التفسير ، ثم غدوا أساتذة فيه ، فقد سمع زين الدين الواعظ ابن نجا الدمشقي الفقيه الحنفي التفسير ، ثم صار من أبرز المفسرين ، وقد تابع سماع درس خاله شرف الإسلام عبد الوهاب الحنبلي ، (٨) وأشرف العديد من العلماء على

==

(١) الداودي : طبقات المفسرين ج٢ ص٣١٩-٣٢٠
(٢) ابن الجزري : غاية ج٢ ص٣٦٩
(٣) السيوطي : طبقات المفسرين ص٩٣
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص١٠-١١
(٥) الداودي : طبقات المفسرين ج١ ص٣٦٢-٣٦٣ - النعيمي : المصدر نفسه ج٢ ص٦٥
(٦) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص٢٣٦
(٧) قطلوبغا : تاج التراجم ص٥٣
(٨) الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر قسم١ شعراء الشام ج١ ص٧٧

تفسير القرآن الكريم ، فكان منهم محمد بن محمد بن ظفر المكي الأصل المغربي المنشأ ، سكن الشام في آخر عمره ، وكان يلقب بالحجة ، أمّه الطلبة وصنّف التصانيف وفسر القرآن الكريم تفسيراً جميلاً توفي بحماه (ت٥٦٨هـ/١١٧٢ م) (١) وروى بعضهم التفسير عن العلماء ، فهذا عبد الله بن مسعود بن عمران المعروف بابن الباقلاني أبو بكر الواسطي ، روى عن ابن عساكر كتاب التفسير الوسيط الواحد وتوفي سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦ م .

ب – علم القراءات :

حظي كتاب الله تعالى القرآن الكريم ، بالعناية والدرس في تفسيره وقراءاته غريبه ومجازه وأمثاله . واستوجب المشتغل في علم القراءات أن يكون حسن الإطلاع على معاني القرآن الكريم ، ليتمكن من تلاوة القسم المناسب منه للموضوع المركزة الأضواء عليه . والمقرىء هو الذي يُقرىء القرآن الكريم ، ثم غلب هذا اللقب على مشايخ الإقراء السبعة القديرين والمجيدين لتعليم علم القرآن الكريم . (٢)

عرفت دمشق منذ وقت مبكر الاهتمام بعلم الإقراء ، وكان من أبرز المواد المدرسة في الجوامع والمدارس. وافتُرض في المقرىء أن يكون ملماً بالقراءات العشر أو السبع ، ومن أنواع القراءات السبع القراءة بحرف عاصم ، (٣) وقد قرأ بها محمد بن علي بن ميمون أبو الغنايم ابن النرسي الكوفي الحافظ ، قدم إلى دمشق وكان حافظاً لكتاب الله تعالى ، بحرف عاصم توفي سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م . (٤)

==

(١) ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ج١ ص٤٦٠-٤٦١

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج٥ ص٤٦٣ - د. موسى باشا : مقال دور العلم ص١٠٦

(٣) أبو بكر عاصم بن أبي النجود ، قرأ القراءات على أصحاب سيدنا عثمان وعلي وابن مسعود وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ، رضي الله عنهم أجمعين ، تميزت قراءة عاصم ، لدرجة أن أهل الكوفة كانوا يختارون قراءاته ، توفي سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٤ م - ابن الجزري : تقريب النشر في القراءات العشر تحقيق إبراهيم عطوة عوض دار الحديث القاهرة ط٢ ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م ص٢-١٩
- ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص٢٧٨ - الطباخ الحلبي : الثقافة الإسلامية طبع مكتبة طباخ إخواني بحلب ص٨٣ -

(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٧٦٥-٧٦٦

وهنالك من قرأ القرآن بحرف ابن عامر ، (١) قرأ به سلطان بن يحيى بن علي أبو المكارم بن أبي المفضل القرشي القاضي ، (٢) وقرأ بحرف ابن عامر أيضاً علي ابن الحسين بن أبي الفضائل الكلابي ، على سبيع بن المسلم ، وقرأ على غيره بحروف كثيرة ، ثم صار يقرأ القرآن بالمسجد الأموي في الرواق الشرقي . (٣)

يُفضل للمقرىء أن يبقى على الدوام مواظباً على تلاوة القرآن الكريم ، لأنه " مصباح قلبه وصلاح قربه " يأمل به القبول والرضا من الله تعالى ، وإذا تلاه فليستعذ بالله تعالى ، ثم ليتله بحروفه ، وليجمع طرقه التي عليها جمهور العلماء ، ويترك الشواذ ، ولا يخرج عن قراءة القراء السبعة ، ابن عامر ، عاصم أبو عمرو ، (٤) ابن كثير، (٥) نافع ، (٦) الكسائي ، (٧) الزيات . (٨)

ولما كان لكل قارىء في القراءات السبع أو العشر ، رواة يؤخذ عنهم أصول القراءة ، لذلك لابد أن نتعرف على بعض من قرأ بالسبع ، وبعض من قرأ بالعشر .

---

(١) أبو عمران عبد الله بن عامر الدمشقي ، وهو من أسنّ القراء السبعة وأعلاهم إسناداً ، قرأ على سيدنا عثمان وقرأ على أبي الدرداء أيضاً رضي الله عنهما ، توفي سنة ١١٨هـ / ٧٣٦م ـ ابن الجزري : تقريب ص٢-١٩ ـ الطباخ : الثقافةالإسلامية ص٨٣

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٧ ص٣٨٨
ـ بدران :المرجع السابق ج٦ ص١٨٩

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٢ ص١٠-١١
ـ القفطي : إنباه الرواة ج٢ ص٢٤١-٢٤٢

(٤) زبان ابن العلاء البصري ، كان غزير العلم ثاقب الفهم ، قرأ على جملة من التابعين من أهل الحجاز والعراق ، منهم سعيد بن جبير ، توفي سنة ١٥٤ـ ١٥٥ هـ / ٧٧٠-٧٧١م . ابن الجزري : تقريب ص٢-١٩

(٥) أبو معبد عبد الله بن كثير المكي ، قرأ القرآن بالقراءات ، على مجاهد وغيره من التابعين ، وقرأ على بعض أئمة أهل البصرة ، توفي سنة ١٢٠هـ / ٧٣٨م
ـ ابن الجزري : تقريب النشرص٢-١٩ ـ الطباخ الحلبي: الثقافة ص٨٢

(٦) الإمام أبو عبد الرحمن نافع بن أبي نعيم المدني ، قرأ على سبعين من التابعين ، توفي سنة ١٦٩هـ / ٧٨٥م ـ ابن الجزري : تقريب ص٢-١٩

(٧) أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي ، إمام نحاة الكوفة انتهت إليه الرئاسة في القراءة بعد حمزة الزيات ، كانت له مكانة عظيمة عند الناس ، يأخذون عنه ألفاظه بالقراءة وتنقيط المصاحف . ـ ابن الجزري : تقريب ص٢-١٩

(٨) أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات من رجال صحيح مسلم ، وهو إمام أهل الكوفة بعد عاصم ، أثنى أهل الكوفة على زهده ، توفي سنة ١٥٧هـ / ٧٧٣م
ـ ابن الجزري : تقريب النشرص٢-١٩

فقد قرأ هبة الله بن طاووس المقرىء القرآن على والده ، ثم تفقه على أبي البركات بالقراءات العشر . (١) ويمكن أن يقتصر البعض على رواية واحدة ، إما قراءة ابن عامر قراءة ابن عمرو .

ولاشك أن قراءة ابن عامر كان لها شهرتها وأهميتها في الشام ، فقد قرأ رشأ بن نظيف بن ما شاء الله (ت ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م) القرآن على أبي الحسن بن داود والداراني بحرف ابن عامر ، ثم أملى القرآن على جماعة من العراق ومصر بعدة روايات ، كان أستاذاً في قراءة ابن عامر . (٢) أما هبة الله بن طاووس (ت ٥٣٦هـ / ١١٤١م) إمام جامع دمشق ، فقد قرأ لابن عامر على أبي الوحش سبيع . (٣) وقرأ علي بن أحمد أبو الحسن الأبهري ، المقرىء الضرير المعروف بالمضيء ، القراءات بدمشق على أبي علي الأهوازي ، كان موجوداً في حدود سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م . (٤)

كما قرأ أحمد بن محمد بن خلف بن محرز ، أبو العباس الأندلسي المالكي المقرىء ، بعدة قراءات في دمشق سنة ٥٠٤هـ / ١١١٠م . (٥) وقرأ علي بن الحسن بن أبي الفضائل الكلابي ابن المانح (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٦م) القرآن وسمعه بحروف كثيرة ، وقرأه بالروايات على جماعة منهم ، أبو الوحش سبيع ، وروى عنه ابن عساكر ، وولده القاسم ، وكانت له حلقة بجامع دمشق . (٦)

ذكر الجغرافي المقدسي ، وهو من أحياء القرن الرابع الهجري ، أن الدماشقة كانوا يقرأون القرآن بالسبع ، ويجتهدون في ضبطه . وقد قرأ القرآن الكريم بالحروف السبعة ، أحمد بن الحسين أبو طاهر النقار الحميري الكوفي (ت ٥٠١هـ / ١١٠٧م) . (٧) ووصل إلى دمشق محمد بن سعد بن عبد الله بن علكوم بن حبيب أبو عبد الله البغدادي ، كان قارئاً للقرآن بالحروف السبعة ، وهو من كتّاب العراق ، اجتمع به الحافظ ابن عساكر ، وذاكره بأشياء كثيرة ، توفي سنة ٥٦٠هـ / ١١٦٥م(٨) .

==

(١) ابن الجزري : غاية النهاية ج٢ ص٣٤٩

(٢)ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٦ ص٢٥٦

ـ ابن الجزري : غاية النهاية ج ١ ص٢٨٤

(٣) ابن الجزري : غاية النهاية ج٢ ص٣٤٩

(٤) الذهبي : معرفة القراء ج١ ص٥٣ ـ ابن الجزري : غاية النهاية ج٢ ص٣٤٩

(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٧ ص٢٩٧

(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص١٠-١١

ـ النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٢٠٣

(٧) ابن القفطي : إنباه الرواة ج١ ص٣٥-٣٦

(٨) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٣٤٩

وقرأ عبد الله بن محمد أبو بكر المعروف بابن الفقيه المؤدب القرآن العظيم بالأحرف السبعة على جماعة من العلماء القرّاء ، منهم أبو الوحش سبيع بن المسلم ، توفي سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م . (١) وقرأ بالقراءات السبع الخضر بن شبل أبو البركات ، قرأ على أبي الوحش سبيع ، وتوفي سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٧م (٢) وقرأ بالروايات أيضاً وسمع من الكثيرين من العلماء ، جعفر بن أحمد بن الحسن بن أحمد ابن السراج ، أبو محمد القارىء ، كان من كبار القرّاء والمؤلفين من طرابلس ، قرأ وأقرأ عدة سنين ، وسافر إلى بلاد الشام ومصر ، وسمع بدمشق وطرابلس ، توفي سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م (٣)

وقرأ الحسن بن مسمار الهلالي الحوراني المقرىء التاجر ، القرآن بعدة روايات يخلطها ويردد الحرف المختلف ، فأنكر عليه العالم ابن قبيس ذلك ، وأشار بأن عمله هذا يُذهب ترتيب النظم في القرآن الكريم . توفي سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م . (٤) وقرأ إسماعيل بن علي بن بركات التاجر أبو الفضل الغساني ، ويعرف بابن البجاوي الدمشقي ، على المقرىء سبيع بن قيراط ، غادر دمشق ثم عاد إليها ، وقرأ بشيء من القراءات ، كان حياً سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م . (٥) وقرأ إبراهيم بن حمزة ، أبو طاهر الجرجرائي المقرىء المعدل ، القرآن بعدة روايات وتوفي سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٣م . (٦)

وكان الفقيه الحافظ للقرآن الكريم زيد بن علي السلمي ، قد قرأ القرآن بعدة روايات وتوفي سنة ٥٦١هـ / ١١٦٥م . (٧) وقرأ عبد الصمد بن الحسن أبو المعالي التميمي الخطيب القرآن الكريم على أبي عبد الله الأندلسي بالروايات ، وتوفي سنة ٥٦١هـ / ١١٦٥م . (٨) وهذا الصائن هبة الله بن عساكر (ت ٥٦٣هـ / ١١٦٧ م) الفقيه الشافعي ، تميز باعتنائه بعلوم القرآن ، وقراءته على جماعة منهم سبيع بن قيراط. كما سمع من النسيب وأبي طاهر الحنائي ، وأبي الفرج غيث الصوري . (٩)

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٣٨ ص١٣٦
(٢) ابن الجزري : غاية النهاية ج١ ص٢٧٠
ـ الإسنوي : طبقات الشافعية ج٢ ص١٠٩
(٣) النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٤٠٧ ـ ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج٩ ص١٥١ ـ ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج٧ ص١٥٤
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٤ ص٥٩٩
ـ النعيمي : المصدر نفسه ج٢ ص١١٤
(٥) ابن الدبيثي : المصدر نفسه ج١ ص٢٤١-٢٤٢
(٦) بدران : المرجع السابق ج٢ ص٢٠٩
(٧) بدران : المرجع السابق ج٦ ص٢٧
(٨) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٣٣٠
(٩) السبكي : طبقات الشافعية ج٧ ص٣٢٤-٣٢٥
ـ النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٤١٧-41

وهذا محمد بن بركة بن خلف بن كرما ، أبو بكر قرأ بالروايات في بغداد على أبي محمد سبط الخياط ، جاور بمكة ثم سكن دمشق ، توفي سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م (١) . وكان علي بن عساكر البطائحي ، أحد أئمة العراق ، قرأ بالقراءات على محمد بن بندار ، وصنف كتاباً في القراءات ، كان ثقة قرأ عليه كثير من الناس في هذا المجال . (٢) وعُرف أبو طاهر السلفي إماماً مقرئاً مجوّداً للقرآن بالروايات ، توفي سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م (٣)

حمل المغاربة الأندلسيون الذين وفدوا إلى دمشق لمتابعة طريق الرحلة وطلب العلم ، حملوا كل ما لديهم من تفوق في علم القراءات ، فكانوا معلمين كباراً ، احتضنت دمشق منهم أعداداً كبيرة ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر أبو بكر يحيى ابن سعدون بن تمام الأزدي القرطبي ، أحد الأئمة في القراءات وعلوم القرآن ، توفي سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م (٤) . وبرز أيضاً من أهل شاطبة أحمد بن خلف بن محرز الأندلسي المالكي المقرىء ، قدم إلى دمشق وأقرأ بها القرآن بعدة روايات ، وأجاز لابن عساكر مصنفاته ، وكتب سماعاته سنة ٥٠٤هـ / ١١١٠م . (٥)

وبرز يحيى بن خلف بن نفيس أبو بكر المعروف بابن الخلوف الغرناطي (ت ٥٤١هـ / ١١٤٦م) المقرىء ، عني بالقراءات حتى برع فيها ، كان كثير التصنيف ذا جلالة ووقار . (٦) وبرز أيضاً أبو الأصبع عبد العزيز بن علي المعروف بابن الطحان الإشبيلي المقرىء ، رحل إلى مصر والشام ، وهو من القراء المجودين ، الموصوفين بالإتقان ومعرفة وجوه القراءات ، اشتهر ذكره في دمشق ، وقال بعضهم : سمعت غير واحد يقول : ليس بالغرب الإسلامي أعلم بالقراءات من ابن الطحان ، توفي عالمنا الجليل سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٣م . (٧)

وتميز كذلك المقرىء أبو جعفر القرطبي إمام الكلاسة بدمشق ، قرأ القرآن العظيم بالمغرب على جماعة ، ودخل الشام ، فسمع من الحافظ أبي القاسم علي بن عساكر وأمثاله ، كان عالماً فاضلاً استوطن دمشق ، وأقرأ بها القرآن ، توفي سنة

==

(١) ابن الدبيثي : المصدر نفسه ج١ ص٢٧

(٢) ابن قاضي شهبة : مخطوط طبقات النحاة ص٤٣٤

(٣) الذهبي : العبرفي خبر من غبر ج٤ ص٢٢٨

ـ الصفدي : الوافي بالوفيات ج٧ ص٣٥١-٣٥٢

(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٨ ص١١٣

ـ ابن الجزري : غاية النهاية ج٢ ص٣٧٢

(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٢ ص٢٩٧

(٦) ابن الجزري: غاية النهاية ج٢ ص٣٦٩

ـ الداودي : طبقات المفسرين ج٢ ص٣٦٢-٣٦٣

(٧) ابن الجزري : غاية النهاية ج١ ص٣٩٥ ـ المقري : نفح الطيب ج٢ ص٦٣٤

٥٩٦هـ / ١١٩٩م . (١) وتميز أيضاً محمد بن علي بن ياسر الأنصاري الجياني أبو عبد الله (ت ٥٦٣هـ / ١١٦٧م) قدم إلى دمشق قبل سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م ، وسكن في قنطرة سنان ، وكان يُعلم القرآن الكريم لمن يرغب .(٢)

وهذا أبو عبد الله محمد بن عيسى بن بقاء الأنصاري ، أخذ بعلم القراءات ورحل حاجاً ، فقدم دمشق وأقرأ بها القرآن الكريم ، أخذ عنه جماعة من أهل دمشق ، لتفوقه في القراءات السبع التي اشتهر بها ، توفي سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م . (٣) ووصل إلى دمشق من علماء القراءات أيضاً محمد بن أبي عتيق بن محمد العلامة أبو عبد الله التميمي القيرواني المعروف بابن كدّيه ، أقرأ القراءات بدمشق وغيرها . (٤)

وهذا ابن الحطيئة اللخمي ، أبو العباس أحمد بن عبد الله الفاسي ، كان رأساً في القراءات السبع ، انتقل إلى مصر وحج ، ثم دخل الشام وأفاد الكثيرون منه توفي سنة ٥٦٠هـ / ١١٦٤م . (٥)

ضم الجامع الأموي في حلقاته تجمعاً علمياً كبيراً تخصص بعضه لقراءة القرآن الكريم ، يبدأ يومياً إثر صلاة الفجر ، حيث يتم قراءة سبع من القرآن ، ويشمل المجتمع السبعي الأول ، المتعلمين الكبار الذين يفرغون من القراءة صباحاً ومساء ، ليأتي دور المجتمع السبعي الثاني المختص بالمبتدئين ، حيث يجلس كل متعلم إلى سارية في المسجد، ويُجلس صبي أمامه يلقنه القرآن الكريم . (٦)

ثم يبدأ بعد صلاة العصر المجتمع الكوثري الثالث ، المختص لتعليم الأميين ، لكل من لا يجيد حفظ القرآن الكريم . وقد أُقر لهذه المجتمعات إجراء يومي وجراية معلومة ، وقد ينصح بعض الآباء أبناءهم المواظبة على السماع في المجتمع السبعي الثاني ، وأن يتنزهوا عن أخذ هذه الجراية . (٧)

==

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ج٧ ص٢٠٥
(٢) الذهبي : العبر في خبر من غبر ج٤ ص١٨٣ ـ المقري : نفح الطيب ج٢ ص١٥٧
(٣) المقري : نفح الطيب (نسخة قديمة) ج٢ ص٣٥٢
(٤) الذهبي : معرفة القراء الكبار ج١ ص٤٦٧ـ ٤٦٨
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٣٥٦
ـ القفطي : إنباه الرواة ج١ ص٣٩ـ٤٠
(٦) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٩١ ـ د. موسى باشا : مقال دور العلم ص٩١
(٧) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٩١

لابد قبل البحث في منهج تدريس وإقراء القرآن الكريم أن نتطرق لآداب المقرىء ، والأمور المتوجب التزامها في آداب قراءة القرآن الكريم . أما المقرىء فعليه " أن يجلس جلسة الخشية ، واستماع الأمر ، وتحرّي الفهم ٠٠٠ والإصغاء إلى المتشابه ، وإشارة الوقف ، وتعريف الابتداء ، وبيان الهمزة ، وتعليم العدد ، وتجويد الحرف ، والرفق بالبادىء والسؤال عن المتعلم إذا غاب ، والحثّ له إذا حضر ، ويبدأ بالمتلقن يلقنه ما يملي به لنفسه " أو إذا احتاج إلى أن يؤم غيره . وعلى القارىء بالمقابل أن يجلس بين يدي المقرىء ، جلسة التواضع ، يجمع معها الفهم ، ويخفض الرأس ، ويستأذن قبل بدء القراءة ، والاستعاذة والتسمية والدعاء عند الفراغ من القراءة (١)

خُصص في الجامع الأموي حلقات لتدريس وإقراء الطلبة ، فقد يجتمع اثنان أو ثلاثة من الطلبة ، ويأخذون على مقرىء معين . (٢) عقد لسعد بن أحمد بن روح ، أبو الفضل القاضي الطرابلسي حلقة الإقراء في الشام وطرابلس ، وكان قد توفي سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م (٣)

أقيمت الجرايات أو المرتبات للمدرسين المواظبين على تدريس القرآن الكريم مذاكرة وتدريسياً ، وربما رفض البعض أن يأخذ على قراءته أجراً أو براً ، يقوم بقراءة القرآن شرقي الرواق الأوسط في الجامع الأموي ، ابتغاء مرضاة الله تعالى . (٤) فقد رفض ابن الحطيئة اللخمي الفاسي أي أجر على إقراء القرآن الكريم . (٥) وأقرأ القرآن حسبة لوجه الله الشيخ معالي بن هبة الله أبو المجد المقرىء الشافعي المعروف بابن النقار توفي سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠ م . (٦) وكذلك تميز من المتصدرين بإقراء القرآن الكريم بالجامع الأموي أحمد بن الحسين بن بندار أبو العز القلانسي الواسطي . (٧)

==

(١) الإمام الغزالي : مجموعة رسائل الأدب في الدين ط١ دار الكتب العلمية بيروت١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨م ص٩١-٩٢
(٢) ابن الجوزي : تلبيس إبليس إدارة المطبعة المحمدية ، نشر للمرة الأولى ١٣٦٨ هـ ص١١٣
(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٤٩٩
(٤) الخولاني: تاريخ داريا تحقيق سعيد الأفغاني ط٢ دمشق ١٩٧٥م ص١١٧ - ابن جبير : المصدر نفسه ص١٩١
(٥) ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق : مخطوط ج١٠ ص٣٥٦ - القفطي : إنباه ج١ ص٣٩-٤٠
(٦) ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق : مخطوط ج١٦ ص٦٤٨
(٧) ابن الصلاح : طبقات الفقهاء الشافعية تحقيق محيي الدين علي نجيب ، دار البشائر الإسلامية بيروت ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ج١ ص٤٧

يقوم قرّاء القرآن الكريم بالمباراة والإكثار من قراءة القرآن ، وتتم قراءته من قبل الدارسين بالأصوات الحسنة صباحاً ومساءً ، يجلس جماعة من المعلمين لكتاب الله العزيز ، كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد لتلقين القرآن إلى الصبية وإقرائهم . وكاتب الغيبة هو من يقوم بقطع جزء من مرتب الطالب الذي يتغيب بقدر غيبته عن قراءة القرآن الكريم . (١) وقد قعد للإقراء وتلقين القرآن الكريم تحت قبة النسر في جامع دمشق أحمد بن الحسن أبو العباس العراقي الفقيه الحنبلي حين وصل إلى دمشق سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥ م ، كان إماماً في القراءة ، قرأ القراءات على أبي محمد سبط الخياط توفي سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢ م . (٢)

وتم إقراء القرآن الكريم في مساجد أخرى في دمشق ، فقد أقرأ الشيخ تمام بن عبد الله بن المظفر أبو القاسم السراج في مسجد سوق السراجين في دمشق . (٣) وكان الحسين بن محمد أبو عبد الله المقرىء (ت٥٣٠هـ/١١٣٥ م) يقرىء القرآن في مسجد الغزل المعلق . (٤) وأقيمت الحلقات لإقراء القرآن ، فقد جلس أبو الوحش سبيع بن المسلم بن قيراط يقرىء القرآن في حلقة اللتاني من ثلث الليل إلى قريب الظهر . (٥) وكان الحسن بن مسمار بن هلال(ت٥٤٦هـ/١١٥١ م) يجلس في حلقة الحنابلة ويقرأ فيها القرآن الكريم . (٦)

أبدى الأثرياء والأمراء اهتمامهم بعلوم القرآن ، فشيدوا الأوقاف للمقرئين والطلبة ، منها ما أوقف على من يقرأ السبع كل يوم ، ويلزم مقصورة الخضر بجامع دمشق وغيره، وبوقف خاص في الأسبوع ، لختم القرآن الكريم في سبعة أيام . فقد أوقف مجاهد الدين بزّان الأوقاف على من يقرأ في كل يوم في تلك المقصورة . (٧)
ومن العلماء الذين أشرفوا على قراءة القرآن الكريم في السبع ، حمزة بن الحسن ابن المفرج ، أبو يعلى الأزدي المقرىء المعروف بابن أبي خيش توفي سنة ٥٣٤هـ / ١١٣٩ م . (٨)

==

(١) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص١١٣ - ابن بطوطة: المصدر نفسه ص٨٦-٨٩
(٢) ابن العديم : بغية الطلب ج٥ ص٦٩٥- ابن الجزري :غاية النهاية ج١ ص٥٠
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٣ ص٥٢٠
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٣ ص٥٢٠
(٥) بدران : المرجع السابق ج٦ ص٦٦
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٤ ص٥٩٩
- النعيمي : الدارس في تاريخ المدارسج٢ ص١١٤
(٧) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج١ ص١٢٤
- النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٤٢٥
(٨) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص٢٠٢
- بدران : المرجع نفسه ج٤ ص٤٤٦

وكذلك قرأ القرآن الكريم بالسبع إسماعيل بن فضائل بن سعيد إمام المسجد الجامع ، وقع الاختيار عليه بعد ابن طاووس لحسن طريقته بقراءة السبعة المشهورة . وقد توفي سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م . (١) وكان هبة الله بن طاووس المقرىء (٥٣٦هـ / ١١٤١م) قد ورث متابعة قراءة القرآن الكريم بالسبع على أبيه ، فختم عليه خلق كثير ، ثم تابع ولده الخضر سيرته إقراء القرآن للناس . (٢)

ولأهمية علوم القرآن والقراءات ، فقد أقيمت في دمشق مدرسة خاصة لعلوم القرآن ، كان لها دور بارز بالإضافة إلى المسجد الجامع بدمشق والمساجد الأخرى . كانت الغاية من هذه المدرسة أو الدور التي أنشئت ، أن يحفظ الطلبة القرآن الكريم ويتلقنونه على حرف أو حروف متعددة . ويعود الفضل في إنشائها إلى العلماء والتجار . وأول مدرسة أنشئت لهذا الغرض ، وأفردت للقرآن الكريم ، دار القرآن الرشائية .

دار القرآن الرشائية : أنشئت في حدود عام ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م

أنشأ هذه المدرسة رشأ بن نظيف بن ما شاء الله (ت ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م) صاحب المدرسة الرشائية ، أصله من المعرة ، سكن دمشق وحدّث بها ، كان عالماً بالقراءات ، وكانت له دار موقوفة على القراء ، إلى جانب الزاوية السميساطية عند باب الناطفيين . (٣) قرأ رشأ بن نظيف القرآن الكريم على يد أبي الحسن بن داود الداراني ، ثم سافر في رحلة علمية ، وأملى جماعة من أهل العراق ومصر ، بعدة روايات ، وقرأ عليه أبو الوحش سبيع بن المسلم .

اعتمدت المدرسة على تدريس القراءات المتعددة ، فكان النصيب الأكبر فيها لقراءة ابن عامر ، لكنه لا يؤّم في الجامع إلا من يقرأ لابن عامر ، وهي الشائعة والمختارة ، مع العلم أن قراءات حروف أبي عمرو كانت منتشرة بدمشق . (٤)

تصدّر المتميزون من العلماء رئاسة إقراء القرآن في دمشق ، وكان مكانهم الجلوس بصدر الجامع ، ويجلس إلى جوار العلماء متكلم يستقر على كرسي ، كأنه يقرأ عليه ، يفتتح المجلس بالتفسير ثم بالرقائق والوعظيات ، فإن انتهى من الكلام ،

==

(١) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٤٢٩
(٢) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١١٠
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٦ ص٢٥٦
ـ ابن العديم : بغية الطلب ج٨ ص٣٦٥٢
ـ النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص١١ ،
(٤) المقدسي : أحسن التقاسيم ص١٨٠ ـ النعيمي : دور القرآن ص١٢

أخذ المتصدر في الكلام على ما هو في تفسير الآية التي يقع عليها الكلام ، ويستدرج في ذلك الموضوع ، ويتابع حتى ينتهي منه . ويتم التوقيع العالي بتصدير لفلان ، أن يستمر في هذا المجلس أدام الله تعالى رفعته ، وقد استحق ذلك المنصب لمهارته في مهمة التصدير . (١)

كانت رئاسة الإقراء بدمشق قد تصدرها علي بن الحسن الربعي الدمشقي (ت ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م) . (٢) وتتابع العلماء المقرؤون من بعده التعاقب على منصب الرئاسة ، وقد انتهت الرئاسة إلى رشأ بن نظيف ، (٣) ثم انتقلت إلى أبي الوحش سبيع بن قيراط (ت ٥٠٨هـ / ١١١٤م) المقرىء الضرير ، المشيخة والرئاسة في القراءة بدمشق (٤) وتصدر للإقراء في الجامع الأموي أيضاً هبة الله بن طاووس (٥) وكان إسماعيل بن محمود بن أحمد ، أبو طاهر الدمشقي المصري الدار مقرئاً متصدراً ، كان حياً سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م . (٦)

وبسبب الاهتمام بالإقراء كان للمقرئين وكيل يعرف بوكيل المقرئين ووكيلهم في دمشق عبد الكريم بن حمزة (ت٥٢٦هـ/١١٣١ م) . (٧) نصح الطلبة الدارسون في علوم القراءات ألا يشغلوا أنفسهم بالقراءات الشاذة وإفناء أكثر عمرهم فيها ، بل طلب منهم التأكيد على دراسة المتواتر المشهور ، وحفظ القرآن الكريم وتقويم ألفاظه وفهمه . (٨) واحتاج الدرس في علم القراءات قيام الكثيرين بالرحلة ، فقد رحل هبة الله بن طاووس مع أبيه إلى العراق ثم سمع بأصبهان وعاد إلى دمشق . (٩) وتحرك الحسن بن مسمار الهلالي الحوراني المقرىء في رحلته إلى العراق ، فسمع ببغداد أبي القاسم ابن الحصين ، وقد توفي سنة ٥٤٦هـ/١١٥١ م . (١٠)
وتحرك يحيى بن سعدون بن تمام أبو بكر الأزدي الأندلسي القرطبي المقرئ

==

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج١١ ص٢٥١
(٢) ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ج١ ص٥٣٢
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٦ ص٢٥٦
- ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ج١ ص٢٨٤
(٤) ابن الجزري : المصدر نفسه ج١ ص٣٠١
- الذهبي : معرفة القراء الكبار ج١ ص٤٦٢
(٥) ابن الجزري : المصدر نفسه ج٢ ص ٣٤٩
- الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢١ ص٩٨
(٦) ابن الجزري : المصدر نفسه ج١ ص١٦٩
(٧) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٦٠٠
(٨) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص١١٢-١١٣
(٩) ابن الجزري : المصدر نفسه ج٢ ص٣٤٩
(١٠) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٤ ص٥٩٩

(ت٥٦٧هـ/١١٧١ م) في رحلة طويلة ، فسمع بمصر ودمشق وبغداد ، استغل رحلته الطويلة لإسماع الطلبة ما تميز به من علوم القرآن والقراءات ، فقد اشتهر عنه أنه من أبرز أئمة علوم القراءات وعلوم القرآن في الأندلس ، كان الطلبة في المشرق أحوج ما يكونون للسماع عنه ، فسمع منه ابن عساكر وكثرة من الطلبة . (١)

لا شك أن الإقراء في فترة الحكم البوري قد ازدهر لذلك لا بد لنا أن نشير إلى أبرز المقرئين الدمشقيين الأوائل في هذا العلم ، فكان منهم محمد بن الحسين بن محمد أبو طاهر الحنائي الدمشقي ، قرأ على أبي علي الأهوازي وروى عنه أبو طاهر السّلفي . (٢) وتميز ابن طاووس أبو البركات احمد بن عبد الله البغدادي (ت٤٩٢هـ/١٠٩٨ م) المقرىء المتميز ، كثير التلاوة حسن القراءة ، صنّف في القراءات وترأس فيها وصار يقرىء الناس .(٣)

واشتهر حيدره بن أحمد الأنصاري المقرىء المعروف بالخروف ، سمع أبا بكر الخطيب وأبا الحسن بن أبي الحديد ، وعبد العزيز الكتاني ، وتوفي بدمشق سنة ٥٠٦هـ/١١١٢ م. (٤)

وبرز سبيع بن قيراط (ت٥٠٨هـ/١١١٤ م) قرأ عليه جماعة من الدارسين ، كان يقرىء الناس تلقيناً وتجويداً من الصبح إلى قريب الظهر . (٥) وكان عبد الرحمن بن أحمد أبو محمد السلمي ، ويعرف بابن سيده ، كان قرأ على الشيوخ ، سمع ابن عساكر بقراءاته كثيراً توفي سنة ٥١١ هـ/١١١٧ م. (٦)

وهذا عبد الكريم بن حمزة الشيخ الثقة ، سمع القرآن على أبي القاسم الحنائي وأبي بكر الخطيب وابن أبي الحديد ، وعبد الدايم بن الحسن الهلالي ، وعبد العزيز الكتاني . (٧) وتميز ابن الموازيني علي بن الحسن السلمي المقرىء (ت٥١٤هـ/ ١١٢٠ م) شيخ دمشق العالم المقرىء الثقة الحافظ بالقرآن سمع رشأ بن نظيف ،

==

(١) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص٣٢٤-٣٢٥
- ابن النجار : المصدر نفسه ص٤١٤-٤١٥
(٢) ابن الجزري : المصدر نفسه ج٢ ص١٣٣
(٣) السبكي :طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص٣٢٤
- ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٥ ص٢٧٠
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص٣٩٦
- ابن منظور : المصدر نفسه ج٧ ص٢٩٥
(٥) الذهبي : معرفة القراء الكبار ج١ ٤٦٢-٤٦٣
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٤٠ ص١١٤-١١٥
(٧) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٦٠٠

والأهوازي كان ابن عساكر قد سمع منه أجزاء يسيرة . (١) وكذلك تميز ابن السمرقندي المتوفى سنة ٥١٦هـ/١١٢٢ م، وهو شيخ إمام ، مقرىء يعرف بأبي محمد عبد الله المقرىء . (٢)

صنف العديد من علماء علم القراءات العديد من المؤلفات ، فوضع المبارك بن الحسن بن أحمد البغدادي (ت٥٥٠هـ/١١٥٥ م) كتاباً في " المصباح الزاهر في العشرة البواهر " (٣) ووضع أبو الأصبع عبد العزيز المعروف بابن الطحان الإشبيلي (ت٥٥٩هـ/١١٦٣ م) مؤلفات في " نظام الأداء في الوقف والابتداء " و" كتاب مقدمة في مخارج الحروف " و " مقدمة في أصول القراءات " . (٤)

وألف الحسن بن أبي الحسن صافي مولى حسين بن الأرموي ، أبو نزار البغدادي (ت٥٦٨هـ/١١٧٢ م) في أسلوب الحق في تعليل القراءات العشر وشيء من الشواذ مجلدتان (٥) . وصنف محمد بن أسعد الحكيم أبو المظفر العراقي الواعظ كتاباً في تفسير القرآن الكريم ، توفي سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣ م ، (٦) وألف محمد بن محمد بن زفر أبو عبد الله الصقلي العلامة كتاب ينبوع الحياة في التفسير في عشر مجلدات . وله تفسير القرآن الكريم وهو من محاسن التفسير ، وله كتاب الحواشي على درة الغواص . توفي بحماه ٥٦٥هـ/١١٦٩ م. (٧)

وهذا ما يتعلق بعلم القراءات والدور الأساسي الذي لعبته دمشق وباقي المناطق التابعة للدولة البورية في نشر تعليم القرآن الكريم ورواياته ، وإن كان الدور الأكبر يرتكز وينعطف على دمشق ومسجدها الكبير الذي كان يركز وينعطف الثقل الذي احتضن كوكبة علماء القراءات في دمشق والأندلس والعراق بالإضافة إلى الطلبة الوافدين لتلقي هذا العلم الأساسي من علوم الدين .

ولا ينكر فضل أهل الأندلس في هذا المجال وسعيهم ترسيخ أركان هذا العلم في الشام ، إضافة لما كانت له من مكانة وأهمية عند الدماشقة بشكل خاص ، وأبناء الإمارة البورية وعلمائها وطلبتها بشكل عام .

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص١١
- الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٣٧-٤٣٨ ،
(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٦٥
(٣) الذهبي : معرفة القراء الكبار ج١ ص٥٠٦-٥٠٧-٥٠٨
(٤) المقري : نفح الطيب ج٢ ص٦٣٤
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٤ ص٤٣٧-٤٤٠
(٦) ابن قاضي شهبة : مخطوط طبقات النحاة ص٢٥
(٧) ابن قاضي شهبة : مخطوط طبقات النحاة ص١١٠-١١١

٢- علم الحديث:

علم الحديث من أشرف العلوم بعد العلم بكتاب الله تعالى . يقسم إلى قسمين علم رواية الحديث ، وعلم دراية الحديث . أما علم رواية الحديث فينقل أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأفعاله بالسماع المتصل وضبطها وتحريرها ، وكيفية اتصال الأحاديث بالرسول صلى الله عليه وسلم ، من حيث أحوال رواته ضبطاً وعدالة وكيفية السند اتصالا وانقطاعاً وغير ذلك من الأحوال التي يعرضها . (١)

أما علم دراية الحديث فهو علم يبحث فيه عن المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث الشريف وعن المعنى المراد منها ، ويتعرف منه أنواع الرواية وأحكامها ، وشروط الرواية وأصناف المرويات ، واستخدام معانيها ، ويحتاج إلى ما يحتاج إليه علم التفسير من اللغة والبيان والتصريف والبديع والأصول ، ويحتاج إلى تاريخ النقلة ، وضوابط الشريعة ، ومطابقته لما جاء عن أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم . (٢)

وهو في موضوعه أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، من حيث دلالتها على المعنى والمفهوم والمراد ، وهو من أجلّ العلوم ، يقوم على خدمته وحفظه وإتقانه طائفة من أهل العلم طلبت الحديث وجعلت دأبها السماع عن المشايخ ، ومعرفة العالي من المسموع أو النازل . (٣)

والمحدث : هو الذي يقرأ ويكتب ، وقد وعى كل شيء ، وقام بالرحلة إلى المدائن ، وحصّل أصولاً وعلق فروعاً من الكتب المسانيد والعلل والتواريخ ، وعلى هذا فالمحدث من تحمّل الحديث رواية ، واعتنى به دراية . (٤)

==

(١) السمعاني : أدب الإملاء و الإستملاء ص٣ - السخاوي : إرشاد القاصد إلى سنى المقاصد ص٦٠ - كبره زادة : مفتاح السعادة ومصباح السيادة ج٢ ص٥٢

(٢) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص١٣٠-١٣١
- السخاوي : إرشاد القاصد إلى سنى المقاصد ص٦٣
- حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون دار الفكر ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م ص١٠٩

(٣) السبكي :معيد النعم ومبيد النقم ص٨٩ - كبره زادة: مفتاح السعادة ج٢ ص١١٣

(٤) التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون ج٢ ص٢٨٢

ولا بد للراحل في طلبه من الرحلة لسماعه من أفواه الرجال ، وقد أطلق على علمائه صفات وسمات عرفوا بها ، لانشغالهم بالسعي وراء تحقيق غاياتهم وتقصّي الصدق في الحديث المروي من منبعه ، فلقبوهم بالمتشققة أرجلهم ، الطويلة شعورهم ، المتوجهون في كل الأفاق ، لنقل الحديث بثقة وأمانة من رواته مباشرة . (١)

ويشترط في راوي الحديث ، أن يكون ضابطاً متقناً ، مسلماً بالغاً بعيداً عن مسالك الفسق ، متيقظاً غير مغفل ، وأن يبحث ويتعب ويتحرى من أجل تحصيل العلم وكتابته ، بحضور مجالس الحديث وهو قائم ، يتحمل ما يلقاه من شقاء وتعب وضنك . (٢) وعلى هذا فالحديث سند ومتن ، أما المتن ، فهو ما ورد ذكره عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل ، بينما السند سلاح المؤمن ، يمثل سلسلة الرواة الذين يقع عليهم ضبط الحديث وتعديله . (٣)

و بناء على ذلك قسّم علم الحديث إلى أنواع متعددة ، لتقصي الصدق والحقيقة والحجة ، و منها الحديث الصحيح والحسن والضعيف ، والمسند والمتصل والمرفوع، والموقوف والمقطوع والمرسل ، والمعضل والمدلّس والشاذ ، والمنكر وما له شاهد والمعلل ، والمضطرب والمدرج والموضوع ، والمقلوب ، لمعرفة من تقبل روايته ، والتأكيد على كيفية سماع الحديث وإسماعه ، وأنواع التحمل من إجازة وغيرها ، وآداب المحدث والطالب ، ومعرفة العالي والنازل والمشهور والغريب ، والعزيز وغريب الحديث ، والمسلسل وناسخ الحديث ومنسوخه ، والمصحّف إسناداً ومتناً . لهذا أكد أكثر العلماء على العلو في السند ومعرفة طرق الأحاديث ، لحفظ الحديث من التدليس والتزوير . (٤)

حثّ العلماء كل من يرحل في طلب الحديث أن يحتاط ويتثبت من أحوال الرواة ، وأن لا يأخذ من الحديث إلا حديث من يوثق به ديناً وحفظاً ، وأن من لا يكتب

==

(١) ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث منشورات دمشق ١٩٧٢م ص٤٩-٥٠

(٢) السمعاني : المصدر نفسه ص١٥-٨٩

(٣) السمعاني :المصدر نفسه ص٨ - ابن كثير : الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث دار الفكر بيروت ص٦

(٤) الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث تحقيق د٠ نور الدين العتر ط١ بيروت ١٩٧٥م ص١٥ - السمعاني : المصدر نفسه ص١٠ - ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص٢٨٢

عشـرون ألـف حـديث إمـلاء لا يعتبـر صـاحب حـديث . وكـان المحـدثون يوقعـون الامتحان بمن أرادوا ، ليتأكدوا من مقدرة الرجل وضبطه قبل الأخذ عنه .(١)

ولشدة التأكيد على السماع فقد وجد الكثيرون ممن سمعوا الحديث ، ولهم من العمر خمس سنين . فهذا جعفر بن أحمد بن الحسن بن السراج ، سمع الحديث وله من العمر خمس سنين ، وتوفي سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م . (٢)

وعلو السند في الحديث أساسي وضروري ، فلا يكتب الحديث إلا بإسناده ، (٣) واعتبر الإسناد من الدين ، لأنه الأصل في صحة الحديث ، فلولاه لقال من شاء ما شاء . (٤) ويستدل على صحة وقوة السند من قلة عدد الوسائط في سند الحديث ، مع اتصال السند . ويحصل العلو بأن يسمع المحدث حديثاً من راوٍ عن شيخ موجود ، فيذهب المحدث إلى ذلك الشيخ ويسمعه منه ، فيقل بهذا عدد الوسائط الناقلة في السند .

ولعلو السند فوائد بارزة عظيمة أهمها ، إبعاد السند عن الخلل ، لأن الخلل قد يقع في النقل ، من كل رجل على وجه الاحتمال ، فإن قلت الوسائط قل احتمال الخلل ، فيكون علو السند قوة للحديث فقد ذكر ابن عساكر : أخبرناه عالياً أبو عبد الله الفراوي ، أخبرنا أبو بكر البيهقي ، أنبأناه عالياً ، القاضي البسطامي ، (٥) حدثنا ... وروى الحديث بإسناده ذو الفقار ابن محمد بن معيد المعروف بحميدان الحسيني العلوي المروزي ، قدم إلى دمشق قبل سنة ٥٢٠ هـ/ ١١٢٥ م ، وكان يروي الحديث على كرسيه بإسناده عن نظام الملك ، فلم يحفظ ابن عساكر منه شيئاً . (٦)

==

(١) الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث تحقيق د. نور الدين العتر ط١ بيروت ١٩٧٥ م ص١٥ - السمعاني : المصدر نفسه ص١٠
(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج٧ ص١٥٤
(٣) السمعاني :المصدر نفسه ص٥
(٤) السمعاني : المصدر نفسه ص٧
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق قسم ١ سيرة الرسول ص٣٠٧
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٦ ص١٠٨

وكان ابن الموازيني أبو الحسن علي المقرىء المسند (ت٥١٤هـ/١١٢٠ م) تفرّد وعلا إسناده وحدث عنه السلفي ، شيخ ثقة مستور ، (١) وهذا عبد الله بن أحمد ابن السمرقندي الحافظ المشهور ، قد علا إسناده وحدث عنه السلفي ، وأبو القاسم ابن عساكر ، لما عرف عنه من الثقة والحفظ والدراية ، إضافة لكونه من الثقات النقاد (٢) . وهذا يفسر اعتناء المحدثين في فترة الحكم البوري بالعلوم وشد الرحال إليها ، فلقوا في سبيل ذلك العناء والمشقات والصعاب لتحصيله ، ثم ألفوا فيه المؤلفات (٣) فألف يوسف الجماهيري المحدث الدمشقي كتاباً في أسماء الرجال سمّاه " الارتجال" سمع من جماعة كثيرة من العلماء وحدث ثم رجع في آخر عمره إلى دمشق سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢ م . (٤)

وتحرك نصر الله المصيصي إلى صور ثم إلى دمشق وواظب على العلم وتلقى الحديث حتى انتهى إليه علو الإسناد بدمشق . (٥) ورحل من أهل دمشق لطلب العلم عمر بن محمد بن عبد الله بن الخضر بن مسافر بن رسلان أبو الخطاب العليمي ، أحد تجار دمشق سافر ما بين الشام ومصر والجزيرة والعراقين وخراسان وما وراء النهر وخوارزم ، وطلب الحديث من المشايخ في البلد الذي يدخله ، وكتب بخطه حتى حصّل منه الشيء الكثير ، فسمع بدمشق من الفقيه أبي القاسم نصر الله المصيصي وأبي القاسم نصر بن أحمد بن مقاتل السوسي وجماعة ، وسمع بمصر فأخذ من ناصر بن الخضر بن اسماعيل الحسيني ، وبالإسكندرية أحمد بن محمد السلفي أبو طاهر ، وسمع بحلب أبا الحسن علي بن جرادة العقيلي ، وتحول إلى سائر البلاد ، وبالغ في الطلب حتى سمع من أقرانه ، وممن دونه ، كان مرضي الطريقة والسيرة ، حدّث ببغداد ودمشق ، توفي سنة ٥٧١هـ/١١٧٥ م. (٦)

---

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص١١
- الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٣٧-٤٣٨
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (عبادة بن أوفى) ص٣٣٤-٣٣٥ ، مخطوط ج٨ ص١٠١٩
(٣) البغدادي : الرحلة في طلب الحديث ص٢٠
(٤) الإسنوي : طبقات الشافعية ج١ ص٣٦٦
(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص١١٨-١١٩
(٦) المقريزي : درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، مخطوط صادر عن جامعة لايبزغ في ألمانيا الديمقراطية ، ميكروفيلم رقم ٦ ، مديرية الوثائق التاريخية بدمشق ص١٥٧ ظ

ورحل عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد ، سمع بدمشق من الشريف أبي القاسم علي ابن إبراهيم ، ثم قدم بغداد وسمع بها أبو سعد بن السمعاني ، توفي سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠ م. (١)

ورحل علماء آخرون إلى البلاد الأخرى سعياً وراء علوم السند ، فما أن يسمع أحدهم بحديث عن محدث في عصره حتى يرحل إليه ليسمعه منه مباشرة . (٢) وللرحلة فوائد إيجابية بعضها يعود على العالم وبعضها يعود على الطالب ، أما الفائدة التي تعود على العالم ، فتأتي عبر ما حصّله من علوم ، فتكون الرحلة التي تمخر العباب حتى يذيع صيته في بلاده ، وتعظم مكانته ، ويكبر دوره ، ويشتهر بالآفاق بحسن الدراية والعمق ، نظراً لشيوع ذلك العلم في بلاده ، وكثرة العلماء في ذلك المجال ، فتأتي الرحلة لتبادل الآراء وطرح الأفكار بين العلماء .

وقد تصبح الحاجة ماسة إلى عالم محدد لندرة أمثاله في تلك البلاد ، ومن هم أشد الحاجة للانتفاع بما عنده من علوم ، وما اكتسبه من خبرة أثناء سفره ، واتساع ثقافته التي صقلت أفكاره وزادته نبوغاً وعلو شأن بما يحوز عليه من معارف وحكم وأمثال ونوادر ٠ (٣)

وإذا كان من الطلبة فلا بد أن يعمل على تحصيل الحديث والتثبيت فيه ، (٤) وطلب العلو في السند والابتعاد عن الخلل والبحث عن أحوال الرواة ومذاكرة العلماء في نقد الأحاديث ، (٥) وهذا ابن عساكر رحل في طلب الحديث وتعب في جمعه وبالغ في الطلب ، رحل إلى العراق سنة ٥٢٠هـ/١١٢٥ م ، وسمع الكثير ثم عاد ثانية إلى بغداد سمع الحديث في النظامية ، وقد جمع بين معرفة المتن والإسناد وتعمق في بحث العوالي ، ووضع كتاباً في عوالي مالك وغرائب مالك ، وعوالي الثوري ومن وافقت كنيته كنية زوجته ، ومسند أهل داريا .

==

(١) ابن الدبيثي : المصدر نفسه ج٢ ص١٤٦-١٤٧
(٢) البغدادي : الرحلة في طلب الحديث ص٢٠
(٣) البغدادي : المصدر نفسه ص٢٥-٢٦-٢٧
(٤) البغدادي : المصدر نفسه ص١٨
(٥) البغدادي : المصدر نفسه ص٢٠ - القلقشندي : صبح الأعشى ج١١ ص٢٤٨

ولـم يكتـف الحـافظ ابـن عسـاكر بـذلك ، بـل تـابع رحلتـه مـن بغـداد إلـى الكوفـة ونيسابور وهراة ومرو ، وسمع فيها من العلماء الكبار . (١) وكان يستاء إذا انعدمت الأحاديث من أسانيدها التي هي مصدر الثقة للرواية التي نالها طالب العلم . وقد أبدى استغرابه وعجبه من الخضر بن عقيل أبو العباس الأربلي الفقيه الشافعي لأنه جمع كتاباً في فضائل الصحابة ، وروى فيه أحاديث بغير إسناد . (٢)

وكان العالم أبو طاهر السلفي (ت٥٧٦هـ/١١٨٠ م) العلامة مسند الدنيا يمشي حافياً لطلب الحديث إلى الآفاق ، فسمع ببلده وبغداد والري وإربل والبصرة والكوفة ، ثم حدّث بدمشق بعد قدومه عليها طالب حديث سنة ٥٠٩هـ/١١١٥ م ، وسمع فيها من أبي طاهر الحنائي ، وتابع سماعه بخلاط ونصيبين والرحبة ، وكان أحد الحفّاظ انتهى إليه علو الإسناد في البلاد . (٣) وهذا محمد بن الحسين الميورقي كان عارفا بالحديث وأسماء الرجال ، كان حيا سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢ م . (٤) وتميز حسين بن محمد بن فيره بن حيون بن سكره الصدفي الأندلسي (ت٥١٤هـ/١١٢٠ م) كان حافظاً لمصنفات الحديث قائماً عليها ذاكراً لمتونها وأسانيدها ورواتها ، عالماً بالحديث وطرق علله وأسماء الرجال . (٥)

==

(١) الأصفهاني : خريدة شعراء الشام ج١ ص٢٧٤
- ابن النجار : المصدر نفسه ص٣٣٢-٣٣٣
- الأيوبي : مخطوط التذكرة الأيوبية ، مكتبة الأسد ج١ ص١٨٩ ب
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص٦٥٩
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٧ ص١٧٩
- سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص٢٣٠
(٤) القنوجي : التاج المكلل ص٣١٩
(٥) ابن بشكوال : كتاب الصلة ج١ ص١٤٤ - اليماني : غربال الزمان في وفيات الأعيان ص٤٠٦
- مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية دار الكتاب العربي بيروت مطبعة السلفية ، طبعة جديدة بالأوفست عن الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ ص١٢٨-١٢٩

وتشدد البعض في تلقي الحديث في مجال السماع والقراءة والإجازة والمناولة والكتابة والو جادة ، وكان المحدثون يعتزون بقدرتهم على رواية الحديث من صدورهم وكانوا يستخدمون الكتب والأصول المدونة لديهم ، وعلى المحدث أن يعتمد الصدق ويتجنب الكذب ويحدث بالمشهور من الحديث ، ويروي عن الثقات ويتحفّظ من الذلل والتصحيف واللحن والتحريف ويدع المداعبة ويقل المشاغبة ويلزم التواضع ويكون معظّماً ما يحدّث به ، ينتفع به المسلمون ، في فرائضهم وسننهم وآدابهم . (١)

وبلغ الأمر ببعضهم أن لا يحدث إلا من أصل كما هو الحال مع ابن قبيس الغساني فقد عرف عنه أنه محدث محب لأصحاب الحديث ، يسعى للارتواء من بحر هذا العلم ، (٢) إضافة إلى أن الرحلة في طلب الحديث هي من لوازم طريقة المحدثين ومنهجهم في التحصيل العلمي لطلب الحديث في الأسفار الشاقة .

كانت دمشق وبغداد أكثر مراكز تلقي العلم وطلب الرحلة إليهما ، فقد استقر جمع من العلماء المحدثين في المدينتين فهذا عبد الوهاب الحنبلي(ت٥٣٦هـ/ ١١٤١ م) حدث عن أبيه ببغداد ودمشق (٣) ، وكان محمد بن طاهر بن علي أبو الفضل المقدسي الحافظ ابن القيسراني أحد الرحالة في طلب الحديث ، طاف بالبلاد وسمع بالشام ومصر والعراق وخراسان وفارس واستوطن همذان ، توفي سنة ٥٠٧هـ/١١١٣ م. (٤)

وكان حماد بن هبة الله بن الفضيل أبو الثناء الفضيلي الحراني ، قد رحل في طلب الحديث وكان من أهل العلم والحديث ، (٥) وبالمقابل تحرك علماء الدولة البورية في رحلاتهم وجعلوا هدفهم الأول بغداد ، ثم المناطق الأخرى في العالم الإسلامي ، وممن رحل الفضل بن سهل أبو الفرج الاسفراييني ، نشأ بدمشق وسمع

==========

(١) الغزالي : مجموعة رسائل (الأدب في الدين) ص٩٢-٩٣
(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص١٨-١٩
- القلقشندي : صبح الأعشى ج١١ ص٢٤٦
(٣) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٦٧
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٤٨١
- ابن خانكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج٤ ص٢٨٧
(٥) ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ج٦ ص٢٩١٦-٢٩١٧

بها الحديث وبصور . أخذ عن أبيه سماعاً كتاب سنن النسائي ، وسمع أيضاً عن أبي القاسم ابن أبي العلاء ، ورحل عن دمشق إلى حلب ، ثم تحرك إلى بغداد وسمع بها أكثر التاريخ لأبي بكر بن الخطيب وتوفي ببغداد . (١)

وكذلك توجه إبراهيم بن شيبان ، المولود في بانياس ، يعتبر أحد مؤسسي المدرسة النظامية في بغداد ، ودرس على يد نصر بن الزينبي ، توفي ببغداد سنة ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤ م . (٢)

ورحل عبد الخالق بن أسد الدمشقي الحنفي في طلب الحديث إلى بغداد سنة ٥٢٠هـ/١١٢٥ م ، ثم رحل إلى أصفهان ، وعاد ثانية إلى بغداد لسماع الحديث بالنظامية كما سمعه في همذان وأصبهان ، توفي سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨ م . (٣) ورحل أيضاً من الحفّاظ أبو المحاسن عمر بن علي القرشي الزبيدي الدمشقي القاضي الحافظ نزيل بغداد ، حافظ ، رحال ، ثقة ، مأمون ، توفي سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩ م (٤) وهناك أبو المواهب الحسن بن هبة الله بن محفوظ الحافظ ابن صصري التغلبي الدمشقي ، سمع من جده ونصر الله المصيصي ، ولزم الحافظ ابن عساكر ، وتخرج عليه ، ثم رحل وسمع نجم الدين ابن عبد الوهاب الشيرازي توفي سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠ م . (٥)

واحتاج طالب الحديث إضافة إلى الرحلة أن يهتم بالحديث المشهور ، وأن لا يكتب بالحديث الغريب ولا المنكر ، ويكتب عن الثقات ، وأن لا يشغله طلب الحديث عن صلاته ويتجنب الغيبة وينصت للسماع ، ويلزم الصمت بين يدي محدثه ولا يقول سمعت وهو لم يسمع ، ولا يألو جهداً عن طلب العلوم ، حتى يتمكن منها ولا يكتب عمن لا يعرف الحديث من الصالحين . (٦)

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٤ ص٢٣١

(٢) ALPTEKIN : OP,CIT P.180

(٣) الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر قسم١ ص٢٨٢

- ابن النجار : المصدر نفسه ص٣٣٢-٣٣٣

(٤) الحنبلي : شذرات الذهب ج٤ ص٢٥٢

(٥) الحنبلي : شذرات الذهب ج٤ ص٢٨٥-٢٨٦

(٦) الغزالي : مجموعة رسائل منها الأدب في الدين ص٩٢-٩٣

ويحتاج الطالب عند سماع الحديث عن المحدثين ، العودة إلى مؤلفات الحديث وإتقانها ، وبالعودة إلى مؤلفات المحدث نفسه ، أو مؤلفات المحدثين السابقين ، فقد سمع حمزة بن أحمد بن فارس أبو يعلى ابن كروس السلمي المحدث ، سمع كتاب الموطأ، توفي سنة ٥٥٧هـ /١١٦١م . (١) وحدث الصائن ابن عساكر هبة الله بطبقات ابن سعد ، وسنن الدار قطني ، وأكثر مسند أحمد . (٢)

ولابد لدارس الحديث من الحصول على الإجازة من العلماء ، حتى يشق طريقه ويسير وفق ما سلك أساتذته المحدثين ، فهذا الفضل بن سهل بن بشر الإسفراييني استجاز له أبوه من أبي بكر الخطيب البغدادي ، كانت ولادته سنة ٤٦١هـ / ١٠٦٨م . (٣) وكان عبد الكريم بن حمزة أبو محمد السلمي (ت٥٢٦هـ/١١٣١ م) أجاز له من بغداد أبو جعفر المسلم . (٤) وحصل ابن عساكر على الإجازة بجميع الحديث من المحدث عبد الله بن أحمد بن مروان بن عبد الله أبو المعالي ، المولود سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨ م ، (٥) وتابع الحافظ ابن عساكر الحصول على إجازته من أحمد بن عمر أبو الحسن الصقلي ، المتوفى سنة ٥٠٥هـ/١١١١ م ، (٦) وكذلك من عبد الله بن الحسن بن خلال أبو القاسم الأزدي المحدث المتوفى سنة ٥٠٦هـ/ ١١١٢ م . (٧)

وأجاز لابن عساكر أيضاً عثمان بن عبد الله أبو القاسم البغدادي ، عندما قدم إلى دمشق سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨ م وحدّث بها ، (٨) وأجاز أبو طاهر السلفي أحمد بن محمد (ت٥٧٦هـ/١١٨٠ م) لابن عساكر جميع حديثه ، (٩)

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص٤٤٦
- ابن منظور : المصدر نفسه ج٧ ص٢٥٧
(٢) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤١٨
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٤ ص٢٣١
(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٦٠٠ ، العبر في خبر من غبر ج٤ ص٦٩
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (عبادة بن أوفى) ص٤٤٣
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٢ ص٤٤
- ابن منظور : المصدر نفسه ج٣ ص١٩٣- ١٩٤
(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٩ ص١٣٨
(٨) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١١ ص٤٣٧
(٩) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٧ ص١٧٩

نلاحظ مما سبق أن الحافظ ابن عساكر ، حصّل إجازاته في سن مبكرة وهو طفل ، ثم تابع تحصيل إجازاته عن مائتين وتسعين شيخاً ، بل قيل من نحو ألف وثلاثمائة شيخ ، وبضع وثمانين امرأة ، فسمع من المشايخ الكبار والصغار ، وكانت له إجازات عالية ، منها مسند بغداد ، أجازه له الحاجب أبو الحسن بن العلاف وخلق كثير ، وروى عنه ابنه القاسم من تصانيفه بالإجازة في حياته. توفي مؤرخنا ومحدثنا سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م . (١) ونجح بعض العلماء في الجمع بين السماع والتحديث ، أمثال أبو طاهر السمرقندي (عبد الواحد ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م) . (٢)

حتى يصبح طالب الحديث متمكناً في الحديث ، خضع لطرائق في التدريس تهيئ إمكاناته وقدراته حتى يصبح متمكناً من علم الحديث . وهذه الطرائق هي : السرد ، وهو أن يتلو الشيخ المسمع أو القارىء كتاباً من كتب الحديث ، بالإضافة إلى طريقة أخرى تهتم بالبحث وإيجاد الحلول لكل ما يرد ، ومثالها أن يتم التوقف بعد تلاوة الحديث الواحد للتعرف على الألفاظ الغريبة ، والتراكيب العويصة الداخلة في فن علم الحديث .

وهنالك طريقة ثالثة وهي طريقة الإمعان ، وهو أن يذكر كل كلمة ما لها وما عليها ، بالإضافة إلى الكلمات الغريبة والتراكيب المستعصية ، والشواهد وما حولها من كلام الفقهاء أو الشعراء ، واشتقاق تلك الكلمة ، وان يبحث في أسماء الرجال وقبائلهم ، وسيرهم ، ويخرج المسائل الفقهية على المسائل المنصوص عنها . (٣)

وإذا بادر الطالب إلى دراسة الحديث ، فعليه إخلاص النية لله تعالى ، وأن يبكر في سماع الحديث ، ولا يهمل الاشتغال به وبعلومه ، والنظر في إسناده ورجاله ومعانيه ، وفوائده ولغته وتواريخه ، وأن يعتني أولاً بصحيحي البخاري ومسلم ، وببقية الكتب الأعلام ، والأصول المعتمدة في هذا المجال ، كسنن أبي داود ، وموطأ مالك ، وغيرهما من المؤلفات كمسانيد ابن حنبل . (٤)

==

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٥٦-٥٥٨
ـالأيوبي : مخطوط التذكرة ج١ ص١٨٩أ
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٥٤٥
(٣) محمد جمال الدين القاسمي : قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث ط١ ١٩٧٩م ص٢٣٥-٢٣٦
(٤) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص١٢٦-١٢٧

وقد حدث أبو الحسن الأندلسي المرادي الشقوري (ت ٥٤٤هـ / ١١٤٩م) الفرغليطي المحدث الحافظ ، حدث في دمشق بالصحيحين وغيرهما من تصانيف البيهقي . (١) وكان الصائن هبة الله ابن عساكر ، شيخاً إماماً محدثاً فقيهاً مفتياً ، سمع طبقات ابن سعد ، وسنن الدار قطني ، وأكثر مسند احمد . (٢)

وكذلك سمع العالم عبد الوهاب بن يوسف ، أبو محمد بن النحاس الدمشقي ، بحلب ودمشق ، فسمع مسند أبي حنيفة لكونه حنفي المذهب . كان وحيداً في مناظراته ، فريداً في محاوراته ، ناظر الفحول الواردين من ما وراء النهر وخراسان ، توفي سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م. (٣)

اعتمد علماء علم الحديث على قواعد مهمة مستمدة من قوة السند ، في التحديث والإخبار ، وحين يأخذ الطالب الحديث عن العالم ، يجب عليه أن يقول أخبرنا ، أو حدثنا ، ويمكن للعالم أن يقول له : " اقرأ علي وقل حدثني " و" وإن شئت فقل حدثنا" وإن شئت فقل حدثني وأخبرني . وعلى الرغم من هذا لم يُر خلاف حول إطلاق أو تجويز " حدثنا أو أخبرنا في الرواية والمناولة " (٤) وقيل إذا قلت حدثنا فهو سماعي ، وإذا قلت أخبرنا على الإطلاق فهو إجازة . ويعتمد السماع على المشافهة ، والقراءة في الأصول ولم يكن يستجاز لطالب الرواية من أصول لم تكن مسموعة ، أو مجازة من الشيوخ ، فعلى الطالب أن يسعى كثيراً في طلب علم الحديث. (٥)

وقد ميز ابن عساكر في رواية الحديث بين أخبرنا وأنبأنا ، وأخبرتنا ، وحدثتنا . فقد ذكر في سند الحديث ما نقله عن النساء قوله : " أخبرتنا أم اليمن آمنة العجلية قالت : ٠٠٠ "(٦) وأورد أيضاً " أخبرنا أبو بكر محمد بن شجاع " وأشار بالمشافهة

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص١٠٥-١٠٦
- الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص١٨٧- ص١٨٨
- د٠ بدر (أحمد) : مقال الأندلسيون ص٣١٨
(٢) النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٤١٧-٤١٨
(٣) القرشي : الجواهر المضية في طبقات الحنفية ج١ ص٣٣٥-٣٣٦
(٤) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ج٢ ص١٧٥-١٧٦
(٥) ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح ص٨١
- أحمد نور سيف : مقال ، مصادر ابن عساكر ص٢٨٥
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص٤٨

" من نسخة ما شافهني به أبو عبد الله الخلال ، أنّا أبو القاسم ابن منده أنـّا أبو علي إجازة ٠٠٠ " والمقصود أنبأنا ، ويسرد الحديث حتى يصل إلى رواة الحديث من الصحابة الكرام عن الرسول صلى الله عليه وسلم . (١)

وردت هذه الرواية في كتابات الحافظ ابن عساكر "التاريخ " كثيراً . ومن أنواع الرواية أيضاً " ما أنبأنا به أبو عبد الله البلخي " في رواية الحديث " أنـّا أبو الحسين ابن الطيوري ، أنـّا الحسن العتيقي قراءة أنـّا أبو الحسن الدار قطني ، وقال إجازة حدثني فلان ٠٠٠ قال : ٠٠٠ " وهكذا فمصادر ابن عساكر الموثوقة أخبرتنا ، قرأت بخط ، بقراءتي على ، قرأت ونقلته من خطه ، قرأت بخط ، أخبرنا في كتابه يقول كذا في . (٢)

كان للنساء المسلمات العالمات دور كبير إلى جانب دور الرجال العلماء ، في تدريس وإتقان علوم الحديث رواية ودراية . وبلغ الأمر ببعض النسوة أن انفردن بروايات لم تُسمع عن غيرهن . ذكر ابن عساكر من رواته من النساء " قرأت بخط علي بن محمد الحنائي ، وأخبرتنا والدتي آمنة بنت محمد بن أحمد العجلية ، قالت : حدثنا أبو محمد عبد الله عبد الرحمن المالكي ٠٠٠ " وذكر أخبرتنا أم اليمن آمنة بنت محمد بن أحمد العجلية من أمها وأبيها ، قالت : أخبرنا ٠٠٠" . (٣)

كان الحافظ ابن عساكر يُكثر الأخذ في سنده عن أم المجتبى الحسينية ويقول : " أخبرتنا أم المجتبى قالت : قُرىء على إبراهيم بن منصور أنبأنا ٠٠٠ " وكان سنده الآخر فاطمة بنت الحسين بن علي الخراسانية . (٤)

---

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (عاصم وعايد) ص٨-١١-١٢٥-١٤٥- ص١٤٦-١٤٧-٢٥٩- ص٥٥٥- ٥٧٣

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (عاصم) ص٣٩٥ ، تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٦ ص٢٨٥

- أحمد نورسيف : مقال مصادر ص٤٨٤-٤٨٥

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص٤٨ ، تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٦ ص٢٨٥

(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص٣٨-٤٩ ، مخطوط ج١٤ ص٢٣١- ٢٣٢

تشدّد بعض العلماء على أن رواية الحديث ، يجب أن تقتصر على الثقات ، والسعي لإكثار الرواية منهم ، من خلال المواظبة على دروس الحديث على الأشياخ الموثوق بهم . وقد تميز بهذه الفترة أبو الوحش سبيع ابن المسلم الدمشقي ، روى الحديث عن أبي عامر علي الأهوازي ، ورشأ بن نظيف ، وعبد الوهاب بن برهان(١) . وكذلك تميز العالم علي بن أحمد بن منصور ، أبو الحسن الغساني المعروف بابن قبيس المالكي (ت ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م) كان محباً لأصحاب الحديث ، لا يروي إلا عن شيخه . (٢)

وحرص المحدثون على حماية الرواية في الحديث ، وحصّنوها لكي لا يمتد إليها الفساد ، وعلى الرغم من ذلك ، فإن البعض استغل السماع لتزويره ، فلم يكن أحمد ابن مقاتل ابن مصكود ، أبو العباس السوسي المالكي ثقة ، فقد جعل ابنه أخاه في السماع ، وقدمه عليه لجهله بالتزوير ، توفي سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م . (٣)

وغمز الحافظ ابن عساكر طاهر بن سهل بن بشر المسند ، أبو محمد الإسفراييني الدمشقي (ت ٥٣١هـ / ١١٣٦م) وقال فيه : حل اسم أخيه من كتاب " الشهاب للقضاعي " ، وأثبت بدله اسمه بنفسه . واهتم بتزوير السماعات أيضاً محمد بن عبد الخالق بن أحمد بن عبد القادر أبو عبد الله ، بالرغم من أنه من بيت حديث ، سمع بالموصل والشام ، إلا أنه لم يكن ثقة ، فقد اشتغل بتزوير السماعات ، فأفسد بها أحوال جماعة تركت بسببه العمل في ذلك الحديث . (٤)

كان معظم عائلات المحدثين في دمشق ، من أبناء المدينة المخلصين ، وكانت لديهم خبرات واسعة في نقل الأحاديث ، فكان منهم أبو طاهر الحنائي المحدث (ت ٥٠١هـ /١١٠٧م) ، وأبو الحسن الموازيني ، وابن الأكفاني (ت ٥٢٤هـ /١١٢٩م) ، وكذلك أبو بكر الخطيب ، وأبو نصر بن طلاب ، وأبو محمد الكتاني ، وعائلة ابن عساكر بأكملها .

==

(١) الذهبي : العبر في خبر من غبر ج٤ ص١٦
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١١ ص٨٥٤
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٢ ص٢٤٥
ـ بدران : المرجع نفسه ج٢ ص٩٧
(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٣٩١
ـ ابن الدبيثي : المصدر نفسه ج١ ص٨١

ولا غرو فإن حلقات التحديث ، أقيمت في الجامع الأموي ، ولم يرد في فترة البحث مصدر يؤكد قيام مدرسة متخصصة في علم الحديث ، إلا أن الحلقات العلمية التي اختص بها الجامع الأموي ، قامت بما لم تقم به المدارس من التدريس ، وأغنت عن دور المدرسة الضروري ، الذي سيظهر لاحقاً في مدارس متخصصة في هذا الفن بعد الحقبة البورية. وعلى كل حال ، فقد حدث فضائل بن الحسن أبو القاسم الأنصاري بجامع دمشق ، توفي سنة ٥٥٥هـ /١١٦٠م . (١) وحدث أحمد بن محمد ابن المسلم بن الحسن أبو القاسم الهاشمي سنة ٥٢٦هـ /١١٣١م ، في مسجد سوق الأحد ، توفي سنة ٥٣٤هـ /١١٣٩م . (٢)

وتابع العلماء التركيز على دور علم الحديث ، من خلال المدارس التي أشرفوا على التدريس فيها ، فلم توجد مدرسة من مدارس دمشق الفقهية ، إلا أدلت بدلوها في تدريس الحديث للطلبة . (٣) فقد درّس عبد الخالق بن أسد الدمشقي ، بالمدرسة الصادرية والمعينية ، وتوفي سنة ٥٦٤هـ /١١٦٨م . (٤)

ودرّس بعض العلماء الحديث في بيوتهم ، فهذا محفوظ بن الحسن بن محمد بن صصري أبو البركات التغلبي (ت ٥٤٥هـ /١١٥٠م) ، أخبرنا قراءة عليه في داره برواية الحافظ ابن عساكر . (٥)

وتوجه بعض الطلبة لدراسة الحديث على المحدثين في بيوتهم منهم ، علي بن أحمد بن قبيس الغساني أبو الحسن المالكي الثقة شيخ دمشق ومحدثها ، روى الحديث عن أبي القاسم السميساطي لم يكن في وقته مثله ، كان منقطعاً في بيته بدرب النقاشة توفي سنة ٥٣٠ هـ/١١٣٥ م ، وقامت الكثيرات من العالمات المتقنات لعلم الحديث بتدريس الحديث في بيوتهن بعد أن سمعنه عن العلماء ، وقد سمعت عائشة بنت علي ابن الخضر من زوجها ابن عساكر الحديث أسمعه إياها من فاطمة بنت علي بن الحسن العكبرية في دارها .(٦)

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٤ ص٢٢٨
ـ ابن منظور : المصدر نفسه ج٢٠ ص٢٧٤
(٢) ابن منظور : المصدر نفسه ج٣ ص٢٨٥
(٣) بدران : المرجع السابق ج٤ ص٣٥٧-٣٥٨
(٤) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٤ ص٢١٢
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٦ ص٢٨٥
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص٢٢١

وسمعت آمنة بنت محمد بن الحسن بن طاهر القرشية من عبد الكريم بن حمزة ، ثم تحولت إلى تسميع الحديث ، فسمع منها ولدها وغيره . (١) وسمع الطلبة أيضاً من فاطمة بنت سعد الخير بن محمد الأنصاري . (٢)

تحدث ابن عساكر عن مجالس الإملاء ، فذكر ناقلاً عن شيخه الإمام أبي منصور محمود ابن أحمد : حضرت مجلسه مراراً ثم لقيته بأصفهان سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧ م وحضرت مجلس إملائه ببغداد ، " وداومت الاستماع لكلامه ، وما رأيت مثله واعظاً ولا شاهدت نظيره مرشداً مبصراً " . (٣) وأملى الحافظ اسماعيل بن أبي الأشعث بن أبي بكر السمرقندي الحديث في جامع المنصور ببغداد زيادة على ثلاثمائة مجلس في الجمعات بعد الصلاة ، وتوفي سنة ٥٣٦ هـ/ ١١٤١ م (٤) ، وكان هبة الله بن طاووس (ت٥٣٦هـ/١١٤١ م) ثقة ، رحل إلى العراق وأصبهان في طلب الحديث بعد ذلك . (٥)

أما ابن عساكر حافظ دمشق (ت٥٧١هـ/١١٧٥ م) وإمام المحدثين ، فقد أملى أربعمائة مجلس وثمانية مجالس في فن واحد ، في جامع دمشق ، أكبر مركز للعلم ، تعقد فيه حلقات الإملاء والتدريس . ومن مجالسه التي أملاها سبعة في فضائل الصديق رضي الله عنه ، ثم أتبعها بإملاء مجالس في ذم اليهود وتخليدهم في النار ، ثم أملى في كل واحد من الخلفاء أحد عشر مجلساً ، (٦) وكان محمد بن عبد الرحمن القيسي الغرناطي الأندلسي حافظاً عالماً ، حدّث وجلس بمجلس البطاقة من حديث حمزة الكتاني توفي سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩ م . (٧)

وقد يكون الإملاء في الحديث والتفسير ، فيشرع العالم بتفسير القرآن أو الحديث ويقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة على رسوله محمد النبي وآله أجمعين وصحبه الأكرمين ، ثم قراءة القرآن وذكر الآيات

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء)ص٤٩-٥٠

(٢)ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص٢٨٧

(٣) ابن عساكر :تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ص٣٢٧

(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٢ ص٨١٩

(٥) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٣١
- ابن الأثير :الكامل في التاريخ ج١١ ص٩٠

(٦) ابن النجار : المصدر نفسه ص٣٣١-٣٣٢ - ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج١٣ ص٨١-٨٣ - الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٥٦٢

(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٦٠٩

والأحاديث المتعلقة بالموضوع . (١) ويمكن أن يعيد في مجلسه القادم لمحة عن مجلسه السابق ، إلا أن البعض عمل على متابعة تفسير القرآن الكريم مبتعداً عن التكرار وذكر كلمات سلف ذكرها ، ولا يفسر إلا ما عرف معناه ، أما ما لم يعرف فيلزم الصمت .

يذكر المملي سند الحديث مبتدئاً بشيخه حتى يصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يذكر رواة الحديث ثم يروي عن شيوخه ، وما اتبعوه من مقولات ومواعظ ومأثورات في الموضوع ، ثم يختم المجلس بأبيات الشعر والحكايات والنوادر (٢) .

وقد أملى ابن عساكر يومي الاثنين والخميس ، ومن إملائه في إحدى جلساته يوم الاثنين سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣ م ، في ذم قرناء السوء قدم فيه أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، في صاحب السوء وصاحب الخير، ثم نقل مواعظ وأقوال لقمان لابنه : من لا يملك لسانه يندم ، ومن يكثر المراء يشتم ، ومن يصاحب صاحب السوء لا يسلم ، ومن صاحب الصالح يغنم . وأردف بعد ذلك نظماً أنشده حول الموضوع فمن الأشعار قوله :

فجانب فدتك النفس منهم ثلاثة فكلهم بالجهل قاتل

وقد سمع هذا السماع أحدهم في ٢٥ شوال سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م بجامع دمشق(٣) .

وذكر في إملاء آخر في ذم من لا يعمل بعمله ، ذكر فيه أحاديث الرسول عليه السلام المتعلقة بخاصية المجلس منها ... " إن في جهنم رحى تطحن علماء السوء طحناً " ثم تابع ناقلاً عن الوعاظ والمفيدين ذاكراً اسم من ينقل عنه العلم بعد الحضّ على أن العلم حسن وخير لمن يعمل به، والتوكيد عليه ، وذكر ناقل السماع أنه نقله من لفظ ممليه الإمام أبي القاسم ابن عساكر سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥ م . (٤)

ويستحب للمحدث أن يملي في المساجد خصوصاً يوم الجمعة في المسجد الجامع متجها نحو القبلة ، وبيده كتابه ، يحدث الناس منه لا من حفظه ، لأن الحفظ خوّان وله أن يرفع صوته بقدر ما يسمع الحاضرون . (٥)

==

(١) السمعاني : المصدر نفسه ص٤٨-٩٨ - قطلوبغا : تاج التراجم ص٥٦
- القنوجي : التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول ص٧٥
(٢) السمعاني : أدب ص٦٢-٦٦-٧٠
(٣) ابن عساكر : مجلسان من مجالس الحافظ ابن عساكر ، في مسجد دمشق ، الأول في ذم من لا يعمل بعمله ، والثاني في ذم قرناء السوء ، تحقيق محمد مطيع الحافظ دار الفكر ط١ ١٣٩٩هـ/١٩٧٩ م ، ص٨-٥٤-٥٧
(٤) ابن عساكر : مجلسان من مجالس الحافظ ابن عساكر ص٤١
(٥) السمعاني : المصدر نفسه ص٤٠-٤٤-٤٦-٤٩

وأياً كانت طريقة التحديث فعلى المحدث أن يعامل معاملة جيدة ، فيوضح لهم الحديث ويعلمهم ما يجب تعليمه من المتون والرجال ، ويبصرهم بمواقع الجرح والتعديل والصحيح والمعتل ، مقدما لهم كل فائدة مرجوة أو قصد مأمول . ولا يحمل العلم عن أهل البدع ، ولا يحمل العلم عمن لم يعرف الطلب ، ومجالسة أهل العلم ، ولا يحمل عمن يكذب في حديث الناس . (١)

لم يقتصر علم الحديث على دمشق ، فقد لقيت أعمال دمشق أهمية كبيرة ، فلقي الحديث اهتمام أهل الغوطة ، وتؤكد كتابات ابن عساكر وتصانيفه عن تلك المناطق حين ذكر مسند أهل داريا ، وكتاب من نزل المزة، وكتاب أحاديث صنعاء الشام ، وكتاب فضل الرُبوَة والنَيْرَب ، ومن حدث بهما وحديث أهل فذايا وبيت توما ، وحديث أهل قرية البلاطة، وحديث أهل زبدين وجِسرين (٢) ، وأهل مسرابا والقصير ، وحديث جماعة من أهل حرستا (٣) ، وكان المحدث أبو عبد الله بن أبي الحديد بحرستا ، وأيضاً عبد الكريم بن محمد أبو الفضائل الحرستاني الفقيه المعروف ، توفي سنة ٥٦١ هـ/ ١١٦٥ م . (٤)

ومن كتابات ابن عساكر حديث أهل كفربطنا ودقنايه وحجيرة وعين ثَرْمَاء وجَدَيَا وطَرْمِيس ، وحديث جماعة من أهل بيت لهيا ، وأهل بَرْزَة جزء (٥)، وحديث جماعة من أهل جوبر . وكل هذه القرى من غوطة دمشق . وقد دثر بعض منها . (٦) وغلب على بعض هذه القرى الرواية أكثر من الدراية ، وجمع البعض

==

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج١١ ص٢٤٩
المقرىء : نفح الطيب طبعة قديمة ج٣ ص٢٦٣

(٢) صنعاء الشام : قرية على باب دمشق دون المزة مقابل مسجد خاتون ، وقد خربت. ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص٤٢٩الربوة ما ارتفع من الأرض، وهي بدمشق في لحف جبل على فرسخ منها. ياقوت : معجم البلدان ج٣ص٢٦ النيرب: قرية مشهورة بدمشق على نصف فرسخ، في وسط البساتين. ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٥ ص٣٣٠ جسرين : من قرى غوطة دمشق ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص١٤٠

(٣) قرية كبيرة عامرة وسط بساتين دمشق على طريق حمص . ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٢ ص٢٤١

(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٤٣٣ ، ج١١ ص٨٤٨

(٥)عين ثرماء :قرية من غوطة دمشق ياقوت: معجم البلدان ج٤ ص١٧٧
جديا :تسمى الآن جِدْيَا وهي من قرى دمشق ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص١١٥
طرميس :قرية من قرى دمشق .ياقوت الحموي :معجم البلدان ج٤ ص ٣٢٠برزة :قرية من غوطة دمشق. ياقوت : معجم البلدان ج١ ص٣٨٢

(٦) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج١٣ ص٨٠-٨١

الآخر بين الدراية والرواية .

ومن علماء دمشق عبد الله بن الحسين بن هلال أبو القاسم الأزدي المحدث سكن سقبا ودفن بها ، سمع منه بسقبا أخو الحافظ ابن عساكر أبو الحسين وأصحابه، وأدركه ابن عساكر ولم يسمع منه، وكان هذا المحدث قد سمع أبا عبد الله الأهوازي ، وأبا القاسم ابن الفرات ، ومع هذا صنفه الحافظ بأن الحديث لم يكن من شأنه ، توفي سنة ٥٠٦ هـ/ ١١١٢ م. (١)

وسكن اسعد بن الحسين بن الحسن أبو المعالي القاضي الشهرستاني الربوة مدة ، كان محدثاً ، جلس بالربوة في بستان منفرداً عن الناس ، توفي سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦١ م . (٢) وكان أبو الفرج عبد الله بن حمزة الكرماني ثم الدمشقي ، خطيب دومة ، سمع وحدث وتوفي سنة ٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م. (٣)

وكان لبعلبك أهمية علمية واضحة فبرز فيها علماء من الفقهاء والمحدثين . وأشار ابن عساكر إلى جملة أحاديث في أهل بعلبك ، كما تحدث عن علماء بعلبك منهم : عبد الله بن الحسن بن حمزة أبو محمد البعلبكي ، وذكر أن الحديث لم يكن من شأنه توفي بدمشق ، وكان مولده سنة ٤٠٩ هـ/١٠١٨ م . (٤) وهذا أحمد بن عقيل بن محمد أبو الفضل الفارسي المعروف بابن الحوافر ، أصله من بعلبك سمع الحديث من أبيه ، ومن عبد العزيز الكتاني ، وصحب نصر المقدسي ، مدة وكتب عنه ، كان خيراً صحيح الاعتقاد توفي سنة ٥٣١ هـ/ ١١٣٦ م . (٥)

وتميز من أهل حوران الحسن الهلالي (ت٥٤٦ هـ/ ١١٥١ م) اشتغل بطلب الحديث وذكره ابن عساكر ، (٦) ومن علماء بانياس إبراهيم بن شيبان أبو طاهر ، أحد مؤسسي المدرسة النظامية في بغداد ، درس الأحاديث على يد نصر بن الزينبي وعمل مدرساً بالنظامية في بغداد . (٧)
ومن علماء حماه تميز الحسين بن عبد الله بن رواحة بن إبراهيم الأنصاري

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٩ ص١٣٨
(٢) بدران : المرجع السابق ج٢ ص٤٦٦
(٣) الإسنوي : طبقات الشافعية ج٢ ص٣٥٢
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع (عبد الله بن جابر) ص١٦٩-١٧٠
(٥) بدران : المرجع نفسه ج٧ ص٣٩٧
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٤ ص٢٥٣
- ابن شداد : الأعلاق الخطيرة قسم الشام ص٢٥٦
(٧) ALPTEKIN : OP,CIT P. 180

الحموي (ت٥٨٥هـ/١١٨٩ م) ، اشتغل بسماع الحديث فسمع من أبي علي القاسم ابن عساكر وغيره (١)

وشاركت صور الإمارة البورية في نشر الحركة العلمية والثقافية خاصة نشر علم الحديث وتلقينه ، ومن أبرز المحدثين الذين نقلوا علومهم وتحركوا إلى دمشق غيث بن علي الأرمنازي (ت٥٠٩هـ/١١١٥ م) كان خطيب صور ومحدثها ، رحل إلى دمشق وعاش بها . (٢) وتميز أحمد بن الحسين بن أحمد أبو الفضل الثغري الصوري المعروف بابن أخت الكاملي ، قدم إلى دمشق بعد احتلال الفرنجة لصور وحدث عن جماعة من العلماء ، كان له تيقظ في الحديث ، توفي سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤ م. (٣)

ونشأ بدمشق الفضل بن سهل بن بشر الإسفراييني ، سمع الحديث عن أبيه في صور ، وعن أبي القاسم ابن أبي العلاء ، وعن علماء دمشق . (٤) ومن علماء صور عبد السلام بن الحسن أبو أحمد الصوري، يعرف بحمدان ، سمع من نصر الفقيه ، وغمزه ابن عساكر ، وأشار أن الحديث لم يكن من شأنه ، مات بدمشق سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٣م .(٥)

برز دور علماء المغرب والأندلس في نشر علم الحديث في دمشق ، فمن الوافدين ؛ عيسى بن هارون بن يوسف موسى المغربي المالكي الفقيه ، سمع الحديث من الفقيه الشيخ نصر الله المصيصي ، ولزم الحضور عنده مدة طويلة ، توفي سنة ٥٥٣هـ /١١٥٨م . (٦) ووصل العالم أبوعلي حسين بن محمد بن فيره بن حيون بن سكره الصدفي ، من أهل سرقسطة إلى دمشق، كان عالماً متواضعاً حليماً وقوراً ، انتقل إلى المشرق سنة ٤٨١هـ /١٠٨٨م وعرف بحفظه لمصنفات الحديث ، وقيامه عليها ، ومذاكرته لمتونها وأسانيدها وروايتها ، كتب منها في سفر صحيح البخاري وصحيح مسلم ، واشتهر بعلمه بطرق الحديث وعلله وأسماء رجاله وحفظ مصنفاته ، توفي سنة ٥١٤هـ /١١٢٠م . (٧)

ومن علماء الأندلس ابن العربي الإمام العلامة الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله الأندلسي الإشبيلي المالكي عالم أهل الأندلس ومسندهم ، سمع بدمشق نصر المقدسي

==

(١) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٨ ص٦٧٥-٦٧٦

(٢) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق (خطط) ج٢ ص٩

- الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٣٨٩

(٣) ابن منظور : المصدر نفسه ج٣ ص٤٨

(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٤ ص٢٣١

(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٣١٥

(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٤ ص١١٤

(٧) مخلوف : شجرة النور الزكية ص١٢٨-١٢٩-١٣٦

- اليماني : غربال الزمان ص٤٠٦

وأبي البركات ابن طاووس ، توفي سنة ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م . (١)

هذا ما أمكن جمعه وحصره عن علم الحديث وأهميته في دمشق ومناطقها ودور المحدثين وما أضفوه على هذه المادة الأساسية من أهمية كبيرة . وقد تميزت دمشق بها حتى غدت مدرسة قائمة بذاتها عريقة بعلمائها أمثال المحدث الحافظ ابن عساكر مسند الشام ، الذي سعى جهده برواية الحديث والاحتياط بسنده ومتنه ، فوضع كتباً تتعلق بالرواية منها ما يتعلق " الموافقات على شيوخ الأئمة الثقات " و" عوالي مالك " و" الإشراف على معرفة الأطراف " و" ما وقع في أحاديث مالك من الغرائب والمسلسلات " و" الأربعين الطوال " و" كتاب أربعين حديثا في الجهاد " و" حديث سعد ابن عبادة" و" حديث الهبوط وصحته " و" عوالي الثوري ، أو من وافقت كنيته كنية زوجته " و" مسند أهل داريا " .

وكذلك له " مناقب الشباب " و" فضل أصحاب الحديث" و" أطراف السنن الأربعة " و" الاجتهاد في إقامة فرض الجهاد " و" كتاب ما وقع للأوزاعي من العوالي " و" اللآلىء في الإبدال العوالي " و" كتاب فضل عاشوراء " و" كتاب المستفيد في أحاديث السباعية" و" الأسانيد " أربعة أجزاء و" غرائب مالك " بعشرة أجزاء ، والذيل عليه خمسين جزءاً . و" فضائل أصحاب الحديث " أحد عشر جزءاً . (٢) وهكذا نلاحظ تسخير ابن عساكر حياته بتخريج التخاريج وتصنيف التصانيف لحفظ الحديث وحمايته وصونه من أن تتطرق إليه أو أن تمسه أيدي الفساد .

٣ ـ علم الفقه:

علم الفقه هو عماد الدين ، يعرف المشتغل به عيوب نفسه ، وأصله في اللغة الفهم ، وقيل فهم الأشياء الدقيقة ، وقيل التوصل إلى علم الغائب ، بعلم مشاهده ، وهو في

==

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص١٩٧-١٩٨
- ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص٩٦

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج١٣ ص٧٦-٧٧-٧٨
- الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٥٥٦-٥٥٨-٥٥٩ - السيوطي : طبقات الحفاظ ص٤٧٤-٤٧٥
- فائق بكر الصواف : مقال ابن عساكر مؤرخاً المجلس الأعلى لرعاية العلوم ص٥٥٣

الاصطلاح المقصود: علم بحكم شرعي فرعي مكتسب ، تفصيلي ، سواء أكان من نصه ، أو استنباطاً منه ، (١) وقيل هو العلم المستنبط من الأدلة الشرعية ، بمقتضى الأحكام الشرعية الثابتة لأفعال المكلفين بها ، كالعبادات والمعاملات والعادات ، خاصة بما يختص به العلماء من الوجوب والحظر والإباحة والندب والكراهة ، وكون العقد فاسداً أو صحيحاً أو باطلاً .

وعلى هذا فمقصوده معرفة الأحكام الشرعية ، وتقرير الأحكام عند العلاقات المظنونة ، معلومة بأدلة قطعية لا ظن فيها ، لأنه لا يجوز للإنسان أن يستنبط تقدير شيء ما لم يصرح واضع الشريعة بتحديده . وأطلق لفظ فقيه على من يتعاطى الفقه، وفلان فقهه الله ، إذا عرّفه وبصّره . (٢)

كان تدريس الفقه الشافعي هو الغالب على دمشق ومناطقها ، والأكثر شيوعاً في جامعها ومدارسها ، (٣) ثم يأتي بعده بالدرجة الثانية فقه الإمام أبي حنيفة النعمان ، الذي دعمه السلاجقة الأتراك (٤) ، ولم يكن للمذهب المالكي مدارس في دمشق ، بل حلقات في الجامع الأموي . أما تدريس الفقه الحنبلي فاقتصر على مدرستين هما الشريفية والمسمارية ، إضافة إلى حلقات درسية خصصت للحنابلة تحت قبة النسر في جامع دمشق ، لإلقاء الدروس وتلقينها. وكان الفقيه أحمد بن الحسن أبو العباس العراقي الحنبلي يلقي بها (ت٥٨٨هـ/١١٩٢ م) .(٥)

==

(١) الأصبهاني : من محاضرات الأدباء ج١ ص١٦

(٢) الإمام الغزالي : المستصفى في علم الأصول ط١ المطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية ١٣٢٢هـ ج١ ص٤-٦٥ – الغزالي : المنخول من تعليقات الأصول تحقيق محمد حسين هيتو دار الفكر ١٤٠٠هـ/١٩٨٠ م ص٥
- الفارابي :إحصاء العلوم وقف على طبعة انجيل غنصليس بلانسيه مطبعة مائسترين في مدينة مجريط ١٩٥٣ م ص٩٩

(٣) ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ج٧ ص٣٣١٢-٣٣١٣
- الإسنوي : طبقات الشافعية ج٢ ص١٧٣

(٤) GILBERT : OP,CIT P. 115
- د. بيطار : مقال التعليم ص ٢٦٠- ٢٦١

(٥) ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ج١ ص٥٠

اقتصرت مدارس الفقه الشافعي على المدرسة الغزالية والأمينية والمجاهدية الجوانية والبرانية ، والمدرسة الجاروخية . بينما اشتملت مدارس الفقه الحنفي على المدرسة الصادرية والخاتونية والمعينية والبلخية والطرخانية بالإضافة إلى مدرسة بصرى . لقيت مدارس المذهب الحنفي دعم الإمارة البورية وأخذت بالتزايد حتى ازدادت نسبتها على مدارس الفقه الشافعي . إلا أن اختلاف وجهات النظر بين أصحاب المذاهب الفقهية الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية أسفر عن نتائج سلبية.

وحين وصل محمد بن موسى بن عبد الله البلاساغوني التركي الحنفي إلى دمشق قادماً من بغداد لولاية القضاء بها ، نصّب إماماً حنفياً في جامع دمشق ، فامتنع الدماشقة من الصلاة خلفه وتوجهوا إلى دار الخيل حيث القيسارية التي قبلي المدرسة الأمينية ، ووصل الأمر بالقاضي أن قال : " لو كان لي الأمر لأخذت الجزية من الشافعية " . (١)

تميزت المدارس الفقهية بأهميتها ، حيث تخرّج منها القضاة والعاملون في مسح الأراضي والمواريث ، ووكلاء بيوت المال وأمناء السر ، وأمثال كثيرة تطلبت معرفة تامة بالأحكام لشغل تلك المناصب ، التي ارتبطت بتفقه الدارس ليتم تأهيله إلى العمل الذي أوكل إليه وبشكل خاص منصب القضاء ، شغله الإمام العلامة الحافظ ابن العربي أبو بكر محمد بن عبد الله الأندلسي المالكي ، تفقه على الإمام الغزالي والطرطوشي ، فأهّله ذلك لعمله الجديد . (٢) وكان الجنزوي اسماعيل أبو الفضل الشافعي بصيراً بالفقه ، سمع الكثير منه ، و صار يعتمد عليه في عقد الوثائق والسجلات توفي سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢ م ، (٣) وتولى الفقيه أبو زيد الحموي أحمد بن نصر بن تميم منصب الحسبة في دمشق ومصر . (٤)

==

(١) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص٢٨
- الصفدي : الوافي بالوفيات ج٥ ص٨٨
- النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٧٨
- ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢ ص١٨٧
(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص١٩٧-١٩٨
- ابن خانكان : وفيات الأعيان ج٤ ص٢٩٦
(٣) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٤ ص٢٩٣
(٤) الإسنوي : طبقات الشافعية ج١ ص٤٤٤

تخصص العلماء في هذه الفترة بعلوم الفقه لكن هذا لا يعني أن العلماء لم يعملوا في علوم أخرى ، لأن فكرة الإحاطة بالعلوم والشمولية كانت موجودة إلى جانب التخصص . والعالم جمال الإسلام بن المسلم (ت٥٣٣هـ/١١٣٥ م) تميز بعلمه في الفقه والأصول والتفسير والحساب والفرائض وتعبير الرؤية ، (١) وكان الفقيه الصائن ابن عساكر (ت٥٦٣هـ/١١٦٧ م) معتنياً محيطاً وملماً بعلوم القرآن والحديث والنحو واللغة . (٢)

لم يكن الاهتمام بالفقه وقفاً على دمشق ، بل إن المناطق المحيطة بها خرّجت علماء في الفقه ، لا يقلون عن فقهاء دمشق بعلمهم وتبصرهم بكل العلوم قاطبة ، منهم عبد الكريم بن محمد أبو الفضائل الحرستاني الفقيه الشافعي ، لم يقصر نفسه على علم الفقه ، بل تزود بعلوم أخرى في دمشق . ومن دوما برز أبو الفرج عبد الله رحل إلى خراسان في طلب العلم ، ثم عاد إلى دمشق ، وقد برع في الفقه ، توفي سنة ٥٦١ هـ/ ١١٦٥ م . (٣) وتفقه خطيب دوما ابن حمزة الكرماني على جمال الإسلام ابن المسلم توفي سنة ٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م . (٤)

وتميز من علماء حماه ابن طاهر أبو إبراهيم الحموي المعروف بالحسني ولد بحماه سنة٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م ، توفي سنة ٥٦١ هـ/ ١١٦٥ م . كان فقيهاً فاضلا ديناً خيرا حسن الطريقة جميل السيرة ، سكن دمشق وتفقه ببغداد وحفظ القرآن الكريم ، تميز بالمذهب الشافعي كان الحافظ أبو القاسم الدمشقي يحسن الثناء عليه . سمع الفقيه الفقه من أبي علي بن نبهان الكاتب ، وأبي طالب الزينبي ، وأبي علي بن المهدي الشاهد ، كتب عنه وسمع بدمشق كثيرون ومما حدّث به أبو محمد عبد الرحمن السهمي ، قاضي طبرية وخطيبها ، بما حدثه به الشيخ الفقيه أبو طاهر إبراهيم

---

(١) ابن القلانسي :المصدر نفسه ص٤٢٤
- ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص٥٤٥
- النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص١٨٠-١٨١
(٢) النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٤١٧
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٤٣٣
- الإسنوي : طبقات الشافعية ج١ ص٤٤١
(٤) الإسنوي : طبقات الشافعية ج٢ ص٣٥٢

الحصني الحموي الشافعي ، فيما حضره عند السلطان نور الدين ، بدار العدل بقلعة دمشق ، حول شهادة زور أهل معرة النعمان بكاملها، للقبض على جميع أملاك أهلها ، ذلك أن أحدهم يشهد لصاحبه بملك ، فيشهد بعد ذلك المشهود له لصاحبه بملك آخر ، في موضع آخر ، فالتفت الفقيه الحصني إلى السلطان ، وقال له : اتق الله في ذلك لا يتصور أن يجترىء أهل بلد على شهادة الزور ، فأصر السلطان ثم ترك الأمر . (١)

يتوجب على طالب الفقه حتى يصل إلى رتبة الفقهاء المشهود لهم أن يواظب على مجالستهم وصحبتهم ، ثم يعود إلى الكتب المشهورة من تصانيف العلماء الأقدمين ، أو المعاصرين له ، فيقوم على تفهمها واستيعابها ، ومعرفة آيات الأحكام من القرآن ، والاعتماد على علوم الحديث ، لأن الفقه هو استخراج الأحكام من الكتاب والسنة .

تفقه الحافظ ابن عساكر منذ حداثة سنه على الفقيه أبي الحسن السلمي بدمشق ، ثم دخل إلى بغداد ولازم بها التفقه وسماع الدروس بالنظامية ، يكتب ويحصّل فيها خمس سنين ، يقرأ الفقه والخلاف . (٢) وتفقه أيضاً أبو بكر الكاساني على الإمام أبي بكر السمرقندي ، قرأ عليه معظم تصانيفه مثل التحفة في الفقه . (٣)

وحتى يرتقي الطالب إلى مستوى أستاذه ، لابد له من ملازمته ومصاحبته ومجالسته معظم الأوقات ، حتى يصل إلى سمعه وفهمه فقه الشيخ . وقد لازم علي ابن الحسن السلمي ، الفقيه الشافعي الشيخ نصر المقدسي ، والإمام الغزالي، حتى أثنى الغزالي على علمه وفهمه . (٤) وبالمقابل لما قدم علي بن جوسن بن رميح بن الحسن التغلبي ، إلى دمشق صبياً ، درس على الفقيه أبي الحسن السلمي حتى غدا فقيهاً . (٥)

==

(١) النووي : مخطوط طبقات الفقهاء الشافعية ص٣٥و- ظ – ابن الصلاح : طبقات الفقهاء الشافعية ج١ ص٢٩٧-٢٩٨

(٢) السبكي :طبقات الشافعية ج٧ ص٢١٧
- ابن النجار : المصدر نفسه ص٣٣٢-٣٣٣

(٣) الحنائي : مخطوط طبقات الحنفية ص ٥٥وجه - قطلوبغا : تاج ص٨٤-٨٥

(٤) السبكي : طبقات الشافعية ج٧ ص٢٣٥-٢٣٦
- الإسنوي : طبقات الشافعية ج٢ ص٤٢٨

(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١١ ص٨٨٨

سعى فريق من الطلبة العمل على ملازمة الفقهاء ، والمواظبة على دروسهم ومطالعاتهم ، ومصاحباتهم في السفر والحضر ، حتى وفاة الفقيه ، لتحصيل أكبر قدر ممكن من المادة الفقهية . وقد صحب إبراهيم بن المطهر أبو طاهر الجرجاني السبّاك (ت٥١٣هـ/١١١٩م) الفقيه الإمام الغزالي ، وكان أحد طلبته ، ثم صار أحد أئمة العصر . (١) ورحل مع الإمام الغزالي في أسفاره ، أحمد بن عبد العزيز بن محمد ابن حبيب أبو الطيب المقدسي الفقيه إلى العراق والشام ، وتوفي سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م . (٢)

وكان علي بن محمد بن أبي المضا أبو الحسن الفقيه الشافعي البعلبكي ، سمع من أبي الفتح المقدسي وصحبه مدة ، توفي في بعلبك سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م . (٣) وصحب الخضر بن الحسين بن أبي عبد الله الأزدي الصقّار الفقيه ، أبا الحسن بن قبيس ، وتفقه على الفقيه أبي الحسين السلمي ، وأبي الفتح المصيصي ، كتب كثيراً من الفقه ودرس كثيراً حوله سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م ، توفي سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨ م . (٤) وكذلك صحب الخضر بن شبل أبو البركات الحارثي الفقيه السلمي (أبو الحسن) ، وابن الموازيني ، والحنائي(أبو طاهر) ، وابن الشهرزوري ، وابن قبيس ، توفي سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٦م . (٥)

وصحب العلماء من الطلبة أيضاً علي بن عساكر بن سرور الشيخ الأمين المعمر أبو الحسن المقدسي الخشّاب نزيل دمشق سمع من الفقيه نصر المقدسي ومن الفقيه ابن أبي الحديد ، كان يصحب الفقيه نصر الله المصيصي ، توفي سنة ٥٧٣ هـ/ ١١٧٧ م. (٦)

==

(١) بدران : المرجع نفسه ج٢ ص٣٠٠ -
ALPTEKIN : OP,CIT P. 179-180
(٢) ابن منظور : المصدر نفسه ج٣ ص١٥٧
- الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٦
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص٥٢٧
- الإسنوي : طبقات الشافعية ج١ ص٢٤٦
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص٦٥٢-٦٥٣
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص٦٥١-٦٥٢
(٦) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٣٥٥

واصل الطالب ضمن حاجته الماسة إلى الرحلة ، البحث عن العلماء للدراسة عليهم وكان طريق العلم يسير على امتداد دمشق وبغداد وخراسان والحجاز ، وغالباً ما حط رحاله بين دمشق وبغداد ، وأكثر الذين سلكوا طريق الرحلة ، هم أهل الأندلس والمغرب ، منهم الإمام العلامة القاضي الحافظ ابن العربي أبو بكر أحمد الأندلسي الإشبيلي رحل مع أبيه وسمع ببغداد ودمشق ، وتفقه على الشيخ نصر المقدسي والطرطوشي ، ثم عاد إلى بغداد ومنها إلى الأندلس توفي سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨ م .(١) ووصل من الأندلس أيضاً محمد بن علي بن عبد الله بن محمد ابن ياسر الأنصاري أبو بكر من أهل جيّان ، دخل ديار مصر والشام والعراق وخراسان وما وراء النهر . تفقه حتى مهر في المذهب والخلاف توفي سنة ٥٦٧هـ/١١٦٧ م . (٢)

وفي إطار الرحلة تحرك الإمام الغزالي محمد بن محمد حجة الإسلام الطوسي في رحلته إلى الحجاز ودمشق والقدس ، فجاور ثم عاد إلى دمشق سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥ م ، واعتكف الزاوية الغربية من الجامع الأموي عشر سنين ثم عاد إلى بغداد ودرس بالنظامية، ثم توجه إلى موطنه طوس وتوفي سنة ٥٠٥هـ/١١١١ م .(٣)

وانطلق في طلب الفقه عبد الخالق بن أسد بن ثابت تحرك من دمشق إلى بغداد توفي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧ م ، (٤) ووصل إلى دمشق أيضاً الحسن بن سعيد بن عبد الله بن بندار أبو علي الشاتاني الدياربكري (ت٥٧٩هـ/١١٨٣ م) رحل إلى بغداد وتفقه على المذهب الشافعي ، فسمع أبا البركات الأنماطي وأبا القاسم ابن الحصين ، قدم إلى دمشق سنة ٥٣١هـ/١١٣٦ م للإفادة في علوم الفقه . (٥)

==

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص١٩٧-١٩٨
- ابن خانكان : وفيات الأعيان ج٤ ص٢٩١
(٢) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٦ ص١٥٣-١٥٤
- المقرىء: نفح الطيب ج٢ ص١٥٧
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٩١٩-٩٢٠-٩٢١
(٤) القرشي : الجواهر المضية ج٢ ص٣٦٨-٣٦٩-٣٧٠
(٥) ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ج٥ ص٢٣٥١

وتحرك الفقهاء أيضا في البلدان لنشر الفقه منهم ، محمود بن الناسك المجير الواسطي العراقي ، قرأ المذهب والخلاف وأعاد بالنظامية ، ثم سافر إلى الشام ودرّس بها ، توفي سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥ م ، (١) ووصل من الموصل عبد الله بن محمد بن هبة الله بن علي بن المطهر بن أبي عصرون التميمي الموصلي نزيل دمشق ، كان أفقه أهل زمانه إليه المنتهى في الفتاوى والأحكام ، تفقه على أبي محمد عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، وقرأ الأصول على أبي الفتح بن برهان ، صنف في فقه المذهب الشافعي وتولى القضاء بدمشق ثم تحول إلى التدريس وإفادة الطلبة ، درس عليه كثيرون توفي سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩ م (٢)

وتولى تدريس الفقه أيضا في دمشق بجامعها الكبير عبد الملك بن يزيد بن ياسين التغلبي أبو القاسم الشافعي الدولعي خطيب دمشق ، ينسب إلى إحدى قرى الموصل ، وهو أحد الفقهاء المشهورين المهتمين بتدريس الفقه في المدينة توفي سنة ٥٩٨هـ/١٢٠١ م . (٣)

لم يقتصر دور العلم والتعليم على دمشق في مجال الفقه ، بل حصلت مراكز الدولة البورية الأخرى على مكانة كبيرة ، فكان لصور على سبيل المثال دور بارز في نشر العلوم ، فقد يتوجه الطلبة إليها لتلقي العلوم عن علمائها ، أو ينقلبون منها إلى دمشق للحصول على التخصص ، فهذا الفقيه نصر الله المصيصي الشافعي الأصولي أحد الأئمة تفقه على الفقيه نصر المقدسي وأبي بكر بن الخطيب ، نشأ بصور ثم قدم إلى دمشق ، وسمع بها من الفقيه أبي القاسم ابن أبي العلاء ، توفي سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧ م .(٤)

==

(١) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص٢٧٨-٢٨٨
(٢) النووي : طبقات الفقهاء الشافعية مخطوط رقم ١٢٢٨٤ ص٦٥ و
(٣) النووي : كتاب طبقات الفقهاء مخطوط ص٧٣ ظ
(٤) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٦٠
- ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٧ ص٥٢٣
- النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٢٧

انطلق الفقهاء الوافدون في مناطق الدولة البورية متخذين دمشق طريقاً لهم إلى بعلبك وحماه وغيرها ، فتحرك إبراهيم بن محمد بن أحمد أبو إسحاق القيسي الفقيه الرملي ، تحرك من دمشق التي تلقى الفقه فيها على أبي الحسن بن علي بن المسلم وأبي الفتح نصر الله المصيصي وعبد الكريم بن حمزة - إلى بعلبك وأقام بها مدة ثم مضى إلى حماه التي تردد إليها مرتين ، ثم عاد إلى دمشق ثم مات بها سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٩ م . (١)

رافق خطوات الرحلة التي قام بها العلماء التركيز على السماع المتواصل ، وجمع الروايات المتعددة ، والشروح والمسائل التي لها حلول فقهية ، فقد سمع أحمد ابن عقيل بن محمد بن علي القيسي الفارسي المعروف بابن أبي الحوافر ، عن والده وعن عبد العزيز الكتاني ، والفقيه نصر المقدسي ، ولأهمية ما نقله من السماع ، فقد عمل مؤرخنا ابن عساكر حين التقى به على كتابة جزء مما لديه من كتابات فقهية في بغداد ، توفي سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م . (٢)

ومن العلماء الذين اهتموا بالسماع أيضاً ، علي بن أحمد بن منصور أبو الحسن ابن أبي العباس الغساني المعروف بابن قبيس الفقيه المالكي ، سمع أباه وأبا القاسم السميساطي ، وأبا بكر الخطيب ، وأبا محمد الكتاني ، وأبا الحسن بن أبي الحديد ، وأبا الفتح نصر ، سمع ابن عساكر الكثير منه ، ووصفه بأنه رجل ثقة متحرز ، منقطع عن الناس في درب النقاشة ، توفي سنة ٥٣٠هـ / ١١٣٥م . (٣)

ويمكن لمتلقي السماع على علماء الفقه ، أن يتحول لإسماع الطلبة ، إذا اكتشف في نفسه تمكناً ، فهذا ابن البن ، أبو القاسم الحسين بن الحسن الأسدي الدمشقي ، تفقه ودرس على الشيخ نصر المقدسي ، وسمع منه ، ومن أبي القاسم المصيصي ، ومن الحسن بن أبي الحديد وغيره ، وسمع منه بعد ذلك كثير من الناس ، توفي ببغداد سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م . (٤)

---

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٢ ص٤٩٥
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٧ ص١٦
- بدران : المرجع نفسه ج١ ص٣٩٧
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١١ص٨٥٤
(٤) الإسنوي : طبقات الشافعية ج١١ ص٢٣٥
- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٤ ص١٠٨

تميزت بعض أنواع السماع بالإنفراد على علماء كبار ، فاندفع فريق من الطلبة للظفر بها ، باعتباره سماعاً متميزاً كسماعات أبي القاسم ابن أبي العلاء ، فهذا الخضر بن علي سمع من الفقيه نصر المقدسي ، وأبي محمد عبد الله بن الحسن بن حمزة بن أبي فجّة البعلبكي ، وأبي البركات طاووس ، لم يظفر ابن عساكر بسماع سماعه ، فاقتصر على سماع الشيء اليسير مما جمعه الخضر . (١) وتم تدريس الفقه بالإجازة كغيره من المواد المدرسة ، فهذا الخضر بن شبل أبو البركات الحارثي الدمشقي (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٦م) أحد الفقهاء الشافعية المتميزين ، روى عنه بالإجازة أبو محمد عبد الرحمن بن علوان . (٢)

لم يقتصر تدريس الفقه في فترة حكم الدولة البورية على المدارس ، بل يعود في جذوره الأولى كمادة أساسية للتدريس في المساجد . ودور الجامع الأموي قديم وعريق في تدريس علوم الدين ، وعلى رأسها الفقه ، فأقيمت حلقات التدريس المنبثقة عن الجامع الأموي ، لتدريس الفقه إلى جانب المواد الأخرى المدرسة في الحلقات العلمية ، وتخصصت بعض الحلقات بتدريس الفقه ، فهذا جمال الإسلام ابن المسلم علي بن الحسن السلمي (ت ٥٣٣هـ / ١١٣٨م) الفقيه الشافعي ، جلس مكان شيخه نصر في الجامع في حلقته ، ـ حلقة الشيخ نصر ـ ثم صارت تعرف بحلقة الغزالي ، وتابع تدريس الفقه فيها بعد شيخه ، فعرفت الحلقة بحلقة جمال الإسلام . (٣)

وأقيمت في المسجد الجامع حلقات لتدريس الفقه ، فكان لعلي بن الحسن أبو الفضائل الكلابي الفقيه الشافعي ، حلقة في الجامع في العمود الثاني من الرواق الشرقي المتوسط ، وكان يذكر درساً في الفقه (ت ٥٦٢هـ /١١٦٦م). (٤)

===

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع (عبد الله بن جابر) ص١٦٩-١٧٠
ـ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص٦٥٧
ـ ابن العديم : بغية الطلب ج٧ ص٣٣٢١
ـ ابن منظور : المصدر نفسه ج٨ ص٧٦

(٢) ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ج٧ ص٣٣١٢-٣٣١٣

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص٥٤٥-٥٤٦
ـ الإسنوي : طبقات الشافعية ج٢ ص٤٢٨ ـ

(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص١٠-١١
ـ القفطي : إنباه الرواة ج٢ ص٢٤١-٢٤٢

ودرس الخضر بن الحسين بن عبد بن أبي عبد الله الأزدي الصقّار علوم الفقه في حلقة ابن الفرات في عام ٥١٨هـ/ ١١٢٤م . (١)

كان للزاوية الغربية دور كبير في تدريس الفقه على المذهب الشافعي ، ثم المذهب الحنفي ، وقد تخصصت الزاوية بمجال الفقه بشكل خاص ، ثم بتدريس علوم أخرى بدأ الشيخ نصر المقدسي تدريسه في هذه الزاوية ، ثم درَس فيها الإمام الغزالي ، وكذلك الفقيه نصر الله المصيصي (ت٥٤٢ هـ/ ١١٤٧ م) . (٢)

ومارس فقهاء المذهب الحنفي دورهم في تدريس مادة الفقه في الزاوية الغربية ، فهذا أبو بكر بن أحمد بن علي بن عبد العزيز البلخي السمرقندي المعروف بالظهير ، تفقه بفقه الإمام أبي حنيفة ، وولي التدريس في دمشق في الزاوية الغربية (الخزانة) من جامع دمشق ، كان حياً بعد الخمسمائة للهجرة . (٣)

وندر أن يسمع للزاوية دور في تدريس الفقه على المذهبين المالكي والحنبلي ، لأن المصادر لم تذكر صراحة شيئاً عن ذلك الأمر ، علماً أن المذهبين أخذا مكاناً آخر في المسجد لتدريس الفقه ، فكان الموضع الذي تحت قبة النسر في جامع دمشق مكان خاص بأصحاب الفقه الحنبلي ، وقد قصدها في عام ٥٤٠هـ/١١٤٥ م، الحسن أبو العباس الفقيه العراقي ، ودرس بها (ت٥٨٨هـ/١١٩٢ م) (٤) ، وكان هناك حلقة أخرى في الجامع يقصدها ويتردد إليها الحسن بن مسمار الهلالي يصلي ويقرأ بها (ت٥٤٦ هـ/ ١١٥١ م) . (٥)

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص٦٥٢
- بدران : المرجع نفسه ج٣ ص١٦٤
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٤٣٣
- ابن شداد : الأعلاق الخطيرة قسم٢ ج١ ص٢٤٦-٢٤٧
- النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٢٧-٤١٣-٤١٥-٤٥٤
ELISSEEFF : OP,CIT P.3 P.919
(٣) ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ج١٠ ص٤٣٤١-٤٣٤٢-٤٣٤٣
(٤) ابن العديم : بغية الطلب ج٢ ص٦٩٥
- ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء ج١ ص٥٠١
(٥) النعيمي :الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١١٤

أما حلقة تدريس المالكية في الجامع الأموي فقد أثبتها مؤرخنا ابن عساكر لأن المالكية لم يكن لديهم مدرسة في دمشق ، فلا بد أن دروس الفقه كانت تلقى في المسجد الجامع ، فكان عيسى بن يوسف بن موسى المغربي المالكي يتولى التدريس في حلقة المالكية بدمشق ، وقد درس بها مرتين، كان عالماً بمذهب الإمام مالك توفي سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م . (١)

وذكر ابن جبير أن المالكية كانت لهم حلقة خاصة بهم في الجامع الأموي ، يقصدون إحدى سواريه للمذاكرة والتدريس . وكان يوسف الفندلاوي الفقيه المالكي ، من مدرسي المالكية في دمشق .(٢) ولم يمنع على الطلبة المالكية أن يدخلوا الزاوية الغربية والسماع على علماء الفقه الشافعي ، فهذا محمد بن عبد الله الأندلسي الإشبيلي (ت٥٦٣هـ/١١٦٧ م) تفقه على الإمام الغزالي والفقيه نصر المقدسي وسمع من أبي الحسن السلمي . (٣)

عقدت مجالس العلم وشارك الفقهاء في المجالس لإملاء الفقه والعلوم على الطلبة بحضور كافة أصحاب المذاهب ، فلم ير ابن عساكر ما يمنع وهو شافعي المذهب أن يحضر مرة أو مرتين مجلس إملاء الشيخ برهان البلخي . (٤) وكان محمد السمرقندي أبو الفتح الاسمندي فقيهاً مناظراً ، توفي سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧ م (٥) وتفقه الخضر بن شبل أبو البركات الحارثي الدمشقي وسمع أبا القاسم النسيب ، وأبا الحسن بن قبيس وحضر ابن عساكر ذلك المجلس وأفاد منه . (٦)

---

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٤ ص١١٤
(٢) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٩١ - ابن بطوطة : المصدر نفسه ص٨٩
(٣) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٦ ص١٥٣-١٥٤
- ابن خانكان : وفيات الأعيان ج٤ ص٢٩٦
(٤) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص٢٠
(٥) السيوطي : طبقات المفسرين ص٩٢
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص٦٥١-٦٥٢

وتواصلت المناظرات للبحث في المسائل التي تحتاج إلى التفسير والتوضيح ، حيث يتم الترتيب لذلك في موعد محدد ، فيأخذ الفقيه مسألة ويعمل على تفصيلها وبيان دلائلها ويشاركه جمع من العلماء في البحث ، على طريقة فن الجدل ، ويتكلم الواحد تلو الآخر بما عنده ، وقد تطول المناظرة فينتصر الحنفي لمذهبه ، ويعارضه الشافعي بالحجج والأدلة ويشاركه الحنبلي والمالكي والنحوي والأديب الفيلسوف ، ويستفيد من هذه المناظرة والمذاكرة العلماء والطلبة الغرباء ، ولا يزال الأمر مستمراً حتى يتم الفراغ من الميعاد المقرر ، ثم يجمعون العزم على ميعاد آخر في مسجد أو مدرسة لاستكمال المناظرة. (١)

ولما قطن الغزالي بغداد كان يحضر مجلسه فئة ممن يمطرونه بالأسئلة الكثيرة التي تحتمل بعض الإحراجات في طيها ، وكان عليه من خلالها أن يجيب وأن يذكر رأيه ، ثم ارتأى الإمام الغزالي أن يسلك منهجا آخر فتحول إلى التصوف وانقلب إلى العزلة عن الناس والتحول عن التدريس .(٢) ولما تم بناء المدارس تحولت المدارس إليها وفق المذاهب الفقهية ، يجلس أثناء المناظرة المتميزون في العلم إلى جوار العالم ليكونوا عوناً له في المناظرة ،واستحضار الإجابة السريعة التي قد تذهبها البديهة أيضاً ، وكان الإمام الغزالي قد أعجب الكثيرون بتدريسه ومناظرته (٣) .

وعمل في المناظرة أيضاً عبد الله بن علي بن سعيد القصري القيسراني ، قدم إلى دمشق وعمل بها حلقة المناظرة بالجامع الأموي ، توفي سنة ٥٤٣هـ أو ٥٤٤هـ /١١٤٨ م أو ١١٤٩ م . (٤) وكان علي بن أحمد بن مكي الإمام قدم إلى دمشق وسكنها ، وكان يشهد ويناظر في مسائل الخلاف ، وتفقه على يديه جماعات كثر حيث كان فقيها فاضلاً ، توفي بدمشق سنة ٥٩٣ هـ/ ١١٩٦ م . (٥)

==

(١) بدران : منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ص١٠٥
(٢) حسين أمين : الغزالي فقيها ص٥٦
(٣) ابن عساكر : تبيين كذب المفتري ص٢٩٢
- الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٣٢٣
(٤) الصفدي : الوافي بالوفيات ج١٧ ص٣٣٧
(٥) قطلوبغا : تاج التراجم ص٤٢

وقدم أبو بكر الكاساني (ت٥٧٨هـ/١١٨٢ م) إلى دمشق طلب منه الفقهاء مسائل عديدة وكثيرة حولها خلاف ، فأخذ يذكر كل المسائل التي لا خلاف حولها بين أصحاب الإمام أبي حنيفة ، فيقول : ذهب فلان إلى هذا في المسألة تلك ويستمر الأمر على ذلك حتى ينقضي المجلس .

و الكاساني هو أبو بكر الحنفي تفقه على الإمام علاء الدين محمد بن أحمد السمرقندي وتزوج ابنته فاطمة الفقيهة ، شرح لشيخه كتاب تحفة الفقهاء وسماه البدائع ، فجعله مهر ابنته فقال فقهاء العصر ، شرح تحفته فزوجه ابنته ، وصل إلى حلب رسولاً من قبل صاحب الروم فولاه التدريس عوضاً عن الرضي السرخسي بعد عجزه ، كان ذا وجاهة وشجاعة ، وكان الفقهاء يبسطون في عتبته السجاد ويجلسون حولها في كل يوم حتى صنف لهم غير البدائع مثل " السلطان المبين في أصول الدين " . (١)

وناظر أيضاً من الفقهاء محمد بن اسماعيل بن عبيد الله بن ودعه البقال ، كان حسن المعرفة بالمذهب والخلاف ، ناظر الفقهاء في البلاد التي دخلها مثل دمشق وغيرها سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢ م . (٢)

كانت المناظرة بين الأشاعرة والحنابلة مصحوبة بالتعصب أحياناً وتركيز كلا الفريقين على مذهبه ، فكان عبد الوهاب الحنبلي الشيرازي ممن أفتى ودرس وناظر مع الفقهاء في بغداد في المسائل والخلافات على المذهب الحنبلي ، والاحتمال قوي أنه نقل مناظراته هذه إلى دمشق . (٣) وجاء من بعده ولده بهاء الدين الشيرازي (ت٥٤٥هـ/١١٥٠ م) كان إماماً فاضلاً مفتياً على مذهب الإمام أحمد بن حنبل وأبي حنيفة . (٤)

==

(١) الحنائي : طبقات الحنفية مخطوط ص٥٥ وجه ٥٥ خلف – ٥٦ وجه كتاب في طبقات الحنفية رقم المخطوط ١٤٥٣٩ ص٤٩ و - طبقات الحنفية : مؤلف مجهول رقم مخطوط ٧١٤٩ ص٢٦ ظ – ٢٧ و

(٢) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٦ ص٩٤

(٣) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٦٥

- الداودي : طبقات المفسرين ج١ ص٣٦٢-٣٦٣

(٤) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٨٣

- النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٦٧

وفد إلى دمشق مركز الإمارة البورية ، أعداد كبيرة من العلماء ، بعضهم حصّل علوم الفقه والدين في بغداد ، وبعضهم وصل إلى دمشق لمتابعة مسيرته العلمية ، والاستفادة من علماء دمشق وفقهائها الكبار ، وتحول الكثيرون إلى التدريس في المدارس ، والاستفادة من أوقاف المدرسة ، لذلك أنكر على الفقهاء أن يمكثوا في المدرسة سنين ، ولا يتشاغلون بالعلوم ، ويقتنعون بما انتهوا إليه من العلوم . (١)

وبناء على ذلك تم التأكيد على مواصلة التحصيل في علوم الفقه والدين ، فهذا محمد بن علي بن عبد المنعم أبو بكر المراغي الفقيه الشافعي ، حدّث بدمشق بعد أن تفقه ببغداد على الفقيه أبي منصور بن الرزاز . (٢) كما وصل إلى دمشق ابن رستم الزنجاني عبد الرحيم بن رستم ، كان عالماً بالمذاهب والأصول ، تفقه ببغداد ، ثم قدم إلى دمشق ودرّس بها ومات سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م . (٣)

ووصل إلى دمشق من العراق الحسين بن محمد أبو عبد الله النهربيني الفقيه ، توفي سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥ م . (٤) وخرج الفقيه أبو الحسن السلمي سنة ٥٢١هـ/١١٢٧ م ، لاستقبال الفقيه البغدادي عبد الرحمن بن الحسن بن محمد أبو محمد بن أبي عبد الله الطبري البغدادي . (٥) ووصل إلى دمشق إبراهيم الموصلي الفقيه الحنفي ، تفقه على الشيخ البلخي ودرس بالصادرية ، توفي بقاسيون سنة ٥٦٠ هـ/ ١١٦٤ م . (٦)

ومن الفقهاء الحنفية المحيط الرضوي محمد بن محمد ، رضي الدين السرخسي مصنف كتاب المحيط وهو في أربعين مجلداً ، ويسمى المحيط الكبير ، لأنه ألف المحيط الثاني في عشر مجلدات ، والمحيط الثالث بأربع مجلدات والمحيط الرابع مجلدان ، وله كتاب آخر اسمه " الذخيرة والفتاوى الصغرى " قدم إلى حلب ودرّس

==

(١) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص١٢٢
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٧٥٤
- القرشي : الجواهر المضية في طبقات الحنفية ج١ ص٨٧
(٣) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص١٥٨-١٥٩
- الإسنوي : طبقات الشافعية ج٢ ص٨
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص١٥
- بدران : المرجع نفسه ج٤ ص٣٥٧
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع مجلد ٤٠ ص٢٦٧-٢٦٨
(٦) بدران : المرجع نفسه ج٢ ص١٦٣

بها ثم نسب إليه ما اشتهر به ، وأنه لم يصنف المحيط لقصوره في الفقه . عزل عن التدريس في حلب فقدم إلى دمشق ودرس بالخاتونية ، توفي سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م (١) .

وتميز من الفقهاء الحنفية أبو الفضل الكرماني الحنفي ولد سنة ٤٤٥هـ/١٠٥٣ م وتوفي سنة ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م يلقب بركن الدين قدم إلى مرو وتفقه بها وبرع في المذهب حتى صار إمام الحنفية بخراسان ، له كتاب شرح الجامع الكبير وكتاب التجريد وكتاب النكت على الجامع الصغير ، ذكره ابن عساكر بأنه وصل إلى دمشق ولقي منزلة . (٢)

اعتمدت الدولة البورية على الفقهاء اعتماداً واضحاً ، فأوكلت في عام ٥٢٣هـ/ ١١٢٨ م إلى الفقيه عبد الوهاب الحنبلي (ت٥٣٦هـ/١١٤١ م) مهمة التوجه إلى العراق ، وطلب النجدة من الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية ، لطرد الفرنجة عن دمشق . (٣) وبما أن بعض الفقهاء كان لهم دور كبير ضد الفرنجة الصليبيين، وإن الفقيه يوسف الفندلاوي وصاحبه الحلحولي ، كانا على رأس من شارك في صد الحملة الفرنجية الثانية عن دمشق سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨ م واستشهدا في المعركة . (٤)

وقبل نهاية الحديث عن الفقه والفقهاء ، لابد من ذكر أبرز المعلقات الفقهية التي استودعها الفقهاء ، ويعتبر قسم منها متداولاً بين أيدينا اليوم ، بينما يعتبر القسم الأكبر في عداد المفقود . فقد صنف الشيخ نصر المقدسي (ت٤٩٠هـ /١٠٩٦م) كتاب الكافي" في المذهب ، وترك مصنفاً آخر عنوانه " الانتخاب الدمشقي " في بضع عشرة مجلداً وكتاب " المقصود " . (٥)

==

(١) طبقات الحنفية : مجهول رقم مخطوط ٧١٤٩ ص٢٧ و٢٧ ظ
- طبقات الحنفية: مخطوط رقم ٨٩٥٠ ص٥٧ ظ – ٥٨ و
- كتاب في طبقات الحنفية : مخطوط رقم ١٤٥٣٩ ص٥١ ظ
(٢) كتاب في الطبقات الحنفية مخطوط رقم ١٤٥٣٩ ص١٦و
(٣) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص٨٠
- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج١ ص٢٣٧
(٤) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٦٤
- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١١ ص١٢٩
(٥) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٥ ص٣٥١-٣٥٢

وترك الإمام الغزالي أعداداً كبيرة من المؤلفات صنف بعضها في دمشق في عشر سنين ، أقام فيها بمنارة الجامع الأموي منها " الإحياء " وقيل إنه بدأ بتصنيف الإحياء بالقدس ثم أتمه بدمشق ، (١) وهو من أجلّ الكتب وأعظمها ، حتى قيل : لو ذهبت كتب الإسلام وبقي الإحياء لأغنى عما ذهب . وهو أول ما دخل إلى الغرب والأندلس ، فأنكروا فيه أشياء ، وصنفوا عليه " الإملاء في الرد على الإحياء " . وتكلم فيه غير واحد وجرّحوه وجمع أغلاط كتاب الإحياء بكتاب " إعلام الإحياء بأغلاط الإحياء "

وأشار ابن الجوزي الحنبلي ، إلى أن الإمام الغزالي وضع الكتاب على مذاهب الصوفية ، وترك فيه قانون الفقه وخرج عنه إلى مجاهدة النفس ، وحمل عليه أيضاً ما استحسنه في قص الأظافر على شكل دائرة من المسبّحة الإبهام إلى الخنصر فيمر عليها مرور الدائرة ، فاعتبر مثل هذا غير مرغوب به لدى البعض . وكان فيه ما ينتفع به " ومن كان عنده من العلم ما يأمن به على نفسه من غوائل هذا الكتاب ويعلم ما فيه من الرموز ، فيتجنب مقتضى ظواهرها ، ويكل أمر مؤلفها إلى الله تعالى " (٢)

والواقع إن ما حُمل على الإمام الغزالي لا يؤخذ به ، فقد وصفه بعض العارفين بعلوم الشريعة والحقيقة بأنه صاحب العلم الغزير والقلب المستنير ، وتابع إن الناس في فضلة علوم الغزالي ، فهم يستمدون من علومهم مدد ما يستعينون به على ما هم بصدده ، على الرغم مما تعرض له من الحسّاد ، وما الإكثار من ذكر روايات فضل الإمام الغزالي إلا لمّا أكثر المحرومون الطعن فيه ، لعدم توفيقهم كما طعنوا غيره من الصالحين ، وفضله أكثر من أن يحصر وأشهر من أن يذكر ، فهو سيد المصنفين غاص في بحار العلوم واستخرج منها الجواهر والنفيسات ، وسحر العقول بحسن العبارات وملاحة الأمثلة وبداعة الترتيب ، مع جزالة الألفاظ ، (٣)

---

(١) الغزالي : المنقذ ص٣١ ـ ابن الجوزي : المنتظم ج٩ ص١٦٨ـ١٦٩
(٢) ابن الصلاح : طبقات الشافعية ج١ ص٢٥٩ ـ النووي : مخطوط طبقات الشافعية ص٢٧ ظ
(٣) اليافعي : الإرشاد والتطريز في فضل ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه العزيز ، راجعه عبد الوهاب عبد اللطيف ، مكتبة القاهرة ١٣٧٨هـ ص١٠٢ـ١٠٣ـ١٠٤ـ١٠٥

والجمع بين علوم الشريعة والحقيقة والأصول والفروع ، والمعقول والمنقول والتدقيق والتحقيق والعلم والعمل وبيان معالم العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات وإبراز محاسن أسرار المعارف المحجّبات العاليات والانتفاع بكلامه علماً وعملاً ،لا سيما أرباب الديانات ، ويرى أن رفض الدينا يكون بمحاربة الشيطان والنفس بالمجاهدة والرياضة . ولا يحصى مما جمعه في تصانيفه ، مما لم يجمعه مصنف فهو سيد المصنفين ، حتى وصف بصاحب العلم الغزير والقلب المستنير(١)

وصنف من الكتب المفيدة المشهورة في الفقه " البسيط والوسيط والوجيز والخلاصة " حصل على أسمائها من أبي الحسن علي بن أحمد بن النيسابوري (ت ٤٦٨هـ /١٠٧٥ م) حيث كانت تصانيفه معروفة بالبسيط والوسيط والوجيز ، فأخذ هذه الأسماء الإمام الغزالي ووضعها لمؤلفاته ، (٢) أما كتابه الوسيط فهو عديم النظير في بابه ، من حسن ترتيبه وتهذيبه ، كان الاعتماد عليه في إلقاء الدروس .

إن ما صنفه الإمام الغزالي في مجال العلوم ، دفع بعض الحساد المغرضين ، للنيل منه ، خاصة من قبل بعض علماء الأندلس ، وفريق من العلماء الحنابلة ، أمثال ابن الجوزي ، ذلك أن سلوك الإمام الغزالي في التصوف ما كان يوافق من حيث منهجه الحنابلة ، الذين حملوا في حالات عديدة على التصوف ، ناهيك عن الموقف المذهبي المترسب بين الأشاعرة ، ومنهم الإمام الغزالي وبين الحنابلة ، ذلك الموقف الذي تواصل واستمر في تحامل كل فريق على الآخر .

ولابد من الإشارة إلى نقطة أخرى ، وهي اعتماد المصادر في النقل عن بعضها البعض ، فقد اشترك في ذكر رواية المازري ، ابن الصلاح ، والإمام النووي ، والإمام الإسنوي ، نقلاً عن ابن الجوزي ومؤلفات المارزي . وعلى الرغم مما ذكر فإن مؤلفات الغزالي في مجال الفقه ، لم تلق معترضاً مما يؤكد ما أشرنا إليه عن أسلوب النقل الحرفي .

==

(١) اليافعي : الإرشاد والتطريز ص١٠٢ـ ١٠٣ ـ١٠٤
(٢) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٠٣
ـ ابن النجار : المصدر نفسه ص١٢٧ـ١٢٨
ـ مخطوط طبقات الشافعية مؤلف مجهول رقم ٥٥١٦ ميكرو فيلم ٤٠٦٧
مكتبة الأسد ص٧٤و

وقد اعترف أستاذه الجويني إمام الحرمين بفضله فذكر بقوله " دفنني وأنا حي " ولا ندري مدى صحة ما ذكر عن شيخه الجويني من كلام ، بأنه لا يعترف له بمكانة ، ولا يراه أهلاً لما حصل عليه من علو شأن ، وإن كان في الظاهر يظهر التبجح به والاعتداد بمكانه ، وذلك لتفوقه عليه ، في سرعة العبارة وقوة الطبع . وكان لا يطيب له أيضاً تصديه للتصنيف ، وإن كان متخرجاً به منسوباً إليه .

وذكر أن الإمام الغزالي لم يزل كذلك حتى انقضت أيام الإمام أبي المعالي إمام الحرمين ، فخرج من نيسابور، وسار إلى المعسكر ، فاحتل من مجلس نظام الملك محلاً، وصار إليه محط أنظار العلماء والرجال والأئمة ، فاتفقت للغزالي أشياء حسنة بسبب ملاقاته الأئمة ، ومجاراته الخصوم ومناظراته الفحول ، حتى صار اسمه في الأفاق ، فاعتمده نظام الملك متبركاً به مستمتعاً إليه مستفيداً من أنوار معرفته ، فدعاه للتدريس بالنظامية النيسابورية، ثم عرض عليه التدريس بالنظامية البغدادية ، فأعجب الناس بدروسه ومناظرته ، فصار إمام العراق بعد أن كان إمام خراسان . (١)

ومما روي عن الإمام الغزالي ، أن أحد العلماء رأى في نومه الرسول صلى الله عليه وسلم ، يباهي بالغزالي الأنبياء ، ويستحسن تصنيفه كتاب الإحياء ، وأن الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام جلد من طعن فيه في المنام ، وشهد له بالصدقية ، فهل يبغضه ويطعن فيه إلا تعيس ؟ (٢) وعلى الرغم لما أشرنا إليه ، فإن الآراء التي أظهرت مخالفة الإمام الغزالي ، لا تقلل من شأنه ، بل على العكس من ذلك فقد حاز اهتمام رجال عصره .

ومن محاسنه التي حفظت له " إن العقيدة القدسية للإمام الغزالي ، جمعت بين الملاحة والفصاحة ، والترتيب العجيب ، والفوائد الكثيرة في الألفاظ اليسيرة والعبارة البارعة ، والبراهين القاطعة ، وغير ذلك من المحاسن الفائقة . " (٣)

===

(١) النووي : طبقات الفقهاء الشافعية مخطوط ص٢٨و-٢٨ظ - السخاوي : مخطوط طبقات الأولياء رقم ١٦٦٢٧ ص٦٤ظ

(٢) اليافعي : نشرا لمحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية ، أصحاب المقامات العالية الملقب كفاية المعتقد ونكاية المنتقد تحقيق إبراهيم عطوة عوض مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٨١ هـ / ١٩٦١م ص٢٢٣
اليافعي :الإرشاد والتطريز في ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه العزيز راجعه وقدم له عبد الوهاب عبد اللطيف مكتبة القاهرة ١٣٧٨ هـ ص١٠٠- ١٠١

(٣) اليافعي : نشر المحاسن الغالية ص ٣٤٧

وضع الفقيه علي بن الحسن السلمي (ت ٥٣٣هـ / ١١٣٨م) مصنفات في الفقه الشافعي منها : " الإستغنا في المذهب " .(١) ومن المصنفات التي ألفها الفقيه عبد الوهاب الشيرازي (ت ٥٣٦هـ / ١١٤١م) في الفقه الحنبلي " المنتخب في الفقه"(٢) وكان للإمام العلامة الفقيه أبو بكر محمد بن عبد الله الأندلسي ، تصانيف في الفقه ، توفي سنة ٥٤٣هـ /١١٤٨م . (٣)

وهذا أبو بكر بن أحمد الظهير البلخي الأصل السمرقندي ، صنف وشرح الجامع الصغير، توفي بدمشق سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م (٤) وكتب في الفقه الصائن ابن عساكر هبة الله ابن عساكر الدمشقي الحافظ الفقيه الشافعي، كان متبحراً في العلوم توفي سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م . (٥) وألف الحسن بن صافي بن عبد الله أبو نزار الفقيه كتاباً في الفقه على مذهب الإمام الشافعي في مجلدتين أسماه " الحاكم " توفي سنة ٥٦٧ ـ ٥٦٨ هـ/١١٧٢-١١٧٣م . (٦) وصنف القطب النيسابوري ، أبو المعالي مسعود مختصرا في الفقه سماه " الهادي " توفي سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢ م . (٧)

وجمع الفقيه أبو بكر الكاساني كتاب " بدائع الصنائع " ويقال له البدائع وهو كتاب مشهور ، على الفقه الحنفي ، توفي سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م ، (٨) وكذلك ترك برهان الدين الفقيه مسعود بن شجاع الأموي الحنفي كتابا في الفقه ، وقد توفي سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م . (٩) ومن مؤلفات الفقيه عبد الله بن محمد بن أبي عصرون أبو سعد التميمي ، نزيل دمشق ، كتاب " صفوة المذهب في تهذيب نهاية المطلب " في نحو ثمانية مجلدات ، ويتضمن في داخله استدراكاً على الإمام الشافعي ، بأشياء ، وتطرق بما طرحه من أمور فقهية إلى المشركين والنكاح معهم ، ومشكلة الطلاق . (١٠)

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص٥٤٥-٥٤٦
ـ ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج١ ص٣١٥
(٢) النعيمي : الدارس ج٢ ص٦٦ ـ ابن تغري بردي : النجوم ج٥ ص٢٧٠
(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص١٩٧-١٩٨
(٤) قطلوبغا : تاج التراجم ص٨٧
(٥) ابن طولون : مخطوط ذخائر القصر بتراجم نبلاء العصر مديرية الوثائق التاريخية فيلم رقم ٥ ص٩٨ظ
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٤ ص٤٣٧-٤٤٠
(٧) الإسنوي : طبقات الشافعية ج٢ ص٤٩٨
ـ ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج١ ص٣٥٣
(٨) الحنائي : مخطوط طبقات الحنفية ص٥٥ وجه ـ ابن الشحنة : نزهة النواظر في روض المناظر ، مخطوط فيلم رقم ١ مديرية الوثائق التاريخية ص١٣٩ و
(٩) القرشي : الجواهر المضية في طبقات الحنفية ج٢ ص١٦٨-١٦٩
(١٠) النووي : مخطوط كتاب طبقات الفقهاء الشافعية ص٦٥و-٦٥ظ

- **أصول الفقه والدين :**

أصول الفقه عبارة عن أدلة الأحكام ، ووجوه دلالتها من حيث التفصيل ، ويتم التعرض فيها للأصول الشرعية وهي : الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، وشرائط صحتها وثبوتها ، ثم لوجوه دلالتها . وهو من أعظم العلوم الشرعية وأجلّها قدراً وفائدة . (١)

ومن هذا العلم تستنبط الأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها الإجمالية . ومبادئه مأخوذة من العلوم العربية وبعض العلوم الشرعية كأصول الكلام والتفسير والحديث فأصول الفقه هو رأس الفقه والمعمول عليه فيه . (٢)

قرأ العديد من العلماء أصول الفقه على الفقهاء الكبار ، فهذا أبو نزار الملقب بملك النحاة كان متفننا في العلوم ، قرأ أصول الفقه على ابن برهان وسمع من علماء آخرين من بغداد ، توفي سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م . وقد ترك مختصرا في أصول الفقه (٣) واندفع الطلبة في الرحلة للحصول على علم أصول الفقه ، فقد رحل الصائن هبة الله ابن الحسن الشافعي الدمشقي ، رحل وقرأ الأصول . (٤) وقد جمع العديد من العلماء بين علمي أصول الفقه وأصول الدين ، منهم الإمام الغزالي .

- **علم الأصول :**

هو علم التوحيد وعلم النبوات ونسخ الشرائع ، وينطبق على حفظ كتاب الله وسنة رسوله لأنهما أصول دين الإسلام . (٥) ويشمل بيان الأداء والمعتقدات التي صرح بها صاحب الشرع ، وتم إثباتها بالأدلة العقلية . وهو من أهم العلوم وأعظمها والمقصود به ما يتعلق بمعرفة الله تعالى وصفاته ، وما يجب له ويمتنع عليه وما يردّ به على المبتدعة . (٦)

وقد تكلم علماء الفقه والأصول في مسائل الخلاف والأصول ، فهذا الخضر بن الحسن بن شبة بن أبي عبد الله الأزدي الصقّار ، كان يتكلم في مسائل الخلاف

---

(١) الغزالي : المستصفى في علم الأصول دار إحياء التراث العربي بيروت ج١ ص٢١٦ ـ ابن خلدون : مقدمة ص ٢٨٧
(٢) السخاوي : إرشاد القاصد إلى سنى المقاصد ص٦٣
ـ حاجي خليفة : كشف الظنون ج١ ص١١٠
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٤ ص٤٣٧ـ٤٤٠
ـ ابن خانكان : وفيات الأعيان ج٢ ص٩٣
(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٩٦
(٥) السمناني : روضة ج١ ص٥٤١
ـ السخاوي : الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص٧٧
(٦) السخاوي : إرشاد المقاصد إلى سنى المقاصد ص٦٣
العلموي: المصدر نفسه ص١٩

والأصول وكان حيا سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م ، (١) وكان الإمام الغزالي قد أحكم النظر في علم الأصول وصنف فيه الكتب منها ، (٢) المستصفى الذي امتزج بعلم المنطق .

ذكر أحد الفقهاء الأصوليين أن الإمام الغزالي استبحر في الفقه وفي أصول الفقه ، أما في أصول الدين فهو ليس بالمستبحر ، شغله عن ذلك قراءة علوم الفلسفة التي أمدته بالجرأة على علم المعاني ، وأول علم المعاني واسترسل في المنطق حتى حمل عليه بعض الفقهاء ، ونسبوا إليه أنه حسّن الفلسفة في قلوب أهل الشرع ، هذا غير اعتماده على ابن سينا الذي صهر الفلسفة بالدين ، ولا يشعر الغزالي بنفسه إلا وهو يسطر أقوال ابن سينا أو يغير في النقل .

ورغم ما حمل عليه إلا أن ذلك لا ينقص من أهمية علومه وخاصة كتابه المستصفى في علم الأصول ، فقد بحث فيه أنواع العلوم وارتباطها بالشرع أو لخدمة الشرع ، (٣) فأظهر الإمام الغزالي عالماً شاملاً وشخصية مستقلة، لم يتقيد بقول من سبقه ، ورتبه بمقدمة وأربعة أقطاب ، وصرف عنايته إلى التحقيق والترتيب والإيجاز على عكس ما فعل بالمنخول من التوسع والاستزادة في توضيح ما غمض فهمه .

فأشار في المستصفى إلى أن " أشرف العلوم ما ازدوج فيه العقل والسمع ، واصطحب فيه الرأي والشرع ، وعلم الفقه وأصوله من هذا القبيل فإنه يأخذ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل ، فلا هو تصرف بمحض العقول بحيث لا يتلقاه الشرع بالقبول ، ولا هو مبني على محض التقليد الذي لا يشهد له العقل بالتأييد والتسديد ولأجل شرف علم الفقه وسببه وفّر الله دواعي الخير على طلبه ، وكان العلماء به أرفع العلماء مكانة ، وأجلهم شأنا وأكثرهم أتباعاً وأعواناً " ، وجنيت في عنفوان شبابي باختصاص هذا العلم " فوائد الدين والدنيا وثواب الآخرة والأولى ويحق لهذا العلم أن أصرف إليه من جهدي الكثير ، وأن أخصّ به من متنفس الحياة قدراً . (٤)

وبناء على طلب سائليه أجاب الغزالي مستعيناً بالله ، فجمع في كتابه بين الترتيب والتحقيق لفهم المعاني ، فأتى بمصنف له ترتيب لطيف ، يطّلع فيه الناظر

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص٦٥٣
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٩١٩
(٣) الغزالي : المستصفى ج١ ص٢٥٥-٢٥٧
- ابن الصلاح : طبقات الشافعي ج١ص٢٦١
(٤) الغزالي : المستصفى ج١ ص٣

على جميع مقاصد هذا العلم ، وما احتواه من مشارح النظر ، " فكل علم لا يستولي الطالب في ابتداء نظره على مجامعه ولا مبانيه ، فلا ملمح له في الظفر بأسراره ومباغيه وقد سميته " كتاب المستصفى من علوم الأصول " وتابع " أعلم أن هذا العلم الملقب بأصول الفقه قد رتبناه ، وجمعناه في هذا الكتاب وبنيناه على مقدمة وأربعة أقطاب ، المقدمة لها كالتوطئة والتمهيد ، والأقطاب هي المشتملة على لباب المقصود " ، ثم ذكر معنى أصول الفقه وحقيقته أولا ، ثم مرتبته ونسبته إلى العلوم ثانياً ثم كيفية اندراج جميع أقسامه وتفاصيله تحت الأقطاب الأربعة رابعاً . (١)

وأصول الفقه عبارة عن " أدلة الأحكام الشرعية الثابتة وعن معرفة وجوه دلالتها على الأحكام من حيث الجملة لا من حيث التفصيل " فإن "علم الخلاف من الفقه أيضا مشتمل على الأحكام ، ووجوه دلالتها ، ولكن من حيث التفصيل كدلالة حديث خاص في مسئلة النكاح بلا ولي على الخصوص ودلالة آية خاصة في مسئلة متروك التسمية على الخصوص . ولا يتعرض الأصول فيها لإحدى المسائل ولا على طريق ضرب المثال بل يتعرض فيها لأصل الكتاب والسنة والإجماع ، ولشرائط صحتها وثبوتها ، ثم لوجوه دلالتها الجملية .

أما من حيث صيغتها أو مفهوم لفظها وهو القياس من غير أن يتعرض فيها لمسئلة خاصة ، فبهذا تفارق أصول الفقه عن فروعه " . فأدلة الأحكام كما لا حظنا الكتاب والسنة والإجماع ، والعلم الذي يعبر عنه بأصول الفقه هو الذي يتم الوصول إليه لثبوت هذه الأصول الثلاثة وشروط صحتها ووجوه دلالتها على الأحكام (٢) .

وإذا تم فهم نظر الأصول في وجوه دلالة الأدلة السمعية على الأحكام الشرعية لم يخف أن المقصود معرفة كيفية اقتباس الأحكام من الأدلة ، فوجب النظر في الأحكام ، ثم في الأدلة وأقسامها ، ثم كيفية اقتباس الأحكام من الأدلة ، ثم في صفات المقتبس " الذي له الحق أن يقتبس الأحكام ، " فإن الأحكام ثمرات ، وكل ثمرة لها صفة وحقيقة في نفسها ولها مثمر ومستثمر وطريق في الاستثمار ، فالمثمر هي الأدلة وهي الكتاب والسنة والإجماع ، وطرق الاستثمار وجود الأدلة ، والمستثمر هو المجتهد " ، ولا بد من معرفة صفاته وشروطه وأحكامه . (٣)

ولما رجع حد أصول الفقه إلى معرفة أدلة الأحكام ، اشتمل الحد على ثلاثة ألفاظ : المعرفة والدليل والحكم . فقالوا ، إذا لم يكن بد من معرفة الحكم فلا بد من

---

(١) الغزالي :المستصفى ج١ ص٤
(٢) الغزالي : المستصفى ج١ ص٥
(٣) الغزالي : المستصفى ج١ ص٧-٨

معرفة الدليل حتى لو كانت معرفته أحد الأقطاب الأربعة ، ومعرفة المعرفة أي العلم ثم العلم المطلوب لا وصول إليه بالنظر ، فلا بد من معرفة النظر ، لذلك شرع في بيان حد العلم والدليل والنظر . (١)

وأشار في أحد فنون الأصول ، وهو فن المقاصد عن بيان مادة البرهان فقال: وهي المقدمات الجارية من البرهان مجرى الثوب من القميص والخشب من السرير وكما لا يمكن أن يتخذ من كل جسم سيف وسرير ، إذ لا يتأتى من الخشب قميص ولا من الثوب سيف ، ولا من السيف سرير ، فكذلك لا يمكن أن يتخذ من كل مقدمة برهان منتج ، بل البرهان المنتج لا يحصل إلا من مقدمات يقينية ، إن كان المطلوب يقينيا أو ظنيّا ، إن كان المطلوب فقهيّا . أما اليقين فشرحه أن النفس إذا أذعنت للتصديق بقضية من القضايا وسكنت إليها فلها ثلاثة أحوال أحدها أن يتيقن ويقطع به وينضاف إليه قطع ثان وهو أن يقطع بأن قطعها به صحيح ، ويتيقن بأن يقينها فيه لا يمكن أن يكون به سهو (رفع) ولا غلط ولا التباس . (٢)

كما أشار إلى ضرورة الرجوع إلى الاستقراء ، فهو عبارة عن تصفح أمور جزئية لنحكم بحكمها على أمر يشمل تلك الجزئيات كقولنا في الوتر ليس بفرض ، لأنه يؤدى على الراحلة والفرض لا يؤدى على الراحلة ، فكل فرض لا يؤدى على الراحلة . (٣)

تطرق الإمام الغزالي لجملة من الأبحاث في كتابه، اعتمد فيها على بيان ودعامة وفن وفصول ومسائل . وإن الباب ينقسم إلى فصول وهلم جرّا . ثم ذكر أن أصول الفقه يخضع لحصر مدارك العلوم النظرية في الحد والبرهان . وتطرق إلى النسخ وأبوابه ثم إلى الخبر وما يجب تصديقه وما يجب تكذيبه ثم الإجماع وأركانه ، ومن ثم القياس وأركانه ، وما يجوز تقديمه على العلوم والخلاف .
وتطرق بعد ذلك إلى الاجتهاد ، واختتم كتابه بترجيح العلل وذكر " هذا تمام القول في القطب الرابع (المستثمر) وبه وقع الفراغ من الأقطاب الأربعة (الكتاب والحكم والاستثمار والمستثمر) التي عليها مدار أصول الفقه ، وبالله التوفيق ، والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليماً " .

وللإمام الغزالي كتاب " المنخول من تعليقات الأصول " وقد بدأه " لتعلم أن علوم الشرع ثلاثة ، الكلام والأصول والفقه ، ولكل واحد منها استمداد وإليها استناد به يتعلق قصد الطالب وارتياده ، فلا بد من التنبيه على مادته ليقتبس الخائض فيه

==

(١) الغزالي : المستصفى ج١ ص٩
(٢) الغزالي : المستصفى ج١ ص٤٣
(٣) الغزالي : المستصفى ج١ ص٥١

منها مبلغ حاجته ، ولا غنى عن التنبيه على مقصوده ، لئلا يكون الطالب على عماية عن مطلبه " .

أما علم الكلام فمادته التميز بين البراهين والأغاليط ، والتميز بين العلوم والاعتقادات ، والتميز بين مجار العقود ومواقفها . (١) أما مقصوده فهو الإحالة بحدوث العالم وافتقاره إلى صانع مؤثر متصف بما يجب من الصفات ، منزّه عما يستحيل تخيله صفة للذات .

فعلم الأصول إذن مادته الكلام والفقه واللغة ، واستمداده من الفقه واللغة ومقصوده معرفة الأدلة القطعية المنصوبة على الأحكام التكليفية ، وأخبار الآحاد (٢) أما الفقه فمادته الأصول ومقصوده معرفة الأحكام وتقرير الأحكام عند ظهور العلامات المظنونة معلومة بأدلة قطعية ، .ويعتبر كتابه من أوائل ما صنف ، اعتمد حذف الفصول ، وتحقيق كل مسألة بماهية العقود مع الإقلاع عن التطويل المغرض . (٣)
سعى الإمام الغزالي في كتابه البحث عن حقيقة العلم وحده ، وأكد على من يقوم به أن يكون عالما ، فلفظ العالم مشتق من العلم ، فمن جهل العلم جهل العالم والعلم ما يعلم به .

وقد قسم العلم إلى علم قديم وعلم حادث ، أما العلم القديم فعلم الله تعالى البارىء، وأما العلم الحادث ، فيقسم إلى الهجمي والنظري . فالهجمي ما ينظر إلى علمه فأول العقل كالعلم بوجود الذات والآلام والملذات ، أما النظري ، فهو ما يفضي إليه النظر الصحيح ، مع انتقاء الآفات على وجه التضمن . ومن أنواع العلوم العلم الحاصل من أخبار التواتر (٤) وكذلك العلم بالحرف والصناعات ، والعلم بانبعاث الرسل والعلم بالمعجزات والعلم بالسمعيات .

وتابع إن نفي العلة مسألة يطلب لها علة ، ولا تكون العلة مشروطة بها . ولم يناقش الغزالي أو يعترض لذكر التأثير بالنسبة إلى العلة . وميزة الغزالي بكتابه هذا أنه ينسب الأقوال إلى قائليها ويذكر أسماءهم . (٥) هذا تعريف بأبرز كتب الإمام الغزالي في علم الأصول .

==

(١) الغزالي : المنخول من تعليقات الأصول تحقيق محمد حسن هيتو ط٢ دار الفكر ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ص٣
(٢) الغزالي :المنخول ص٤
(٣) الغزالي : المنخول ص٥-٣١-٣٣
(٤) الغزالي : المنخول ص٣٦-٤٢-٤٦
(٥) الغزالي : المنخول ص٤١-٤٢

وكان علي بن محمد بن علي الجويني النيسابوري قد نسج على منوال واحد في تحصيل النسخ والأصول توفي سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م . (١) وهذا علي بن المسلم السلمي قد تميز بعلم الأصول توفي سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م (٢) وتميز الفقيه الواعظ عبد الوهاب الحنبلي شرف الدين (ت٥٣٦هـ/١١٤١م) بعلم الأصول وله مصنفات معروفة فيه . (٣) وألف في الفروع والأصول القاضي عبد المجيد بن اسماعيل الهروي الحنفي توفي سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م . (٤)

ومن أئمة علم الأصول والفروع العالم أبو بكر المعافري المتوفى سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م .(٥) وتكلم في الأصول والخلاف الفقيه الخضر بن شبل بن الحسين ابن عبد الواحد أبو البركات توفي سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م . (٦) وهذا الفقيه أبو بكر الكاساني الحنفي كان عالما في أصول الدين وضع كتاب " السلطان المبين في أصول الدين " . (٧)

تمت دراسة علوم أصول الدين على فريق من العلماء ، فقد تحول الفقيه أبو الفتح المصيصي لأخذ علم الأصول على العالم محمد بن أبي بكر عتيق بن محمد العلامة أبو عبد الله التميمي القيرواني الذي توفي سنة ٥١٢هـ/١١١٨م (٨) وعلّق أبو محمد القسري عبد الله بن سعيد القيسراني ، علّق علم المذهب والأصول على الفقيه العالم أسعد الميهني في رحلة تحرك فيها إلى بغداد فأقام فيها ، ثم انتقل إلى دمشق سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م . (٩)

ومن علماء الأصول المتميزين الذين وصلوا إلى دمشق العالم الحاكمي أبو قاسم اسماعيل بن عبد الملك الطوسي ، كان معادلاً للإمام الغزالي إلا أنه أعلم منه بالأصول توفي سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م . (١٠)

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص٥٢٧-٥٢٨

(٢) الإسنوي : طبقات الشافعية ج٢ ص٤٢٨

- السيوطي : طبقات المفسرين ص٢٦

(٣) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٩٦

- الذهبي : ذيل تذكرة الحفاظ ص٧٣

(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٤٤٤-٤٤٥

- اللكنوي :الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص١١٢

(٥) القنوجي : تاج التراجم ص٢٨٠

(٦) سبط ابن الجوزي : مرآة ج٨ ص١٦٨-١٦٩

- الإسنوي : طبقات الشافعية ج١ ص٥٨٨

(٧) الحنائي : مخطوط طبقات الحنفية ص٥٦ ظهر

- قطلوبغا : تاج التراجم ص٨٤-٨٥

(٨) الذهبي : معرفة القراء الكبار ج١ ص٤٦٧-٤٦٨

(٩) الإسنوي :طبقات الشافعية ج٢ ص٣٢١

(١٠) الإسنوي : طبقات الشافعية ج١ ص٤٣٣-٤٣٤

٤ – علم الفرائض:

الفرائض جمع بمعنى مفروضة ، أي حصة مقدرة صريحة من التركة كنصيب أهل الفرض وتطلق على المسألة ولو كان فيها خط عصبة بتغليب خط أهل الفرض (١) وهو من فروع علم الفقه ويتعلق بمعرفة فروض الوراثة وتصحيح سهام الفريضة وقسمتها بعد هلاك المورث حتى يصل أهل الفروض إلى فروضهم . (٢) وهو من أجل العلوم وأنفعها ويرتبط بعلم الحساب من جبر ومقابلة وتصريف في الجذور . وقد حثّ الرسول صلى الله عليه وسلم على تعلمه وكان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبرز من قال في الفرائض . (٣)

تعتبر أركان الإرث ثلاثة مورث يستحق غيره أن يرث منه ، ووارث يستحق أن يرث من غيره ولو بالقوة ، وتركة وهي ما يستحقه الوارث من المورث . والورثة جمع وارث ، والمراد به من اتصف بسبب الإرث من العصبة وأهل الفرض من ذكر وأنثى ممن يقع عليهم استحقاق قبض الإرث .(٤)

حدد الإسلام الفرض المقرر لكل وارث حيث قدره الشرع تقديراً صريحاً من التركة لفريق الورثة . (٥) ارتكزت دراسات هذا الفن من العلوم على الفقه والحساب حتى صار للمسلمين العرب باع طويل ، وشهد العديد من العلماء بمآثر واضحة من خلال ما أودعوه من تآليف كثيرة ومعمقة حوله . (٦)
ومن أبرز العلماء في علم الفرائض والحساب جمال الإسلام علي بن المسلم السلمي (ت٥٣٣هـ/١١٣٨م) تميز بالمذهب والفرائض والحساب وكانت عليه العمدة في القسمة (٧) وكان علي بن أحمد بن قبيس الغساني المالكي أبو الحسن الإمام الفقيه

==

(١) يوسف الأسير : شرح رائض الفرائض طبع بيروت ١٢٩٠ ص٢٥
(٢) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص٢٨٦
(٣) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص٢٨٦
- السيوطي : محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر ص١٠٠
(٤) الأسير : شرح رائض الفرائض ص٥٢-٥٣
(٥) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص٢٨٦
- كبره زاده : مفتاح السعادة ج١ ص٣٧١
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص٥٤٥-٥٤٦
- سبط ابن الجوزي: المصدر نفسه ج٨ ص١٠٣
- النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٨٠-١٨١
(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١١ ص٨٥٤
- سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص٩٦

العالم بالحساب ، تميز بتعليم الفرائض وإقرائها للطلبة توفي سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م . وكان جمال الأئمة ابن المانح (الماسح) علي بن الحسن كان عالما فرضيا برز بالحساب ومساحة الأراضي توفي سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م. (١)

اعتمد علم الفرائض على فقه المذهب الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي ، في معالجة ما يطرأ من حالات يتدخل الفقه الإسلامي لإيجاد حلول لها ، لم يرد بها حكم شرعي بالقرآن أو السنة ، ومن أبرز الفقهاء في علم الفرائض عيسى بن هارون يوسف بن موسى المقري المالكي توفي سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م ، (٢) وكان محمد بن هبة الله بن مكي الحموي تاج الدين فقيها فرضيا أشعري العقيدة توفي سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م (٣) واشتهر الخضر بن عقيل الأربلي أبو العباس الفقيه الشافعي بمعرفة علم الفرائض توفي سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م . (٤)

ومن علماء الفرائض المعروفين في فترة الحكم البوري ، الحسن بن الحسن أبو الفضائل الكلابي المؤدب ، كان الاعتماد عليه في القسمة ، توفي سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م . (٥) وعُرف محمد بن الحسن بن العباس أبو الفضل السلمي الموازيني بالمهارة في علم الفرائض . (٦) وكان زيد بن علي السلمي الدواحي الفقيه ، لديه معرفة بالفرائض توفي سنة ٥٦١هـ /١١٦٥م . (٧) وتميز أيضاً الجنزوي إسماعيل ابن علي بن إبراهيم بن أبي القاسم الفقيه الفرضي ، المتوفى سنة٥٨٨هـ/١١٩٢م(٨).
وحمل علماء المغرب والأندلس من جملة ما حملوه معهم إلى مركز الإمارة البورية ، الفقه والحديث وتلقين القرآن الكريم وعلم الفرائض ، فتميزوا بالشمولية وقدموا لدمشق درّة ما عندهم من المعارف والعلوم .

وهكذا نلاحظ مدى أهمية علم الفرائض في إيجاد حلول للمشكلات التي تعترض المجتمع الإسلامي في القسمة والتقدير ، فقدم علم الفرائض خدمات جُلّى فكان لها دور فاعل في ازدهار الحياة العلمية .

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص١٠
ـ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٠٣ـ٢٠٤
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٤ ص١١٤
(٣) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص٢٣
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص٥٦٩
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٤ ص٤٢٩ـ٤٣٠
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٣٢٨
(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٦ ص٦٥٧
(٨) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص٥٢ـ٥٣
ـ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٤ ص٢٩٣

الفصـــل الثـــانـــي

العـلـوم اللـــغويـــة

ـ علـم الأدب والنحو والشعر والنثـر والخطـابــة :

يُقصد بعلم الأدب العلم الذي يُتعرف فيه على الضمائر واللفظ والخط ، ودلالة المعاني وإظهارها في نفس الإنسان ، وإيصالها إلى أناس آخرين . (١) وقد احتفظت دمشق ومراكز الإمارة الأخرى بحظها ونصيبها في الأدب ، فبرز شعراء كبار منهم ابن الخياط ، عرقلة الكلبي ، وغيرهم هذا غير من وصل إلى الإمارة من شعراء حطت رحالهم في المدينة ، ثم غادرها بعضهم منهم ، ابن منير ، وابن الحكم ، وابن القيسراني ، وأبو الفتوح ابن الصلاح .

بدأ تقدم الأدب بالشام يتواصل مع العهد الفاطمي ، ومسعى الأخير لنشر مذهبه ، كانت بداية نشر الأدب والشعر في المسجد الجامع ، بالإضافة إلى المدارس التي زُودت بالكتب لهذه الغاية . لذلك لا يمكن أن ننسب إلى تلك الفترة الانحطاط والجمود إلا أنها لا تقارن بنشاط الحركة الأدبية في الفترة اللاحقة مع امتداد النفوذ السلجوقي ثم الأتابكي ، حتى يصل إلى ذروة الرقي في العهد الزنكي والأيوبي .

ظل الأدب علماً رائجاً ، ومرغوباً به لدى الأمراء ، يغدقون فيه العطاء للشعراء ، ويتسابقون إلى كسب ود الأديب ، إذا كان من المبرزين اللامعين ، مثل العلاقة بين ابن الخياط الشاعر الدمشقي ، والأمير عضب الدولة البوري . (٢) وهذا الدعم الأدبي الكبير أدى إلى النهوض بعلوم الأدب خاصة مع تشجيع الأمراء وأعوانهم لتلبية متطلبات النهضة العلمية ، التي ترسخت مع الرحلة والرحلات العلمية ، فقد أوصلت الرحلة إلى دمشق من علماء الأدب من كان لهم باع طويل في هذا المجال .

==

(١) السخاوي : إرشاد القاصد إلى سنى المقاصد ص٢٨
(٢) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص١٨٢-١٨٣ ـ التو نجي : حول الأدب في العصر السلجوقي ط١ مطبعة بنغازي ليبيا ١٩٧٤م ص١٠٢

وتأتي علوم اللغة العربية في الدرجة الثانية بعد علوم الدين ، لكنها وثيقة الاتصال والصلة بها . يضم اللسان العربي فنون الشعر المنظوم المقفى الذي تكون أوزانه على روي واحد في القافية . ويضم أيضا فن النثر ، وهو الكلام غير الموزون ويدخل في إطار علوم العربية علم العروض الذي يعطي الشعر قوامه و عموده ، ويعيده إلى نظامه الموزون . (١)

وقد سجلت لنا المصادر أسماء بعض الأدباء في فترة الحكم البوري منهم ، الأديب الغزي أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان المعروف بالغزي ، انتقل إلى العراق وخراسان وأصفهان وكرمان وفارس ، توفي سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م . (٢) وتميز أيضا عبد الله بن محمد بن عبد الله الصهناجي المعروف بابن الأشير المغربي اشتهر بالأدب والشعر ، وصل إلى دمشق وحلب ومكة وحمص بعلبك في رحلة علمية توفي سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م . (٣)

وكان علي بن ثروان بن زيد الكندي ينطق الشعر ويعرف الأدب وصل من الجزيرة إلى بغداد فقرأ بها الأدب على ابن الجواليقي اللغوي ، ثم تحول إلى دمشق وسكنها فقرّ به أمراؤها . وقد أشرف على تدريس الأدب واستفاد الناس كثيرا منه توفي سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م . (٤) واشتهر أيضا الحسن بن صافي ملك النحاة الشاعر الثائر ، سافر من بغداد إلى خراسان وغزنة وكرمان والشام ، توفي سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م (٥)

ومن الشعراء والأدباء المعروفين سعد بن علي بن القاسم الحظيري أبو المعالي ، يعرف بالكتبي . كان أديبا شاعرا ، دخل الشام وحج منها ماراً ببغداد توفي سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م . (٦) ومن الأدباء المشهورين أيضا محمد بن المحسن بن الحسين ابن المضاء البعلبكي أبو عبد الله ، نشأ بمصر وقرأ الأدب ثم عاد إلى دمشق ، وسمع

==

(١) الأصبهاني : من محاضرات الأدباء ج١ ص١٦
(٢) الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ج١ ص٣
(٣) ابن بشكوال : كتاب الصلة ج١ ص٢٨٨-٢٨٩
(٤) القفطي : إنباه الرواة ج٢ ص٢٣٥
(٥) ابن العديم : بغية الطلب ج٥ ص٢٣٩٠
- ابن العماد الحنبلي :شذرات الذهب ج٤ ص٢٢٧
(٦) ابن الدبيثي : المصدر نفسه ج٢ ص٧٩-٨٠-٨١

من أبي القاسم ابن عساكر ، ورحل بعد ذلك إلى بغداد ، وسمع بها ، وعاد أدراجه إلى دمشق ومات بها سنة٥٧٢هـ/١١٧٦م . (١) وأجاد مهذب الدين بن النقاش البغدادي علوم العربية والأدب إضافة إلى علوم الطب ، زار دمشق مراراً توفي سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م . (٢) وقد أشرنا إلى أبرز الأدباء بشكل عام ، إلا أننا سنفرد تفاصيل أكثر عن المتميزين منهم في مجال الشعر لاحقاً .

- علـم النحــو :

علم يتعرف منه أحوال اللفظ المركب من جهة ما يلحقه من التفاسير المسماة بالأعراب والبناء ، وأنواعها من الحركات والحروف ومواضعها ولزومها ، وكيفية دخولها في الجمل . ويحتاج الاستدلال عليه إلى الكتاب والسنة . (٣)

يعتبر علم النحو من العلوم الضرورية والهامة لدراسة الفقه والمواد العلمية الأخرى التي تدخل ضمن أساسياته ، لذلك فإن الفقيه أو المحدث لا يمكنه أن يقطع شوطا بعيدا في علمه إن لم يكن لديه معرفة واسعة في النحو تساعده في تعليم اللغة والنحو والمعاني والبيان في المساجد والمدارس . فالنحو نصاب العلم ونظام قوامه ، ووشي كلامه وحلة جماله ، حتى قيل إن النحو يرفع الوضيع ويخفض الرفيـــــع ، ولشدة الاهتمام به كان بعض المعلمين يضرب على الخطأ ضربا واحدا وعلى اللحن سبعا . (٤)

تميز أهل الأندلس بالتفوق الكبير بعلم النحو ، ووصلوا إلى دمشق مساهمين في تعليمه إلى الطلبة .من أبرز هؤلاء العلماء علي بن أحمد بن منصور المعروف بابن قبيس الغساني .كان يقرىء النحو في دمشق ، توفي سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م . (٥)

==

(١) ابن الدبيثي : المصدر نفسه ج١ ص١٤٢
(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٦٣٥
(٣) السخاوي : إرشاد القاصد إلى سنى المقاصد ص٣٥
(٤) الأصبهاني : من محاضرات الأدباء ج١ ص١٥
- د٠بيطار : مقال التعليم ص٢٦٢
(٥) القفطي : إنباه الرواة ج٢ ص٢٣٢

وقدم إلى دمشق سنة ٥٠٤هـ /١١١٠م محمد بن طاهر بن علي أبو عبد الله الأنصاري الداني ، وجلس يدرّس علم النحو فيها ، توفي سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م . وقد أخطأ الحافظ السيوطي في ذكر تاريخ وصوله إلى دمشق وكذلك في تاريخ وفاته، فقد ذكر أنه وصل إلى دمشق سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م وأن وفاته كانت في سنة ٦١٩هـ/١٢١٢م (١) .

وتميز في علم النحو أيضاً محمد بن سعدون العبدري ، حيث ألّم بفنون العلم وبحوره أدباً ونحواً توفي سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م ، (٢) وسكن دمشق يحيى بن سعدون ابن تمام بن محمد أبو بكر الأزدي الأندلسي القرطبي المقرىء ، أقرأ بالمدينة النحو ، اتصف بكونه إمام علامة بالعربية والأدب ، أخذ علومه عن أبي القاسم الزمخشري توفي سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م . (٣)

وعلى الرغم من المكانة التي حاز عليها علماء الأندلس ، إلا أن المناطق المجاورة للإمارة البورية ، قد أسهمت ، بالإضافة إلى سكان البلاد ، في دفع عجلة النحو دفعة قوية ، حيث برز وتميز في هذا العلم علي بن طاهر بن جعفر ، أبو الحسن السلمي النحوي بهذا العلم ، وقد ذكره ابن عساكر ، وأشار إلى أنه أقام حلقة خاصة به في الجامع الأموي ، توفي سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م . (٤) واشتهر بعلم النحو والشعر والتأديب الدُّمَيْك بن أبي الخرجين ، الشيخ أبو منصور بن المسلم الحلبي التميمي السعدي ، الذي توفي سنة نيّف وعشرين وخمسمائة . (٥)

ووصل من العراق أيضاً علماء متميزون في علم النحو ، منهم عمر بن إبراهيم ابن محمد بن زين العابدين بن الحسين ، أبو البركات الكوفي ، إمام متميز من أئمة

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٤٨٣
- القفطي : إنباه الرواة ج٣ ص١٥٣
- السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة دار المعرفة بيروت ص٤٩
(٢) الذهبي : سير ج١٩ ص٥٨٠
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٨ ص١١٢-١١٣
- القفطي : إنباه ج٤ ص٣٧
(٤) السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ط١ دار السعادة مصر ١٣٢٦هـ/ ص٣٣٩
(٥) الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ج٢ ص١٦٩

النحو واللغة والفقه والحديث ، توفي سنة ٥٣٥هـ/١١٤٤م . (١) ووصل أيضاً سعد ابن الحسن بن سليمان النوراني ، أبو محمد الحرّاني النحوي ، اشتهر بالتجارة والسفر إلى الشام ومصر والعراق وخراسان ، ثم سكن بغداد وجالس أبا منصور الجواليقي وأخذ عنه ، اشتهر بمعرفة جيدة في النحو ، توفي سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م . (٢) وعُرف بعلو طبقته في علوم العربية جعفر بن أحمد بن الحسين بن أحمد المعروف بالسراج ، أبو محمد البغدادي اللغوي ، تميز بعلم القراءة والنحو واللغة والعروض توفي سنة ٥٥٠-٥٥١ هـ/١١٥٥ -١١٥٧م . (٣)

ومن حذاق علم النحو عبد القاهر بن عبد الله بن الحسين الحلبي النحوي الشاعر ، أبو الفرج المعروف بالوأواء ، تردد إلى دمشق ، وأقرأ بها علم النحو توفي في حلب سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م . (٤) وأقرأ شقيق الحافظ ابن عساكر هبة الله الصائن ، علوم النحو في دمشق . (٥) وكان الحافظ السلفي أحمد بن محمد محدثاً نحوياً لغوياً محققاً ثقة حجة ، توفي سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م .(٦) وممن استقر في دمشق وأقرأ النحو والعربية محمد بن طاهر بن عيسى الأنصاري الخزرجي ، قدم دمشق سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م ، وأقام يدرس علوم العربية مدة . (٧)

نلاحظ من خلال التراجم السابقة ، أن تدريس علم النحو ، كان يتطلب في الغالب الإلمام بعلوم الدين ، والأنساب ، كعلوم القرآن والفقه والحديث والطب وغير ذلك من

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج١٥ ص٢٥٧-٢٥٨
(٢) السيوطي : بغية الوعاة ط١ ١٣٢٦هـ ص٢٥٢
(٣) السيوطي : بغية الوعاة ج١ ص٤٨٥
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٤١٥-٤١٦
- السيوطي : بغية الوعاة ط١ ص٣١٠
(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٩٥-٤٩٦
- الإسنوي : طبقات الشافعية ج٢ ص٢١٥
(٦) الصفدي : الوافي بالوفيات ج٧ ص٣٥٢-٣٥٤
(٧) المقري : نفح الطيب طبعة قديمة ج٢ ص٣٥٣

العلوم الأخرى . (١) ويتم تدريس علم النحو بشرح مقاطع شعرية ، ثم إعراب ذلك المقطع بعد توضيح شروحه ، وإيصالها إلى الطلبة ضمن دروس نحوية متعددة . (٢) وكان المدرس يسعى جاهداً تعليم الطلبة كل ما يحتاجون إليه من علم النحو ، فيوقفهم على حقائق الأسماء ، ودقائق البحوث ، واشتقاق المعاني ، ويبين لهم الأسماء الأعجمية المنقولة ، والعربية الخالصة ، ويدلهم على الأفعال الأصلية والأفعال الناقصة ، المرتبطة بكان وأخواتها ، وتحفيظهم الأمثال ، وكلمات الشعراء ، والأهم من ذلك أن يأخذهم بعطفه وحلمه حتى يستقطبهم للمادة العلمية . (٣)

واستدعت دراسة علم النحو ، مجالسة الطلبة للعلماء ، فقد جالس الحافظ ابن عساكر ، العالم عبد القاهر بن عبد الله بن الحسين الشيباني النحوي الحلبي الشاعر (ت ٥٥١هـ/١١٥٦م) حين وصل إلى دمشق ، فأخذ عنه علم النحو وأتقنه .(٤) وقرأ ابن المطران موفق الدين النحو في الجامع الأموي ، يحمل الكتاب الذي يدرس فيه النحو إلى حلقة شيخه في المسجد ، ويقعد بين الجماعة للدراسة والتعلم . (٥)

وليس كل طالب مواظب وقادم للدراسة بإمكانه أن يغدو مؤهلاً في علم النحو ، فلا يحق للطالب أن يدرس إلا بعد أن يحصل على كتاب ، يثبت لنفسه بموجبه تصدره لإقراء العربية أو المشيخة والرئاسة والتمكن بشكل قوي من هذا العلم وفنه(٦) . وكان الحافظ ابن عساكر قد انتفع بدروس جده لأمه ، عيسى بن علي القرشي (أبو الفضل) ، فأخذ عليه علم النحو حتى صار نحوياً جيداً ، ثم تابع المواظبة على التعلم المعطى له في الجامع الأموي من قبل أخيه الأكبر الصائن ،

---

(١)ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص١٠-١١، ج١٨ ص١١٢-ص١١٣

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٤١٥-٤١٧
- السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص٢١٤

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج١١ ص٢٥٠

(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٤١٥-٤١٧

(٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٦٥١-٦٥٢-٦٥٣

(٦) المقري : نفح الطيب طبعة قديمة ج٢ ص٤٢١ ، ج٣ ص٢٩٦

فتعلم وسمع القرآن والحديث ، ثم توجه إلى بغداد ، وتلقى دروسه في النحو والخلاف في المدرسة النظامية ، وتوفي سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م . (١)

واستكمالاً ومتابعة في الحديث عن الجامع الأموي وأهميته ، فقد تواصلت حلقات التعليم فيه ومن تلك الحلقات تدريس علم النحو ، فقد أقام العالم علي بن الحسن أبو القاسم بن أبي الفضائل الكلابي النحوي ، حلقة كبيرة في الجامع الأموي ، يُدرس فيها النحو ، بالإضافة إلى علوم القرآن والفقه ، وذلك في العمود الثاني من الرواق الشرقي المتوسط في حلقة أبي الحسن طاهر النحوي ، وقد روى عنه الحافظ ابن عساكر وولده القاسم ، وكذلك أبو المواهب صصرى ، المتوفى سنة ٥٦٢هـ /١١٦٦م . (٢)

وقد يصل العلماء في نطاق رحلتهم العلمية في تعليم الطلبة إلى مكانة عالية ، فقد وصل محمد بن عبد الله بن محمد بن ظفر المكي الصقلي حجة الدين أبو جعفر النحوي اللغوي إلى حلب ثم قصد حماه ، كان علمه باللغة أقوى من النحو ، أقام بحماه يدرس وقد أجري له مرتب ، ويعتبر من علماء المناظرة في اللغة ، من الأدباء الفضلاء ، له من المؤلفات شرح المقامات بشرحيه الكبير والصغير (للحريري) ، فتصانيفه كلها جيدة ، جرت بينه وبين الشيخ تاج الدين الكندي مناظرة في النحو واللغة ، فأشار عليه بمسائل في النحو ، فلم يمش معها ، فقال ابن ظفر : الشيخ أعلم مني بالنحو ، وأنا أعلم منه باللغة ، توفي بحماه سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م . (٣)

ولأهمية المناظرة فقد تم التأكيد عليها ، وألا تتجاوز الغرض العلمي منها والمخرج الجيد فيها هو امتزاج معارف العلماء ، فتقف مدرسة النحو في دمشق تعاضد مدرسة النحو الأندلسية ، ومدرسة النحو العراقية وكذلك المصرية ، فيؤدي التناظر إلى التعرف على الحذق المجتمع في كل المدارس .

---

(١) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص٢١٧

- ابن الأثير : المصدر نفسه ج١١ ص٤٣٥

- ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM : ART . IBN ASAKIR P. 3 . P 714 .

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق: مخطوط ج١٢ ص١٠-١١

- القفطي : إنباه الرواة ج٢ ص٢٤١-٢٤٢

(٣) ابن قاضي شهبة : مخطوط طبقات ص١١٠-١١١

وعلى صعيد أهمية علماء النحو فقد تميز الحسن بن أبي الحسن صافي مولى الأرموي أبو نزار البغدادي (ت٥٦٨هـ/١١٧٢م) ملك النحاة ، بأنه من أنحى أهل طبقته في النحو ، كان فصيحاً ذكياً علامة في النحو ، قرأ النحو على الشيخ أبي الحسن علي بن أبي زيد الاسترابادي الفصيح ، ولما انتقل إلى دمشق علّم النحو في مدارسها ، وفتح له جامع الحلقة فدرس فيه النحو ، كان يحب أن يلقب ملك النحاة ويسقط على من يخاطبه بغير ذلك ، ولم يقتصر في تدريسه على دمشق بل كان يدرس النحو والأدب في المسجد الجامع في المدن التي كان يقصدها ، توفي سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م . (١)

عمل في تدريس النحو أيضا محمد بن خلف بن محمد بن عبد الله أبو بكر الإشبيلي المقرىء النحوي ، من المتميزين بعلم القراءات والعربية وله التقدم بهما ، درّس الناس النحو أكثر من خمسين سنة توفي سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م . (٢) لم يقتصر تدريس علم النحو على دمشق وجامعها الأموي ، بل انتقل الدور أيضا إلى المناطق الأخرى ، فكان لجامع حماه الكبير أهمية في تدريس العلوم . فقد درس عبد الله بن خلف بن عبد الله الكفرطابي المعروف بطيح ، النحو مدة اثنتي عشرة سنة ، وكان يسافر إلى دمشق فوصلها سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م ، ثم عاد إلى حماه ،توفي سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م . (٣)

وكان الطلبة يزدحمون على درس العالم زيد بن الحسن أبو اليمن الكندي البغدادي ، ثم الدمشقي النحوي اللغوي المقرىء المحدث ، توفي سنة ٥١٧هـ/١٢٠١م . (٤)

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٤ ص٤٣٧-٤٤٠
- الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر مجلد ١ ج٣ ص٨٩-٩٣
- القفطي : إنباه الرواة ج١ ص١٩٣
(٢) ابن قاضي شهبة : مخطوط طبقات ص٤٤
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (عبد الله بن جابر) ص٢٣٦
(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج١١ ص١٧٤

تم الحضّ على تدريس النحو في المدارس التي يدرس بها الفقهاء الملمون بعلم النحو ، وكان يتم تدريسه في المساجد في حلقات خاصة به ، وغالبا ما أرفقت الحلقة في الجامع بوقف لمجموعة من كتب النحو الأساسية ، التي تدفع الطلبة لدراسة وقراءة المطلوب منها ، وبمقدرة العلماء أيضا الإحاطة بهذه الكتب إذا ما احتاجوا في تدريسهم إليها ،فقد أوقف علي بن طاهر بن جعفر القيسي السلمي النحوي الدمشقي خزانة كتبه في موضع حلقته في الجامع الأموي بدمشق ، توفي سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م (١) .

وليس بالضرورة أن يلقي العالم النحوي في الجامع أو المدرسة دروسه ، فقد أقر له أن يدرس في بيته إن أراد . فقد درس الفقيه المالكي علي بن أحمد بن منصور الغساني المعروف بابن قبيس في بيته ، بدرب النقاشة بدمشق ، الطلبة القادمين إليه ، توفي سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م . (٢)

أولى العلماء اهتماما كبيراً لكتب النحو على صعيد اقتنائها أو تأليفها ، وغالباً ما حمل العلماء كتبهم الخاصة بهم في رحلاتهم العلمية ، ينتقلون معها ويستأنسون بها في طريقهم ، فقد حمل عبد الله بن محمد الأثيري المغربي كتبه ، وقصد بها الشام ، إلا أنها غرقت في طريق سفره ، والأثيري هذا من اللغويين المعروفين له مصنفات في الاشتقاق . (٣)

ومن المصنفات التي وضعها علماء النحو كتاب " المختلف والمؤتلف " للعالم محمد بن طاهر بن علي بن أحمد أبو الفضل المقدسي المتوفى سنة ٥٠٧هـ /١١١٣م . (٤) وألف عبد الله بن خلف بن عبد الله الكفرطابي المعروف بطيح ، كتاباً في النحو أسماه " التحف السنية في فضائل علم العربية " توفي سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م . (٥)

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص٤٣٤-٤٣٥
- القفطي : إنباه الرواة ج٢ ص٤٧-٢٨٣
(٢) القفطي : إنباه الرواة ج٢ ص٢٣٢
(٣) القفطي : إنباه الرواة ج٢ ص١٣٧-١٣٨-١٤٠
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٤٨١-٤٨٣
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع (عبد الله بن جابر) ص٢٣٦
- ابن قاضي شهبة : مخطوط طبقات ص٣٤٢

وألف الحسن بن أبي الحسن صافي مولى حسين الأرموي ، أبو نزار البغدادي "الحاوي في النحو " مجلدتان ، و" العمد في علم النحو " مجلدة ضخمة ، و " المنتخب في النحو " مجلدة . وله ديوان شعر كبير مجموع ، تضمن مدائح في الرسول صلى الله عليه وسلم . وله مقامات من جنس مقامات الحريري ، وكان يقول : مقاماتي جدٌ وصدقٌ ، ومقامات الحريري هزلٌ وكذبٌ . وله كتاب يقع في أربعمائة كراسة سماه " التذكرة الشعرية " . (١)

وكتب سلامة بن عياض أبو الخير الشامي ، وهو من أهل كفرطاب (ت٥٣٣هـ/١١٣٨م) في الأدب ، فكانت له معرفة جيدة به ، وله كتاب في عشر مجلدات في الأدب . (٢) وتميز سعيد بن المبارك أبو محمد النحوي ، بمؤلفاته المفيدة الكثيرة ، كان يُسمى سيبويه عصره ، من مصنفاته ، " شرح الإيضاح لأبي علي الفارسي " في ثلاثة وأربعين مجلداً ، توفي سنة ٥٦٥هـ /١١٦٥م ، وقيل ٥٦٩هـ/١١٦٩-١١٣٧م . (٣) واشتهر عن العالم النحوي علي بن زيد الكندي ، كتابته الكثير من دواوين العرب ، توفي سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م . (٤)

وعُرف أيضاً من علماء النحو الحسين بن محجوب النحوي الدباس المقرىء الأديب الشاعر النديم ، نحوي زمانه ، الملقب بالنازع ، صاحب التصانيف ، المولود سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م ، وصفه ابن الجوزي بأنه من أهل السؤدد والكرم ، الذي لا يوجد له نظير ، ولا مثيل في النحو ، وامتدحه الحافظ ابن عساكر ، وأثنى على مؤلفاته التي منها " الشمس المنيرة في التسعة الشهيرة " ، إضافة إلى ديوان شعر ، يعتبر في الذروة . (٥)

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٤ ص٤٣٧
- السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص٦٣
(٢) ابن قاضي شهبة : مخطوط طبقات النحاة ص٣٠٤-٣٠٥
(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج١٦ ص٢١٩
- القفطي : إنباه الرواة ج٢ ص٤٧
(٤) ابن قاضي شهبة : مخطوط طبقات النحاة ص٤١٢
(٥) ابن قاضي شهبة : مخطوط طبقات النحاة ص٢٦٧-٢٦٨

وهكذا حاز علم النحو على المكانة والأهمية ، ولقي الاستعداد الكبير من العلماء على إتقانه وتلقينه ، لأنه أساس ولبّ علم اللغة العربية ، وقراءة القرآن الكريم . وقد تشدد علماء النحو في توضيح وتبيين الأخطاء أمام الطلبة ، بعد تحديد دقيق لموقع الجملة المعينة من الإعراب ، سواء أكانت في موقع الفعل أو الفاعل أو الصفة أو الحال ، وإذا وقع الطالب بالخطأ بعدما يتم توضيحه له ، فإنه يتعرض لنوع من التوبيخ ، مما يلزمه التركيز على الفهم ، وكانت العقوبة الحاسمة تقع على من يخطىء في اللحن ، وحركات الإعراب ، وعلى الطالب أن يتحمل الضرب الموجع ، حتى لا يقع بمثل هذه الأخطاء في المرات القادمة .

إن الوقوع في الخطأ قد يؤثر على القراءة في القرآن الكريم ، فيشكل عند ذلك مشكلتين : مشكلة اللحن في النحو ، وهذا شيء كبير ، ومشكلة الإساءة إلى مواضع الكلمات من الإعراب في القرآن الكريم . وهذا هو الخطر الأكبر والأكيد الذي دفع العلماء للتشدد على الطلبة والأخذ بيد من حديد .

علم الشعر :

يعتبر قرض الشعر عند المسلمين والعرب ، مظهراً من مظاهر الاعتزاز بالنفس، ووسيلة من وسائل الدعاية العامة ، اتخذها الشعراء في مدح أو ذم من يقصدون بابه ، وكان الكثير من الشعراء ، يعيشون في كنف الأمراء والحكام للتكسب أو الشهرة ، وقد ذم البعض ظاهرة التكسب من الشعر . (١)

وقد أدى الشعر في معظم الأحيان الرسالة التي كان يسعى وراءها الأمراء في دمشق في استغلال الشعر للجهاد في سبيل الله تعالى ، والتحريض والحضّ على الجهاد ، وجرّ الحافز والدافع ، وتحبيب الأمراء إلى الرعية . وبحث الشعر في وصف الأحداث السياسية ، ممثلة بالصراع بين المسلمين العرب والفرنجة الصليبيين المحتلين .

ويمكن أن نعتبر الشعر وثيقة اجتماعية أو سياسية أو تاريخية ؛ إنه رؤية للأحداث ، يمكن للدارس أن يستخلص منها المعلومات والقيم . وقد تطرق الشعر إلى أغراض عديدة معروفة ، من ذم ومدح ورثاء ووصف ، وأبرز ما يهمنا في فترة

---

(١) الأصبهاني: من محاضرات الأدباء ج١ ص٣٦

الدولة البورية ، القسم المتعلق بأدب الحروب والجهاد مع الفرنجة الصليبيين ، ذات الأهمية الخاصة المتأثرة بالصراع المرير مع ذلك العنصر الغريب عن الأرض الإسلامية العربية وسكانها . ويدل أدب هذه الفترة على نضج النتاج الأدبي غزارته من خلال شعراء كبار أمثال ابن الخياط ، وأسامة بن منقذ .

رسم أدب هذه الفترة صورة واضحة عن الفرنجة الغزاة ، من خلال المادة الشعرية الملموسة صورا متعددة تتعلق بالمظاهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وكان منها ما يتعلق بالعلاقات بين الدولة البورية وما يجاورها من الفاطميين والسلاجقة ، والفرنجة الصليبيين خاصة خلال فترات عقد الهدن بين الطرفين (١) .

اعتمد الشعر في الفترة الإسلامية الأولى من وسائل تعليم الصبيان ، فانطلق المعلمون يدرسون الشعر للصبيان منذ نعومة أظفارهم ، حيث يعلمونهم الخط في الأشعار والغاية من ذلك عدم وضع كتاب الله بين أيديهم صوناً له من المحو والابتذال ، (٢) مع الانتباه إلى عدم تعليمهم الشعر الرديء أو البذيء ، ولم ير البعض مانعا أن يُقرأ الشعر إلى جانب القرآن الكريم ، فيقول هذا مرة وهذا مرة ، فيخرج الصبي جيد الخط مقلدًا لمعلمه . (٣)

لم تختلف موضوعات شعر هذا العصر عما سبقه ، وإن كان قد تأثر بظهور الاحتلال الفرنجي ، إلا أنه ترافق بحركة الجهاد ، فأوقف عدد من الشعراء مدائحهم للقادة العسكريين والأمراء . (٤) وَصف أدب هذه الفترة المعارك بين المسلمين والفرنجة ، مصوراً حالتي النصر والهزيمة ، التي كان يمر بها الفرنجة ، فيمكن الاستهانة بنصرهم حين يتقدمون والاستهزاء بهم حين تكون الغلبة للمسلمين فانصب التركيز نحو قوة الجيش وكثرته أو نحو وصف الآلات ووصف القتلى .

==

(١) أبو شريفة : (عبد القادر) صورة الصليبيين في الأدب العربي – كلية الآداب – الجامعة الأردنية ، رسالة ماجستير ١٩٧٧م – ١٩٧٨م ص٢٠٢-٢٠٣

(٢) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٩١ ابن بطوطة : المصدر نفسه ص٨٩

(٣) الأصبهاني : من محاضرات الأدباء ج١ ص٣٦-٣٨

(٤) الهرفي : (محمد علي) شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ط٣ مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ص٧١

ومن الأمثلة على الأساليب التحريضية التي نهجها الشعراء في دفع الأمراء لمحاربة الفرنجة ومجاهدتهم ، عندما خاطب الشاعر ابن الخياط عضب الدولة أبق أحد مقدمي دمشق (ت٥٠٢هـ/١١٠٨م) فقال :

فَدَتْكَ الصّواهِل قُبّاً وجُردا   وشمُّ القَبائِل شِيباً وَ مُرْدا(١)

وخاطبه يحضّه على الجهاد قائلاً :

فقد أيْنعتْ أرؤُس المشركينَ   فلا يُغفلوها قِطافاً وَحَصْدا
فلا بُدّ من حَدِّهم أن يُفَــــلَّ   ولا بُدَّ من ركنِهم أن يُهَدا (٢)

وأردف داعياً إياه إلى الجهاد ، وقد اجتاح الفرنجة مناطق من ديار الإسلام ، وأشاعوا فيها القتل والفساد والظلم ، وهتك الأعراض فقال :

بنو الشرك لا ينكرون الفسادَ   ولا يعرفون مع الجَوْر قَصْدا
ولا يردعون عن القتل نفساً   ولا يتركون مع الفتك جُهدا (٣)

ففي هذه الصورة يطلب ابن الخياط من الأمير التحريض والاندفاع إلى الجهاد ، وبث روح الحرب فيه ، والمحاماة عن الثغور الدفاع عن الأعراض .

لم يلتفت العديد من شعراء الجهاد في قصائدهم نحو التكسب المادي ، لأن فحوى مبتغاهم هو الهدف المعنوي ، وأن يتكلموا وينطقوا الشعر بدافع إيمانهم العميق ، ليكون وازعاً وحافزاً في استرجاع ما اغتصب من المقدسات . وإن الرابط المشترك بين الشعراء ، اعتمد على الحديث عن الجهاد ، والتركيز على القائمين بأركان هذا الجهاد ، فعلى الممدوحين أُجزلت صفات البطولة والشجاعة والإقدام والمقدرة على إدارة المعارك والصبر على الشدائد ، في قائد مجبول على العزة والإباء . (٤)

ابتعد الشعراء في قصائدهم المشار إليها عن التكلف والصلف والمحسنات البديعية ، إلى تصوير المعاناة والمآسي والآلام ، والتحرّق على ما فقد لإعادته . فكان من ذلك الذم اندفاع السليقة الشعرية الساخرة ضد الفرنجة قادها العديد من الشعراء منهم ابن منير الذي تابع ذمه للفرنجة والصليب وامتداحه وإشادته في المقابل بالسلطان نور الدين محمود حيث قال :

وآل الصليبُ صليبُ القنا   ة أمين العثار منين العَمدْ (٥)

==

(١) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط تحقيق خليل مردم بك مطبعة الهاشمية بدمشق ص١٨٢
(٢) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص١٨٥
(٣) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص١٨٤ ـ عبد المهدي : الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس الهجري ط١ الجامعة الأردنية عمان ١٩٧٧م ص١٤٦ـ١٤٧
(٤) التو نجي : حول الأدب في العصر السلجوقي ص١٣١
(٥) ابن منير : ديوان ابن منير الطرابلسي جمع د٠ عبد السلام التدمري دار الجيل بيروت ١٩٨٦ م ص١٨٨

وقال أيضا :

صدم الصليب على صلابة عوده فتفرقت أيدي سبا خشبا ته (١)

وقال أيضاً في ذم الفرنجة لدى وصولهم إلى دمشق ، مؤكدا أن الهزيمة ستحل بهم لا محالة فهم لو علموا نهايتهم ما دخلوا دمشق ولا فكروا بغزوها وقد علموا الحقيقة الوضّاءة كنور الشمس بأن فناءهم لا محالة سيكون على يد الدماشقة فآثروا الهرب بأنفسهم والنجاة دون تحقيق غرضهم الدنيء ، ولم تمس قدمهم أي مسجد كما أرادوا رغم عتادهم وجيوشهم الجرارة :

وافوا دمشق فظنوا أنـــها حـــدّةٌ ففارقوهم وفـــي أيديهم العـُــدمُ
وأيقنوا مع ضيـــاء الفتـــح أنـــــهُم إن لــم يزولوا سراعاً زالت الخيمُ
فغادروا أكثر القربان وانجفــــلوا وخلفوا أكبــر الصلبان وانهزمــوا
وجاؤوا (٢) المسجدَ الأدنى فما عبرتْ عن مسجدِ القدم الأقصى لهم قدمُ (٣)

وكما لاحظنا فإن الصورة السابقة تمثل تصويراً دقيقاً عن تطويق الفرنجة لمدينة دمشق وانهزامهم أمامها .

وفي قصيدة لأبي الحكم عن وصول الفرنجة إلى دمشق قوله سنة ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م منددًا بهم إصرارهم على احتلال جلّق وقتل أهاليها دون حق ، لكن جلّق لم تقف وحدها ضد الغزاة الفرنجة ، بل تدفق عليها أخواتها من كل المدن :

بشطي نهر داريا أمـــور مـــا تؤاتينا وأقوام رأوا سفك الدماء في جلّق دينـــا
أتانا مائتا ألف عـــديداً أو يـــزيـــدون فبعضهمو من أندلس وبعض من فلسطينا
ومن عكا ومن صور ومن صيدا وتبنينا إذا أبصرتهم أبصرت أقـــواما مجانينـــا
ولكن حرقوا في عاجل الحال البسا تينا وحازوا المرج والتعديل أيضاً والميادينـــا
تخالهم وقد ركبوا حظائرهم جــراذينا وبين خيامهم ضموا الخنازر والقرابينـــا
ورايات وصلباناً علـــى مسجد خاتونا وقلنا إذ رأينـــاهم لعـــل الله يكفينــــــا
وشيخنا فندلاوياً فقيهاً يعضد الـدنيـــا وفتيانا تفانوا من دمشق نحـو سبعينا (٤)

==

(١) ابن العديم : بغية الطلب ج٣ ص١١٥٩
(٢) وردت عند أبي شامة حاولوا - د٠ موسى باشا: أدب ص٥١٥
(٣) أبو شامة : تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين ج١ ص٥٤-٥٥
(٤) أبو شامة : المصدر السابق ج١ ص٥٣-٥٤

وقال ابن القيسراني مخاطباً الأمير عماد الدين زنكي ، مستهزئاً بالهزيمة النكراء . التي لحقت الفرنجة ، مهما فكروا بالحرب أو القتال ، لأن الدائرة ستدور عليهم ، وإنه ليس أمام هذا الغازي إلا القتل أو الأسر :

حذار منا وأنـى ينفع الحــــذر　　　وهي الصوارم لا تبقـــي ولا تذـــر
فلا تخف بعدها الأفرنج قاطبة　　　فالقوم إن نفروا ألوى بهـم نفـــــــر
إن قاتلوا قُتلوا أو حاربوا حربوا　　　أو طاردوا طردوا أو حاصروا حصروا(١)

وقال الشهاب فتيان الشاغوري :

ولا غرو إن عاد الفرنج هزيمة　　　ولو لم تعد لم يبق للشرك ساحل
فقد أيقنت أعداؤه أن حظهم　　　لديه رماح أشرعت أو سلاسل (٢)

ووصف الشعراء في شعرهم بعض أبطال المسلمين الذين خاضوا الحروب والمعارك ، وصوّروهم في صور الملاحم المناسبة مع الفرنجة . فقد وصف ابن القيسراني الشاعر الأمير البوري تاج الملوك ، بعد تلقينه الفرنجة الصليبيين درساً قاسياً على أبواب دمشق سنة ٥٢٣هـ/١١٢٨م قائلاً :

قدت الجياد وحصّنت البلاد وأمـ　　　ـنت العباد فأنت الحلّ والحرم
يحوطك الله صوناً عن عيونهم　　　والله يعصم من بالله يعتصم

ووصف بعضهم الطبيعة من خلال الوقوف على الأطلال ، ومما قاله عرقلة الكلبي :

عرّج على نجد لعلك منجدي　　　بنسيمها وبذكر سُعْدي ومُسعدْي (٣)

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ج١ ص٣٤
(٢) ابن الخياط : ديوان ص٢٧١ ـ أبو شامة : المصدر السابق ج١ ص١٨٢
(٣) عرقلة الكلبي : ديوان عرقلة الكلبي تحقيق أحمد الجندي مطبعة دار الحياة بدمشق ١٣٩٠ هـ/١٩٧٠م ص٢٥
ـ أبو شامة : ا لمصدر السابق ج١ ص٥٤

كان ابن الخياط الشاعر من أوائل الشعراء الذين دعوا إلى الجهاد ، فمدح قائد الجيوش غضب الدولة ، وحثه على الجهاد ، وخاطبه في قصائده حاثّاً إياه ، موضحاً له أن الفرنجة الأعداء احتلوا بلاداً عديدة من ديار الإسلام ، وأنهم يتابعون وصولهم كالسيل الجارف ، فلا يصح التراضي معهم ، لأنهم أقبلوا يريدون الحرب :

وقد جاش من أرض أفرنجة   جيوشٌ كمثل جبال تَرَدّى
زعيمَ الجيوش لقد أعْجَزَت   أياديكَ واصِفَها أن تُحــدّا
فَسَار مَسيرَ هــلال السّما   ء يزداد نُوراً إذا ازداد بُعدا (١)

وسلك فريق آخر من الشعراء في فترة الحكم البوري ، طريقاً آخر للتكسب والعيش ، فقد امتدح ابن الخياط ، الأمير عَضب الدولة أبق ، ووصفه بمضاء العزيمة ، وعلو الهمة ، وذيوع صيته في كل الآفاق فقال :

وأمعَن ذِكرُكَ في الخــا   فِقَيْنِ شَرقاً وغَرْباً وغَوْراً ونَجْدا (٢)

وقال أيضاً :

سألقى بعَضْبِ الدولة واثقاً   بأمضى شَباً من باتِرِ الخدِّ عضبِهِ (٣)

وخاطبه عندما خلع عليه وشرفّه مشيداً بكرمه وأياديه البيضاء التي لا تنسى قائلاً :

لقد أصبحت نعماك عندي مشيدة   بذكرك في سوق من الحمد قائم (٤)

وتابع يخاطبه أيضاً :

عَضبٌ لأكرَمِ دولــةٍ وبَهـــاءُ   أشْرَفِ ملةٍ وزعيمُ أي جُيُوش
من نَرجسٍ وبنفسَجٍ غَضٍ وتُفاحٍ   كَوَشْيِّ الُحلــةِ المَــرشُوش (٥)

وامتدح ابن الخياط أمير دمشق تاج الملوك بوري بأنه أمل الضعفاء والفقراء والمكارم كلها مجتمعة لديه ، فقال :

أما العُفاةُ فأنتَ خَيرُ رجائِها   والمكرماتُ فأنتَ بَدْرُ سَمائِها (٦)

وتـابـــــع :

إذا قلت في تاج المُلوكِ قصيدةً   مِنَ الشعر قالوا قد مَدَحتَ به الشِعرا(٧)

---

(١) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص١٨٣
(٢) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص١٨٣
(٣) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص١٧٠
(٤) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص١٧٧
(٥) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص٢٣١
(٦) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص١٩٤
(٧) ابن الخياط: ديوان ابن الخياط ص٢

وامتدحه أيضاً مشيداً بمقاصده ومساعيه ، يقارن بينه وبين غيره من الملوك ، فهو الضياء والسراج ، فتحلو الأيام بعصره ويسعد الناس بهجة به :

ألم تك للملوك الغــرّ تــاجــا   وللدنيـا وعــالمها سراجـا
لقد شرف الزمان بك افتخاراً   كما سعد الأنام بك ابتهاجا

وقـــــال :

لقد كَرَّمَ الله ابن دَهرٍ تَسُودُه   وشَرف يا تاج المُلُوكِ بكَ الدّهرا (١)

وامتدح الشاعر ابن الخياط الوزير الدمشقي المز دقاني ، فوصفه بالجود والسؤدد والحمد والمجد والتقوى والعفة ، فقال :

مُنيفٌ على هامِ المُسامي كأنما   أطَلَّ من النسّرِ العَليّ على وَهْدِ (٢)

وامتدحه يثني عليه بصفات الأمانة وعدم الخيانة وعلو الهمّة والحزم والوقار والكرم وحسن الدين :

أمين الملك حَسْبُك من أمينٍ   وُقِيتَ نَوائبَ الزمن الخؤُّونِ
سَمَوت بهمَتَيْ عزم وحزمٍ   وطُلتَ بِشَيَمتي كَرَمٍ ودِيــنِ (٣)

وامتدح المفرّج ابن الصوفي وجيه الدولة (أبو الذواد) واصفاً حرصه على الدفاع عن المسلمين وعن أرض وعرض العرب بقوله :

أنتَ للمُسلمينَ حِصنٌ وحِرزُ   ولِراجي نداكَ دُخرٌ وكَنْزُ
أبداً ما تزالُ عَطفــاً علَيـــهمْ   وَدفاعاً عنهم تحجُ وتغزو (٤)

ونرى أيضاً ابن الخياط يمدح صفة حب الخير وحسن السيرة والفضائل الجليلة لدى الفقيه علي بن منصور الغساني (أبو الحسن) فيقول :

أبا حسنٍ أنتَ أهلُ الجميلِ   فهل لك هل لك في مَكرُمَةْ (٥)

==

(١) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص٢٣٤-٢٣٦
- ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٣٧١
(٢) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص٢٧٧
(٣) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص٢٧١
(٤) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص٢٦٨
(٥) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص٢٥٦

وامتدح لما سافر إلى الري هبة الله بن محمد بن بديع الأصفهاني (أبو النجم) سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ، في قصيدة واصفاً إياه بالنور الذي يبدّد ظلمة الليالي :

شَقَقْتُ دَجاهُ والُنجومُ كَأَنَّها   قَلائِدُ نَظمِي أو مسَاعي أَبي النَجْمِ (١)

وامتدح عرقلة الكلبي مجير الدين أبق صاحب دمشق لدى تصديه للفرنجة الصليبيين سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م قائلاً :

عرّج على نجد لعلك منجدي   بنسيمها وبذكر سعدي مسعدي

وقال يشيد بالدفاع عن أعراض المسلمين وأرضهم ، بجيوش كثيرة لا تحصى ، تهبط على الفرنجة كالسيل ، لنصرة دين الله وإعلاء كلمته :

من قاتل الإفرنج ديناً غيرة   والخيل مثل السيل عند المشهد
حتى لوى الإسلام تحت لوائه   وغدا بحمد من شريعة أحمد (٢)

وامتدح عرقلة الكلبي الأمير معين الدين أنر ، حين نكّل بالفرنجة الصليبيين ، منوهاً بكثرة وغلبة الأمير معين الدين ، التي كانت تفتك بالفرنجة ، فإذا ما مسّ الفرنجي أرض الشام ، أقبلت رماح الأمير معين الدين وقواته ، وأهل البلاد ، تدكّ كل غاز راكب ومرتجل ، فأرض الشام قد تعودت على مثل هذه الهجمات ، وكانت تتحمل عبء التصدي ببسالة وشجاعة ، فقال مستشهداً :

كأن لميع البرقِ في جنباتها   سيوفُ معينِ الدين بين الكتائب
تضاعف ضَعفي بعدَ بُعد الحبائب   وقد حجبوا عني قِسيّ الحواجِبِ
غداً تطلع الشام الفرنج بفيلقٍ   معـــوَّدةٍ أبطالُـــه للمصائـــبِ
رجال إذا قام الصليب تصلبت   رماحهم في كل ماش وراكـب (٣)

وامتدح عرقلة الكلبي أمير دمشق مجير الدين أبق مشبهاً إياه بالبدر الساطع المنير لكل الناس قائلاً :

كأنما البـــدر وقـــد   لاح لنـا متضحـــا
وجه مجير الدين مولا   نـــا إذا مـــا مُدِحـــا (٤)

==

(١) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص١٤٧
(٢) أبو شامة : المصدر نفسه ج١ ص٥٤
(٣) عرقلة الكلبي : ديوان عرقلة الكلبي ص٦٥
(٤) عرقلة الكلبي : ديوان عرقلة ص١٨
ـ الأصفهاني : خريدة القصر شعراء الشام ج١ ص١٩٣

وقال فيه مادحاً محاولاته الدفاع عن الدين وإعلاء كلمة الله ، غيرة على الإسلام من أعداء الله :

من قاتل الإفرنج ديناً غيـــــرة   والخيل مثل السيل عند المشهد
ومن السيوف بكل عضب أبيض   ومــن العجاج بكل نقع أسود
حتى لوى الإسلام تحت لوائـــــه   وغدا بحمد من شريعة أحمد (١)

وقال واصفاً إياه بالشجاعة والكرم والعلم ، بالفترة التي كانت تعيشها دمشق في عهده :

أمجيرَ الدين وابــن جمالــِـــه   والسيّد ابــن السيّد ابــن السيّدِ
كم حاسد لك في الشجاعة والندى   والعلــم لا قَرَّت عيــونُ الحُسَّدِ
أضحت دمشق بحسن وجهك جنّةً   فيها الذي يُشْناك (٢) غير مُخَلّدِ (٣)

ومن شعر عرقلة الكلبي في الحديث عن الترك :

يا بني الأعراب إن التـــــ   ـــرك قد جارت بنُوها
عَقربوا الأصداع حينـــــاً   ولحينــــي ثعبنـــــوها(٤)

وأشاد ابن القيسراني بأمير دمشق مجير الدين أبق إثر انتصاره على الفرنجة سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م قائلاً :

لك الله إن حاربت فالنصر والفتح   وإن شئت صلحاً عدّ من حزبك الصلح
وهل أنت إلا السيف في كل حالة   فَطوراً له حدّ وطوراً لـــــه صفـــح
إ ذا ما دمشق ملّكتك عنانـــها   تَيَقَّن من في إيليا أنـــــه الذبـــــح(٥)

لم يقتصر المديح على الملوك والقادة المقتدرين ، بل تعدتهم إلى من هم أصغر شأنا ، فقد كان لمؤثرات الخطر الفرنجي أن تحوّل الشعراء المسلمين لمدح أية معركة تجري ، فوصف لذلك ابن القيسراني دمشق وأميرها تاج الملوك ، وقد أحاط الفرنجة بالمسلمين ، وكانوا كالليل البهيم من كثرتهم ، إلا أن حسن سياسة وعناية أمير دمشق ، استطاع أن يحول المعركة إلى نصر مؤزر . (٦)

==

(١) أبو شامة : تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ج١ ص٥٤
(٢) يبغضك
(٣) عرقلة الكلبي : ديوان عرقلة الكلبي ص٢٦
(٤) الأصفهاني : خريدة القصر ج١ ص٢٩٩
(٥) أبو شريفة : صورة الصليبيين ص٣١٤-٣١٥
(٦) الهرفي : شعر الجهاد ص١٦٦-١٦٧

وامتدح الشاعر ابن القيسراني أمراء دمشق أيضاً :

أجيران جَيرون ما لي مجيرُ سوى عَطفكُم فاعِدلوا أو فجورُوُا (١)

وامتدح مجير الدين أبق في قصيدة فأجازه ووصله لوصفه إياه إعداد العدة للعدو والاستعداد له وبذلك تم إبادتهم عن بكرة أبيهم ، قائلاً :

وجئت بالخيل من أقصى مرابطها معاقد الحزم في أوساطها الحزم
وافوا دمشق فظنّوا أنها جـــدّة ففارقوها وفي أيديهم العـــــدم (٢)

وتابع يمدحه بأن السيوف طيّعة بيده وبإمرته كل الرماح لدحر وقتل العدو ، فقال :

من له طاعة الصوارم في الحر ب وليّ الأعناق تحت اللواء (٣)

وقال معبراً عن هواه وحبه وولائه لــه :

كلما غضّ هواكم من جفوني سكن اللّوم اغتراراً لسكوني
جيرة ما زال قتلـــى دينهـا واعتصامي بمجير الدين ديني

وتابع مشيداً بمحبة الأتراك :

أتراك عن وتر وعن وتر ترمي القلوب بأسهم النظر (٤)

وامتدح الشاعر ابن منير نور الدين محمود الشهيد ، في حصاره لدمشق ، لاستخلاصها من يد البوريين فخاطبه قائلاً سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م :

أخليفة الله الذي ضمنت له تصديق واصفه سراة المنبر
متى أنا راءٍ طائر الفتح صادحاً يرفرف في أرجائها ويغرد (٥)

وخاطب نور الدين مادحاً إياه ، ومندفعاً نحو مجير الدين ذاماً إياه :

وقل لمبيد الدين وهو مجيره بزعم له وجه الحقيقة أزبد
ولا تكفروه إنمـا أنتم لــه ومنه ويوم عند حوران يشهد
دمشق دمشق إنما القدس سرحة ومركزها صرح عليها ممرد (٦)

==========

(١) الأصفهاني : خريدة القصر قسم ٢ ص١٩
(٢) سبط ابن الجوزي : الصدر نفسه ج٨ ص١٣٠
– أبو شامة : المصدر نفسه ج١ ص٥٤
(٣) الأصفهاني :خريدة القصر ج١ ص١٢٣
- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٤ ص١٥٠
(٤) الأصفهاني : خريدة القصر ج١ ص١٤١-١٤٢
(٥) أبو شامة : المصدر نفسه ج١ ص٧٨
(٦) أبو شامة : المصدر نفسه ج١ ص٧٨

وكان علي بن مشرق بن بركات أبو الحسن الشاعر ، يمدح جماعة من أهل دمشق ، فقد امتدح الأمير طرخان الشيباني وغيره ، وقد سكن دمشق مدة طويلة (١)

تابع الشعراء مديحهم ، فتقربوا إلى الوزراء فكتب في مدح الوزير المز دقاني نصر بن إبراهيم بن أبي الهيجا البازيار الحلبي (ت٥٤٢هـ/١١٤٧م) قائلاً في يقظته وقلقه وسهره لوجود الفرنجة :

تجافى الكرى ونبا المرقد وقلّ معينك والمسعد (٢)

وامتدح رئيس دمشق ابن الصوفي حين فتك بالباطنية في دمشق سنة ٥٢٣هـ/١١٢٨م وقال مقارناً بين موقف ابن الصوفي الشهم وموقف أعدائه المنضوي على اللؤم والغدر :

عجبت لمن يُقيم بـدار سـوءٍ يَذلُ على الخطوب ويستكين
نُسام الخسف بين ظُهورِ قومٍ نَساوى الغثُ فيهم والسَّمينُ
فقل لذوي النفاق بحيث كانوا أبـاد حِماكم الأسدُ الحَـرونُ
ملكناكم فصنّا مــن وراكم ولـو مَلَّكتمونا لـم تصونـوا
أسَلنا مــن دمائكم بُحـوراً جُسومكم لجائشها سَفيــن (٣)

ومن الشعراء أيضاً أبو المجد المسلم ابن الخضر ابن قسيم الحموي (ت٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) كان شاعراً خليعاً ، مدح أحد الأمراء واصفاً شجاعته وتصديه للنوائب بقوله :

بكت الخُطوبُ وثغرُ مجدك ضَاحكٌ ونبا الحسامُ وسيف عزمك باتِكُ (٤)

ومدح معين الدين أنر سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م واصفاً حسنه وجماله وذيوع صيته في الآفاق :

معانٍ من الحسن البديع كأنها خِلالُ معين الدين تُتلى وتُوصف (٥)

واتجه في شعره مادحاً عماد الدين زنكي فقال يحيي فيه الإصرار والحزم والعزم والوقار :

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص١٥٠
(٢) الأصفهاني : خريدة القصر ج٢ ص١٦٥
(٣) الأصفهاني : خريدة القصرج١ ص١٦٧-١٦٨
(٤) الأصفهاني : خريدة القصرج١ص٤٦٢ - د٠ موسى باشا:أدب ص٢٤٥
(٥) الأصفهاني : خريدة القصر ج١ ص٤٥٨

بعزمك أيها الملك العظيم تذل لك الصعاب وتستقيم
أيلتمس الفرنج لديك عفواً وأنت بقطع دابرها زعيم (١)

وامتدح ولده نور الدين محمود بأن ملامحه تنطق بالبسالة والشجاعة والجرأة قائلاً :

تبدو الشجاعة في طلاقة وجهه كالرمح دّل على القساوة لينه
وهو الذي في الله صح جهاده هذا الذي بالله صح يقينــــــه
ما زال يقسم أن يبدّد شملــــه والله يكره أن يمين يمينــــــه (٢)

وكان للشاعر نصر الهيتي الدمشقي الحوراني نصيب في شعر المديح مشيداً بالشجاعة ،فمن قوله في ذلك :

أسد ولكن من براثن كفــــه بيض الظُّبا والسُّمْر من آجامه
إذا جاء جيشُ الفرنج منظماً قسما إليه فَحلَّ عَقد نظامـــــــه(٣)

وامتدح الخضر بن هبة الله بن أبي الهمام أبو البركات المعروف بالطاي البغدادي الأمير مجير الدين أبق ، حين قدم إلى دمشق ، كان مولده سنة ٤٤٩هـ/ ١١٠٥م ، (٤) ولقي رئيس دمشق ابن الصوفي مديح الشعراء ، فقد امتدحه الحسن ابن يحيى بن روبيل (ت٥٣٢هـ/١١٣٧م) يشيد به حسن الصيت والسيرة والعدل قائلاً

يا مُحيي الدين بعدما دَثَرا ومُشبهاً في زمانه عُمرا
ومَنْ إذا ما ذَكَرْتَ سيرته سمعت ذِكراً يُجمِّل السِّيرا (٥)

ولم يقتصر بعض الشعراء على امتداح الأمراء والحكام ، بل امتدح أيضاً الأعراق الجنسية ومآثر الإنسان وصفاته الحسنة . فامتدح ابن الخياط العرق التركي المستلم أمور الحكم في دمشق ، فقال :

وقد قيل في الترك إنّ الذي يُبَارِكُهُمْ أسْعَدُ الناس جَدّا (٦)

وامتدح الأديب الغزي الترك أيضاً (ت٥٤٢هـ/١١٢٩م) في مقارنة بين مواقفهم الشهمة في السلم ، وشجاعتهم وإقدامهم في الحرب بقوله :

قوم إذا قُوبلوا كانوا ملائِكةً حُسناً وإن قوتلوا كانوا عفاريتا (٧)

==

(١) أبو شامة : المصدر نفسه ج١ ص٣٢
(٢) أبو شامة : المصدر نفسه ج١ ص٢٤
(٣) الأصفهاني : خريدة القصر ج١ ص٢٣٥
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص٦٥٩
(٥) الأصفهاني : خريدة القصرج١ ص٢٦٢-٢٦٣
(٦) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص١٨٧
(٧) الأصفهاني : خريدة القصر ج١ ص٩

وامتدح أسامة بن منقذ الأمير معين الدين أتابك أمير البلاد أبق ، فأشاد بانتصاره على الفرنجة وقال له : إنك يا معين الدين كاسمك ، معيناً للدين وسيفاً من سيوفه ، فعزّ بك الإسلام ، وذلّ أهل الكفر والشرك ، لذلك فإن أفعالك خالدة خلود الدهر ، وأردف قائلاً :

كل يومٍ فتحٌ مبينٌ ونصرٌ واعتلاء على الأعادي وقهرُ
أنت سيف الإسلام حقاً فلا فلّ غر اريك أيها السيفُ دَهْرُ
كل ذُخرِ الملوك يفنى وذخـ ـراكَ هما الباقيان أجرٌ وشكرُ (١)

وامتدح أسامة بن منقذ مآثر الإنسان وشمائله ، والحماسة ومعناها ، ومدح الشجاعة والبسالة عند الممدوح ، فامتدح الأمير معين الدين أنر ، وكانت أصابع الحسّاد قد حاولت أن ترمي بينه وبين الأمير أنر ، فاتجه إليه بشعره قائلاً :

مُعينَ الدين كم لك طوقُ مَنْ بجيدي مثل أطواق الحمـــامِ
فصار إلى مودتك انتسابي وإن كنت العِظامِيّ العِصامي
ألم تعلم بأني لانتمائـــــي إليك رمى سوادي كـــل رامِ
ولكن خفتُ من نار الأعادي عليك فكنتَ إطفاء الضِّـــرَامِ (٢)

وامتدحه حين لقي الفرنجة وهزمهم :

كل يوم فتحٌ مبيـــنٌ ونصـــــرٌ واعتلاءٌ على الأعادي وقهرُ
صدق النعت فيك أنت معين الــ ـدين إن النعوت فأل وزجـــر (٣)

كما امتدحه في قصيدة أخرى حين التقى بالفرنجة على أرض بصرى وصرخد فقال له :

كل ذخر الملوك يفنى وذخرا ك هما الباقيان أجر وشكر (٤)

ونال العلماء نصيبهم من مديح الشعراء ، فقد امتدح ابن منير العالم عبد الوهاب الحنبلي قائلاً :

لعمري لــولا بقية عبـــــد الــــــ ـــواحد الحنبلي أعضل داؤه
هم أعادوا المعروف غضا وقد صوّ ح مخضّره وغــاص بهـــاؤه

==

(١) الهرفي : شعر الجهاد في الحروب الصليبية ص١٦٨
(٢) أسامة ين منقذ : الاعتبار ص٥ - أبو شامة : المصدر نفسه ج١ ص٦٤
(٣) أسامة بن منقذ : ديوان أسامة بن منقذ تحقيق أحمد بدوي حامد عبد المجيد المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٥٣م ص١٧٠
(٤) أبو شامة : المصدر نفسه ج١ ص٦٤

معشر أرضعوا النباهة مـــن عـــــو		د نضار مــاء المروءة مـاؤه
فقهــاء الإســـلام إن كـــــــــنَّ		لبس أحبـــاره خطبـــاؤه (١)

وامتدح بعض الشعراء مدنهم وتغزلوا بها ، فقال أحدهم :

حيٍّ في الحيِّ من قباب المصلى		منزلاً مونقاً وماء وظلا
فقرى جلَّق فبـــاب الفـــراديس		فباب البريد عيش تولى

وتابع مشبهاً دمشق بالجنة :

أما دمشق فجناتٌ معجلةٌ		للطالبين بها الولدانُ الحور (٢)

وكان للشاعر البدوي دوره في شعر المديح ، يتوجه به إلى الملوك والأمراء ، فقد كان زائدة بن نعمة بن نعيم بن نجيح أبو نعمة القشيري المعروف بالمجحف ، شاعر من بني مالك ، يتميز شعره بنقاء الألفاظ وحسن اختيارها ، مدح سادات العرب ، قدم إلى دمشق ومدح الأتابك طغتكين في قصائد ناصعة ومعاني رائعة منها قصيدة نونية خلع عليه بموجبها خلعة تامة ، حين اعتبره الملاذ الوحيد له في الدنيا :

إني أتيتك لا أبغي سواك حيّاً		ولا أرى في بلاد الله مضطربا

اتصف شعره بتطرف المعاني وحسن الفن وقلة اللحن . (٣)

وهذا محمد بن علي أبو عبد الله التنوخي الحلبي المعلم ، المعروف بابن العظيمي (ت٥٥٨هـ/١١٦٢م) قدم إلى دمشق ، وامتدح بها بعض الأمراء ، بشعر لا بأس به، من شعره الذي مدح فيه تاج الملوك حين وصل إلى دمشق ، قالها فيه لما طرد الفرنجة عن دمشق سنة ٥٢٣هـ/١١٢٨م فقال :

نأت من سليمى بعد قرب ديارها		وأقوت مغانيها وشط مزارها (٤)

==

(١) ابن رجب الحنبلي : ذيل طبقات الحنابلة ج١ ص٢٣٩-٢٤٠
(٢) عرقلة الكلبي : ديوان عرقلة الكلبي ص٤١-٧٢-٧٣
- الأصفهاني : خريدة القصر شعراء الشام قسم ١ ص٢٠٤
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٦ ص٣٢٥-٣٢٦
- ابن العديم : بغية الطلب ج٨ ص٣٧٣٩
(٤) العظيمي : المصدر نفسه ص٣٧٤-٣٨٢
- ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٧٦٣-٧٦٤

تنقل الشعراء في رحلاتهم بين البلاد ، وكان الشاعر ابن الخياط يمثل صورة الشاعر القوي الجلد على ركوب المفازة والأسفار ، فتحرك في شبابه من دمشق إلى حماه وحلب وطرابلس وصور ، وعاد إلى دمشق كهلاً ، وما كاد يستقر حتى عاود الرحلة ، فقصد بلاد العجم ودخل الري وخراسان ثم عاد إلى دمشق ، ومن شعره حين عزم المسير إلى العراق في أبيات تدل على صقل خبرته وسعة ثقافته بالسفر :

غَيرُ نُكرٍ أن تُدرِكَ الحَظَّ فيه   كم هِلالٍ قد عادَ بالسيَّرِ بَدْرا (١)

وقال في شعره وهو متوجه إلى دمشق عائداً من خراسان ، بحنينه إلى نسيم هواء الغوطة العليل :

ألا لَيتَ شعري هل أبيَتَنَّ لَيلَـــةً   يُرَوحنّــي بالغوطتيـــن نَسيمُ
وهل يَجْمعَنَّ الكأسُ شَملي بفتيةٍ   على العَيشِ منهم نَضْرَةٌ ونعيمُ (٢)

وتحرك الشاعر ابن القيسراني في رحلاته وأسفاره إلى دمشق وحلب ، ووصل إلى الموصل " منبع الجود ومقصد الوفود ، والبحر المورود ، ومعدن الأفضال وقبلة الإقبال " . ثم اجتاز إلى بغداد ، وكذلك إلى إعزاز قرب حلب ، فالأثارب (٣) فدير سِمعان (٤)، وهذا غير تردده إلى أنطا كيّة (٥) وإنشاده بها ، (٦) وكذلك وصل

---

(١) ابن الخياط : ديوان ص٤٤-١٤٥-٢٧٣ - ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق: مخطوط ج٢ ص٢٠١ مطبوع ج٧ ص٣٦١-٣٦٢
- الأصفهاني : خريدة القصر شعراء دمشق ص١٤٢
- الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٤٧٩
- ابن خانكان : وفيات الأعيان ج١ ص١٤٥
- الصفدي : الوافي بالوفيات ج٨ ص٦٧-٦٩-٧٠
(٢) الأصفهاني : خريدة القصر شعراء دمشق ص٣٢٠
(٣) قلعة معروفة بين حلب وأنطاكيّة بينها وبين حلب ثلاثة فراسخ . ياقوت الحموي : معجم البلدان ج١ ص٨٩
(٤) دير بنواحي دمشق في موضع تنزه وبساتين ، وبظاهر أنطاكية دير سمعان . ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٢ ص٥١٧
(٥) قصبة العواصم من الثغور الشامية بينها وبين حلب يوم وليلة . ياقوت الحموي : معجم البلدان ج١ ص٢٦٦-٢٦٧
(٦) الأصفهاني : خريدة القصر ج١ ص١٠٢-١٥٥
- حبيب الزيات : مقال دفائن الخزائن ديوان ابن القيسراني مجلة المشرق سنة ٤٩ / ١٩٥١م ص٣٤٢-٣٤٧-٣٤٩ ص٢٩٤

إلى الرقة (١) وأنشد بها بعد فتح الرها (٢) ٥٣٩هـ/١١٤٤م ، مفتخراً بهذا العز الذي يشبهه بيوم فتح مكة :

أما آن أن يزهَق الباطِلُ وأن ينجز العِدَةَ الماطلُ (٣)

وتوضّح الحنين في شعر الشعراء ، وقد رافقه لوعة الاشتياق والتحسر على فراق الديار والأحباب والوله بأراضي الشام ، فقال ابن القيسراني :

أحــب الشآم وأهوى العــرا قَ فخلفي هوى وأمامي هوى
فيا معشر الشام أشكو الغرا م إليكم فهل عندكم مــــن دوا (٤)

وللشاعر أسامة بن منقذ في الحنين والاشتياق والفراق والشكوى جولة :

يا آمري بالصبّر إنّ البين موعدُه الغرُوب
والصبرُ محمودُ العوا قِب لو أطاقتهُ القُلوب

وتابع يطلب الدواء لما به من علة :

أأحبابنا مالي إلى الصبّر عنكم دليل وقد ضلّت عليّ طريقه
فهل نظرةٌ منكم على بُعد داركُمْ يُداوَى بها صبٌّ الفؤاد مَشُوقُهُ (٥)

استخدم الشعراء الهجاء في أشعارهم وصبوه على الفرنجة الصليبيين صباً ، بعبارات قوية ، تُختم بتحريض الحاكم أو الأمير ، لتعقب فلولهم ، وتطهير الأرض من فجورهم . وتحدث كثير من الشعراء عن صفات الفرنجة الصليبيين السيئة ،

---

(١) مدينة مشهورة على الفرات ، بينها وبين حرّان ثلاثة أيام معدودة في بلاد الجزيرة . ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٣ ص٥٩
(٢) يقال لها الرهاء ، مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام . ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٣ ص١٠٦
(٣) الأصفهاني : خريدة القصر شعراء الشام ج١ ص١٠٨
(٤) مجلة المشرق : المقال نفسه سنة ٤٩ ص٣٤٢
(٥) أسامة بن منقذ : ديوان أسامة بن منقذ ص٥٥-٥٦-٩١

وتحذير المسلمين العرب من أخطار التعامل معهم ، وكشف أساليب الخداع والنفاق ، والجبن والهلع والفرار من المعركة ، والعمل على التقليل من شأنهم وتصغيرهم في أعين المقاتلة المسلمين ، بإذكاء روح الجهاد الإسلامية فيهم .

ويمكن أن يتعرض الأمراء لصلاتة لسان الشعراء ، وقد هجا أسامة بن منقذ معين الدين أنر لتقاعسه عن الجهاد ، فأشار يحمّله مسؤولية الجور الذي وقع على الأطفال والنساء ، قائلاً :

هَبْنَا جَنَيْنَا ذُنوباً لا يُكَفّرِها   عُذرٌ فماذا جَنى الأطفالُ والحُرَمُ
ألقيتَهُم في يَد الإفرنج مُتَّبعاً   رضَا عِداً يُسخطُ الرحمن فِعْلُهمُ (١)

وكان ابن الخياط يهجو أحد الوزراء بقوله :

سَفَهٌ في سفالةٍ في سُعوطٍ   دائمٍ في سَوادِ وَجْهٍ وَسُخْفِ (٢)

وهجا ابن منير مجير الدين أبق في قصيدة يمدح بها السلطان نور الدين الشهيد ويصف مجير الدين بالخسة والسفاهة وضعف الدين وأفعاله الشنيعة التي لم تقم بها اليهود :

وقل لمبيد الدين وهو مجيره   بزعم له وجه الحقيقة أزبد
حملت الصليب باغياً ونبذته   وثغرك مطووس النبات وأدرد
وحاربت حزب الله والله ناصر   لناصره ودين أحمد أحمد
تنصرت حيناً والبلاء موكل   ولا بد من يوم به تتهود
وأقسم ما ذاق اليهود بإيليا   وموضعها من بختنصر أسود
كبعض الذي جّرعته فسرطته   وأيد فيه من عماك المؤيد (٣)

وقال :

دمشق دمشق إنما القدس سرحة   ومركزها صَرحٌ عليها مُمَرّد
متى أنا راءٍ طائر الفتح صادحاً   يرفرفُ في أرجائها ويغرّد (٤)

---

(١) أسامة بن منقذ : ديوان أسامة بن منقذ ص١٤٧
- الهرفي : شعر الجهاد في الحروب الصليبية ص١٧٥
(٢) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص١٤٣- عبد المهدي : الحياة الأدبية ص١٠٣
(٣) أبو شامة : المصدر نفسه ج١ ص٧٨-٧٩
(٤) ابن منير : ديوان ابن منير ص٢٣٣

وتصدى علي بن أفلح بن محمد أبو القاسم العبسي في شعره إلى الناس ، فهجاهم وتسلط على أعراضهم ، فاعترض طريقه بعضهم ، فهرب من بغداد إلى دمشق ، ثم شفع له حكام دمشق لدى الخليفة العباسي في بغداد فعاد إليها .(١) وكان لابن القيسراني جولات في الهجاء مع ابن منير ، وظهرت بينهما وقائع ونوادر ، فأشعر ابن القيسراني في هجاء ابن منير ، ورد ابن منير عليه بالمقابل ، ويمكن اجتماع الشاعرين مع بعضهما أن يقود ذلك إلى هجاء شديد في حملة مستمرة . (٢) ومما قاله ابن القيسراني في هجاء ابن منير :

ابن منير قد هجوت مني   خيراً أفاد الورى صوابه
ولم تضيق بذاك صدري   لأن لي أسوة بالصحابة (٣)

لجأ ابن منير إلى أسلوب التخويف في هجاء الآخرين ، ليأمنوا شره ويأمن شرهم ، فكان شعره ثورة على مجتمعه وأصدقائه . وحاول ابن القيسراني مجاراته ومباراته ، فلم يقو على الوقوف في وجهه ، ولم ينته الصراع بينهما إلا بموتهما فتابعا معركة أدبية طويلة الأمد ، جذبت شعراء العصر في تلك الفترة ، ويعتقد أن ابن القيسراني هو الذي بدأ الحرب العدائية الشعرية مع ابن منير ، وكان ابن منير معارضاً للقيسراني في زمانه كجرير والفرزدق في زمانهما . (٤) دخل الفريقان في المعركة الشعرية ، وأخذ القريض أوسع مضمار له ، حتى عدّت أشعارهم مطلع النظم ومشرقه .

ومن هجاء ابن منير لشعراء عصره ، تعرضه لملك النحاة الأرموي ، عندما قدم إلى الشام فقال له :

==

(١) مجلة المخطوطات العربية الكويت ، ذيل تاريخ مدينة السلام ابن النجار ، مجلد ١٠ / مجلة رقم ٢٦ / ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م ص٧٧٢

(٢) ابن منير :ديوان ابن منير ص٣١ - ابن العديم : بغية الطلب ج٢ ص١١٥٦
- ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ج٢ ص٨٥
- الكتبي : فوات الوفيات ج٥ ص١١٢-١١٣

(٣) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ج٢ ص٨٥

(٤) الأصفهاني : خريدة القصر ج١ ص٧٩
- الذهبي : العبر في خبر من غبر ج٤ ص١٣٠
- د٠ موسى باشا: أدب الدول المتتابعة ص١٨٨-٢٣١

يا نحاةُ الزموا الشّكّكْ ثم حلُّوا عن التكك

وقال أيضاً :

أيا مَلِكَ النحو والحاءُ مِنْ تَهَجِيّهِ من تَحت قد أعجَمُوها (١)

فرد عليه ملك النحاة بقوله :

أيَا بْنَ مُنيرٍ حسِبْتَ الهجَا ءَ رتبَةَ فخرٍ فبالغـت فيهـا
جَمعْتَ القوافي مِن ذا وذا وأفسَدت أشياءَ قد أصلحُوها (٢)

وأكثر ابن منير من هجوه للقاضي الأغر محمد بن هبة الله بن خلف التميمي الدمشقي المتوفى٥٣٢هـ/١١٣٧م ، (٣) فقال بأنه ليس جديراً بلقب القاضي :

هو قاضٍ كما تقول ولكن ما عليه من القضاء علامهْ (٤)

ولم يخل هجاء ابن منير من الدعابة والهزل ، فهجا بخيلاً بقوله :

رغيفـه مـن دُرةٍ يضيق أو من أصغرا
لو جاز في عين الذي يأكلـه لمَـا دَرَى (٥)

لم يقتصر الهجاء على ابن منير ، فقد برز في دمشق الشاعر نجم بن أبي درهم الحلبي الهجّاء (ت٥٤٢هـ/١١٤٧م) ، وقد هجا قوماً في دمشق من بني نفاية بأن الحظ والسعد اللذان ينمان به هو خطأ وقع فيه الزمان ، فوقف دولاب السعد عليهم :

أبني نُفاية إن سَعْـدَ كُـم جاءتْ به الأيامُ عن غَلطِ
قد صار هذا الناسُ أكثرُهم سَقَطاً فكيف نُفاية السّقَطِ (٦)

==

(١) ابن منير : ديوان ابن منير ص١٣٩
(٢) ابن منير : ديوان ابن منير ص١٣٧-١٣٨-١٣٩
(٣) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٤ ص١٠٥
(٤) ابن منير : ديوان ابن منير ص١٤٥
(٥) ابن منير : ديوان ابن منير ص٥٢
(٦) الأصفهاني : خريدة القصر ج٢ ص١٨٢

وتبادل بعض الشعراء قصائد الهزل ، فكان لأبي الحكم المغربي الباع في هذا المجال من قصيدة له على أبي الوحش :

إذا جاءَني يوماً نَعيُ أبي الوحش أبصرته فوق الرؤوس على نَعْش
وقد جعلوا من نهر قلوا (١) غِسلَه وكُفّن في كِرشٍ وأُلحِدَ فـــي خَشِّ
فإن قيل لي ماذا التكرم والسّخا أقول لهم مات الوضيع أبو الوحش (٢)

وقال في هجوه الطبيب المفشكل اليهودي :

ألا عد عن ذكرى حبيب ومنزل وعرّج على قبر الطبيب المفشكل
فيا رحمة الله استهيني بقبـــــره وكوني عن الشيخ الوضيع بمعزل (٣)

وقال يهجو الأديب نصير الحلبي :

يا هذه قومي اندبي مات نصير الحلبي
يرحمــه الله لقـــد كان طويـــل الذنب (٤)

هنا نلاحظ قساوة الهجاء والابتذال في ذلك .
وقال عرقلة الكلبي في هجاء الحكم :

لنا طبيب شاعر أشتر أراحنا من شخصه الله (٥)

وهكذا تطرق البيت إلى هجاء الصفات الجسدية والمادية .

ولم يدخل الشعراء في المقومات التقليدية في شعرهم من قول الغزل وغيره ، لأنهم وصفوا أوضاعاً مهمة ، في جو حرارة تلك الأحداث ، فلم تستدع الحاجة التقديم

---

(١) من أوسخ فروع بردى وأكثرها قذارة
(٢) الأصفهاني : خريدة القصر قسم شعراء المغرب تحقيق محمد المرزوقي – محمد العروسي المطوي ، الدار التونسية للنشر ١٩٨٦م قسم٤ ج١ ص٢٩٦
(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٦٢٥
(٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٦٢٥
(٥) الأصفهاني : خريدة القصرج١ ص٢٢٨

لها ، بل الدخول في تفاصيل حرارة الانفعال وجو المعركة . (١)

ويثور الشاعر ابن الخياط مستنكراً التردي الذي وصل إليه المسلمون ، فهل بعد هذا يجوز لأحد أن يعرف النوم أو الكسل ؟ أيصح الهزل وقد تجاوز السيل الذبى ، فلا بد للحاكم والأمير في البلاد أن يحشد لهم ويستعد لمقاومتهم :

أنوماً على مثلِ هدِّ الصفاةِ   وهزلاً وقد أصبحَ الأمرُ جِدّا
وشَرُّ الضغائِنِ ما أقْبَلتْ   لَدَيْهِ الضغائِنِ بالكفرِ تُحدى (٢)

ولطالما أن العصر عصر جهاد ، فما أكثر القصائد التي وضعت لخدمة شعر الجهاد . فقد واكب هذا الشعر هذه الحروب وعاش معها مراحل تطوراتها وأزماتها وحمل الشعراء عبء الدعوة إلى الجهاد ، وتوحيد الجهود الإسلامية ، والحث على التضحية لمقارعة العدو الفرنجي الذي احتل أراضي المسلمين العرب ، وأراد أن يقبع بها ويقضي على ما فيها من المسلمين .

اتخذت قصائد الشعراء الحماسية دفعاً لقادة المسلمين لتطهير البلاد وتهيئة الأجواء وتكثيف الجهود حتى يتم استرداد المغتصب من الأراضي ، وتابع هذا العمل هجوميته على المتخاذلين والمتقاعسين . (٣)

واختار الشعراء لقصائدهم ألفاظاً تؤدي المعنى الذي يريدون التعبير عنه ، مثل استخدام كلمة البرنس ، القمص ، فصار هذا الانسجام الكامل بين اللفظ والمعنى ، مما أعطى ألفاظ العبارة تناغماً وترابطاً وحثّاً دافعاً على مواصلة الجهاد المقدس ، فمن أشعار ابن منير في هذا المعنى :

حطّ القوا مص فيه بعد قماصها   ضرب لصلصيل في الكلى صعقاته

==

(١) أبو شريفة : صورة الصليبيين في الأدب العربي ص٢٠٩
(٢) ابن الخياط :ديوان ابن الخياط ص١٨٤ ـ الهرفي : المرجع السابق ص١٢٣
(٣) الهرفي : المرجع السابق ص١٢١

وقـولــه :

أذكوا بـ" جلّق" حرّها واستشعرت لفحاتها بين الصفا والمشعر
وللأ بـرنس فـوق الــــرمـــح رأس توسد والسنان له وساد (١)

وانتشر الغزل في هذه الفترة وتأثر بالخلاعة والمجون ، يتحول فريق من الشعراء إلى كنائس الفرنجة الصليبيين يشاهدون نساءهم السافرات ، فينطقون الشعر بهن . فقد حضر ابن القيسراني إحدى الصلوات في كنيسة بر باره فأشعر قائلاً :

ترى كل فاتنة وجهها معـــرّى بشمس مكتسى
فرنجية عندها دمية تراني ولا ريب من ملمس (٢)

وتابع أيضاً في شعره عن مغنية :

من معيني على بنات الأصفر غزواً فإنني اليوم غاز (٣)

وركز الشاعر أيضاً على الحزن والأسى والألم واللوعة ، لاستثارة همة المسلمين للدفاع عن دينهم وأعراضهم ، وكان تركيزه على المصائب يتفق مع ما تتعرض له النساء من اعتداءات دافعاً بعمله هذا إلى تأجيج نار الثأر والانتقام ، خاصة وأن استغاثات المسلمات تصاعدت لإنقاذهن من السبي وهتك الأعراض ، فتحدث ابن الخياط في شعره يقول :

فكم من فتاة بهم أصبحت تَدُّقُ من الخوف نَحراً وخَدَا
فقد أينعتْ أرْؤُسُ المشركين فلا تُغفِلوُها قِطافاً وَحَصْدا

==

(١) ابن منير :ديوان ابن منير ص٢٢٩
- أبو شامة : المصدر نفسه ج١ ص٥٦-٦١-٧٨
- الهرفي : المرجع السابق ص١٩٦
(٢) مقال الثغريات : مجلة المشرق سنة ٤٥ / ١٩٥١م ص٣٥٦
- الكيلاني :الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي ص٢٥٦
(٣) الأصفهاني : خريدة شعراء الشام ج١ ص١٥٦ - مجلة المشرق : الثغريات سنة ٤٩ / ص٣٤٩

فحاموا على دينكم والحريم محاماة من لا يرى الموت فقدا (١)

وأخذ الرثاء في الشعر طريقه إلى الخطوب والمصائب التي حلت بالمسلمين من قبل الفرنجة ، فأبكت العيون ، وأنكت الجفون ، وتوجه بعض الشعراء إلى رثاء الحال بالقول :

أحلّ الكفر بالإسلام ضيماً يطول عليه للدين النحـيب
وكم من مسلم أمسى سليباً ومسلمة لها جـرم سليـــب
وكم من مسجد جعلوه ديراً على محرابه نُصب الصليب
أتسبى المسلمات بكل ثغر وعيش المسلمين إذن يطيب (٢)

وتم رثاء الأمراء إذا ما حلت بهم النوائب ، فمن شعر ابن الخياط في رثاء الأمير محمد بن الأمير عضب الدولة :

سِوى باكيكَ من ينْهى العَذُل وَغَيْرُ نَواكَ يَحْملُها الحَمُول
لقد أخذ الأسى مِنْ كُلِ قلبٍ كما أَخَذَتْ مِنَ السيفِ الفُلوُلُ
فيا قبراً حوى الشَّرفُ المُعَلّى وَضُمِّنَ لَحْدَهُ المَجْدُ الأثيِلُ (٣)

وتابع رثاءه لعضب الدولة :

أعضْبَ الدولةِ اخْتَرَمَتْكَ َمِنّا يدٌ مــا للأنــامِ بـها يـــدانِ

وقال يرثيه ويصفه بأنه سيف تحبه القلوب وتكلأه العيون ، ولما فقد ترك لوعة وأسى في القلوب :

يا قبرُ ما للمجدِ عندَكَ فاحتفظ بمهند ما كنتَ من أغمادهِ

==

(١) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص١٨٥ ـ الهرفي : المرجع السابق ص١٢٣

(٢) عبد المهدي : المرجع نفسه ص٩١-٩٢ ـ الكيلاني : الحروب الصليبية ص٢٢٢

(٣) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص٢٠٣ـ٢٠٤ـ٢٠٥

تشتاقُ منه العينُ مثلَ سَوادِها ويَضُمُّ منه الصدرُ مِثل فُؤادِهِ (١)

وتابع ابن الخياط رثاءه معزياً الرئيس المفرّج ابن الصوفي (أبو الذواد) بوفاة ولده أبي الغنائم ، واصفاً حال الدنيا وسيرها السريع نحو الفناء :

وما يَنْفَكُّ هذا الدَّهرُ حَتى يَصيرَ إلى الفناء بنا المَصيرا
ويا حاثي التُّرابِ عليه مَهْلاً كَسَفتَ بهــاءَه ذاكَ البَهيــرَا (٢)

ومن شعر أسامة بن منقذ في الرثاء ، معزياً أخاً له لموت ابنة له :

ويح الغريبةِ والديارُ ديارُها لم تَرتحِلْ عنها ولم تَتَغّرَبِ

وقال يرثي ولداً له قد مات وكيف أن روحه كادت تزهق لشدة حزنه عليه ، فولده خَلَدَ إلى الراحة ، وترك له عذاب الفراق :

لو رأى ما حلَّ بي من بعدِهِ من هُمومٍ غشِيتني وكُرَبْ
أنا مــيتٌ مثلــهُ ، لكنّــه مستريحٌ ومماتي من لَقَبْ (٣)

ويرثي الطبيب الحكم الباهلي ، عبيد الله نفسه (ت ٥٤٩هـ/١١٥٤م) فيقول :

مضى الأهل والأحباب عني وودعوا وغودرت في دهماء موحشة وحدي
يا لهف نفسي إذا أدرجت فــي الكفن وغيبوني عــن الأهلــين والوطــن (٤)

كان شاعرنا أبو الحكم ، قد قدم من الأندلس إلى دمشق سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م ، وضم شعره رثاء بعض المعاصرين له ، وسعى في بعض رثائه التحول إلى المجون واللعب . كان قد حمل معه من الأندلس كل ما جمع من شعر ، وأدب ، وخلاعة ، عرف عنه حب المداعبة واللهو والمطايبة .

ترك لنا ديواناً ذا شعر جيد ، سماه " نهج الوضاعة لأولي الخلاعة " ذكر فيه فريقاً من الشعراء منهم في دمشق ، عرقلة الكلبي ، نصر الهيتي ، طالب الصوري ،

==

(١) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص٢٢٣
- الأصفهاني : خريدة القصر شعراء دمشق ص٢١٧
(٢) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص٢٤٦-٢٤٧-٢٤٨-٢٤٩
(٣) أسامة بن منقذ : ديوان أسامة بن منقذ ص٢٩٤-٢٩٥
(٤) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٢٧

وتضمن الديوان نزهات أدبية ، ومفاكهات غريبة ، ممزوج جدّها بطَرْفِها ، ورثى في ديوانه هذا العديد من الدواب ، والأثاث ، وخلقاً من المعاصرين له، وضمت إحدى مرثياته في الديوان ، مرثية في عماد الدين زنكي ، شاب فيها الجدّ والهزل ، وغلب على شعره الانطباع والفطرة ، وقد وصفه البعض بأنه جاء في ديوانه بكل غريب ليثبت بذلك الجدارة باستحقاق لقب الأديب (١)

كتب بعض الشعراء أشعار الرثاء فيمن يحبون من العلماء ، فقد رثى توفيق بن محمد الشاعر الأديب الفاضل ابن خال ابن عساكر الحافظ ، بأبيات قليلة . وكان ابن عساكر قد سمع منه :

أما عجبت لعمرك أن تراني أبا البيان عثمان القرشي
أعيش وقد نعاه الناعيان (٢)

ورثى المسلم بن الحسين أبو الغنائم المؤدب ، الشيخ السلمي (أبو الحسن) ، وقد توفي سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م بدمشق . (٣) ورثى الحسين بن عبد الله بن رواحة الأنصاري الحموي الشاعر الأديب المجيد المحسن في شعره (ت ٥٨٥هـ/١١٨٩م) الحافظ ابن عساكر ، وكذلك والده في قصيدة خاصة من شعره قائلاً :

ذرا السّعْي في نَيْلِ العُلى والفضائل مضى مَن إليه كان شَدُّ الرَّواحِلِ
وما كان إلا البَحْرَ غارَ ومن يُردْ سواحِلَهُ لم يَلْقَ غَيْرَ جَداوِلِ
وقد فاتكم نور الهدى بوفاته وعزّ التقى منه ونُجْحُ الوسائِلِ (٤)

ومن مرثيات أبي نزار الحسن بن صافي ملك النحاة في الخليفة العباسي المسترشد :

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٧٤٢
ـ ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦١٤
ـ المقري : نفح الطيب طبعة قديمة ج٢ ص٣٣٣-٣٣٥ ، ج٣ ص٣٩٤
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٣ ص٥٥٥-٥٥٦
ـ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٣ ص ٤٩٨
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٦ ص٤٦٣
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٨ص٦٧٥-٦٧٦
ـ الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٥٦٨

نعى من بني العباس أروع ماجدٍ   كفاه تُراثاً بـُردةٌ وقضيبُ (١)

والمدقق في هذه الأبيات ، يرى أن بعضها قد علا درجات كبيرة ، بينما هبط بعضها الآخر دون ذلك ، فكان هنالك الشعر الجيد ، وكذلك الشعر الحسن ، وكذلك الشعر المتوسط ، وكذلك الشعر الضعيف . وقد مثّل صورة الشعر الجيد ، ابن الخياط ، ابن القيسراني ، ابن منير ، أسامة بن منقذ ، عرقلة الكلبي، وغيرهم من الشعراء .

وسوف نبدأ بتعريف شامل لكل شاعر من هؤلاء الشعراء ، ونبدأ بالشاعر ابن الخياط .

ابن الخياط : (أحمد بن محمد بن علي أبو عبد الله التغلبي)

شاعر دمشقي ، من كبار الشعراء والأدباء ، يعتبر شعره في الذروة ، عاش في الشام وختم ديوان شعره بدمشق كان مكثراً في شعره مجيداً ، مشهوراً بمحاسن الفنون من المديح وغيره ، جيد الشعر رقيقه ، وله فضل كبير على شعر غيره . (٢)

حفظ أشعار المتقدمين وأخبارهم ، وطاف في البلاد . كان أبوه خياطاً فاشتهر بالنسبة إليه ، (٣) خرج من دمشق شاباً ، وهو ابن عشرين عاماً، لسوء الأحوال الاقتصادية والسياسية في المدينة . ولم يكن يحفظ من شعره شيئاً ، فتوجه إلى حماه ، حيث عمل كاتباً ، فعرف بابن الخياط الكاتب . ثم اشتهر بالشعر ومدح الملوك والأمراء ، واجتمع بالشاعر ابن حيوس ، (٤) فأقر له ما نطق به من شعر جيد النظم جزل الألفاظ جميل المعنى ، حين قال :

لم يَبْق عندي ما يُباع بدرهمٍ   وكفاكَ عَينُ منظري عن مُخبري
من أن تُباع وأين أين المشتري

==

(١) الأصفهاني : خريدة القصر قسم العراق مجلد ١ ص١٠٧
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٢ ص١٠٢ ، تاريخ مطبوع ج٧ ص٣٦١-٣٦٢ ـ ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٣٧١
ـ الأصفهاني : خريدة القصر شعراء دمشق ص١٤٢
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٢ ص٢٠١
ـ ابن الخياط : ديوان ابن الخياط : ص٥
(٤) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص ١٦
ـ الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٤٧٧

فرّد عليه ابن حيوس لو قلت : أنت نعم المشتري لكان أحسن ، ثم قال له " نعيت إلى نفسي " يعني ابن الخياط أطفأ شمعة ابن حيوس حين ظهر . وقال له : " فإن الشام لا تخلو من شاعر يجيد فأنت وارثي " ثم وجهه إلى بني عمار في طرابلس ، لأنهم كانوا يحبون الشعر فقصدهم سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م ومدحهم . (١)

ضم شعر ابن الخياط في طرابلس أغراضاً في الشكوى نتيجة معاكسة الدهر له . وقد صحب في طرابلس جماعة من الرؤساء والأدباء من أمراء بني عمار . اتصف بحلاوة المجالسة والمنادمة ، كان يميل إلى مخالطة الناس والترويح عن النفس ، وتمضية الأوقات الفارغة عند بعض الأدباء في أماكن النزهة والبساتين أو في الأسواق . (٢)

قال أحدهم ، اجتمعت بأبي عبد الله بن الخياط في طرابلس ، فخرجنا يوماً إلى ظاهر البلد فاخترنا موضعاً جلسنا فيه ، على غدير هناك ، فقال ابن الخياط لأحد أصحابه ، أكمل لي في هذا المعنى أبياتاً وقصيدة تمثل مكان جلوسنا . (٣)

لم يقع شعراء عصر في حيرة من أمرهم ، مثل الحيرة التي وقع فيها شعراء عصر ابن الخياط ، فقد نضج الشعر فيه واختمر ، فجاء ابن الخياط في منتصف القرن الخامس الهجري ، وتوفي في أوائل القرن السادس الهجري ، وخاض في فنون المدح والرثاء وتغنى بالطبيعة ووصف جمالها . (٤) ويجد الناظر في شعره ، آثار أبي تمام خاصة في مراثيه ، فحالة شعر شاعرنا في رثائه ، كحالته في مدحه وما يقال عنده في الرثاء والمدح يقال في الغزل ، وقد تميز بالاقتباس عن البحتري ، حتى ليخيل للقارىء، أنه من أبناء القرن الرابع الهجري أو ما سبقه . (٥)

==

(١) الأصفهاني :خريدة القصر ص١٤٣
- الذهبي : سير أعلام النبلاءج١٩ ص٤٧٧-٤٧٨
- خليل مردم بك : مقال ديوان ابن الخياط ، مجلة المجمع العلمي بدمشق ، مجلد ٣٣/ ١٩٥٨م ص٣٥٧
(٢) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص٢٠
مردم بك : مقال ديوان ابن الخياط ص٣٥٨-٣٥٩
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٢ ص٢٠١ مطبوع ج٧ص٣٦١
(٤) مقال شفيق جبري : شعر ابن الخياط ، مجلد ١٨ مطبعة الترقي ١٩٤٣ م ج٢ ص٤٠٣
(٥) شفيق جبري : مقال شعر ابن الخياط ص٤٠٤-٤٠٥

كان شعر ابن الخياط مطبوعاً بالاعتماد على الفطرة والسليقة فصيحاً جزل الألفاظ من غير إغراب ، واضح المعاني في شعره حلاوة وطلاوة . ظهر أثر الطبع في جميع العناصر التي يتكون منها شعره ، ورغم قوة شعره إلا أن ذلك لا يستوي على جميعه . فقد عرف التفاوت ولكن من غير إفراط ، فقد يعلو إلى الذروة أو يهبط قليلاً عن تلك المكانة ، ولكن دون أن يسف إلى الحضيض . وعلى هذا فقد سلك في شعره منهج المطبوعين بالاعتماد على سليقته وطبعه ، ومكّنته درايته وروايته للشعر القديم أن يملك ملكة الشعر وإشراقه ، وقوة مجاراة الكبار من الشعراء في أصالة الأسلوب ومتانته . فقد خصّ ألفاظه بالجزالة والعذوبة ، وكثيراً ما قدم المعاني المعروفة بأثواب جديدة حتى لكأنه مبتكر وجديد . وكانت أكثر قصائده جزلة عذبة طلية . وتأثر هذا بكثرة محفوظه ودقة ذوقه من الشعر المختار . (١)

انغمس شاعرنا ابن الخياط في مظاهر الترف التي عاشتها فئة الخاصة بالتمتع بجمال الطبيعة من خضرة وبرك وأزاهير وأنابيب فوارة . وكان يتوجه إلى سوق الأبارين في دمشق حيث يلتقي الشاعر الحسن بن رويبل الأبّار (ت٥٣٢هـ/١١٣٧م) فيتناشدان الأشعار التي يتخللها في بعض الأحيان اللعب بالنرد ، وقال فيه :

والنردُ كالناوَرْد في مجالها   أو كالمَجُوسِ ضمّها ما شُوشها (٢)

ولشدة ما قاساه شاعرنا في شبابه من الفقر والحرمان ، كانت شكواه كثيرة من الزمان وأهله وعدم الاستقرار النفسي لديه وسيطرة التشاؤم عليه ، وقلّ من الشعراء من لم يشك بزمانه الذي حلّ فيه الفساد والكذب والظلم ، ومن شعره في الزمن :

لك الخيرُ قد أنْحَى عليّ زَمَاني   ومالي بما يأتي الزمانُ يَدانِ
فعذراً لدهر لا ترى فيه قائلاً   لعا لفتىً زَلّت بـه الـقَدَمـانِ(٣)

وتـــابـــع :

ترى الدّهر ما أفضَى إلى مُنتواهُمُ (٤)   يُنكّب عنهم بالخطوبِ النّواكِبِ (٥)

==

(١) مردم بك : مقال ديوان ص٥٢٩-٥٣٠-٥٣٥
(٢) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص٢٨٥
- الأصفهاني : خريدة القصر شعراء الشام ج١
ص٢٢٣- ٢٦١ - سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٠٠
(٣) لعا : سلم ونجا
(٤) منتواهم : منزلهم
(٥) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص١٩-٢١
- الأصفهاني : خريدة القصر شعراء دمشق ص١٧٤
- حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة ط١ الكويت ١٩٧٥م ص١٩٦

وما من شك أن ابن الخياط كان ليّن الجانب دمث الأخلاق ، يكاد شعره يخلو من الغمز والهجاء إلا قليلاً من الأبيات ، تحولت إلى مسار المعاتبة ، (١) لمستوفي الري مندداً بصفة اللؤم ، يشرحها ضمن صورة بلاغيّة تمثل اشمئزازه من هذه الصفة بقوله :

يا جبل الُلؤمِ الثقيلِ الذي لَيْسَ لَهُ في الصالحاتِ انبعاث (٢)

تعرّض ابن الخياط لاتهامات منها أنه كان لا يجيد فن النحو والأدب وعلمهما ، فمن أين جاء بالشعر ؟؟ . وقد وجه إليه جملة من الأسئلة أبو عبد الله أحمد الطليطلي لما دخل ابن الخياط طرابلس شاباً ، فلم يدرك الإجابة عنها ، فقام إلى مكانه متفكراً ثم قال يرد على متهميه بفطرته وموهبته الشعرية :

وفاضلٍ قال إذْ أنشَدْتهُ نُخُبــَـــاً مِنْ بَعضِ شعري وَشِعِري كله نُخَبُ

لاشيء عندك مما يستعينُ بـــــه مَــنْ شَأنُهُ معجِزاتُ النظمِ والخُطَبُ

فَلا عَرْوضٌ ولا نَحوٌ ولا لغـــة قل لي فَمِنْ أينَ هذا الفضلُ والأدَبُ

ذوقي عَرُوضي ولفظي جُلّهُ لغتي والنحو طَبعي فهــل يَعتاقُنـــي سَبَبُ

فقال له الطليطلي : حسبك الله والله لا استعظمت لك بعدها عظيما . (٣)

كان ابن الخياط يحضر مختلف دور العلم التي جهزها بنو عمار في طرابلس بأنواع الكتب . كتب مرة إلى قاض في طرابلس ، كان متولياً على إحدى تلك الدور ، يفرق على الطلبة المواظبين على حضورها ذهباً ، وكان ابن الخياط من المواظبين ، فلم يحصل على شيء لتخلفه في ذاك اليوم ، فقال مخاطباً إياه :

لقد أيأسَتْنِي من وُدِّك الحقيقةُ إن كانَ ذا باعتمـــــادِ

فإن القطيعة أشْهــى إلـــيَّ إذا أنا لم أنتفع بالوِداد (٤)

كان شاعرنا يصف قصائده بالباقيات لا يبطلها طول دهر أو عهد :

حديثةُ عصرٍ كلما امتد دَهْرُها سما فخرها حتى تطولُ على القُدْمِ (٥)

ولشهرة ابن الخياط ومتانة نظمه دفع الوزير هبة الله بن بديع وزير تتش له مرة ألف

---

(١) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص١٢٤
(٢) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص١٥٣
(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٤٨٠
(٤) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص٢٢١
(٥) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص٢٤

دينار(١) وقال في شعره لأبي يعلى حمزة بن أسد التميمي ، قبل وفاته سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م :

مَرِضْتُ فَهَلْ من شفاءٍ يُصابُ   وهيْهاتَ والداء طرف وجيد(٢)

توفي ابن الخياط سنة٥١٧هـ/١١٢٣م ، ومن الأوضاع السياسية التي عايشها وصول الجيوش الفرنجية الصليبية إلى معظم بلاد الشام ، والمسلمون العرب في غاية الضعف فقال ، يصف الهجوم العنيف على الفرنجة وجيوشهم الكثيرة على أرض العرب :

وَقَدْ جاشَ مِنْ أرض إفْرنْجةٍ   جيوشٌ كَمِثْلِ جبال تَرَدَّا (٣)

- أسامة بن منقذ :

الشاعر أبو المظفر الكناني الملقب مؤيد الدولة ، ولد بشيزر(٤) كان من الأمراء الفضلاء والأدباء الشعراء الشجعان ، وإن كان أشهرهم وأشعرهم . (٥) تميز بتماسك الأداء الشعري وجزالة الأسلوب والمعنى ، اسمه في قوة نثره ونظمه ، تلوح من كلامه أمارة الإمارة ، حلو المجالسة ، ندي الندى ، عالي النجم في سماء النباهة ، معتدل التصاريف ، مطبوع التصانيف ، أسكنه عشق الغوطة دمشق ، عاش فيها ، ثم انتقل إلى مصر أياماً، ثم عاد إلى دمشق وسكنها مخصوصاً بالإكرام . رشقه سهم الزمان بنبله ، ورماه الحدثان بعد نكبة زلزال شيزر على حصن كيفا ، ثم عاد إلى دمشق أيام السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي . كان شعره في غاية الجودة ، ونهاية الكلام ، أعذب من الماء الزلال وأطيب من السحر الحلال . من أهل بيت المجد والحسب والفضل والأدب ينتهي نسبه إلى قحطان . (٦)

ولد سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥ م ، وقدم دمشق سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م ، وخدم حكامها ، وخرج إلى مصر ومعه الإشارة بالتعظيم ثم سكن حماه ، وتنقل ثم عاد إلى دمشق ،

==

(١) الذهبي : سيرأعلام النبلاء ج١٩ ص٤٨١
، العبر في خبر من غبرج٤ ص٣٩-٤٠

(٢) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص٣٢٥
- الأصفهاني : خريدة القصر شعراء دمشق ص١٣٤

(٣) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص١٨٤ - اليافعي : مرآة الجنان ج٣ ص٢٢١

(٤) قلعة بالشام قرب المعرة ، بينها وبين حماه يوم واحد . ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٣ ص٣٨٣

(٥) ابن العديم : بغية الطلب ج٣ ص١٣٥٨-١٣٥٩ ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج٥ ص١٩١- ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب تحقيق مصطفى جواد وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مطابع الوزارة ج٤ قسم ١ ص٢٦٨

(٦) الأصفهاني : خريدة القصر شعراء الشام ج١ ص٤٩٧-٤٩٨
- أبو شامة : المصدر نفسه ج١ ص٢٦٤ - كتاب تراجم الأدباء : مخطوط رقم ١٦٧٣٢ ص١٣٨-١٣٩

وقد جاوز الثمانين من عمره ، روى عنه الحافظ ابن عساكر ، والمحدث أبو سعد السمعاني .

كان شاعر الدهر ملك عنان النظم والنثر ، متصرف في معانيه لا يفرق بقصائده الطوال بينها وبين قصائد وشعر ابن الوليد (١)، وتدل على طرف لسانه بحسن بيانه ، كان مجوّداً في صنعة الشعر عارفاً باللغة والأدب اسمه في قوة نثره ونظمه ، عالي النجم في سماء النباهة . له قصيدة تعرف بالطائية ، نلمح فيها خواطر المبتكرين والمبدعين تختلف تمام الاختلاف عن غيرها من القصائد ، وما من الشعراء المحدثين إلا من نظم على رويها ونظمها ، (٢) من أشعاره لما انتقل إلى مصر بإيعاز من بني الصوفي ، فقال لهم قصيدة هجاء وذم لجورهم وظلمهم والتنكر للمعروف ، وصفة اللؤم وعدم حبهم للخير والنصح فيأسف لعدم وفائهم :

وَلَوُّا فلما رَجَوْنا عَدْلَهُم ظَلَمُوا … فليتهم حَكَمُوا فينا بما عَلِمُوُا
ما مَرّ يَوماً بفكري ما يُريبُهمْ … ولا سَعَتْ بي إلى ما سَاءَهُمْ قَدَمُ
يا راكباً تقطع البيداء همته … والعين تعجز عما تدرك الهمم
يضيع واجب حقي بعدما شهدت … به النصيحة والإخلاص والخدم
والله ما نَصَحوا لما استشرتهم … وكلهم ذو هوى في الرأي متهم (٣)

وله في شعر رحلاته حين وصل دمشق ، فقال فيها :

وكل اجتماع مُرصَدٌ لتَفَرُّقٍ … وكلُ وصالٍ سوف يعقبُه هجر (٤)

فقد تطرق الشاعر في البيت إلى حزنه على فراق دمشق بعد أن حلّ بها أياماً حلوة وزار بغداد فقال إن جوّ بغداد أجمل من الوصف الذي ذكره المؤرخون والشعراء :

وَصفوا لي بغدادَ حيناً فلما … جئتُها جئتُ أحسنَ البُلدان (٥)

---

(١) مسلم بن الوليد : يلقب بصريع الغواني ، شاعر متقدم من شعراء الدولة العباسية منشؤه الكوفة ، أول من قال بالشعر البديع ، وقيل هو أول من أفسد الناس في هذا الجنس البديع لاستخدامه الجناس والطباق والتصوير . ولي في خلافة المأمون بريد جرجان حتى مات . ابن قتيبة الدينوري: (أبو محمد عبد الله بن مسلم ت٢٧٦هـ/٨٩٩م) الشعر والشعراء أو طبقات الشعراء حققه د. مفيد قميحة، راجعه نعيم زرزور دار الكتب العلمية بيروت ط٢ ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ص٥٦٤ الأصبهاني : (علي بن الحسين٢٨٤-٣٥٦هـ) الأغاني إشراف وتحقيق إبراهيم الأبياري مطبعة دار الشعب بمصر مجلد ٢٠ ص٧٢٦٣

(٢) ابن عساكر : مخطوط تاريخ مدينة دمشق ج١٢ ص٢٠٢-٧٠٣
- الأيوبي : مخطوط التذكرة الأيوبية ج٢ ص٢٦٩ أ

(٣) الأصفهاني : خريدة القصر شعراء الشام ج١ ص٤٩٨-٣٥٤
- كتاب تراجم الأدباء : مخطوط رقم١٦٧٣٢ ص١٤٠ــــ١٤٢
ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج٥ ص١٩٢

(٤) أسامة بن منقذ : ديوان أسامة بن منقذ ص٧٢-٨٤
- ابن خلكان : وفيات ج١ ص١٩٥-١٩٦

(٥) أسامة بن منقذ :ديوان أسامة بن منقذ ص١٦١

وله في مراثي ولده يصف كمال صورة ولده وحسنه :

وأما مثل ما ضمت ضلوعي فإني ما سمعت ولا رأيت

وأيضـــاً :

أزور قبرك والأشجان تمنعني من أن أرى نهج قصدي حين أنصرف (١)

أخذ ابن منير بعض الأبيات الشعرية للشاعر أسامة بن منقذ ، ثم زاد عليها في كلمات ، وهي أبيات من مبتكرات معاني أسامة بن منقذ في سن قلعها :

وصاحب لا أملّ الدهر صحبته يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد

فقال ابن منير في أبيات مشابهة :

وصاحب لا أملّ الدهر صحبته يسعى لنفعي وأجني ضره بيدي (٢)

ولاشك أن ديوان أسامة سجل حافل بحياته ، ديوان يسطّر وقائعه وحروبه ، وحنينه وتأملاته ، والأحداث الكبرى التي عانى مشاقها في حلّه وترحاله . مثّل شعره صفحات مضيئة للبطولات التي كان يقوم بها مع الذين شاركهم القتال في غزو القلاع الفرنجية . إن ديوان أسامة يبحث عن الوفاء والحنين للأصدقاء والمحبين ، وإن كانت له أصابع بيضاء في ذلك . وساد في شعره الرثاء ، الذي أكثر فيه عزاءه لعشيرته ، وأهله وولده ، فقد أثّر على حياته ، وأبقاه في عزلة نتيجة زلازل شيزر التي تركته وحيداً بين أفراد أسرته .

- **ابن القيسراني** : محمد بن نصر (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م)

ولد الشاعر في عكا ، ونشأ بقيسارية ، فنسب إليها ، ثم انتقل منها إلى مناطق أخرى ، بعد استيلاء الفرنجة الصليبيين على الساحل ، فهو عكاوي المولد ، حلبي المنشأ ، بغدادي الهوى والمقام ، دمشقي الدار حتى وفاته .

==

(١) الأيوبي : مخطوط التذكرة ج٢ ص٢٦٩ ب

- كتاب تراجم الأدباء : مخطوط ص١٤٧

(٢) أبو شامة : المصدر نفسه ج١ ص٢٦٤

- الأيوبي : تذكرة مخطوط ج٢ ص٢٦٩أ

صاحب ديوان شعر معروف . (١) كان أديباً مترسلاً بليغ النظم ، مليح المعاني ، كثير التطبيق والتجنيس ، مجيداً حمل لواء الشعر في عصره ، وطرق أبواب الشعر من المديح والهجاء ، ونجح في ذلك نجاحاً كبيراً .

أدخل على شعره الغزل ، ووصف الغواني ، لِمَا يحمل من هوى ووله بلقائهن، والتشبب بهن ، ساعده على ذلك كثرة رحلاته وجولاته . وقد وصف بأنه ناظم الدر النفيس ، الذي ارتفع بشعره في سوق الأدب " ونفقت في متجر الرغائب غرائبه ، واتسعت في مضمار القريض مذاهبه " أخذ من كل علم طرفاً ، ونظم من الأبيات التي تفرّد بها طرفاً ، فكان من الشعراء المجيد ين .

وقعت بين الشاعر ابن القيسراني ، والشاعر ابن منير مشاحنات ووقائع ونوادر ، واستمرت الوقيعة بينهما ، حتى عُرفا بشاعري الشام . أخذ شاعرنا الأدب عن توفيق ابن محمد ، وكان يتولى إدارة عمل الساعات بباب جيرون بدمشق ، (٢) صاحب ابن الخياط ، وقرأ عليه الأدب وتخرج على يديه ، ثم جمع ديوانه ورتبه .

وتابع رحلته في طلب العلم ، فسمع بحلب ، وطاف البلاد من دمشق إلى حلب فأنطاكية والأثارب وبغداد ، متنقلاً بعد أن اشتهر أمره بين الملوك والأمراء في دمشق وحلب وبغداد ، وعلى الرغم من تقربه من أستاذه ابن الخياط إلا أنه لم يلحق به في قوة الأسلوب ومتانته وسلامته ، بل أفرط شعره بالطباق والتجنيس اللذين سيطرا على عصره .

==

(١) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٣٠
- اليافعي : مرآة الجنان ج٣ ص٢٨٧
- حبيب الزيات : مقال دفائن (ديوان) ص٣٤٣
(٢) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٩٨ - الأصفهاني : خريدة القصر شعراء الشام ج١ ص٩٦-
- ص٩٧ - ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج١٩ ص٦٤ - الكيلاني : الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام ، دار الكتاب العربي مصر ١٩٤٩م ص٢٧٧

حملت شخصية ابن القيسراني التقلب والتردد ، فبعد أن كانت علاقته وطيدة مع حكام حلب ، عاد إلى أمراء دمشق البوريين ، وكان قد حُمل عليه في السابق من دخول دمشق لهجائه أمرائها ، فهرب من وجه الأمير بوري ، ثم عاد إليها بعد أن نال وضاهم .

وامتدح مجير الدين أبق أمير دمشق حين استدعاه فأنشد الشعر في مجلسه ، فنال منه الإعجاب وكذلك استحسنه السامعون ، وبقي على اتصاله معه حتى توفي سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م ، (١) له ديوان شعر مشهور ، إلا أنه غير معروف الآن ، صوّر فيه الشاعر أحداث عصره خير تصوير ، وكان أجمل ما في شعره الثغريات ، حيث ذكرها أثناء مروره بالعواصم ووصف بها المواضع التي استحسنها في دمشق وحلب وأنطاكية والرقة ودير سمعان وأعزاز والأثارب وغيرها من الأماكن . (٢) وظهر في شعره هذا الحنين والشوق إلى العديد من المناطق التي زارها فوزع حنينه هذا بين دمشق وبغداد ، يخاف اللقاء لأن الفراق سيكون بعده ، فقال :

أشتاق أهلي بدمشق وفي ... بغداد حظ القلب والعيـــن
ففي لقائي ذا فـــــراق لذا ... قل لي متى أخلو من البين (٣)

واجتاز بعزاز من ضواحي حلب وهي بيد الفرنجة فقال مقارناً بين حالها وهي بيد الفرنجة وما كانت عليه من الحسن والجمال ملكة الضواحي :

أين عزّي من روحتي بعزازِ ... وجَوازي على الظباء الجوازي
بعيونٍ كالمرهفات المواضي ... وقدودٍ مثل القنـــا الهـــــزّاز
وسبتني لها ذوائب شَعـــــرٍ ... عقدتها تاجـــاً علــــى ابرواز (٤)

وقال في اجتيازه بالأثارب مظهراً شوقه وحنينه إلى تلك الديار وماله من ذكريات :

عّرجـــا بالأثـــارب ... كــي أقضيّ مـــآربي (٥)

==

(١) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص١٦-١٨١-١٨٩-١٩١
- سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٣٠
- ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج١٩ ص٦٤ – الكيلاني : الحروب الصليبية ص٢٧٦ - بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ص١٤١
- مقال حبيب الزيات : الدفائن ص٣٤٢
(٢) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص١٩٣-٢٠٠
(٣) مقال حبيب الزيات : الدفائن ص٣٤٢
(٤) الأصفهاني : خريدة القصر شعراء الشام ج١ ص١٥٥-١٥٦
- مقال حبيب الزيات : الدفائن ص٢٤٩
(٥) الزيات : مقال الدفائن ص٢٤٩

وقال في دير سمعان قرب أنطاكيّة :

هل سمعتم بدير سمعان وما به للعيون من عان
وجوه تباهي قناديـــلها ببهجة نيرانها الموقده (١)

سيطر على شعر ابن القيسراني المديح والغزل فقال :

لو أن قاضي الهوى عليّ وَلى ما جاز في الحُكم مَنْ عَليَّ وَلي (٢)

واهتم الشاعر بالواقع السياسي ، وأشار إلى الاحتلال الفرنجي الصليبي ، فتغنى بصفات الأبطال الذين يحققون الانتصارات المتلاحقة ، فوصف عماد الدين زنكي بأنه السابق المنتصر لا محالة متى خاض الحرب مع الكفار الفرنجة قائلاً :

فقل لملوك الكفر تسلم بعدها ممالكها إن البلاد بلاده (٣)

والمتطلع إلى شعر ابن القيسراني يلمس فيه رهافة الحس ورقة القلب وهفوة إلى الجمال ، مع الولع في الوصف . وقد رسم شاعرنا صورته بوجه خاص في نساء الفرنجة ، فقال في إحداهن :

وإن تك في عينها زُرْقة فإن سِنان القنا أزرق (٤)

وطغى على شعره الجزالة واختيار الألفاظ والعبارات ، والابتعاد عن العامية وطرائفها وجمع كغيره من الشعراء بين وظيفتي المدح والأجر ، فمدح الملوك والأمراء والحكام والوزراء وتقاضى على ذلك أجراً ، وامتدح أحد الأمراء فقال يشكو إليه ضيق حاله ولجوئه إلى كريم يداوي جراح زمانه :

أشكو إليك فهل عليك غضاضـــة يا مُمرضي صَدًّا لو أنك عائدي
ما زال صَرْفُ الدَّهرِ يَقصِر همتي حتى صرفتُ إلى الكرام مقاصدي (٥)

هذه أبرز صفات شاعرنا ابن القيسراني ، شاعر الجزالة والصلابة في الأسلوب والمعنى طرق باب الغزل والمديح والوصف .وقد أفادته رحلاته المتعددة في إثراء مادة الشعر لديه مع عدم نسيان الأخذ عن الشعراء الكبار سواء في عصره أمثال ابن الخياط ، أو من المتقدمين عليه من شعراء الإسلام الكبار .

==

(١) الأصفهاني :خريدة القصرشعراء الشام ج١ ص١٠١
- الزيات : مقال الدفائن ص٣٤٧
(٢) الأصفهاني : خريدة القصر شعراء الشام ج١ ص١٥٣
- سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٢٩
(٣) الأصفهاني : خريدة شعراء الشام ج١ ص١٥٥
(٤) الأصفهاني : المصدر نفسه ج١ ص٩٩
(٥) الأصفهاني : المصدر نفسه ج١ ص١٠٣-١٠٤

- **ابــن منيــر:** الشاعر الرقاء المتميز المجيد المكثر الهجّاء صاحب الشعر الحسن المشهور (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م)

أحمد بن منير بن أحمد الاطرابلسي الشاعر ، كان أبوه منيراً في أسواق طرابلس ولد سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م ، من أسرة متوسطة الحال ، كان يتكسب مع أبيه حرفة رفيّ الثياب ، مارس والده إنشاد الأشعار والتغني بها في أسواق طرابلس . نشأ ابن منير وحفظ القرآن الكريم وتعلم اللغة والأدب ، كان واضح الطريقة سمح البديهة ، بارع البلاغة يترفع على ابن القيسراني ، ويستنكف في الوقوع في مرعى مناقضته . وهو من أبرز شعراء الشام ذي الخاطر المنير والشعر الجيد اللطيف ، لولا أنه يمزجه بالهجاء السخيف . (١)

شعره حسن مثل كنيته ، ونظمه مهذب مثل لقبه ، إنه أرقّ من الماء الزلال ، كثير الفخر بشعره مع أنه يستعمل الألفاظ العامية في شعره ، ونتيجة لكثرة هجائه الذي غدا مهنة معتمدة ، تعرض لعقوبات السجن ، فقد حبسه الأمير بوري ، وعزم على قطع لسانه ، إلا أن الحاجب يوسف بن فيروز استو هبه منه فنفاه ، واستمر في منفاه حتى مات بوري ، فعاد إلى دمشق أيام حكم الأمير اسماعيل فأراد صلبه ، فهرب واختفى في مسجد الوزير أياماً ، ثم خرج من دمشق إلى حماه فشيزر فحلب . وقيل إن الحاجب يوسف أركبه على خيل البريد فهرب إلى بغداد . (٢)

كان لموقف رئيس دمشق ابن الصوفي أكبر الأثر في نزوح ابن منير عن دمشق وتخوفه من التحول إلى المقام في شيزر ، ثم ظهرت محاولات الأمير معين الدين أنر في استنهاض همة ابن منير بالعودة إلى دمشق ، لكن ذلك لم يستحق نجاحاً لأن ابن منير صاحَبَ السلطان نور الدين في أسفاره ومدحه وكان أحد رسله إلى جلّق يوم حاصرها ، فكانت آخر مرة يصل فيها إلى دمشق على ذكر المصادر سنة

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٢ ص٢٥١
- ابن منير : ديوان ابن منير ص١٤-٣٤-٣٥
- ابن أبي الدم : مخطوط الشماريخ ص١٥١ ظهر مخطوط كتاب تراجم الأدباء مخطوط ١٦٧٣٢ ص١١٩ – التدمري : الحياة الثقافية في طرابلس الشام ص١٠٤

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٢ ص٥٢١
- كتاب تراجم الأدباء : مخطوط ١٦٧٣٢ ص١١٩
- ابن منير: ديوان ابن منير ص٣٨ -الأصفهاني : خريدة القصر ج١ ص٧٩

٥٤٩هـ/١١٥٤م ، ولما دخل نور الدين المدينة عاد ابن منير مع العسكر إلى حلب . (١) لا شك أن الرواية تتضمن خللاً ما بين تاريخ فتح دمشق من قبل نور الدين وبين حضور ابن منير ، وهذا ما يتناقض مع تاريخ وفاته سنة ٥٤٨هـ/١١٥٤م .

لم يقتصر ابن منير على هجو كبار رجالات الدولة البورية ، بل عمل على هجاء العلماء منهم ، الفقيه العالم برهان الدين البلخي ، (٢) ووقعت بينه وبين ابن القيسراني وقائع ونوادر ، وأثرى ابن القيسراني علم الشعر بشعر في هجاء ابن منير راداً عليه في نفس المضمار الذي تعرض له بالذم والنيل منه عن طريق الهجاء .

وكانت المباراة الشعرية والمعارضة الأدبية سجالاً، بين ابن القيسراني وابن منير ، حتى لكأنهما جرير العصر وفرز دقه ، وقد مثّلا قمة النظم وفن إبداعه ، وقد عاشا في غبطة ورفعة وبسطة ، ووصفه أسامة بن منقذ قائلاً : " إنه شرف الأدباء ولسان دهره ، تقدم فضله وبيانه ، فهو زهير الفصاحة ، وابن حجاج الملح والطرافة(٣) ، في أشعاره لطافة تملك السمع ، كان يقصد كل فن من فنون الشعر فيستولي على محاسنه وفنونه " . (٤)

وقيل في وصف الشاعر ابن منير " كان مغواراً على القصائد ، يأخذ ويعول في الذبّ عنها على ذمه للناقد أو للجاحد " . وكان ابن القيسراني كثيراً ما ينال منه ، قائلاً فيه مستشهداً بما يكتبه ، من أنه ما صحب أحداً إلا نُكب ، فاتفق أن أتابك زنكي توجه إلى قلعة جعبر الواقعة على نهر الفرات محاصراً ، فأرسل له ابن منير مادحاً إياه يقول :

===

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٢ ص٢٥١
- الأصفهاني : خريدة القصر ج١ ص٩١
- بدران : المرجع نفسه ج٢ ص١٠٠
- د٠ موسى باشا : أدب الدول المتتابعة ص٢٢٣
(٢) ابن العديم : بغية الطلب ج٣ ص١١٥٧
- سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٣٤
(٣)عبد الله بن الحجاج شاعر فاتك شجاع من صعاليك العرب، كان متسرعاً إلى الفتن عاصر عبد الملك بن مروان، عرف بالخبث والفسق كان حياً سنة ٨٥هـ له صلة وثيقة بخلفاء بني أمية ومديحه لهم مديح خالص. الأصبهاني : (علي بن الحسين٢٨٤-٣٥٦هـ) الأغاني إشراف وتحقيق إبراهيم الأبياري مطبعة دار الشعب بمصر مجلد ٣ ص ٤٦٧٠- ٤٦٧١- ٤٦٨٥ د. نوري حمودي القيسي: شعراء أمويون ط١ ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م بيروت ص٢٨٥-٢٨٦
(٤) ابن العديم : بغية الطلب ج٣ ص١١٥٨
- ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ج٢ ص٨٥

ويلي من المُعرض الغضبان إذ   نقل الواشي إليه حديثاً كله زور

فاستحسنها زنكي ، وكتب إليه يطلب منه القدوم سريعاً ، فتوجه ابن منير ، وهو في الطريق بلغه مقتل زنكي، فعاد إلى حلب ، ولما دخلها قال له ابن القيسراني :

بنتم وبنا فما ابتلت حوائجنا   شوقاً إليكم وما جفت مآقينـــا (١)

أقام الشاعران ابن منير وابن القيسراني بحلب يقومان على صنعة المنافسة ، كما جرت عادة المتماثلين. ومن شعر ابن منير في هذا المجال

وإذا الكريم رأى الخمول نزيله   في منزل فالرأي أن يتحـولا
ولا تحسبن ذهاب نفسك ميتة   ما الموت إلا أن تعيش مدللا
لله علمي بالزمان وأهلـــــه   ذنب الفضيلة عندهم أن تكملا (٢)

وله في الغزل :

سقاني العسجدية ذو عذار   ينمنم عنبراً في صحن عسجد (٣)

تكدر صفو عيش شاعرنا في دمشق ، لما ارتحل إليها ، فتلبدت غيوم المدينة بسبب هجائه ، فقرر الرحيل إلى حلب وحطّ رحاله هناك ، حيث امتدح السلطان نور الدين محمود ، حين توجه إلى أبواب دمشق محاصراً بقوله :

دمشق دمشق إنما القدس سرحة   ومركزها صرح عليها ممرّد
متى أنا راء طائر الفتح صادحاً   يرفرف في أرجائها ويـغرّد (٤)

وهكذا فإن ابن منير شاعر من شعراء العصر ، يمثل شعره وثيقة ، قد سجل عبرها مجريات الأحداث التي جرت في عصره ، وصورها في شعره ، فكان شعره يهتم بقصائد الجهاد في سبيل الله تعالى ، والبحث عن الحماسة للوقائع الحربية ، والحديث عن فتح المدن والقلاع ، وسقوط القتلى والجرحى والأسرى في المعارك مع الفرنجة الصليبيين ، أو من خلال تصوير الحياة العامة التي كان يعيشها الشاعر بحلوها ومرها .

==

(١) ابن أيبك : مخطوط لامية العجم رقم ٧٨٣١ ص٢٤٧ظ
(٢) مخطوط كتاب تراجم الأدباء ١٦٧٣٢ ص١١٩-١٢٠
(٣) مخطوط كتاب تراجم الأدباء ص١٢٤
(٤) أبو شامة : المصدر نفسه ج١ ص٧٩

عرقلة الكلبي : (ت ٥٦٧هـ/١١٧١م) حسان بن نمير الشاعر النديم الخليع المطبوع .

شاعر مجيد متمكن حسن الشعر دمشقي الأصل من قبيلة كلب ، كان شيخاً خليعاً أعور حلو المنادمة ، لطيف النادرة ، شاعراً متطرفاً له باع في الهجاء ، معاشراً للأمراء ، من شعره في محبوب أحول وهو أعور :

يا لائمي هل رأيت أعجبَ مِنْ   ذي عَوَرٍ هائمٍ بذي حَـوَلِ (١)

وكان عرقلة قد أصيب بالعور في حلب ، عندما عبر بها على قوم يلعبون بالحجارة ، فأصابه حجر طائش قلع عينه ، فعاد إلى دمشق قائلاً :

سافرت جهلاً فانعورت إن أعد   إلى سفرة أخرى قدمت على العما (٢)

كان الشاعر يحب أن يجلس على حانوت الخياط بدمشق ، يعرف بأبي الحسن الأعرج ، ويحب أن يداعبه بالشعر .

بحثتْ أشعار عرقلة الكلبي في أبواب المديح ، والهجاء ، والشوق ، والفراق ، فقال في الشكوى :

كتبتُ إليكُمُ أشكو سَقاما   يرى جسمي من الشوق الشديد

وقال في مبادلة المحبوب الشوق والهيام :

ترى عند من أحببته لا عدمته   من الشوق ما عندي وما أنا صانع

جميعي إذا حدثت عن ذاك أعين   وكلي إذا نوجيت عنــه مسامـــع (٣)

==

(١) الأصفهاني : خريدة القصر ج١ ص١٧٨

- ابن العديم : بغية الطلب ج٥ ص٢٢٣٩- الكتبي : فوات الوفيات ج١ ص٣١٣

- زغلول : الأدب في العصر الأيوبي ص٢٨ ٩

(٢) ابن العديم : بغية الطلب ج٥ ص٢٢٤٢

- الأيوبي : التذكرة مخطوط ج٢ ص٢٩٥ ب

(٣) الأيوبي : تذكرة مخطوط ج٢ ص٢٩٥ ب

شمل شعره نوادر ومداعبات مع الشاعر أبي الوحش وغيره . وللشاعر أشعار في الحث على السفر يقول فيها :

لا تقعدن بأرضٍ قد عُرَفتَ بها   فليس تقطَعُ في أغمادها القُضُبُ (١)

اعتزّ الشاعر عرقلة بشعره ، وكان يقرن نفسه بكبار الشعراء ، واتضح عليه التواضع حين يضحك و حين يسخر ، لهذا عدّ شعره قريباً إلى القلب . امتدح في شعره معين الدين أنر في صورة شعرية وبلاغيّة جميلة ضمّها علم البديع :

تَظَلُّ ثغورُ الأقحوانِ ضواحكاً   إذا ما بكت فيها عيونُ السحائب (٢)

كان على اتصال بالسلطان صلاح الدين الأيوبي ، وقد وعده أن يعطيه ألف دينار ، فلما أخذها قال فيه :

قل للصلاح معيني عند افتقاري   يا ألف مولاي ابن الألف دينار (٣)

هذه لمحة سريعة عما اتصف به هذا الشاعر من وصف ومدح وهجاء وشوق ورثاء وفراق .

ومن الشعراء الذين تميزوا بأشعارهم في فترة الحكم البوري ، القاضي الرّقي أبو الحسن علي بن مشرق (ت٥٤١هـ/١١٤٦م) تميز بالشعر وسكن دمشق ، ترك قصيدة وازن بها شعر ابن الخياط ، حيث يصف عشقه وهيامه وألمه من شدة الشوق

لو كنتُ شاهدَ عبرتي يوم القنا   لمنعتَ قلبك بعده أن يَعشَقا (٤)

وتميز الشاعر عبد الله بن احمد بن الحسين أبو محمد الحميري ابن النقّار الكاتب الدمشقي (ت٥٦٨هـ/١١٧٢م) من شعره ، يشكو من هجر المحبوب :

الله يعلم أننـــي خِلتـُــــهُ   يَصبو إلى الهجران حين وصلتُه
من منصفي من ظالم مُتعنِّبِ   يزداد ظلمـــاً كلمـــا حكّمتـُـهُ (٥)

وله في الشعر أيضاً الشوق والحنين :

سقى الله ما تحوي دمشق وحيّاها   فما أطيب اللذات فيها وأهناها

==

(١) الأصفهاني : خريدة القصر ج١ ص١٦٨
(٢) عرقلة الكلبي : ديوان عرقلة الكلبي ص٥-٦
(٣) الأيوبي : تذكرة ج٢ ص٢٩٥ أ
(٤) الأصفهاني : خريدة القصر ج٢ ص٢٣٩-٢٤٠
(٥) الأصفهاني : خريدة القصر ج١ ص٣١٤-٣١٥

نزلنا بها فاستوقفتنا محاسن يحنّ إليها كل قلب يهواها (١)

وتميز الحافظ ابن عساكر (أبو القاسم علي ت ٥٧١هـ/١١٧٥م) بالشعر بالحسن كان يمليه في عقب مجالسه من شعره :

وصاحبٍ خان ما استودعتُه وأتى ما لا يليق بأرباب الدَيانات
أما أتاه من المختار في خبر أن المجالس تغشّ بالأمانات (٢)

وله من الشعر أيضاً تحميل بلدة نيسابور مظالمه ليطفىء نار الشوق والحنين فيها حتى يصل إلى بلده :

لا قدّس الله نيسابور من بلد ما فيه من صاحبٍ يُصلي ولا سكَن
لولا الجحيم الذي في القلب من حُرَقٍ لِفرقةِ الأهل والأحبَاب والوطن
لِمتُ من شدّةِ البرد الذي ظهرت آثارُ شدّته في ظاهِر البَدَن
فإن أعِش فَلعَلَّ الله يجمعُنا وإن أَمُتْ فقتيل الهمَّ والحزن (٣)

ومن شعره الحضّ على العلم :

ألا إنّ الحديث أهل علم وأشرفه الأحاديث العوالي
وإنك لن ترى للعلم شيئاً يحققه كأفواه الرجال
فكن يا صاح ذا حرص عليه وخذه عن الرجال بلا ملال (٤)

ومن الشعراء البارزين أيضاً ابن الزغليّة الكاتب (أبو الحسن علي بن جعفر ت٥٧١هـ/١١٧٥م) ورث عن أبيه وجدّه صنعتي الخط والبلاغة ومن شعره في مدح السلطان نور الدين ، يمدحه بالفصاحة :

يا أفصح العُرب العَرباء قاطبةً وإن غدا لملوك الترك مُنتسبا (٥)

---

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٨ ص١٠٠٥-١٠٠٧
- ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع تحقيق النحاس شكري فيصل ، رياض مراد ص٣٠٥-٣٠٧
(٢) الأصفهاني : خريدة القصرج١ ص٢٧٤-٢٧٥
- ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج١٣ ص٨٦
- الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٥٧٠
(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج١٣ ص٨٧
(٤) الذهبي :سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٥٦٩ - القنوجي : التاج المكلل ص٨٥
(٥) الأصفهاني :خريدة القصر ج١ ص٣١٧-٣٢٣

ومن الشعراء أيضاً أبو طالب ابن الخشاب عقيل بن يحيى من أهل باب شرقي من عوام دمشق من شعره يشكو هجر محبو بته :

من لي بخِلٍّ جائر في حبِّه   أبداً يعنّفني بكثرة عَتْبه (١)

وكان المهذب أبو طالب محمد بن حسان الدمشقي اليمني الأصل من أهل الفضل لا مثيل له في النظم من شعره الذي عبّر عنه بصورة بلاغيّة واصفاً ألسنة نار الحنين تبدد ظلمة الدجى :

هتك الدّجى برقُ الخيال الساري   سَحراً فنارُ الشوق أيّة نارِ (٢)

وهذا عبيد بن صفيّة كان شاباً ذكياً ، نشأ بدمشق وتوفي في شبابه ومن شعر له في مدح الوزير ابن الصوفي :

مدحتُ أبا الفضل الأمين جهالة   بشعر إذا ما أظلم الشعر أشرقا (٣)

ومن شعر البديع الدمشقي أبو فراس طراد بن علي الدمشقي في وصف ماهية حبه ودلاله :

هكذا في حبكم أستوجبُ   كبِدٌ حرّى وقلبٌ يَجبُ (٤)

وكان الشاعر وحيش الأسدي (أبو الوحش سبيع بن خلف بن محمد بن محمد ولد بدمشق سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م) الشاعر الشيخ المطبوع ، مدح العالم كمال الدين الشهرزوري قائلاً :

حُبُّ الإمام مُحمدٍ لي مَذهَبُ   ومطامِعي بمُحمدٍ بن القاسم (٥)

وإذا انتقلنا إلى الشعراء الأتراك المولودين في دمشق نبدأ بذكر الأمير يغمر ابن عيسى العكبري ، كان متطرفاً في الأدب متميزاً في الفصاحة وله موقع أساسي فيها من شعره :

إذا غالني خطبٌ وقاني بنفسه   وإن نالني جَدبٌ كفاني بماله (٦)

يتحدث البيت عن الإخلاص والوفاء وفداء الممدوح بالمال والنفس .

---

(١) الأصفهاني : خريدة القصر ج١ ص٢٩١
(٢) الأصفهاني : خريدة القصر ج١ ص٣٣٩
(٣) الأصفهاني : خريدة القصر ج١ ص٢٦٤
(٤) الأصفهاني : خريدة القصر ج١ ص٢٦٨-٢٦٩
(٥) الأصفهاني : خريدة القصر ج١ ص٢٤٣-٢٤٦
(٦) الأصفهاني : خريدة القصر ج١ ص٣٥٤

وإذا خرجنا من دمشق إلى حوران تذكر لنا المصادر الشاعر سديد الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف العقيلي الحوراني ت ٥٦٤هـ/١١٦٨م ، من شعره :

ما ألين الإحسانُ بالأحسن   عقلاً إلى الكافر والمؤمن
وأقبح الظلم بذي قُدرةٍ   حكّم في الأرواح مستأمن (١)

وهذا نصر الهيتي الدمشقي من أهل حوران توفي بعد سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م . أشاد بقدرته على النظم كغيره من شعراء دمشق ، وهم كما قيل يقولون ما لا يفعلون قائلاً:

إن كل خُلف القول في أشعارنا   نقصاً فنحن وهم به أكفاء
لا نحن نفعل ما نقول ولا همُ   فإذا نظرتَ فكلنا شعراء

وله أيضاً يعرض بهجاء بديع رفعة بشأن البعض وتقدمهم على من سواهم :

ومن العجائب أن يَرَوْنا دونهم   وهمُ لنا أرضٌ ونحن سماء (٢)

وقال في صاحب بصرى :

كم جَحفلٍ للشرك همَّ بحَربه   فأحَلَّ صدر الرُمح في هُمامِه (٣)

ومن شعراء حماه المتميزين ، المسلم بن خضر ابن المسلم بن قسيم ، أبو المجد التنوخي الحموي ، شاعر شاب مجيد ، كان ثالث ابن القيسراني وابن منير ، نبغ أواخر أيامهما حتى وصل إلى درجتهما . إلا أنه أخذ عليه في ديوانه ، اعتماد لحن فاحش ، مع العلم أنه ضم فوائد الدرر الشعرية ، توفي سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م ، وتاريخ وفاته غير دقيق ، وربما أنه توفي بعد ذلك بسنوات من مدحه لـ عماد الدين زنكي ، ووصفه بالحزم والعزم والبأس والشجاعة ، ومما قاله فيه :

بعزمك أيها الملكُ العظيم   تذّلُ لك الصعابُ وتستقيم (٤)

وقال أيضاً :

أهلاً بطيفِ خيالٍ زارني سَحَراً   فقمتُ والليل قد شابت ذوائبُه (٥)

وقال يصف إعمال سيفه في الأعادي قتلاً وإبادة :

==

(١) الأصفهاني : خريدة القصرج١ ص٣٠٩
(٢) الأصفهاني : خريدة القصر شعراء الشام ج١ ص٢٣٠-٢٣١
(٣) الأصفهاني : خريدة القصرج١ ص٤٣٣-٤٣٤
ـ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٦ ص٤٦٣
(٤) الأصفهاني : خريدة القصرج١ ص٤٧٠
(٥) الأصفهاني : خريدة القصرج١ ص٤٣٤

صاحَ بالسيف مُصلتاً في الأعادي   فأجابه هامُـها والنُـحورُ (١)

ومن شعره رضاه بقضاء الله تعالى والصمود أمام الصعاب ، وعدم اليأس والاستسلام :

أألوُم دهراً ما لِحــادثِه   نَهْيٌ عليّ ولا له أمــرُ
أم كيف أشكو صَرْف نائبةٍ   ونَوال نصرِ الله لي نصر (٢)

ومدح معين الدين أنر بدمشق سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م قائلاً :

وكم ليلة عاطاني الراحُ بدرُها   ونادمني فيها الغزالُ المُشَنَــّقُ
معانٍ من الحسن البديع كأنها   خِلالُ معينِ الدين تُتْلى وتُوصف (٣)

وقال في جوابه على كتاب ابن منير :

بعثت الكتابَ فأهلاً بـــه   يَسُرّ النواظـرَ تنميقــهُ (٤)

وقال في فضل نور الدين في الدفاع عن الوطن والذود عن الديار :

هذا الذي في الله صح جهادُه   هذا الذي في الله صح يقينه (٥)

ومن الشعراء المجيدين ، الحسين بن عبد الله بن رواحة ، أبو علي الأنصاري الشاعر الأديب المجيد ، ولد بحماه ونشأ فيها ، ثم رحل إلى دمشق ، وأقام بها مدة ، توفي سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م . ومن شعره يأمل وصال المحبوبة ، الذي كان من المحال وأقرب للسراب :

يا ماطلاً لا يرى غَليلي   لديه وِرْداً سوى سرابِ

مثل شعره روعة روح الشعر الإسلامي العربي ، فكان ريحان أهل الأدب ، من حيث الكلام الفائق ، والأسلوب الموافق (٦) .

ومن شعراء الإمارة البورية في حمص :
القائد أبو العلاء الحمصي ، توفي سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م ومن غرائب أخباره ما حدّث بشعره قائلاً :

===

(١)الأصفهاني : خريدة القصرج١ ص٤٤٨
(٢) الأصفهاني: خريدة القصر ج١ ص٤١٥
(٣) الأصفهاني : خريدة القصرج١ ص٤٥٨
(٤) الأصفهاني : خريدة القصرج١ ص٤٥٩
(٥) الأصفهاني : خريدة القصر ج١ ص٤٧٤
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٨ ص٦٧٥-٦٧٦
- الأصفهاني : خريدة ج١ ص٤٨١-
ص ٤٨٢ - ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج١٠ ص٤٦

يا صحيح الجسم من داء الضنا وخلّي القلب من ضُرٍّ البعاد

وقد اقتسم أولاده ديوانه أثلاثاً وظنوا أنه ميراثاً ، فقيل لهم إن هذا لا يجدي ، والأوجب إثبات هذا الشعر وحفظه ، لما قد يقدم للعائلة من الرفعة والمكانة والشأن (١) .

ومن شعراء حمص أيضاً سعادة بن عبد الله الأعمى ، كان يكتب على قصائده سعيد بن عبد الله ، كان مملوكاً لبعض الدمشقيين مُوَلداً من شعره :

حَيّتك أعطافُ القُدود ببانِها لما انثنت تيهاً على كُثبانها (٢)

ومن شعراء الإمارة البورية في تدمر ، أبو حسان المقري من بني جرير ابن عامر ، كان من أهل الأدب ، توفي سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م . (٣) ومن شعراء تدمر أيضاً زائدة بن مزيدة العُرضي ، شاعر من أهل عُرض عند تدمر ، كتب ابن عساكر من شعره في السخنة بتدمر . ومن الشعراء الوافدين إلى الدولة البورية ، أبو سهل عبد الرحمن بن مدرك بن علي بن سليمان التنوخي المعري ، دخل دمشق ثم حماه ، توفي بزلزلة حماه عام ٥٥٢هـ أو٥٥٣ هـ/ ١١٥٧ـ١١٥٨م ، من شعره عن دمشق وصفه لها أنها كوكب مضيء ، وما حولها يدور في فلكها .

كأن دمشق أفلاكٌ تدور تلوح بها الشموسُ أو البدورُ (٤)

ومن شعراء المعرة الواصلين إلى حماه ، القاضي محمد بن عبد الله قاضي المعرّة ، توفي بحماه سنة ٥٢٣هـ/١١٢٨م ، له ديوان شعر ورسائل ، من أشعاره :

زمان غاضى أهلُ الفضل فيه فَسُقياً لِلحمام به ورُعْيا

وقال معللاً مصابه ببعد المحبوب عنه ، مما يفطر القلب حزناً وكمدا

كفى حَزَناً أني مقيمٌ ببلدة يُعَلّلني بعدَ الأحِبة داهِرُ

وقال يصف جمال عيون المحبوب الذي ملك عليه فؤاده :

ما زال يخدع قلبي سِحرُ مُقلتِهِ ويستقيد له حتى تملّكَهُ (٥)

==

(١) الأصفهاني : خريدة ج١ ص٤٠٢
(٢) الأصفهاني : خريدة ج١ ص٤٠٦
(٣) الأصفهاني : خريدة ج٢ ص٢٣٢
(٤) الأصفهاني : خريدة ج٢ ص٤٦
(٥) الأصفهاني : خريدة ج٢ ص٧ـ٨ـ١١ـ٢٥
ـ الصفدي : الوافي بالوفيات : ج٣ ص٣٣٤

ومن الشعراء الوافدين إلى الإمارة البورية ، الدَّميك بن أبي الخُرجين ، أبو منصور بن المسلم الشاعر الحلبي التميمي السعدي ، توفي نيّف وعشرين وخمسمائة ، كتب قصائد شعر ، منها ما يصف شوقه وهيامه ، واستعذاب الألم من أجل المحبوب ومن شعره :

رأيتُ عذابي في محبتكم عَذْبا   وبُعدُ دياري من دياركُم قُربا (١)

وزار دمشق الشاعر سعد بن إبراهيم الشيباني الأسعردي الكاتب ، الملقب بالمجد ، قدم إلى حلب وحماه ، له شعر مجيد منه :

رأيت لحمامكم ستةً   يظل بها الطلق منها عبوساً
هواء تجمد منه الرؤوس   ومـاء يذيب الكلى والنفوسا (٢)

وقدم من ديار بكر الحسن بن سعيد بن عبد الله ، أبو بكر الشاتاني الموصوف بالعلم والأدب والشعر الجيد ، وغزارة الفضل ، أحاط شعره الرقة والسهولة ، تميز بمحاسنه ، كان مطبوعاً بسلامة قلبه وقوة لبّه ، وحلاوة فكاهته . من شعره :

أهدى إلى جَسدي الضَنَى فأعَلَّه   وعسى يرقّ لـعبدِه ولَـعلَّـه

يشير الشاعر إلى أنه يرضى من محبوبه الشقاء والتعب ، لكنه هيهات أن يكون المحبوب يدري حاله . وله من الشعر :

سلام لنشر الروض يسري به الصبا   فتعبقُ من أنفاسه وتطيب
على ما يراه القـلب مـن بـعد داره   قريباً ويدعو أوده فيجيب (٣)

أما عن المؤلفات والمنظومات الشعرية ، التي تركها الكثير من الشعراء ، فهذا جعفر بن احمد بن الحسين ، أبو محمد القارىء المعروف بالسراج البغدادي ، نظم كتباً وتصانيف كثيرة ، توفي سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م (٤)

---

(١) الأصفهاني : خريدة القصر ج٢ ص١٦٩
- ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج١٩ ص١٩٤
(٢) ابن العديم : بغية الطلب ج٩ ص٤٢٤٣
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٤ ص٤٤٩
- الأصفهاني : خريدة القصر شعراء الشام ج٢ ص٣٦٦-٣٦٧
(٤) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج٩ ص١٥١
- ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج٧ص١٥٤
- ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر اختصرته وحققته سكينة الشهابي ، دار الفكر بدمشق ط١ ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ج٦ ص٥٢

وتميزت الثقافة الأدبية التي تمتع بها ابن بديع ، أبو النجم الأصفهاني (ت٥٠٢هـ/١١٠٨م) إلى تصنيف كتب منها " كتاب صناعة الشعراء وبضاعة الأدباء، " قدّم فيه نظرة شاملة عن تراجم الأشخاص والأجواء الفكرية ، التي تحيط بالشام ، في مطلع القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي . (١)

وعرف سعد بن علي بن القاسم الحظيري ، أبو المعالي الكتبي ، بكتاباته وتآليفه منها " زينة الدهر في شعراء العصر " وله ديوان شعر ، توفي سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م . (٢) وترك أسامة بن منقذ مصنفات عديدة ومجاميع مفيدة ، كان شاعرنا مطبوع التآليف ، له ديوان شعر في جزأين . (٣)

ارتبط الشعر بعلم العروض ، الذي يُتعرف منه صحيح أوزان الشعر ومفاسدها ، وأنواع الأوزان ، وما يتم بحثه في أحوال الأوزان المعتبرة للشعر ، من حيث الإيقاعات القائمة على البحور الستة عشر عند العرب ، وكيفية تحليلها إلى أجزائها المسماة بالتفاعيل ، ومقادير الأبيات ، وأصناف التعابير المسماة بالعلل . (٤)

هذا ما يتعلق بالشعر ، الركن الأساسي وأحد أركان الدولة البورية في هذا المجال . وكما لاحظنا فقد حفلت الإمارة البورية بالكثير من الشعراء الدمشقيين ، أو الشعراء الوافدين إلى الإمارة ، وطربت بأشعارهم ، فقدموا من خلال ما حملوا معهم ذروة فنهم الشعري ، والذي تمثل بشعر ابن الخياط ، و أسامة بن منقذ ، و ابن القيسراني ، وغيرهم ، ممن عمل في مجال المدح ، أو الذم ، والهجاء ، أو الغزل ، وأكثر ما اهتم به شعراء ذلك العصر ، تركيزهم على أشعار الجهاد المقدس في سبيل الله تعالى ، والذي استوجبته ظروف المحتل الغازي الرابض في أرض الإسلام وديار العرب .

==

(١) مقال د. شاكر مصطفى : مدرسة الشام ، المجلس الأعلى لرعاية العلوم ص٣٩٧

(٢) ابن الدبيثي : المصدر نفسه ج٢ ص٧٩-٨٠-٨١

(٣) ابن العديم : بغية الطلب ج٣ ص١٣٥٩

- ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج٥ ص ١١٢ ص١٩٢

- ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص١٩٥-١٩٦

(٤) ابن الأكفاني : إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد مخطوط رقم ١١٥ ص١٢ظ

علم النثر :

ازدهر علم النثر في ظل الدولة البورية ، وتم تسليط الضوء عليه ، لفضح العقيدة الفرنجية الصليبية ، والاستخفاف بما يحملونه من آراء ، فانبرى لهم شعراء وأدباء الإسلام ، متصدين لفذلكاتهم وسخافاتهم ، ومدحضين لأفكارهم بالحجج والبراهين . وممن اهتم بالنظم والنثر من أدباء الدولة البورية ، البديع الدمشقي ، (١) وكذلك المهذب الدمشقي أبو طالب محمد بن حسان اليمني المتميز في مجالي النظم والنثر ، فنثره كالدّر النظيم المنظوم ، بالنطق السليم ، له الفصول المسجوعة في كل فن والكلم المطبوعة بكل حسن ، كان نظمه ممتنع سهل رائق جزل . (٢)

وتميز كذلك محمد بن المحسن بن أحمد أبو عبد الله السلمي المعروف بابن الملحي أحد شيوخ الفضل في الأدب من نظم ونثر ، توفي سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م بدمشق (٣) ووصل من طرابلس ابن النقار ، كانت له يد في النثر ، اختاره والي دمشق لكتابة الإنشاء بعد ابن الخياط توفي سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م ، (٤) ووصل إلى دمشق علي بن محمد الجويني النيسابوري ، كان من أهل الفضل والأدب من وجوه الأفاضل نظماً ونثراً ، كان نثره رائقاً ينسج على منواله من صباه إلى كهولته ، مواظباً على التحصيل والمطالعة كان حيّاً سنة٥٣١هـ/١١٣٦م . (٥) وبرز الحسن ابن صافي بن نزار البغدادي النحوي ، بالنظم والنثر ، توفي ٥٦٨هـ/١١٧٢م (٦) .

أما علم البديع فهو يبحث عن مواد الأقاويل الشعرية ، وكيف تستعمل للتزيين والتحسين في سائر أحوالها ، ويمكن أن يستخدم لتكميل الأقاويل الشعرية نظماً أو نثراً في بلوغها غايتها ، وتأدية المطلوب منها في فن كتابة الرسائل . (٧)
وللأديب أسامة بن منقذ ، باع في هذا المجال فقد ذكر في كتابه العصا ما يلي :

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج١٢ ص١٩
(٢) الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ج١ ص٢٣٥
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٩٣٩
- الصفدي : الوافي بالوفيات ج٤ ص٣٩٠
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٨ ص١٠٠٥-١٠٠٧ ، تاريخ مدينة دمشق مجلد٢ قسم١ ص١٧٧
– الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصرج١ ص٣١٤
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص٥٢٧-٥٢٨
(٦) اليماني : إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين ص٩١
(٧) ابن الأكفاني : إرشاد القاصد ص١٢ و

قال المؤلف أطال الله بقاءه – أسامة بن منقذ – " حضرت بدمشق وقد وقع بين العميان وبين رجل كان يتولى وقفهم يعرف بابن البعلبكي ، خلف ، فلقوا فيه صاحب دمشق ، شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري ، رحمه الله ، عدة مرار ، فقال للأمير مجاهد الدين بزان بن مامين : تالله خلصني منهم واجمعهم واحضر نائبهم في الوقف وافصل حالهم ، فقال السمع والطاعة .

وقال لي مجاهد الدين : تفضل واحضر معنا ، فاجتمعنا في إيوان كبير في دار وحضر النائب ابن البعلبكي ونائب كان قبله ، يقال له ابن الفراش ، وحضر العميان في نحو من ثلاثمائة رجل ، فحملوا قدامهم ودخلوا الإيوان كل واحد وعصاه في يده ووضعها إلى جنبه ، ثم تحاوروا الحديث ، فكان بعضهم هواه مع النائب الأول ابن الفراش ، وبعضهم هواه مع ابن البعلبكي ، فتنازعوا وتخاصموا ساعة ، ولا يتدخل بينهم لعلو أصواتهم وكثرتهم ثم تواثبوا في الإيوان نحو من ثلاثمائة عصا في أيدي العميان ، لا يدرون من يضربون ، وعلا الضجيج والصياح حتى ندمت على حضوري ، فتلطفا حتى سكنت الفتنة بينهم ومشّيا أمرهم على ما أرادوا وما صدقنا أنهم ينصرفون " . (١)

ومن أشهر الكتّاب في فترة الحكم البوري ، حمزة بن أسد بن علي أبو يعلى القلانسي العميد الدمشقي الفاضل الأديب ، كان مترسلاً متميزاً في الكتابتين الإنشاء والديوان ، تولى الكتابة ورئاسة الديوان في دمشق مرتين ، يكتب له سماعه أبو العلاء المسلم . (٢) وتميز الحسن بن صافي ملك النحاة ، بكتابة الرسائل (٣) .

وهذا الحسن بن سعيد بن بندار أبو علي الشاتاني الدياربكري عمل بإنشاء الرسائل ، وقدم دمشق سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م توفي سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م ، كان بديع الفقرة طويل الفكرة . (٤) وتميز كذلك محمد بن عبد الكريم الشيباني ، سديد الدولة ابن الأنباري ، أحد الكتاب المتميزين ، لديه معرفة حسنة وله معرفة بالأدب ، وله

=====================================

(١) أسامة بن منقذ : كتاب العصا تحقيق عبد السلام هارون ط١ مطبوع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٠هـ/١٩٥١م ج١ ص١٩٨

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٣٨٨-٣٨٩

- ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٥ ص٣٣٢

- د٠ شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون ج٢ ص٢٣٧

(٣) ابن العديم : بغية الطلب ج٥ ص٢٣٩٠

(٤) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٤ ص٤٤٩

– الأصفهاني : خريدة القصر شعراء الشام ج١ ص٣٦١-٣٦٢

ترسل جيد ، أرسل إلى الشام وخراسان الرسائل مراراً توفي سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م (١) .

- علـــم الخطـــابــــة :

وإلى جانب علمي النثر والرسائل ، نشطت الخطابة . يقصد بالخطابة الانزجار عن المنهيات ، والتحول إلى المأمورات والمواعظ التي تقرع الأسماع بالوعد والوعيد لتليين القلوب القاسية ، والحث على الوعظ شيء أساسي ، خاصة لدى استتباعه بالنهي لمن لا يتعظ بالموعظة ، ولا مانع من التلطف والملاينة وعدم التعنيف ، وعلى المستمع للوعظ أن لا يأنف وأن يرغب النهي أولاً ، ثم الاتعاظ ثانياً إذا لم يراع السمع والبصر، لأن الوعظ لا ينجع في القلوب القاسية ، وقد قيل : من لا يتعظ بغيره ، وعظ الله به غيره . (٢) والخطابة فريضة من أعظم الفرائض ، يؤم الخطيب عبرها الجمع الغفير ، وله أن يلين قساة القلوب ويقرع مسامعهم بالوعد الوعيد . (٣)

والباعث على الاهتمام بها ، قوتها وقدرتها على التأثير في النفوس ، فقوة الخطابة الثائرة في الأوقات الحرجة ، تثير الحماس في النفوس الفاترة ، وبها يظهر الحق والعلو ، ويتضح الباطل فيزهق في سبيل الهداية . (٤)

والخطيب البارع هو الذي يعرف كيف يعدَ لكل مقام مقاله ، ويخفف الخطبة ويأتي بها بليغة مفهومة ، يجعل من الفاسقين أتقياء بررة ، فلا يزال يعرض الحق عرضاً جلياً بالحجة الواضحة والمنطق السليم ، يدفعهم دفعاً للاعتراف بمواقفهم الخاطئة والضلال الذي كانوا يغرقون فيه .

==

(١) ابن قاضي شهبة :مخطوط طبقات النحاة ص٧٣-٧٤
(٢) الأصبهاني : محاضرات الأدباء ج١ ص٦١
- القلقشندي : صبح الأعشى ج١١ ص٩٧
(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج١١ ص٢٢٥
(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج١١ ص٢٢٤

وكان لنبرات الخطابة الرنانة الأثر الكبير والمنقذ لكثير من الرؤوس التي كادت أن تطيح بها السيوف ، وبذلك حالت الخطابة بين قتل وإعدام الناس دون حساب ، ومساءلة ورد على هذه الجرائم ، فكانوا بمقام المحامين الذين يذودون بألسنتهم الفصيحة وألفاظهم المختارة عن حقوق الناس .

ففضل الخطابة يكون بمقدار ما تسمو وما تحمل من أهداف فلها المقام الأول ، وإذا رجعنا إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك إلى عهد صحبه وخلفائه ، فنرى أن مكانها كان على أعالي المنابر، ومجالاتها المناسبات الدينية والخطبة للجهاد في سبيل الله ، إضافة إلى خطبة التولية والعزل والمبايعة ، ولا ننسى مهمتها الأولى خطبة الوعظ والإرشاد . (١)

وكان يمارس الخطابة العالم الذي يتوجب عليه أن يكون ملما بعلوم الدين والشريعة والأدب ، حافظاً لكتاب الله تعالى والأحاديث النبوية الشريفة . (٢) وأن يتسم برباطة الجأش وسكون الجوارح وجهارة الصوت ، قليل اللفظ متميزه ، يحوز عبارات واضحة جليّة لا يصعب فهمها على العامة ، بعيدة عن الغموض والالتباس وعليه أن يمتلك الألفاظ الجليّة غير القلقة لتكون هي المطلوبة ، ولما كان للخطابة أهمية وفضل ومكانة وتأثير ، فقد كانت تقام الخطب المؤثرة بشكل دائم في أيام الجمع .

وإذا كانت الخطابة من أجلّ الوظائف ، ونيلها من أعلى الرتب ، فإن على الخطيب بموجب ذلك أن يكون كفؤاً بها ، تتشوق النفوس إلى مواعظه ، وتنشدّ إليه ، وتَقبله لا تملّه ، وترغب في المزيد وإن طالت ، فتكون مستحبة لطلاوتها وسلاستها . (٣)

==

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج١١ ص٩٨
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٧ ص٢٨٨
- ابن الجزري : غاية النهاية ج١ ص١٦٩
- ابن الأخوة :معالم القربة في أحكام الحسبة ، تصحيح روبن ليوي مطبعة دار الفنون بكمبرج ١٩٣٧ م ص١٧٩-١٨١- بدران : المرجع السابق ج٦ ص١٨٩
(٣) الأصبهاني : من محاضرات الأدباء ج١ ص٦٤ - السبكي : معيد النعم ومبيد النقم بيروت ط١ ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م ص٨٨-٨٩

وإذا كانت الخطبة غايتها الحثّ على الجهاد في سبيل الله تعالى ، والدعوة له ، فلا بدّ من الخطبة أن تشتمل على المواعظ التي تُرَغّب بمحاربة أعداء الله تعالى، والتركيز على حق الدولة على المسلم والمسلمة في إعلاء شعائر الإسلام ، والإسراع في إعلاء كلمة الله تعالى والموت في سبيله ، كما تشتمل الخطبة ، إلى جانب الوعظ ، الترغيب والإنذار والترهيب ، من عقاب الله تعالى للمتخلف والمتقاعس عن هذا الحق .

وهنالك خطب تُعدّ للتوجيه نحو طاعة الله تعالى ، وعدم الغفلة عنه ، أو الأخذ بمتاع الحياة الدنيا ، ونسيان يوم المعاد ، ويكون موضوع خطبة الموعظة ، الأحوال العامة التي تمر بها البلاد ، أو موضوعاً يمسّ ما يعانيه المسلم ، حين لا يعرف كيفية التعبير عن إيجاد الحلول للمشكلات الصعبة ، وعلى الخطيب أن تكون خطبته واضحة المقصد ، لمن يعي غامض الكلام أو لمن لا يعيه ، وأن يرفق الخطيب الخطبة بالاستدلال عبر الأقوال والأدلة التوضيحية الدامغة من القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، وحكايات الصالحين والعُبّاد .

هذه هي أركان الخطبة ، الترغيب والترهيب ، وإثبات صحة الأقوال بالأدلة والأمثلة الواضحة ، ليكون طريق التذكير واضحاً ، أمام السمع ، ليقبل على الاستماع بشغف وطيب نفس ، لا ينشغل عن ذلك بالتحدث مع الآخرين ، وكانت نهاية الخطبة تختتم بالدعاء للمسلمين ، (١) على أن تبدأ حتماً بحمد الله تعالى ، وذكر أخبار الصالحين ، ومن ثم ينتقلون إلى تزويد الناس بنصائح تبعدهم عن المنكر ، وإغضاب الله تعالى ، وترغبهم بالجنة دار القرار ، مع التذكير بأحوال يوم القيامة ، وقد تسيل الدموع عند ذكر العقاب ، وتذكيراً لمن لا تخشع عيناه ، ويسكن قلبه ، وإقرار العبودية لله تعالى وحده ، والعمل على تطبيق شريعته وسنة رسوله الأكرم عليه أزكى الصلاة وأتم التسليم .

وعلينا بالمقابل أن ننوه بملاحظة صغيرة ، حول مَن تَحَول من الخطباء في

==

(١) الأصبهاني : من محاضرات الأدباء ج١ ص٦٤
- القلقشندي : صبح الأعشى ج١١ ص٢٢٣ص ٢٢٤
- السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ص٨٨
- القنوجي : أبجد العلوم ج٢ ص٢٣١- ٢٣٣

خطبته عن غاية العظة والنصح والترغيب والترهيب ، إلى غاية نهب المال وتلفيق الأقاويل ، متخذاً طريق الزهد والخشوع كأسلوب في فن الخطابة لاستجرار عطف العامة ، مغطياً بذلك جهله في فن الخطابة وأصولها وغايتها . (١)

ويمكن أن يتم توريث منصب الخطابة للعالم الذي يعتقد أنه جدير به ، فقد كان عبد الرحمن بن عبد الله أبو القاسم بن أبي الحديد خطيب دمشق البليغ ، توفي وهو على منصب الخطابة سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م ، ولم يكن من يقوم بالمنصب سوى ولد ولده أبي الحسن الفضل ، وهو حديث السن ، فنصّب وصلى بالناس . (٢) وكان محمد بن علي بن المسلم السلمي ، قد تولى منصب الخطابة بعد وفاة أبيه بدمشق سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م . (٣)

لم يقتصر علم الخطابة على دمشق وحدها ، بل حملت بعض القرى أسماء علماء كبار، منهم أحمد بن الحسن أبو العباس الكفرطابي ، خطيب سقبا من ضياع الغوطة ، أقام خطيباً ستين عاماً ، وربط مهنته هذه بتحفيظ القرآن الكريم للناس ، توفي سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م . (٤) وهذا أبو الفرج الكرماني عبد الله بن حمزة بن سماوه الكرماني ثم الدمشقي خطيب دوما ، قد تميز في مجال الخطابة هناك توفي سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م (٥) .

وكذلك تحرك الخطباء من أرجاء العالم الإسلامي إلى الإمارة البورية ، فوصل خطباء من بغداد إلى دمشق ، وخطباء من صور أيضاً ، وتحرك بالمقابل خطباء الإمارة البورية إلى أرجاء العالم الإسلامي والمناطق الأخرى . (٦) فتحرك سلطان ابن يحيى بن عبد العزيز أبو المكارم إلى بصرى وخطب بها ، ثم تحرك إلى الرحبة وتوفي سنة ٥٢٠هـ/١١٢٥م . (٧)

==

(١) الجوبري : المختار في كشف الأسرار مخطوط رقم ٩٤٩٥ ص٣٣-٣٤
(٢) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٩١
- أبو شامة : المصدر نفسه ج١ ص٨٣
(٣) الإسنوي : طبقات الشافعية ج٢ ص٤٢١
- النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٨١
(٤) ابن العديم : بغية الطلب ج٢ ص٦١٩-٦٢٠
(٥) الإسنوي : طبقات الشافعية ج٢ ص٣٥٢
(٦) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٣٨٩
(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٧ ص٣٨٨

وتحرك خطباء دمشق إلى مصر منهم ، إسماعيل بن محمود أبو طاهر الدمشقي الأصل المصري الدار ، خطيب الجامع الضيّق بالمحلة الكبرى من ديار مصر ، وهو مقرىء متصدر عالم بالحديث والفقه . (١)

ووصل من بلاد الروم القاضي عبد المجيد بن إسماعيل بن محمد الهروي الحنفي ، كانت له رسائل وخطب توفي سنة ٥٢٧هـ/١١٤٢م ، (٢) كما وصل من بغداد أيضاً الدولعي ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن ياسين التغلبي الشافعي ، تفقه في بغداد ثم تولى خطابة دمشق وتدريس المدارس العصرونية في بلاد الشام ، والغزالية توفي سنة ٥٩٨هـ/١٢٠١م . (٣) وحلّ في دمشق أيضاً غيث بن علي الأرمنازي خطيب صور عاش فيها ، وتوفي ٥٠٩هـ /١١١٤م. (٤)

جمع فريق من العلماء بين منصب الخطابة ومنصب التدريس . فكان الحارث الخضر بن شبل (ت٥٦٢هـ/١١٦٧م) خطيب جامع دمشق ، ومدرّس الغزالية والمجاهدية، (٥) وقد تميز بالخطابة والتدريس بالمدرسة الأمينية أيضاً . (٦)

ومنهم من ربط علم الخطابة بتعلم علوم الدين وخاصة الفقه ، بالإضافة إلى التخصصات الأخرى في هذا المجال ، واتفق للعلماء المسلمين الشمولية في علوم الدين ، فهذا الفقيه عبد الكريم بن محمد أبو المظفر التميمي المرزوي السمعاني الحافظ الواعظ الخطيب ، كان قد زار دمشق ، وأخذ بها العلوم ، توفي سنة

---

(١) ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ج١ ص١٦٩

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٤٤٤-٤٤٥

(٣) مخطوط مجهول : طبقات الشافعية رقم ٥٥١٦ ميكروفيلم ٤٠٦٧ ص٣١ ظ

- مخطوط النووي : كتاب طبقات الفقهاء الشافعية رقم ١٢٢٨٤ ص٧٣ ظ

- صادق أحمد ، داود جودة : المدارس العصرونية في بلاد الشام ص٦٧

(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ٢ ص٩ – الذهبي : سير ج١٩ ص٣٨٩

(٥) ابن العديم : بغية الطلب ج٧ ص٣٣١٣

- أبو شامة : المصدر السابق ج١ ص١٧

(٦) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ قسم ٢ ص٢٣١

٥٦٢هـ/ ١١٦٧ م . (١) وكذلك تميز عبد الملك بن زيد الثعلبي الدولعي المتفقه في بغداد والخطيب في دمشق . (٢)

وممن مارسوا علم الخطابة ، النسيب الشيخ الإمام المحدث الشريف خطيب دمشق وشيخها ، توفي سنة ٥٠٨ هـ/ ١١١٤م . (٣) وتولى الخضر بن الحسين بن أبي عبد الله الأزدي الصقار، الخطابة بجامع دمشق ، وقد تميز بعلم المذهب يتكلم بالمسائل أيضاً ،كان حيا سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م (٤) ومنهم من جمع بين منصب الخطابة والقضاء ، فقد ولي إسماعيل بن إبراهيم الحسني منصب القضاء بدمشق ، وتوفي سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م . (٥)

وهكذا ارتقى الشعر في هذه الفترة ، وكانت مكانته قد تألقت مع الأدب ومثلا أصدق صورة عن واقع الدولة البورية ، وصراعها المتوازن والصريح مع الغزاة الفرنجة الصليبيين ، بما حملاه من تصوير للأحداث عبر أدباء بلغاء وشعراء متميزين ، كان لهم موقعهم ، ووزنهم في نشاط الحركة الأدبية أمثال ابن الخياط ، وأسامة بن منقذ ، وغيرهما بالإضافة إلى الخطباء اللامعين .

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٤٣٣
- ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ج١٥ ص١٨٠
(٢) ابن قاضي شهبة :طبقات : طبقات الشافعية ج١ ص٣٦٥
(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٣٥٨ ، العبر في خبر من غبر ج٤ ص١٧
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص٦٥٣
(٥) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٢٦٥

الفصـــــل الثـــالــــث

عـــلم التـــاريـــخ والجغـــرافيـــــة

١- علـــــم التـــــاريـــــخ :

تعني كلمة التاريخ في إصلاح المحدثين : تراجم الرجال وما يتصل بوفياتهم ، ونقد مروياتهم ، وما يعرض لها من علل ، ومن سمع منهم ومن سمعوا منه ، وكل ما يتصل بالرواة ومروياتهم . ترادفت كلمة التاريخ بتاريخ الرجال ومعرفة الرجال والعلل وصميم هذه التسميات من علوم الحديث وأحوال رجاله وسندهم وعللهم ، ثم غالبهم عليه المؤرخون ، فصارت مصادر تاريخ ابن عساكر من كتب الحديث والرجال .

ولأهمية هذا العلم فإن فحواه في اللغة الإعلام بالوقت ، ويقال أرّخت الكتاب أي بينت وقت كتابته ، وموضوع هذا العلم الإنسان والزمان . (١) وقد ارتبط التاريخ بالتسلسل الزمني ، وحياة الملوك ، ودراسة أحوال الأمم من الجوانب الاقتصادية والاجتماعية ، والأوضاع الثقافية والفكرية . والمشكلة المستحكمة أن دراسة التاريخ لا تستهدف تقديم دراسة مركزة عن أحوال المجتمع ، بل رسم صورة لشخصية ما أو لأشخاص يمكن أن نتلقف من محتوى السطور ما نصبو إليه من معلومات اجتماعية واقتصادية تمثل صورة صادقة عن ذلك العصر .

ما من شك أن المسلمين العرب دونّوا تاريخهم الإسلامي بعناية قلّ أن تجاريهم في ذلك المضمار أمة من الأمم ، فألفوا في تاريخ الملوك والخلفاء والأمراء ، وفي تاريخ الحروب والبلدان وتراجم الرجال والأماكن التي انتسبوا إليها وتحركاتهم ، كان مثال هذه الكتابات تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر ، وقدّم ابن القلانسي تاريخاً في حوادث المدن ، فاختّص مدينته دمشق بذلك التاريخ ، مع استطراد أشار فيه إلى أحداث موجزة عن مجريات عصره من المناطق المجاورة .

==

(١) السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، طبعة مصورة بيروت ١٩٧٩م ص٥-٦ - مقال أحمد محمد نور سيف : مصادر تاريخ ابن عساكر من كتب الحديث والرجال ، المجلس الأعلى للعلوم ص٤٧٧

يتعلق علم التاريخ بالإسناد لتمييز الصحيح من السقيم ، كالوقوف على اتصال الخبر، إذ هو شرط لمعرفة الصحيح من غيره ، وكذلك معرفة الناسخ والفاسد في روايتين مختلفتين لخبر واحد ، يصعب وجود نقاط جمع بينهما ، من حيث الصدق والسلامة . ولا يتأتّى ذلك إلا بالتعرف على تاريخ الاختلاط أو تاريخ الأشخاص لتجنب الرواية الفاسدة . أما من حيث المتن فتمثل الاطلاع على أخبار الأمم السابقة وتجاربها وإقبالها وإدبارها ثم انقراضها ، وأحوال ملوكها ووزرائها وقادة جيوشها ، مما يمثل للمادة التاريخية النفع الكثير والاطلاع الغزير . هذا غير الوقوف على مآثر الأمم وأعلامها من العلماء والفقهاء ، من المصنفين والحكماء والمحدثين وما تركوه من روايات الزهّاد والنّساك أهل الوعظ وذوي المروءات وأخبارهم . (١)

يشترط على من يعمل في التاريخ أن يتعلم علم الأنساب الذي هو فضل علم السلف على الخلف ، وأن يتصف بالعدالة والضبط التام مع الإتقان والتحري عن المعلومة بصدق وأمانة . وندر أن اختصّ العالم بعلم واحد دون أن يشارك في علوم أخرى تكون من أقرب المواقع إلى التاريخ . لأن علم التاريخ دخل في حيزه البحث عن تراجم المحدثين والفقهاء والكتّاب والأطباء ، والمتكلمين والبلغاء والنحويين والقضاة وحتى التجار .

ساعدت ظروف المنطقة مع ظهور الخطر الفرنجي الصليبي ، في تنامي فئة ممتازة من المؤرخين وكتّاب السير ، سجلوا أحداث المنطقة وترجموا سير الملوك والأمراء . وقد حاول بعض المؤرخين المهتمين ، التفريق بين علم التاريخ وعلم الطبقات ، ورأى فريق ثالث أن لا فرق في فهم العلمين ، لأنهما يرحبان إلى شيء واحد ، حيث يجمعان على التعريف بالرواة ، وإن كان التاريخ ينفرد بذكر الحوادث ، أما الطبقات فتنفرد بذكر من تأخرت وفاته من الرجال ، وإن التشابه قويّ ومتين بين العلمين (٢) .

يمكن أن نأخذ أمثلة على مؤرخين كانت لهم كتب في التاريخ العام أو تاريخ المدن ، ومثال ذلك ماأشير إلى المؤرخ غيث بن علي الأرمنازي (ت٥٠٩هـ/١١١٥م) في كتابه تاريخ دمشق ، ولا يعرف عن هذا الكتاب أي شيء إلا من خلال ما أشار إليه ابن عساكر بأنه أحد مصادره الرئيسية في التوثيق . (٣)

---

(١) ابن الصلاح : طبقات الفقهاء الشافعية ج١ ص٧-٨ - ابن رجب الحنبلي : فضل علم السلف على الخلف ص١٤ - السخاوي : الإعلان بالتوبيخ ص٦٣-٨٤-٨٥

(٢) السخاوي : الإعلان ص٤٦

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ج٢ ص٩

وصنف المؤرخ حمدان بن عبد الرحيم الأثاربي ، كتاباً في التاريخ بعد السنة الخمسمائة للهجرة . (١) ويعتبر ابن الأكفاني أبو محمد هبة الله (ت ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م) من أبرز المؤرخين الدماشقة ، الذين عملوا في علم الحديث ، وبه انتهى أحد تلامذته ابن عساكر . ومن مؤلفاته كتاب " جامع الوفيات " ويتضمن تراجم معاصريه . وقال السلفي فيه كان تاريخ الشام يُعرف به ، له كتابات كثيرة ، وسجل على دفاتر خاصة تراجم معاصريه ، وقد ذيّل ذلك على ذيل شيخه الكتاني جامع الوفيات ، وكذلك ذيّل على تاريخ داريا وتسمية من حدّث من أهلها ، فكان يروي ويسجل ما رواه عن دمشق ، وقد نقل عنه ابن عساكر ، وأورد رواياته في تاريخه الكبير ، يدل ذلك على عنايته الشديدة بعلم التاريخ .(٢)

وأبرز من صنف في التاريخ الإسلامي في فترة الحكم البوري ، الحافظ المؤرخ ابن عساكر ، أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي الدمشقي (ت ٥٧١هـ/١١٧٦م) وهو من أسرة معروفة بالعلم والفقه والحديث ، وهو صاحب كتاب تاريخ مدينة دمشق في ثمانين مجلدة ، يؤكد هذا على أن ابن عساكر المؤرخ ، كان واسع الرواية كثير العلم ، غزير الفضل ، حافظاً ثقة مجوّداً له الأمالي المنوعة الكثيرة والمآثر الغالية .

ومما لاشك فيه أن اهتمام ابن عساكر بالإسناد ، دفعه لاعتماد ذلك في تأريخه كتابه تاريخ مدينة دمشق ، فظهرت قيمة الإسناد لديه ، من بداية الكتاب وحتى نهايته ، في نقل المعلومات ونسبتها إلى مصادرها . (٣)

يكفي لمتصفح كتاب التاريخ ، أن يدرك مكانة الرجل العلمية في الحفظ ، فقد

==

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج١ ص٨٩ ـ الطباخ الحلبي : من أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ط١ ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م ج٤ ص٢٢٢-٢٢٣

(٢) ابن عساكر (الحافظ المؤرخ): تاريخ مدينة دمشق (خطط دمشق) ج٢ ص٩ ـ د. شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ط٢ بيروت ١٩٨٠م ج٢ ص٣٣٣

(٣) ابن طولون : ذخائر القصر بتراجم نبلاء العصر مخطوط رقم ٥ ميكرو فيلم مديرية الوثائق التاريخية بدمشق ص٩٨ظ ت مؤلف مجهول : نبذة في التاريخ تدعى دواعي الأمان في معرفة أعيان الزمان رقم ١٢٧٧٧ مكتبة الأسد ص١٠٥

ضم كتابه ستة عشر ألف صفحة ، صرف في تأليف مادتها وجمعها ثلاثون عاماً منذ سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م إلى سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م . وخرج الكتاب ليس تاريخاً لدمشق وحدها ، بل للشام قاطبة . (١) وقد خصص المجلدة الأولى والثانية لذكر فضائل دمشق وخططها ومساجدها وأقنيتها وكنائسها، ثم أتبع في الترجمة لكل من تميز من أبنائها ، وجاء كتابه بالعجائب ، فقال أحد العلماء : " ما أظن هذا الرجل إلا شرع في هذا التاريخ منذ يوم عقل ، وإلا فالعمر يقصر عن جمع مثله " . (٢)

تابع ابن عساكر مؤرخ دمشق ، نهجه كحافظ ومحدث في اعتماد السند مهما طال ، وقد تعددت رواياته مع حدوث أدنى اختلاف في الروايات السابقة في السند ، من كلمات ، أو عبارات ، مما أعطى الكتاب حجماً ضخماً . إلا أن ابن عساكر ميز نوعاً ما بين علم الحديث وعلم التاريخ ، مع جمعه لهما ، فعلم الحديث ، يعتمد على الحفظ أو الرواية الشفوية والسماع ؛ بينما يعتمد علم التاريخ على التدوين وتوثيق الحدث .

ويتضح هذا لدى ابن عساكر ، بما لمسه من أثر مادي في نقل شخصيات عصره من الواقع ، وقد لمسنا ذلك بما تركه من أدلة نتحسسها بأعيننا ونستوعبها بعقولنا ، حدثاً يدل على سعة علم ، وغزارة مادة ابن عساكر ، فكان كتابه عن مدينة دمشق موسوعة تشهد له أهميته ومكانته كمؤرخ بارز ، وصاحب التاريخ المنفرد عن دمشق في الإسلام .

فلا عجب بعد ذلك إن رأينا بعض المؤرخين يتحفظون على أي خبر أو رواية أو أثر غير موثوق منه ، وأُخضِعَ الراوي لميزان الوثوق أو عدمه ، وكذلك أخضع الحافظ ابن عساكر ومن سبقه أية رواية أو راوٍ للجرح والتعديل ، للتأكد من مدى صحة أو زيف الرواية ، والهدف من كل ذلك إخراج الصورة الصادقة والحقيقية عن الراوي والرواية معاً .

===

(١) الذهبي : العبر في خبر من غبر ج٤ ص٢١٢
- ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج١ ص٣٤٦
- د. شاكر مصطفى : مقال مدرسة الشام المجلس الأعلى للعلوم ص٣٥٦
(٢) اليماني : غربال الزمان ص٤٥٤ - القنوجي : تاج التراجم ص٨٥

منهج الحافظ ابن عساكر في التاريخ :

لم يكن الحافظ ابن عساكر أول من سلك التأليف في تاريخ المدن ، فقد سبقه في هذا المضمار مؤرخون كثر منهم ، الخطيب البغدادي صاحب " تاريخ بغداد " إلا أن كتاب ابن عساكر تميز بالشمولية والسعة الكبيرة . ولم يكن الكتاب من نوع الحوليات التي تعالج الأحداث سنة بعد أخرى ، ولا من نوع الأحداث التاريخية التي تؤرخ لأمة من الأمم ؛ بل هو كتاب تراجم شامل ، ضم بين جنباته تراجم من عاش في دمشق ، أو وفد إليها ، إلا أنه قصّر في ذكر تراجم بعض متصوفة دمشق ، وبعض من وصل إلى دمشق من مشايخ الإقراء من المغرب ، منهم عتيق بن محمد شيخ الإقراء بقلعة حماد من أرض المغرب . (١)

أفاد الحافظ ابن عساكر في كتابه التاريخ ، من كتاب تاريخ بغداد ، في المنهج والأسلوب ، وحتى في الاعتماد على المصادر البغدادية ، منها قوله : " اخبرنا أبو منصور بن رزيق وأبو الحسن بن سعيد ٠٠٠ أخبرنا أبو بكر الخطيب " (٢) والمقصود طبعاً بالخطيب هو الخطيب البغدادي ، صاحب تاريخ بغداد . واعتمد ابن عساكر في تاريخه أيضاً على أخبار أبي الحسن بن سعيد ، وأبي محمد الأكفاني ، وكذلك على القراءة بخط أبي الفرج غيث بن علي . (٣)

واعتمد ابن عساكر في تأريخه وفي توثيقه على المصادر الموقوفة على السند ومن ذلك قوله : " قرأت على فلان " ، " أنبأنا فلان " ، " أخبرني فلان " ، حدثني فلان " ، " قالوا ٠٠٠" ، " قال : ٠٠٠" (٤) والمعروف أن حدثنا أو حدثني يقصد بها السماع المباشر وجهاً لوجه بين الطالب والعالم ، أما أنبأنا أو نبأنا ، فيقصد بها السماع غير المباشر عن طريق الشيخ لرواية سمعها هذا الشيخ عن أستاذه ، ثم نقلها إلى الطلبة بالصورة المذكورة .

يتميز ابن عساكر بالدقة في النقل عن بعض مصادره السندية ، حيث يتوثق

==

(١) الذهبي : معرفة القرّاء الكبار ج١ ص٤٥٤
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص١٩-٤٢٧
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم) ص٢٠ - ٤٢٦-٣٩٣
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق تحقيق الطرابيشي مجلد ٣٤ ص١١-١٥

ويدقق في أحوال الرواة إن شعر بخلل ما في الروايات ، فيضع احتمالاً حول راوٍ ما ويقول : " يحتمل أن يكون سراقة هذا هو الراوي عن أبي عبيدة ، لأن الرواة عنه بصريون . " (١) ويتابع طريق الإخبار عن فلان إذناً ومناولة ، أو يقول قرأ علي إسناده . (٢) كما يعتمد الإخبار العالي في كتابه التاريخ عن أبي علي الحداد . (٣)

اعتمد ابن عساكر في تاريخه على الرواية الشفهية ، والمصادر المكتوبة أو الخطية ، أما المصدر الشفوي ، فيستشهد فيه بقوله : " أخبرنا أبو الحسن القاضي إذناً وأبو عبد الله الخلال شفاهاً " (٤) . وإذا نقل عن مصدر فإنه يقول : " قرأت على ظهر مخطوطة كتاب كذا بخط مجهول " ، أو قرأت بخط أبي الحسن رشأ بن نظيف ، (٥) وعندما لا يستطيع أن يقابل مصدره بمصدر آخر ، فإنه يشير إلى ذلك أيضاً ويقول : " وجدت ذكره في كتاب شيخنا الفلاني ، ولم أجد له ذكراً إلا من جهته " . وما اتّباعه لهذا المنهج إلا لكونه نابع عن علم رواية ودراية الحديث ، الذي أحاط به ابن عساكر منذ صغره ، منذ بدأ بحثه في علم الحديث سنداً ومتناً مهما طال أو قصر . (٦)

أما المصدر الخطي لديه ، فقد اعتمد فيه على ثلاثة نقول : إما أن يرتب مصادره من الرواة على أساس أقدميتهم في العلم ، أو على أساس أقدميتهم في الثقة ، والذي يتبين من دراستنا لكتابه ، اعتماده غالباً على الشيوخ في القدم فنراه يقول : " أخبرنا محمد بن الأكفاني ، حدثنا أبو بكر الخطيب ، أنبأنا أبو الحسن بن أحمد وحدثنا ، وأخبرنا أبو القاسم السمرقندي " ويتابع السلسلة ويقول :" أنبأنا ابن أبي الدنيا حدثنا محمد بن سعد في كتاب الطبقات " (٧) وحدثنا هنا تأتي بمعنى السرد في الرواية التاريخية والمتتابعة ، ولا يمكن أن يلتقيا لو افترضنا ذلك بسبب بُعد الشقة الزمنية بينهما .

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ٣٤ ص١٥
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ٣٤ ص١٥-٣٠
(٣) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق تحقيق سكينة الشهابي مجلد ٤٠ ص٢٠٣
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق تحقيق سكينة الشهابي (عثمان بن عفان) ص٨
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ٤٠ ص٢٩٣
(٦) نيانكي : مقال ابن عساكر مؤرخاً علمياً ، المجلس الأعلى للعلوم ص٥٥٩-٥٦٠
(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (عثمان بن عفان) ص٦

إن إشارات ابن عساكر إلى المصادر المكتوبة ، وذكر أصحابها ، ليدل على أنه قادر على التمييز بمجرد النظر إلى المادة المطلوبة ، ويمكن أن يتبين من مصادره كتب الحديث وكتب التراجم ، وكتب التواريخ وكتب اللغة والشعر . (١)

وتعود أهمية مصادره إلى الأمانة العلمية لاعتماده على كتب مفقود كثير منها ، ومما ذكره : " قرأت بخط شيخنا أبي الفتح غيث بن علي الصوري ، مما ذُكر أنه نقله من كتاب كذا ٠٠٠ ويتابع في كتاب عتيق ، (٢) أظنه من جمع الصولي " ويتكلم صراحة أنه قرأ بخط فلان ، قرأت بخط أبي محمد عبد الرحمن بن أحمد بن علي ، فيما ذكر أنه وجد بخط أبي الحسن محمد بن عبد الله الرازي "

وكتب إليَ نصر عبد الرحيم القشيري ، أنا أبو بكر محمد بن علي بن الحسين البيهقي ، أنّا الحاكم أبو عبد الله الحافظ قال : أنباني أبو العباس محمد بن يعقوب ، وكتبه من خطه فيما أجازه له محمد بن عبد الوهاب . (٣)

وتابع قرأت بخط شيخنا أبي الفتوح غيث بن علي الصوري المعروف بابن الأرمنازي ، ثم يتابع ونقلت من كتاب فيه يقول : " قال الرازي ، قال ابن خرداذبه في كتاب التاريخ " ، " وذكر الواقدي في كتاب الصوائف إن فلاناً " وأخبرنا أبو محمد بن الأكفاني ٠٠٠ وأخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي . وقال : قرأت على أبي القاسم السخامي بن الحصين إملاء وقراءة ، وأنبانا أبو القاسم علي بن إبراهيم النسيب السميساطي " . (٤)

واعتمد ابن عساكر في تدوينه للتاريخ على سؤال بعض الرجال المعمرين للأحداث

==

(١) نور سيف : مقال مصادر تاريخ ابن عساكر من كتب الحديث والرجال ، المجلس الأعلى للعلوم ص٤٨٠

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق تحقيق المنجد مجلد ١ ص١٣-١٥
- ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص١٨٧

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ١ ص٨٩-٢٨٩ -
ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM : ART IBN ASAKIR . P.3 . P.714

(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ١ ص١-٣-١١ ، مجلد ٧ ص١٣-١١٤ ص٢١٥مجلد ٤٠ ص٢٩٢ -٢٩٣

التي لم يشهدها هو شخصياً ، ويريد توثيق تلك المعلومات من مصادرها الموثوقة(١) ولم يقتصر ابن عساكر في سنده على الرجال ، فقد أعطى للمرأة دورها في السند . وقد قال : قرأت بخط أبي الحسن الحنائي ، سمعت سيدة بنت عبد الله تقول ، سمعت فلاناً ٠٠٠ . (٢)

وسمع الحافظ ابن عساكر من أقدم شيخة له تدعى فاطمة بنت عبد القادر بن أحمد ابن الحسين السمان الواعظة (ت ٥٢٠هـ/١١٢٥م) في بغداد ، وفاطمة بنت الحسين ابن فضلويه الرازي ، وتابع يذكر روايات النساء ومنهن آمنة بنت محمد بن أحمد أم اليمن العجلية ، روى عنها ابنها علي بن محمد و عبد العزيز الكتاني . (٣)

تميز كتاب التاريخ لدى ابن عساكر ، بعرض مفصل لدمشق وتضمن وصفها ، وتخطيطها ، ومناقبها ، ومرافقها المختلفة ، وتوسع في ترجمة الأشخاص ، وعدم الاقتصار على المحدثين فقط ، بل شمل كذلك الفقهاء ، والأدباء ، والقرّاء ، والوزراء ، والأشراف ، وأبرز النساء المشهورات . (٤)

اعتمد ابن عساكر في نقوله على ما لديه من مصادر رئيسية تعتمد على السماع من الشيوخ ، والمكاتبة معهم ، وعلى مؤلفات وكتب العلماء ، واعتمد في كتابه على التراجم الدقيقة التنظيم المرتبة وفق حروف المعجم . وعرّف بالمترجم لهم ، وذكر " مالهم من ثناء أو مدح أو إثبات أو تعريف ، وما عرف من مواليدهم ووفياتهم ، ومما قاله : وبدأت بذكر من اسمه منهم أحمد ٠٠٠ ثم ذكرتهم " بعد ذلك على ترتيب الحروف ، مع اعتبار الحرف الثاني والثالث تسهيلاً للوقوف " . (٥)

==

(١) نيانكي : مقال ابن عساكر مؤرخاً علمياً ، المجلس الأعلى للعلوم ص٥٦٠
(٢) ابن عساكر : تاريخمدينة دمشق (تراجم) ص١٩٦ ، مجلد ٣٤ ص٩
(٣) ابن عساكر : مقال معروف ، ابن عساكر في بغداد أخذ وعطاء ص٥٣
- ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم) ص٤٨
(٤) نورسيف : مقال مصادر تاريخ ابن عساكر ، المجلس الأعلى للعلوم ص٤٨٠
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ١ ص٤

يتضح أثر الحديث لديه في صياغة الترجمة ، ونوعية المادة ، التي يسردها من اسم ونسب ومولد ، ونشأة ووفاة ، وشيوخ وتلامذة تلح عليهم الترجمة . (١) ولم يتبع ابن عساكر منهجاً خاصاً في إيراد الترجمة ، فلا الوفاة ولا الدراسة ولا المؤلفات كان لها مكانها الخاص في حياة ذوي الترجمة .

اعتمد معظم كتاب ابن عساكر على الجمع الواسع المعتمد على السماع والمكاتبة منذ أيام الدراسة الأولى ، وسعى لتدارس تاريخ دمشق ليضاهي به تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وشرع في عمله ، ثم توقف ، ثم أتمه بناء على رغبة السلطان نور الدين محمود بن زنكي . لم يكن ما أقدم عليه الحافظ المؤرخ ابن عساكر في تأليفه لكتابه التاريخ يعتبر عملاً جزافاً ، أو أنه أراد أن يوقعنا في حيرة من أمرنا ، إنما حرص على أن ينسب كل رواية إلى أصحابها ، وبذلك حفظ لنا الروايات التي نقلها من مصادر تعتبر في عداد المفقودة ، أو أنه حصل عليها شفاهاً من أفواه أشخاص ماتوا ولم يعملوا على تسجيلها . وأنهى كتابه التاريخ بمجلدة ضمت من عرف بكنيته فقط ، ثم ذكر النساء ، فأعطى هذا المنهج للكتاب تاريخاً عظيماً . (٢)

وقد أورد ذلك في كتابه موضحاً لنا أنه لم يرتب كتابه على طريقة أزمان المترجمين ، ولا على كثرة أعدادهم ، ولا على قدر علومهم في الدرجات والرتب ، ولا على شرفهم في الأفعال والنسب ، بل أورد في كتابه تراجم من عرف كنيته .

" ولم أقف على حقيقة تسميته ، ثم بمن ذكر بنسبته ٠٠٠ وأتبعتهم بذكر النسوة المذكورات ، والإماء والشواعر المشهورات ، وقدمت قبل جميع ذلك جملة من الأخبار في شرف الشام وفضله ٠٠٠ وبوبت ذلك تبويباً ، ورتبته في مواضعه ترتيباً ، وذلك مبلغ علمي وغاية جهدي ، على ما وقع لي أو ثبت عندي ٠٠٠ وما أصبت في ذكره أكثر مما أغفلت ، وليس يخلو من فائدة من الفوائد المستعادة ٠٠٠ لما جمعه من الأخبار الجامعة ، وانطوى عليه من الآثار اللامعة ، وحواه من الأذكار النافعة ، وتضمنه من الأشعار الرائعة ٠٠٠ " (٣)

==========

(١) معروف : مقال ابن عساكر أخذ وعطاء ص٢٤١-٢٤٢
(٢) د. شاكر مصطفى : مقال مدرسة الشام ، المجلس الأعلى للعلوم ص٣٥٧-٣٥٨
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ١ ص٤

واستكمل منهجه في الترجمة ، اعتماد منهج حروف المعجم ، واتبع في ترجمة العَلَم ما يلي :

أولاً : يتصدر الترجمة خبر الرجل المترجم له ، ومعالم شخصيته ، من اسمه ولقبه وكنيته ، وبلده ، والمجال العلمي الذي يبحث فيه . وأسماء من أخذ عنهم علومه والذين رووا عنه .

ثانياً : ذكر الحديث والأحاديث التي رواها المترجم ، أو رويت عنه ، والطريق التي وصل بها الحديث إلى ابن عساكر ، والمقارنة بينها وبين طرق أخرى ، والاختلاف فيما بينها في وصول السند ، وإذا وجد خلاف في المتن أثبته ، وإذا اجتمعت الأسانيد على نص حديث واحد ، فإنه يكتفي بعد ذكر السند بقوله : " فذكر الحديث "

ثالثاً : التحدث عن أخبار الرجل وسيرة حياته ، ولادته ووفاته ، وبلده وطبقته ، والحوادث التي شارك فيها ، أو كانت من صنعه . ولا شك في أن ميزة ابن عساكر تبرز في إحاطة جمع المادة وأخبار من يترجم لهم ناقلاً السرد خبراً بخبر ، ورواية إثر أخرى ، وغلب على هذا الجمع الترجمة الوجيزة مع الإحاطة بكل مناحيها . (١)

وهكذا لم يقتصر عمل ابن عساكر على نقل أحداثه التاريخية سجالاً بل اعتمد أسلوب المحاككة ، وانتقد ما لا يوافق الحقيقة رغم سرده للروايات المتعددة حول الموضوع أو الفكرة فنراه يقول مثلاً : " عبد الله بن سعد ... قتل بإفريقية " ، " هذا وهم " ولا يقتصر على رفض الروايات غير الصحيحة ، بل يوجه انتباهنا إلى الأخطاء الوافدة ، وقد لا يعمد إلى مناقشة رواياته ، بل يترك للقارىء حرية الاختيار بين الروايات .

كان كتابه تاريخ دمشق في أخبار المدينة وأهلها ، وقد ألفه في خمسمائة وسبعين جزءاً ، قيل بل ثمانمائة جزء . وذكرت بعض المصادر أن المعجم يتألف من ثمانين مجلداً أو كتاباً ، وكل عشرة أجزاء في عشرين ورقة ، حفظت كلها في مخطوطة أو مسودة في ثمان عشرة مجلدة في المكتبة الظاهرية وذكر ولده القاسم مجموعة من

---

(١) مقال شكري : محاولة ابن عساكر للكشف عن وجدانه وتبيين منهجه العلمي المجلس الأعلى للعلوم ص٥٢٧-٥٢٨-٥٣١ - فائق بكري الصواف : مقال ابن عساكر مؤرخاً ، المجلس الأعلى للعلوم ص٥٤٩

ثمانمائة كرّاسه مقسمة في ثمانين كتاباً . (١)

وقد مر هذا المعجم في ثلاث مراحل ، بدأت منذ عام ٥٢٩هـ/١١٣٤م ، اشتملت في سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م ، على سبعة وخمسين كتاباً في الكراريس . وقد شجع نور الدين ابن عساكر على متابعة كتابه . بدأ عمله بتفصيل كبير ووصف تاريخي لمدينة دمشق ، ثم شمل القسم الرئيسي من الكتاب تراجم أو سير الأشخاص ، وبعد أن أثنى على النبي صلى الله عليه وسلم ، سرد وبشكل منظم ومبوب وموجز كل الأشخاص البارزين الذين قطنوا دمشق ، وقدم تفاصيل مهمة عن الشخصيات المشهورة القادمة من حلب وصيدا والمناطق الأخرى . (٢)

ذكر ابن عساكر أنه لم يشتغل منذ أربعين سنة إلا بالجمع والتصنيف والمطالعة ، والتسميع ولم يشتغل بغير العلم والعبادة . (٣) بدأ العمل بالكتاب ولما يبلغ الثلاثين من العمر ، ثم استتبع معه ما يزيد على ثلاثين سنة أخرى .

بحث في كتابه تاريخ مدينة دمشق الحوادث التي عاصرها وقدم آراء في المذاهب الدينية آنذاك وكذلك بحث في مشكلات اجتماعية ، وتطرق لمفاسد أهل عصره من تعاطيهم المسكرات والرشاوى ، وسعى قصار جهده أن يحصر كتابه في بوتقة الصبغة الدينية . وذاعت شهرة هذا العالم في جميع الآفاق ، ولم يكن له نظير في زمانه من ذوي الأقدار والهيئات والرياسة العالية ، ولا يعلم أحد من جدوده اسمه عساكر ، وإنما اشتهر بذلك وأعجب به العراقيون لما دخل بغداد ، وقالوا ما رأينا مثله وكذلك قال مشايخه في خراسان ، سمع من الكثيرين ، وكان عدد شيوخه نحو ألف وثلاثمائة شيخ وثمانين امرأة ، اشتهر عنه غزارة العلم والفضل .

==

(١) الأيوبي : مخطوطة التذكرة ج١ ص١٨٩ - ابن طولون : مخطوطة تراجم القصر وذخائر العصر ص٩٨ ظ
- ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج١٠ ص٢١١
- ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM : ART IBN ASAKIR P. 3 P. 713

(٢) ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM : ART IBN ASAKIR P3 P.714

(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج١٣ ص٨٣-٨٥

كان ابن عساكر من ذوي الثقة ، متقناً ديّناً ، حسن السمت ، متثبتاً ، جمع بين معرفة المتون والأسانيد ، (١) حافظاً ذكياً بصيراً ، له إجازات عالية، صنف الكثير من الكتب ، حتى في قرى دمشق ، " من المزة في الربوة والنيرب " في كفرسوسة وجسرين وكفربطنا وحرستا ، وله أحاديث في بعلبك . وصنف في المدن أيضاً ، في القدس والمدينة . وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من الحفّاظ ، نسخاً واستنساخاً ، ومقابلة وتصحيح ألفاظ ، لا يَملّ من الجمع والتصنيف والمطالعة ، حتى في نزهه وخلواته ، وقد قال فيه ابن خلكان : " كان محظوظاً في التأليف " . (٢)

لم يقتصر الاهتمام في التاريخ الشامي في هذه الفترة على نوع من أنواع الدراسة التاريخية ، إذ نرى البعض قد اتجه للتركيز على التراجم ومعاجم الشيوخ والحفاظ ، نرى البعض الآخر يتجه لذكر التاريخ العام ، وتواريخ المدن وغيرها . ولم يعتمد العديد من المؤرخين على كتابة التاريخ العام في آلاف من الأوراق ، وبأجزاء متعددة ، بل شمل مسعاهم الكتابة في تواريخ المدن على نفس السياق من الصفحات والمجلدات الضخمة ، التي سار على هديها الحافظ ابن عساكر .

وتحول فريق آخر من المؤرخين في نهجهم إلى وضع تواريخ للمدن في كتاب موجز ، كما فعل المؤرخان ، العظيمي الحلبي ، وابن القلانسي الدمشقي . أما العظيمي الحلبي ، أبو عبد الله محمد بن الرئيس التنوخي (ت ٥٥٨هـ/١١٦٣م) فهو من أسرة شاركت في الأحداث السياسية بمدينة حلب ، في الفترة السلجوقية، وألف كتاباً في التاريخ ، واجتمع بمؤرخ دمشق الحافظ ابن عساكر ، وكذلك استفاد من الحافظ السمعاني .

أما كتابه فهو تاريخ حلب أو تاريخ العظيمي ، وهو تاريخ عام مختصر ، يسير فيه على الأساس الحولي الموجز ، بإشارات سريعة عابرة ، تغمض أحياناً ، إلا أنه ضم مجموعة من الأخبار التي لا نجدها عند غيره ، مثل موقف الدولة البورية من البدو . ويعتبر العظيمي ، مع ابن القلانسي ، من المؤرخين المعروفين بالأثرة

==========

(١) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص٢١٥-٢١٧
- ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢ ص٢١٤
- ابن العمادالحنبلي : شذرات الذهب ج٤ ص٢٣٩

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج١٢ ص٨٥

والشهرة ، إلا أن أسماء هما لا تحمل القفزة الكبيرة التي حمل لواءها ابن عساكر ، على رأس مدرسة الشام الرئيسية .(١)

أما ابن القلانسي المؤرخ ، فهو أبو يعلى حمزة التميمي (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م) من أسرة دمشقية موسرة ، مؤرخ دمشقي جمع بين كتابة الإنشاء والتاريخ والحساب(٢). حيث دوّن كتابه في تاريخ المدن ، وتحدث عن رجال الدولة البورية بصورة خاصة ، كونه من معاصري هذه الدولة ، وهذه ميزة تعطي الكتاب أهمية ، مع أن الكتاب شمل أحداثاً سابقة لعصره ، واستمر في التأريخ به حتى وفاته ، فشمل تاريخ الوزراء ، والعلماء ، وعمال الدواوين . وقد سهّل المهمة في التأريخ على ابن القلانسي ،

وعلى الرغم من أن الكتاب حمل تاريخ دمشق إلا أنه تحول من عام ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م ليكون تاريخاً للعالم الإسلامي بأكمله ، مع التركيز على أبرز الأحداث في دمشق ، فأعطاه هذا أهمية لدى كافة المؤرخين من بعده ، مع عدم نسيان نقطة انطلاقه من دمشق وتاريخها . (٣)

ويمكن أن نأخذ صورة عن ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ، وقد اعتمد المؤرخ في كتابه على مصدرين أساسيين ، الأول : المصادر التاريخية المعروفة بالنسبة إليه ، والثاني : المصادر التاريخية لمؤلفين مجهولين عن المؤلف . حمل كتاب ابن القلانسي في طياته ، أخبار السنين في سطور قد تضيق فيها ، وربما اختُصت كل سنة بسطرين ، وقد يعمل على متابعة التفاصيل في بعض السنين حتى تغالبه المصادر ، فيسوق كلامه سوقاً على أساس الموضوع ، وولايات الأمراء واحداً بعد الآخر ، إلى أن ينتهي سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م حيث ينتظم كتابه على الأساس الحولي والسنوات ، معتمداً على محفوظات الديوان بدمشق ، التي كان لها تماس مباشر مع

==

(١) د. شاكر مصطفى : مقال مدرسة الشام ص٣٥٤-٣٥٥
(٢) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب تحقيق مصطفى جواد مطبعة الهاشمية بدمشق قسم ٢ ج٤ ص٩١٢-٩١٣
(٣) د. شاكر مصطفى : التاريخ ج١ ص٢٧٥-٢٧٦ - مقال مدرسة الشام ص٣٥٤- ص ٣٥٥

المؤرخ ، نقل الكثير منها إلى كتابه ، هذا غير ما حواه الكتاب من القصائد الشعرية في المديح . (١)

تحدث المؤرخ في كتابه عن أواخر الدولة الفاطمية وما خلفته من ضعف السياسة العامة واهتزازها واضطرابها ، ورغم هذه الصفات فقد بلغ مؤرخنا به الذكاء حد الكتمان في بعض الأحوال وهو مدرك أن الدول في عصره متقلبة ومتحولة من فاطمية إلى سلجوقية إلى بورية إلى نورية . (٢) وهو لا يعرف لمن ستتم الغلبة الأخيرة ، فكان يتوخى الحذر لعدم إثارة النقمة عليه واتقاء لبطش حكام الدول ، ولكن هذا لم يمنع من رميات محددة كان يطلقها فتصيب سهامها ، فقد أشار إلى اضطراب الأعمال والمسالك وانطلاق أيدي المفسدين والتركمان والحرامية ، في فترة الحكم البوري . وما أن استقرت الأوضاع مع السلطان نور الدين حتى أنشد مادحاً :

فإياك لا تغبط مليكـــاً بملكـــه ودعه فإن الدهر لا شك قاصمه
فكم ملك قد شاد قصراً مزخرفاً وفارق ما قد شاده وهو عادمــه

ويدل هذا الشعر على حذر ابن القلانسي في تعامله مع حكام فترته ، إلا أن الكتاب كان ذخيرة بقصائد المديح المتعددة . (٣)

مثل كتاب ابن القلانسي نموذج الأدب التاريخي المتميز بالعبارة الموجزة ، والأحداث المجملة ، مع مداراة لبعض الأمور التي قد تحرج أمير البلاد مثال ذلك عقد الحكام البوريين الهدنة مع الفرنجة الصليبيين ، ودفع الأتاوات لهم ومنها أيضا قتل أمير لأمير آخر ، عرض نفسه للجهاد والمقصود به الأمير مود ود (شرف الدين) الذي تخلص منه طغتكين الأمير البوري سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م خوفاً منه . (٤) فكانت كتابته عن الدولة البورية تمثل المداراة أحياناً من ذوي السلطان اتقاء بطشهم

==========

(١) د٠ شاكر مصطفى : التاريخ ج٢ ص٢٣٧- ٢٣٨ ، مقال مدرسة الشام ص٣٥٣-٣٥٤
(٢) كردعلي : كنوز الأجداد ص٢٨٣
(٣) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٤٧-٤٤٨
- د٠ شاكر مصطفى : مقال مدرسة الشام ص٣٥٤
(٤) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٢٩٨-٢٩٩-٣١٧-٣٣٩-٤٨٦-٥٠٢
- د٠ شاكر مصطفى : مقال مدرسة الشام ص٣٥٤

لذلك لا نستغرب عندما اتخذ موقفاً حيادياً من استنجاد الأمير أبق بالفرنجة سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م ، وصد خطر نور الدين ، فذكر توالي الأخبار بوصول الفرنجة لإنجاد دمشق وأهلها ، ثم تابع نفس الطريقة مع حدوث الغلاء في دمشق سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م ، وتضرر السكان من حصار نور الدين وخطره على دمشق على حد زعمه ، وما يثير الدهشة لدينا تغيير موقفه وتحوله من المداراة والحيادية إلى الكشف الصريح لا يأبه من أحد إلا الله تعالى ، حين وصف شمس الملوك وتحدث عن أفعاله القبيحة ومبالغته في الظلم . (١)

كانت معلومات المؤرخ ابن القلانسي شحيحة بين سنتي ٤٤٨-٤٥٨هـ/١٠٥٦-١٠٩٢م ، ثم توضحت أمامه مع نضوج الذهن ، عندما وقعت بيده مادة تاريخية حصل عليها من الديوان الذي عمل فيه ، فكان عوناً له في جعل الكتاب يأخذ حيز التوازن مع كثرة المعلومات واستمر على ذلك طيلة حياته وحتى وفاته .

وقد اعتمد طريقة التسجيل سنة بعد أخرى مراعياً ترك تدوين الكتاب سنة ٤٣٥-٤٣٨هـ/١٠٤٣-١٠٤٦م ، ثم فكر في خاتمة الكتاب مرة أخرى سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م لكنه عاود التسجيل بأسلوب أدبي تاريخي ، وبعبارة واضحة موجزة ، ساعده على ذلك إلمامه بالأدب والشعر إلى جانب التاريخ ، فخرج تصنيفه في نهاية الأمر تاريخاً للحوادث ، بدأ من سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م وحتى وفاته . (٢) وقال : " وقد انتهيت في شرح ما شرحته من هذا التاريخ ورتبته وتحفظت من الخطأ والخطل والزلل فيما علقته من أفواه الثقات ونقلته ، وأكدت الحال فيه ، بالاستقصاء والبحث إلى أن صححته إلى هذه السنة وهي سنة أربعين وخمسمائة ، وكنت قد منيت منذ سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ، وإلى هذه الغاية بما شغل الخاطر عن الاستقصاء عما يجب إثباته في هذا الكتاب من الحوادث المتجددة في الأعمال والبحث عن الصحيح منها في جميع الأحوال " . وكان قد سعى جهده إهمال أحوال سلاطين الزمان ، مما تقدم ذكره بألقابهم ونعوتهم . (٣)

==

(١) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٣٨٣
(٢) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٤١-٤٤٢
- د. شاكر مصطفى : التاريخ ج٢ ص٢٣٨
(٣) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٤١-٤٤٢

عرفنا المؤرخ ابن القلانسي على طريقة كتابته وقال : " فتركت بين سنتين من السنين بياضاً في الأوراق ليثبت فيه ما يعرف صحته من الأخبار وتعلم حقيقته من الحوادث والآثار " . (١) وتميز تاريخه بأنه تاريخ للعالم الإسلامي بادئاً به من دمشق مع الإلمام بأحداثه الهامة إضافة إلى تعريفه بالأوضاع السياسية والعلمية للعالم الإسلامي ، والإشارة للعلماء الوافدين إلى دمشق من حلب وبغداد والأندلس ، إضافة إلى ذكر علماء الإمارة ، وأشهر علومهم ومدارسهم وكتبهم المصنفة . (٢)

وتحدث ابن القلانسي بنفسه عن كتابه شارحاً محاولته التحفظ عن الخطأ والزلل والتأكيد على الاستقصاء والبحث ، ومن يتعمق النظر في كتابه ، يتأكد أنّ مؤرخنا اتبع طريقة المذكرات في جمع مادته ، يحمله على ذلك اختصاره الشديد في المعلومات مقارنة بمعاصرين له في نفس الفترة .

ومن جملة المؤرخين الكبار الذين برزوا في هذه الفترة الشاعر والأديب السياسي أسامة بن منقذ ، الذي تميز بثقافة موسوعية ، وخبرات طويلة ، صَور لنا فيما كتبه عن عصره أصدق تصوير ، ولم يكن قصده وضع مؤلف في التاريخ إلا أن معظم مؤلفاته رسمت أوضح صورة للحياة والأحداث في أيامه ممثلة بالدقة والملاحظة في كتاب الاعتبار وقد مثل الكتاب اللهو والحرب في عصره والفروسية الإسلامية والفروسية الفرنجية ، إضافة إلى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية لدى الطرفين ، ويفسر الكتاب أيضاً بحثا في السير الذاتية النادرة في الأدب التاريخي الإسلامي ، فضم الكتاب قسماً للحروب وقسماً للنكت والنوادر وقسماً لأخبار الصيد ، أما ما تبقى له من كتب تاريخية فقد ضاعت منها كتاب " تاريخ آل منقذ " ، " تعليقات تاريخية عن عصره " ، " كتاب البلدان أو أخبار البلدان " . ذكره الذهبي " سير النساء " ، " التاريخ البدري " جمع فيه أسماء شهداء بدر . " كتاب شعراء الشام " وقد كتبه في التراجم . (٣)

ومن الذين عملوا في التاريخ وأخذوا منه منحى التاريخ الأدبي العماد الأصفهاني وهو أبو عبد الله محمد بن صفي الدين (ت٥٩٧هـ/١٢٠١م) تميز بالتاريخ

==

(١) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٤١-٤٤٢-٤٩٨
- د٠ شاكر مصطفى : التاريخ ج٢ ص٢٣٨
(٢) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٢٤-٤٢٩-٤٣٠
(٣) د٠ شاكر مصطفى : مقال مدرسة الشام ص٣٦٠

الأدبي ، أحد أركان الكتابة العربية البارزين، نشأ من بيت رئاسة وعلم وكتابة ، وأبرز مؤلفاته " تاريخ الدولة السلجوقية ووزرائها " و " كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي " أرّخ فيه العماد لفتوحات السلطان صلاح الدين من حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م وحتى سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م ، وله : " البرق الشامي " وهو أشبه بمذكرات شخصية من كتاب عرف به المؤرخ بنفسه وحياته ، وانتقاله من العراق إلى الشام ، ثم أخباره مع نور الدين وصلاح الدين ، والكتاب بسبعة مجلدات لا يتوفر منها إلا الجزأين الثالث و الخامس ، وقد لخص البنداري الكتاب كله في مجلدين .

ومن مؤلفاته " خطفة البارق وعطفة الشارق " وهو مفقود ، و " نحلة الرحلة وحيلة العطلة " و " خريدة القصر وجريدة العصر " أرخ فيه لشعراء الشام وأدباء زمانه من كافة البلدان وجعله في أربعة أقسام ، قسم لشعراء بغداد والعراق وقسم آخر لشعراء عراق العجم وخراسان وما وراء النهر وخص لشعراء الشام والجزيرة واليمن قسماً ، وأخيراً أفرد لشعراء مصر وبلاد المغرب قسماً آخر .

وتميز العالم المؤرخ عبد الكريم بن محمد بن منصور بن محمد أبو سعد التميمي المروزي السمعاني (ت٥٦٢هـ/١١٦٦م) صاحب كتاب الأنساب ، قدم له الحافظ ابن عساكر ترجمة في تاريخه ، ووصفه فيه بالتصوف والفقه وحسن الأخلاق . رحل وطاف في البلاد وحدث واستفاد ، له من الكتب " ذيل تاريخ بغداد " وكتاب أرسله للحافظ ابن عساكر سماه " كتاب فرط الغرام إلى ساكني الشام " في ثمانية أجزاء ، كتبه سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م ، ضمنه قطعة من الأحاديث المسانيد ، وجملة من الحكايات والأناشيد . (١)

ومن التواريخ الأخرى الصغيرة الحجم التي عرفت في دمشق واستفاد منها المؤرخون منهم ابن عساكر في تاريخ المدن ، فكان كتاب السميساطي" أخبار الشام" وتاريخ دمشق للأرمنازي (ت٥٠٩هـ/١١١٥م) . يصور هذا الكتاب الدور الكبير الذي لعبته دمشق في فترة التصدي للغزو الفرنجي ، فمثل صورة صادقة عما جرى من أحداث . وترك ابن الأكفاني (ت٥٢٤هـ/١١٢٩م) مؤلفات منها " كتاب جامع الوفيات " جمع مادة كتابه من معاصريه ، وله كتاب آخر في تعداد أمراء دمشق ،

(١) ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، اختصرته وحققته سكينة الشهابي ، دار الفكر بدمشق ط١ ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ج١٥ ص١٨٠-١٨١

استقى منه الحافظ ابن عساكر معلومات حول عدد من أمراء دمشق منهم أتز وتتش ، وله تتمة تاريخ داريا لعبد الجبار الخولاني ، على أن ضياع مؤلفات ابن الأكفاني ، لا يعني ضياع المعلومات التي قدمها ، فقد حفظها لنا تلامذته منهم ابن عساكر الذي اعتبره أحد مصادره الرئيسة في تاريخه . (١)

وتابع العديد من المؤرخين تآليفهم في فضائل البلدان والأقاليم ، فألف العالم الربعي كتاب " فضائل الشام " وقد اعتمد عليه الحافظ ابن عساكر في تأليف كتابه " فضائل المسجد الأقصى " . (٢)

وبرز من العلماء والأدباء من كانت لديهم اهتمامات في مجال التاريخ ، فتعددت مجالات الدراسة والبحث لدى بعض العلماء أصحاب التفكير العلمي والأدبي فكان الفيلسوف العراقي الطبيب المهندس الرياضي أبو الفتوح ابن الصلاح (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م) كان غاية في الذكاء ، ومعرفة في العلوم منها التاريخ والأخبار والسير ، (٣) وكذلك برز الشاعر الأديب ابن القيسراني الذي كانت لديه معرفة قوية في حفظ التواريخ إلى جانب القيمة الشعرية التي قدمت الصورة جلية عن الغزو الفرنجي . (٤)

توجب على المؤرخ المتميز حتى يصل إلى المكانة التي يطمح إليها أن يسمع التاريخ على علماء عصره ، فقد سمع ابن عساكر على العالم علي بن الحسن بن علي ابن سعيد ين يحيى العطار ، قطعة من تاريخ بغداد توفي سنة ٥٢٠هـ/١١٢٥م . (٥) وانتقل أحمد بن طاهر بن حيدرة بن إبراهيم بن العباس من مصر ،وتفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة ، وتعلم التواريخ وأخبار الناس ، ولد سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م ، أما وفاته بدمشق فليست معروفة . (٦)

==

(١) د٠ شاكر مصطفى : المقال نفسه ص٣٥١ـ٣٥٢

(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، دار الفكر ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ، ج١ص٢٩٦

ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM : ART IBN ASAKIR - P.3P.714

(٣) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٩٨

(٤) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٩٨

- سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٣٠

(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص١٥

(٦) القرشي : الجواهر المضية في طبقات الحنفية ج١ ص٦٧٦

ولم يقتصر العاملون في التاريخ على دمشق وحدها ؛ بل وصل من أنحاء البلاد الإسلامية جملة من العلماء ، أخذوا فنون التاريخ عن دمشق، فهذا حماد بن هبة الله ابن حماد بن الفضيل ، أبو الثناء الحراني ، جمع تاريخاً لبلده حرّان ، توفي سنة ٥٩٨هـ/١٢٠٢م (١) وكذلك وضع حمدان بن عبد الرحيم أبو الفوارس التميمي الأثاربي الحلبي ، كتاباً في تاريخ حلب من سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م ضمّنه أخبار الفرنجة ، وأيام احتلالهم للشام من السنة المذكورة ، وقد سماه (المُفوّف) . (٢)

وهكذا نلاحظ ازدهار علم التاريخ ونشاطه في فترة الحكم البوري ، ويكفي دمشق فخراً بمؤرخها ومحدثها الكبير ابن عساكر ، الذي أعطى التاريخ كثيراً من الجهد والوقت ، وجعل من دمشق منافسة لبغداد في تاريخ المدن ، فقد استفاد من أستاذه البغدادي ، ثم تفوق عليه ، مع أن كتابه تاريخ دمشق ، يمكن أن يعتبر قريناً لتاريخ بغداد مدينة السلام للمؤرخ البغدادي .

ومن المؤرخين الذين اشتهروا في دمشق وكانت لهم الألمعية في علم التاريخ وفي علم الأدب والإنشاء ، ابن القلانسي ، وكذلك أسامة بن منقذ ، و العماد الأصفهاني ، والشاعر ابن القيسراني ، وغيرهم من الشعراء والأدباء والكتّاب .

هذه صورة تقريبية توضح دور التاريخ وأهميته في فترة تطور نشاط العمل والبحث التاريخي ، الذي تجلى إبداعه في مجلدات كبيرة عن مدينة معينة ، بالإضافة إلى المحاولات الواسعة التي طرقها علم التاريخ ، من تاريخ المدن والسير الذاتية ، والتاريخ الحولي .

علم الجغرافية وأهميته من الناحية العملية :

ازدهر علم الجغرافية في الفترة الإسلامية العربية ، وخاصة في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، إلى جانب العلوم الأخرى ، وارتبط هذا العلم ارتباطاً وثيقاً بعلم الفلك، وبرز فيه علماء كبار من الجغرافيين . ويرى فريق من العلماء أن مرحلة العطاء الحقيقية لهذا العلم عند المسلمين العرب ، قد بدأ منذ أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، حيث وصل بعضهم إلى نتائج

==

(١) ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ج٦ ص٢٩١٧-٢٩٢٠

(٢) ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ج٦ ص٢٩٢٦-٢٩٢٧

خطيرة ، تساير مناحي العلوم ، وتجعلهم أساتذة كباراً تميزهم عن غيرهم . (١)

وكانت فكرة الإهتمام بهذا العلم قد توضحت حين وضع أحدهم كتاباً صور فيه الدنيا للخليفة العباسي الرشيد ، وقيل بل المأمون بجبالها وبحورها وأوديتها وأقاليمها وبلدانها وسائر الأماكن فيها . (٢) وساهم الكثيرون من العلماء في تقدم هذا العلم خاصة حين نقلوا عن اليونان وغيرهم كتبهم الجغرافية ، وصححوا ما يحتاج إلى تصحيح وخاضوا غمار البحار والبلاد ، فدرسوا جغرافية بطليموس ووصف الأرض بمدنها وجبالها وبحارها وأنهارها وجزائرها . (٣)

وهو علم لا بد منه للتاجر والمسافر والفقيه العالم ، لذلك اتصل هذا العلم اتصالاً وثيقاً بالتجارة وطلب العلم والرحلات ، والحج إلى بيت الله الحرام . لا شك أن الحديث عن الجغرافية يطول في مناقشة كروية الأرض بالنسبة للفلك الخارجي ، حتى شبهها بعضهم بأنها كالدر المنثور على بساط أخضر . (٤)

أما أبرز العلماء الذين كان لهم دور في فترة الحكم البوري فعلى رأسهم الإدريسي الجغرافي ، الذي زار دمشق سنة ٥١٠ هـ/١١١٦م ، وكان حلقة اتصال بين جغرافي الإسلام وجغرافيي الفرنجة ، فقد وضع كتاب الجغرافية ، ورسم الخرائط مما يدل على تفوق المسلمين العرب في هذا الميدان العلمي . وزار بنيامين التطيلي الأندلسي اليهودي دمشق وتحدث عنها ، وذكر أنها مدينة جميلة كبيرة . ولم يقتصر وصف هذين الجغرافيين على دمشق وحدها ، بل شمل حديثهما الإشارة إلى حمص وحماه وحوران وتدمر .

==

(١) سيزكين : محاضرات في تاريخ العلوم ، مقال مكانة المسلمين في تاريخ العلوم ص١٦ - المدور : حضارة الإسلام في دار السلام مجموعة رسائل إسلامية في القرن الثاني والثالث الهجريين ط٢ ، المؤيد مصر ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م ص٢٠٩

(٢) الديوه جي : بيت الحكمة ص٢٣

(٣) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ج١ ص٨٦ - المقدسي : أحسن التقاسيم ص٣ - طوقان : العلوم عند العرب إشراف دار الثقافة العامة بوزارة التربية بمصر ١٩٥٦م ص٦٧

(٤) إخوان الصفا وخلان الوفا : رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا – مكتب الإعلام الإسلامي – ج١ ص١٦٥-١٦٦

أما مدينة دمشق فمدينة تقع في أرض مستوية قد دحيت بين جبال تحف بها ، وإلى مياه كثيرة وأشجار وزروع ، وتحدث الإدريسي عن طيب ثراها واعتدال هوائها ، ولم ير بنيامين مثيل فاكهتها وأشجارها في أي مكان من العالم لخصب أرضها وإحاطة نهر بردى بها كالسوار للمعصم ، وهو الذي يمدها من جبل الحرمون ، ثم يتابع دخوله إلى المدينة ويوزع مياهه على بيوت الخاصة بقناطر تمر بالأسواق والأزقة ، كما يأتي من جبل الحرمون أيضاً نهر الأعوج فيسقي البساتين والغياض خارج البلدة . (١)

تميز الحافظ ابن عساكر بتخصيصه مدينته بمجلدة كاملة هي المجلدة الثانية ، إضافة إلى ما احتوته المجلدة الأولى ، فقد تضمن كتابه وصفاً طبوغرافياً لدمشق وأحيائها وأزقتها وأبوابها وحماماتها وسواقيها وقنواتها ومساجدها . وأشار الإدريسي وغيره إلى أهمية غوطة دمشق واعتبرها " إحدى الجنان الثلاث " المفضلة على متنزهات الأرض حيث تغزر فيها المياه والأشجار النضرة والأغصان الملتفة ، وتأخذ امتداد خمسة عشر ميلاً من كل جانب . (٢)

وتميزت حماه وحمص ببساتينهما ، وخصب تربتهما ، لمرور نهر العاصي في المدينتين ، هذا غير تميزهما بالأهمية التجارية . وبرزت صرخد التي أشار إليها بنيامين ، كما ذكرت بانياس الجولان ، التي غلب عليها كثرة الأشجار والحوامض(٣) .وأشار الجغرافي بنيامين إلى بعلبك ونبعها الذي يأتي من أعلى المدينة ، يساعد الناس على تقوية أرحيتهم ، وقد أحيطت به الرياض والبساتين (٤)

==

(١) الإدريسي :نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق ص١٣٣ - بنيامين : رحلة بنيامين ترجمة عزرا حداد ط١ مطبعة الشرقية ١٩٤٥ ص١١٥ - د٠ المنجد : المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى بيروت ط١ ١٩٦٣م - طوقان : العلوم عند العرب ص٦٨

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلدة ثانية ص١٦٩ ، ج١ ص١٧-١٨ - الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص٣٦٦
- ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٤ ص٢١٩ - أبو الفدا : تقويم البلدان ص٢٥٣ ELISSEEFF : OP,CIT . P1 . P255

(٣) بنيامين : رحلة بنيامين التطيلي ص١١٨
- شيخ الربوة : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص٢٠٠

(٤) بنيامين : رحلة بنيامين التطيلي ص١١٨

نلاحظ مما سبق أن علم الجغرافية ظهرت معه الاهتمامات من حيث البحث في المتغيرات التي تقع فوق الأرض ، فظهرت حالات اللازوردي الذي يقع في الجو ، وأن لون السماء ليس ذاك اللون ، إنما يعود إلى الجو المحيط بالأرض الذي يضيء ضياءاً ضيقاً لما تضمه الأجزاء المتحللة النارية المفعمة بالحرارة من الأرض ويكفي ما تركه أجدادنا المسلمون من دراسات في هذا العلم حيث أثبتوا كروية الأرض وأنها تدور حول الشمس وليس كما اعتقد قدماء اليونان من الأخطاء المنهجية التي وقعوا بها حين اعتبروا أن الأرض هي مركز الكون .

ولم يقتصر علماء الجغرافية من المسلمين على هذه الآراء بل وثقوا ذلك بالصور التطبيقية عبر رسومات الخرائط الجغرافية ، ويعود الفضل للمسلمين العرب في اكتشاف علم الطبوغرافية الذي يمثل البحث في خطط المواقع في كل مدينة وأشار إلى ذلك ابن عساكر في كتابه التاريخ حين خصّ المجلدة الثانية لخطط دمشق بالمسح العام للأماكن من مساجد وحمامات وسواقي وقنوات وأزقة ونسبة خصوبتها ورصد مواقيت الأمطار والإشارة إليها .

الفصـــــل الرابـــــــع

العــلوم العقليـــة والتطبيقيـــة

يستدعي البحث في الحكمة التطرق إلى العملي منها وتسمى الحكمة العلمية حين تُعلّم . لذلك قدم الحكماء العملي من الحكمة على العلمي منها ، بينما أخره بعضهم أما العملي فيعتني بتهذيب الأخلاق ، بينما يعتني العلمي بمعرفة أعيان الموجودات (١) ولأهمية العلوم العقلية يمكن التعرف على علم الفلسفة والنجوم والهيئة والحساب والهندسة والطب .

وللحقيقة فإن العلماء المسلمين لم يقفوا في علومهم عند حد النقل أو الترجمة بل أخذ نتاجهم طريقه نحو التجديد وتحكيم المنطق في كل الميادين التي طرقوها وطوروا فيها فدفعوا عجلة البحث العلمي نحو العطاء في التأليف والترجمة في علوم الطب والحساب والصيدلة والفلسفة .

وصدق أحد علمائنا حين قال : " إن الإنسان إذا ابتدأ بمعنى لم يكثر غيره الخوض فيه ، لم يخل من بعض التقصير " لأن العلوم إنما تنمو وتكثر بأن يبتدىء واحد من الناس شيئاً منها ، ثم يزيد من بعده فيه ويصححه ويقومه ، فوجب على من وقف على تفسير معنى أن يقول فيه بما يوجبه الحق وأن يزيد أو ينقص بما يقتضيه الأمر من ذلك ، أو يعمل كتاباً في هذا المعنى يستوفي فيه الأمر حقه ، فيحوز الجمال لنفسه وشرف الإصابة . (٢) هذا رأي أجدادنا العلماء في تطور العلوم ، والذي سنرى صورته واضحة من أوسع أبوابها في الحضارة الغربية اليوم .

==

(١) الشهروزي : تاريخ الحكماء ، نزهة الأرواح وروضة الأفراح تحقيق عبد الكريم أبو شوير ط١ مطبعة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس الجماهيرية ١٩٨٨م ص٤١

(٢) ابن سنان : رسائل ابن سنان ، مقالة في طريق التحليل والتركيب مطبوع جمعية دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد الدكن ط١ ١٣٦٩هـ/١٩٤٧م ص٤-٥

١- **علم الفلسفة والمنطق :**

أ- **علم الفلسفة أو الحكمة** :

تميز اليونان بالفلسفة ، وأطلقوا عليها عبارة إيثار الحكمة ، وتسمّى علماؤهم بالفلاسفة ، ومعنى الفيلسوف : محب الحكمة ، وهو أصل كل علم وتقويم كل ذهن ، فيلا : المحب و سوفا : الحكمة . (١) ومن شأنها أن تقوّم العقل ، وترشد الذهن والإنسان نحو طريق الصواب والحق في كل ما يمكن أن يغلط فيه من المعقولات والقوانين التي تحفظه وتحوطه من الخطأ ، وتناسب صناعة المنطق صناعة النحو والعروض ، لأنها " آلات يمتحن بها في المعقولات ما لا يؤمن أن يكون العقل قد غلط فيه ، أو قصّر في إدراك حقيقته " . (٢)

يبحث علم الفلسفة فيما وراء الطبيعة ، ويعرف بعلم المنطق أو الحكمة ، وهو أصل كل علم وتقويم كل ذهن . (٣) ومن أبرز فلاسفة الإسلام ، الكندي ، الفارابي ، ابن سينا ، وقد انقسم الفلاسفة إلى المشّائيين أو الإشراقيين ، واعتبر أرسطو رئيساً للفريق الثاني ، فالمعرفة لديه لا تحصل إلا بالبرهان الذي يتم الوصول إليه عبر البحث .

اعتبر الفلاسفة المسلمون ، الفلسفة والدين صورتين مختلفتين لحقيقة واحدة (٤) ، وقد تأثرت الفلسفة الإسلامية بالمتغيرات السياسية ، فكانت موضع عنايةٍ عند بعض الخلفاء العباسيين والفاطميين ، لكنها لم تبرز بسبب التعصب والتشدد من قبل بعض العلماء في اضطهادها ، فلم يتح ذلك الحال فرصة انتشار هذا العلم مع كل ما له وما عليه . وما وقع على الفلسفة يوازي ما وقع على علم المنطق وعلم الكلام .

==

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٦٠٤

(٢) الفارابي : إحصاء العلوم ، وقف على طبعه إنجيل غنصليس - بلانسيه مطبعة مائسترين مدينة مجريط ١٩٥٣م ص٢١-٢٢-٢٣

(٣) الشهرزوري : تاريخ الحكماء ص٥٣-٥٤

(٤) ابن الطفيل : ابن الطفيل ورسالته (حي بن يقظان) تحقيق عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ، دار الكتاب اللبناني بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص٣٨

أما دور الفلسفة والفلاسفة في ظل الحكم البوري

فقد يسأل السائل ألم يكن لهما أي دور يذكر!

الواقع إن العصر كان عصر جهاد يقوده العلماء الفقهاء الذين لم يسمحوا لأي متنفس يخرج بآراء وأفكار لا يتواءم مع ما يراه العلماء ، هذا غير أن الإمام الغزالي شنّ حملة شرسة على الفلاسفة فأسكت أصواتهم ، وربما يكون قد تعرض العديد من الفلاسفة لكمّ الأفواه أو الإسكات . وقد تضاءل الاهتمام بذلك العلم لأسباب أخرى منها: الصراع المذهبي ، والخلافات الدينية ، وازدهار علوم الدين وتدخل الفقهاء في الأمور الدينية والسياسية حيث ساد وتأكد وراج لدى الفقهاء العلماء أن الفلسفة الإسلامية خاصة ، والفلسفة اليونانية والهندية والفارسية القديمة عامة ، تنحرف بالمسلم نحو الفكر الجدلي ، وتؤثر بالتالي على العقيدة في الصميم ، رغم الغطاء المعتمد تحت ستار الإسلام .

لذلك تحولت الفلسفة والحكمة بالمقابل للتحاور والتجادل والتناظر مع أصحاب المذاهب ، فدخلت المباحثات والجدالات في نطاق محدود مع الفكر المذهبي. إلا أن التحامل على الفلسفة قد أخذ أبعاده أكثر ما يكون في نطاق الدين في ظل الهجمة المتبادلة بين الفريقين. لذلك قام الإمام الغزالي بدراسة علم الفلسفة والمنطق للرد على الفلاسفة من خلال كتبه : - تهافت الفلاسفة ، المنقذ من الضلال – وكتب أخرى . إلا أنه وجد نفسه في عمق الفلسفة وأحد أركانها وركائزها . فتصدى له ابن رشد الفيلسوف الأندلسي ورد عليه في كتابه (تهافت التهافت)

وهكذا احتدم الصراع بين الفلاسفة والفقهاء ، فوجد الإمام الغزالي نفسه قد منطق علم الأصول وعلوم الدين ، وجرّ عليه حملات مناهضي الفلسفة معتبرينه أحد أركان علم الفلسفة بينما رأى فريق آخر أن فتور علم الفلاسفة لقرون عديدة يعود إلى جهود الإمام الغزالي في حملته على الفلاسفة ودحض أفكارهم .

برز بعض الفلاسفة في فترة الحكم البوري ، خاصة ممن قدم إلى الإمارة . ولم نعثر على علماء متمرسين في الفلسفة، كالحال مع العلوم الأخرى ، رغم كثرة العلماء الوافدين من المشرق والمغرب ، إلى مركز الإمارة . ولهذا لم تصلنا تفاصيل مهمة تخدم البحث حتى الآن ، لربما أن الأيام القادمة تكشف لنا كنه ما نبحث عنه .

ب ـ **علم المنطق** :

المنطق مشتق من نطق ينطق نطقاً ، والنطق فعل من أفعال النفس الإنسانية ، والمنطق والطبيعيات هي ذات الفلسفة وطبيعتها . (١) ويقصد بالمنطق النظر من قبل آلة الفكر في المعقولات ، (٢) ولكن هناك إجماعاً حول ماهيته، فهو آلة صناعية تعصم الذهن عن الوقوع في الخطأ بالفكر . (٣)

وعرّفه الإمام ابن الأكفاني ، بأنه علم يتضمن ضروب الانتقال من أمور حاصلة في ذهن الإنسان ، إلى أمور مستحصلة فيه وأحوال تلك الأمور ، وأصناف ما ترتب الانتقال فيه وهيئته جاريان له الاستقامة ، وموضوعه المعلومات التصورية والتصديقية ، من حيث التوصل إلى مطلوب تصوري ، ومطلوب تصديقي ، يؤدي إلى الصواب ، واشتقاقه من المنطق الداخلي أي القوة العاقلة . (٤)

فالمنطق آلة قانونية تعصم العقل بمراعاته لها من أن يَضِّلَ في فكره ، فإذا حَكّم القوانين ، فعند ذلك يعثر على جهة المطلوب ، فتتجلى حقيقة المطلوب لقلبه ، لأن العلوم ليست فطرية ، لا تحتاج إلى تجشم الاستدلال والنظر والاعتبار ، بل لا تقنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة ، فكل علم نظري ، لا يحصل إلا عن طريق علمين سابقين يأتلفان " وبازدواجهما وجه مخصوص وشكل معلوم ، يشكلان علماً ثالثاً يسمى النتيجة عند حصولها . (٥)

---

(١) إخوان الصفا : رسائل ج١ ص٣٩١ـ ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٥٥٢
(٢) النووي : طبقات مخطوط ص٢٧و ـ الغزالي : تهافت الفلاسفة ، سليمان دنيا القاهرة طبع إحياء الكتب العربية ١٩٤٧م ص٤٨ ـ حسين أمين : الغزالي فقيهاً وفيلسوفاً مطبعة الإرشاد ببغداد ١٩٦٣م ص٦٤ـ٦٥
(٣) د. الفرفور (محمد عبد اللطيف) : معايير الفكر دار المكتبي ط١ ١٤١٦ هـ/١٩٩٦م ص١٧
(٤) ابن الأكفاني : إرشاد القاصد مخطوط رقم ١١٥ ص١٤ظ
(٥) الغزالي : معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، طبع على نفقة الرحالة البحاثة محيي الدين صبري الكردي ط١ مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٦ هـ/١٩٢٧م ص١٠٢

يشمل علم المنطق العلوم النظرية والعقلية ، وبه يميز صحيح الحد والقياس عن فاسد هما ، فيتميز اليقيني عما ليس يقينياً ، كأنه معيار وميزان للعلوم . (١) وتبدو فوائده في التوصل إلى كل مجهول ، ولا يتم المركب إلا بالجزئيات ، فباني البيت يفتقد إلى الخشب واللبن والطين ، حتى يتكامل ذلك العمل ، ثم يجمع الأجزاء ويبدأ البناء كمرحلة ثانية ، وهذا ينطبق على العلم ، إذ لا يتم الحصول عليه ، إلا بالمفردات ، فلا بد من اللفظ ودلالاته على المعنى ثم أقسامه في المسألة المركبة من محمول أو موضوع . وثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الفلسفة لا تنال إلا بالعلوم الرياضية . (٢)

يصلح اعتماد المنطق سلاحاً يتم الهجوم عبره على الفلاسفة الذين لا يمثلون جذوة التيار الإسلامي ، فقد اعتبر الإمام الغزالي بعض الفلاسفة بأنهم يحملون عبر أفكارهم مخاطر تهدد الدين الإسلامي ، في كونهم رفضوا العبادات ، واستهانوا بشعائر الشرع وحدوده ، لا يعملون بمقتضى الإسلام ، إضافة إلى دسّ أفكارهم في عقول الناس الذين غدوا مستغلين من قبلهم بسبب ما غلب عليهم من حب كتبهم وحسن الظن في بعض العلوم . (٣)

سعى الإمام الغزالي جهده مناظرة هؤلاء الفلاسفة بعباراتهم في المنطق وخاصة في منطق أرسطو ومنطق المشّائين ، الذين لم تكن كتبهم مفهومة جيداً . ورد الغزالي على منطق أرسطو بكتابيه " معيار العلم " و " محك النظر " ، أما كتابه " معيار العلم في فن المنطق " فالناظر إليه يصنف الغزالي مباشرة في طائفة العقليين لأنه يقول العلم هو اليقين العقلي المأخوذ إما من الحسيات بعد فحص العقل لها ، وتفتيشه على مآخذها هل هي مستوفية بشروط الإحساس الصحيح أولا . (٤)

==

(١) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص٤٨
(٢) الغزالي :مقاصد الفلاسفة ص٧-٨ - الخوارزمي : مفاتيح العلوم ص١٦٥
(٣) الغزالي : المنقذ من الضلال ص٦٩-٧٠-٧٥
- ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص٤٩
(٤) الغزالي : معيار العلم في فن المنطق ، طبع الرحالة البحاثة محيي الدين صبري الكردي ط٢ مطبعة العربية بمصر ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م ص٢٠

ويرى أيضاً أن العقل هو القسطاس المستقيم والمعيار القويم فلا يحتاج العاقل بعد كمال عقله إلى تسديد وتقويم ، والطالب المنطقي عليه أن يتحقق من الحاكم الحسي والحاكم الوهمي والحاكم العقلي ، والمصيب منها هو الحاكم العقلي ، والنفس في أول الفطرة أشد إذعاناً للقبول من الحاكم الحسي والوهمي لسبقهما إلى أول الفطرة للنفس .

ويرى الإمام الغزالي أن مدارك العلوم أربعة هي ، مقومات القياس ، فالقياس ، فكتاب الحد ، فأقسام الوجود وأحكامه . والموجودات عنده تنقسم إلى موجودات شخصية معينة (وهي الأمور المدركة بالحواس) وتسمى أعياناً وأشخاصاً وجزئيات ، وإلى أمور غير متعينة وتسمى الكليات والأمور العامة . (١)

ولأهمية الغزالي وكتبه هذه ، سعت الطوائف على تبجيله وتعظيمه وتوقيره ، واعتبرته مجتهد زمانه بالإتفاق والإجماع وعين وقته وأوانه ، ممن شاع ذكره في البلاد فخافه المخالفون وانقهر لحججه وأدلته المناظرون ، وظهرت بتنقيحاته فضائح المبتدعة والمخالفين ، وقام بنصر السنة وإظهار الدين ، وسارت مصنفاته في الدنيا ، وشهد له الموافق والمخالف بالتقدم ، برع في المذهب والخلاف والأصلين والجدل والمنطق ، وقرأ الحكمة والفلسفة وفهم كلام أرباب هذه العلوم وتصدى للرد عليهم وإبطال ما ادعوه وصنف في كل فن من هذه العلوم كتباً أحسن تأليفها وأجاد ترتيبها وترصيفها ، حصل له ما لم يحصل لغيره ، ولم تر العيون مثله لساناً وبياناً ونطقاً وخاطراً . (٢)

ولما كان ابن سينا قد دفع بالمنطق العربي إلى التقدم عبر كتابه " الإشارات والتنبيهات " بغض النظر عن موقف الإمام الغزالي من فكره ومنطقه . فإننا نلاحظ أن الغزالي قد أفاد منه إلا أنه أقام الربط والتوفيق بين علوم الدين وعلوم الحكمة وبخاصة المنطق ، فيسر هذا الانفتاح الكامل عبره إلى المشكلات المنهجية في علوم الكلام والأصول واللغة ، واستيعاب هذه العلوم في بنيانه الخاص . (٣) ويلاحظ في كتابيَ الإمام الغزالي " معيار العلم " و" محك النظر " أنه قد أضفى صيغة عربية صرفة ، كي يوفق بين المنطق والدين ، مستعيراً منه ما يخدمه في علوم الكلام والفقه

==

(١) الغزالي : معيار العلم ص٢٨-٣٧
(٢) السخاوي : مخطوط طبقات الأولياء ص٦٤ ظ – ٦٥ و
(٣) د٠ الفرفور : معايير الفكر ص٢٧

واللغة . وإذا كان المعيار والمحك قد خليا من أي إبداع ، فكتابه " المستصفى في علم الأصول " يبدأ عبره مرحلة تاريخ مَنْطَقَة الشريعة ، ويعد المرحلة الأولى لإقامة أصول الفقه على أسس المنطق الصوري . (١)

لم يرتض العالم ابن الصلاح المنهج الذي اعتمده الإمام الغزالي في مَنْطَقَة علوم الدين فأنكر عليه ذلك ونسب إليه من الشذوذات التي أشار إليها الغزالي في كتابه " المستصفى " " هذه مقدمة العلوم كلها ، ومن لا يحيط بها فلا ثقة له بعلوم أصلاً " . (٢)

وتابع ابن الصلاح نقده له خلط المنطق بأصول الفقه ، وذكر أنه قد جاء ببدعة عظم شؤمها على المتفقهة ، حتى كثر بعد ذلك فيهم المتفلسفة . (٣) ومن الأقوال التي اعتمدها الإمام الغزالي في كتابه : " فقد تناطق قاضي العقل ، وهو الحاكم الذي لا يعزل ولا يبدل وشاهد الشرع ، وهو الشاهد المزكّى المعدّل بأن الدنيا دار غرور لا دار سرور ومطية عمل لا مطية كسل " ٠٠٠ والطاعة طاعتان طاعة عمل وطاعة علم ، وطاعة العلم أنجعها وأربحها ٠٠٠ " والعقل هو أشرف الأشياء ، لأنه مركب الديانة وحامل الأمانة ٠٠٠ ثم العلوم ثلاثة عقلي محض لا يحث الشرع عليه ولا يندب إليه كالحساب والهندسة ٠٠٠ ونقلي أو ديني محض كالأحاديث والتفاسير والخطب ، وباطني وهو علم القلب وتطهيره عن الأخلاق الذميمة ٠٠٠ وكل واحد من العقلية والدينية ينقسم إلى كلية وجزئية " .

" فالعلم الكلي من العلوم الدينية هو الكلام ، وسائر العلوم من الفقه وأصوله والحديث والتفسير علوم جزئية ، لأن المفسر لا ينظر إلا في معنى الكتاب خاصة ٠٠٠ أما المتكلم فهو الذي ينظر في أهم الأشياء " . (٤)

ورداً على أقوال الغزالي هذه فقد هاجمه الفقهاء وعلى رأسهم ابن الصلاح . لكن الغزالي تابع تعمقه في المنطق بقوله " والمتكلم هو الذي ينظر في أعم الأشياء ، وهو الموجود فيقسم الموجود أولاً على قديم وحادث ، ثم يقسم المحدث إلى جوهر وعرض ، ويقسم العرض إلى ما تشترط فيه الحياة من العلم والإرادة والقدرة والكلام

==

(١) د٠ الفرفور : معايير الفكر ص٢٥
(٢) ابن الصلاح : طبقات الفقهاء الشافعية ج١ ص٢٥٢
(٣) ابن الصلاح : المصدر نفسه ج١ ص٢٥٤
(٤) الغزالي : المستصفى ج١ ص٣-٤-٥

والسمع والبصر ، وإلى ما يستغنى عنها كاللون والريح والطعم ، ويقسم الجوهر إلى الحيوان والنبات والجماد . ويبين ما يكون من اختلاطها بالأنواع أو بالأعراض ، ثم ينظر إلى الحوادث بأوصاف تجب له وبأمور تستحيل عليه ••• .

ويفرق بين الجائز والواجب والمحال في حقه ، ثم يبيّن أن أصل الفعل جائز عليه ، وأن العالم فعله الجائز ••• ولا يجاوز نظر الأصول قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن الكتاب إنما يسمعه من قوله والإجماع يثبت بقوله : " والأدلة هي الكتاب والسنة والإجماع فقط ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم - إنما يثبت صدقه وكونه حجة لعلم الكلام ، فإذا هو العلم المتكفل بإثبات مبادىء العلوم الدينية كلها فهي جزئية بالإضافة إلى الكلام . فالكلام هو العلم الأعلى في الرتبة ، إذ منه النزول إلى هذه الجزئيات " . (١)

ومن قوله في أقسام الأحكام وهي خمسة ، الواجب والمحظور والمباح والمندوب والمكروه . أما الواجب فقد " يعفى عن العقوبة على تركه ولا يخرج عن كونه واجباً ، لأن الوجوب ناجز والعقاب منتظر ، وقيل ما توعد بالعقاب على تركه فاعترض عليه بأنه لو توعد لوجب تحقيق الوعيد ، فإن كلام الله تعالى صدق " وتابع إن الواجب ينقسم إلى معين وإلى مبهم ، بين أقسام محصورة فيسمى واجباً مخيراً كخصلة من خصال الكفارة ، فإن الواجب في جملتها واحد لا يعنيه إيجاب السيد على عبده خياطة القميص ، وتابع إن الواجب ينقسم بالإضافة إلى الوقت إلى مضيق وموسع وقال قوم التوسع يناقض الوجوب وهو باطل عقلاً وشرعاً ••• ولا يخلو ، إما أن يقال لم يوجب شيئاً أصلاً أو أوجب شيئاً مضيقاً وهما محالان فلم يبق إلا أنه أوجب وسعا " . (٢)

ورأى ابن الصلاح في ردوده على الغزالي بقوله : والمنطق عند القدماء : " آلة صناعية تعصم الذهن عن الخطأ ، وكل ذي ذهن صحيح منطقي بالطبع ، فكيف غفل الغزالي بالمقدمة عن شيخه إمام الحرمين (الجويني) هو وغيره من الأئمة في تحقيق الحقائق ، رافع له ومعظم ، ثم يرفع أحدهم بالمنطق رأساً ولا بنى عليه في شيء من تصرفاته أسّا.

==

(١) الغزالي : المستصفى ج١ ص٥-٦-٧

(٢) الغزالي : المستصفى ج١ ص٦٥-٦٦-٦٧

واستتبع ابن الصلاح القول : إن عمل الغزالي بعلم أصول الدين ، قد شغله بقراءة علوم الفلسفة ، التي أكسبته جرأة على المعاني ، وتسهيلاً للهجوم على الحقائق ، وإن الإمام الغزالي حسّن الفلسفة في قلوب أهل الشرع مستشهداً بآيات وأحاديث يذكرها عندها . (١) ولا يخفى ما أشار إليه ابن الصلاح الفقيه ، من موقف الفقهاء الصريح والعلني من الفلسفة والفلاسفة . فقد تعرض الإمام الغزالي للهجوم كأمثاله من الفلاسفة ، وأنه قد نسب إليه في مقدمته في المنطق ، أنه قد أحاط بالعلوم كلها ، ومن لم يحط بها فلا ثقة له بالعلوم أصلاً .

في الواقع إن الإمام الغزالي ما قصد ما أراد به ابن الصلاح ، وإنما رأى أن المنطق يساعد في التعرف على العلوم وفهمها لدى الإحاطة بها ، وليس غريباً علينا مكانة الإمام الغزالي مع شيوخه، فقد أشار إليه إمام الحرمين ، ولا يمكن أن يسعى الغزالي متجاهلاً ، أو متغافلاً عن مقدرة شيخه ، لاسيما أنه بقي تحت إشراف أستاذه رغم اكتشاف أستاذه لمواهبه ، وما فتيء لا يرفع رأساً أمامه ، بل حافظ على تقربه الشديد منه . ومما لاشك فيه أن الرواية المنقولة قد حملت شيئاً من التحامل عليه، ويرجع السبب فيما أورده ابن الصلاح ، اعتماده على النقول من بعض المصادر المغاربية ، التي كان أحد أسباب تحاملها على الإمام الغزالي إنما يعود دافعه للغيرة بلا ريب .

خصّ ابن الطفيل الإمام الغزالي بوقفة أشار فيها إليه من خلال كتاب التهافت ، وإنكاره حشر الأجساد بمن أخضعهم للتكفير من الفلاسفة . (٢) وكان قد ذكر في كتابه ميزان العمل إن علو رتبة العلم وبيانه ، لا يمكن أن يحصى ، وإن الصوفية والفلاسفة قد آمنوا بالله تعالى واليوم الآخر ، وإن اختلفوا في الكيفية ، فالكل متفق على " أن السعادة في العلم والعبادة ، وإنما نظرهم في تفضيل العلم والعمل ، والتوقف مع هذا الاتفاق حمق " فالاعتقاد عند الغزالي هو اعتقاد شيوخ الصوفية تماماً . وقد ذكر ذلك بنفسه فقال : " فإن من لا يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة . وميزة الإمام الغزالي أنه لم ير فيلسوفاً أو يسمع عنه إلا بقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا يجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته . (٣)

==

(١) ابن الصلاح : المصدر نفسه ج١ ص٢٥٥-٢٥٦
- النووي : طبقات الفقهاء الشافعية مخطوط ص٢٧و
(٢) الغزالي : المنقذ ص٧١-٧٢-٧٩ ، ميزان العمل ضبط سليم سليمان البواب منشورات دار الحكمة بيروت ١٩٨٧م ص٢١
- ابن الطفيل : حيّ بن يقظان ص ١٤
(٣) الغزالي : المنقذ من الضلال ص٥٧-١٢٢
ابن الطفيل : المصدر نفسه ص١٥

تعرض كل عالم يقرب من علم الفلسفة للتعصب وللموقف المضـاد ، وقد سلك هذا الطريق في وجه الفلسفة والفلاسفة ، رجال الدين ، وقادوا حملة شنوها على كتب الفلاسفة ، و عملوا على الحضّ على إحراقها بحضور الجّم الغفير من الناس .
ولم يقتصر الأمر على ذلك في فترة القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ؛ بل توبعت على المنابر بالخطب الرنانة والمواعظ القوية ، ولعن الفلاسفة ، ومن يقول بقولهم .

وحُرّم في ذلك الوقت ، أن يشتغل أحد بشيء منها ، وكل من ينظر بها يلحق به الضرر والأذى ، ووصل الأمر بالبعض أن يغري العامة للتشنيع بالمناطقة والفلاسفة . (١) وإذا برع أحد العلماء بالأصول والمنطق والفلسفة والكلام واعتصم بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتزم تعاليم السلف الصالح ، ووفق بين العقل والنقل ، فإنه لن يسلم من التضليل والتكفير والتكذيب مهما سعى في ذلك .

وانبرى الرحالة ابن جبير يشنّ الحملة مع أهل زمانه على الفلاسفة وتكفيرهم ، خاصة من اعتمد منهم على المنطق اليوناني (٢) ، فجرّت هذه الاضطهادات الفكرية والجدل المنطقي إلى حوادث مؤسفة ، عكست آثارها على الواقع الإسلامي. حمل الحنابلة لواء الدفاع عن الإسلام وحمايته بمعاداة هذه العلوم ، ورمي كل معتقد فيها بسوء العقيدة والدين . لذلك منع التعلم والتعامل مع الفلسفة على صعيد واسع ، بل انحصر إفادة الطلبة منها على مجال ضيق في نطاق التدريس . (٣)

سخّر الإمام الغزالي كل مؤلفاته تقريباً للبحث في الفلسفة ، وما تضمنتها من آراء فلسفية ، فقد صنّف الفلسفة إلى الدهرية والطبيعية والإلهية ، وترك من مؤلفاته

==

(١) ابن النديم : الفهرست ص٣٨٦
- ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٥٢٣
- القفطي : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ١٣٢٦هـ ص١٥٤
(٢) السخاوي : الإعلام بالتوبيخ ص٧٨ - مقال د. أحمد بدر الأندلسيون والمغاربة في دمشق ، المجلس الأعلى للعلوم ص٣٢٨
(٣) ابن الجوزي : كتاب المنتظم دراسة حسن عيسى الحكيم ص٣٦
- سجعان خليفات : مقال رسالة في أبطال أحكام النجوم للفيلسوف البغدادي أبي القاسم عيسى بن علي ، مجلة المجمع الأردني عدد ٢٣ سنة ١١ -١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ص١٢٩

الفلسفية كتاب " ميزان العمل " ناقش فيه مسألة الشك دون أن يخرج عن الإطار الديني ، واعتمد على العقل القويم في مناقشة بعض الأمور . (١) لذلك سنأخذ الإمام الغزالي نبراساً ونوراً لفلاسفة هذه الفترة ، فالحديث عن ثقافته خصبة عميقة يطول الحديث معها .

- الإمـــام الغزالـــي :

سلك فيلسوفنا الفقيه طريق الأصوليين والفقهاء والمتصوفة ، ويعتبر من أكبر متكلمي الإسلام . كان منذ نعومة أظفاره شغفاً بالقراءة لفلاسفة الإسلام ، ثم تابع وقرأ الفلسفة اليونانية ، واستوعب الفلسفة الأرسطية والفارابية وفلسفة ابن سينا ، (٢) وتعرّف كنه فلسفة الفلاسفة ، والمتكلمين بالإطلاع على غاية كلامهم ومجادلتهم (٣) ثم ردّ من خلالها على الفلاسفة وصنف كتابه التهافت للرد عليهم ، وكان دافعه لدراسة الفلسفة ، أن يطمئن قلبه ، ويتذوق الحقيقة العليا ، فخرج بأنفس كتب له منها التهافت . (٤)

دفع الموقف الذي اتخذه الغزالي في تكفير بعض الفلاسفة المسلمين – من مادته العقائدية الإيمانية – الفارابي وابن سينا إلى اندفاع ابن رشد ، (٥) في الرد عليه بثلاث مسائل أولها القول بقدم العالم ، وثانيها بأن الله تعالى لايعلم الجزئيات وثالثها تأويل ما جاء في حشر الأجساد وأحوال المعاد ، وليس تكفيره إياهما في ذلك قطعاً إذ صرّح في كتاب " فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة " بأن تكفيرهم كان بخرق الإجماع في المسائل الثلاثة فيه احتمال .

==

(١) الغزالي : مقاصد الفلاسفة ص٧٨ ، ميزان العمل ص٣٥
- طوطح : التربية عند العرب ص٨٠
(٢) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص١٣١ ، المنقذ من الضلال ص٢٥
– حسين أمين : الغزالي فقيهاً وفيلسوفاً ومتصوفاً ص١٦٤-١٦٥-١٦٧-١٦٨
(٣) الغزالي : المنقذ من الضلال ص٥٧
ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM :ART:ALGHAZALI - P.2 P.1040
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٩١٩
- طوقان : العلوم عند العرب ص١٧٦
(٥) ابن رشد : أحد علماء الفلاسفة العرب المسلمين ولد بقرطبة ٥٢٠هـ/١١٢٦م من عائلة عريقة عرفت بإهتمامها بالعلم ، شغل منصب قاضي القضاة بقرطبة ، درس القانون والطب بقرطبة ثم رحل إلى مراكش ٥٤٨هـ/١١٥٣م بطلب من والده الطفيل طبيب الخليفة في المغرب كان أعداؤه قد حملوا عليه فشرد وأحرقت كتبه . – ابن رشد : فلسفة ابن رشد ص٥-٦-٧

ورد الفيلسوف ابن رشد بقوله : لا يجوز ما قرره الغزالي في أمثال هذه المسائل لأنها تأويلات لا يفصح عنها إلا ما هو من أهل التأويل وهم الراسخون في العلم (لكأنه في هذا يغمز الغزالي بعلومه ومعارفه) لأن أهل العلم إذا لم يكونوا يعلمون بالتأويل ، لم تكن عندهم مزية تصديق توجب لهم من الإيمان به مالا يوجب به عند غير أهل العلم ، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم المؤمنون ، وهذا إنما يحمل على الإيمان الذي يكون من قبل البرهان ، وهذا لا يكون إلا مع العلم بالتأويل ولا يكون البرهان إلا مع العلم بالتأويل لأن الله تعالى أخبر أن لها تأويلاً هو الحقيقة والبرهان .

وهكذا أخطأ الغزالي فيما نسبه إلى الحكماء المشائيين ، (١) أتباع أرسطو من أنهم يقولون إن الله تعالى يعلم الجزئيات ، بل يرون أن الله تعالى يعلمها بعلم غير مجانس لعلمنا لها ، لأن علمنا معلوم للمعلوم به ، فهو محدث بحدوثه ومتغير بتغيره ، وعلم الله تعالى بالوجود على مقابل هذا فإنه علّة للمعلوم الذي هو الموجود (٢) .

أما مسألة قدم العالم ففيها اختلاف بين المتكلمين من الأشاعرة ومنهم الغزالي ، والحكماء المتقدمين ، سببه الرجوع للاختلاف في التسمية ، لأنهم اتفقوا على ثلاثة أصناف من الموجودات طرفان وواسطة بين الطرفين ، فاتفقوا في تسمية الطرفين واختلفوا في الواسطة ، أما الطرف الواحد فهو موجود عن سبب فاعل ومن مادة والزمان متقدم على وجوده ، وهذه حال الأجسام التي يدرك تكونها بالحس مثل تكون الماء والهواء والأرض والحيوان ... وهذا الشيء اتفق القدماء والأشعرية على تسميته بالمحدث . أما الطرف المقابل لهذا فهو موجود ، لم يكن من شيء ولا عن شيء ، ولا تقدمه زمان ، واتفق الفريقان على تسميته قديماً وهذا الموجود مدرك بالبرهان ، وهو الله تبارك وتعالى فاعل الكلّ وموجده والحافظ له .

أما الموجود بين هذين الطرفين ، فهو موجود لم يكن من شيء ولا تقدمه زمان ولكنه موجود عن شيء فاعل ، وهذا هو العالم بأسره . والكل ممن ذكرنا متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم ، فالمتكلمون يسلمون أن الزمان غير متقدم عليه فهو شيء مقارن للحركات والأجسام ، ويتفقون أيضاً مع القدماء على أن الزمان المستقبل غير متناه ، وكذلك الوجود المستقبل ، وإنما يختلفون في الزمن الماضي والوجود الماضي ، فالمتكلمون يرون أنه متناه .

==

(١) نسبة إلى زعيمهم ، كان يلقي تعاليمه وهو يمشي .
(٢) ابن رشد : فلسفة ابن رشد ص٢٢-٢٣

وهذا مذهب أفلاطون وأرسطو يرى أنه غير متناه كالحال في المستقبل فهذا الوجود الآخر الأمرُ فيه بيّن ، إنه قد أخذ شبهاً من الوجود الكائن الحقيقي ، ومن الوجود القديم ، فمن غلب عليه ما فيه من شبه القديم على ما فيه من شبه المحدث سماه قديماً ومن غلب عليه ما فيه من شبه المحدث سماه محدثاً ، وهو في الحقيقة ليس محدثا حقيقياً ولا قديماً حقيقياً .

فالمحدث الحقيقي فاسد ضرورة والقديم الحقيقي ليس علة وقد سماه أفلاطون محدثاً أزلياً لكون الزمان لديه متناه من الماضي ، والذي يقرأ القرآن يرى أن ظاهره يقتضي وجوداً ثانياً بعد هذا الوجود مثل " ثم استوى إلى السماء وهي دخان " (١) يقتضي ذلك بالظاهر أن السموات خلقت من شيء أو قوله تعالى " وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء " (٢) يقتضي بظاهره وجوداً قبل هذا الوجود وهو العرش والماء ، وزماناً قبل هذا الزمان . ومع هذا يتابع ابن رشد قوله ، بأن الظاهر من الشرع لا يجوز تأويله ، وإن كان تأويله في المبادىء فهو كفر ، ونفس الشيء إذا أوّله أهل البرهان على الظاهر فهو كفر (٣) .

ويتابع ابن رشد ردوده على الغزالي بقوله: إن الأشعرية يتعاطون البرهان ويتأولونه تأويلا مع اختلاف الظاهر، وكذلك منهم من يجمع فيها التأويلين (يحملون البرهان على ظاهره وإن كان لا برهان يؤدي إلى استحالة الظاهر) كما يفعل الغزالي في بعض كتبه فمن ظاهره الإيمان ، نؤوله في حقه للكفر ، فهو كفر وهذا لا يجوز . وكأننا هنا نرى ابن رشد يوصم الغزالي بالكفر، حين ينسب ذلك للفلاسفة المشار إليهم .

ويستتبع ابن رشد بحثه في فكر الغزالي بقوله إنَ الرجل إنْ كان يقصد خيراً ليكثر أهل العلم في مجال دراسة هذا الفن ، ـ إلا أن الفساد كثر بذلك ـ ولم يكثر أهل العلم . وقد تطرق قوم إلى ثلب الحكمة ، بينما تحول فريق آخر إلى ثلب الشريعة وجمع فريق بين الأمرين ، ويشبه أن يكون هذا أحد مقاصده في كتبه . والجليّ أن الغزالي – برأي ابن رشد – لم يلتزم مذهباً محدداً ، فهو أشعري مع الأشاعرة ، صوفي مع الصوفية ، وفيلسوف مع الفلاسفة ، يوافق كل فريق في الرأي ، ولا بن رشد في هذا الصورة الأخرى ، ودخل الإمام الغزالي في حرب سجال مع الفلاسفة

==

(١) سورة السجدة : آية١٢

(٢) سورة هود : آية ٨

(٣) ابن رشد : فلسفة ابن رشد ص٢٤ـ٢٥ـ٢٨

ممن لا عقيدة دينية عندهم ورد عليهم زعمهم أنهم أهل المنطق والبرهان . (١) أورد الغزالي عبارات عديدة في كتاباته حول اهتمامه بعلم الفلسفة فيقول : " فشمّرت عن ساق الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ ، وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي ٠٠٠ فأطلعني الله بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة على منتهى علومهم في أقل من سنتين ، ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريباً من سنة ، وأعاوده وأردده حتى اطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس ، وتحقيق وتحصيل إطلاعاً لم أشك فيه " . (٢)

يعتبر كتابا الغزالي " مقاصد الفلاسفة " و " تهافت الفلاسفة " من أبرز كتبه في هذا المجال ، ففي المقاصد ذكر عرضاً لفلسفتي الفارابي وابن سينا ، دون أي نقد ، بينما اتبع كتابه " تهافت الفلاسفة " نقدا مركزا للعقائد ، وقد ألفه في الأزمة التي دعته إلى مغادرة بغداد . وذكر في كتابه عشرون نقطة في آراء الفارابي وابن سينا تتعارض مع ما يطالبون به من مقاصد . وركز على الفلاسفة وأشار بأنهم لا يناقشون آراءهم نقاشاً إيجابياً ، وبلا شك دفعه إلى التشكك (٣) فتعرف في كتابه تهافت الفلاسفة على كنه فلسفة الفلاسفة والمتكلمين .

ومن أبرز النقاط التي دارت حولها فلسفة الغزالي : السببية ، العليّة ، فلسفة الشك ، نظرية المعرفة ، وكلها مرتبطة بقدرة الله تعالى وجبروته ومشيئته . ولا بد من الإشارة إلى أن فكرة السببية لها المكانة الجوهرية في المجال الفلسفي ، فهي من أسس مناهج البحث وطرائق العلم ، وقد تناول الفلاسفة المسلمون مباحث السببية بأسلوب استقصائي ، وكان الغزالي من جملة من عزز الفكر الفلسفي الإسلامي من خلال مناقشة العقل وربطه به . ويمكن تعريف السببية بأنها اقتران السبب بالنتيجة أو العلة ، وتكون الرابطة أوضح بين الظاهرتين الأولى تدعى السببية والثانية وتدعى المسبب أو النتيجة أو المعلول . (٤)

==

(١) الغزالي : المنقذ من الضلال ص٦٤
- حسين أمين : الغزالي فقيهاً وفيلسوفاً ومتصوفاً ص١٦٧-١٦٨
(٢) الغزالي : المنقذ من الضلال ص٦٩-٧٠
(٣)
ENCYCLOPAEDIA OF : ISLAM: ALGHAZALI P.2 P. 1040
(٤) قاسم يحيى اسماعيل : مقال مفهوم الغزالي للسببية ، مجلة آداب الرافدين عدد ١١ كانون الأول ١٩٧٩م ، الموصل ص١٤٩-١٥٠

وتتضح فلسفة الغزالي في مناهضة الفلاسفة والمتكلمين ، وقد اعتمد على السببية وجعلها أساس دراساته، فنفي السببية برأيه يعود إلى رؤية عقلية يمكن إخضاعها إلى التجربة . وأشار الغزالي إلى هذه الفكرة في كتابه التهافت في القسم الخاص بالطبيعات (١) . ومع هذا أورد الغزالي من الأدلة العقلية المقنعة ، النار التي صفتها الاحتراق إذا ما اتصلت بالقطن ، ولا يمكن أن تحدث النار غير هذه النتيجة فلا النار تتحول إلى شيء غير محرق ، ولا قطعة القماش تتحول إلى مادة غير قابلة للاحتراق إلا إذا دخل عليها مؤثر خارجي ، يغير من طبيعتها .

وأردف إن النظام السائد في مخلوقات الله تعالى يبدو من خلال انتظام الحركة في الموجودات السماوية والأرضية ، وهذا النظام لا يمكن أن يتغير في مساراتها لأنه بذلك يحدث خللاً ، ويلحق بالنظام الذي يبدعه الخالق خللاً واضطراباً ، وهذا من آثار حكمته الإلهية . وبالاستناد إلى المفهوم الطبيعي فهناك إقرار بالتلازم بين الأسباب والمسببات . (٢)

ويتضح في الغالب الاقتران بين ما يعتقد في المادة سبباً وبين ما يعتقد مسبباً ، ولا من ضرورة أن تهدم إحداهما الأخرى وبالعكس ، مثل الري والشرب ، الشبع والأكل ، الاحتراق ولقاء النار ، النور وطلوع الشمس ، الموت وجزّ الرقبة ، الشفاء والشبع دون الأكل ، وقلق الموت دون جزّ الرقبة ، وإدامة الحياة مع جزّ الرقبة ، وبمقدور الله إقرار الاحتراق في القطن عند ملاقاة النار ، ويمكن جواز وقوع الملاقاة بينهما دون احتراق ، وحتى حدوث انقلاب القطن رماداً محترقاً دون ملاقاة النار ، لأن الذي جعل القطن محترقاً ورماداً هو الله سبحانه و تعالى ، وإن النار جماد لا فعل لها . ويرى الفلاسفة الطبيعيون إنكار جواز ذلك باعتبار أن فاعل الاحتراق هو النار ، وهو فاعل بالطبع لا بالاختيار . (٣)

وتابع الغزالي سرده بقوله : إن تعاقب حادثة بعد أخرى تدفعنا لمشاهدة الأول وهو السبب ، والثاني وهو المسبب . وحتى مشاهدة هذا التعاقب لا يسمح لنا أن يجعل الحادثة الأولى علة لوجود الثانية بالاستناد إلى قانون السببية . وهكذا أكد الغزالي إرادة الله في المعجزات ، وسخر أسس العقل والعلم لعقيدته الدينية ،ويرى أن إنكار

==

(١) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص٢٢١
- اسماعيل : مقال مفهوم الغزالي للسببية ص١٥١-١٥٢
(٢) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص٢١٤ - اسماعيل : المقال السابق ص١٥٣
(٣) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص٢٢٧-٢٢٨ ، المنقذ من الضلال ص١٠

السببية يجرّ إلى محاولات شنيعة ، كانقلاب جرة الماء شجرة تفاح وهكذا . (١)

ودعّم الغزالي فكرته في إبطال السببية إلى فكرة الأرسطية القائلة بأن الحركات الطبيعية تنتهي حتماً إلى محرك أول لا يتحرك . ولم تكن غاية أرسطو نفي السببية . وأثبت الإمام الغزالي أن العلل الطبيعية لا فعل لها في نفسها ، وإنما هي مسخرة لله تعالى ، والله هو الفاعل الأوحد ، وأثبت الغزالي " أن كل ما في الوجود داخل في الحضرة الإلهية . (٢) والحقيقة أن الذي كان مسيطراً على تفكير الغزالي لم تكن غايته إحكام العقل إلا من أجل الدفاع عن حقيقة الدين ، وقد نجح في ذلك وقام بإرجاع أصل الدين إلى الكشف الباطني والإيمان القلبي ، واستبدل الغزالي مفهوم السببية هذا بمفهوم المعجزة الإلهية والنبوية . (٣)

وهكذا بحث الغزالي بالعلوم العقلية والعبادات الدينية ، وأشار للخلاف بين الفلسفة والدين ، وذكر أن العلم يستند إلى العقل ، وأن الدين ينبع من العقل ، وأن العقل لا يقتضي بالضرورة ، وجود القانون الذي تستند إليه جميع العلوم كما تدّعي الفلسفة اليونانية ، بل بمقدور الفلسفة أن تنهل من الدين حين يثق العقل بالإيمان بالله تعالى . وهكذا مثّل الغزالي فلسفة صوفية إسلامية ، تنهل من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ، وتنبع من قلب المؤمن بالله تعالى فقط . (٤)

ومن تفكير الغزالي في الفكر الفلسفي الصوفي قوله : " ما في الامكان أبدع مما كان لو كان لكان " ومعناه لو فرضنا فيما يمكن من الكائنات أشياء أبدع مما أوجده الله تعالى ويوجده في الليل والنهار ، لكان هذا الوجود الآن أنقص إبداعاً ، وكان النقص يدخل في صفة الله تعالى القديمة وهو بديع السموات والأرض والنقص على الله محال ، ثم أطلقت الحكمة على العلم بهذا الإتقان الموجود في الكائنات وهو العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه من قيامها وفنائها بإرادته سبحانه وتعالى ، إلى غير ذلك من المعارف الإلهية والحقائق الربانية ، وهو علم أهل الله تعالى الذي اختصهم به دون غيرهم تعليماً منه سبحانه تعالى لهم ذلك ، من غير واسطة أحد ليكون مقدمة

===

(١) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص٢٣٣ ، المنقذ من الضلال ص١٠
- اسماعيل : المقال نفسه ص١٥٩
(٢) الغزالي :إلجام العوام ص٢٣
(٣) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص٢٣٢ ، المنقذ من الضلال ص١٢
- اسماعيل : المقال نفسه ص١٥٩
(٤) عزة حصرية : إمام السالكين شرح رسالة الشيخ أرسلان للشيخ عبد الغني النابلسي مطبعة العلم بدمشق ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ص٥٢

للعلم به تعالى " يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيرا" (١)
وناقش الغزالي مشكلة العلة والمعلول ، فوضع العليّة في صورتها الكاملة ، وحدد الأسباب الطبيعية بأربعة علل :

١ - **العلـة الفاعلـة :** وهو ما بذاته الحركة أو السبب في وجود الشيء ، كالنجار أو النار لتحرق ، والشمس لتنير وهذا فعل بالطبع ، وهناك فعل بالإرادة كالإنسان يمشي . (٢)

٢ - **العلـة المادية :** هذه العلةلابد من وجودها لوجود الشيء مثل الخشب للكرسي .

٣ - **العلـة الصورية :** وهي تمام الشيء كصورة السرير من السرير ، وصورة البيت للبيت .

٤ - **العلـة الغائيـة :** وهي المطلوب كالسكن للبيت والجلوس للكرسي ، وهكذا تتمثل الصورة إلى الجلوس في نفس النجار ، فلا يصير هو فاعلاً فلا بد من وجود الخشب للكرسي وعنصر الكرسي . (٣)

واستند الغزالي في مبدأ العلية إلى أننا نشاهد حادثتين واحدة بعد أخرى ، فاصطلحنا على تسمية إحداهما علة والأخرى معلولة ، بدون وجود أية رابطة بين الحادثتين . (٤) والأهم في العلة والمعلول تأكيد وجود الله تعالى من خلال إثبات قدم العالم ، فهذا القدم موجود مع الله تعالى ومعلولاً له ، غير متأخر عنه بالزمان وإن تقدم البارىء عز وجل عليه كتقدم العلة على المعلول ، وهو تقدم بالذات والرتبة لا بالزمان . (٥)

وضرب الغزالي مثالاً في الرد على الفلاسفة ، بقوله : إن بمقدور الله تعالى ، أن يخلق ما يريد على التساوق ، لا لكونه قادراً على خلق الشبع دون الأكل ، وخلق الموت دون حزّ الرقبة ، وإدامة الحياة مع قطع الرقبة . فأنكر الفلاسفة إمكانيته ، وادّعوا استحالته ، فأثبت الغزالي ، أن الزمان والعالم من فعل الله تعالى لا كما اعتقد الفلاسفة أن للعالم نهاية ، وأن المكان محدود . وبرأي الغزالي لا فرق بين الزمان والمكان ، فالبعد المكاني تابع للجسم ، كما البعد الزماني تابع للحركة ،

---

(١) النابلسي : خمرة الحان ورنة الألحان ص٧٩ - سورة البقرة: آية ٢٧٠
(٢) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص١٠١-٢٢٧-٢٢٨
- إسماعيل : المقال نفسه ص١٦٢
(٣) اسماعيل :المقال نفسه ص١٦٢
(٤) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص٢٢٧-٢٢٨
- حسين أمين : الغزالي فقيهاً وفيلسوفاً ومتصوفاً ص٢١
(٥) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص٤٩

وامتداد لها ، وهكذا لا فرق بين البعد الزماني والمكاني . (١)

يستوجب ما أشار إليه الغزالي في إثباته ، بتوجيه العقل إلى تصديق وجود صفة الله تعالى ، ويمكن رسم أمثلة توضح ذلك ، فتقدم حركة الشخص على حركة الظل التابع له بعضها علة وبعضها معلول ، فلا يقال تحرك الشخص لحركة الظل . (٢) ويمكن القول إن النار تحرق والسيف يقطع ، والثلج يبرد والخبز يشبع والماء يروي ، وقولنا تحرق معناه تفعل الإحراق ، وقولنا يقطع معناه و يفعل القطع .

إن من ألقى إنساناً في النار فمات يقال هو القاتل لا النار ، حتى إذا قيل ما قتله إلا فلان صدق قائله ، مع أن النار هي العلة القريبة من القتل ، وكأن الملقي لم يتعاط إلا الجمع بينه وبين النار ، ولكن لما كان الجمع بينه وبين النار بالإرادة سمّي قاتلاً ، ولم تسم النار قاتلة إلا بنوع من الاستعارة ، فدل أن الفاعل من يصدر عنه الفعل بإرادته . (٣) فالعلة والمعلول تعود إلى حركة اليد في الماء ، فتحرك الماء مع حركة اليد لا يكون قبلها ولا بعدها ، إذ لو تحرك بعدها لكانت اليد مع الماء قبل تنحّيه في حيز واحد ، ولو تحرك قبلها لا نفصل الماء عن اليد وهو مع كونه معها معلولها ، فإن فرضنا اليد قديمة في الماء متحركة كانت حركة الماء أيضاً دائمة وهي مع دوامها معلولة ، ولا يمتنع ذلك بغرض الدوام فكذلك نسبة العالم دائماً إلى الله تعالى .

ولا شك أن قدم العالم لا يزال موجودا مع الله تعالى ومعلولاً له (٤) فوجوب وجود الله تعالى لذاته علة فتكون ذات واجب الوجود معلولة . ومن الصور الأخرى أن نوع الإنسان معول على زيد وعلى عمر وليس زيد إنساناً لذاته ، إذ لو كان إنساناً لذاته لما كان عمرو إنساناً ، بل لعلة جعلته إنساناً ، وقد جعلت عمراً أيضاً إنساناً فكثرت الإنسانية بتكثير المادة الحاملة لها وتعلقها بالمادة معلول ليس لذات إنسانية .

وبانتقاد الإمام الغزالي للعلية يكون قد سبق أشهر العلماء الأوربيين الذين انبروا لهذا الموضوع ، فقد نجح الغزالي في بحث العلة بشكل جيد ، وربطها بالمذهب الإسلامي أي العلة والسبب . (٥) وظهرت النسبية فيما طرقه الغزالي لإثبات أزلية الله تعالى ، فلا بد لفاعل هذا العالم أن يكون موجوداً والمفعول موجوداً ، فالعالم ما هو إلا فعل الله تعالى أزلاً وأبداً .

==

(١) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص٤١-٢٢٧-٢٢٨ ، المنقذ من الضلال ص١٠
(٢) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص٦٢-٧١
(٣) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص١٠٣-١٠٤
(٤) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص٤٩-١٠٨-١٠٩
(٥) حسين أمين : الغزالي فقيهاً وفيلسوفاً ومتصوفاً ص٢٣

وما من حال إلا هو تعالى فاعل له ، لأنه مرتبط بالفاعل الموجود ، فإن دوام الارتباط دوام الوجود ، فإن انقطع انقطع ، فعلى هذا فإن الفعل يتعلق بالفاعل من حيث حدوثه لا من حيث عدمه . فإن نسبة الفعل إلى الفاعل من حيث أنه موجود معه كنسبة المعلول إلى العلة . (١) وتطرق الغزالي أيضا لمسألة هل للعلم نسبة به أم لا ، فقد تكون النسبة كجزء أو بعض أجزاء ، أو لا يكون لواحد من الأجزاء ، وهذا باطل فالذي لا نسبة له ليس هو من معناه في شيء ، فلا بد إذن من الإرادة والقدرة . (٢)

ورد الغزالي على الفلاسفة الذين قالوا إن العلم منطبع في الجسم انطباع اللون في المتلون ، فينقسم العلم بانقسام محله ، إذ لا يمكن أن تكون نسبة العلم كنسبة اللون إلى المتلون ، فتكون نسبته إليه كنسبة إدراك المداواة إلى الجسم . (٣)

ومن فرضيات الغزالي أن كل حادث مثل حدوثه لا يخلو ، إما أن يكون ممكن الوجود أو ممتنع الوجود أو واجب الوجود ، ومحال أن يكون ممتنعاً . وتتابعت فرضياته حتى تشكك بالعقل أيضا ، فكل ما قدّر العقل وجوده لم يمتنع عليه تقديره يسمى ممكناً ، وإن امتنع يسمّى مستحيلاً ، وإن لم يقدر على تقديره يسمّى واجباً ، ولا معنى لقضاء العقل إلا العلم بالإمكان ، فالإمكان معلوم وهو غير العلم ، بل العلم يحيط به ويتبعه ويتعلق به . (٤)

اعتمد الغزالي مذهباً عقلياً وضح فيه أصول المذهب الأشعري ، وبنى فلسفة تقوم على أساس التفسير للوجود ، ومع كل هذا لم يصل إلى يقين مطلق فظهر لديه الشك لذلك يعتبر صاحب نظرية الشك عند المسلمين العرب وبه تأثر الفكر الغربي وعلمائه ومنهم ديكارت . (٥)

تبدو مرحلة الشك عند الغزالي من أهم مراحل تطور عقليته المتفتحة ، دفعه إلى ذلك العصر الذي نشأ به فهو عصر مضطرب ، تعيش فيه الدولة العباسية دور ضعفها ، وكان للمشاحنات التي تواصلت في عصر الغزالي أثرها في دراسته وبحثه

==

(١) الغزالي :تهافت الفلاسفة ص١٠٧-١٠٨-١٠٩
(٢) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص٢٥٢-٢٥٤
(٣) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص٢٥٠-٢٥١
(٤) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص٨٣-٨٤-٨٥
(٥) حسين أمين : المرجع السابق ص٢٣-٢٤

توجيهات ذلك العصر ، وتقلباته الفكرية ، مع اضطراب الفرق . لذلك سعى استخلاص الحق من هذا الاضطراب ، فعايش التيارات الفكرية المتفاوتة ، ودفعته هذه الأوضاع إلى التأثر نفسياً والاندفاع نحو دراسة العلوم ، من علوم كلام وفلسفة لإدراك الحقيقة عبر البحث والتحليل والتعليل ، والانضواء في مدارج الصوفية والزهاد .

كان غرض الغزالي من الشك الوصول إلى اليقين الإلهي الذي دفعه لسلوك الوحدة والانزواء عن الناس ، فدرس الفلسفة آملا بذلك ، الخروج من الشكوك التي كان يشعر بها عقله (١) فنقب في علومها وأصولها ، وعقب على سبب دراسته صراحة أنه دخل لجّ بحر المذاهب فقال : " ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ، اقتحم لجة هذا البحر " وأخذ يخوض في غماره وأتبعه بالتفحص على المذاهب " وكان غرضه التمييز بين الحق والباطل ، ومن هو المحق ومن هو المبطل . (٢)

تعطش الغزالي لإدراك الحقائق ، وكان ذلك ديدنه ومسعاه من الله تعالى ، أن يميز الحق من الباطل والعلم بحقائق الأمور ، وطلب حقيقة العلم ، وظهر له مثلاً انقلاب الحجر إلى ذهب والعصا إلى ثعبان ، فلم يورث ذلك شكاً ولا إنكاراً ، وتابع وإني علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال بعضهم لا بل الثلاثة أكثر من العشرة بدليل أني أقلب هذه العصا ثعبانا ، لم اشك بسببه في معرفتي ، فلا بد من العلم اليقيني ، فلا ثقة ولا أمان إلا به ومعه . (٣)

توصل الإمام الغزالي بعد الشك إلى حقيقة العلم عن طريق الحدس الباطني في كتابه " المنقد من الضلال " مستخدماً أسلوب الشك المنهجي المعتمد ضرورة على الحدس والبداهة العقلية الأساس لكل معرفة . (٤) سعى الغزالي عبر التعليم والتوجيه لأبناء عصره بذل قصارى جهده للوصول إلى الحقيقة ، فأي مشكلة تقع على عينيه لا قرار نهائي فيها إلا بعد فحصها من كافة جوانبها ، والتعرف على أسباب وقوعها وحدوثها ونتائجها . وكان اختلاف أصحاب المبادىء الفلسفية قد دفعه نحو الشك

===

(١) الغزالي :المنقذ من الضلال ص١٩ـ ٥٥
ـ حسين أمين : المرجع السابق ص٢٥ـ٥٠
(٢) الغزالي : المنقذ من الضلال ص٥٧ـ٥٨ـ٥٩
(٣) الغزالي : المنقذ من الضلال ص٥٩ ـ حسين أمين : المرجع نفسه ص٤٧
(٤) عزة حصرية : إمام السالكين الشيخ أرسلان ص٥٢

للتمييز بين المحق والمبطل والمبتدع ، فاستخدم أسلوب الاستغراب والتعجب ، ليقوده الشك إلى اليقين . (١)

اتسع الشك لدى الإمام الغزالي باعتماد العقل ، وأن العقل ليس مستقلا بالإحاطة في جميع المطالب ، ولا كاشفاً الغطاء عن جميع المضلاّت ، وإنه لا بد من الرجوع إلى القلب ، فهو يدرك الحقائق الإلهية بالذوق والكشف . ولم يتعمق الغزالي في البحث عن حقيقة العلم ، بل أسرع في تحليل العلم اليقيني " فالعلم اليقيني هو العلم الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقي من ريب ولا يقارنه إمكان الوهم والغلط " .

حتى العلم بالعقل قد لا يكون فيه يقين ولا ثقة ، لأنه يمكن أن تطرأ على الإنسان حالة تكون نسبتها إلى العقل كنسبة اليقظة إلى النوم . وعلى هذا فقد تحول الإمام الغزالي إلى الجدل الكلامي وأساليب الخطاب للوصول إلى الإقناع بالمعقول ، فلا يؤثر في عقل القارىء . وبهذا الحدث خرج الغزالي من الشك إلى وجود ذلك النور الإلهي الذي زرعه الله تعالى في القلب ، فهذا الحدث هو مفتاح المعرفة ولولاه لما عاد اليقين إلى العقل . (٢)

تابع الغزالي إن الشك بعالمنا من المحسوسات تحاول أن تكون حاكمة للعقل ، ولا سبيل إلى مدافعته ، وقال : من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر؟ وهي تنظر إلى الظل، فتراه غير متحرك باعتماد العقل ومحاكمته ، وربما يتم تخوينه وتكذيبه . وبعد الوثوق بالعقليات للاستدلال على المحسوسات ، يبدأ الشك الذي ينتقل إلى العقل فيتشكل بالنفس الإنسانية ، (٣) ثم يتواصل الشك فيقول : بما تأمن من أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقاً بي ! فجاء حاكم العقل ليكذب أنه لولا حاكم العقل لبقيت مستمراً على تصديقي ، فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر وهكذا يرى الغزالي أنه لابدّ من الشك ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر يبقى في العمى والضلال . (٤)

---

(١) الغزالي : المنقذ من الضلال ص٥٩ - حسين أمين : المرجع نفسه ص٦٤-٧٤
(٢) الغزالي : المنقذ من الضلال ص٢٠-٢١ ، تهافت الفلاسفة ص٢٤٦
(٣) الغزالي : المنقذ من الضلال ص٦١
(٤) الغزالي : المنقذ من الضلال ص٦٣ - حسين أمين : المرجع نفسه ص٤٦-٤٩

وبحث الإمام الغزالي في نظرية المعرفة ومعيار اليقين ، لأن الباحث لا يرتقي إلى جذور هذه المعرفة إلا إذا كان يمتلك فكراً له جذور عقلية سامية . (١) فقد اعتبر الحساب والهندسة والفلك علوماً حقيقية لا شك فيها ، ولكن يبقى للعلم حدوده الضيقة ولا يجوز بناء العلم على الاعتقاد كما لا يجوز حصر الدين ضمن أحكام العقل وقوانين المنطق ، بل إن لكل من الناحيتين مصدراً هاماً ،فالعلم يستند إلى العقل والدين ينبجس من القلب . (٢)

وبحث أيضا في البديهة التي تدور حول بحث البناء البديهي للفكر ، وشيده بمحاولته المنطقية واعتمد في بناء فكره على المتغيرات والثوابت ، وجملة من العلاقات المنطقية ، وبهذه المستندات استطاع بناء البديهات ، ثم اعتمد لمتابعة طريقته المبرهنات ، التي اعتبرها قضايا مشتقة من البديهات ، فاستطاع وبصدق أن يبرهن تلك القضايا ، بالاستعانة بمجموعة من القضايا الاستنتاجية في الاشتقاق والاستدلال . (٣) ونلاحظ مما سبق أنه يجب عدم التسرع في رد مذهب ما ، فلا بد من العودة إلى البحث والطلب ، وإذا وجد في الأمر تبايناً ما ، لربما أن صاحب الصنعة نقله مجازاً على مذهب الآخرين . (٤)

ويمكن تلخيص مذهب الإمام الغزالي بما يلي : فهو يرى أنه إذا اجتمع أمران معاً ليس في ذلك دليل قاطع على أن الأول علة الثاني . وكذلك القانون الطبيعي وما يرتبط به من أثر يكون بذاته ، فلا يمكن للقانون الطبيعي ، أن يقيد إرادة الله تعالى بعلم مسبق لمصير الأمور . ونفى الغزالي أيضاً عن العلل والأسباب صفة الضرورة ، لكنه كان يعطيها صفة الاضطراد التي أودعها الله فيها . (٥)

ترك الغزالي أثراً كبيراً في الدراسات التي قدمها في كتاب التهافت ، فبعد نقده للفلاسفة لم يعد هنالك من أسماء عظيمة في العالم الإسلامي ، رغم عدم وضوح

==

(١) الغزالي : المنقذ من الضلال ص٩ ، تهافت الفلاسفة ص٤٤
- مقال إسماعيل : مفهوم الغزالي للسببية ص١٥١
(٢) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص٤٤-٤٥-٣١٣ ، المنقذ من الضلال ص٥-٩
(٣) الغزالي :تهافت الفلاسفة ص٢٥٠
- محمد جلاب فرحان : مقال الطريقة البديهية عند الغزالي مجلة آداب الرافدين عدد ١١ / ١٩٧٩م ص٧٣-٧٤
(٤) القفطي :تاريخ الحكماء ص٣٠٥
(٥) مقال إسماعيل : مفهوم الغزالي للسببية ص١٤٥

المنهج الفلسفي النقدي الذي اتبعه الغزالي . أدى نقد الغزالي للفلاسفة إلى عدم توافق الخصائص الفلسفية ، وخاصة المنطق في المنهج الإسلامي . وكان العلماء والفلاسفة قد خصصوا وقتاً أوسع للمناظرات الفلسفية كما خصصوا للأمور الدينية (١)

وهكذا يمكن أن نرى الغزالي شخصية ثقافية تبوأت مركزاً هاماً في مجال الفكر الإسلامي . كان الغزالي أول من طرق أبحاثاً فلسفية وثيقة الصلة والارتباط بالدين ، فعكس فلسفته بالنور اليقيني ، وناقش فكرة قدم الزمان والمكان وأزليتهما ، من دون وجود إله صانع لهما ، يتميز بالديمومة والأزلية والقدم بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير . فكان حرياً بنا أن نتقبل آراءه ومبادئه لندرك الأثر الذي تركه الغزالي في الفكر الإسلامي .

ومن العلماء الذين تميزوا في مجال الفلسفة محمد السمرقندي (ت٥٥٢هـ/١١٥٧م) تميز باهتمامه في المناظرة وبراعته في علم الجدل . (٢) وتحدث ابن عساكر عن محمد بن الحسن أبو الحسن الكفرطابي الأديب كان له رَأيٌ من رأي الفلاسفة ، يميل إليهم توفي سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م ، (٣) ومن العلماء الذين تميزوا بعلم الفلسفة الفيلسوف الطبيب العراقي أبو الفتوح ابن الصلاح ، صاحب المكانة في العلوم منها علم المنطق من مؤلفاته " الفوز الأصغر في الحكمة " (٤) وتميز الطبيب ابن الساعاتي بميله إلى معرفة الحكمة وعلوم المنطق كان حيا سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م . (٥) ومهر في علم الجدل أيضاً محمد بن علي بن عبد الله بن ياسر الأنصاري من أهل جيّان ، توفي سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م . (٦) وذلك لخدمة علم الأصول لا الفلسفة بحد ذاتها ، وكان عمر بن إبراهيم بن محمد بن أحمد القرشي العلوي أبو البركات الكوني متميزاً في علوم كثيرة ومنها علم المنطق . (٧)

---

(١) ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM: : ART ALGHAZALI . P.2 P.1041

(٢) السيوطي : طبقات المفسرين ص٩٢

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٣٥٠

(٤) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٩٨

(٥) الصفدي : الوافي بالوفيات ج١٤ ص١٢٨-١٢٩

(٦) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٦ ص١٥٣-١٥٤

- المقري : نفح الطيب ج٢ ص١٥٧

(٧) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص ٤٩٨-٤٩٩

إن عدم الإهتمام بعلم الفلسفة في ظل الحكم البوري خاصة يعود لأسباب عديدة منها : إن العصر تمتع بخصوصية الهجمة الفرنجية على ديار الإسلام ، لذلك قامت أساسيات هذا العصر ، على علوم الدين ، والتحريض على الجهاد في سبيل الله تعالى ، والانشغال بالأعداء ، وعلى هذا فإن الفلسفة لم يكن لها رأس يتطاول ، لوقوف العلماء في وجه من يتكلم ، أو يتجرأ على الخوض في هذا المضمار . كما أن كتب الفلاسفة غالباً ما تعرضت للتحريق على يد مناوئيهم ، أو للغرق بسبب العوامل الطبيعية .

وهذا ابن عساكر الحافظ يشير لأحدهم ، ويدعى محمد بن الحسن الكفرطابي (ت ٤٩٨هـ /١١٠٤م) بأنه كان لديه رأي من رأي الفلاسفة ، وكان يميل إليهم . (١) ونادراً ما ترجم ابن عساكر لأمثال هؤلاء الفلاسفة ، فهو يصفهم ويصمهم بأسلوب الذم ، هذا فلان له رأي من آراء الفلاسفة ، أو إنه يميل إلى رأي الفلاسفة ، وفي موقع آخر ، ذكر الطبيب ابن الساعاتي (كان حياً ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م) وألمح بأن له معرفة بالحكمة وعلوم المنطق . (٢)

وبمجرد إيراد عبارة كان له رأي في الفلسفة ، فإن ذلك كافياً في الغالب أن يحال بينه، وبين كتاباته الفلسفية ، وبين الإشارة إليها ، خوفاً من أن تغوص الفلسفة بالعلوم الدينية ، وتهوي بصاحبها بدل هدايته . ومع أن بعض علماء الأندلس مهر في هذا الفن ، إلا أن مَن تمت الترجمة لهم يمثلون النذر اليسير ، فقد ورد أن محمد بن علي الأنصاري ت ٥٦٣هـ/١١٦٧م مهر في علم الجدل ، لربما يكون قد ربط الجدل بعلم الأصول لا بعلم الفلسفة فقط والله أعلم . (٣) والملاحظ مما سبق ، أن الإشارة كانت تتم لمن كانت لديهم اهتمامات فلسفية ، من دون الخوض في التفاصيل والمجريات ، ولم يقع تحت نظرنا سوى مؤلفات الغزالي وأفكاره التي قادها لإنهاء نفوذ الفلسفة طيلة حياته وحتى العام ٥٠٥ هـ/١١١١م تاريخ وفاته .

وما نخلص إليه ، إننا لم نلمس مَنْ تميز أو برع ، أو بالأصح مَنْ تُرجم له وكُتب عن مؤلفاته في فترة الحكم البوري ، لأن الإمام الغزالي دفن الفلسفة قبل أن يغادر ، ولم يجرؤ أحد من بعده على الخوض فيها ، إلا النذر اليسير الذي لم يصلنا .

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٣٥٠
(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ج١٤ ص١٢٨-١٢٩
(٣)المقري : نفح الطيب ج٢ ص١٥٧

وهكذا تضمن علم الفلسفة عمق الكلمة في المعنى ، من حيث المنطق وعلم الكلام والفلسفة التي أطفئت أنوارها تقريباً في ظل الحكم البوري ، لأن الإمام الغزالي قاد حملته عليها منقضاً على أفكارها ومنطقها ، داكاً لأركانها ، فانعدم ذلك العصر من منافس ، يحمل لواء الفلسفة ويعيد إليها ضياءها السابق ، باستثناء ابن رشد حيث لم يقدر من أتى بعده الوقوف أ والتصدي للمتصوفة والفقهاء ، لأن مصير من كان يعلن اهتمامه بالكتابات الفلسفية ، على أقل تقدير هو التعرض لإحراق كتبه أو قتله إن حمّل أفكاره ما يتناقض و الفكر الإسلامي ، حول الأزلية والعدمية والطبيعية وأسباب وجودها وموجودها إلى آخره من الأفكار ، التي حملت في طياتها مؤثرات فلسفية قديمة . إلا أن أبرز ما اتصفت به فلسفة الإمام الغزالي إن أردنا الإشارة إليها تركيزها على الشك للوصول إلى اليقين هذا اليقين المرتبط بالنور المشع من القلب يقذفه الله سبحانه وتعالى بمن أراد أن يقربه إليه بالكشف والمعرفة .

٢ ـ علـم الفـــلك:

ـ علـم الفـلك والنجـوم أو علـم الهيئـــة :

هو علم هيئة الأفلاك ، ومقادير حركات الكواكب ، وعلم أحكام النجوم ، واستيفاء ضروبه ، ويقال هو تخمين للاستدلال به على أشكال الكواكب وامتزاجها ، لذلك تحول الإنسان نحو السماء مستكشفاً طبيعة وتركيب هذه الأفلاك وتسميتها وسعة أقطارها ، وسرعة دورانها ، ومعرفة الكواكب وأسمائها وكذلك سبب تسمية السماء . وقد قيل سميت كذلك لسموها وسمي علم الفلك لاستدارته . (١) ولأهمية هذا العلم فقد اعتبره الإنسان منذ القديم علماً متميزاً يواجه به مشاكله الحياتية ، فهو الهادي إلى الطرق في الصحراء عبر النجوم ، وكذلك يُعرّف بمواقيت هطول الأمطار ، وفيضان الأنهار وهبوب الرياح ومعرفة الزمان ومعرفة القبلة للصلاة (٢).

---

(١) إخوان الصفا : رسائل إخوان الصفا ج٢ ص١٩-٢٥
ـ الغزالي : مقاصد الفلاسفة ص٢٢٢
ـ القفطي : تاريخ الحكماء ص١٦٣ ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص٤٥٨

(٢) ابن صاعد : طبقات الأمم ص٤٥ ـ ابن الأجدابي : الأزمنة والأنواء تحقيق عزة حسن دمشق ١٩٦٤م ص١٠٦ ـ ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل تحقيق محمد إبراهيم نصر عبد الرحمن عميرة بيروت ، دار الجيل ١٩٨٥م ج٥ ص٣٧

عرف علم الفلك عند القدماء من اليونان والهنود والفرس ، ولقد كان تصور العالم لديهم أن الأرض هي مركز الكون ، وأن الأفلاك كلها مع نجومها الثابتة والسيارة تدور حول الأرض ، وأنه نتيجة هذه الحركة المستمرة التي تستغرق أربعاً وعشرين ساعة يحصل تعاقب الليل والنهار . (١)

اطلع العلماء المسلمون العرب على الكتب العلمية القديمة فهضموها وعملوا على تصحيح ما يستوجب تقييمه منها ، إضافة إلى ما اكتشفوه أو أبدعوه فإليهم يعود الفضل في اكتشاف النقص المتواصل في انحراف سمت الشمس ، والاضطرابات التي تحدث في القمر ، وبينوا اضطراب السيارات في أفلاكها ، فنجح توفيق النحوي (ت٥٤٦هـ/١١٥١م) في فترة الحكم البوري في التعرف على مسار الكواكب . (٢)

وكان للمسلمين العرب أيضا مكانة كبيرة في حساب الاختلاف الثالث في حركة القمر ، ومشاهدة الكلف على سطح الشمس ، وحساب عبور عطارد على سطح الشمس ، ومعرفة أوقات مطالع النجوم ومغاربها ، وطول السنة العادية والسنة النجمية ، ورصد كسوف الشمس وخسوف القمر . ولا تزال أسماء بعض النجوم ذات الأصل العربي ، برهانا بينا على الطابع الإسلامي العربي في علم الفلك ، مثل " الدب الأكبر " و "الدب الأصغر " ، " المجرة" ، " الجوزاء " و " سهيل " . (٣)

انتشرت المراصد في المدن الإسلامية ، فبنيت الأبراج الشامخة لرصد الأجرام السماوية عبر أدوات ومعدات فلكية ، تساعدهم في دراستهم هذه . وقد ارتبط علم الفلك بالرياضيات والهندسة ،وعلم أشكال الهيئة لتكون أبحاثهم مبنية على أساس الدراية والتثبت والتحقق ، لا أن تقوم على مبدأ الصدفة أو الحدس والتخمين . (٤)

عرف المسلمون العرب من خلال بحوثهم في علم الفلك قوس الرحمة (قوس قزح)، ووصفوه وقالوا في ذلك : إنما سمي بذلك لتفرقه أي تلونه ، وقد ذكر ابن القلانسي شارحاً حادثة وقعت ٤٩٩هـ/١١٠٥م حين " ظهر في السماء من

==========

(١) سيزكين : مكانة الفلكيين ص٦٣
(٢) القفطي : إنباه الرواة ج١ ص٢٥٨
(٣) ابن الأجدابي : الأزمنة والأنواء ص٦٥-٦٧-٧٢-٧٣
(٤) البيروني : الرسائل المتفرقة في الهيئة ، مقال في استخراج ساعات ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس كل يوم من أيام السنة بمدينة قاين لأبي الحسن علي ابن عبد الله بن بامشاد القايني ص٢

الغرب كوكب له ذؤابة كقوس قزح ، أخذ من المغرب إلى وسط السماء وقد رُئي قريباً من الشمس نهاراً قبل ظهوره في الليل ، وأقام عدة ليال وغاب " . (١)

عمل كثير من المسلمين في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، أيام الحكم البوري في صناعة علم النجوم ،واتضحت معالم ذلك خاصة عند ابن القلانسي حيث أشار إلى الأزياح (٢) والأبراج الفلكية ، وذكر أن إمبراطور القسطنطينية كان طالع ظهوره سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م عشر درج من الميزان ، وأن الزهرة والمشتري في العاشر والشمس في الأسد والمريخ في السابع . (٣)

ومن العلماء المسلمين الذين عملوا في صناعة علم النجوم في فترة قريبة من الحكم البوري العالم السميساطي (ت٤٥٣هـ/١٠٦٠م) الذي كان بارعا في علم الهيئة والفلك ،ومن الذين برزوا وتميزوا في هذا الفن أبو الفضل ابن عبد الكريم المهندس (ت٥٩٩هـ/١٢٠٢م) الذي اهتم بصناعة النجوم وعلم الزيجات ، ألف كتاباً في معرفة رمز التقويم ، ووضع مقالة في رؤية الهلال ، وقد ضاعت مؤلفاته في هذا المجال (٤) .

وبرز أيضا الطبيب المهندس الفيلسوف الفلكي ابن الصلاح(ت٥٤٨هـ/١١٥٣م) كان غاية في الذكاء والتقاف العلوم ، متميزا في فن علوم النجوم ، له من الكتب مقالة في الشكل الرابع من أشكال القياس الحملي ، (٥) ووصل إلى دمشق أيضاً العالم الفلكي الشرف الطوسي ، كان معاصراً للعالم أبي الفضل ابن عبد الكريم المهندس . (٦) إضافة إلى العالم ابن الساعاتي رضوان الدين محمد بن علي الخراساني الطبيب الملقب بأوحد أهل زمانه في علم النجوم . (٧)

==

(١) الأصبهاني : من محاضرات الأدباء ج٢ ص٢٤٤
- ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٢٤١

(٢) كتب في الجداول الفلكية ، مفردها زيج، وهي نوع من فروع الهيئة ، وهي صناعة حسابية على قوانين عددية خاصة بكل كوكب . د. نعيم الظاهر : الحضارة العربية الإسلامية دار اليازوري العلمية للنشر عمان الأردن طبعة ١ ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م ص١٢٥

(٣) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٠٤

(٤) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٧٠-٦٧١
- طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص٣٣٦

(٥) ابن القلانسي :المصدر نفسه ص٤٠٤ - طوقان :تراث العرب ص٣٣١-٣٣٢

(٦) ابن أبي أصيبعة :المصدر نفسه ص٦٧٠

(٧) الصفدي :الوافي بالوفيات ج٦ قسم ١٤ ص١٢٨

ونبغ في هذا المجال أيضا من العلماء الطبيب أبو المجد محمد بن أبي الحكم (١) كذلك وصل من مصر أحمد بن طاهر بن حيدره بن إبراهيم بن العباس المولود سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م والمتوفى في دمشق ، وقد تميز بمعرفة علم الهيئة المشهور بالفلك (٢) .

لم يقتصر علماء الفلك على الاهتمام والإقبال نحو العلوم الرياضية والطبية ، بل اهتموا أيضا بعلوم الدين ، وحظيت هذه العلوم بمكانة هامة لديهم ، وأحسنوا الجمع بين هذه الفنون ، ولقد كنا نميز منهم من عمل في التحديث والإقرّاء والنحو، إضافة إلى المعرفة الأكيدة بعلم الفلك وأسراره ، ولمع منهم الفلكي أبو المظفر سعيد ابن محمد بن عبد الله النيسابوري المحدث ، خرج من حوران وقدم إلى الشام سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م ، سمع من الفقيه نصر الله المصيصي وقطن في خانقاه السميساطي حتى وفاته سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م (٣) .

ومن علماء النحو الفلكيين تميز توفيق بن محمد النحوي (ت٥١٦هـ/١١٢٢م) الذي استقر في دمشق وعمل في علم النجوم ، وأما من الشعراء ، فتميز ابن القيسراني (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م) ، كانت له يد قوية في علم النجوم والأحكام والهيئة . (٤) وبرز من المقرئين عبد الرحمن بن مروان بن المبارك أبو محمد التنوخي المقرىء المعروف بابن المنجم ، كان أبوه منجّما ، توفي ابن المبارك سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م (٥) .

وُضعت الكتب الفلكية في نطاق هذا العلم ، لمعرفة إقبال فلك البروج وإدباره في حركات الكواكب ، وبرزت كتب عديدة في التنبيه إلى ما في الرصد من الخطأ ،

---

(١) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٢٨
(٢) القرشي : الجواهر المضية ج١ ص١٧٦
(٣) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ، تحقيق مصطفى جواد ، وزارة الثقافة ج٤ قسم ٣ ص٤٩٦ - الذهبي : سير ج٢٠ ص٤٢٢
(٤) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٩٨ - النعيمي : المصدر نفسه ج٢ ص٨٤
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوطة ج١٠ ص١٨٢

وصنفت الكتب في طريقة استعمال الإسطرلاب . (١) وكثرت الكتب الإسلامية العربية التي وضعت في الأزياج ، وحركات الكواكب وتصحيح أخطاء الآخرين ، مثل تصحيح المجسطي لبطليموس ، ووضع الفلكي ابن الصلاح نجم الدين أبو الفتوح ، وأحمد بن محمد السرّي مقالة في الشكل الرابع من أشكال القياس الحملي ، ووضع أبو الفضل ابن المهندس كتاباً في معرفة رمز التقويم . (٢)

وهكذا لقي علم الفلك عند المسلمين العرب اهتماماً واسعاً فعملوا في الرصد والأزياج ، وألفوا وأبدعوا وصححوا كتابات الأقدمين ، وأعادوها إلى جادة الصواب ، ولم يجدوا حرجاً ، من الإفادة من كتابات الأوائل وتسخيرها في خدمة هذا العلم الجليل ، الذي عرف لديهم بعلم الهيئة . وتصدوا للأفاقين من المنجمين ، الذين أقحموا أنفسهم في هذا العلم تحت تسمية علم النجوم ، فعرّوهم ، وبينوا جهلهم وضلالهم في هذا العلم ، وأعلنوا أن مفاتيح علم الغيب ، بيده عز وجل حصراً ، وأن أقاويلهم ما هي إلا من باب الضرب في النجم . وكما يقال كذب المنجمون ولو صدقوا . ولم يكن هناك حرج على فئات متعددة من علماء الطب والهندسة والكيمياء والشعر والأدب وحتى علوم الدين أن يدرسوا هذا العلم ويقبلوا عليه لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، حث على التعرف إلى اتجاه القبلة والطرق والسير في الليل عبر النجوم ، وعلى هذا فإن علم الفلك من العلوم المهمة جداً لدى المسلمين العرب كواقع علمي وحياتي في آن معاً .

٣ - علـــم الطـــب:

يبحث علم الطب جسد الإنسان وحالته أو بنيته الصحية والمرضية ، لالتماس سلامة الجسم من الأمراض وإزالة المرض والعلة . (٣) ولا شك أن حضارات الأمم وتاريخها ، يقاس بمدى تقدمها في مجالات عديدة من العلوم والفنون . إن الاهتمام بتاريخ العلوم يؤكد على الرقي الفكري ، لذلك سنوجه الأنظار إلى ما تركه المسلمون العرب من منجزات حضارية في ميدان الرعاية الصحية ، والاهتمام بأحوال المجتمع ككل والاهتمام بتحسين المرافق العامة ، وتأمين مياه الشرب ، والوسائل العلاجية

==

(١) البوزجاني : أبو الوفا محمد (ت٣٧٦هـ/٩٨٦م) ما يحتاج إليه الصانع من علم الهندسة ص١٥ - القفطي : تاريخ الحكماء ص١٦٧ – الإسطرلاب : كلمة يونانية تعني ميزان الشمس وهو قرص من المعدن أبو الخشب يعلق بحلقة ، في المركز مؤشر يمكن إدارته نحو المرئي ، ويقسم القرص إلى درجات يعتمد فيها زاوية ارتفاع النجم أو الشمس في أية لحظة . اليافعي : مرآة الجنان دار الكتاب الإسلامي القاهرة ١٤١٣هـ نسخة أخرى ج٣ ص٢٦٢ د٠علي عبد الله الدفاع : أثر علماء العرب والمسلمين في تطور علم الفلك ط٢ مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣م ص٣٥

(٢) ابن النديم : الفهرست ص٣٧٤ - طوقان : تراث ص٨٩-٩٠-٣٣٢-٣٣٦

(٣) السخاوي : إرشاد ص٦٨

والمجاني ، مع الحرص على عدم اختلاط الأصحاء بالمصابين بأمراض معدية ، فأنشأت لذلك الغرض المشافي بأقسامها المتخصصة للأمراض العامة والأمراض المستعصية ، وأجريت الأرزاق على المرضى ،وخَصّت المصابين بالجذام الوبائي والسل بقسط أكبر من النفقات ، وقد أكد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، على المسلم ، أن يفرّ الصحيح المعافى من المجذوم فرار الإنسان من الأسد ، وأن (لا يورد مريض على مصحّ) (١) .

تعود أصول علم الطب إلى ما أخذه المسلمون العرب عن الحضارات السابقة القديمة ، فقد كشفت الوثائق القديمة مكانة الطب عند المصريين القدماء ، الذين يعتبرون واضعو أسس علم الطب ، كان هذا العلم يمارس بالتخصص المعمق ، فهناك أطباء العيون ، وأطباء الرأس ، وأطباء الأسنان ، وهكذا . أما اهتمامات اليونان بعلم الطب ، فالشهرة تطير مباشرة إلى ابقراط المعلم الإنساني الأول لمهنة الطب ، وهو أول من رتب الطب وبوبه ، وبناه على أسس علمية صحيحة ، ورفع من آداب المهنة ، وهو أول من بنى الطب على أساس التجربة العلمية الصحيحة ، وطهره من الخرافات والأساطير . (٢)

وأبرز الأمراض والوصفات الطبية التي تم التعرف عليها ، فعرف من الأمراض ، مرض الرمد والمفاصل ، وأمراض النساء ، وأمراض العيون ، وتم التعرف على معالجة الجروح والكسور ، وكذلك أعراض المرض وعلاماته وطرق تشخيصه وسبب الإصابة به ، ثم العلاج النهائي للحالة عن طريق المقيّئات والحقن . (٣)

وكذلك اهتم البابليون والآشوريون بصناعة الطب ، حيث كُتبت الأمراض ووصفاتها على حيطان الهياكل كي ينتفع بها من به حاجة إليها . (٤) أما الكلدانيون ومآثرهم في الطب فقد تم التعرف عليها من خلال الكتب التي وضعوها وقد نقلت إلى العربية فأشار ابن النديم في الفهرست إلى كتاب "السموم " الذي عمل ابن وحشية على ترجمته ونقله مع كتب أخرى إلى العربية . (٥) وتعرّف الطب الفارسي خواص الأدوية ، مع تواصل اعتماده على الأطباء المصريين ، وغلب على الطب الفارسي التنويم والرقى ، وبعض المبادئ الطبيعية العلمية ، ووقف المسلمون على الطب

===

(١) الإمام مسلم : صحيح مسلم لشرح الإمام النووي مؤسسة مناهل العرفان ١٣٤٩هـ ج١٤ ص٢١٣-٢٢٨

(٢) د. فتحية النبراوي : تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ، دار الفكر العربي طبعة ٧ . ١٤٠٧هـ /١٩٩٤م ص٧٦- ٧٧

(٣) الماحي التجاني : مقدمة في تاريخ الطب العربي ط١ ١٩٥٩م ص٩-١١-١٢

(٤) الماحي : المرجع السابق ص١٥

(٥) ابن النديم : الفهرست ص٤٣٣ - الماحي : المرجع السابق ص١٧

الهندي ، ولم يقتصروا على الاقتباس منهم بل أضافوا إلى ذلك تجاربهم . (١)

ومن محاولات العرب القدماء في مجال علم الطب ما تناقله العرب في الجاهلية من أساليبٍ للعلاج ، الأولى تعتمد على الكهانة ، والثانية تعتمد على العقاقير ، وأبرز ما تفتق به العرب استعمال طريقة الكي والحجامة والفصد والتعامل مع النبات في علاج بعض الأمراض . (٢) إلا أن المسلمين العرب كيّفوا ذلك الطب حسب حاجاتهم ، وأضافوا عليه الكثير فأغنوه وتوسعوا به ، واتبعوا طرقهم الخاصة وأساليبهم العلمية القويمة القائمة على الأمانة العلمية فنسبوا لتلك الأمم كل ما ترجموه عنها أو أخذوه ، أما ما نقلوه عن التراث اليوناني ، فقد وضعوه في قالبه العلمي السليم ، ثم توسعوا في الترجمة عن تلك العلوم لتكون بالإضافة إلى ما سبقها منبعاً ينهل منه الراغبون في ذلك .

دعا الإسلام منذ نشوئه إلى النظافة العامة في المسجد والثياب والرفق بالجسد بمعالجته وعدم إرهاقه في الأشياء التي تؤدي إلى إضعافه وهلاكه . وللجسد وظائف متعددة منها ، التفكير السليم والإحساس بما حولنا ، والمسؤول عن ذلك الدماغ ، وبعضها له أهمية في الهضم والغذاء يشرف عليها الكبد ، ولتأمين الحركة اللازمة المطلوبة لاستمرار الحياة ، و كان هناك دور للشرايين والأوردة في إيصال الغذاء والدم إلى الدماغ . (٣)

ربط البعض الطب بالسحر والشعوذة ، منذ العصور القديمة ، وهذا خطأ أكده الإسلام ، إذ رفض السحر والشعوذة ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (لا رقيّة إلا من عين أو حمة) ، ونهى عليه الصلاة السلام عن تصديق أقوال السحرة أو السماع لهم بقوله : (فلا تأتوا الكهان) وتابع قوله بأن الجان تقذف بأذن وليها كلمة حق فيزيد ها بأكثر من مائة كذبة . (٤) وقد حضّ الإسلام على تطبيب الجسد بقوله صلى الله عليه وسلم (لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواء الداء برىء بإذن الله) وقال أيضاً : (إن كان في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجم أو شربة من عسل أو لذعة نار) . ومن استطبابات الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : (الحمى من فيح جهنم ، فأطفئوها بالماء) ، وقوله صلى الله عليه وسلم أن المعدة أو البطنة بيت الداء والحمية رأس الدواء . (٥)

---

(١) د. سيد رضوان علي : العلوم والفنون عند العرب ودورهم في الحضارة العالمية دار المريخ المملكة العربية السعودية ص٥٩

(٢) الماحي : المرجع السابق ص٣٥ - الديوه جي : دور العلاج والرعاية في الإسلام مطبعة الجمهورية ، الموصل ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م ص٥-٦

(٣) ابن الطفيل : حي بن يقظان ص٢٥ الديوه جي : دور العلاج ص٨

(٤) الإمام مسلم : الصحيح ج١٤ ص١٧٠-٢٢٣-٣٢٥

(٥) الإمام مسلم : الصحيح ج١٤ ص١٩١- ١٩٥-٢٠٢

عمل الأطباء المسلمون في المشافي العامة ضمن أوقات محددة وخاصة ، ومن ثم يتوجهون إلى دكاكينهم الخاصة بهم لعلاج المرضى الوافدين ، كما كان أبو الحكم عبيد الله بن المظفر الباهلي يطبب الناس في محل له في جيرون بدمشق . (١) ومثله الطبيب رضي الدين الرحبي الذي استقر ملازماً دكانه لمعالجة المرضى . (٢)وكذلك عمل ابن البذوخ عمر بن علي (ت٥٧٦هـ/١١٨٠م) في دكان عطر باللبادين في دمشق يعالج من يصل إليه . (٣) ويبدو أن عيادات الأطباء الخاصة بهم كان مركزها حيّ اللبادين ، حيث يتجمع العديد من الأطباء فيها ، ثم يأتي بالدرجة الثانية موقع جيرون ، فلم يكن هناك ما يعترض تخصيص أماكن تطبيب الأطباء للمرضى . (٤)

وقد استفاد الأطباء من مواسم الحج لالتقاء بعضهم ببعض ، حيث تعقد الندوات الطبية وتدارس الآراء والأبحاث الجديدة ، فساعدت هذه الرحلات على ارتقاء علم الطب وتطوره ، فمثلا تنقل الطبيب ابن الصلاح البغدادي في عدة أماكن واستقر مقامه الأخير بدمشق حيث توفي بها سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م ، (٥) وكان لعلماء الأندلس مشاركتهم في دفع هذا العلم نحو التطور، حين تحركوا في كل اتجاه شرقاً وغرباً ، فوصل إلى دمشق أبو الحكم المغربي الأندلسي واستقر بها ، وتوفي سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م . (٦)

ووصل مع أبي الحكم ولده أبو المجد بن أبي الحكم يطبب في بيمارستانات دمشق (٧) ، وكان الطبيب ابن المطران جوالاً في البلاد يتعلم الأصول ، اشتغل بصناعة الطب في العراق وغيرها ، وقرأ على ابن التلميذ أمين الدولة كثيراً من الكتب الطبية ، ثم عاد إلى دمشق وبقي بها طبيباً حتى مات . (٨) واشترط في العامل

---

(١) ابن أبي أصيبعة :عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٦١٥
(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٦٧٣
(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٦٢٨
(٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٦١٥-٦٣٠
- القفطي : تاريخ الحكماء ص٣١٤
(٥) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٩٨-٤٩٩
- ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٦٣٨
(٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٦١٥
- القفطي : تاريخ الحكماء ص٤٠٤
(٧) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٦٣٦
(٨) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٦٥٢

بصنعة الطب أن يكون ملماً بفنون الجراحة والتشريح وأعضاء الإنسان بما فيه من العروق والعضلات والأعصاب والشرايين .

ولا بد لمن يرغب ممارسة صناعة الطب أن يأخذ ذلك العلم من أساتذتها ، وعليه ملازمتهم أينما حلوا ، والاستفادة من خبراتهم وتجاربهم ، فقد قرأ أبو الفضل ابن عبد الكريم المهندس صناعة الطب على أبي المجد محمد بن أبي الحكم ، ولازمه وكتب بخطه الكتب الستة عشر لجالينوس ، وقد قرأها على أبي المجد ، وعليها وافق وخط ابن أبي الحكم له بالقراءة وأجازه . (١) ولا تكون الموافقة من العالم الطبيب إلى طالبه إلا بعد امتحانه من خلال كتاب محدد ، فإن ثبت لديه فهمه لمحتوى الكتاب كتب له بخطه إجازة ، كتب فيها إنه قرأ عليه الكتاب الفلاني ، ومن ثم يضع العالم توقيعه .

ويخضع الطالب لامتحان آخر عند رئيس الأطباء ليكشف ما عنده من صناعة الطب ، ويحق لرئيس الأطباء أن يكشف ويسبر مقدرة الراغبين في ممارسة صنعة الطب . وقد يسأل أحدهم على من قرأت صنعة الطب ، وما اسم شيخك ، وماذا طالعت من الكتب الطبية ؟ والغاية من ذلك أن يتم التحقق مما عند الممتحن من علم ، فإن لم يستوف الشروط المطلوبة أبعد عن مهنة الطب . (٢)

هذه التشديدات دفعت بالطبيب السعي جاهداً ، للحصول على الإجازات العالية من العلماء ، والإفادة من خبرتهم ، مما نشّط صنعة الطب . فوصل إلى بغداد أبو الحسن علي بن مهدي بن مفرح الهلالي الدمشقي المعروف بابن الكريدي (ت٥٦٢هـ/١١٦٦م) وسمع أبا الفضل ابن الكريدي ، وأبا القاسم النسيب وأبا طاهر الحنائي . (٣) كما وصل إلى دمشق من المعرة أبو الفضل ابن أبي الوقار الذي اعتمد عليه كثيرا في صناعة الطب ، وتحرك إلى بغداد فقرأ على علمائها . (٤) ووصل في نطاق الرحلة العلمية ، أبو زكريا يحيى البياسي قادماً من المغرب إلى مصر ثم توجه إلى دمشق واستقر بها . (٥)

==

(١) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٧٠
(٢) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٣٥١
- القفطي : أخبار العلماء ص١٣٠-١٣١
(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٩١
(٤) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٣٥
(٥) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٣٩
- القفطي : تاريخ الحكماء ص٣١٣-٤٣٨

ووصل إلى دمشق العلامة الإمام أبو القاسم محمود المبارك المجير الواسطي البغدادي (ت٥٩٢هـ/١١٩٥م) أحد العلماء الأذكياء ، بنيت له المدرسة الجاروخية التي درّس فيها ، ونشر علم الطب في دمشق . (١) وذكر ابن القلانسي الحكيم أبو محمد بن الحسين الطبيب المعري (ت٥٤٩هـ/١١٥٤م) والمرجح أنه قدم إلى دمشق لأن ابن القلانسي كان يشير إلى كل من يفد إلى المدينة أو يرحل عنها . (٢)

انتشرت الأمراض بأنواعها منها الأمراض الوبائية التي تودي بصاحبها إلى الموت والأمراض التي تتم بالعلاج ، فكانت أمراض الحميّات ووجع المفاصل، وضعف الأحشاء والجدري والحصبة والزحار وأمراض البطن ، ومن الذين قضوا نحبهم في فترة الحكم البوري نتيجة إصابتهم بهذه الأمراض الأمير معين الدين أنر الذي قضى نحبه بالزحار ، (٣) ومات العالم أبو الفتوح الاسفرائيني بأحد أمراض البطن سنة ٥٣٨هـ/١١٤٤م . (٤) وأصيب الأمير البوري جمال الدين محمد بمرض يخفّ عليه تارة ويثقل عليه تارة أخرى ، ولم يكن له من الطب ما يقيه فبقي كذلك حتى مات . (٥)

واتخذ بعض الأمراض في الدولة البورية طابع الوباء حيث تعرضت دمشق لوابلٍ من الأمراض الوبائية خاصة علة الإسهال التي تسبب الموت . و تعرض أهل دمشق لحمى وسعال انتقلت إليهم عن طريق تلوث الهواء ، وانتشر بشكل كبير بين الناس بجميع طبقاتهم ، ولم يمهل هذا المرض المصابَ به إلا عدة أيام ويكون قد قضى نحبه . (٦)

==

(١) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٢٥-٢٢٦
(٢) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٥٠٩
(٣) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٧٥
(٤) الحافظ ابن عساكر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ط٣ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص٣٢٨
(٥) ابن القلانسي : ذيل ص٤٢٥
(٦) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٩٤
- ابن جلجل : طبقات الحكماء تحقيق فؤاد سيد مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٥٥م ص١١١

وانتشر في عام ٥٤٨هـ/١١٥٣م مرض من الحمى ترافق بالإسهال الشديد المفرط الذي يضعف قوة الإنسان ويودي به إلى حتفه ، واستشرى هذا المرض بين الناس ومات به كثيرون منهم ، الشاعر ابن القيسراني (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م) (١) ولم يسلم من هذا المرض الوباء ، مَن وفد إلى دمشق ، حيث أصيب به الطبيب الفيلسوف أبو الفتوح ابن الصلاح فأضعف قوته وأقام به أياما ثم مات سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م (٢)

لم تنقطع الإسهالات عن دمشق بعد ذلك ، فكانت تبطش بالكثيرين منهم ، أبو الفضل ابن عبد الكريم المهندس (ت٥٩٩هـ/١٢٠٢م) (٣) وانتشرت علة الاستسقاء ، وتوفي بها الطبيب مهذب الدين بن الحاجب بحماه . (٤) هذا بالإضافة إلى أمراض مجهولة التسمية والسبب ، فقد أصيب بدران الكردي بأنواع من الأمراض ربا في بعضها لسانه حتى ملأ فاه وخرج على صدره . (٥)

وذكر ابن القلانسي أنه ثار في دمشق سنة ٥٤٦هـ/١١٥٤م ، مرض اختلفت فيه الحمايات ، فكان منه ما يقصر أو يطول بالإنسان ، وأعقبه موت الشباب والشيوخ والأولاد ، ثم بدأت حدته بالتناقص . (٦) وأصيب أهل دمشق أثناء الحصار الفرنجي للمدينة سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م لجائحة الطاعون ، (٧) تلك التي كان للمسلمين العرب عراك طويل معها ، والمرجح أن سبب هذه الأمراض يعود لسوء الصحة العامة ،وما أعقبتها من الجوائح والمجاعات والحروب .

وأصيب الصليبيون حين حاصروا دمشق في الحملة الفرنجية الثانية بالطاعون بسبب أكلهم للكثير من فواكه الغوطة ، قريب أوان نضجها ، فمنهم من مات ومنهم من غدا طريح الفراش ، وبالطبع لم تسلم دمشق من تلك الآفة . (٨)

==

(١) ابن القلانسي :المصدر نفسه ص٤٩٨
(٢) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٩٨-٤٩٩
(٣) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٧٠
(٤) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٦٠
(٥) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٣٩٠
- سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص٩٣
(٦) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٥٠٨
(٧) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٢٠
(٨) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١١٦

أغدقت الإمارة البورية على الأطباء الأعطيات والهبات وتوطدت وشائج القربى بين الطبيب والأمير ، حتى دخلت بعض الأحيان مسار الشعر والمديح ، فكان أبو الحكم عبيد الله الباهلي الأندلسي الطبيب ، قد وضع مدائحه في أمراء دمشق ورؤسائها من بني الصوفي ، وخدم أبو المجد بن أبي الحكم الدولة البورية وأسدى إليها من جميل ما عنده في الطب والأخلاق ، وكان يستكمل أعماله في التردد إلى البيمارستان الكائن في القلعة ليتفقد المرضى من أعيان الدولة . (١)

حاز الأطباء من الأرزاق والأعطيات كل حسب مكانته ، فقد انقسم الأطباء إلى نوعين أطباء الخاصة المهرة ، وأطباء العامة ، ومرتب الطبيب الخاص ثلاثمائة درهم بالإضافة إلى نفس المرتب يتقاضاه في البيمارستان سوى الجراية ، بينما تكون مرتبات أطباء العامة خمسة عشر دينارا . (٢)

حصل الأطباء على الألقاب العلمية ، فكان أبو الفضل ابن أبي الوقار الطبيب الشيخ قد حاز على لقب الشيخ الأجلّ ، (٣) وحصل مهذب الدين بن النقّاش العالم على ألقاب منها ، العالم بعلم كذا وكذا ، (٤) وحصل أبو الفتوح نجم الشيخ العالم الفاضل على لقب مماثل شبيه بما أشرنا إليه . وكان أبو المجد بن أبي الحكم مشهورا بلقب أفضل الدولة . (٥)

وصل الطب الإسلامي إلى أرفع مكانة له ، حين كان الطب الفرنجي في أسوأ وضع له على الإطلاق ، حيث أوكلت مهمة الطب لديهم إلى الكهنة والجهلة ، ويسرد لنا أسامة بن منقذ بعض ما شاهده من سعي المحتل الفرنجي للإفادة من الطب الإسلامي العربي ، ومن مهارة الأطباء المسلمين في بيت المقدس وطرابلس وكانوا يثقون بحكمتهم ويستدعونهم عند الحاجة للعلاج . (٦)

==

(١) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٢٨
(٢) مؤلف مجهول : رسالة في تراجم الحكماء ، رقم ٦١٧٦ ميكروفيلم ٥٢٥٠ مكتبة الأسد ص٢٧ وجه – ٣٠ وجه - ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٢٠٠
(٣) ابن أبي أصيبعة: المصدر نفسه ص٦٣٥
(٤) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٣٥
(٥) الصفدي : الوافي بالوفيات ط٢ ، دار صادر بيروت ١٩٨٢م ج٣ ص٣٣٠
(٦) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص١٧٠

وأرسل مرة في طلب طبيب مسلم عربي ، ليعالج دمّلة مليئة بالقيح في قدم فارس فرنجي ، فعمل الطبيب العربي على فتح الدمّلة ، فتماثلت قدم الفرنجي للشفاء ، وكذلك عالج امرأة تعاني من الجفاف والإمساك ، ففرض الحمية عليها ، وعمل على رفع معنوياتها وتحسين حالتها النفسية . وصرخ طبيب فرنجي بوجه العالم العربي قائلا : كيف يداوي هؤلاء الفرنجة ، وهو على عدم دراية بعلم الطب . وقام على علاجهما بنفسه بطريقة تثير العجب وتؤكد الجهل والحماقة التي يعيشها الإفرنج والتي أودت بحياة المرضى . كانت نهاية الفارس الفرنجي على يد هذا الطبيب الفرنجي الجاهل، حيث أمر بضرب قدم الرجل عدة ضربات فسال معها النخاع الشوكي نتيجة لذلك ومات الرجل . ولم يكن حظّ المرأة بأفضل من الفارس فلقد شخّص الطبيب الفرنجي العلة لديها، بوجود شيطان في رأسها لذلك شقه على شكل الصليب وسلخه حتى ظهر عظم الرأس فماتت من وقتها ، وكان أجمل تعليق على هذين المشهدين من الطبيب العربي قوله المأثور : لقد تعلمت الشيء الكثير من طبهم (١) .

ومن عجائب طب الفرنجة ما فعله أحد القساوسة مع فارس يتألم ، فجلب شمعا ولينه وجعله على شكل الإصبع وسد بكل واحدة على فتحتي أنف المريض فمات الفارس على الفور ، ولما طلب منه تفسيراً لما حدث كان رده إراحة المريض من العذاب بالموت عن طريق سد أنفه . (٢) ولكن هذا لا يعني أن بلاد الفرنجة خلت من بعض الأطباء المهرة ، فقد جلب أحد المسلمين العرب لابنه طبيباً إفرنجياً، وقد تفتحت في جسده دمامل كلما ختم الجراح موضعا فتح موضع آخر ، فجاء الطبيب الفرنجي وأزال ما وضع على الجرح من مراهم وجعل يغسلها بالخل فالتأمت تلك الجراح وبرأ المريض . (٣)

لم يقف المسلمون العرب عند الحدود النظرية في العلوم الطبية، بل سعوا لمعالجة المرضى وتخفيف آلامهم بإنشاء المستشفيات التي تعتبر مفخرة من مفاخر الإسلام ، (٤) لما تشتمل عليه من مدارس للتعليم والتخريج ، ومستشفيات للتمريض والتدريب ، حيث اتصفت بخاصية الجمع بين العلم والعمل ، يتخرج منها الأطباء

==

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص١٧٦-١٧٧

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص١٧٧

(٣) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص١٧١

(٤) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٩٨

والجراحون والكحالون ، ويعالج فيها جميع الأمراض من العلل والآلام الباطنية والظاهرية والجراحية منها والرمدية والعقلية .(١)

رصد لهذه المشافي أموال كافية من ريع الأوقاف لتنفق في شراء الأدوية ومعالجة المرضى والغاية من ذلك تحقيق شروط الصحة الجيدة وتأمين فرص العلاج الضرورية . أما دور ومهمة المستشفيات فكان الفصل بين الأمراض العامة والأمراض المستعصية وفقاً لطبيعة المرض ، وكان المشفى عبارة عن موقع حصين تحيط به الرياض الغناء التي تسهم في تنقية وتحسين الحالة الصحية لدى المريض. وأصل كلمة البيمارستان لفظة فارسية استعملها المسلمون العرب ومعناها مجمع المرض أو المرضى ، لأن بيمار: معناها المريض، وستار: وهو الموضع . (٢) وقد أشار المؤرخون إلى حسن اختيار مواقع البيمارستانات واهتمامها وعنايتها بالمريض مع التركيز على دور العلاج وتأثير ذلك على المريض .

يعود تاريخ البيمارستانات في دمشق إلى أيام الخليفة الوليد بن عبد الملك حيث بنى أول بيمارستان في الإسلام ، (٣) وانتشرت فيما بعده البيمارستانات ، فكان منها البيمارستان الصغير وبيمارستان باب البريد، والبيمارستان العتيق والقديم ، وقد حدد الحافظ ابن عساكر موقعه تحت المأذنة الغربية للجامع الأموي عند قناة الطرائفيين (٤) وخلال حكم الأمير دقاق (ت٤٩٧هـ/١١٠٣م) بني أكبر مشفى في المدينة غربي الجامع الكبير ، ولم تذكر المصادر أن الأمير دقاق بنى بيمارستاناً(٥)

==

(١) أحمد عيسى بك : تاريخ البيمارسانات في الإسلام ص٣-٤

(٢) الخفاجي : شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ط١ ، المطبعة الخيرية بالأزهر مصر ١٩٥٢م ص٧٩

(٣) الثعالبي :لطائف المعارف تحقيق إبراهيم أبياري ، حسين كامل الصيرفي مصر ١٩٦٠م ص١٨٨ - السبكي : طبقات الشافعية ج٦ ص٢٩

(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ٢ ص١٥٨

- ALPTEKIN : OPCIT P. 172

- ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM : ART DIMASHK P. 2 P. 283

(٥) مقال دهمان : تاريخ البيمارستانات مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ١٨ مطبعة الترقي ١٩٤٣م ج١ ص٦٣ - د٠ عاشور : مقال المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية مؤتمر بلاد الشام ١٩٧٤م ص٢٢٤

ولكن هناك احتمال بوجوده حسب ما تشير المصادر ، وورد وجود بيمارستان باب البريد ولم يتوقف التطبيب به حتى القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، رغم بناء البيمارستان النوري إلى جانبه . (١)

كما كان يوجد بيمارستان قديم، يقع غربي الجامع الأموي ، يعود بناؤه إلى عهد الدولة البورية وما بعدها ، ويؤكد مقولتنا هذه ما ذكره ابن جبير في قوله عن دمشق ، وفي دمشق " مارستان قديم وحديث ، وجراية الحديث في اليوم خمسة عشر دينارا " وله القومة على خدمة المرضى يقدمون إليهم ما يحتاجونه من نفقات الأدوية والأغذية والأطباء يبكرون كل صباح يتفقدون أحوال المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الضرورات " (٢) وبنى الأمير مجاهد الدين بزان بيمارستاناً في عهد الدولة البورية (٣) إلى جانب البيمارستان الدقاقي .

أما أقسام البيمارستان فهناك القسم الثابت والقسم المتحرك أو المتنقل ، ويقصد بالثابت ما تم بناؤه بمكان ما لتطبيب المرضى ، ويحتوي مستلزمات الإسعافات الضرورية حسب ما يقتضيه الحال . أما البيمارستان المتنقل فهو الذي ينتقل من مكان لآخر، حسب ظروف الأمراض وانتشارها (٤) ووظيفته مراقبة الجيوش في حلها وترحالها في أحوال الحرب والسلم .

كان البيمارستان يضم جمعاً من الأطباء والصيادلة والغلمان والقومة ، وكل ما يلزم المريض من مقتضيات الراحة الضرورية ، والاعتناء الفائق ، وليس هذا بجديد لأن مثل هذه الأنواع عرفت قبل الإسلام وفي صدر الإسلام ، حيث شاركت النساء في تضميد الجرحى ومرافقة الجيوش في القتال حيث يتم عزل الجرحى في مخيم ينقل إليه مياه الشرب والطعام ، وتشرف النسوة على تطبيب الجريح من طعنات إصابته . (٥)

==

(١)ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٧٥٩
(٢) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٩٨
(٣) د٠ عاشور : مقال المجتمع ص٢٢٤
(٤) أحمد عيسى بك: تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص١٠-١١
(٥) الديوه جي : دور العلاج والرعاية في الإسلام ص٣٠

وقد عمل الطبيب أبو الحكم عبيد الله بن المظفر الباهلي المغربي (ت٥٤٩هـ/١١٥٤م) في بيمارستان العسكر السلطاني ، فكان حيث حمل البيمارستان أربعين جملا ، ويطابق هذا البيمارستان اليوم المشفى النقال . (١)

أما البيمارستان المحمول فهو الذي يتحرك في الأماكن النائية والبعيدة ، يتفقد المرضى ويعالجهم بما يحمله من كافة مستلزمات العلاج من أدوات وأدوية وأطعمة وأشربة وأطباء وصيادلة وغلمان يعملون في خدمة الأطباء ، إضافة إلى المضمدين ، ويعنون بتضميد الجراح أو المداواة ، ويكون وجودهم في الموقع مرتبطا بما تقتضيه المصلحة ، وإلا توجهوا إلى موقع آخر ، يتفقدون المرضى والمستضعفين ، ويجبرون الكسور ويكافحون الأمراض . وإذا انتهت ما تدعو إليه الحاجة تحولوا إلى موقع جديد للمعالجة . والمتعمق في هذا الأمر يرى أن تلك الظاهرة برزت في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، مما يؤكد استمرارها في فترة الحكم البوري ، وإن لم تشر المصادر صراحة إلى ذلك . (٢)

أما بيمارستان السبيل فلم نستشف عنه ما يشفي الصدور في فترة الحكم البوري ، إلا أن ما عثر عليه يثبت دوام هذه البيمارستانات ، واستمرارها مع قوافل الحجيج إلى بيت الله الحرام في حلها وترحالها ، فتجهز بمواد الإسعاف والأدوية ، وما يحتاج إليه المرضى ، ينقل في صناديق يشرف عليها الطبيب وبرفقته الممرضون ، يتفقدون في الحل والترحال أحوال القوافل ويسعفون المرضى ، ويمكن لرواد القوافل أن يفدوا إلى البيمارستان ، أو يمروا به أو يمر عليهم بنفسه ، وقد ساهم فاعلو الخير عبر أوقافهم بالنفقة على هذه البيمارستانات من أجل علاج المرضى . (٣)

ولا شك أن مثل هذه البيمارستانات كانت من مستلزمات الحياة الضرورية والأكيدة وإن لم نلمح الإشارة عن وجودها في الحكم البوري إلا من خلال عبيد الله ابن المظفر الباهلي حين حج سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م ، وكذلك حج طبيباً مع أمير الجيوش سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م ، ويستدل مما سبق أنه مارس مهنته الطبية مع القوافل

==

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص١٢٤ ـ القفطي : أخبار العلماء ص٢٦٤ ، تاريخ الحكماء ص٤٠٥
(٢) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٣٠١
ـ الديوه جي : دور العلاج والرعاية في الإسلام ص٣٣ـ٣٤
(٣) الديوه جي : دور العلاج ص٣١

المغادرة لأداء فريضة الحج المتوجبة عليه . (١) ووجد أيضا بيمارستان الإسعاف في أماكن تجمع الناس في الجوامع أيام الأعياد والصلوات والمواسم ، ويرافق المشفى طبيب يحمل مواد العلاج الضرورية ، ونفر يساعدونه في تسريع الإسعاف للمصاب . (٢)

أما كيفية استقبال المرضى في البيمارستانات ، فقد تم فصلها إلى أجنحة بعضها خاص بالرجال وبعضها الآخر خاص بالنساء (٣) وقد بلغت البيمارستانات في القرن الخامس الهجري أوجها ، قسّمت إلى أقسام متعددة ، ضم كل قسم من أقسام المشفى قاعات مقسمة حسب الأمراض ، ولكل قاعة طبيب أو أكثر بالإضافة إلى الممرضين والممرضات ، وعليهم رئيس هو رئيس الأطباء الخاص بالقسم . (٤) أما المسؤول عن المشفى ككل فهو رئيس الأطباء ويسمى الساعور (٥) ويعرف بعميد الأطباء ، مع وجود رئيس لكل قسم من أقسام المشفى ، فهناك رئيس للأمراض الباطنية ، ورئيس للجراحة وجبر الكسور ، ورئيس للكحالة طب العيون الخ . (٦)

وهناك ناظر المشفى وهو المسؤول عن إعداد السجلات لجميع المصاريف اليومية وإعداد الميزانية ، ويكون بمثابة وزير أو قائد وله النظر المطلق في أمر المشفى وتحت يده ناظر الوقف ، الذي يشرف على أوقاف المشفى ، يقدم ميزانية النفقات والواردات للناظر . (٧) واشترط على الناظر المسؤول عن المشفى

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط تاريخ ج١٠ ص٧٤٢
(٢) الديوه جي : دور العلاج ص٣٥
(٣) ابن جبير : المصدر نفسه ص٥٢ - الديوه جي : دورالعلاج ص١٣
- أحمد عيسى بك : تاريخ البيمارستانات ص١٨
(٤) ابن القفطي : تاريخ الحكماء ص٤٠٥
- أحمد عيسى بك : تاريخ البيمارستانات ص١٨
(٥) الساعور : كلمة سريانية تعني متفقد المرضى
- ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه حاشية ٣ ص٤١٥
- القفطي : أخبار العلماء ص٢٦٠ ، تاريخ الحكماء ص٤١٢
(٦) ابن القفطي : أخبار العلماء ص٢٦٠ ، تاريخ ص٤١٢ - أحمد عيسى بك : تاريخ البيمارستانات ص١٩
(٧) القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص١٨٤
- أحمد عيسى بك : تاريخ البيمارستانات ص٢٢

المحافظة على شروط الواقف في الأموال والإيرادات الكثيرة المنظمة والثابتة ، من المزارع والأملاك والاهتمام بأثاثات المشفى ، وتخصيص أفضل الأطباء للتعليم فيه والتدريس . (١)

و يتم تزويد كل قسم من أقسام المشفى بما يحتاجه من المؤنة والزاد والأدوية والألبسة والمفروشات والأدوات والمياه النقية والأسرّة ، وإعطاء الأطباء وناظر الأوقاف المرتبات الوفيرة وترتيب القومة على خدمة البيمارستان . (٢)

كانت تلك المصاريف الوقفية تسجل في حجج مكتوبة (سجلات) وبعضها ينقش على الحجارة ، مبيناً أن الغاية منها ، تسيير أمور المشفى والعناية بالمرضى ، هذا بالإضافة إلى الوظائف الموضوعة للخدمة في مقتضيات المصاريف غير مواضعها وأماكنها .

نلاحظ مما سبق أن المشفى ضم في أقسامه قاعات للأمراض الداخلية والمجبرين ، والكحالين وقاعة للولادة وقاعة للجراحة ، وتعبق في هذه القاعات رائحة البخور ، وتغطى أرض القاعات بأوراق الحنّاء أو الرمان أو الشجيرات العطرية .(٣) وتم فرز المحمومين عن المتخومين عن المصابين بالإسهال في قاعات خاصة بهم إضافة إلى قسم خاص لذوي الأمراض العقلية . (٤)

ساد في البيمارستانات الهدوء الكلي مراعاة لراحة المرضى مع اختيار أجود الأطباء يعملون بعناية ودقة ، يبحثون عن أنجع الوسائل لراحة وتسلية المرضى ، خاصة الذين صاروا في دور النقاهة ، حيث تجلب لهم المعازف الموسيقية وتنشد

---

(١) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ص٣٠١
- النعيمي :المصدر نفسه ج٢ ص١٢٨
-القلقشندي : صبح الأعشى ج١١ ص١٥٩ - مقال عاشور : أضواء ص٢٢٤
(٢) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٣٠٢
(٣) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٣٠٣-٤١٦ -الديوه جي : دور ص١٤
- أحمد عيسى بك : تاريخ ص١٩ - رمضان : المجتمع الإسلامي ص١٥٩
(٤) ابن جبير : المصدر نفسه ص٥٢-١٩٨
- أحمد عيسى بك : تاريخ البيمارستانات ص١٩١
- الديوه جي : دور العلاج ص١٤

الموسيقا الرقيقة في الليل لتهدئة أعصاب المرضى الأرقين . (١)

قامت الخدمة في البيمارستان على الرأفة بالفقراء بغض النظر عن الدين واللون والجنس ، فكانت المعالجة للمسلمين وأهل الذمة على السواء ، وتجري لهم الجرايات والمعالجات على نفقة المشفى ، وإذا أشرف المريض على الشفاء ، فإن إدارة المشفى تعمل على استبقائه ثلاثة أيام ، يقوم القومة على راحته وطعامه ، حتى يغادر المكان ، ويعطى ثياباً مجانية ومبلغاً من المال لمدة شهر ، أو خمس قطع من الذهب تكفيه عن العوز حتى يصبح قادرا على العمل ، هذا بالإضافة إلى الغذاء والعقاقير في مجال العلاج المجاني ، أما الشخص الذي يموت فكان دفنه يتم على حساب البيمارستان (٢) .

ظهرت المشافي الخاصة القائمة على طبابة السجون والمدارس والمجانين والمجذومين ، وتكلفت مشافي المساجين والإطلاع على راحتهم وأحوالهم وخصص من أجل أوضاعهم الصحية أطباء وصيادلة ، يدخلون عليهم ويتفقدون ما آل إليه حالهم ، فيواسون كل مصاب ويحملون لهم الأدوية والأشربة . (٣)

جعلت دُور الأمراض المعدية في أقسام وأماكن خاصة بهم ، فمرض الجذام تركزت دُوره خارج الباب الشرقي – عند الحظيرة البرانية اليوم أو محل الصقاطلة – وهو لمجذومي المسلمين ، أما مجذومي النصارى فكانت دُور علاجهم داخل الباب الشرقي – الحظيرة الجوانية أو حظيرة المسبك أو حظيرة النصارى – لتكون مركزا لهم . ويسمى المجذوم المقعطلاني أو العاطل ، وقد أقيمت الأوقاف على خدمتهم(٤)

==

(١) القفطي : أخبار العلماء ص٣٧٦-٣٧٧ - الديوه جي : دور العلاج ص١٤
(٢) ابن جبير : المصدر نفسه ص٥٢
- ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٣٠١-٣٠٢
- القلقشندي : صبح الأعشى ج١١ ص١٥٩
(٣) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٣٠١ - القفطي : أخبارالعلماء ص١٣٢
- الديوه جي : دور العلاج ص١٨-١٩
(٤) المعلوف : تاريخ الطب عند العرب ص١٩

وللمدارس طبيبها الخاص الذي يتفقد كل من يعمل بالمدرسة، ويقوم على فحصهم ومعالجتهم مع تقديم الدواء المناسب لهم . (١) وبرع الأطباء المسلمون بالكشف عن حالات الأمراض النفسية وسموا ذلك التطبيب بالوهم حتى يعود المريض إلى الشفاء (٢) ، فعندما تعرض طغتكين الأمير البوري سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م لمرض شديد لازمه، وتحولت أعراضه من الحالة الجسمية إلى الحالة النفسية وتفاقم وضعه ، وبعد أن عولج علاجاً نفسياً انتعشت حالته الجسمية وعادت إلى طبيعتها وشملته العافية . (٣)

أما الطلبة الدارسون في البيمارستان فقد تم توزيعهم على كل فرع من فروعه يتلقون دروسهم الطبية على الأطباء الكبار، داعمين ذلك بالكتب الضرورية ، لتأهيلهم للقيام بالعمل المشار إليه من قبل الأطباء الكبار . ولا بد للطالب من حفظ كتب الأوائل المشهورة في الطب ، ويقوم بأخذ التصانيف الطبية المدروسة نقلاً عن أستاذه الطبيب إملاءً من لفظه ، (٤) كان أبو الحكم المغربي الطبيب الحكيم (ت٥٤٩هـ/١١٥٤م) تقصده الطلبة لارتفاع قدره وشهرته في علمه ، عمل على تدريس الطلبة رغم ممارسته الطب في محله ، وفي البيمارستان السلطاني .(٥)

كان الطبيب أبو المجد بن أبي الحكم يزور المرضى في البيمارستان ويتفقد أحوالهم وينظر في أمورهم ، ثم يدخل إلى صدر الإيوان ومعه جماعة من الأطباء المشتغلين يقعدون بين يديه ، وتجري المباحث الطبية ويناقش الطلبة ويناظر في الكتب مدة ثلاث ساعات ثم يعود إلى داره . (٦) وكان الطبيب ابن المطران يهب لتلاميذه الكتب الطبية ويحسن إليهم ، وإذا ما جلس واحد منهم لمعالجة مريض وقف إلى جانبه يشد من أزره ، وقد تميز بالاهتمام الكبير بالعلوم لتوضيح كل ما يحتاجه الطلبة حين ملازمتهم له . (٧)

==

(١) الديوه جي :دور العلاج ص١٩
(٢) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٥٩٥
(٣) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٣٣٦-٣٣٧
(٤) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٣٢٣-٧٥٥
- الديوه جي :دور العلاج ص١٦
(٥) القفطي : تاريخ الحكماء ص٤٠٤-٤٠٥
(٦) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٢٨
- النعيمي : المصدر نفسه ج٢ ص١٣٧
(٧) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٥٥-٦٥٦

وبعد أن يأخذ الطلبة النقول عن أساتذتهم ، يعملون على مراجعة دروسهم ونسخ المخطوطات الطبية التي درسوها على أساتذتهم واستفادوا منها . وكان الطبيب المدرس في البيمارستان يسعى جاهداً ، لإنقاذ المرضى من أمراضهم على بينة من الطلبة ليحصل لهم التطبيق العملي ، وبهذا الشكل يبسط الطبيب المدرس ما يسعى توضيحه للطلبة ، ثم يمتحنهم بما اشتغل به عليهم ، ثم يبذل لهم شطراً من جهده وعمله وعمره حتى يصبحوا القدوة المثلى لأستاذهم في العمل . (١)

وتلقى الطلبة دروسهم التطبيقية على فراش المرضى أكثر مما يتلقونه من الكتب فلم يقتصر الطبيب مهذب الدين بن النقاش على تعليم الطلبة في أواوين المشافي ، بل كان يدفع الطلبة إلى بيته للاشتغال عليه عبر مجلس عام يعقده دائماً . (٢)

وبعد أن يتقن الطلبة علوم الطب بالتجربة والممارسة نظرياً وعملياً بالتدوين والمشاهدة فإنهم يخضعون لامتحان صعب على مرأى من رئيس المشفى وأطبائه في العيادة الخارجية فيجلس الرئيس في صدر المجلس والأطباء من حوله ، ويحيط بهم التلامذة المتقدمون للامتحان ، ويتلوهم مَنْ دونهم وهم المبتدئون ، ويعرض المريض نفسه ويبدأ النقاش حول مرضه من التلامذة المبتدئين ، فإن أعيوا في تشخيص مرضه تحرك التلامذة المتقدمون وأدلوا بدلوهم ، فإن عجزوا عن تحديد وكشف الأعراض ، يتقدم الأطباء يشرحون للطلبة ما يرونه من أعراض المرض وطرق العلاج ، ثم يأتي دور رئيس المشفى لإلقاء ملاحظاته ، ويكون كلامه هو الفصل في كشف حالة المريض . ولا شك أن المسلمين العرب هم أول من وضع الركائز العلمية الرئيسية في تدريس علوم الطب . (٣)

وإذا رغب الطبيب أن يصبح ذا مكانة مرموقة ، كان لابد له أن يتلقى علومه الطبية على كبار أساتذته من أطباء العصر ، فقد درس الطبيب مهذب الدين ابن النقاش صناعة الطب على أستاذه الأجلّ أمين الدولة هبة الله بن صاعد بن التلميذ ولازمه وتعلم منه (٤) ومن أطباء العصر المتميزين مهذب الدين ابن النقاش وقد صار أحد أعيان هذا العلم . (٥)

==

(١) القلقشندي : صبح ج١١ ص٢٥٥
(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون ص٦٣٦ - أحمد عيسى بك : تاريخ ص٣٨
(٣) الديوه جي : دور العلاج ص١٦-١٧
(٤) ابن أبي أصيبعة : عيون ص٦٣٥
(٥) ابن أبي أصيبعة : عيون ص٦٥٩

وقرأ أيضا أبو زكريا يحيى البياسي علومه الطبية على الطبيب مهذب الدين ابن النقاش البغدادي (ت٥٧٤هـ/١١٧٨م) فلازمه وكتب بين يديه الستة عشر لجالينوس ثم قرأها عليه ، (١) وقرأ أبو الفضل بن أبي الوقار الطب على كبار أطباء بغداد (٢) وبالمقابل درس رضي الدين الرحبي على مهذب الدين بن النقاش . (٣)

ولا مانع أن يستفيد الأستاذ من تلميذه إذا أظهر مقدرة ومهارة ، فهذا أبو الفتوح ابن الصلاح درس في بغداد على أبي الحكم المغربي ثم أدركه في دمشق وقد اتضحت عليه المعرفة الكبيرة بالعلوم الحكمية ، فقال له أبو الحكم الطبيب : " الآن يجب أن أقرأ عليك ما قرأته علي فإنك أحكمته بصادق فكرك " وأما أنا فقد نسيته . (٤) إن تواضعا كهذا هو الذي دفع حضارة المسلمين العرب أن ترقى مراتب بعيدة ، فالعلم لا يفرق بين طالب وعالم حيث تعقد المناظرات العلمية ويدلي كل بدلوه لا نزاع ولا خصام ما دام الهدف الأسمى هو معرفة الجديد من العلوم ، لإثراء الحركة العلمية ورفدها دائما بالمفيد . إن إقامة المناظرات العلمية بين الأطباء أثناء اجتماعهم في ملتقى معين قد سهل عليهم التعرف إلى ما جدّ من علوم . (٥)

كانت المكتبة الطبية ركيزة أساسية في المشفى من أجل تعليم الطلبة الرجوع إليها عند الحاجة ، وقد ضمت العديد من مخطوطات العلماء المهتمين بالطب إضافة إلى علماء المسلمين العرب . (٦) وألف العلماء المعاصرون بهذا المجال وسعى الكثيرون منهم تحصيل الكتب ، وكان لدى موفق الدين أسعد بن المطران (ت٥٨٧هـ/١١٩١م) في خزائنه من الكتب الطبية وغيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلد خارجاً عما استنسخه . وبلغ من اعتنائه بالكتب أنه جمع كثيراً من الكتب الصغيرة ، وجعل كلاً منها في جزء صغير، وكتب بعضها بخط يده ، وكانت لا تفارق كمه أينما تحرك ، ومن مؤلفاته " كتاب بستان الأطباء وروضة الالباء "

==

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون ص٦٣٧
(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون ص٦٣٥
(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون ص٦٧٥
(٤) القفطي : تاريخ الحكماء ص٤٣٨
(٥) القفطي : تاريخ الحكماء ص١٠٦
(٦) ابن أبي أصيبعة : عيون ص٦٢٨
- سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص٢٣٠

وكتاب على مذهب دعوة الأطباء ، و" كتاب الأدوية المفرده " لم يتمه وكتاب " آداب طب الملوك " . (١)

وترك الطبيب عمر بن علي بن البذوخ (ت٥٧٦هـ/١١٨٠م) من الكتب كتاب " الفصوص " لأبقراط ، و" كتاب ذخيرة الالباء " وحواش على كتاب القانون لابن سينا ، (٢) وهكذا فإن المسلمين العرب يعتبرون رواد النهضة المكتبية عموماً ، لأنهم أول من صنف الكتب في علم الأدوية وأول من أرخ تراجم علماء الطب ، فقدموا للعالم الكتب الطبية الموسوعية ذات الترتيب المنظم والمنهجي ، في حين افتقرت المؤلفات اليونانية إلى الشمولية والبحث المنظم .

تخلص الطب الإسلامي من خلال ما لاحظنا من أساليب السحر والشعوذة فأخضع للبحث والفحص والمراقبة كل مريض ، للتأكد من وضعه الصحي ثم تم تقديم الخدمات الطبية ، حين تم التمييز بين الإنسان المريض بمرض عقلي أو معوي داخلي . ولم يمنع هذا من مراعاة التدقيق بالملاحظة والرقابة على الفحص السريري العام والشامل ، وتقديم الدواء والعلاج الناجع .

وتتم متابعة المريض إلى أن يتم شفاؤه ، وتقدم له مرتبات شهرية تغطي فترة نقاهته ، أما المستشفيات فقد أوليت كل عناية ، الثابتة منها والمحمولة . وحاز الأطباء على الهبات والأعطيات ، وتميز الكثير منهم بالخدمة والإخلاص ودقة العلاج وحدة الذكاء ، مع حدس يمكنه بالإحساس كشف أعراض المرض ، وإن حاول المريض إخفاء مرضه عن الطبيب .

واحتوت المستشفيات على ذخيرة من الكتب الطبية لخدمة الأطباء والطلبة ، ووضع الطلبة أمام التجربة العملية لمعاينة أحوال المرضى بإشراف أساتذتهم . ووقف على رأس كل مشفى رئيس للأطباء تعود إليه الأمور في الحل والعقد . واحتوت المشافي أيضا صيدليات حافلة بالأدوية تقدمها مجاناً للمرضى ، واعتمد غالباً عليها لاستبعاد العمل الجراحي قدر الامكان . وهكذا كان الأطباء المسلمون العرب سواء أكانوا أطباء في العيون أو الجراحة ، أساتذة للعالم بعلومهم التي أشرقت على أرض الإسلام ، بينما كانت الأمم الأخرى تعيش في ظلام دامس وجهل مدقع . إنه نتاج كبير قدم فيه الأسلاف معارفهم وتجاربهم للأحفاد .

==

(١) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٥٨-٦٥٩

(٢) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٣٠

٤ ـ علـــم الصيدلـــة والكيميـــــاء والبيطـــرة :

ـ علـــم الصيدلـــة : (أو الأقربــاذيــن) (١)

ارتبط علم الصيدلة بعلم الكيمياء ارتباطاً وثيقاً . ومن الأقوام التي نبغت في ذلك العلم وبلغت مكانة عالية المصريون القدماء ، فقد عرفوا استعمال المقيئات والأشربة والحقن الشرجية والأدوية المبوّلة وزيت الخروع . (٢) ثم وضع المسلمون العرب أسس هذا العلم ، وكانوا أول من أنشأ مدارسه وصنعوا أنواعاً من العقاقير ، وامتازوا بمعرفة خصائصها ، وكيفية استخدامها وأدخلوا أنواعاً من النباتات في خدمة علم الصيدلة ، (٣) وصنعوا خلطات الأدوية من بعض الأعشاب والنباتات الطبية ، فيقومون بسحق الأدوية ونفخ النار على المطبوخات ليتم تركيب الأدوية بمقاديرها وأوزانها . (٤)

وبالرغم من تركيز العلماء الصيادلة على الدواء ، إلا أنهم كانوا ينصحون بعدم التداوي بالأدوية ما أمكن الاستيعاض عنها بالأغذية ، وإذا استدعت الضرورة اعتماد الدواء فإن المريض يداوى ابتداء بالنوع المفرد من الدواء ، فإن لم يتم الشفاء يتناول القليل من المركب . (٥) ومن العلماء الصيادلة الذين تميزوا بمعرفة المفرد والمركب من الأدوية ابن البذوخ عمر بن علي المغربي ، (٦) وتميز بمعرفة الأدوية المفردة أبو الفضل عبد الكريم المهندس . (٧) ودخل قسم من صناعة الأدوية في المعالجة الإنسانية واعتمد القسم الآخر في التصنيع للقتال .

---

(١) يقال أقرباذين مأخوذة من السريانية التي أصلها يوناني ومعناها رسالة صغيرة ويقال إنه رسم الأدوية أو النسك أو المجموع . حكمت نجيب عبد الرحمن ، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ص٣٤٠

(٢) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٢٢٤
ـ القفطي : تاريخ العلماء ص١٨٨
ـ الماحي : المرجع السابق ص١٠ـ١١ـ١٢ـ١٦

(٣) طوقان : العلوم عند العرب ص٩

(٤) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٥٤٣ـ٥٤٨
ـ القفطي : تاريخ العلماء ص٧

(٥) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٤٩٦
ـ القفطي :تاريخ العلماء ص٢٢٦

(٦) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٢٨ـ٦٢٩

(٧) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٧١

كان الطلب على الدواء يكثر مع انتشار الأمراض والأوبئة ، فقد انتشرت أمراض الحمّيات والسعال في دمشق سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م وكثر معها الموت فتدافع الناس إلى حوانيت العطارين لتحصيل الدواء ، وحكي أن بعض العطارين أحصى ما باعه في تلك الأزمة فكانت مبيعاته في يوم واحد ثلاثمائة وثمانين وصفة . (١)

أقام الصيادلة حوانيت خاصة بهم لصنع الدواء (٢) فهذا ابن البذوخ عمر بي علي كانت لديه دكان عطر باللبادين من دمشق ، يجلس فيها ويعالج من يأتي إليه ، وكان يهيىء عنده الأدوية الكثيرة المركبة يصنعها من سائر المعاجين والأقراص والسفوفات (٣) ويمكن للصيدلاني أن يعالج المرضى ويصف لهم الوصفات الطبية المتعلقة بالمرض أما لباس الصيدلاني أثناء عمله فكان ثوباً أبيض يعمل به على صرف الدواء ، ومن ورائه الرفوف الممتلئة بالأدوية والقوارير . (٤)

وضمت المدارس الكبيرة صيدليات خاصة بها تحتوي على العقاقير والأدوية يشرف عليها صيدلاني خاص ويقدم كل ما يطلبه الطبيب لكل مريض في المدرسة (٥) . ومن أبرز مَنْ عمل في العطارة في فترة الحكم البوري : عبد الكريم ابن المسلم بن صدقة أبو محمد السلمي العطار توفي سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م (٦) وعرف في هذا المجال أيضاً علي بن الحسن بن سعيد ، أبو الحسن بن أبي علي العطار (٥٢٠هـ /١١٢٦م) (٧) وتميز أيضاً في علم الصيدلة عبد الباقي بن عبد الله ابن محمد أبو المعالي العطار الدمشقي المتوفى سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م (٨) وتمت الإشارة أ يضاً إلى أحمد بن علي بن الحسن بن زيد أبو الحسن المعروف بابن الكوفي العطار (ت٥٣٧هـ/١١٤٢م) (٩) وتميز أيضا راشد بن محمد بن عقيل المعروف بابن العكبري العطار المتوفى سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م . (١٠)

==========

(١) ابن القلانسي: المصدر نفسه ص٤٩٤
(٢) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٥٨٤
(٣) أبن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٢٨
(٤) حنيفة الخطيب : الطب عند العرب ص٢٢٧
(٥) الديوه جي : دور العلاج ص١٩
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوطة ج١٠ ص٤٤٣
(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوطة ج١٢ص١٥
(٨) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٧ ص١١٤
- سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص٨٩
(٩) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٧ ص٤٣
- بدران : المرجع السابق ج١ ص٤٠٥
(١٠) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٦ ص١٨٠

وهكذا نلاحظ أن أهمية علم الصيدلة أو الأقرباذين قد تلاحقت وارتبطت في علاج الناس من أمراضهم ، وقد جمع المسلمون العرب بين مهنة الطب والصيدلة ، يتعرفون على علة المريض ثم يصنفون له الدواء مباشرة . ولما كان علم الصيدلة وثيق الاتصال بعلم الكيمياء لذلك سنولي هذا العلم اهتماماً في الدراسة .

- علـــم الكيميــــاء :

لقيت العلوم العملية رواجاً كبيراً لحاجة المجتمع إليها ، وقد أسس المسلمون العرب علم الكيمياء أو علم الصنعة على أساس نظري وعملي ، مستندين بذلك إلى النتائج والخبرة التي توصلت إليها الأمم السابقة ، وبصورة خاصة ما قام به المصريون ، الذين كانت لهم الكفاءة العالية في هذا المجال وخاصة في عمليات التحنيط المعتمدة بشكل أساسي على علم الكيمياء . (١)

خلط البعض بين علم الصنعة والسحر ، ولم يكن الاعتقاد في الكيمياء متينا حتى اندفع كبار العلماء أمثال جابر بن حيان والرازي ، لفك اللثام وكشف الستار عن تلك التأولات ، وقد تم تقسيم المواد الكيميائية إلى أربعة أنواع أساسية وهي : المواد المعدنية ، والمواد النباتية ، والمواد الحيوانية ، والمواد المشتقة . (٢) وكانت هناك دُورٌ في دمشق في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، تهتم بعلم الكيمياء فتم التخصص في محاولة تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب ، هذا وقد سلكوا طريقاً آخر في تحويل النحاس إلى ذهب أصفر بإيقاد النار عليه ، والإتيان بصرة من الإكسير تطرح عليه فيصير كالذهب ، أما اسم الرجل الذي نفذ المحاولة بذكاء فهو أبو يعقوب ، وليس لدينا معرفة تامة به ، ولا بمادة الإكسير التي كان يستخدمها . (٣)

وتتابعت أعمال الكيميائيين في القرن السادس الهجري في تطبيق تجاربهم الكيميائية في المجال العسكري ، فأدخلوا الكيمياء إلى ساحات القتال ، فحمل أحدهم من النفط الطيار ، ومن القنا الخطّار مع خمسة من الزراقين النفاطين المتقنين لصناعة الإحراق بالنار محاولة تنفيذ تجربة في المعركة فقام النحّاس الدمشقي الكيميائي الذي أشرنا إليه سابقاً ، فذكر أن أبراج الفرنجة الخشبية كانت مكسوة

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص٤٩٣-٤٩٧ - ابن صاعد : طبقات الأمم ص٣٩
(٢) طوقان : العلوم عند العرب ص٢٦
(٣) ابن بطوطة : المصدر نفسه ص٦٠

بالحديد والجلود ، ومسقاة بالخل كي لا ينفذ فيها النار ، فجلب الأدوية التي يعرفها ثم طبخها مع النفط في قدور من النحاس حتى صار الجميع كأنه جمرة نار ، ثم ضرب البرج الواحد بقدرٍ فاشتعل من ساعته ومن وقته وصار كالجبل العظيم من النار ، ثم رمى البرج الثاني بالقدر الثاني ، ورمى البرج الثالث بالقدر الثالث ، فاحترقوا كاحتراق أول قدر . وكان علي بن عريف النحاسين مولعاً بجمع آلات الزراقين وتحصيل العقاقير ، وقد أنكر عليه عمله الكثيرون لكنه ألف من تصنيعه مقاديرا وقدورا . (١)

ورغم براعة الكيميائيين وحذقهم في صنعتهم إلا أن الكثيرين أنكروا عليهم صنعتهم وحملوا عليهم واستخدموا التشديد ، خاصة حين تدّعي المقولة الكيميائية تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب أو فضة ، فقد ظن البعض أنها تستخف بالمعارف العلمية وتتحول إلى الحيل بعيداً عن المعرفة الموثقة .

- علـــم البيطـــرة :

لمع تاريخ الطب البيطري في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، على الرغم من أن مجالات العلوم البيطرية مجهولة أو على الأقل لم ينلها ما نال غيرها من الاهتمام ، وقد رحب الإسلام بالاهتمام بالخيل وأكد على دراسة أنسابها وأمراضها واحتياجاتها الغذائية . ويعتبر الجاحظ أول من قطع أشواطاً كبيرة في ذلك المجال حين صنف المجموعات الحيوانية واصفاً سلوكها وصفاتها ، ومع هذا فإن علم البيطرة قد احتوى على نقص بالمعلومات التي تتخصص بأمراض الحيوانات .

كان الاهتمام بالحيوان كبيراً في الفترة الإسلامية وخاصة الجياد لأهميتها العسكرية . و قد سميت بالخيول لاختبالها في مشيتها، أما الفرس فسمي بذلك لأنه يفترس الأرض بسرعة المشي (٢) وقد وضع لخدمة الحيوان البيطار ، فخضع كغيره لامتحان التثبت من معلوماته . ولقي هذا العلم الاهتمام بشكل كبير في فترة الحكم البوري ، كالأهمية التي حازها علم الطب ، فقد قام اقتصاد الدولة البورية على سوق الغنم أو الدواب والتبن على مقربة من باب الصغير (٣)

==

(١) أبو شامة : تاريخ الروضتين النورية والصلاحية ج١ ص١٥٢-١٥٣-١٥٤
(٢) البخشي الحلبي : مخطوط مرشحات المداد ص٧
(٣) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص١٦-٢١٥
- ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ٢ ص٨٠

واتسع وسط السوق الكبير ليشمل طريقاً فسيحة خاصة بمرور الحيوانات . (١)

عرفت في دمشق دار الخيل وهي تقع بالقرب من المدرسة الأمينية ، وكان أهل المدينة الشوافعة قد تحولوا إليها مع مطلع القرن السادس الهجري ، حين امتنعوا عن الصلاة خلف الإمام الحنفي في الجامع الأموي . (٢) وهذا يؤكد وجود دار للخيل في هذه المنطقة أو أن الدار بقي منها اسمها القديم دار الخيل المتعارف عليه .

٥ ـ علـــم الرياضيـــــات والهنـــــدسة:

ـ علـــم الرياضيـــــات :

هو علم بقوانين استخراج مجهولات عددية من معلومات مخصوصة ، ويتعلق علم الرياضيات بالحساب وعلم الهيئة . (٣) وموضوعه العدد إما مفرداً وإما مركباً ، ويقع المفرد في مرتبة واحدة كالواحد والاثنين والعشرة والتسعين والثلاثين ألفا ، والمركب ما يقع في مرتبتين أو أزيد كأحد عشر وكمائة وثلاثة وثلاثين ، والعدد إما زوج وهو ما يقسم بمتساويين صحيحين ، وإما فرد وهو ما لا ينقسم بهما ، وله فصل في التضعيف والجمع والتفريق . (٤) والقسمة هي تجزئة المقسوم بآحاد المقسوم عليه تجزئة متساوية العدة . (٥)

إنه لمن الصعب تأريخ علم الرياضيات في فترتنا الإسلامية بشكل شامل ودقيق فالنصوص الرياضية التي تركها العلماء المسلمون ما زالت مطوية في مكتبات العالم

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ٢ ص١٨٧
ـ سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص٢٨
ـ أبو شامة : تاريخ الروضتين ج١ ص١٧
(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ج٥ ص٨٨
ـ النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص١٧٨
(٣) الإمام الغزالي : المنقذ من الضلال ص٧٤ ، مقاصد الفلاسفة ص٣-٤٨
ـ ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص٣٠٢
ـ الكاشي : مفتاح الحساب تحقيق نادر نابلسي مطبعة جامعة دمشق ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص٤٧
(٤) الكاشي : المصدر نفسه ص٥٠-١٢٦ ـ الشويري : تذكرة الحساب ص٤
(٥) الكاشي : المصدر نفسه ص٦٢

واستخرج منها النذر اليسير . وقد ترك المسلمون العرب مآثرهم في علم الجبر والمثلثات على سبيل المثال . إن الإعجاب المفرط بعلم الرياضيات دفع الإمام الغزالي إلى نقد ذلك العلم بشدة ، لتعلق الفلاسفة به كثيرا والخوض في دقائق أموره وبراهينه ، رغم أنه لم ينكر فوائده خاصة في علم الفرائض والمواريث . (١) وبرز في مجال العلوم العقلية والتطبيقية علم الهندسة .

- علــم الهنـــدسـة :

الهندسة مصدر يعني الحد والقياس، وهو علم يبحث عن أحوال المقادير ، من حيث التقدير ، وقد عرف القدماء في بلاد الرافدين ووادي النيل علم الهندسة ثم اخذ اليونان هذا العلم عنهم ، فدرسوه درساً علمياً وأفاضوا في بحثه ، وأضافوا إليه إضافات هامة . أدرك العلماء المسلمون أهمية الهندسة وأثرها على الإنسان ، فالنظر في الهندسة الحسية يؤدي إلى الحذق في الصنائع والمساحة التي يدخل في خدمتها العمال والكتاب وأصحاب الضياع وحفر الأنهار وقد عرّف السخاوي الهندسة بأنها " علم يعلم منه أحوال المقادير ولواحقها وأوضاع بعضها عند بعض ونسبها وخواص أشكالها " واعتماد البراهين اليقينية المستخلصة ،أما موضوعها فالسطح والخط والزاوية والشكل ، والأبعاد في الهندسة ثلاثة ، الطول والعرض والعمق . وتشمل الدائرة . (٢)

وقد استفاد المسلمون العرب من ثقافات القدماء وخاصة اليونان ، ثم أظهروا شخصيتهم العلمية وعملوا على تصحيح تلك الأخطاء بدقة ، (٣) كما أنهم زادوا عن اليونان في تفاصيل مستفيضة في العلم الرياضي ككل . ومن موظفي الدولة البورية الذين عملوا في المساحة والحساب وقسمة الأراضي حيث أوكلت إليهم عمليات المسح من ديوان الخراج ، فخصص لكل مدينة ديوانها المحلي ، الذي يضم قائمة بالأملاك على كل قطعة أرض ، (٤) فعمل في مسح الأراضي وقسمتها الحسن بن

==

(١) الإمام الغزالي : المنقذ من الضلال ص٧٤

(٢) السخاوي : إرشاد القاصد إلى سنى المقاصد ص٧٩

- إخوان الصفا : رسائل أخوان الصفا ج١ ص١٠٣

- البيروني :كتاب استخراج الأوتار ص١٥- د. نعيم الظاهر : الحضارة العربية الإسلامية ص ١٢٢

(٣) البوزجاني : ما يحتاج إليه ص٤-٦ - ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص٥٠٣ - المدور : حضارة الإسلام ص٢٤٤

(٤) ELISSEEFF : OP,CIT P.3 P.800

الحسن بن أحمد أبو الفضائل بن علي الكلابي المؤدب الماسح (ت٥١٧هـ/١١٢٣م) وجاء ولده علي بن الحسن أبو القاسم بن أبي الفضائل ، فعمل في مساحة القرى وقسمة الأراضي توفي سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م . (١) وتولى علي بن مقاتل بن مصكود ابن أبي نصر السوسي توظيف ما يؤخذ من مزارع الأرض الشاغورية ، ثم ترك ذلك وتوفي سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م . (٢) وبرع ابن النقاش البغدادي بالعلوم الرياضية وتوفي سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م . (٣)

وكان أبو زكريا يحيى البياسي قد عمل أدوات كثيرة تتعلق بالهندسة لأستاذه ابن النقاش . (٤) ومن العلماء العارفين بعلم الهندسة توفيق النحوي (ت٥١٦هـ/١١٢٢م)(٥) ولابد لعالم الهندسة أن يكون ملماً بعلم الحساب ، فقد ذكر أن أبا المجد بن أبي الحكم الطبيب ، كان من الأماثل ، يجمع بين الطب والرياضيات والنحو والشعر والفلك والفلسفة ، (٦) ويظهر من شخصيات العلماء العارفين بالهندسة والهيئة ابن القيسراني الشاعر . (٧) أما الفيلسوف أبو الفتوح ابن الصلاح المتوفى سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م فقد كان يمتلك بصيرة جيدة بالهندسة . (٨)

كان لأهل دمشق الغلبة في فن الهندسة البنائية ، حيث دخل في صناعة البناء، المنشآت الدينية والمدنية ، مثل بناء المساجد والمدارس والحصون والقلاع وأسوار المدن والقصور ، ودخل في الصناعة أيضاً هندسة المياه وتوزيعها في الأقنية الحلوة

---

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوطة ج٤ ص٤٢٩ ، ج١٢ ص١٠
- ابن منظور: المصدر نفسه ج٦ ص٣٢٨
- النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٠٣
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوطة ج١١ ص٨٥٣-٨٥٤
(٣) أبو شامة : تاريخ الروضتين ج٢ ص٥
(٤) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ص٦٣٧
(٥) القفطي : تاريخ العلماء ص١٠٥ ، إنباه الرواة ج١ ص٢٥٨
(٦) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٩٨
- ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٢٨-٦٦٩-٦٧٠
(٧) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٢٢٤
العبر في خبر من غبر ج٤ ص١٣٣
(٨) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٩٨

والمالحة إلى الطوالع والبيوت والمجاري ، بطرق فنية لها مخططات لمعرفتها وتوزيعها وإصلاحها ، (١) ومن العلماء المشهورين في هذا الفن من العلوم الرياضية ، علي بن المسلم أبو الحسن السلمي الدمشقي الفقيه الفصيح العالم بالحساب توفي سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م . (٢) وبرز من أهل حماه زيد بن نصر بن تميم بن شجاع الحموي ، كان لديه فنون ومعارف بالعلوم الرياضية توفي سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م.(٣)

وبعد؛ فهذه دراسة موجزة عن العلوم الرياضية ،ولمحة عن أهم العلماء وإن لم يصلنا ما قاموا به من شروح تفيدنا في فهم طرائقهم التي اعتمدوها ، بالرغم من ذلك نلاحظ عودتهم إلى من سبقوهم وإفادتهم عليهم . ولكن هذه الدراسة عن هذه العلوم اتضحت أهميتها بالعدد الكبير من المدارس والمساجد والربط ، كانت كافية لإعطاء صورة حقيقية عن أهمية فن البناء والعمارة والهندسة في علم الرياضيات ، كونه علماً مساعدا للعلوم الفلكية والطبية .

٦ - علم الموسيقى :

الموسيقى صناعة تدخل في علم النغم والغناء ، ومعرفة الأصوات وإيقاعاتها وأوزانها ونقراتها وأحوالها ، وكيفية تأليف الألحان وأصنافها . قسّمت الموسيقى إلى نوعين الموسيقى النظرية والموسيقى العملية التي تهتم بالألحان المحسوسة في الآلات(٤) .

أصبحت الموسيقى دواءً روحياً لأصحاب الأمراض النفسية ، حيث تعطي النفس

==

(١) رمضان محمد : المجتمع الإسلامي ص٩٣
(٢) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص٢٣٦
- الإسنوي: طبقات الشافعية ج٢ ص٤٢٨
(٣) ابن العديم : بغية الطلب ج٩ ص٤٠٥٥-٤٠٥٦
(٤) الفارابي : الموسيقى الكبير تحقيق غطاس عبد الملك ، مراجعة محمود أحمد الجفني دار الكتاب العربي للطباعة القاهرة ص١٥ ، إحصاء العلوم ص٦٩
- القفطي : تاريخ العلماء ص٨٣ - السخاوي : إرشاد القاصد ص٩٢

لذة وأناقة وراحة . (١) ومن أبرز الآلات الموسيقية المعروفة الدفوف والطبول والصنوج وهي آلات الإيقاع النحاسية ، وكذلك المعازف والمزامير والقانون وآلة العود . (٢)

تميز الموسيقيون في أيام الحكم البوري فاتصفوا بالشمولية فهم الموسيقيون وصانعوا الآلات الجديدة ، فقد صنع أبو المجد بن أبي الحكم أرغناً وكان من الأفاضل (٣) وكذلك صنع أبو زكريا يحيى البياسي أرغناً للعب به ، (٤) وعلّم أبو الحكم الباهلي ولده أبا المجد الموسيقى وإيقاعاتها فتحول أبو المجد إلى صانع لبعض الآلات الموسيقية ، (٥) أما قراءة علم الموسيقى فقد تعلمها أبو زكريا يحيى البياسي الأندلسي على أستاذه ابن النقاش ، (٦) وعلى هذا فإن أبرز الموسيقيين في فترة الحكم البوري أبو الحكم عبيد الله الباهلي وولده الذي أتقن في الموسيقى فن إيقاعاتها وصقلها (٧) هذا بالإضافة إلى اللعب بالعود . وتميز ابن الساعاتي الطبيب رضوان ابن محمد الخراساني بمعرفة الموسيقى وإجادة الضرب على العود عاش إلى ما بعد سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م . (٨)

ولا يمكن فصل الموسيقى عن الغناء في فترة الحكم البوري ، خاصة مع وصول الموالي المتأثرين ببلادهم ، فكان الغناء عندهم يعتبر غذاءٌ للروح كما وصف في بعض المصادر ، وإن الذهن يرق له ، وإن العريكة تلين به ، وإن النفس تبتهج وتسر به . وخضع المغنون لامتحان الصوت الجميل ، وكان كثير من هؤلاء الغلمان يتميزون بالضرب على العود والغناء بأفضل الأصوات . (٩)
وبرز أيضاً من المغنين علي بن الحسن العطار (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م) الذي استمر في الغناء حتى كبر فضعف عن الاستمرار في ذلك . (١٠) ويقدم الشاعر ابن الخياط

==

(١) الفارابي : الموسيقى الكبير ص٨١
(٢) الفارابي : الموسيقى ص٧٧ - ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٥٨١
(٣) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٢٨
(٤) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٣٧
(٥) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦١٥-٦٢٨
(٦) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٣٧
- أبو شامة : تاريخ الروضتين ج١ ص١٧
(٧) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦١٥-٦٢٨
- الصفدي : الوافي بالوفيات ج٣ ص٢٣٠
(٨) الصفدي : الوافي بالوفيات قسم١٤ ج٦ ص١٢٨-١٢٩
(٩) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٥٣٧
(١٠) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوطة ج١٢ ص١٥

الدمشقي (ت٥١٧هـ/١١٢٣م) وصفاً لمجالس اللهو والقصف والأنس والطرب ، وما يجري في تلك المجالس من غناء وأهازيج وسط القصور . و الغوطة كانت من الأماكن المفضلة للغناء آنذاك . (١)

وكان الشاعر عرقلة الكلبي يتوجه إلى الأديرة والحانات يستمتع مع الصبيان بدق الطبل والزمر . (٢) وتميزت فئة الخاصة بشراء المغنيات وتمضية الأوقات معهن والأخطر من هذا أن يصل إنفاق أحدهم على اللهو ما يقارب عشرة آلاف دينار . (٣) وذكر أن علي بن الحسن العطار كان والده مقرئا فاشترى له جارية مغنية فتعلم منها الغناء وصار يغني مثلها ، توفي سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م . (٤) وكان عبد الرحمن بن مروان بن المبارك أبو محمد التنوخي ينشد في دمشق في الأسواق في شبابه بصوته الشجيّ ويدور على الدكاكين ، ثم غادر دمشق شاباً وتوفي سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م (٥)

وقف العلماء المسلمون والزهاد في وجه الغناء " لأنه يسقط المروءة وينقص الحياء ويصنع في العقل ما يصنعه السكر " واعتبر الإمام الغزالي ومعظم العلماء أن العود من الملاهي المحرمات إضافة إلى الطنبور والمغرفة والمزمار ، أما المباح منها فالدف في النكاح والطبل والبوق في الحرب . (٦) ولم يكن مستغربا تحطيم المغارف على رؤوس الجواري المغنيات لإفسادهن المكان بالضجيج مع إفساد النفوس هذا بالإضافة إلى طردهن من المكان ، (٧) والعلة في تحريم الموسيقى استعمال الناس لها على غير السبيل التي استعملها الحكماء .

هذا ما يتعلق بالموسيقى وأثرها في الدولة البورية ودَور بعض الموسيقيين في تنشيط الحالة النفسية والجسدية للمرضى وتخفيف الأرق عن المعانين ، رغم ما حملته في مضمونها من مفاسد ، لكنها كعلم دخلت ضمن العلوم التي عرفت في فترة الحكم البوري .

==

(١) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص٢٩
- ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٥٣٧
(٢) عرقلة: ديوان عرقلة ص٤٦- الأصفهاني : خريدة شعراء الشام قسم١ ص١٦٨
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٧ ص٧ ، ج١٥ ص٢٥٠-٢٥١
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص١٥-١٦
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص١٨٢
(٦) الأصبهاني : من محاضرات الأدباء ج١ ص٣٤٠
- الغزالي : مكاشفة القلوب ص٢٧٣
(٧) ابن العبري :المصدر نفسه ص٢١٣

الفصـــل الخـــامــــس

حركة الترجمة والمكتبات

١- حــركـــة التـــرجمـــة :

نشطت حركة الترجمة عند المسلمين العرب بعد اتصالهم بالأمم الأخرى من السريان والإغريق والهنود في القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، واعتمدت الأمانة العلمية في الترجمة لمعرفة حقيقة الكتاب المترجم ونسبته إلى صاحبه ونفي الزعم القائم عليه إن وجد لإثبات اليقين ، وتفسير الكتاب بالدقة المرجوة ، ولكن العقبة كانت تقف أحيانا عند فساد بعض الكتب مما سبب صعوبة في الترجمة . (١)

تمت عملية الترجمة عبر مراحل الاستنساخ والتصنيف والمطالعة والتبييض والتسويد والمعارضة والبحث والنقل والتعليق على ما يلزم . (٢) بدأت حركة الترجمة منذ العهد الأموي لمؤلفات الروم والفرس والسريان واليونان ، (٣) ولم يكتف المسلمون العرب بترجمة الكتب وتفسيرها وتبسيطها ، بل أعملوا فيها آراءهم في تطبيق العلم على العمل ووضع الاصطلاحات لها والزيادة عليها وتحسينها بعد تذوقهم حضارة هذه الأمم . (٤)

كان التيار الثقافي في أدب الدولة البورية قد نحا في جزء منه إلى استخدام ألفاظ عامية وأحياناً ألفاظاً غريبة عن اللغة العربية ، وقد اتضحت في كتابات أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار ، إما بسبب وجود العنصر التركي في البلاد أو بسبب وجود الغزو الفرنجي في المنطقة ، فاستخدم من الألفاظ الفرنجية البرنس والقمص ، ومن ذلك قول ابن منير:

==

(١) ابن النديم : الفهرست ص٣٧١-٣٧٢-٣٧٣

(٢) الديوه جي :بيت الحكمة دار الكتب للطباعة والنشر ط٢ ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م
ص٥-٦ - طرازي : خزائن الكتب العربية في الخافقين ج١ ص٦٨

(٣) ابن النديم : الفهرست ص٤٩٧ - الديوه جي : بيت الحكمة ص٩

(٤) طرازي : خزائن الكتب ج١ ص٦٤-٦٦-٦٨
- الديوه جي : بيت الحكمة ص٢٦

حط القوا مص فيه بعد قماصها ضرب لصلصيل في الكلى صعقاته (١)

وتابع قولــه :

سقى البرنس وقد تبرنس ذلة بالروح ممقر ما جنت عذرا ته (٢)

دخلت المؤثرات الثقافية غير العربية إلى الأرض الإسلامية ، فقد ترك التأثير التركي أصابع له في مضمار الحياة الثقافية والاجتماعية إضافة إلى المؤثر الفارسي فانخرطت تلك المؤثرات كألفاظ جديدة تميزت بها في تلك الفترة . وقد عرف علماء هذا العصر التكلم بعدة لغات وتطبيقها في ميدان الدراسة .

وقد تميز الإمام الغزالي بإجادته اللغة الفارسية حيث أدخل ألفاظاً فارسية في كتابه " كيمياء السعادة " وغيره من المؤلفات . (٣) وكان الطبيب مهذب الدين بن النقاش البغدادي مجيداً للغة الفارسية . (٤) وعرف عن الفقيه شرف الإسلام عبد الملك بن عبد الوهاب الحنبلي (ت٥٤٦هـ/١١٥١م) تميزه باللسان الفارسي حين توجه إلى خراسان لتلقي علومه هناك . (٥)

أدخلت الكلمات التركية الغريبة إلى الأدب العربي فكثيراً ما أورد أسامة بن منقذ في كتاباته كلمات منها جوبان الخيل أي راعي الخيل . (٦) واعتُمدت كلمة الاسفهسلار في ألقاب الوظائف ، وهي كلمة مزيجة من التركية والفارسية ، أسفه بالفارسية : تعني المقدم ، وسلار بالتركية : تعني العسكر ، وقد استعملت ألقاب فخرية أيضاً (٧) ، وتَطّلب من متولي ديوان الوزارة ، أن يكون فصيح اللسان بالعربية والفارسية ، فكان كريم الملك أبي الفضل أحمد بن عبد الرزاق المز دقاني قد

==============================

(١) أبو شامة : تاريخ الروضتين ج١ ص٦١

(٢) ابن منير : ديوان ابن منير ص١١٥- ابن العديم : بغية الطلب ج٣ ص١١٥٩

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٣٢٥

(٤) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٣٥

(٥) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٤٨٣

- ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج٤ ص١٤٣

(٦) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص١٣٦

(٧) القلقشندي : صبح الأعشى ج٦ ص٧-٨

- الباشا :الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق تحقيق محمد محمود شعبان المطيعي ١٩٧٦م ص١٥٦

تولى الديوان وتميز بالفصاحة المذكورة سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م ، (١) وعرف أيضاً ابن القلانسي بإجادته للفارسية إلى جانب العربية . (٢)

وأدخلت في الخدمة الأميرية العليا لحماية الأمراء الكبار عدة ألفاظ منها ، السلاحية والجاندارية (٣) ولا تمت هذه الكلمات بأي صلة إلى اللغة العربية ومثلها كلمات الخزندارية وتعني متولي الخزانة ، والسلحدار الذي يحمل السلاح ، والطبر وهو الفأس والجاما وهو الثوب . (٤)

وتحولت اللغة الفارسية لتكون إحدى اللغات الأساسية والمهمة في الديوان إلى جانب العربية ، وصارت من لغات الدولة الرسمية ودخلت في الشعر العربي من شعر عرقلة الكلبي :

ذكيٌّ ولكنه لا ذنٌ أصيل ولكنه كَامِخُ (٥)

وقولـــه :

بين تراه كخشكنانكة (٦) حتى تراه كأنه قرصة (٧)

وتابع أسامة بن منقذ استخدام الألفاظ العربية الفارسية فقال : " وأحضر آخر قطعة سندروس " أي معدن . وتابع جاء أحدهم وهو لابس كزاغند ، أي سترة سميكة تقوم مقام الدرع في القتال ، وهي عبارة عن كلمة مركبة من قز وهو الحرير وكند أو غند وهو البطل الشجاع بالفارسية . (٨)

وهكذا دخلت كلمات فارسية كثيرة في ذلك العصر ، فراجت اللغة الفارسية لإصرار السلاطين السلاجقة على أن تكون لغة الكتابة الرسمية ، ونافست اللغة العربية ، ولم يكن لها قبل العهد السلجوقي تلك القوة . (٩)

==

(١) ابن القلانسي :المصدر نفسه ص٣٦٥

(٢) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٣٦١

(٣) جان معناها الروح في الفارسية والتركية ، ودار معناها ممسك ، وتعني ممسك الروح ، وهم فئة عند السلطان يقومون له ، بأعمال الحراسة الشخصية في حالة خروجه . د٠ حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، دار النهضة العربية القاهرة ، ٣ أجزاء ١٣٨٥ هـ/١٩٦٥م ج١ ص٣٤٨

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج٥ ص٤٥٧-٤٦٣
- السبكي : معيد النعم ص٢٧-٢٨-٣٤

(٥) كامخ :كلمة فارسية أصلها كامه وهو غذاء أو آدام رديء

(٦) خشكنانكه : نوع من الكعك بالفارسية

(٧) عرقلة الكلبي : ديوان عرقلة ص٢٠

(٨) ابن القلانسي : المصدر نفسه ص٣٦٩ - أسامة بن منقذ : الاعتبار ص١٤-٥٩

(٩) د٠ حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة ص٢٥٠

تطلبت حركة الترجمة اعتماد أساليب متطورة، بعدم التقيد الحرفي لترجمة النص والبحث عن المعنى الحقيقي بدقة في إطار فهم المضمون ، إضافة لمراجعة النص المترجم للتعرف على الأخطاء . ويمكن أن يشترك في النص المترجم عدة أشخاص خاصة إذا كان نقله يحتاج إلى عدة لغات من الفارسية إلى الهندية ثم العربية ، وقد أكد الإمام الغزالي على تلك الدقائق وأشار أنه لا يجوز النطق إلا باللفظ الوارد الصحيح للمعنى القريب منه بالعربية ، لأنه قد توجد كلمات بالفارسية لا تطابقها في العربية والعكس بالعكس. واستخدم الغزالي في كتاباته من الكلمات الفارسية " زيدنا بينا إست " وتعني زيد غير بصير . وأورد أيضاً جملة من الكلمات الفارسية التي عمل على ترجمتها إلى العربية فرأى خلاف بعضها في التفسير مثل لفظ كلمة الاستواء ، والمعنى القريب لها في الفارسية " راست باستاد " لكنها لا تعني ذات اللفظ في العربية . هذا نموذج مما عاناه الغزالي عندما كان يسعى للترجمة من الفارسية إلى العربية وبالعكس . (١)

مثلت الترجمة إلتقاء ثقافياً وحضارياً بين الشعوب الأخرى ، سهلت انسياب الكثير من الكلمات والمصطلحات الضرورية في مجالات العلوم ، فيمكن أن يؤخذ عن العرب ما أبدعوه من علوم لم تتوثق معارفه بعد لدى تلك الشعوب ، ولا تنهج الترجمة إلا بطرائق دقيقة وخطوات ثابتة ، خاصة إذا كان النقل من لغة إلى لغة أخرى يمر عبر وسيط ثالث أو لغة ثالثة حتى يتم النقل إلى العربية ، فاقتضى ذلك الأمر الإتقان والدقة والحذر من الخطأ أو تشويه وإفساد المعنى المراد والمقصود وإيصاله إلى معناه تماماً أو قريباً منه بحيث لا يناقض أو يخلّ بغرضه .

٢ - المكتبـــــات :

مثلت المكتبة الإسلامية جامعة ثقافية متكاملة ، يدخل في نطاقها الخدمة المكتبية التي تشمل المناول والخازن وضابط المؤلفات في الفهرسة والتصنيف ، فالحضارة الإسلامية لم تأت من المجان ، بل ترقت بالوعي الحضاري الذي شملها بكل عناية . ودخل في دور ترميمها وإشادتها الخلفاء والأمراء ، فكانت أساس حضارة هذه الأمة ، تزيد عظمة بما تحتفظ به من توثيق عريض تعرضت في فترة من الفترات للحرق أو التدمير .

==

(١) الإمام الغزالي : إلجام العوام ص٨-٩ ، مقاصد الفلاسفة ص٢٢
- الغزالي : أيها الولد ص١١

أتحفت المكتبة الإسلامية العربية بكتب عديدة ، وساعد على إثرائها المؤلف والمترجم والمنقح والمهذب وكل عالم طرق منهاج البحث العلمي وغاص في ميادين العلوم . فظهرت المكتبة المتخصصة في التاريخ والجغرافية والفلسفة والفلك والطب والرياضيات ، وكذلك الكتب التاريخية المتخصصة في تاريخ المدن وكتب الطبقات مثل طبقات الحنابلة والشافعية والأحناف والمالكية ، هذا غير التخصصات في الفقه والأصول والحديث والقراءات والعقائد وعلم الكلام .

لم تظهر في دمشق مكتبة متخصصة كالتي عرفت في بغداد إلا أن ما أوقف على الجوامع والمدارس والمستشفيات من خزائن الكتب يؤكد عناية أهل المدينة والأثرياء وحتى العلماء على تزويدها . وساعد انتشار المكتبات بكثرة توافر الكتب في تطوير نظام التعليم وحلقاته الدراسية ليتواصل الطلبة مع البحث والتحصيل العلمي ، وتقديم كافة وسائل المعرفة لتسهيل وصول الثقافة إلى الجميع والحق أن هذه المكتبات كانت من ميزات المعاهد التعليمية .

انتشرت ظاهرة إعارة الكتب خاصة في مجالس الحديث ، لأن من بركة علم الحديث إعارة الكتب خاصة إذا فات بعض الطلبة شيئاً من المجلس، فيعير بعض من يحضر كتابه حتى ينسخ المتأخر منه . (١) وذكر أن العالم أبو طاهر الإسفراييني أعار كتابه لأحد الطلبة ، إلا أن كتاب العالم أساء إليه الطالب ، فوضع عليه عنباً فأخفى العالم ذلك في نفسه ودعاه إلى بيته ، ثم أخرج إليه كتابا وناوله إياه قائلا : هذا الكتاب الذي طلبته ، وهذا الطبق تضع عليه ما تأكله (٢) لذلك نلاحظ أن العلماء المسلمين شددوا على الكتّاب والقرّاء والمستعيرين احترام الكتاب ومراعاة آدابه . ومع هذا لم يقبل كثير من العلماء إعارة كتابه لأي من الطلبة منهم العالم أبو عبد الله محمد بن علي الأنصاري الجياني المتوفى سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م . (٣)

==

(١) الأصبهاني : من محاضرات الأدباء ج١ ص٥٥
- السمعاني : أدب الإملاء والإستملاء ص١٧٦-١٧٧
(٢) ابن الجوزي : أخبار الظرّاف والمتماجنين ، القاهرة ط٢ ١٩٨٣م ص٦١
(٣) المقري : المصدرنفسه نسخة قديمة ج٢ ص٣٥٦-٣٥٧

كان الجامع الأموي يضم مكتبة تحتوي على نفائس الكتب إلا أنها احترقت سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م ، واشتملت البيمارستانات أيضاً على الخزائن الخاصة التي تضم المفيد من مخطوطات ابقراط وجالينوس وأطباء المسلمين العرب ، يجتمع فيها الأساتذة والطلاب بعد جولات الصباح . (١)

ساهم الوقف في تنشيط الحركة المكتبية بصورة عامة في المساجد والمدارس والترب والبيمارستانات وصار ذلك العمل من القربى إلى الله تعالى ، لأن العلم في أساسه تقرب إلى الله تعالى. وأما الصيغة المعتمدة في كتابة الوقف فهي : كتاب ملّكه ا لعبد الفقير إلى مكان كذا ليتم الانتفاع به ، ويتميز كتاب الوقف بكتابة عبارة (وقف) بالخط العريض في أعلى الصفحة الثانية من الكتاب ، وقد تستمر كتابة هذه العبارة على صفحات عديدة مؤكداً ذلك قيمة الكتاب وعدم تعرضه للصوصية . (٢) ويحق للواقف أن يشترط عدم إخراج أي كتاب من المكتبة إلا بعد التأمين عليه برهن يعادل ثمن الكتاب ، خوفاً على الكتب النادرة والعزيزة المنال من الضياع . (٣)

ترك العلماء المسلمون مصنفات غزيرة في مجالات العلوم ، فمن كتب العالم نصر المقدسي المتوفى ٤٩٠هـ/١٠٩٦م ، كتاب " التهذيب : و" المقصود" و"الكافي" و"شرح الإشارة" (٤) ، وصنف الإمام الغزالي لدى قدومه إلى دمشق واستقراره في منارة الجامع الأموي طيلة عشر سنوات كتبا غزيرة في الفقه والأصول وعلم الكلام والمنطق ، فأجاد في تأليفها وترتيبها وترصيفها ، (٥) فصنف في المذاهب "إحياء علوم الدين " و" البسيط " و"الوسيط" و"الوجيز" و"المنخول" و"المنتحل في علم الجدل" وفي أصول الفقه "المستصفى" و"تهافت الفلاسفة" و"مقاصد الفلاسفة" و"المعيار في محك النظر" و"مشكاة الأنوار" و"التفسير في أربعين مجلداً" و"المنقذ من الضلال" و"القسطاس المستقيم" و"كيمياء السعادة"

==

(١) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص٢٣٠

(٢) علي بن محمد الخطيب : شرح رسالة الشيخ رسلان مخطوط رقم ١٤٤٩ ص٢و

(٣) السبكي : معيد النعم ص٨٨ - ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص١٦٩

(٤) الإسنوي : طبقات الشافعية ج٢ ص٣٨٩-٣٩٠

(٥) ابن النجار : المصدر نفسه ص١٢٧-١٢٨

- أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج١ ص١٤٤

و"الاقتصاد في الاعتقاد" و"إلجام العوام في علم الكلام" و"بيان اعتقاد الأوائل" و(جواهر القرآن) في علوم القرآن و"الغاية القصوى" و"المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى" و"بداية النهاية" ، وغيرها من الكتب . (١)

أما ما نسب للإمام الغزالي من بعض الكتب منها "المضنون به على غير أهله" فمعاذ الله أن يكون له ، ويرى السبكي أن الكتاب وضع عليه (وهو مخترع) من كتاب مقاصد الفلاسفة الذي نقضه الغزالي بكتاب "تهافت الفلاسفة" . اشتمل كتاب المضنون التصريح بقدم العالم ونفي الصفات وأنه سبحانه وتعالى لا يعلم بالجزئيات . (٢)

وأشار الصدر كمال الدين الشهرزوري أنّ ما ورد بالكتاب لا يليق بما عرف عن فضل الإمام الغزالي ودينه .ووجد بخط آخر في نسخةٍ كتب فيها " هذا منقول من كتاب مقاصد الفلاسفة حرفاً بحرف " ولا يعتقد ما ورد في هذا الكتاب أن يعود إلى الإمام الغزالي لأنه أثبت التناسخ وأمور أخرى لا توافق بين ما تركه الإمام الغزالي من كتب كثيرة معروفة ومعروف بها زهده وتصوفه ودينه وعلمه وبين هذا الكتاب (٣) .

وترك المؤرخ الحافظ ابن عساكر من الكتب الشيء الكثير ، فقد ذكر أنه قطع عمره بالبحث والتأليف والجمع والتصنيف والمطالعة والتسميع ومن مصنفاته الكبرى كتاب " الإبدال " ولو تم له لكان حجمه مائتي جزء وأكثر ، وله من المؤلفات غير " تاريخ دمشق " في ثمانين مجلدة كتاب آخر في " الموافقات " وضعه في ثماني مجلدات ضمن اثنين وسبعين جزءا . وله كتاب " تبيين كذب المفتري فيما نسب للإمام أبي الحسن الأشعري " وكتاب " عوالي مالك " وكتاب " التالي لحديث مالك العالي " وكتاب " طبقات أصحابه إلى زمانه " وكتاب " الزهاده في ترك الشهادة " بمجلد واحد . وكتاب " فضل الحمد " وكتاب " فضل عاشوراء"

==

(١) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٠٣ -
السخاوي : طبقات الأولياء مخطوط ص٦٥ و ،
مؤلف مجهول مخطوط طبقات الشافعية رقم ٥٥١٦ ص٥٥ و
(٢) ابن الصلاح : طبقات الشافعية ج١ ص٢٦٣-٢٦٤
(٣) النووي : مخطوط طبقات الشافعية ص٢٩ و

في ثلاثة أجزاء ، وكتاب " الزلازل " وكتاب " فضائل البلدان " وكتاب " أربعمائة مجلس وثمان مجالس في فنون شتى " . (١)

ومن المؤلفات التي تركها العالم الجليل جمال الدين بن المسلم في الفرائض والفقه والتفسير نأخذ مثالاً كتاب "أحكام الخناثى " . (٢) وهكذا فقد تصل تصانيف العالم إلى ما يزيد على ثلاثمائة وأربعين مصنفاً، منها ما هو عشرون مجلداً وفيها ما هو كراس واحد . (٣) ومما تركه أسامة بن منقذ من الكتب بعضها موجود وبعضها مفقود فمن كتبه "العصا " وكتاب " السيف والسباب " ألفه لابنه وكتاب " ذيل اليتيمة للثعالبي " وكتاب " تاريخ أيامه " وكتاب " في أخبار أهله " (٤) ومن المصنفين أيضاً الخضر بن عقيل الأربلي أبو العباس الفقيه الشافعي (ت٥٦٧هـ/١١٧١م) جمع كتاباً في فضائل الصحابة . (٥) وقدم علي بن أحمد بن المكي الإمام إلى دمشق وترك مصنفات منها ، كتاب " خلاصة الدلائل في شرح القدور " توفي بدمشق سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م . (٦)

أطلق علماء الإسلام على ما صنفوه من الكتب عبارة الجزء أو المجلد وقد لا يتجاوز بضع كراريس من كراساتنا ، وقد لا تتجاوز الكراسة الواحدة ثماني صحائف . وعمد كثير من العلماء إلى كتابة مؤلفاتهم بأيديهم ، لا يفارقون النسخ تسويداً أو تبيضاً ، ويكون البدء في كل كتاب بالبسملة . (٧) فقد نسخ أبو الفضل عبد الكريم بن المهندس بخطه كتباً كثيرة في العلوم الحكمية وفي صناعة الطب .(٨)

==

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج١٣ ص٨٢- الأيوبي : التذكرة ج١ ص١٨٩ ب
(٢) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج٨ ص١٠٣
- الذهبي : العبر في خبر من غبر ج٤ ص٩٢
(٣) الشطي : مختصر طبقات الحنابلة ص٤٥
(٤) الأيوبي : التذكرة الأيوبية ج٢ ص٢٦٩ ب
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص٦٥٩
- ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ص٢٣٧
(٦) قطلوبغا : تاج التراجم ص٤٢
(٧) ابن النديم : الفهرست ص٤١٦ – ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص١٧٢
(٨) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٧٠

وكذلك عمل الصائن هبة الله بن عساكر الدمشقي المتوفى ٥٦٣هـ/١١٦٧م ، على تحصيل النسخ لكتبه . (١)

وعمل الإمام الغزالي على نسخ الكتب والارتزاق منها (٢) ونسخ إمام جامع دمشق ابن طاووس المقرىء المعروف ، الكثير من الكتب . (٣) وممن ساهم في نسخ الكتب أيضاً عبد الله بن أحمد بن علي أبو القاسم السلمي المولود سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م ، والمعروف بابن سيده ، كتب الكثير من الكتب .(٤)

وجمع الحافظ ابن عساكر علي بن الحسن من الكتب ما لم يجمعه أحد من الحفّاظ نسخاً واستنساخاً ، مقابلة وتصحيح ألفاظ ، حتى جمع عشرة نسّاخ لنسخ كتاب تاريخ دمشق وتسلم كل ناسخ ثمان مجلدات فكتبوه بخط دقيق في سنتين . (٥)

ونسخ محمد بن علي بن ميمون أبو الغنائم الكوفي الكثير من الكتب ، و توفي سنة ٥١٠هـ/١١١٦م ، (٦) وكذلك نسخ بيده اليسرى محمد بن الحسين بن المفرج الأزدي المقرىء دلال الكتب ، وقد توفي سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م ، (٧) ونسخ الطبيب يحيى البياسي بخطه كتباً كثيرة جداً في الطب وغيره . (٨) وكذلك الطبيب علي بن مهدي الهلالي الدمشقي ، و توفي سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م . (٩)

==

(١) الكتبي : فوات الوفيات ج٤ ص٢٣٥-٢٣٦
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢ ص١٨٥-١٨٦
(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٩٨
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (عبادة بن أوفى) ص٣٣٣
(٥) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٢٢٧
- ابن كثير : البداية والنهاية ج٢ ص٢٩٤
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص٧٦٥-٧٦٦
(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص٣٠٢
(٨) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص٦٣٧
(٩) الصفدي : الوافي بالوفيات ج٢٢ ص٢٤٤

كان للكتب أسواق تباع فيها وتشترى في المراكز الرئيسية في دمشق وغيرها منها سوق الوراقين ، (١) وقد تحدث ابن بطوطة عن سوق الوراقين فأسهب في ذلك وقال : وفي دمشق " شوارع مستطيلة فيها حوانيت الكتبيين " ويباع فيها الكاغد (الورق) والأقلام والمداد . (٢)

وبعد كل ما تقدم يحق للمسلمين العرب ، أن يفخروا بإنجازهم العلمي المكتبي العريق وبابتكارهم الفنون العديدة كفن الفهرسة . لهذا فقد امتلكوا في علم المكتبات فهرستان وجامعتان. واهتموا اهتماماً بالغاً بالمكتبات العامة منها والخاصة ، بالإضافة إلى الكتب الوقفية ، فقد ذُكر أن محمد بن عبد الرحمن المسعودي البندهي وقف كتبه على الخانقاه السميساطية وتوفي سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م. (٣)

ويمكن بعد هذا التوضيح أن نلاحظ ازدهار الحركة العلمية المكتبية ونشاطها في العهد البوري ، تأليفاً وتصنيفاً ، وتبويباً ، وفهرسة ، وقد ساعدت ظاهرة الوقف على تعميق وترسيخ دعائم الحضارة الإسلامية لأن الغني باستطاعته شراء الكتب كيفما كان ، أما الفقير فلا بد من تقديم المساعدة له ، فرسم بذلك صورة عن الحياة التعليمية التي تميزت بالعظمة بما أنجبت من كبار العلماء .

==

(١) البغدادي : تقييد العلم ص١٣٧
(٢) ابن بطوطة : المصدر نفسه ص٨٦-٨٧
(٣) ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج١ ص٣٧٠

الباب الخامس : المناهج وطرق التدريس والإجازة

الفصل الأول : وسائل التعليم وطرق التدريس

الفصل الثاني :الإجازة والدرجات العلمية

الفصل الأول

وسائل التعليم وطرق التدريس

وسائل التعليم وطرق التدريس :

تعود أهمية التعليم والتربية إلى الإسلام ، حيث بدأ معه التعليم الإلزامي ، حين فُرض على الوالد تعليم أولاده القرآن وأمور الدين ، وتربيتهم التربية الصالحة ، لتنشئة جيل قوي متمسك بدينه وعلمه . (١) بدأت ظاهرة تعليم القراءة والكتابة ، مع فرض الصلاة المكتوبة ، التي تؤكد على المسلم قراءة آيات من الذكر الحكيم . ويعتبر مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، أول صرح تعليمي ، أكد على ضرورة مكافحة الجهل والأمية ، فتأسست الكتاتيب لتعليم القراءة والكتابة . (٢)

برز الاهتمام الكبير بالتعليم الابتدائي ، ثم التعليم العالي ، ولم يقتصر الدور التعليمي على الكتاتيب و المساجد، ومجالس العلم والأدب ، والمدارس التي انتشرت ، بل نشطت حلقات التدريس في الربط والزوايا أيضاً.

لذلك اهتم المسلمون العرب بمناهج التعليم وطرائق التدريس ، فبرز من تلك المناهج دَور الكتاب أو الخلوة ، وتعليم الأولاد في أماكن خاصة بهم ، بعيدة عن المساجد ، تبدأ بتعليمهم الكتابة والخط في بعض الأشعار ، ويأتي بعد ذلك التركيز على القرآن الكريم ، وحفظ مقتطفات منه . والقصد من ذلك صون كتاب الله تعالى ، من أيدي الصغار وابتذالهم . وتستكمل الوظيفة التعليمية مهمتها ، بتعليم الصغار في ألواح خاصة ، شيئاً من الخط والقراءة ، الفقه والحديث، والنحو والشعر، والخطابة وأنساب العرب ثم الحساب ، بأسلوب تلقيني مرن ، ثم يليه أسلوب التكتيب بيد المعلم ، فيخرج التلميذ بخط مطبوع يمثل صورة طبق الأصل لخط المعلم . (٣) وتتلاحق المرحلة التعليمية ، وتحل المدرسة محل الكتاب بأسلوب تعليمي دقيق ، حيث يدرس التلميذ مناهج متعددة ، الدينية منها ثم العربية ثم التطبيقية بشكل متدرج ، تليها لغات

==

(١) الديوه جي : التربية والتعليم في الإسلام ، بمساعدة اللجنة الوطنية في الجمهورية العراقية ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ص٦-٨

(٢) ابن سحنون : آداب المعلمين طبعة جديدة ، تعليق محمد العروسي المطوي تونس ١٤٩٢هـ / ١٩٧٢م ص٣١

(٣) ابن جبير : المصدر نفسه ص١٩١- ابن سحنون : المصدر نفسه ص٣٥-٤٥ الديوه جي : التربية ص١٨ - حسن : (نبيلة) تاريخ الدولة العباسية ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٨٨م ص٩

العصر . وتصدرت العلوم الدينية والعربية أساس التعليم . ومما لاشك فيه ، أن طرائق التدريس المشتركة في العهد الإسلامي ، أثرَت حركة التعليم ، وأفاد منها المتعلمون ، فالغاية واحدة ، وهي لا تختلف في المنهج ، لأنها تعتمد أربعة أساليب علمية .

أما الأسلوب الأول : فهو الإلقاء والتكرار حتى يتمكن الدارس من ملكة الحفظ ، خاصة في حلقات علم الحديث ، لأن الطلبة يدونون ما يفهمون من شروح أستاذهم ، وتشبه هذه الطريقة أسلوب المحاضرة اليوم ، ويمكن أن تشمل حالتين الأولى الإملاء ، ويكون من حفظ الشيخ أو من كتاب بين يديه ، وقد يستعين الأستاذ بالمستملي ، إذا كثر الحضور في الحلقة ، حتى لا يضيع على الطلبة شيء . أما الحالة الثانية ، فتشمل العرض على المدرس ، أو القراءة عليه ، وهذه الحالة تعتمد الفردية ، حيث يختار الطالب أحد أساتذته ، أو شيوخه ، ليقرأ عليه بحثاً معيناً .

وتعتمد الطريقة الثالثة من طرائق التدريس ، المناظرة ، ويتم فيها ترديد الكلام بين شخصين ، يَقصد كل فريق منهما إثبات صحة قوله ، وإبطال قول صاحبه ، وإظهار الحق في علمه المطروح ، ولاشك أن هذه الطريقة تشحذ الذهن ، وتقوي الحجة ، وتمرن على سرعة التعبير ، والثقة بالنفس ، وتعلم أسلوب الارتجال .

كانت حلقات المناظرة تقام في الجامع الأموي ، وبالإمكان أن تكون المناظرة بين اثنين من الأساتذة ، أو بين أستاذ وطالب وصل إلى درجة المقدرة على التناظر مع أستاذه ، والمثال على ذلك ، ما كان من مناظرة بين الإمام الغزالي ، وأستاذه إمام الحرمين الجويني . وكان التناظر يقوم على أساس الصدق والأمانة ، للوصول إلى الحقيقة لا على أساس الغدر والخيانة ، وبث داء المشاحنات والعداوات ، التي لا تخدم مكانة العلم ، بل تهبط به إلى مستنقع الحضيض .

أما الطريقة الرابعة المعتمدة في التدريس ، فهي الكلية ، وتكون كما يلي : يبدأ الشيخ بفكرة كلية ، ثم عامة ، يتدرج بها إلى التفاصيل ، (١) وهذا ما يعتمد في العلوم الشرعية والأدبية .

أما العلوم العملية التطبيقية ، كالطب والهندسة والرياضة والمنطق ، فقد جَمع بها المسلمون العرب بين النظر والتطبيق ، كما فعل مهذّب الدين ابن النقاش (ت ٥٧٤هـ / ١١٧٨م) حين كان يعقد درسه في الطب بمنزله ، ثم ينتقل بعد ذلك مع الطلبة إلى المشفى لمعاينة ما تمت دراسته نظرياً بالتطبيق العملي . (٢)

---

(١) الوشلي : المسجد ودوره التعليمي ص٦٣-٦٦

(٢) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ص ٦٣٦

ارتبطت مناهج تعليم الطلبة من قبل الأساتذة بطرق متعددة وأساليب من التدريس تتناسب ومادة الدرس منها :

١ – **الإمـــلاء :** وقد اتبع هذا المنهج اللغويون والأدباء وأصحاب الأخبار والملح والنوادر ، ويملي فيه المدرس ما وقف عليه من قراءات غيره ثم يترك الباب مفتوحاً لإبداء الرأي والمناقشة . (١)

٢ – **المحـاضرة :** وتلقى في مادة معينة يسترسل الأستاذ في الكلام حتى يتفكر فيه السامعون ويفهمون ، وإذا انتهى من مسألة سكت قليلاً حتى يتكلم من في نفسه فكرة الاستفسار والاستيضاح من الطلبة ، فيفسح لهم المجال ويشرح لهم ما استصعب عليهم فهمه . (٢)

٣ – **القـراءة والشرح :** يعين المدرس للطلبة ما يرجعون إليه قبل الدرس ، ويحاولون فهمه وفي الدرس يقرأ أحد الطلبة النص المعين لهم ، ثم يعيد المدرس قراءته فقرة فقرة ، ويشرح الألفاظ والمعاني الواردة فيه ، ثم يشرح كل الدرس ويربطه بالدرس الذي سبقه ، كما يقارن الدرس بدرس تقدم وسبق شرحه . وبعد أن ينتهي من البحث يفسح المجال أمام الطلاب كي يسألوا ، وبذلك يشرح الدرس شرحاً معمقاً وجيداً . (٣)

==

(١) الديوه جي : التربية والتعليم في الإسلام ص٨٧

(٢) الديوه جي : التربية والتعليم في الإسلام ص٨٨

(٣) القفطي : أخبار العلماء ص١٧٩ - الديوه جي : التربية والتعليم ص٨٩

خضع الطالب الدارس لعلم الحديث ، إلى مراحل عديدة :

أولاً : مرحلة القراءة أو العرض على الشيخ وهي أن يعرض الطالب على الشيخ ما يقرأه سواء بقراءة الطالب أو بقراءة غيره وهو يسمع .

ثانياً : المكاتبة ، ويعتمد عليها الطالب ، وهي من أساليب الإجازة ، وتكون بأن يكتب الشيخ إلى الطالب وهو غائب شيئاً من حديثه بخطه ، أو يكتب له ذلك وهو حاضر . وقد تقرن المكاتبة بالإجازة ، فيقول الشيخ " أجزت لك ما كتبته لك ، أو ما كتبت به إليك " . (١)

ثالثاً : الإعلام ، من أساليب تلقي الحديث ، وهو أن يعلم الشيخ الطالب أن هذا الكتاب أو الحديث روايته أو سماعه من فلان . مقتصراً عليه ، من غير أن يقول إروه عني أو أذنت لك في روايته ، فيمنحه بمقتضى ذلك إجازة أو تصريحاً وترفقها عبارة " أخبرني " أو " أجازني " . (٢) وقد يجيز أحد الشيوخ لطلبته كل ما حصلوا على روايته منه بقراءة أو سماع أو مناولة أو إجازة أو مشافهة وكتابة ووجادة وجميع ما أجيز له روايته بالشام وغيرها وجميع ما صنفه واختصره. وأطلق البعض على ما يجيزه العالم لأحد تلامذته اسم الإجازة العامة . (٣) لم يكن لابن عساكر نظير في الفقه والدين ، حيث سمع عنه خلق كثير ، وكان له إجازات عالية . (٤)

==

(١) ابن الصلاح :مقدمة ابن الصلاح ص٦٢-٨٣
- ابن الأثير : جامع الأصول في أحاديث الرسول تحقيق عبد القادر الأرناؤوط دار الفكر ط٣ بيروت ١٩٨٣ م ج١ ص٧٨-٧٩
- فياض : الإجازات العلمية عند المسلمين مطبعة الإرشاد بغداد ١٩٦٧م ص٣٤-٣٩-٤٩ - سيزكين : محاضرات في تاريخ العلوم ص٤٤
(٢) سيزكين : محاضرات في تاريخ العلوم ص٤٤
(٣) المقري : نفح الطيب ج٣ ص٣٠٣
(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٥٥٦

رابعاً : الوجادة ، ويقال ما يوجد من سماع الغير أو من سماع نفسه سواء بخطه أو بخط غيره ، وعلى هذا يمكن استخدام أحد الكتب بغض النظر عن معاصرته أو قدمه و يتقدم هذا العبارات التالية " وجدت ، " أخبرت " ، " حدثت " . فالوجادة هي من طريق الأخذ والتحمل واتصال الأخبار بناقلها . ومعناها : ما أخذ من العلم من صحيفة من غير سماع ولا إجازة ولا مناولة . وقد سن العلماء للمحافظة على شرع الله وسنة نبيه شروطاً للتثبت من الناقل . (١) وبالوجادة يتم نقل الحديث ، عندما يجد الطالب كتاباً أو حديثاً لشخص رواه بخطه ولم يلقه ، أو لقيه ولم يسمع منه ، وبقي ذلك الذي وجده بخطه .

وهناك المناولة ويراها البعض كالسماع ، وتسمى العرض ، وصورتها أن يكون الراوي حافظا فيقدم المستفيد إليه جزءاً من حديثه أو أكثر فينا وله إياه ، فيجيز له وذهب بعضهم إلى أن المناولة والعرض كالسماع . ويذهب المحدث أبو عامر الحافظ محمد بن سعدون القرشي . العبدري ، إلى أن المناولة والعرض كالسماع توفي سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩ م ، (٢) وتفتقر المناولة إلى مشافهة المجيز ، وتكون بأن يعطي الشيخ لتلميذه أو طالبه كتاباً أو صحيفة ليرويه عنه . وقد تقترن المناولة بأن يجيز الشيخ للطالب ، حيث يقول : هذه روايتي فاروها عني ، وقد أجزت لك أن تحدث بها عني وهي أعلى أنواع الإجازة . (٣)

وهناك المناولة المجردة عن الإجازة ، يناول فيها الأستاذ الكتاب على قوله " هذا من حديثي ، أو من سماعاتي ، ولا يقول له اروه عني أو أجزت لك روايته عني " . ولم يجزها كثر من الفقهاء ، واعتبروها مختلفة . ومن الخطوات الأخرى في تحمل الحديث الوصية ، وتعني أن ينقل الشيخ قبل وفاته أو قبل رحيله حق رواية كتابه أو كتبه موثقاً ذلك في وصية منه ، ويسبق ذلك بعبارات " أخبرني وصية عن " أو " وصاني " . (٤)

==

(١) الشيخ أبو اليسر عابدين : مقال الوجادة مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ٣٦ / ١٩٦١ م ص٥٨-٥٩

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٥٨٠
- ابن الأثير : جامع الأصول ج١ ص٨٤
- المقري : نفح الطيب نسخة قديمة ج٢ ص٢٣٨
- القنوجي : التاج المكلل ص٣١٨

(٣) ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح ص٧٩ - د. العتر: منهج النقد ص٢١٧

(٤) ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح ص٨١
- سيزكين : محاضرات في تاريخ العلوم ص٤٧

وأصح أنواع الدراسة ، أن يملى على الطالب ، ويقوم الطالب بالكتابة من الحفظ عن المحدث ، وهو من أصح أنواع الكتابة والدراسة ، لأنه يبعد الطالب عن الفساد في الإملاء ، ويجعله في الوقت نفسه يسمع ويفهم ما يُكتب ، ويبدأ في الإملاء بالتسمية ، ويطبع في السطر الأول اسم الشيخ الذي يسمع منه الإملاء ، وكنيته ونسبه ، ثم يتبع لفظ المملي ، ويقيد الأسماء بالحروف ، والشكل ، والإعجام ، حذراً من التصحيف، وإذا فرغ يقرأ المستملي الإملاء ، فيراجع والطلبة معارضة ما كتبوه عنه ، ويعملون على إصلاح ما فسد أثناء الكتابة من زيغ القلم أو الفكر . (١)

ولاشك أن قراءة الطالب على أستاذه ربما تجّر الغفلة ، أو عدم السماع الجيد ، وإن قرأ المحدث ، لربما اشتغل الطالب بشيء عن السماع ، لهذا حُبذ الإملاء المباشر في الحديث . وقد قيل:

واظبْ على كَتْبِ الأمالي جَاهِداً   من ألسُنِ الحُفّاظِ والفُضَلاَء
فَأَجَلُّ أنواعِ السَمَــاعِ بأسْــرِهَا   ما يَكْتُبُ الإنسَانُ في الإمْلاَءِ (٢)

وهكذا قد يكون السماع من لفظ الشيخ ، إما إملاء أو تحديثاً من غير إملاء من لفظ الشيخ المحدث أو من كتابه ، واعتبر هذا من أرفع أنواع التحديث . (٣) ويكون أخذ الحديث عن المشايخ على أنواع منها : أن يحدثك به المحدث ، ومنها أن تقرأ عليه ومنها أن يقرأ عليه وأنت تسمع ، ومنها أن تعرض عليه وتستجيز منه روايته ، ومنها أن يكتب إليك ويأذن لك في الرواية ، فتنقله من كتابه أو من فرع مقابل ، وأصح هذه الأنواع أن يملي عليك وتكتبه من لفظ (أن يقرأه هو عليك) لأنك إذا قرأت عليه ربما تغفل أو لا يستمع ، كأن يصاب العالم بنعاس ، أو يسقط شيئاً من أذنه . وإن قرأ عليك فربما تشتغل بشيء عن سماعه وإن قرأ عليه الحضور سماعه كذلك . وإذا عرضت عليه وأذن لك أو كتب لك فهو دون هذه الأنواع . (٤)

==

(١) السمعاني : أدب الإملاء والإستملاء ص١٠-٧٧-١٦٩-١٧٠
- ابن عساكر : مجلسان من مجالس الحافظ ابن عساكر في مسجد دمشق تحقيق مطيع الحافظ ط١ دار الفكر ١٩٧٩ م ص١٧
(٢) السمعاني : أدب الإملاء والإستملاء ص١٠-١٢
(٣) ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح ص٦٢ - فياض : الإجازات العلمية ص٤٩
(٤) السمعاني : أدب الإملاء والإستملاء ص٨-٩-١٠

وأفضل أنواع الإملاء ،إذا أملى المحدث وكتب الطالب من لفظه ، فهذا لا يتطرق إليه أي نوع من الفساد ، لأن المملي يعرف ما يملي ، والطالب يسمع ويفهم ما يكتب ، ويجب التنبيه إلى أن البعض يكتب خلاف ما يسمع ، ويقرأ خلاف ما يكتب حتى " يتعسر عليه استخراج أخفّ نكتة " (١) وقد يحضر مجلس الحديث والعلم حوالي سبعين ألف إنسان وقيل عشرون ألفاً ، و مائة ألف ، وقد يضم المجلس أكثر من ثلاثين ألفاً من الرجال والنساء . وقيل قد يجتمع في مجلس العالم الواحد في المسجد زهاء خمسة آلاف أو يزيدون ، وأقل من خمسمائة يكتبون ، والباقي يتعلمون حسن الأدب وحسن الصمت . وقد كان يحضر مجالس الإمام الغزالي العلمية من المستمعين ما يزيد على ثلاثمائة طالب . (٢)

وكثر إملاء العلماء على الطلبة ، حتى زاد على المئات من المجالس الدرسية ، وكان بعضهم يحدد يوماً في الأسبوع للإملاء خاصة ، وتُخصص بقية الأيام للقراءة . (٣) ويرافق العالم المملي ، شخص يُعرف بالمستملي ، ويكون في بعض الأحيان من الصور السيئة ، حين يصحح للمملي خطأه ، فيعيق على المملي مجلس إملائه . وكانت وظيفة المستملي محصورة في تقديم نسخة من كتابه إلى الطلبة ، الذين فاتهم شيء من المجلس ، فيعمدون على نسخه منه . (٤)

واشترط على المملي أن يعين يوم المجلس لئلا ينقطع الناس عن أشغالهم ، ويكون بمقدورهم القدوم وعدم التخلف عن الموعد المحدد ، وأن لا يطيل المملي مجلسه تطويلاً يُذهب بالغاية المرجوة ، من فهم المجلس ، والإفادة والتحصيل ، ولا أن يوقع الملل وعدم الاستيعاب وشرود الذهن . (٥)

ويرتدي المملي لباس العلماء وعليه الطيلسان ، ولا يرى المملي مانعاً من حمل

==

(١) السمعاني : أدب ص١٠ ـ الأصبهاني : من محاضرات ج١ ص١٦

(٢) السمعاني : أدب ص١٦-١٧ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢ ص١٥٣ ـ ابن شطي : مختصر ص١٤ ـ

ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM : ARTICLE ALCHAZALI . P2. P1039

(٣) السمعاني : أدب الإملاء ص٢٣

(٤) السمعاني : أدب الإملاء ص٩٠-٩١-١٧٤

(٥) السمعاني : أدب الإملاء ص٣٨-٣٩ ـ العلموي : المعيد في أدب المفيد والمستفيد ص٥٥

الصغار إلى المجلس على الأكتاف للسماع مع أهاليهم . (١) ومما يستحب في مجلس الإملاء :

١- فسح الطريق لدخول المملي دون تعثر نتيجة الاكتظاظ والازدحام .
٢- أن يدخل الطالب إلى المجلس بهنية وتؤده.
٣- أن يبدأ المستملي بالدعاء لنفسه، ثم للحاضرين ، وأن يقتفي آثار الرسول صلى الله عليه وسلم في تصرفاته .
٤- أن يوقر الطالب المجلس ، وعندما يرغب سؤال المملي أن يظهر تعظيمه له في الخطاب فيقول مخاطباً إياه : أيها الأستاذ ، أو أيها العالم ، أو أيها الحافظ .
٥ - يستحب لطالب الحديث أثناء الكتابة في المجلس عدم بري الأقلام ورميها .
٦ - أن لا ينام طالب الحديث في مجلس الإملاء ، بل يحسن الاستماع والإمضاء عند الإملاء . (٢)

==

(١) المقري : نفح الطيب طبعة قديمة ج٢ ص٣١٤
(٢) السمعاني : أدب الإملاء ص١٠٧-١٠٨-١١٣-١٣٤-١٣٨-١٤٠-١٤١-١٤٢-ص١٤٣

الفصل الثاني

الإجازة والدرجات العلمية

تعود أهمية التعليم والتربية إلى الإسلام ، حيث بدأ معه التعليم الإلزامي ، حين فُرض على الوالد تعليم أولاده القرآن وأمور الدين ، وتربيتهم التربية الصالحة ، لتنشئة جيل قوي متمسك بدينه وعلمه . (١) اتسعت أهمية التعليم في مراكز الدولة البورية ، وغدا القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي قرن افتتاح المدارس ، وفي هذا القرن نبغ عدد كبير من العلماء المتخصصين بمختلف العلوم الدينية ، والعربية ، والتاريخية ، والاجتماعية ، والعقلية . (٢)

بدأت ظاهرة تعليم القراءة والكتابة ، مع فرض الصلاة المكتوبة ، التي تؤكد على المسلم قراءة آيات من الذكر الحكيم . ويعتبر مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، أول صرح تعليمي ، أكد على ضرورة مكافحة الجهل والأمية ، فتأسست الكتاتيب لتعليم القراءة والكتابة . (٣)

برز الاهتمام الكبير بالتعليم الابتدائي ، ثم التعليم العالي ، الذي خرّج أسماء كبيرة من العلماء قلّ من يجاريهم في الشمولية . (٤) ولم يقتصر الدور التعليمي على المساجد التي انتشرت ، بل نشطت حلقات التدريس في الربط والبيمارستانات ، والمدارس ، والدور . (٥) وتلقت بعض النساء تعليمهن في البيوت ، وكان دور البيت التعليمي ، كدور المساجد والمدارس . فقد تلقت عائشة

==

(١) الديوه جي : التربية والتعليم في الإسلام ، بمساعدة اللجنة الوطنية في الجمهورية العراقية ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ص٦-٨

(٢) فهمي : مبادئ التربية الإسلامية ص٢٢-٤٤

(٣) دهمان : في رحاب دمشق ط١ دمشق ١٩٨٢م ص٢٩٠-٢٩١

- د. حسين أمين : مقال ، المسجد وأثره في تطور التعليم ، مجلة الدراسات التاريخية عدد خاص بمناسبة حلول القرن الخامس عشر الهجري ص٦
- الو شلي (عبد الله) : المسجد ودوره التعليمي عبر العصور من خلال الحلق العلمية ط١ مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ص٢٢-٣٣-٣٨

(٤) ابن سحنون : آداب المعلمين طبعة جديدة ، تعليق محمد العروسي المطوي تونس ١٤٩٢هـ / ١٩٧٢م ص٣١

(٥) زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي بيروت مكتبة الحياة ج٣ ص٢١٩

- طوطح : التربية عند العرب المطبعة التجارية القدس ص١١-١٥

بنت علي بن خضر زوج الحافظ ابن عساكر ، العلم والحديث عن فاطمة بنت علي بن الحسن العكبرية في دارها ، وسمع منها أولادها . (١)

انقسم النظام التعليمي في الإسلام إلى قسمين :

ـ قسم التعليم الابتدائي (الكتّاب) : ويقوم على تعليم الخط والقراءة والنحو والشعر والحساب ، (٢) إضافة إلى أخبار العرب وأنسابهم والخطابة . (٣)

ـ قسم التعليم العالي : ويقوم على تفسير القرآن ، ومعرفة أصول اللغة وفقهها ، والفلسفة ، وباقي العلوم العقلية .

اشتملت معاهد العلم إضافة إلى الكتاتيب والمساجد ، المناظرات العلمية والمكتبات . ويمكن أن نلاحظ أن التعليم مرّ بأربعة مراحل ، وهي : المكتب ، والجامع ومجلس العلم ، والأدب ، والمدرسة . (٤) ونستطيع أن نرسم صورة عن ذلك العصر ونشاط الحركة العلمية فيه ، حين نتعرف على ابن عساكر ونذكر تلقنه العلوم عن ألف وثلاثمائة شيخ ، ونيـّف وثمانين امرأة . (٥) ولاشك أن ذلك يستدعي الدهشة ، حين نلاحظ ما بلغته علوم القرآن ، والحديث ، والتاريخ ، على صعيد المناهج والطرائق ، وأساليب التخصص ، مع كثرة الكتب بين أيدي الطلبة لتوضح غوامض وخفايا ما يصعب فهم شرحه مباشرة دون واسطة.

واحتاج الاهتمام العلمي بالتلاميذ ، السعي لصقل مواهبهم وتحصيلاتهم ، لأن العالم يَشترط على التلميذ مقابل قبوله ، توفر حدّة الذكاء ، إلى جانب التحصيل والقدرة العقلية . (٦)

ومن عوامل ازدهار النشاط العلمي في الفترة البورية ، ما تمتعت به الأعمال الدمشقية من أهمية ، إضافة إلى دمشق ودورها العلمي الكبير ، الذي ساهم في تنشيط وازدهار النشاط العلمي . فكانت داريا (٧) تلك القرية الصغيرة ، القريبة من دمشق ، حاضرة العلم والأدب ، حافلة بالتاريخ العلمي الكبير . فقد ضمت العديد من المحدثين والفقهاء والقضاة ، واحتاج أهل دمشق في فترة معينة إلى

---

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) تحقيق سكينة الشهابي دمشق ١٩٨٢م ص٢٢١

(٢) ابن سحنون : المصدر نفسه ص٣٥-٤٥

ـ الديوه جي : التربية والتعليم في الإسلام ص١٨

(٣) حسن : (نبيلة) تاريخ الدولة العباسية ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٨٨م ص٩

(٤) القابسي : التعليم ص٤٥-٤٦

(٥) ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج١ ص٣٤٥

(٦) دهمان : في رحاب دمشق ص٢٩

(٧) قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة . ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٢ ص٤٣١

خطيب داريا ، ليكون إماماً عليهم وخطيباً في مسجدهم الجامع الكبير .

ولم يقتصر دولاب العلم على داريا فقط ؛ بل تواصل الاشتغال به في معظم قرى غوطة دمشق ، فتأثرت هذه القرى بدمشق وما يصيبها من رفعة أو تمدن . وبرز من هذه الأماكن خطيب المِزّة (١) ، وخطيب دومة ، وخطيب سقبا وكلها من ضياع الغوطة . (٢)

لقد اهتم المسلمون العرب بالعلم والتعليم ، فطرقوا مجال العلوم الدينية والعربية والتطبيقية ، وبرزت دور العلم بما أضفي عليها من المظهر العربي الأصيل عبر المساجد والزوايا وحلقات العلم ، وطرائق البحث العلمي ، وتم السعي لتناقل العلوم ودراسة المؤلفات والكتب ، وبحث الندوات والمناظرات والسماعات والإجازات العلمية ذلك النمط الفريد الذي انفردت به الدراسات الإسلامية العربية . (٣) وقد أخذ السماع موقعه ضمن صور التعليم البارزة وهو عبارة عن سمعت (٤) أو قرأت عن ، فيقول أخبرنا أو حدّثنا ، وقد يختصرها فيقول : " أرنا " ، " ثنا" (٥) وهكذا . وقد يستغرق الكثير من العلماء أعمارهم في السماع والرحلة ، وفي جمع الطرق الكثيرة للحديث الشريف ، وطلب الأسانيد العالية . ويمكن أن يقبل البعض على السماع بصورة غير صحيحة فيتحرك ليقال عنه أنه لقي فلاناً من الناس ، وجمع أو سمع كذا من الأسانيد . (٦)

أما السماع فيقسم إلى قسمين ، السماع الخاص ويشمل المصنف وأباه وخاصة أهله ويتم في المسجد الجامع أو البيت . وهناك السماع العام يكون للملأ في الجامع الأموي وفق خطة مرسومة حيث يجري السماع في ثلاثة أيام من الأسبوع تعقد لها مجالس ثلاثة يوم الاثنين ويوم الخميس ويوم الجمعة . يقرأ المصنف يومي الخميس

---

(١) قرية كبيرة غنّاء في وسط بساتين دمشق ، بينها وبين دمشق نصف فرسخ . ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٥ ص١٢٢

(٢) الداراني : تاريخ داريا تحقيق سعيد الأفغاني ط٢ دمشق ١٩٧٥م ص٩-١٠ -١١٧ ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ج٢ ص٦١٩-٦٢٠ - الإسنوي : طبقات الشافعية تحقيق عبد الله الجبوري ١٣٩٠ -١٣٩١هـ / ١٩٧٠-١٩٧١م ج٢ ص٣٥٢ - كرد علي : غوطة دمشق مطبعة الترقي ١٩٤٩م ص١٣٦

(٣) د. موسى باشا : (عمر) مقال دور العلم مجلة التراث العربي عدد٣ مطبعة الكاتب العربي بدمشق سنة ١ عدد٣ ١٩٩٠ م ص٨٩-٩٠

(٤) ابن كثير : الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث دار الفكر بيروت ص٥٧

(٥) ابن عبد البر النمري القرطبي : جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحماه إدارة المطبعة المنيرية بمصر ص٤-٧

(٦) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، المطبعة المحمدية ١٣٦٨هـ ص١١٤

والاثنين جزءاً من القرآن ، ويوم الجمعة جزءاً. وربما يعاد السماع من قبل الأب المسمّع . (١)

ويكون السماع للحديث أو الفقه أو التاريخ أو غيره من العلوم الأخرى .ويحق للطلبة الدارسين الإحتفاظ بسماع خاص من مدونات شخصية من قراءات حصلوا عليها من العلماء . (٢) وقد سمع محمد بن علي بن مسلم الفقيه الدمشقي من أبيه ، ومن شيخه علي بن الموازيني . (٣) وكذلك سمع طاهر بن سهل بن بشر ، أبو محمد الإسفراييني الدمشقي الصائغ من والده ، ومن أبي طاهر الحنائي . (٤) وأيضاً سمع جمال الأئمة بن المانح (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٦م) من والده ، ومن جماعة أخرى . (٥)

وكان أبو المكارم عبد الواحد الأزدي الدمشقي ، قد سمع من الشريف النسيب أبي طاهر الحنائي ، وأبي الحسن الموازيني ، أسمعه أبوه جزءاً من حديث خيثمة. (٦) وسمع الحافظ ابن عساكر من أخيه سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م ، كما سمع بنفسه من والده . (٧)

واهتمت العالمات بالسماع أيضاً ، فسمعت آمنة بنت طاهر القرشية من جدها لأمها ، القاضي أبو يحيى بن الفضل بن علي القرشي ، واستنسخ لها والدها كتاب السنن لأبي داود ، وسمعت بعضه من عبد الكريم حمزة . (٨)

ويفرض على الطالب السماع إذا بلغ الخامسة عشر من العمر ، لكن بعض العلماء ، أقر كتابة السماع لمن هو ابن خمس سنين ، إذا كان يملك حضوراً وضبطاً سليماً .(٩)

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٥١١-٥١٢
(٢) ابن العديم : بغية الطلب ج٥ ص٢٤٠٥ ، ج٩ ص٤١٩٩- ٤٢٠١
(٣) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٨١
(٤) الذهبي : العبرفي خبر من غبر ج٤ ص٨٥
(٥) النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٢٠٣
(٦) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٩٩
(٧) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ط٣ دارالفكر ١٩٨٠م ج١٣ص٧٤ ـ ابن النجار : المستفاد من ذيل بغداد تحقيق محمد مولود خلف ، بشار عواد معروف ط١ بيروت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ص٣٣١-٣٣٣
(٨) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، تراجم النساء تحقيق سكينة الشهابي دمشق ١٩٨٢م ص٤٩
(٩) ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث ، منشورات دار الحكمة دمشق ١٩٧٢م ص٦١-٦٢

وربما كان السماع المبكر لدى الطفل هاماً وشاملاً ، فقد يسمع كل شيء ، ثم يبدأ رويداً رويداً، مرحلة التخصص والفهم العميق للمسائل . وذكر الحافظ ابن عساكر الدمشقي أنه لما بدأ يدخل مرحلة الطفولة والحلم ، كان والده يحمله على الأكتاف ليواظب على السماع ، فيفهم ما يُقرأ أمامه ، وكان مؤرخنا ومحدثنا أثناء ذلك في الخامسة من عمره أو أكثر قليلا. يعني هذا أن سماع الأطفال كان مألوفاً ، بدليل أن ابن عساكر ، كان يتردد إلى أبي القاسم النسيب (٥٠٨هـ / ١١١٤م) ، وأبي طاهر الحنائي (ت ٥١٠هـ / ١١١٦م) للسماع ، وأبي الوحش سبيع بن قيراط ، وابن الموازيني ، ونصرالله المصيصي ، وابن الأكفاني .(١)

ولاغرو فإن كبار العلماء أجازت لابن عساكر الكثير من مجالس السماع ، إبّان طفولته ، فسمع ما لا يحصى كثرة من الكتب والأجزاء ، في دمشق وبغداد ، فسمع من هبة الله بن الحصين ، وخلق كثير في مكة والمدينة ، وأصبهان و نيسابور من الفراوي ، وبمرو والكوفة وهمذان والموصل على مئات من الشيوخ والشيخات خاصة لما بلغ سن الرشد .(٢)

كان ابن عساكر يسمى في بغداد شعلة نار متوقدة ، لشدة ذكائه ، ونبوغ فكره ، وحسن إدراكه ، (٣) ولشدة حرصه على السماع فقد رحل إلى أربع وثلاثين مدينة ، مع الإهتمام والإشارة على ذكر السماع ، وكذلك عدد الأجزاء المسموعة بدقة ، فقد أخذ عن أحمد بن محمد بن مسلم بن الحسن جزءاً واحداً من موطأ ابن وهب (٤) ، وابن القاسم .(٥)

==

(١) ابن النجار : المصدر نفسه ص٣٣١-٣٣٢

(٢) ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج١ ص٣٤٥ ص٥٥٥-٥٥٦ - اليماني : غربال الزمان في وفيات الأعيان ، تحقيق محمد ناجي زغبي العمر ، بإشراف عبد الرحمن الإرياني مطبعة زيد بن ثابت دمشق ١٩٨٥م ص٤٥٤-٤٥٥ - بشار عواد معروف : مقال ، ابن عساكر في بغداد أخذ وعطاء ، المجلس الأعلى للعلوم ج٢ ص٤٥-٤٨

(٣) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج٤ ص١٣٣٢

(٤) عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي : فقيه مصر (١٢٥ - ١٩٧هـ) ذكر أنه أفقه من ابن القاسم ، كان الناس في المدينة يختلفون في الشيء عن مالك فينتظرون قدوم ابن وهب حتى يسألونه . وإن حديث الحجاز ومصر يدور على رواية ابن وهب . قال ابن القاسم لو مات ابن عينية لضربت إلى ابن وهب أكباد الإبل ، كان كثير العلم ثقة . ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب مطبعة دائرة المعارف النظامية الهند حيدر آباد الدكن ١٣٢٦هـ ط١دارصادر بيروتج٦ ص٧١-٧٢-٧٣.

(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٧ ص٣٨٩ - السبكي : طبقات الشافعية ج٦ ص٢١٦

وأجاز لابن عساكر العالم أحمد بن خلف بن محرز ، أبو العباس الأندلسي الشاطبي المالكي المقرىء إضافة إلى كتب سماعاته . (١) وقرأ ابن عساكر كثيراً من مسموعات علي عبد الكريم بن حمزة بن العباس ، أبو محمد السلمي الحداد ، وقد توفي سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م . (٢)

وسمع ابن عساكر حكاية واحدة من محمد بن محمد بن مسلم بن هلال ، أبو الفضل الأزدي (ت ٥٣٧هـ / ١١٤٢م) . (٣) وأشار ابن عساكر إلى طريقة أخرى من طرائق السماع ، وهي سماع الأصحاب الموثوق بهم ، عن فلان من الناس دون أن يعمل ويسعى بشخصه متابعاً السماع من ذلك الرجل . ومما ورد ذكره عن سماعات ابن عساكر قوله : " بلغت سماعاً بقراءة الشيخ الفقيه العالم أبي إسحاق إبراهيم أبي طاهر بركات الخشوعي بسماعه فيه " .

وتابع ابن عساكر قوله : " بلغت سماعاً بقراءتي على الشيخ الأجل الزاهد الأصيل زين الأمناء ، أبو البركات الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة الله ، بسماعه فيه ، وسمع من أبي عبد الله محمد بن أيمن الجزيري الأندلسي . (٤) وسمع مكرم بن حمزة ، أبو الفضل المعروف بابن أبي الصقر و أبا الحسن الموازيني ، وأبا الفضل الكلابي ، وسمع منه بعض أصحاب ابن عساكر ، وقد توفي سنة ٥٤٥هـ / ١١٥٠م . (٥)

وكثر عدد العلماء الذين تلقوا علومهم عن طريق السماع ، فكان بركات الخشوعي قد حاز سماعات عالية . (٦)

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٧ ص٢٩٧
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٤٢٦-٤٢٧
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٩٢٤
(٤) حلواني (أحمد عبد الكريم) : ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين في عهد الدولتين النورية والأيوبية دراسة وتحقيق حلواني دار الفداء للدراسات والنشر ص١٤٣-١٤٤
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٧ ص٤٧٨
(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء الزمان تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت ج١ ص٢٦٩

واهتم بالسماع من العلماء أيضاً نجم الدين بن شرف الإسلام ابن أبي الفرج الحنبلي .(١) وكذلك سمع القاضي أبو علي الحسين الصيرفي المعروف بابن سكرة (ت٥١٤هـ / ١١٢٠م من العالم أبي الفتح نصر المقدسي ، ومن العالم أبي الفرج الإسفراييني .(٢) وكان حيدرة بن أحمد الأنصاري المعروف بالخروف مكثراً من السماع و قد سمع جزءاً من تاريخ بغداد ، توفي سنة ٥٠٦هـ / ١١١٢م . (٣)

وقد يفوت على العالم السماع ممن يرغب الحصول على سماعه ، وقد حصل ذلك لابن عساكر مع أحمد بن محمد الأصفهاني السلفي الذي قدم إلى دمشق ، ولا ندري إن كان ابن عساكر في ذلك الوقت خارج دمشق ، أو أنه كان يعاني من حالة مرضية ، أو من أي أمر طارىء . (٤) وكذلك لم يظفر ابن عساكر بالسماع مباشرة من الحسن أبو الفضائل بن أبي علي الكلابي المعروف بالمؤدب المانح (ت ٥١٧هـ / ١١٢٣م) (٥)

ويذكر أيضاً عن ابن عساكر أنه لم يظفر بالسماع الذي حصل عليه ، الحسين ابن محمد أبو عبد الله بن أبي الحسين بن النشور ، وكان الحسين قد حصل عليه وسمعه بالمدرسة الأمينية بدمشق لمدة من الزمن ، وقد توفي سنة ٥٣٠هـ / ١١٣٥م . (٦) وممن اهتم بالسماع محمد بن حمزة بن علي بن الحسن السلمي ، أبو المعالي بن أبي طاهر بن الموازيني ، سمع بدمشق من جده لأمه أبا الحسن ، ثم سمع ببغداد من أبي القاسم بن بيان الذي توفي سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م . (٧)

وسمع كثر من الطلبة على العديد من العلماء ، منهم العالم محمد بن وهب بن سلمان أبو المعالي المعروف بابن الزنف الدمشقي ، سمع على الشيخ نصرالله المصيصي

==

(١) النعيمي : المصدر نفسه ج٢ ص٦٩
(٢) ابن بشكوال : كتاب الصلة ، مطابع سجل العرب القاهرة ١٩٦٦م ج١ ص١٤٤ ـ المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب تحقيق وضبط إحسان عباس دار صادر بيروت ١٩٦٨م ج٢ ص٩٠-٩١
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص٣٩٦
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٢ ص٩٩
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ج٤ ص٤٢٩
ـ بدران : تهذيب تاريخ دمشق الكبير ط٢ بيروت ١٩٧٩م ج٤ ص١٦٤
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص١١٥
(٧) ابن الدبثيي : المصدر نفسه ج١ ص١٤

توفي بدمشق سنة ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م . (١) وتعود أهمية سماعات الشخص لاجتماعه بالعلماء ، وعرضه السماعات عليهم . وعلى الرغم من أهمية السماع ، إلا أن عدم الإلتفات إليه كان ممكناً لحالات معينة ، فقد لقي الحافظ ابن عساكر العالم الخضر بن القاسم التميمي البعلبكي (كان حياً سنة ٥١١هـ / ١١١٧م) ومع أن الرجل سمع من العالم سهل بن بشر ، إلا أن مؤرخنا ابن عساكر جالسه ولم يسمع منه . (٢) ولم يسمع ابن عساكر أيضاً من الحسن بن أبي المضا ، أبو محمد الفارسي البعلبكي (٥٣٧هـ / ١١٤٢م) (٣) ، وكذلك لم يسمع من محمد بن الحسين ابن العباس أبي الفضل السلمي الموازيني ، مع أنه جالسه غير مرة ، وكانت وفاته ٥١٣هـ / ١١١٩م . (٤)

والتقى ابن عساكر بالعالم عبد الله بن محمد أبي المعالي اللخمي العطار ، ولم يسمع منه ، وقد توفي سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٢م . (٥) وكذلك لم يسمع من عمر بن منخل سنة بضعة عشرة وخمسمائة . (٦) وبعد كل ما أشرنا إليه لابد من الإشارة إلى حرص ابن عساكر على السماع من خيرة العلماء وكبرائهم ، وقد صنف تراجمه وفق ما يلي : وقال : فريق لم أسمع منه ، أو لم أسمع منه شيئاً ، أولم يتسن لي سماعه ، أو لم يتفق لي سماعه . (٧)

تعرض السماع في حالات عديدة إلى التزوير ، إلا أن وسائل الكشف عنه كانت مدروسة ، تفضح مرتكب المحاولة ، وتعتبر ذلك وصمة عار تحيط بصاحبها . وقد ترجم ابن عساكر لأمثال هذه الحالات ، فذكر أحد المزيفين ويدعى أحمد بن مقاتل بن مصكود بن أبي نصر المالكي توفي سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م . (٨)

==

(١) ابن الدبيثي : المصدر نفسه ج١ ص١٥٣-١٥٤
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص٦٥٩
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٤ ص٥٩٥ -
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٢٢٨
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٣٩ ص٤١٤-٤١٥
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٤١٥ ، ج١٣ ص٣٦١
(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٢ص٤٤ ، ج٤ ص٢٤٤
(٨) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٢ ص٢٤٥

وأشار ابن عساكر أيضاً إلى تزوير عبد الباقي بن أحمد ،أبو الحسن البزاز فيما أورده بقوله إن أبا الحسن صهر الأهوازي ، أخرج له جزءاً قد زوّر السماع فيه لنفسه عن الأهوازي بمداد جلبه ، ولم يكن قد قرأ هذا الجزء عليه ، وكان فيه سماع ابن الموازيني ، أو ابن الحنائي ، وزعم أنه قرأه عليه سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م ، فذكر ابن عساكر أنه كذاب ، (١) وسماعه عار عن الصحة ومزور ، وكانت سرعة كشف المزور من أمثال هذه الحالات تظهر بوضوح وبدون صعوبة .

لم يقتصر السماع على مكان معين ، فقد أجيز للعالم ، أن يجوب البلاد بحثاً عن العلماء الأفاضل ، للسماع عليهم ، وقد سلك هذا الطريق ابن عساكر وغيره .
ووصل بعض العلماء للسماع في دمشق منهم سالم بن إسحق بن الحسين البزاز المعري ثم الدمشقي ، سكن دمشق وكذلك بغداد ، وسمع من العلماء قبل العام الخمسين وخمسمائة ، وتوفي سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م . (٢)

وتفرد البعض بما لديه من السماعات ، مما دفع الكثيرين من الطلبة لشد الرحال إليه ، فقد تفرّد بركات الخشوعي الدمشقي الأنماطي القرشي بسماعات عالية ، حصل عليها من الشيخ أبي محمد هبة الله الأكفاني ، وكان قد توفي سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م(٣)
وهكذا نلاحظ أهمية السماع في التعليم ، ويتوجب على الدارس المواظبة والسعي وراء العلماء للحصول عليه . (٤)

وسلك العلماء طريقهم التعليمي وأقبلوا على مجالس إملاء الحديث ، منذ بدء التدوين في علم الحديث النبوي الشريف ، حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يملي مالديه من معارف على كتّابه ، (٥) ثم أصبح الصحابة الكرام والعلماء من بعدهم ، يملون على الناس ، ويقوم الناس بالكتابة بين أيديهم ، حتى كثرت عبارة " حدثنا فلان إملاء " و" حدثنا فلان من حفظه " . (٦)

---

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٣٩ ص٤١١-٤١٢
(٢) ابن العديم : بغية الطلب ج٩ ص٤١٠١
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص٢٦٩
(٤) - الصفدي : الوافي بالوفيات ج١٠ ص١١٧
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص١٣٥
(٦) السمعاني : أدب الإملاء والإستملاء ط١ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨١م ص١٣ - ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق قسم ١ السيرة ص٢٨٢
(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق قسم ١ السيرة ص٢٧٧

وأخبرتنا أمة العزيز شكر بنت أبي الفرج سهل بن بشر الإسفراييني ، قالت : أخبرنا ٠٠٠ أحمد بن محمد حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد المالكي إملاء . (١) وأخبرنا أبو المظفر بن القشيري أنبانا أبو عثمان ٠٠٠ أنا أبو العباس محمد بن أحمد الماسرجسي إملاء .(٢)

لم يقتصر الإملاء على الحديث فقط ؛ بل شمل علوماً كثيرة . وقد أنشد الشيخ الزاهد ، أبو الفضل محمد بن هبة الله بن أحمد بن قرناس إملاء من لفظه (كان حياً سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م) (٣) . واشتهر بمجالس الإملاء من العلماء إسماعيل بن أحمد بن أبي الأشعث ، أبو القاسم السمرقندي الدمشقي ، فقد أملى بجامع المنصور ببغداد زيادة على ثلاثمائة مجلس في أيام الجمع ، توفي سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م . (٤)

وعقد الشيخ علي بن الحسن البلخي مجلس إملاء كان يحضره جمع غفير . (٥) وكان محمد بن القاسم بن المظفر الشهرزوري ، أبو بكر القاضي قد حدث بالكثير ، وكان قد سمع في نيسابور إملاء سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م ، يتعلق بيوم الجمعة لعام ٤٨١هـ / ١٠٨٨م ، وفيه حدثنا الإمام أبو القاسم بن حبيب ٠٠٠ سمعه أبو القاسم علي الزينبي بالموصل ٠٠٠ وأبو العباس التكريتي سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٦م ، وحدث عنه بالإجازة أبو طاهر بركات الخشوعي . (٦) وأملى ابن عساكر ما كان قد حفظه في دمشق وبعلبك ، في ما يزيد على أربعمائة مجلس . (٧)

وكان جامع بني أمية ، من أعظم مراكز العلم في دمشق ، تعقد فيه حلقات الإملاء والتدريس . وقد تلقى ابن عساكر الكثير من العلوم فيه ، ثم شرع في عام ٥٣٠هـ / ١١٣٥م مجالس إملائه من هذا المسجد ٠

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق قسم ١ السيرة ص٣٢٥
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مجلد ١٠ ص٢٧٩
(٣) ابن العديم : بغية الطلب ج٥ ص١٢٠٥
(٤) ابن العديم : بغية الطلب ج٤ ص١٦١٨-١٦١٩
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٢ ص٢٠
(٦) الإربلي : تاريخ إربل قسم ١ ج٢ ص٢٠٣
(٧) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٥٧٠
(٨) - ابن النجار : المصدر نفسه ص٣٣١ - السيوطي : طبقات الحفاظ تحقيق علي محمد عامر طبعة١ مطبعة الاستقلال الكبرى ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م ص٤٧٤-٤٧٥ - بشار عواد معروف : مقال ، ابن عساكر في بغداد أخذ وعطاء ، المجلس الأعلى للعلوم ص٧٠-٧١

والحق يقال : إن كل مجلس من مجالس ابن عساكر كان يعتبر موضوعاً علمياً قائماً بذاته ، وقد نهج المؤلف في عمله هذا طريق المحدثين في مجالسهم . (١)

يبدأ مجلس الإملاء بقراءة سورة من القرآن الكريم ، ثم يبدأ المملي بالبسملة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يذكر رواة الحديث ويخرجه على طريقة المحدثين، ثم يروي عن شيوخه أيضاً ، وما قاله العلماء والوعاظ من المأثور وما يجول حول هذا الموضوع ، ثم يختم المجلس بأبيات من الشعر (٢) والحكايات والنوادر والأشعار . (٣)

وأملى الحافظ ابن عساكر سنة ٥٣٨هـ /١١٤٣ م مواعظ للحضور علّهم يستفيدون منها ، وحدّث في إملائه من لفظه في يوم الاثنين الخامس والعشرين من شوال سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة . (٤) وجمع الحافظ كل أو بعض أحاديث قرناء السوء مع السند كاملاً ، وقدم بها موعظة لمن في مجلسه ، ذاكراً أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ، والأنبياء كداود عليه السلام ، أو حكم لقمان ، أو ما ورد من قول مشهور لابن منبه في ذلك وغيره . (٥)

وأملى كذلك سبعة مجالس في فضائل الصديق رضي الله عنه ، ثم أكملها بأربعة أخرى ، وأتبع مجالسه بإملاء في ذم اليهود وتخليدهم في النار ، ثم أملى في ذلك كل خليفة من الخلفاء أحد عشر مجلساً . (٦)

==

(١) السمعاني : أدب الإملاء والإستملاء دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨١م ص٨
(٢) ابن عساكر : مجلسان من مجالس الحافظ ابن عساكر في مسجد دمشق تحقيق مطيع الحافظ ط١ دار الفكر ١٩٧٩م ـ في ذم من لا يعمل عمله ـ في ذم قرناء السوء . ص ١٦-١٧-١٨
(٣) السمعاني : المصدر نفسه ص ٦٨-٧٠
(٤) ابن عساكر : مجلسان من مجالس الحافظ ابن عساكر ص٤٥
(٥) ابن عساكر : مجلسان من مجالس الحافظ ابن عساكر ص٤٩-٥٠-٥١
(٦) البدوي : الحيلة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام مطبعة نهضة مصر ص١٣١

ومن أمالي الحافظ ابن عساكر التي وصلتنا ما ورد في قوله بعد أن يبدأ بالبسملة وهو مايلي : أخبرنا الشيخ الإمام الحافظ الثقة ، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي إملاء من لفظه ونحن نسمع في المسجد الجامع بدمشق ، في يوم الاثنين التاسع من جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة أخبرنا ٠٠٠ الخ . وتحدث في المجلس عن ارتباط الصحابي عبد الله بن مسعود بالرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ، وسؤاله له عن أمور ٠٠٠ وتابع قول الرسول صلى الله عليه وسلم إنه لو استخلف أحداً عن مشورة المسلمين ، لاستخلف عليه ابن أم عبد ، ٠٠٠ وختم بقوله وصلى الله على محمد وآله وسلم . (١)

ونرى نموذجاً آخر للإملاء من حديث وكيع الرواسي ـ رضي الله عنه ـ رواية إبراهيم بن الحارث العبسي عنه ، رواية أبي طاهر بركات بن إبراهيم القرشي ا لخشوعي : بسم الله الرحمن الرحيم ، وما توفيقي إلا بالله ، وذكر مما أخبر به الشيخ أبو الطاهر بركات بن طاهر القرشي الخشوعي ، قراءة عليه ، وأنت تسمع ، وذلك في ذي الحجة سنة ٥٩٥هـ ، قال : أنبا الشيخ أبو محمد بن عبد الكريم بن حمزة ابن خضر السلمي بها الفقيه الكاغدي السمرقندي ، بسمرقند في داره سنة ٤١٣هـ ٠٠٠ وتابع ٠٠٠ أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠٠٠ عن الصيام ٠٠٠ الخ (٢)

يفهم مما سبق أنه يستحب للمملي ، أن يجمع في إملائه بين الرواية عن جماعة من شيوخه معتمداً الإسناد ، وقد يملي عن كل شيخ من شيوخه حديثاً واحداً . (٣) وقد يخضع المملي لشروط منها : أن يكون في أحسن هيئة وأفضل زينة ، (٤) وأن يعين لأصحابه يوم المجلس لئلا ينشغلوا عن القدوم إليه ، وكذلك لعقد العزم على الحضور ، وإخبار بعضهم البعض . (٥)

==

(١) مسعود البغدادي : مشيخة عبد الرحمن بن قدامه مخطوط رقم ٣٧٤٠ مكتبة الأسد ٢فيش ميكرو فيلم ص٧٨ظ ـ٨٠و ـ٨٢ـ٨٥و .
(٢) مسعود البغدادي : مشيخة ص١٣١ظـ١٣٢و
(٣) ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح ص١٢٣
(٤) السمعاني : المصدر نفسه ص٢٦
(٥) السمعاني : المصدر نفسه ص٣٨

واشترط على المملي " أن لا يحدث إلا من كتابه ، فإن الحفظ خوان " ، (١) وأن يرفع صوته بقدر ما يريد أن يُسمع الحاضرين ، (٢) وأن يتجنب الرواية عن الضعفاء ، (٣) كما أنّ عليه أن يفسر ما غمض ، ويوضح الغريب من الكلمات الواردة في الحديث ، ولا يجوز له أن يفسر ما لا يعرف معناه ، وإلا فليلزم الصمت(٤) .

أما شروط المستملي ، فعليه أن يعطي مجالاً أو حيزاً في كمّه لوضع الأجزاء والكتب ، (٥) وأن يعظّم المملي عند مخاطبته إياه بقوله : أيها الأستاذ ، أو أيها الحافظ . (٦) وأن يتجنب الغفلة والغيبوبة والمجلس قائم ، بل ينصت ويشدّ انتباهه لما يسمع . (٧) وله الحق أن يكتب ما يسمعه ، مستحضراً معه المحبرة ، (٨) مبتدئاً بالبسملة ، ثم يكتب اسم الشيخ الذي يسمع منه ويعمل على تقليد الأسماء والحروف بالشكل والنقط، مع حذر الوقوع في التصحيف . (٩) وبعد الفراغ من الكتابة يقرأ المستملي الإملاء ، والطلبة يعارضون كتبهم خشية أن يفوت عليهم ما ذكر في المجلس .

ومن أساليب التعليم التي كانت معروفة قبل الحكم البوري ، واستمرت بعده الإجازة ، ذات الأهمية في تلقي العلوم عن العلماء . تعود أولويات نشوئها إلى المساجد ، وخاصة الجامع الأموي ، ثم تواصلت مع إنشاء المدارس والزوايا .(١٠)

==

(١) السمعاني : المصدر نفسه ص٤٦
(٢) السمعاني : المصدر نفسه ص٤٩
(٣) السمعاني : المصدر نفسه ص٥٦
(٤) السمعاني : المصدر نفسه ص٦١-٦٢
(٥) السمعاني : المصدر نفسه ص١١٧
(٦) السمعاني : المصدر نفسه ص١٣٦
(٧) السمعاني : المصدر نفسه ص١٤٢-١٤٣
(٨) السمعاني : المصدر نفسه ص١٤٦-١٥٥
(٩) السمعاني : المصدر نفسه ص١٦٩-١٧٠-١٧٤
(١٠) د. موسى باشا: مقال ، دور العلم مجلة التراث العربي عدد٣ ١٩٨٠م ص

كانت الإجازة بشكل عام على نوعين : الإجازة التحريرية ، والإجازة الشفهية ، والأخيرة هي من أقدم الإجازات التي عرفت من خلال ما روي عن بشير بن نهيك حين قال : " كتبت عن أبي هريرة (رضي الله عنه) كتاباً ، فلما أردت أن أفارقه ، قلت يا أبا هريرة إني كتبت عنك كتاباً أفأدون عنك قال : نعم إروه عني" (١) .

اهتم العلماء بحيازة الإجازات الكثيرة ، لأنها تمثل الشهادة الكبرى للعالم بالكامل ، وقد احتاج التصديق على الإجازة ، موافقة العالم المباشرة ، لكل طالب يمتلك أسس المعرفة العلمية ، شريطة أن تكون من حفظ الطالب لكتاب معين ، أو لسلسلة من المحاضرات ، أو الحديث الشريف ، حتى يكون قادراً ، ومتمتعاً بالكفاءة خلال الامتحان ، الذي يترتب عليه خوضه . (٢)

وتكون الإجازة لكافة العلوم من فقه وحديث وعلوم القرآن ، ونحو وشعر وغير ذلك من العلوم . وقد أجاز ابن الخياط لابن عساكر ما قاله في النظم والنثر سنة ٥٠٧هـ/١١١٣ م (٣) . هذا بالإضافة إلى الإجازة المعروفة في الطب ، حيث يفرض على من يريد ممارسة التطبيب تأدية امتحان للحصول على إجازة تخوله هذا الحق بين الناس ، وكان الطالب يتقدم بالرسالة في الفن الذي يريد الحصول بموجبه على الإجازة ، وقد أثمرت معاناته ، وتكون هذه الرسالة له أو لأحد مشاهير الأطباء ، وقد أجاد دراستها ، فيمتحنه فيها بعض الأطباء ، ويسأله في كل فن يتعلق بها ، فإذا أجاد وأحسن، أجازه الممتحن بما يطلق له حرية التصرف في الصنعة . (٤)

==

(١) فياض : الإجازات العلمية عند المسلمين ط١ مطبعة الإرشاد ببغداد ١٩٦٧ م ص٢١

(٢) Gilbert : Opcit P. 8

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج٧ ص ٦١
- ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ج١ ص١٢١

(٤) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص٤٢ -٤٣

والإجازة مصدر إجازة ، مأخوذة من جواز الماء . وهي بالنسبة لطالب العلم أن يستجيزه العالم بعلمه المعلوم والمعين ، (١) وعلى هذا يجوز أن يقال أجزت فلاناً مسموعاتي بناء على معنى الإباحة "وينبغي للمجيز كتابة أن يتلفظ بها ، فإن اقتصر على الكتابة مع قصد الإجازة صمت " . (٢) وعلى هذا أذن المحدث للطالب أن يروي عنه حديثاً أو كتاباً من غير أن يسمع ذلك منه أو يقرأ عليه ، كأن يقول له أجزتك أو أجزت لك ، أن تروي عني صحيح البخاري . وقد اعتمد العلماء على الإجازة بعد ما دوّن الحديث وكتب القرآن الكريم . (٣)

ولا يجوز لمن حمل الإجازة أن يروي بها إلا بعد أن يصحّح نسخة المؤلف أو على نسخة صحيحة مقابلة على نسخة المؤلف ، (٤) والغرض من إقرار الإجازة الاعتراف بحقوق المؤلف ، وإقرار بكفاية الطالب . ولم تكن الإجازة تحمل عنوان مدرسة معينة ، بل كانت شهادة شخصية من الأستاذ لتلميذه (٥) . وكان بعض العلماء لا يجيز أحداً إلا إذا استخبره واستمهره وسأله ما لفظ الإجازة وما تعريفها وما حقيقتها وما معناها ، (٦) فالإجازة إذاً هي الأذن من المجيز في مروياته ومسموعاته . (٧)

==

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ص١٧٩
(٢) السيوطي : تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ج٢ ص٤٢ - التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون ج١ ص٢٠٨
- د. الفرفور : (محمد عبد اللطيف صالح) تهافت الفكر الجدلي ط١ دار المعرفة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨ م ص٤٢-٤٣
(٣) د. العتر: منهج النقد في علوم الحديث ط٣ المطبعة العلمية بدمشق ١٩٨٥ م ص ٢١٥ - د. الفرفور : المرجع نفسه ص٤١-٤٢
(٤) د. الفرفور : المرجع نفسه ص٤٣ - د. العتر: منهج النقد ص٢١٦
(٥) فهمي : (أسماء حسن) مبادىء التربية الاسلامية القاهرة ١٩٤٧ ص١٢٧
(٦) السيوطي : تدريب الراوي ج٢ ص٣٢
(٧) التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون ج١ ص٢٠٨

والاحتجاج بالإجازة ، يأتي في المرتبة الثالثة بعد القراءة والسماع ، وتختص بطرق تحمل الحديث عند علماء الحديث ، وقد أجاز للرواية بها جمهور علماء أهل الحديث وغيرهم . (١) والإجازة على أنواع ، منها أن يجيز معين لمعين مثال أجزتك البخاري . (٢) وقد تكون بمعنى أجزتك مسموعاتي . أشار الحافظ ابن عساكر على إجازة جميع مسموعات العالم عبد الله بن أحمد بن أبي بكر السمرقندي (ت٥١٦ هـ/ ١١٢٢ م) له ، (٣) وقد تكون الإجازة من عالم إلى مجهول فهي باطلة لوجود جماعة مشتركين معه في الاسم ، (٤) وهناك الإجازة للمعدوم مثل أجزت لمن يولد لفلان فاختلف في مدى صحتها . (٥)

أما إجازة المجاز فمثالها أجزتك مجازاتي أو جميع ما أجيز روايته . وكان الشيخ أبو الفتح نصر المقدسي يروي بالإجازة عن الإجازة . (٦) ومن أنواع الإجازات الإجازة الأدبية أو المعروفة لدينا بالفخرية ، تعطى لمن يتوقع منهم الخير وهم صغار السن . وقد حصل ابن عساكر على إجازة من هذا القبيل وهو طفل ، وأجازه الكثيرون وتوقعوا له مستقبلاً مشهوداً . (٧)

==

(١) د. الفرفور : المرجع نفسه ص٤٢
(٢) ابن الصلاح : مقدمة ص٣٠-٣٢-٣٣-٣٤ - ابن كثير : الباعث ص٦٢
- السيوطي : تدريب ج٢ ص٢٩ - الزبيدي : تاج العروس ١٣٠٦هـ ج٤ ص٢١-٢٢
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٨ ص١٠١٩ ، نسخة مطبوعة تاريخ (عبادة بن أوفى) ص٣٣٥
(٤) ابن الأثير: جامع الأصول في أحاديث الرسول تعليق عبد القادر الأرناؤوط دار الفكر ط٣ بيروت ١٩٨٣ م ج١ ص٨٢
(٥) - السيوطي: تدريب الراوي ج٢ ص٣٤-٣٥
(٦) السيوطي: تدريب الراوي ج٢ ص٣٧
(٧) السيوطي : تدريب الراوي ج٢ ص٤٠-٤١
(٨) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٥٥٧
- د. بيطار : (أمينة) مقال التعليم في دمشق في القرن السادس الهجري المجلس الأعلى للعلوم ص٢٤٤

ولا شك أن الطالب حين يصل إلى مرحلة علمية تؤهله التزام مجالسة أستاذه يقوم الأستاذ بمنحه إجازة ، (١) فينطقها الشيخ بلفظها الصريح شفاهاً أمام تلميذه فإن أجازه كتابة من غير نطق أعرض بعض المتشددين من العلماء عن الموافقة عليها . وعلى هذا فالإجازة لم تكن تدفع بسهولة إلى الطالب إذا لم تبرز لديه رؤيا سلوك طريق العلم . ولا يصل طالب العلم إلى مرتبة عالية إلا إذا حصل على الإجازة العلمية يدفعها إليه مُدرّسه، سواء عن طريق التدريس أو الفتيا أو عراضة الكتب . (٢)

وبالإشارة إلى ما سبق نلاحظ أن الإجازة عند العلماء المسلمين هي مجرد شهادة الشيخ لتلميذه بالرواية عن لسانه في أمر محدد ، وتسمى إجازة خاصة لتخصصها بكتاب محدد أو موضوع يجيز له أستاذه تدريبه أو روا يته . وتكون إجازة عامة بسائر ما قرأ على شيخه لتأخذ تعبير الدرجة العلمية . ولا بد للعالم أو الدارس من الإجازة حتى يثبت أنه قد وصل إلى درجة كافية من العلم تؤهله لتدريس ما سمعه أو تلقاه .

ولم يقتصر الدارسون على تلقي الإجازة في بلادهم بل سعوا للحصول عليها في البلدان المجاورة عبر رحلات تدفعهم للحصول على الأسانيد العالية التي تكسبهم الشهرة والرواية عن شيوخ انتشر اسمهم وعلمهم في الآفاق . (٣)

أما الإجازة من الناحية الأدبية فهي ضربان نثر وشعر ، فالنثر هو الأغلب على الإجازات أما الشعر فهو الأقل . (٤) واستخدم في تحرير الإجازات الشعرية الأسلوب المسجع ، واستخدم الشعراء النظم في كتابة هذه الإجازات العلمية ، (٥) و قيل في إعطاء الإجازة شعراً ما يلي :

==

(١) د. الفرفور :المرجع السابق ص٤٤ - البدوي : الحياة العقلية ص٨٨

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج١٤ ص٣٢٧
- د. بيطار : مقال التعليم ص٢٤٤

(٣) د. الفرفور : المرجع نفسه ص٤٨

(٤) د. الفرفور : المرجع نفسه ص٥٠

(٥) ابن الخياط : ديوان ابن الخياط ص١٨
- ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٧ص٣٦١
- د. موسى باشا : مقال ، الإجازات العلمية وضروبها المختلفة ، الإجازات التعليمية الأصلية . مجلة التراث العربي عدد ٤ سنة ٢١٩٨١م ص٩٧

وترومُ منك إجازةً فاقت ولم   ترويه بالسند القوي عن النبي
حسبي الإجازة منك جائزةً ولم   أكُ قبل غير الفضل بالمتطلب (١)

تمثل إجازة عراضة الكتب أن يحفظ الطالب كتاباً ما في الفقه أو أصوله أو الحديث أو الأدب أو النحو أو التاريخ ، ثم يعرضه على أستاذه فيختبره في أبواب منه ، فإن أحسن الإجابة ولم يخطىء فيه كتب له الإجازة في ذلك بقوله : " عرض عليّ فلان " أو " عرض عليّ وكتبه فلان " . (٢)

أما الإجازة بالفتيا والتدريس ، فهي من الإجازات العلمية والدينية ، فإذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس ، فإن الطالب يأخذ من أستاذه أو شيخه الإذن ، في أن يفتي ويدرس ، فيكتب له بذلك الموافقة . واشترط كتابة هذا النوع من الإجازة ، نوعاً من الورق له نظام وقياسات محددة ، (٣) وتزداد قيمة هذه الإجازة ، إذا كان العالم الذي كتبها من العلماء المشهورين ، بوجود عالم يرقب ويشهد على هذا الاختيار ، كأن يكون تحت إشراف لجنة ثنائية . (٤)

وهكذا توقفت قيمة الإجازة على قيمة الأستاذ المجيز ، ولا تكتب هذه الإجازة إلا بعد التأكد من استعداد الطالب الممتَحن ، في العلوم التي عرضت عليه أو سئل عنها . (٥) ويشمل توقيع الإجازة ما يلي :

١- الحمد لله والتشهد
٢- التأكيد على قدسية العلم والعلماء (٦)
٣- ذكر المجيز والمستجيز ، مع ذكر فضائل المجيز ونسبه ، ثم طلب الإذن للمستجيز بالإجازة .
٤- إلزام المستجيز بوصايا هامة يتقيد بها . (٧)

==

(١) المقري : نفح الطيب ج٢ص٤٣٤-٤٣٦
(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج١٤ ص٣٢٧ - د. موسى باشا : أدب الدول المتتابعة ط١ دار الفكر الحديث بيروت ١٩٦٧م ص١٣٣
(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج١٤ ص٣١٢
(٤) د. موسى باشا : مقال الإجازات ص٨٨-٨٩ -
(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج١١ ص٣٢٧
(٦) د. موسى باشا : مقال الإجازات ص٩٩ -
(٧) القلقشندي : صبح الأعشى ج١٤ ص ٣٢٢

وإلـى جانـب الإجـازات العلميـة هنـاك الإجـازات العامـة ، منهـا الإجـازة بالروايـة أو المرويـات ، وهـي أن يطلـب بعـض الطلبـة إلـى أحـد الفقهـاء أو أحـــد العلمـــاء المتخصصين في فروع العلوم استدعاءات خاصـة ، يطلبون فيها إجازاتهم على ما يوافقونه من حق الرواية ، أو السماع عنهم ، فتكتب الإجازة وترسل إلى طالبها.(١)

مما سبق نلاحظ أن الإنسان بإمكانـه أن يجمع بين الإجـازة العامـة ، والإجـازة الخاصة ، ويحصل المُجاز بموجبها على ألقاب " الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمام العالم الأوحد الفاضل المفيد البارع ، رحلة القاصدين فلان الـدين أبـو فلان بـن فلان " (٢)

وكلما ازدادت إجازات الطالب دلت على زيادة مكانته العلمية ، (٣) فقد بلغ عدد شيوخ الحافظ ابن عساكر مائتين وتسعين شيخاً بالإجازة . (٤) وكانت لديه أيضاً إجازات عالية ، فأجاز له أبو الحسن ابن العلاف مسند بغداد . وذكر ابنه القاسم قائلاً : وروى عنه أشياء من تصانيفه بالإجازة في حياته ، واشتهر اسمه في الأرض . " (٥)

وقد يحصل الطالب على الإجازة من أبيه العالم ، فهذا الفضل بن سهل بشر أبو الفرج الاسفراييني ، استجاز له أبوه من أبي بكر الخطيب ، وقرأ عليه بصورة ما نقل ابن عساكر ، وبعد مغادرة الأخير لبغداد ، قرأ عليه التاريخ وأكثره بإجازة المصنّف . وكانت ولادته سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م وتوفي ببغداد . (٦)

وأجاز علي ابن الخضر جميع حديثه لأخيه من أمه الحسن بن الحسن بن أحمد أبو الفضائل الكلابي ، وقد شهد لعلي بالثقة توفي سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م (٧) .

==

(١) د. موسى باشا : مقال الإجازات ص٩١-٩٢
(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج١٤ ص٣٢٧ .
(٣) د. بيطار : مقال التعليم في دمشق ص٢٤٤-٢٤٥
(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٥٥٦
(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٥٥٦-٥٥٧
(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٤ ص٢٣١
(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٤ ص٤٢٩ – ٤٣٠

واستجاز حقّاظ ابن المحسن بن يحيى أبو الوفا الأنصاري لأبي محمد صابر لنفسه ولابنه أبي المعالي ، توفي سنة ٥١٠هـ/١١١٦ م ، (١) واستجاز أبو محمد بن صابر لنفسه ولولده من المحسن بن سليمان بن أبي مكرم أبو البركات الفارس البعلبكي ، الذي توفي سنة ٥١٢هـ/١١١٨ م . (٢) وحصل نجم الدين الشيرازي (٤٩٨ – ٥٨٦ هـ/ ١١٠٤ – ١١٩٠ م) شيخ الحنابلة في الشام على الإجازة من أبي الحسن علي بن الزاغوني . (٣)

وممن كتب بالإجازة إلى ابن عساكر محمد بن علي بن أبي المضا البعلبكي توفي سنة ٥٠٩هـ/١١١٥ م ، (٤) وجالس ابن عساكر المحدّث ا بن الحسن السلمي الموازيني فأجاز له جميع حديثه ، (٥) وكتب الحسن بن هبه الله بن صصري التغلبي الدمشقي بالإجازة إلى ابن عساكر من حديثه . توفي سنة ٥١٦هـ/١١٢٢ م ، (٦)

وقرأ أيضاً في الإجازة على أحمد بن مقاتل ابن مصكود بن أبي نصر أبو العباس المالكي المتوفى سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩ م (٧) . وكتب بالإجازة على عبد الله بن محمد ابن هبة الله بن علي بن أبي عصرون التميمي الموصلي حين قدم إلى دمشق سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤ م ، وكانت وفاة ابن عصرون سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩ م . (٨)

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٥ ص١٧٠
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٦ ص٢٨٠
(٣) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٦٨
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٦٩٥
(٥) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٥ ص٣٢٨
(٦) ابن الدبيثي : المصدر نفسه ج٢ ص٢٧
(٧) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٢ ص٢٤٥
(٨) - بدران : المرجع نفسه ج٢ ص٩٧
(٩) ابن الدبيثي : المصدر نفسه ج٢ ص١٥٨-١٥٩

وانفرد بالإجازة المطلقة راشد بن محمد بن عقيل المعروف بابن المكبري العطار ، قرأ بالإجازة المطلقة على عبد العزيز الكتاني . (١) وحصل بركات الخشوعي أبو طاهر الدمشقي الجيروني على إجازات تفرّد بها ، وانفرد بالإجازة من أبي محمد القاسم ابن الحريري صاحب المقامات سنة ٥١٢هـ/١١١٨ م ، وانفرد بالإجازة في آخر عمره من أبي محمد هبة الله بن الأكفاني ، وانفرد بالإجازة عن المقرىء أبي القاسم عبد الرحمن بن الفحام ، وأبي بكر محمد الطرطوشي ، وأبي علي الحداد . توفي سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠ م . (٢)

وحظي ابن عساكر سنة ٥٠٤هـ / ١١١٠م بإجازة مصنفات أحمد بن محمد بن خلف بن محرز بن محمد الأندلسي الشاطبي المالكي المقرىء . (٣) وقرأ كثيراً من مسموعات و إجازات عبد الكريم بن حمزة بن الخضر السلمي الحداد المتوفى سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م . (٤)

وحصل هلال أبو المكارم عبد الواحد بن محمد الأزدي الدمشقي ، على إجازة الفقيه نصر المقدسي ، والفقيه سهل بن بشر الإسفراييني، والفقيه عبد الله بن عبد الرزاق الكلاعي ، وانفرد ببعض مروياته وإجازاته عن نصر المقدسي وغيره . توفي سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م .

ولم تخل الإجازات من التزوير ، فقد زوّر طاهر بن سهل بن بشر الإسفراييني الدمشقي (ت ٥٣١هـ / ١١٣٦م) كتاب الشهاب للقضاعي ، وأثبت به اسمه بعد حك اسم أخيه . (٥)

وأخيراً يمكن أن نستخلص من موضوع الإجازة ما يلي :

١- لابد للإجازة من المجيز ، والمجاز له ، والمجاز، ولفظ الإجازة وحقيقتها الإذن في الرواية لفظاً أو كتابة .(٦)

==

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج٦ ص١٨٠
- بدران : المصدر نفسه ج٥ ص ٢٩٤

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص٢٦٩ - الصفدي : الوافي بالوفيات ط٢ طبع دار صادر بيروت ١٩٨٢م ج١٠ ص١١٧

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مطبوع ج ٧ص ٢٩٧

(٤) لبن عساكر : تاريخ مدينة دمشق مخطوط ج١٠ ص٤٢٦-٤٢٧

(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٥٩٢

(٦) د . الفرفور : المرجع السابق ص٤٥

٢- التأكد الصريح من أن الإجازة إذن ورخصة يمنحها العلماء والشيوخ لمن يرون جدارته وثباته في الرواية عنهم .

٣ – ليس بالضرورة أن يكون الشيخ ما نح الإجازة قد درّس الطالب حاملها ، بل يجوز للعالم الشيخ أن يمنح إجازة لرواية علمية بحوار مفتوح مع الطالب للتأكد من مقدرته واستحقاقه .

٤ – إنها تقليد تعليمي إسلامي عام ، تبناه شيوخ العالم الإسلامي ، الذين ينتمون إلى طوائف مختلفة من العلوم .

٥ – أكدت الإجازة إرتباطها المباشر مع علم الحديث ، لأنها كانت من وسائل التأكيد على حفظ السند ، ورواة الحديث الذين يعدّ توثيقهم ركناً أساسياً في صحة الحديث . وقد خرج العلماء من الخصوصية إلى الشمولية في هذا الأمر ، لكل العلوم ، تأكيداً على السند وتوثيقه ، وقد تبين لنا ذلك من خلال مرويات ومجالس الحافظ ابن عساكر وغيره .

٦ – يحق للطالب أن يحصل على عدة إجازات من عدة علماء ، وكلما كثرت إجازاته وتعددت ، دلّت على سعة مادته وتفتحه العلمي .

وإذا أردنا أن نتعرف في نهاية المطاف على مكانة الإجازة ، في الوقت الحاضر، فإننا نلاحظ أن درجة التخصص (الماجستير أو التبريز) تشبه الإجازة في بعض العلوم التي كان يتخصص فيها المعيد في السابق . أما درجة الدكتوراه ، أو درجة الأستاذية ، فهي تشبه الإجازة الشاملة العامة ، التي يعطيها الشيخ العالم ، لمن يرى فيه الأهلية أن يصبح شيخاً أو أستاذاً يصدق به حدسه في الإجازة . (١)

==

(١) د. الفرفور: المرجع السابق ص٥٧

ـ الخـــــاتمـــــــــة :

كانت أوضاع البلاد في فترة ما قبل الحكم البوري ، تعاني أزمات اقتصادية خانقة بسبب ما خلفه الحكم الفاطمي من الفوضى والفساد ، وقد نجح السلاجقة بالإطاحة بالفاطميين وإبعادهم عن بلاد الشام ، إلا أن استمرار الاضطرابات تلاحقت بصراع أفراد البيت السلجوقي على السلطة ووصول الخطر الفرنجي الصليبي ، الذي دهم البلاد ولم يفتح الأعين على خطره ، فانسل يبتلع الأجزاء ، والسلاجقة مازالوا في حربهم العائلية من أجل التوسع كل فريق على حساب الفريق الآخر ، وكانت ذروة الاضطرابات حين زحف رضوان بن تتش السلجوقي ، قادماً من حلب إلى دمشق للاستيلاء على ملك أخيه دقاق ، ولا شك أن الحرب بين الأخوين قد أضعفت القدرات العسكرية ، ومكنت وهيأت للفرنجة الصليبيين كي ينقضوا على البلاد الإسلامية ، ويقضموا ما تيسر لهم منها رويداً رويداً ،لا سيما أن أنظارهم قد أحدقت تجاه دمشق وبعلبك وبانياس الداخل ، وغدوا على مرمى حجر من تلك المناطق بعد أن سقط معظم الساحل الشامي .

في هذه الفترة ظهر طغتكين الخادم الأمين لدى السلاجقة ، فتوجه نحو دقاق وعرض عليه خدماته ، فعينه أتابكاً ، ثم تيسرت الظروف لصالح طغتكين بعد وفاة دقاق ، فأعلن قيام دولته وسعى بحنكته رسم سياسة أقرب للاسترخاء مع الفرنجة ، في حدود معقولة ومرسومة ، فعقد مهادنة مع جميع الأطراف ، أمّن بموجبها حدود إمارته .

توضحت ملامح النهضة العلمية في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، بظهور العلماء الموسوعيين في الحديث والتاريخ واللغة والقراءات ، فكان منهم ، محدث دمشق ومؤرخها ابن عساكر حافظ الشام ، ولو أردنا أن نصنف أسماء أخرى ، فإننا سنحصل على عدد لا حصر له من العلماء أمثال الفقيه المحدث جمال الإسلام السلمي ، وكذلك الفقيه المتكلم الشيرازي ، والمؤرخ ابن القلانسي ، والفقيه نصر الله المصيصي ، من جملة العلماء والفقهاء والمحدثين والمؤرخين والكتّاب . أما بالنسبة للشعراء فبرز الشاعر الرياضي ابن القيسراني ، والشاعر الهجّاء ابن منير ، وشاعر السخرية عرقلة الكلبي ، وشاعر المجون ابن أبي الحكم ، وشاعر قرنه ابن الخياط ، الذي فاق أهل عصره في الشعر .

وإذا أشرنا إلى ازدهار الهندسة والرياضيات والطب ، فإننا نرى جملة من العلماء الموسوعيين ، الذين جمعوا بين فنون عدة من العلوم ، منهم ابن النقّاش الطبيب الأديب الرياضي ، وكذلك البيّاسي وابن المطران وغيرهم ممن ترك بصمات واضحة على النهضة العلمية في فترة الحكم البوري وما بعدها .

مثلت الحياة العلمية في هذه الفترة مرحلة هامة برزت مظاهرها في تطور التعليم واهتمام الأمراء وكبار رجالات الدولة بالمدارس وحلقات المساجد والربط والخانقاوات وإنفاق الكثير من الأموال في وجوه البر والخير والإحسان على الفقراء مادياً ومعنوياً ، ومنحهم فرصاً عديدة في الحياة منها ، استكمال تعليمهم ، أو إرشادهم إلى أعمال أخرى تسهل عليهم سبل العيش سواء في المسجد حيث توفر التعليم المناسب لعلوم القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف والعلوم العربية .

لم يمنع وهن الأحداث السياسية أن تكون دمشق وأعمالها مدرسة عريقة للعلم ، حيث تنوعت أساليب التعليم في المساجد والمدارس والزوايا والربط والخوانق ، يدرس فيها علوم القرآن والعربية ، والعلوم التطبيقية والطبيعية . وقد ساهم التشجيع العلمي والمادي على ازدهار الحركة الثقافية ، حيث أنفقت الأموال الطائلة على العلماء والأدباء وإقامة الندوات ومجالس العلم .

وقد مثلت المساجد وعلى رأسها الجامع الأموي المدرسة الأساسية للتعليم في هذه الفترة وفي الفترات السابقة لها ، وقد اعتبرت كل سارية من سواري المسجد حلقة من حلقات العلم ، ففي علم القراءات كان المعلم ُيحضر التلميذ الذي يلقنه القرآن ليستقر إلى سارية من سواري المسجد ، ثم يبدأ العمل معه ، لذلك اعتبر المسجد مكانا لتدريس العلوم كافة ، وإن كان أساس بنائه للعبادة وتدريس علوم الدين . إلا أن العلوم الأخرى لقيت موقعاً ومكاناً وحيزاً في عمق المسجد إلى أن ظهرت المدارس المتخصصة بأتباع المذاهب الأربعة ، فشاركت المدرسة المسجد في العملية التعليمية لكنها لم تستطع أن تسلبه موقعه ومكانته . وهذا ابن عساكر الحافظ ، لم ينقطع عن حلقات الإقراء والتدريس في المساجد والزوايا والمدارس ولم يفارق مجالس الجامع الأموي ، كان يملي على الطلبة في أيام ثلاثة من كل أسبوع ، في التفسير والحديث أو التاريخ ، و يصل عدد الحاضرين في المجلس إلى الآلاف يستقطبهم موقع العالم .

وانتشرت المدارس وكثر عدد الطلاب ، فريق يتوجه إلى الكتّاب يستكمل شروط التعليم الأساسية ، وينتهي عند هذه المرحلة ، وفريق يلتحق بالمدارس أو المساجد ، وينخر ط في حلقات الدراسة ضمن مواعيد تناسب الطلبة ومدرسيهم . واشترط على المدرسين أن يسهموا في توضيح المواضيع والتطرق لما يوافق تفكير الطلبة وينسجم معهم . و برز في التعليم ثلاثة مستويات ، التعليم الفردي ، والتعليم الجماعي ، والتعليم ضمن الحلقات والمجالس ، يسعى وراءها الطلبة بحثاً عن الاستزادة واستكمال ما نقص لديهم من مادة دينية أو علمية .

وغالبا ما اعتمد المدرسون مع الطلبة أسلوب الحوار والمناظرة والمتابعة والمعاينة والقراءة ، وتحضير الفقرة المقرر قراءتها على الطلبة ، ثم تحليلها واستخراج الصعب منها لتفحصه وتبيينه حتى تصبح المادة سهلة المنال على الطلبة قد أحاطت بكل مضامين الدقة والفهم .

وتم التأكيد على الطلبة التوجه إلى الرحلات من أجل طلب العلم وتحصيله وليس من السهل على الطالب أن يجاري أستاذه إلا بعد أن يتمكن ويتثبت العالم من مقدرته العلمية ، فيسمح له بمجالسته في مجالسه العلمية التي تعقد في المراكز المعهودة . ويؤكد العالم على الطالب مواظبة البحث والدرس ، وإن اكتشف مهارته ومقدرته فإنه يكلفه أن يعمل معيداً للدرس بين يديه ، فيوضح للطلبة ما غمض عليهم فهمه من العالم ، وإذا أثبت المعيد جدارته فإن العالم يجعله نائباً عنه في مدرسته ، أو يتنازل له عن تدريسه في مدرسة معينة ، أو يبحث له عن مكان عمل في مدرسة أخرى مشجعاً مواهبه العلمية .

تعددت الإجازات العلمية التي تمنح للطلبة المستحقين لها بعد تجاوز طُرقها ومراحلها في الرواية والسماع ، وبلغ البحث العلمي أوسع مجال له في الدقة والعمق لتواصل الطلبة مع أساتذتهم . ولأجل هذا تسابق الطلبة للالتحاق ببعض الأماكن ، التي تعتبر مرتعاً للعلماء الكبار ، وبلغ الأمر ببعض الطلبة أن يجروا و يلحقوا بالعلماء المتميزين من مكان إلى آخر وملازمتهم إياهم حتى يلقى هؤلاء العلماء وجه ربهم .

انتشرت المدارس في فترة الحكم البوري في دمشق والأماكن الأخرى حتى زاد عددها على العشرة ، وجاءت في المرتبة الثانية بعد المساجد من دون لفت النظر إلى الجامع الأموي الذي كان يعتبر بمفرده جامعة أو جامعات قائمة بحد ذاتها ، فكل سارية من سواريه تمثل جامعة مستقلة في نوع محدد من العلوم . وأول مدرسة أسست في دمشق، كانت مدرسة القرآن الرشائية ، ثم عمت المدارس فيها وانتشرت ، فكان منها المدرسة الصادرية والبلخية والمعينية والمجاهدية الجوانية والبرانية ، والحنبلية والمسمارية والأمينية وغيرها من المدارس .

انفردت كل مدرسة بمذهب واقفها ، فكانت مدارس الأحناف ، ومدارس الشافعية ، ومدارس الحنابلة . ولما بنيت المدارس استدعت الحاجة جذب العلماء إليها للإشراف على تعليم الطلبة ، وكان يتم انتقاء العلماء الأكفاء للتدريس في هذه المدارس . فتوفر في المدارس كادر علمي يضم الفقيه والعالم والمدرس والمعيد ، والإمام والمقرىء إلى جانب الإداريين الذين يشرفون على الأمور الإدارية والمالية .

كانت الربط والخوانق والزوايا مقرات للعبادة والعلم في آن معا . كثر بناء هذه الأماكن في دمشق وأعمالها ، وغالبا ما كانت مساكن للصوفية العلماء ، وبالأساس هي مأوى للفقراء ، وقد قصدها العلماء منهم الإمام الغزالي الذي استقر في الزاوية الغربية ثم حملت اسمه فيما بعد وسمّيت بالزاوية الغزالية .

وانتشرت دُوْرُ أهل التصوف التي أسهمت إلى جانب العبادة ، نشر التعليم فآوت الفقراء من الطلبة مشجعة إياهم على التعلم ، ومما ساعد على ذلك تحول كبار العلماء نحو هذه الأماكن يصرفون جلّ وقتهم على هؤلاء الطلبة من غير أجر ، إلا ما يمنحه

الله تعالى لهم من الأجر والثواب . والتصوف على حقيقته وغايته طلب الكمال ، وأساسه تحقيق الأكمل حكماً وحكمة . اتصل الفقه بالتصوف ليصبح صنواً له ، فالفقيه المتصوف من تمكن من علمه وحاله ، لذلك لا يتم التصوف إلا بالفقه المنهجي الصحيح والذوق الصريح . والفقه والتصوف علمان يدلان على أحكام الله تعالى وحقوقه ، فلهما حكم الأصل الواحد في الكمال والنقص ، وليس أحدهما بأولى من الآخر في مدلوله .

ومن أبرز المتصوفة الفقهاء العالم نصر المقدسي ، والإمام الغزالي ، ونصر الله المصيصي ، الذين جعلوا من الزاوية الغزالية - بشكل خاص - بيوتاً دائمة لهم لا يفارقونها أبدا . ولقد أُوقف الوقف الغزير، لخدمة بيوت الصوفية ، عبر الأراضي الزراعية والحمامات والدور والقنوات ، مما يقدم مورداً متتابعاً ومعيناً لا ينضب ، يُصرف على خدمة العلماء والطلبة فتبقى بيوت الصوفية نشطة على مدار العام ، لا ينقطع مال الأوقاف عنها .

علّم التصوف الناس سلوك طريق الإيمان للوصول إلى محبة الرحمن ، بعد إعتاق الملذات والشهوات ، وجعل القلب يرشح إلى يقين طاعة الواحد الأحد . ولا يخفى أن الصوفية لقوا في ظل الحكم البوري المحبة والمكانة المرموقة ، فأغدقت عليهم الهبات والعطايا حتى غدت الصوفية ملكة عصرها وفريدة قرنها .

نلاحظ مما سبق أن رجال التصوف وبصورة خاصة الكبار منهم ، قد حازوا اهتمام ومحبة الرعية ، كونهم مثلوا أصدق صورة لمأساة الإنسان المتضرر من الفقر والجوع والمرض ، فرأى الناس في التصوف مكاناً آمناً ومهرباً من آلام الحياة وهمومها . كانت وفاة الصوفي تترك أثراً عميقاً ومريراً في نفوس المشيعين له .

وأقيمت الأوقاف على المدارس والزوايا والربط ، وكانت بكثرة لا تحصى ، يشرف عليها التجار والأمراء والأغنياء ، لدفع عجلة النهضة العلمية . ولم يقتصر الوقف على المساجد والمدارس والربط والخوانق ، بل تحول أيضاً إلى المشاهد والقبور، فمن يقرأ على قبر فلان شيئاً من القرآن يعطى من مال الوقف .

وهكذا نلاحظ أن الأوقاف كان لها دور أساسي في دفع الحركة العلمية وازدهارها ، حيث سهلت على الطالب طريق بحثه ، حين أمنت له مستلزمات الحياة ، أينما حلّ أو استقر . وغدت دمشق مرتع الغرباء ومأوى الفقراء ، تجذب إليها العلماء والطلبة .
كانت الأوقاف مورداً ثابتاً ودخلاً جيداً للمعوزين ، فهي بالإضافة إلى دورها في العبادة والعلم ، نراها تساهم في مواساة المقعد والعاجز والمريض والفقير ، وتسعى جاهدة تأمين المأكل والمشرب والملبس والمسكن ، وقد أشرف على تلك الأوقاف النظّار والعمال لحمايتها من الاختلاس ، ولصونها من العبث .

وسارت الزوايا على وتيرة المدارس ، وأقيمت حلقات تدريس علوم النحو منفردة عن علوم الفقه وحتى علوم التفسير، فكان لها تفوّق كما في المساجد والمدارس.

ونشطت المناظرات العلمية بين عالم وعالم على مسمع ومرأى من الطلبة ، أو بين العلماء والطلبة ، حيث تقدم الفرصة للطلبة ، لشحن ذهنهم ومناظرة علمائهم بما يرغبون التعرف عليه ضمن حدود لا يتجاوزها الطالب مع أستاذه ، ولا يرى العالم بالمقابل تحرجاً من مساءلة الطلبة له مهما كانت طبيعة تلك المساءلة ، طالما أنها تهدف تعليمهم وتوجيههم ونصحهم . كانت هذه المناظرات تدفع ذهن الطلبة إلى التوقد والتفتح والنضج ، وتعلم أسلوب الحوار وآداب الحديث مع العلماء ، وتجعل السليقة لدى السامع ترسل الدرر من المعارف .

لم يقتصر الدور التعليمي على العلماء ، بل رفدت النساء العالمات النهضة العلمية في الإمارة ، وأسهمن في نشر العلم ، وحُزْنَ المكانة العلمية الكبيرة ، وقد أشار ابن عساكر إلى أن عدد شيوخه من العالمات زدن على الثمانين عالمة ، يُعتد بهن وبآرائهن العلمية .

حاز العلماء في ظل الحكم البوري على المكانة العريقة ، ولم يقتصر عملهم على المشاركات العلمية ، بل كانت لهم مشاركات سياسية ، وقد كتب على البعض منهم الدفاع عن حدود الدولة البورية تجاه الغزو الفرنجي ، ولا يخفى السياسة المتناقضة وغير المقنعة التي اتبعتها الدولة البورية مع جوارها ، أن يمنع العديد من العلماء من الانخراط في ذلك التيار ، والابتعاد عن مواطن السلطة قدر المستطاع . ومع ذلك فقد دخل بعض العلماء في معترك الأحداث ، والمشاركة في حل بعض المشكلات القائمة بين الدولة البورية ومجاوريها وخاصة الزنكيين منهم .

حازت العلوم الدينية والتطبيقية المكانة الكبيرة في ظل الحكم البوري ، أما العلوم الدينية فقد ركزت الإهتمام على علم القراءات والتفسير والحديث والفقه والأصول والفرائض . أما قراءة القرآن فقد تواصلت في الجامع الأموي والمساجد الأخرى ، وقد شملت المتعلمين والمبتدئين والأميين ، فهناك تعليم الكبار يبدأ في الصباح بسبع القرآن الكريم ، ثم يأتي تعليم المبتدئين ، حيث يلقن المعلم المبتدىء القرآن الكريم تلقيناً . ثم يأتي بالدرجة الثالثة المجتمع الكوثري المخصص للأميين .
دفع الاهتمام بعلوم القرآن ، تأسيس أول مدرسة للقرآن الكريم في دمشق ، وقد اهتمت المدرسة بإقراء القرآن بالقراءات السبع أو العشر، ونصح الطلبة بعدم إشغال أنفسهم بالقراءات الشاذة ، بل تم التأكيد عليهم، أن لا تكون دراساتهم ، إلا في نطاق القراءات المشهورة المتواترة . وقد أسهم علماء الأندلس الوافدين إلى مقر الإمارة في

ترسيخ أركان هذا العلم في الشام ، والعمل على تلقينه وتعليمه. أما علم التفسير فقد اهتم بالناسخ والمنسوخ ، وأسباب النزول وأحكام القرآن ، وأقيمت من أجله مجالس العلم الخاصة في المساجد ، والربط والزوايا .

أما علم الحديث فقد حاز أهمية كبيرة بعد القرآن الكريم ، وتطلب العمل به جهوداً مضنية بسبب تعرض الحديث للدس ، فظهر علم الجرح والتعديل ، لضبط الرواة ومعرفة الثقات من غيرهم . وحتى يصل الإنسان إلى الرتبة العالية في هذا الفن ، ويحوز مهاراته ، لابد له من الرحلة والجري وراء العلماء الكبار والأخذ عنهم والتأسي بهم ، أما أبرز علماء الحديث فكان ابن عساكر الحافظ ، الذي استوعب هذا الفن وأخلص له وأعطاه من الوقت والجهد الكثير .

كان عالم الحديث يملي على الطلبة ما يهم علم الحديث في مجالس الإملاء ، وقد راعى العلماء تحديد أوقات هذه المجالس حتى لا يفوت الاستفادة منها آلاف الطلبة . وإلى جانب رحلات علماء الدولة البورية لطلب الحديث وصل إلى الدولة العلماء من الأصقاع طلبا لهذا العلم الشريف أو تحديثه . وقد وفد أعداد كبيرة من هؤلاء العلماء أو الطلبة لأخذ الحديث عن محدث الشام ابن عساكر .

نلاحظ مما سبق أن علم الحديث تطلب العناية به رواية ودراية ، واحتاج إلى الأناة والصبر والجلد والجهد المتنامي دفاعا عن علم الحديث ومصطلحه .

تنامى الاهتمام بعلم الفقه لارتباطه بالأحكام الشرعية وأدلتها التفصيلية المستنبطة من الكتاب والسنة . ولما كان الفقه هو المصدر الأول لتنظيم علاقات الناس في الحياة ، فقد تم الاهتمام به لمعرفة الفتاوى والأحكام .

ارتبط الفقه عموماً بأتباع المذاهب الأربعة ، حيث كان لكل مذهب منهج يعتمد عليه ، إلا أن الجميع كان يصب في المنبع الأساسي الكتاب والسنة . خرّجت المدارس الإسلامية العديد من العلماء والفقهاء والقضاة ، ومع هذا لم يكن يسمح بتداخل المذاهب الفقهية في المدارس ، فالفقه الشافعي له مدارسه ، والفقه الحنفي له مدارسه، والفقه الحنبلي له مدارسه وهكذا ... فلا يُدّرس الفقه الشافعي في مدارس الأحناف ، ولا يُدّرس الفقه الحنبلي في المدارس الشافعية ، وكذلك لا يتحرك الفقهاء الشافعية لمدارس الحنابلة وهكذا . لقد كان لكل مذهب مدارسه وخصوصياته .

ارتبط علم أصول الفقه بالفقه ، واهتم باستنباط الأحكام الشرعية والتعرف على تلك الأحوال الواردة في الكتاب والسنة ، والإجماع والقياس . وقد احتاج هذا العلم كغيره من العلوم إلى الرحلة في طلبه في البلاد ، حيث يتوفر العلماء الكبار للأخذ عنهم وسبر المعلومات منهم . وقد اهتم بهذا العلم الإمام الغزالي ، حيث وضع كتباً

عديدة في هذا المجال .

أما علم الفرائض فهو علم يختص بإعطاء الفروض لأهلها وفق ما حدده الإسلام لكل من الوارث والمورث ، وأهمية هذا العلم تقوم على اعتماده على علم الحساب والقسمة . وقد لمع العديد من العلماء في هذا الفن ، ولا شك أن الهدف من هذا العلم إيجاد الحلول للمشكلات الطارئة في العمليات الحسابية .

اهتم علماء الشام بالعلوم الشرعية ، ورحلوا من أجل تحصيلها فرفدوا البلاد بالمعارف ، ساعدهم في هذا المضمار علماء قدموا من المشرق والمغرب حملوا معهم مكنون العلوم والمعارف . فكان منهم الفقهاء والمحدثون وملقنو القرآن الكريم وعلماء الفرائض ، وكان الغالب على جملة العلماء الشمولية حيث قدّموا درّة ما لديهم من المعارف والعلوم .

اهتم العلماء المسلمون بالعلوم العربية التي تتضمن النحو والأدب والشعر والنثر والخطابة . بدأ الاهتمام بعلم النحو لأنه أساس علوم اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم بلسان عربي مبين ، ولا يمكن فهم القرآن الكريم وتتبع معانيه من غير إدراك خصوصيات اللغة العربية من نحو وبيان وصرف .

كان تدريس النحو في فترة الحكم البوري ، يتم في المساجد وبخاصة الجامع الأموي ، حيث برزت فيه حلقات خاصة منها حلقة أبي الحسن طاهر النحوي ، كان موقعها في العمود الثاني من الرواق الشرقي المتوسط للجامع . ولوحظ تدريس النحو في البيوت إلى جانب المساجد ، فكان بعض العلماء يفتحون بيوتهم لتدريس من يرغب من الطلبة ولا يكاد يخلو دور للمدارس- على ما اعتقد - في نشر النحو وتعليمه أيضاً .

وروعي الاهتمام بالبلاغة التي تصور الحس الجمالي لألفاظ القرآن الكريم ، بما يسترعي الانتباه إليه من بديع وبيان وتصوير . ولما كان الشعر يصور أشجان النفس بأفراحها وأتراحها ، وما يستلهمه من وصف جماليات الطبيعة ، فقد لقي كل اهتمام . حفلت الدولة البورية بالعديد من الشعراء الدماشقة أو الوافدين إلى مركز الإمارة واهتمت بهم ، ولا شك أن شعرهم كان في الذروة ، ومنهم من كان في القمة طربت الناس بأشعارهم .

ركز الشعر في هذه الفترة على الجهاد المقدس ، لظروف تواجد المحتل الفرنجي في ديار الإسلام ، لمع اسم ابن الخياط وعرقلة الكلبي ، وكذلك ابن منير وابن القيسراني وأسامة بن منقذ ، تميز كل واحد من هؤلاء بفنه المشرق في المدح والوصف والهجاء والرثاء ، ما ينم عن عمق التواصل الشعري الذي شهدته الدولة

البورية في هذه المرحلة . ولم يقف الحد عند الشعر بل برز النثر الذي حمل على كاهله ما حمله الشعر من ذم الفرنجة والاستخفاف بهم ، وكان من أبرز الكتاب ابن القلانسي ، وكذلك أسامة بن منقذ .

أما الخطابة التي هي الشعر المنثور، فقد أقيمت أيام الجمع والأعياد، وأوقات الشدائد في مواجهة الأعداء ، تدفع الحمية بالنفس وتشحذ الهمة لمواجهة المتربصين بأمة الإسلام . كان وقع الخطابة في النفوس كبيراً ، خاصة حين يتولاها العلماء وقت الأزمات الصعبة .

أما علم التاريخ فقد ازدهر في العهد البوري ، ولقي مكانة كبيرة . ويكفي دمشق فخراً مؤرخها الحافظ ابن عساكر ، الذي أعطى المدينة وتاريخها الشيء الكثير ، في كتاب تجاوز الثمانين مجلدة ، استخدم فيه أساليب المحدّثين في الرواية الشفوية أو المكتوبة الموثوقة ، وإلى جانب هذا الكتاب الضخم عن مدينة بعينها ، نرى كتاباً آخر يُذيّل لدمشق تاريخاً بعبارات موجزة سلسة ، وأحداث مجملة ، تجاوزت عصر المؤرخ ابن القلانسي لفترات مبكرة ، فرصدت الحكم الفاطمي ، وما ألحق بمدينة دمشق وما يحيط بها من الظلم والعنت حتى دبّ الضعف بالفاطميين ، ومهّد السبيل ، لوصول السلاجقة ، ومن ثم أعوانهم البوريين .

أما علم الجغرافية ، فقد ترك المسلمون العرب فيه الرسومات الكثيرة والخرائط المتميزة ، واكتشفوا علم الطبوغرافيا والمسح المنظّم والمخطط لكل مدينة على حده . ويحضرنا هنا تاريخ ابن عساكر الذي خصص المجلدة الثانية لمسح دمشق ، بأزقتها وأحيائها وسككها ، ومساجدها وحماماتها وسواقيها وتُرَبها . وكان قد وفد إلى دمشق من جغرافيي العالم الإسلامي العالم الإدريسي ، الذي صنع خريطة كاملة للأرض ، كما وصل إلى دمشق الجغرافي الرحالة ابن جبير، الذي صوّر كل ما رآه عن دمشق والمناطق المحيطة بها .

أما العلوم التطبيقية ومنها علم الطب فقد لقي اهتماماً كبيراً لدى المسلمين ، نظرياً وعملياً ، فوجدت المشافي العديدة في مركز الإمارة البورية لخدمة المرضى والسهر على راحتهم . وكان من يرغب ممارسة الطب ، لا بدّ له أن يجلس مع الطبيب للدراسة ، ومعاينة المرضى ، ثم الخضوع لاختبار قد يؤهله للعمل في هذا المجال أو يبعده عنه . وكان الأطباء يعملون صباحاً في المشافي ، وفي فترة ما بعد الظهر يذهبون إلى محالهم الخاصة بهم ، للكشف على المرضى الوافدين .
وأثبت الفرنجة انحدار علم الطب لديهم ، واعتمادهم في الحالات الطارئة العامة والخاصة على الأطباء المسلمين ، يرسلون في طلبهم لعلاج مرضاهم ، كون الطب لديهم قد اقترن في الغالب بالسحر والشعوذة ، مما جعل أطباء الإسلام يتهكمون بهم.

لقي علم الفلك عند المسلمين اهتماماً واسعاً ، خاصة حين ُربط بالتجربة ، فأقاموا له المراصد والأزياج ، ولم يكن هنالك حرج على عالم الدين أو الأدب أو الطب أو الرياضيات ، أن يخوض في هذا العلم ، بل كان ذلك يلقى ترحيباً ودعماً لربط النظريات بالتجارب ، التي يخرج بها كل فريق لخدمة علم الفلك . لكن الذي لم يلق الترحيب بل السخط ، ربط هذا العلم بالشعوذة والتنجيم . وقد برز في عهد الدولة البورية علماء كبار ، قمنا بتفصيل الحديث عنهم أثناء البحث .

أما الفلسفة فهي علم يبحث فيما وراء الطبيعة ، وقد عرفت لدى اليونان أولاً ، ثم برزت في الفترة الإسلامية ، وتأثرت بالأوضاع السياسية للدولة الإسلامية ، بين مشجع ومعارض لها . وغلب عليها اعتراض العلماء والفقهاء . وأبرز من نقض أركان الفلسفة في فترة قريبة من الحكم البوري الإمام الغزالي ، الذي جرّد سيفه في وجه الفيلسوف ابن رشد وغيره ، حتى قيل إن الغزالي أسكت الفلسفة وعلمها لقرون عديدة ، مع أنه خاض فيها وتناول الشك واليقين ، الذي أوصله إلى الإيمان اليقين بالحق تبارك وتعالى .

وبرزت أهمية علم الصيدلة أو الأقرباذين ، الذي ربط علاج الناس بالأدوية ، وغالباً ما حضّ الصيادلة على العلاج بالأغذية ما أمكن إلى ذلك سبيلا . وقد جمع المسلمون العرب بين مهنة الطب ومهنة الصيدلة لخدمة الناس ورعايتهم والإشراف على صحتهم .

ولقي علم الصنعة أو الكيمياء اهتماماً آخر لدى المسلمين ،. وقد نجح الكيميائيون في عهد الدولة البورية وما بعدها ، في تطوير علم الكيمياء وإدخاله في المجال العسكري والإسهام في نسف أسوار وقلاع الفرنجة المترامية المستعصية أحياناً على المسلمين ، وقد نجحت تلك المحاولات ، بتحويل أبراج الفرنجة إلى ركام وإلى كتلة من اللهب .

وبرز الاهتمام بعلم الحيوان أو البيطرة لما له من أهمية في الجهاد ضد الفرنجة وغيرهم من أعداء الإسلام . وقد رحبّ الإسلام وشجّع على اقتناء الخيول وتأمين احتياجاتها لأهميتها في الحرب .

طوّر المسلمون علم الحساب ، وأضافوا عليه ما أخذوه من القدماء ونسب إليهم علم الجبر وعلم المثلثات الإسلاميين ، وقد ساعد التعرف على علم الهندسة استخدامه في بناء المساجد ومسح الأراضي وبرز في هذا المجال العديد من العلماء . واهتم المسلمون بالعمارة الدينية والمدنية ، كما أودعوا هندسة المياه في دمشق اهتماماً خاصاً ، حيث ضبطوا توزيعها ونقلها عبر المجاري بدقة متناهية .

ودخلت الموسيقى في النغم والغناء ، وقد عرفت في فترة الإسلام ، وفي فترة الحكم البوري . كانت الموسيقى تدرّس على أساتذة يتقنون علمها ، وكان تدريسها يتم في البيوت غالباً ، لأن العلماء والفقهاء تصدّوا لأتباعها وأعوانها ، ووقفوا في وجه تيارها المتنامي . ورغم ما حملته الموسيقى في مضمونها من مفاسد ، إلا أنها دخلت كعلم من العلوم الأخرى التي نشطت في عهد الدولة البورية . كما لقيت الترجمة والمكتبات كل اهتمام وعناية ورعاية في تلك الفترة .

أما الإضافات التي أضافها البحث للحياة العلمية فكانت على الشكل الآتي : لقد تواصلت النهضة العلمية الواسعة في الفترة البورية وتوضحً بروز علماء كبار ، حازوا مكانة وأهمية تفوق ذلك العصر، رغم التأخر السياسي والضعف العام .

ولوحظ كذلك اهتمام الأمراء والوزراء والحكام ، بحلقات العلم في المساجد والمدارس والربط والزوايا ، وانكبوا على البناء والتعمير ، خدمة لذلك الغرض ، وإنفاق الأموال الطائلة على وجوه البر ، لرفع الإمكانات العلمية ، والتقليل من ظاهرة الجهل العام .

وتوضح أيضاً تنوع أساليب التعليم ، وقد ساعد ذلك على استقطاب الطلبة ، فهناك طالب راغب بدراسة العلوم الدينية أو العربية ، وآخر راغب في العلوم التطبيقية والطبيعية ، فشحذ ذلك الأذهان وفتقها . وساعد على ذلك التركيز على التخصص الدقيق والمعمق في العلوم ، كالتخصص في الفقه أو الحديث ، أو التفسير والقراءات ، أو العربية وفنونها ، أو الطب والصيدلة ، أو الرياضيات والهندسة الخ ... و إلى جانب هؤلاء العلماء المتخصصين، لمع علماء موسوعيو المعرفة ، فالتمكن من الحديث ، لا يعني أن لديه جهلاً بالفقه أو القراءات ، أو العربية أو الطب ، أو الرياضيات أو الفلك ، بل التمكن الدقيق ، بالإضافة إلى الإلمام بلغات العصر كافة ، لذلك غلب على علماء الإسلام الموسوعية والشمولية في المعارف والعلوم ، وهذا ما تأكد لنا من خلال البحث ، إضافة للدور الذي لعبته دمشق وأعمالها في رفد مدن العالم الإسلامي بالعديد من العلماء الذين حط رحالهم في بغداد والري وشيراز وكذلك في المغرب .

وهكذا نلاحظ بهذا السرد السريع أهمية الأوضاع العلمية في ازدهار الحياة العلمية ، في فترة الحكم البوري ، فاتجه التطلع إلى التخصص والتركيز في طلب العلوم ، مع موسوعية العلماء الذين انفردوا بالجمع بين العلوم النظرية والعلوم التطبيقية .

كان هدفي من هذا البحث إعادة صورة الإسلام المشرقة إلى أبنائه ، فلولا فرز وجمع هذه المادة ، لما تبين لي الدور العظيم ، الذي حازه علماء الإسلام في مجالات العلوم كافة ، لا سيما وقد عرف عنهم تعدد التخصصات في أكثر من مجال . ولا يعني ذلك جهلي برفعة ما قدمه علماء الإسلام ، لكن هذه المادة العلمية تمثل وثيقة يُفخر بها ، إزاء التحديات التي نمر بها في الوقت الحاضر ، والتي تسعى عن عمد تهميش دور الإسلام ونسب ضعفنا إليه ، فكان لا بد من إبراز هذا الضياء الساطع ليكون أجيال الإسلام على بيّنة منه .

ولا يسعنا أخيراً إلا أن نستقي من هذا الماضي المجيد آفاق المستقبل الإسلامي المرتقب ، وكلنا أمل بالله تعالى ورغبة أن نسير على هدي هذا الجيل الذي قدّم للحضارة الإسلامية المنهج العلمي الصحيح والثقافة والمعرفة ، مما جعل أمة الإسلام تختص بذلك دون غيرها من الأمم ، كوكبة نور و ضياء فيما كان غيرها يغط في ظلام دامس .

النتائـــج :

إن من أبرز النتائج التي تم التوصل إليها أثناء عملنا في هذا البحث ، بروز المكانة العلمية والثقافية الكبيرة في العهد البوري ، مع انحدار سياسي حاد وضعف ، بجوار عدو متربص يمثله الفرنجة الصليبيون، وبالتأكيد مع هذا الواقع ترسخت ملامح روح الجهاد ، وتمت تذكيته بروح الإيمان لمواجهة أعداء الإسلام المحدقين بأرض الإسلام .

ومن نتائج البحث التي لمسناها الدور الكبير الذي حازته المساجد لدعم نشاط الحركة العلمية ، وخاصة دور الجامع الأموي اللبنة والمدرسة الأساسية للتعليم في تلك الفترة ، حيث غدت كل سارية من سواري هذا المسجد حلقة من حلقات العلم الواسعة .

كما انتشرت المدارس وظهر المدرسون المتخصصون في مجال معين من العلوم ، فهناك الفقيه أو المفسر أو المحدث ، أو الطبيب أو الفلكي أو الرياضي ، ولم يمنع ذلك من امتلاك مهارات عالية في علوم أخرى ، فالموسوعية هي الصبغة التي غلبت على علماء تلك الفترة بشكل عام .

كما برز دور الإجازة العلمية التي يحوزها الطالب بعد مواظبة السماع والعرض على الشيوخ ، ولابد لتحقيق هذا المنحى من قيام الطالب أو الدارس بالرحلة في طلب العلم لحيازة تلك العلوم والمعارف من أفواه العلماء مباشرة .

كما ظهر جليا في هذه المرحلة دور العلماء الكبار ، حيث اتسعت معارفهم مع اتساع نفوذهم ، فكان لهم صوت مؤثر ومسموع لدى السلطات بشكل عام ، حيث كان تأثيرهم قوي على سياسة البلاد عامة والسلطة خاصة تستنير برأيهم وتستهدي من رشدهم ، فقد غلب عليهم طابع الوقار والهيبة ، فكانت الدولة توليهم كل عناية واهتمام ، فهم السفراء إلى الخلفاء والحكام ، يشرحون ما يجري على الأرض من آلام ومآسي غرسها المحتل الفرنجي في البلاد .

كانت الدولة البورية ترقب بأناة وترهب بحذرموقع هؤلاء العلماء المؤثر والكبير في السياسة العامة للبلاد ، سيما وأن دورهم كان عظيما في دفع الرعية إلى جهاد الفرنجة ، وشحنهم بالوعظ والنصح لمساندة السلطة الحاكمة في جهاد الفرنجة .

واتضح أيضا دور الأوقاف التي ساهمت في تنشيط ودعم الحركة العلمية ، بما قدمته من دعم مالي غزير ، فكانت موردا ثابتا لا ينضب لخدمة العلم والعلماء ، منه تدفع المرتبات للعلماء والطلبة والعاملين سواء في المساجد أو المدارس أو الربط أو الحلقات والزوايا ، فشكلت بذلك موردا اقتصاديا هاما لخدمة الحياة الثقافية والعلمية .

كانت الأوقاف معيناً لا ينضب يرفد الأحوال العلمية ويلبي حاجات الطلبة والقراء ، فسهل طريق الأوقاف على الطالب مهمة الدراسة ، ورفع عن كاهله مشقات الحياة ومتاعبها ، وهيأت له طرائق الدرس والبحث ، كما وفرت للعلماء فرص العمل القوية والرفاهية العالية ، وبذلك تكون الأوقاف قد قطعت دابر البطالة وأزالتها .

ولمكانة الأوقاف في دمشق ومقدرتها على ضبط مستلزمات الحياة اندفع الغرباء والعلماء والطلبة الى المدينة لتكون مأوى لهم حيث تقدم الدخل الثابت للمعوز والفقير والمحتاج .

كان عصر الدولة البوريه عصر ظهور المدارس الكبيرة فبعضها كان لتدريس القران الكريم للطلبة والعامة ، خاصة الأميين منهم حيث يعلمون القرآن ، ثم يتقاضون مقابل حفظهم لما درسوه الجامكية (المرتب) فيكون ذلك حافزا لهم على مواصلة قراءة القرآن الكريم .

ثم ظهرت مدارس المذاهب الفقهية ، منها مدارس الفقه الحنفي التي زادت على الأربعة ، ومدارس الفقه الشافعي التي وصل عددها إلى أربعة مدارس في دمشق وحدها ، ثم مدارس الفقه الحنبلي التي وصل عددها إلى مدرستين . وقد اهتم الحكام البوريون والأمراء والوزراء ببناء المدارس ورفدها بحلقات العلم ، وإنفاق الأموال الطائلة عليها .هذه نبذة سريعة أوضحنا فيها ما توصلنا إليه من نتائج حول هذا البحث والله ولي التوفيق .

التـــوصيـــات :

أما التوصيات التي يجب أن نوليها الاهتمام الكبير لحفظ حضارة الإسلام من دنس الأعداء :

أولاً: علينا أن نهتم بحضارتنا الإسلامية ونوليها العناية الفائقة ، ونرسم الصورة الصحيحة والسليمة عنها لأجيال الإسلام خاصة البراعم منهم ، لأن عز الأمة منبثق من عز هذا الدين .

ثانياً : علينا أن نولي المرأة المسلمة الأهمية التي أعطاها إياها الإسلام ودَفْعِها للعلم والعمل .

ثالثاً : الاهتمام بالعلم والعلماء ، وإغداق الأموال على العلماء وتأمين الراحة النفسية لهم ، حتى يتسنى لهذا الفريق الاندفاع نحو العلم والعطاء ، خدمة لأفراد المجتمع مع السعي الحثيث لإعطائهم السلطات والصلاحيات الواسعة في زمن يكاد يتشابه فيه كيد الأعداء على هذه الأمة .

رابعاً : الاهتمام بالمساجد وتوسيع مداراتها ومجالاتها ، لتكون مراكز للعلم ، تمثل الدور الكبير لنشاط الحركة العلمية .

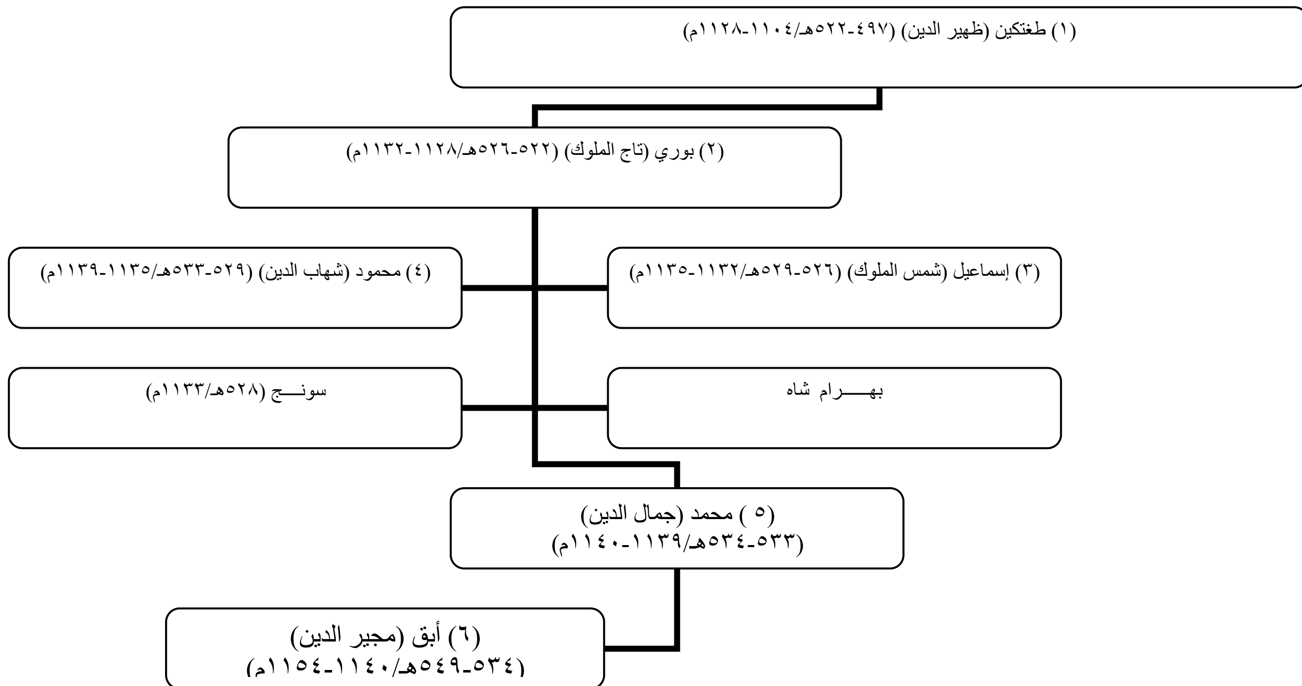
خامساً : الإكثار من بناء مراكز التعلم لاستقطاب الطلبة لطلب العلم .

سادساً : تزكية روح الجهاد في أبناء الإسلام لمواجهة أعداء الإسلام ، وتحرير ما اغتصب من الأرض الإسلامية ،

الفهارس

فهرس أنساب الدولة البورية

أولاً : شجـرة نسب الدولـة البوريـــة

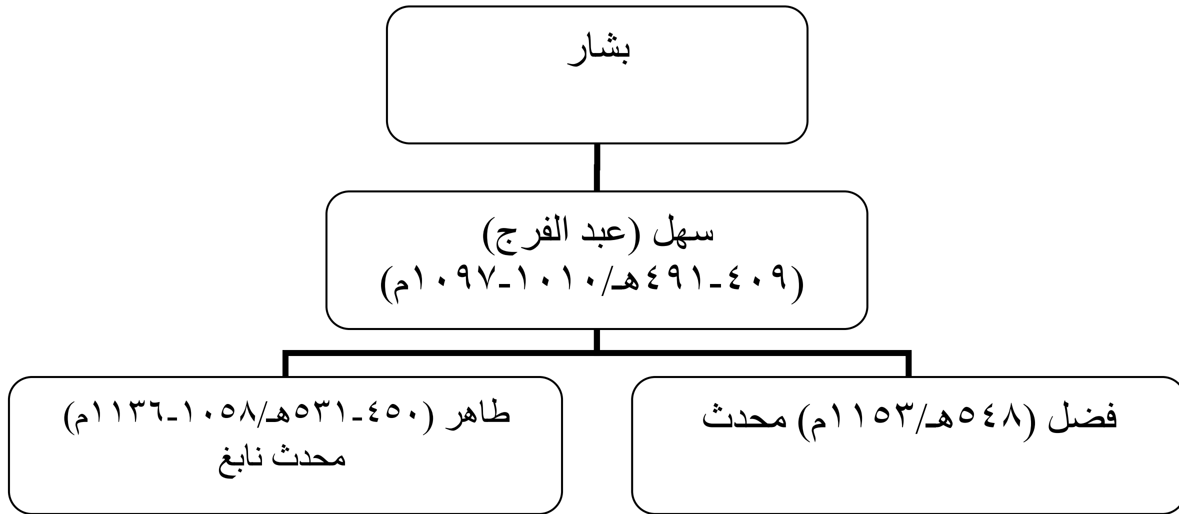


ثانياً : الجـدول الزمنــي لأمــراء الدولــة البــوريـــة

(١)	طغتكين (ظهير الدين) ٤٩٧ـ٥٢٢هـ/١١٠٤ـ١١٢٨م
(٢)	بــوري (تاج الملوك) ٥٢٢ـ٥٢٦هـ/١١٢٨ـ١١٣٢م
(٣)	إسماعيل (شمس الملوك) ٥٢٦ـ٥٢٩هـ/١١٣٢ـ١١٣٥م
(٤)	محمود (شهاب الدين) ٥٢٩ـ٥٣٣هـ/١١٣٥ـ١١٣٩م
(٥)	محمد (جمال الدين) ٥٣٣ـ٥٣٤هـ/١١٣٩ـ١١٤٠م
(٦)	أبق (مجير الدين) ٥٣٤ـ٥٤٩هـ/١١٤٠ـ١١٥٤م

ثالثاً :

بــــنــــو الإسفــرايينـــي



GILBERT : OP,CIT P. 180

رابعاً :

بـــنـــو الشيـــرازي

أحمد عبد الواحد (أبو الفرج) محدث واعظ فقيه (٤٨٦هـ/١٠٩٣م)

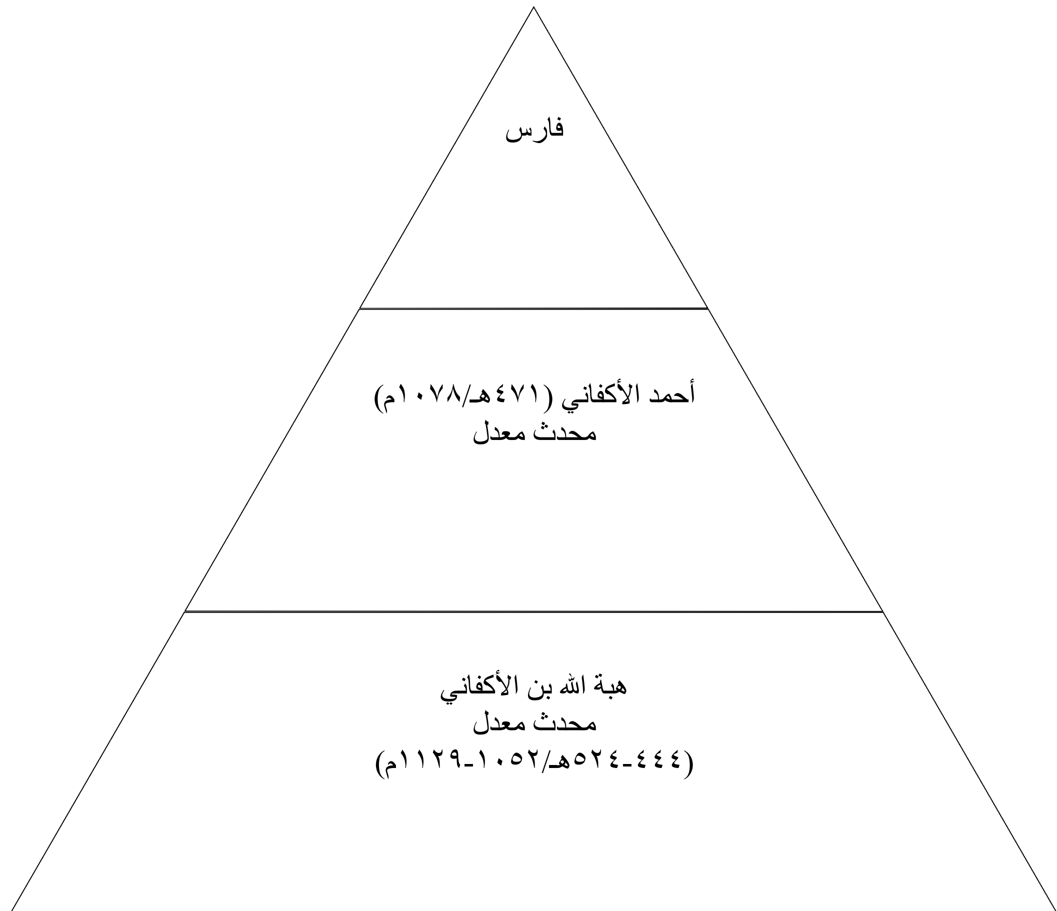
عبد الوهاب شرف الإسلام ابن عبد الواحد بن الفرج بن محمد بن علي الشيرازي مدرس مفتي واقف واعظ ناظر (٥٣٦هـ/١١٤١م)

- محمد (٥٨٦هـ/١١٩٠م) فقيه
- عبد الرحمن
- نجم الدين (٤٩٨-٥٨٦هـ/١١٠٤-١١٩٠م)
- عبد الهادي (٥٨٦هـ/١١٩٠م) (عز الدين) مدرس واعظ واقف
- عبد الكافي (٥٨٠هـ/١١٨٤م) مدرس واعظ
- عبد الملك (٥٤٥هـ/١١٥٠م) (بهاء الدين) مدرس قاضي مفتي ناظر
- عبد الحق شمس الدين

GILBERT : OP,CIT 176

خامساً :

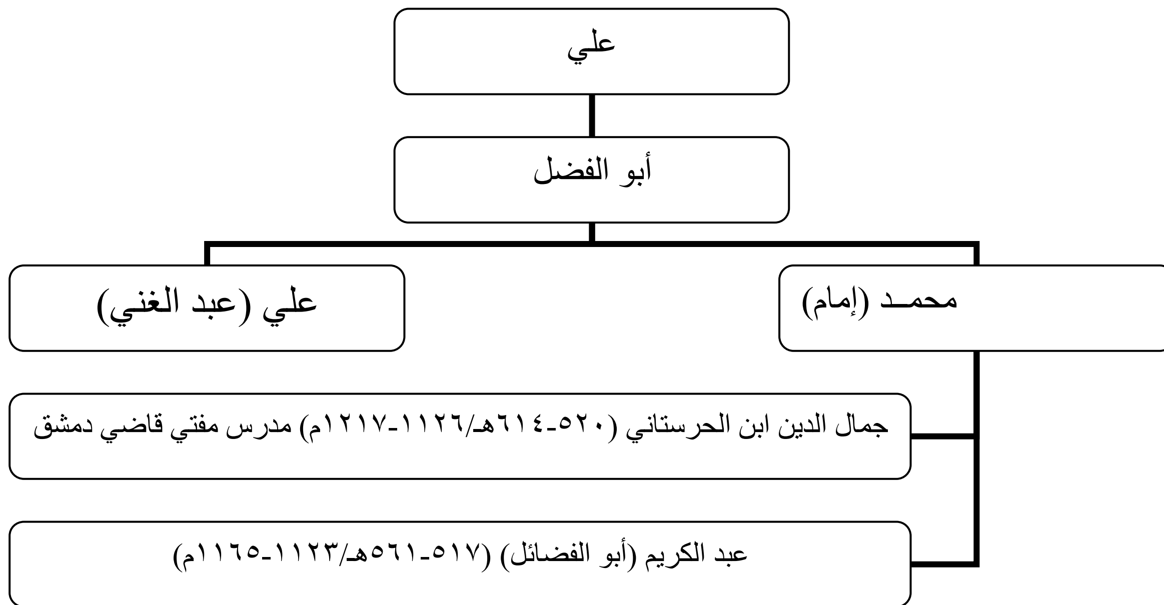
بنـــو الأكفـــانـــي



GILBERT : OP,CIT 181

سادساً :

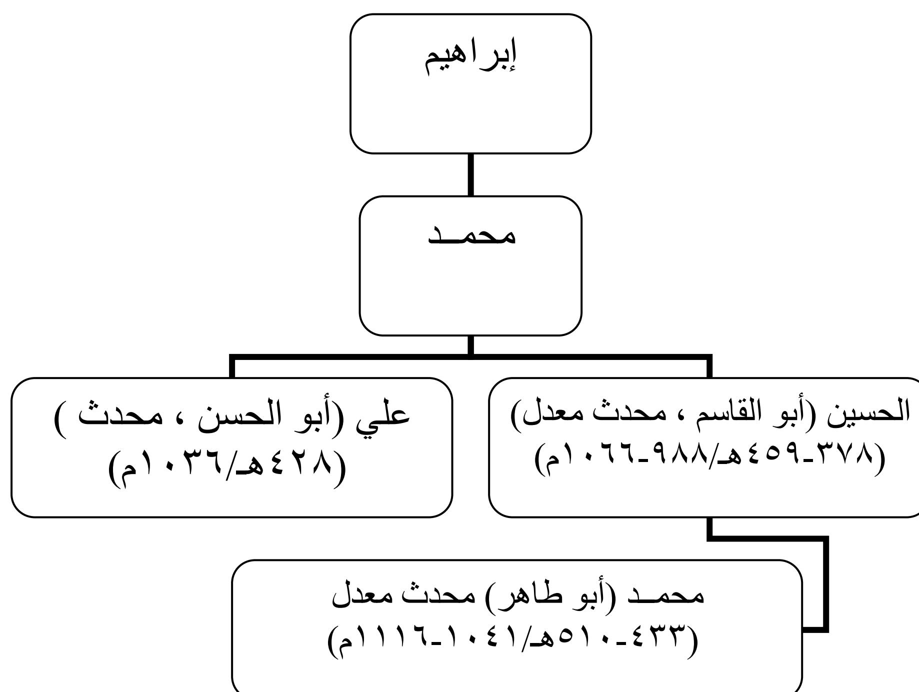
بـــــنـــو الحـــرستـــانــــي



GILBERT : OP,CIT 170

سابعاً :

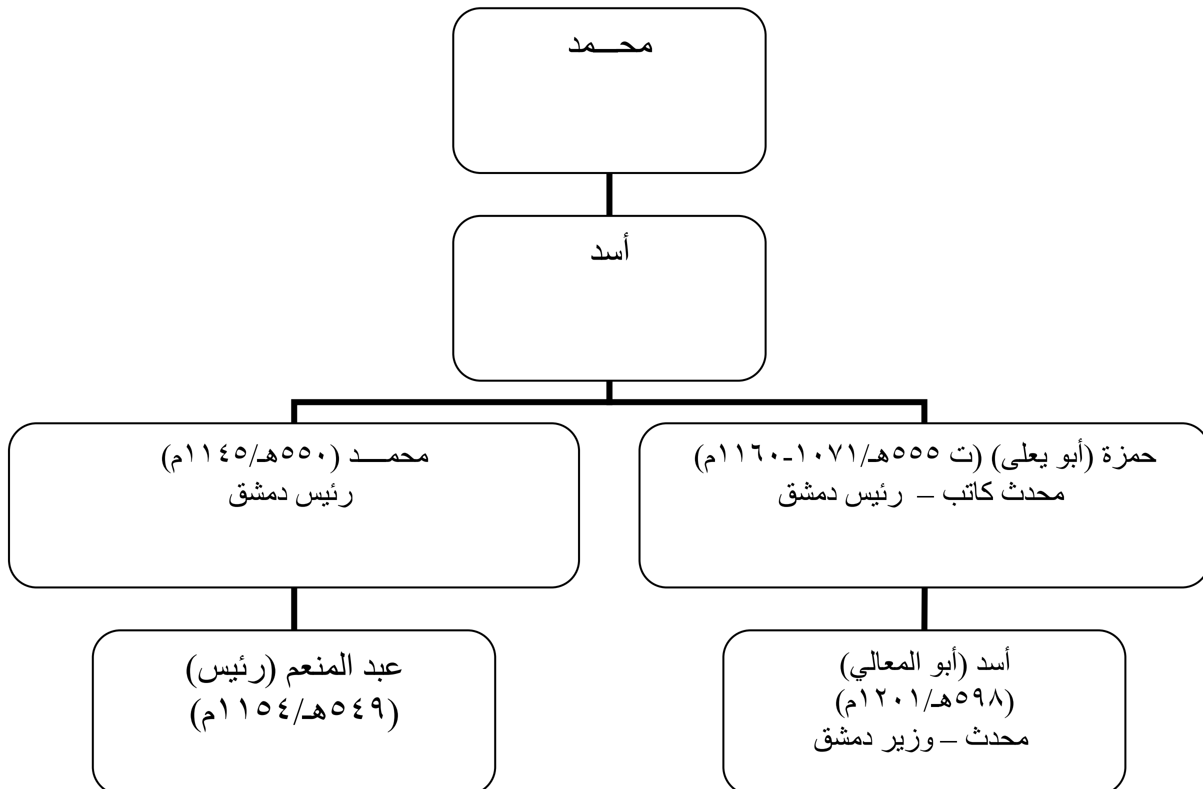
بـــنـــو الحنـــائـــي



GILBERT : OP,CIT 182

ثامناً :

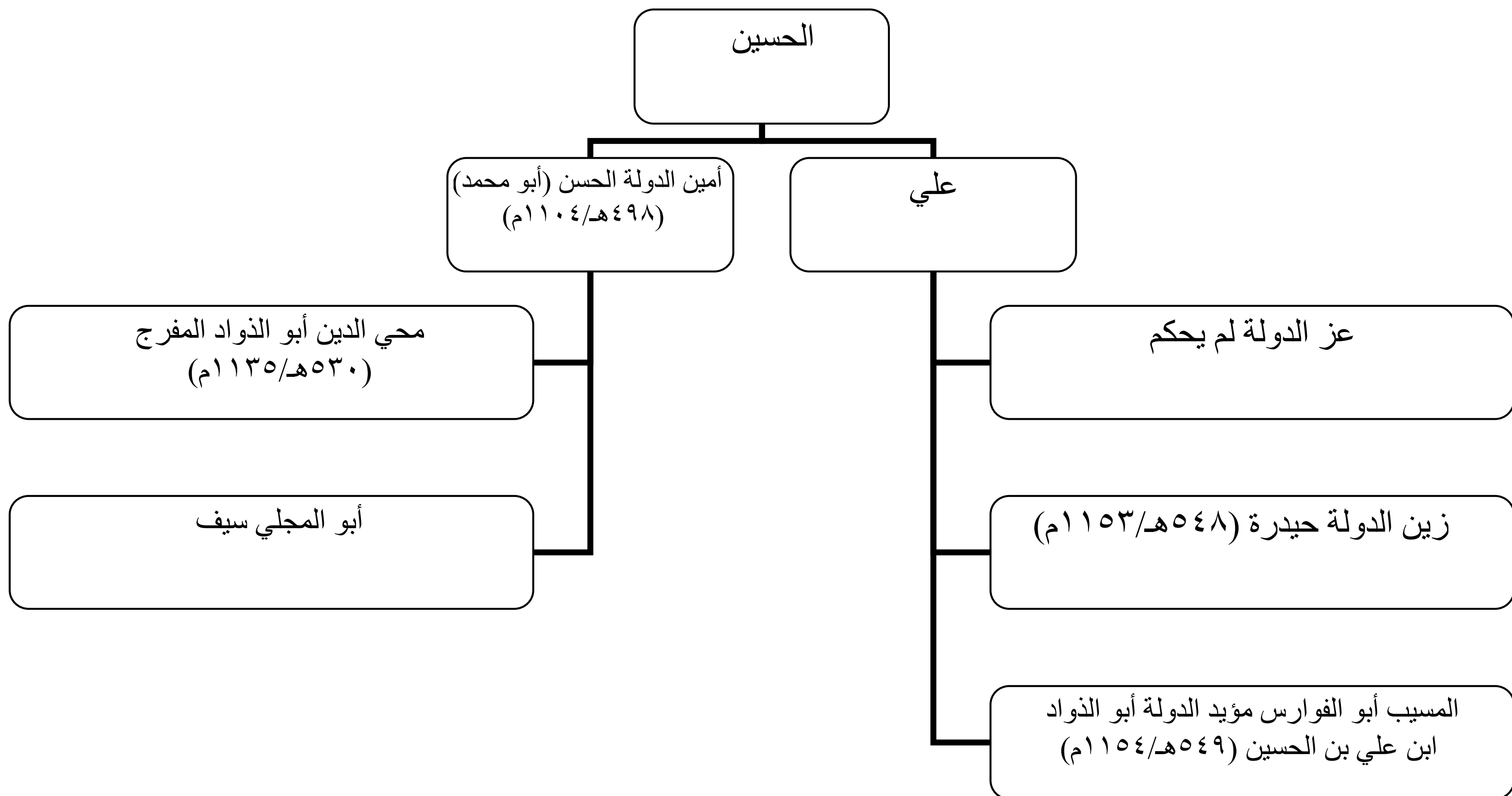
عـــائلـــة القلانسي



GILBERT : OP,CIT P. 208

تاسعاً :

عـــائلـــة بنــــي الصــوفـــي



نقلا عن
أشتور : التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى
ترجمة : عبد الهادي عبلة
مطبعة : خالد بن الوليد – دمشق ١٩٨٥م ص٢٩٣

حلب
الرحبة
اللاذقية
جبلة
حماه
رفنية
حمص
عرقة
بعلبك
نهر بردى
دمشق
بيروت
بانياس
الجولان
صيدا
صور
الاقحوانه
بصرى
صرخد
حوران
عكا
طبرية
يافا
القدس
البحر الميت
عسقلان

بلاد الشام في فترة الحكم البوري

فهرس المصادر والمراجع

أولاً : المصـــادر المخطوطـــة

- القرآن الكريم

١- **ابن أبي الدم :** أبو اسحق إبراهيم بن عبد الله بن علي (من أحياء القرن السابع الهجري)
- مخطوطة الشماريخ في التواريخ جامعة أكسفورد

٢- **ابن الأكفاني :** أبو عبد الله شمس الدين محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري ت ٧٩٤ هـ
- إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد رقم ١١٥ ميكروفيلم مكتبة الأسد ٢٤٦٣

٣- **ابن خطيب الناصرية :** أبو الحسن علي علاء الدين (ت٨٤٣هـ/١٤٣٩م)
- الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب مخطوط مكتبة الأسد ١٤٥٠١

٤- **ابن الرقام :** أبو القاسم ابن أبي عثمان
- نور اليقين وإشارة أهل التمكين رقم ١٤٤٩ مكتبة الأسد ميكروفيلم م ش م / ٤٣٧٨

٥- **ابن الشحنة :**
- نزهة النواظر في روض المناظر ميكروفيلم رقم١ مديرية الوثائق التاريخية دمشق

٦- **ابن طولون :** شمس الدين محمد بن علي (ت٩٣٥هـ/١٥٢٨م)
- ذخائر القصر بتراجم نبلاء العصر مخطوط الجامعة العربية بخط المؤلف ميكروفيلم رقم٥ مديرية الوثائق التاريخية بدمشق

٧- **ابن العجمي :**
- الطبقات الصغرى للشافعية للسبكي مخطوط ١٣٥٥٤ مكتبة الأسد

٨- **الحافظ ابن عساكر :** أبو القاسم علي بن الحسن (ت٥٧١هـ/١١٧٥م)
- مخطوطة تاريخ مدينة دمشق نسخة مصورة عن نسخة المكتبة الظاهرية ، ترتيب الطرهوني

٩- **ابن قاضي شهبة :** بدر الدين (ت٨٥١هـ/١٤٤٧م)
- طبقات النحاة واللغويين مكتبة الأسد ٧٨٤٠ ميكروفيلم ٣٤٦٨

١٠- **ابن أيبك الصفدي :** صلاح الدين خليل (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)
- شرح لامية العجم رقم مخطوط ٧٨٢٠ مكتبة الأسد

١١- الأيوبي : شرف الدين موسى بن جمال الدين يوسف بن أيوب الأنصاري الشافعي

- التذكرة الأيوبية رقم ٧٨١٤ مكتبة الأسد

١٢- البخشي الحلبي : (محمد) (ت١٠٩٨هـ/١٦٨٦م)

- رشحات المداد فيما يتعلق بالصافنات الجياد ١٣٦٠٢ مخطوط مكتبة الأسد ٨٢ ورقة

١٣- الجوبري : عبد الرحمن (ت٦٦٣هـ/١٢٦٤م)

- المختار في كشف الأسرار رقم ٩٤٩٥ مخطوط مكتبة الأسد

١٤- الجيلي : علي بن يوسف الشطنوفي

- بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب الجيلاني رقم المخطوط ٩٥٢٨ ميكروفيلم ٣٤٨٩

١٥- الحنائي :

- طبقات الحنفية رقم ٨٩٥٠ مكتبة الأسد

١٦- سبط ابن الجوزي : أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قره أوغلو (ت٦٥٤هـ / ١٢٥٦ م)

- مرآة الزمان مخطوط مجمع اللغة العربية بدمشق ب ١٩٤٤

١٧- السخاوي : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت٨٣١هـ/١٤٢٧م)

- طبقات الأولياء في التصوف مخطوط ١٦٦٢٧ مكتبة الأسد

١٨- الغزي : أحمد أبو البركات شهاب الدين

- بهجة الناظرين إلى تراجم المتأخرين من الشافعية مخطوط ٣٤٢٠ ميكروفيلم م ش / م / ٧٧٩٣ ، ٣ فيش مكتبة الأسد

١٩- القاري : علي بن سلطان محمد

- مجموع في التصوف ، ترجمة الشيخ رسلان عليه رحمة الله المنان رقم المخطوط ١٣٤٦ ميكروفيلم م ش / م / ٤٢٦٦

٢٠- مؤلف مجهول :

- كتاب في الطبقات الحنفية رقم مخطوط ١٤٥٣٩ مكتبة الأسد

٢١- مؤلف مجهول :

- طبقات الحنفية رقم ٧١٤٩ مكتبة الأسد
- مجموع فيه ١٥ رسالة ترجمة الشيخ رسلان ٤١٣٤ ميكروفيلم ٣٠٦٥

٢٢- مؤلف مجهول :

- طبقات الفقهاء ومقتطفات من تواريخ ابن خلكان رقم ١٤٠١٥ مكتبة الأسد

٢٣- مؤلف مجهول :

- قطعة من طبقات ابن الصلاح رقم المخطوط ١٥٧ مصغر فيلمي ٢٥٠٠ (طبقات الشافعية)

٢٤- مؤلف مجهول :

- مخطوط طبقات الأطباء رقم ٦١٧٦ مكتبة الأسد

٢٥- المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)

- مخطوط درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة رقم ٦ مديرية الوثائق التاريخية بدمشق، صادرة عن جامعة لايبزغ في ألمانيا الديمقراطية ١٩٠ صورة

٢٦- المناوي : (عبد الرؤوف)

- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية مخطوط رقم ١٧٩

٢٧- مؤلف مجهول :

- نبذة في التاريخ تدعى دواعي الأمان في معرفة أعيان الزمان ١٢٧٧٧ مكتبة الأسد

٢٨- الإمام الفقيه النووي : محيي الدين أبو بكر يحيى بن زكريا

- طبقات الفقهاء الشافعية مخطوط مكتبة الأسد رقم ١٢٢٨٤

ثانيًا : المصـــادر العربيـــة المطبوعة

١- **ابن أبي أصيبعة :** (أبو العباس موفق الدين ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م)
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا دار مكتبة الحياة بيروت (د . ت)

٢- **ابن الأثير :** المؤرخ أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)
- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل – عبد القادر أحمد طليمات – القاهرة ١٤٠٢هـ/١٩٨٥م
- الكامل في التاريخ طبع دار صادر بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

٣- **الحافظ ابن الأثير :** مجد الدين أبو السعادات المبارك الجزري (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م)
- النهاية في غريب الحديث والأثر ، دار إحياء التراث ١٩٦٣م
- جامع الأصول في أحاديث الرسول ، ط٢ دار الفكر ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م
- جامع الأصول في أحاديث الرسول ، تحقيق عبد القادر أرناؤوط ١١ مجلد ط٣ دار الفكر بيروت ١٩٨٧م

٤- **ابن الأجدابي :** الفلكي أبو إسحاق إبراهيم بن اسماعيل (ت٦٥٠هـ/١٢٥٢م)
- الأزمنة والأنواء ، تحقيق عزة حسن دمشق ١٩٦٤م

٥- **ابن الحوراني :** عثمان بن أحمد السويدي الدمشقي
- الإشارات إلى أماكن الزيارات المسمى زيارات الشام ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي مكتبة الغزالي دمشق ط١ ١٤٠١ هـ/١٩٨١م

٦- **ابن الأخوة :** القرشي محمد بن محمد (ت٧٢٩هـ/١٣٢٨م)
- معالم القربة في أحكام الحسبة ، تصحيح روبن لوي – مطبعة دار الفنون بكمبرج ١٩٣٧م

٧- **ابن بشكوال :** أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت٥٧٨هـ/١١٨٢م)
- كتاب الصلة – مطابع سجل العرب – الناصرية قسم الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م

٨- **ابن بطوطة :** أبو عبد الله محمد (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)
- رحلة ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، دار التراث بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م

٩- **ابن تغري بردي :** أبو المحاسن جمال الدين بن يوسف (ت٧٨٤هـ/١٣٨٢م)
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نسخة مصورة عن مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٦٣م وزارة الثقافة والإرشاد القومي مصر
١٠- **ابن جبير :** محمد بن أحمد الأندلسي (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)
- رحلة ابن جبير دار الكتاب اللبناني
١١- **ابن الجزري :** شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد الجزري (ت٨٣٣هـ/١٤٢٩م)
- غاية النهاية في طبقات القراء – مكتبة السعادة مصر
- تقريب النشر في القراءات العشر تحقيق إبراهيم عطوة عوض دار الحديث القاهرة ط٢ ١٤١٢هـ/١٩٩٢م
١٢- **ابن جلجل :** أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي (ت٣٧٧هـ/٩٨٧م)
- طبقات الأطباء والحكماء – تحقيق فؤاد سيد – مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٥٥م
١٣- **ابن جماعة الكتاني :** أبو إسحاق إبراهيم (ت٧٣٣هـ/١٣٢٢م)
- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم نشر محمد هاشم النوري ، جمعية دائرة المعارف العثمانية طبع ١٣٥٣
١٤- **ابن الجوزي :** أبو الفرج الحافظ جمال الدين عبد الرحمن بن علي القرشي (ت٥٩٧-٥٩٨هـ/١٢٠٠-١٢٠١م)
- الأذكياء تحقيق أسامة عبد الكريم الرفاعي دمشق ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م
- أخبار الحمقى والمغفلين – مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت ط١ ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م
- أخبار الظراف والمتماجنين ، نسخة الخزانة التيمورية القيمة مكتبة القدسي القاهرة ط٢ ٢٢ نوفمبر ١٩٨٣م
- تلبيس إبليس إدارة المطبعة المحمدية نشر للمرة الثانية ١٣٦٨هـ
- ذم الهوى – تحقيق مصطفى عبد الواحد – مطبعة السعادة ط١ ١٩٦٢م
- صيد الخاطر – نشر الخانجي ط١ مصر ١٩٢٧م
- اللطائف والطب الروحاني – تحقيق عبد القادر عطا – مكتبة القاهرة
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم – مطبعة دائرة المعارف العثمانية ط١ ١٣٥٨-١٣٥٩هـ

١٥ - **ابن حجر العسقلاني** : (أحمد بن علي بن حجر ٧٧٣-٨٥٢هـ)
- فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، ١٣مجلد ، قرأ أصله تصحيحاًعبد العزيز بن عبد الله بن باز، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي ، أخرجه محب الدين الخطيب دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان .
- تهذيب التهذيب ، مطبعة مجلس دائرة دائرة المعارف النظامية الهند حيدر آبادالدكن ط١دارصادر بيروت .
١٦- **ابن حزم :**
- الفصل في الملل والأهواء والنحل
١٧- **ابن حوقل :** أبو القاسم محمد (ت٣٨٠هـ/٩٩٠م)
- صورة الأرض – طبع مدينة ليدن مطبعة بريل ط٢ ١٩٣٨م
١٨- **ابن خرداذبة :** أبو القاسم عبد الله (ت حوالي ٣٠٠هـ/٩١٢م)
- المسالك والممالك ، نبذ من كتاب الخراج ١٣٠٦هـ/١٨٨٩م
١٩- **ابن خلدون :** عبد الرحمن (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م)
- مقدمة ابن خلدون – تحقيق حجر عاصي بيروت ١٩٨٦م
٢٠- **ابن خلكان :** أبو العباس شمس الدين أحمد (ت٦٨١هـ/١٢٠٢م)
- وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان – تحقيق إحسان عباس – دار صادر
بيروت
٢١- **ابن الخياط الدمشقي :** أبو عبد الله محمد الشاعر (ت٥١٧هـ/١١٢٢م)
- ديوان ابن الخياط – تحقيق خليل مردم بك – المطبعة الهاشمية بدمشق
٢٢- **ابن الدبيثي :**
- المختصر في تاريخ بغداد
٢٣- **ابن رجب الحنبلي :** أبو الفرج عبد الرحمن (ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م)
- كتاب الذيل على طبقات الحنابلة – تحقيق ونشر هنري لاووست سامي الدهان دمشق ١٣٧٠هـ/١٩٥١م
- فضل علم السلف على الخلف
٢٤- **ابن سحنون :** (محمد)
- آداب المعلمين طبعة جديدة تعليق محمد العروسي المطوي تونس ١٤١٢هـ/١٩٧٢م
٢٥- **ابن سنان :** إبراهيم بن ثابت بن قره (ت٣٣٥هـ/٩٤٦م)
- رسائل ابن سنان – مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد الدكن ط١ ١٣٦٦-١٣٦٧هـ/١٩٤٧-١٩٤٨م

٢٦ - **ابن شداد :** أبو عبد الله عز الدين (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م)
- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة تاريخ لبنان وفلسطين والأردن ، تحقيق سامي الدهان قسم٢ ج١ مدينة دمشق ١٣٥٧ هـ/١٩٥٦م
٢٧- **ابن شطي :** محمد جميل بن عمر البغدادي
- مختصر طبقات الحنابلة – دراسة فواز أحمد زمرلي ط١ دار الكتاب العربي ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م
٢٨- **ابن صاعد الأندلسي :** القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد صاعد التغلبي ٤٦٢هـ/١٠٦٩-١٠٧٠م
- كتاب طبقات الأمم – نشره وذيله لويس شيخو اليسوعي - المطبعة الكاثوليكية للأدباء اليسوعيين بيروت ١٩١١م
٢٩- **ابن الصلاح :** عثمان بن عبد الرحمن (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م)
- مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث منشورات دار الحكمة دمشق ١٩٧٢م
- مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م
- طبقات الشافعية ، تحقيق محيي الدين علي نجيب دار البشائر الإسلامية بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٢م
٣٠- **ابن الطفيل :** أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل (ت٥٨١هـ/١١٨٥م)
- ابن الطفيل ورسالته (حي بن يقظان) تحقيق عبد الحليم محمود شيخ الأزهر دار الكتاب اللبناني بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م
٣١- **ابن طولون :** شمس الدين محمد بن علي (ت٩٣٥هـ/١٥٢٨م)
- غاية البيان في ترجمة الشيخ أرسلان الدمشقي نشرها أحمد إيبش راجعها الأستاذ هاني المبارك ، شارك فيها محمد عامر القباني ط١ دمشق ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م
- قضاة دمشق (الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام) تحقيق صلاح الدين المنجد ١٩٥٦م
- القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية تحقيق محمد أحمد دهمان مطبوع ١٩٤٩م
٣٢- **ابن عبد البرّ النمّري القرطبي :** (ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م)
- جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله ، جزءان إدارة المطبعة المنيرية بمصر

٣٣- **ابن العبري :** أبو الفرج غريغوريوس الملطي (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م)
- تاريخ مختصر الدول تصحيح أنطوان اليسوعي دار الرائد اللبناني طبع ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م
٣٤- **ابن عجيبة :** العارف بالله أحمد بن محمد الحسني
- إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عطاء السكندري ، مع الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية لابن البنا السر قسطي طبع دار الفكر
٣٥- **ابن العديم :**أبو القاسم الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م)
- بغية الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق د سهيل زكاردمشق١٤٠٩هـ/١٩٨٨م
- زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق د٠ سامي الدهان دمشق ١٩٥٤م
٣٦- **ابن عساكر :** أبو القاسم علي بن الحسن (ت٥٧١هـ/١١٧٥م)
ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري دار الفكر بيروت ١٩٩٥م ٧٠ جزء
- تاريخ مدينة دمشق – خطط دمشق – تحقيق صلاح الدين المنجد قسم ١ مجلد ٢ دمشق ١٩٥٤م
- تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) تحقيق سكينة الشهابي دمشق ١٩٨١م
- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ط٣ دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م
- كتاب الأربعين البلدانية عن أربعين في أربعين ، تحقيق محمد مطيع الحافظ ، دار الفكر المعاصر ط١ ١٤١٢هـ/١٩٩٢م
- مجلسان من مجالس الحافظ ابن عساكر في مسجد دمشق ، تحقيق مطيع الحافظ ط١ دار الفكر ١٩٧٩م – في ذم من لا يعمل بعلمه - في ذم قرناء السوء
٣٧- **ابن عطاء الله السكندري :** تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم المالكي الشاذلي (ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م)
- لطائف المنن ، تعليق الشيخ خالد عبد الرحمن العك ، دار البشائر للطباعة والنشر ط١ ١٤١٢هـ/١٩٩٢م
٣٨- **ابن العماد الحنبلي :** أبو الفلاح عبد الحي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)
- شذرات الذهب من أخبار من ذهب ، دار الفكر للطباعة طبعة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

٣٩- **ابن الغزي :**
- ديوان الإسلام
٤٠- **ابن فضل الله العمري :** شهاب الدين أحمد (ت٧٤٢هـ/١٣٤١م)
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق فؤاد سيد
د٠ ت – د٠م
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق أحمد زكي
مطبعة دار الكتب المصرية
٤١- **ابن الفوطي :** كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق (ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م)
- تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ، تحقيق مصطفى جواد
مطبعة الهاشمية بدمشق
٤٢- **ابن قاضي شهبة :** بدر الدين (ت٨٥١هـ/١٤٤٧م)
- الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق محمود زايد ط١
بيروت ١٩٧١م
- طبقات الشافعية بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م
٤٣- **ابن القفطي :** مجد الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت٦٤٦هـ/١٢٩٨م)
- تاريخ الحكماء من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مكتبة
المثنى بغداد
- المحمدون من الشعراء
- إنباه الرواة دار الفكر العربي القاهرة ١٩٨٦ م
٤٤- **ابن القلانسي :** أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي (ت٥٥٥هـ/١١٦٠م)
- ذيل تاريخ دمشق تحقيق د٠ سهيل زكار ط١ دمشق دار حسان
للطباعة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م
٤٥- **ابن الملقن :** أبو حفص عمر بن علي المقري ، سراج الدين
- طبقات الأولياء ، تحقيق نور الدين شريبة دار المعرفة بيروت ط٢
١٤٠٦هـ/١٩٨٦م
٤٦- **ابن قيّم الجوزية :** (الحافظ) شمس الدين (أبو عبد الله محمد ٧٥١هـ/١٣٥٠م)
- تحفة المورود بأحكام المولود – دار البشائر الإسلامية
١٤٠٩هـ/١٩٨٩م
- مفتاح السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة دار الكتب العلمية
بيروت
٤٧- **ابن كثير :** أبو الفداء عماد الدين بن اسماعيل (ت٧٧٢هـ/١٣٧٢م)
- الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث ، دار الفكر بيروت
- البداية والنهاية ، تحقيق أبو ملحم – علي نجيب عطوي – فؤاد السيد –
مهدي ناصر الدين – علي عبد الستار ط٣ دار الكتب العلمية بيروت
١٤٠٧هـ/١٩٨٧م

٤٨- **ابن منظور :** جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (ت٧١١هـ/١٣١١م)
- لسان العرب مطبعة الأميرية في بولاق مصر المعزّية ١٣٠١هـ
- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، تحقيق مأمون صاغرجي ط١ دار الفكر ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م
- مختصر مدينة دمشق لابن عساكر تحقيق مطيع الحافظ ، نزار أباظه ط١ دار الفكر بدمشق ١٤٠٦هـ/١٩٨٤م
- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، اختصرته وحققته سكينة الشهابي دار الفكر بدمشق ط١ ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م جزء ١٥

٤٩- **ابن ميسر :** محمد بن علي (ت٦٧٦-٦٧٧هـ/١٢٧٧-١٢٧٨م)
- من أخبار مصر ، تصحيح هنري ماسيه طبعة المعهد الفرنسي ١٩١٩ م

٥٠- **ابن منير :** أحمد بن منير بن أحمد الاطرابلسي (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م)
- ديوان ابن منير تحقيق د. عبد السلام التدمري دار الجيل طرابلس ط١ بيروت ١٩٨٦م

٥١- **ابن النديم :** محمد بن إسحاق (ت٣٨٥هـ/٨٩٨م)
- الفهرست مطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٨هـ

٥٢- **ابن النجار :** (الحافظ) محب الدين محمد بن محمود (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م)
- المستفاد من ذيل بغداد – تحقيق محمد مولود خلف – بشار عواد معروف ط١ بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

٥٣- **ابن واصل :** الحموي المؤرخ جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ/١٢٩٩م)
- مفرج الكروب من أخبار بني أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال القاهرة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣م

٥٤- **ابن الوردي :** سراج الدين عمر بن مظفر (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)
- تاريخ ابن الوردي ، تحقيق أحمد رفعت البنداري ط١ ١٣٨٩ هـ/١٩٧٠م
- خريدة العجائب وفريدة الغرائب القاهرة ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م

٥٥- **أبو شامة :** شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م)
- تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية دار الجيل بيروت

٥٦- **أبو الفدا :** عماد الدين إسماعيل بن محمد (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)
- تقويم البلدان طبع مدينة باريس دار الطباعة السلطانية ١٨٤٠م
- المختصر في أخبار البشر طبع دار الكتب اللبناني

٥٧- **أبو الوفا :** محمد البوزجاني
- ما يحتاج إليه الصانع من علم الهندسة ، تحقيق صالح أحمد علي مركز إحياء التراث العربي جامعة بغداد ١٩٧٩ م

٥٨- **ابن هداية الله الحسني :** أبو بكر هداية الله (ت١٠١٤هـ/١٦٠٥م)
- طبقات الشافعية ، تحقيق عادل نويهض ط٢ بيروت ١٩٧٦م
٥٩- **الأبشهي :**
- المستطرف
٦٠- **إخوان الصفا وخلان الوفا :** من أواسط القرن الرابع الهجري
- رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا – مكتب الإعلام الإسلامي
٦١- **الإدريسي :** أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت٥٦٠هـ/١١٦٤م)
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ١٩٧٤
٦٢- **الأدفوي :**
- الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد – تحقيق سعد محمد حسن ١٩٦٦م
٦٣- **أسامة بن مرشد بن منقذ :** الأمير الشيزري أبو المظفر مؤيد الدولة بن علي الكناني (ت٥٨٤هـ/١١٨٨م)
- كتاب الاعتبار حرره فيليب حتي ط١ ١٩٨١م
- ديوان أسامة بن منقذ ، تحقيق أحمد أحمد البدوي ، حامد عبد المجيد ط٢ بيروت ١٩٨٣م
- كتاب العصا تحقيق عبد السلام هارون ط١ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٠هـ/١٩٥١م
٦٤- **الإسنوي :** جمال الدين عبد الرحيم (ت٧٧٢هـ/١٣٧٠م)
- طبقات الشافعية تحقيق عبد الله الجبوري ١٣٩٠-١٣٩١هـ/١٩٧٠-١٩٧١م
٦٥- **الأسير :** يوسف
- شرح رائض الفرائض بيروت ١٢٩٠
٦٦- **الأصبهاني :** (علي بن الحسين بن محمد القرشي ٢٨٤ - ٣٥٦هـ)
- الأغاني إشراف وتحقيق إبراهيم الأبياري مطبعة دار الشعب بمصر
- من محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء - طبع مطبعة القاهرة الشرقية بمصر ١٣٢٦هـ
٦٧- **الاصطخري :** أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م)
- المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسني ، الجمهورية العربية المتحدة ١٩٦١م

٦٨- **الأصفهاني :** محمد بن محمد العماد الكاتب (ت٥٩٧-٥٩٨هـ/١٢٠٠-١٢٠١م)
- خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم ١ شعراء الشام ، تحقيق شكري فيصل المكتبة الهاشمية بدمشق ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م
- الفتح القسي في الفتح القدسي تحقيق محمد محمود صبح القاهرة ١٩٦٥م
٦٩- **البدري :** أبو البقاء عبد الله (ت القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي)
- نزهة الأنام في محاسن الشام ط١ دار الرائد العربي بيروت ١٩٨٠م
٧٠- **البغدادي الحافظ :** الخطيب (ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م)
- تقييد العلم – تحقيق يوسف العش ط٢ ١٩٧٤
- الرحلة في طلب الحديث ، تحقيق د. نور الدين العتر
٧١- **البغدادي :** موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف (كان حيا سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م)
- كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والمعاينة بأرض مصر ط١ مطبعة وادي النيل ١٢٨٦هـ
٧٢- **البغدادي :** صفي الدين عبد المؤمن (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م)
- مراصد الإطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق محمد علي البجاوي ط١ بيروت ١٩٥٤
٧٣- **البلوى :**
- تاج المفرق في تحلية علماء المشرق
٧٤- **البندراوي :** الفتح بن علي (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م)
- تاريخ دولة آل سلجوق ج١ ط١ بيروت ١٩٧٨م
- تاريخ دولة آل سلجوق ج٢ ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م
٧٥- **بنيامين التطيلي :** ابن يونه النباري الأندلسي (ت٥٦٩هـ/١١٧٣م)
- رحلة بنيامين ، ترجمة عزرا حداد ط١ مطبعة الشرقية ١٩٤٥
٧٦- **البيروني :** أبو الريحان محمد بن أحمد (ت٤٣٠هـ/١٠٣٨م)
- كتاب القانون المسعودي ط١ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد الدكن الهند ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م
- الجماهر في معرفة الجواهر ، عالم الكتب بيروت
٧٧- **البيهقي :** علي ظهير الدين (ت٥٦٥هـ/١١٦٩م)
- تاريخ حكماء الإسلام ، تحقيق محمد محمود علي ط٢ مطبعة المفيد الجديدة بدمشق ١٣٦٦هـ/١٩٧٦م
٧٨- **التادفي :** (الشيخ) محمد بن يحيى الحنبلي (ت٩٦٣هـ/١٥٥٥م)
- قلائد الجواهر ، طبع مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
٧٩- **التهانوي :** محمد علي الفاروقي
- كشاف اصطلاحات الفنون ، تحقيق د. لطفي عبد البديع ، ترجمة النصوص الفارسية عبد النعيم محمد حسنين مراجعة الأستاذ أمين الخولي

٨٠- **الجيلي :** (الإمام) أبو نصر منصور بن عراق
- رسالة في الأبعاد والأجرام للإمام أبي الحسن كوشيار بن لبان الجيلي
٨١- **الجواليقي :**
- تكملة ما تغلط به العامة ، تحقيق التنوخي مطبعة ابن زيدون
٨٢- **الحريري :** أحمد بن علي (ت٩٢٦هـ/١٥١٩م)
- الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين ، تحقيق د. سهيل زكار دار الملاح ١٤٠١هـ/١٩٨١م
٨٣- **الحسيني :** صدر الدين ابن علي (ت٥٧٥هـ/١١٨٠م)
- كتاب أخبار الدولة السلجوقية ، تصحيح محمد إقبال ط١ بيروت ١٩٨٤
٨٤- **الحميري :** أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم (ت٩٠٠هـ/١٤٩٤م)
- الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ط٢ ١٩٨٠
٨٥- **الخفاجي :** شهاب الدين أحمد (ت١٠٦٩هـ/١٦٥٨م)
- شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل ، تعليق محمد عبد المنعم خفاجي ط١ المطبعة الخيرية بالأزهر مصر ١٩٥٢
٨٦- **الخوارزمي :** أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت٣٧٨هـ/٩٩٧م)
- مفاتيح العلوم مطبعة الشرق مصر ١٢٤٢
- مفاتيح العلوم تحقيق إبراهيم الأبياري ط١ ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م
- كتاب الجبر والمقابلة تعليق علي مصطفى ، مرسي أحمد مطبعة فتح الله الياس نوري مصر ١٩٣٩
٨٧- **الخولاني :** (الشيخ) عبد الجبار (ت٤٦٠هـ/١٠٦٧م)
- تاريخ داريا ، تحقيق سعيد الأفغاني ط٢ دمشق ١٩٧٥م
٨٨- **الخيام عمر :** أبو الفتح عمر بن إبراهيم (ت٥٢٦هـ/١١٣١م)
- رسائل الخيام الجبرية ، تحقيق رشدي راشد ، أحمد جبار جامعة حلب معهد التراث العلمي العربي ١٩٨١م
٨٩- **الداودي :** (الحافظ شمس الدين) محمد بن علي بن أحمد (ت٩٤٥هـ/١٥٣٨م)
- طبقات المفسرين تحقيق علي محمد عمر ط١ مطبعة الاستقلال ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢م
٩٠- **الدواداري :** أبو بكر عبد الله بن أيبك (ت٧٣٦هـ/١٣٣٥م)
- الدرّة المضيّة في أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٣٨٠هـ/١٩٦١م
- **الدينوري :** (ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم)الشعر والشعراء حققه د.مفيد قميحة ، ضبط النص نعيم زرزو دار الكتب العلمية بيروت ط ٢ ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م

٩١- **الذهبي :** (الحافظ شمس الدين) محمد بن أحمد (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)
- تذكرة الحفاظ
- ذيل تذكرة الحفاظ
- دول الإسلام بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م
- سير أعلام النبلاء تحقيق شعيب أرناؤوط ط١ بيروت ١٩٨٤
- طبقات الحفاظ
- العبر في خبر من غبر ، تحقيق فؤاد سيد ط٢ مصورة مطبعة حكومة الكويت ١٩٨٤م
- المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ ابن الدبيثي ، تحقيق مصطفى جواد مطبعة المعارف بغداد ١٩٥١م
- معرفة القراء الكبار على الطبقات ، تحقيق عواد معروف ، شعيب الأرناؤوط صالح مهدي عباس ، ط١ بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م
٩٢- **الزرنوجي :** برهان الدين إبراهيم بن إسماعيل (ت٥٩٣هـ/١١٩٦م)
- تعليم المتعلم طريقة التعلم ط ١٩٣١
٩٣- **زرّوق : الشيخ الشهير زرّوق أبو العباس :** أحمد بن محمد القرن الثامن – التاسع الهجريين
- قواعد التصوف ، صححه محمد زهري النجار مطبعة النهضة الجديدة القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م
٩٤- **السبكي :** العلامة تاج الدين الفقيه أبو النصر عبد الوهاب (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م)
- طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمد محمود العتاهي ط١ ١٩٦٧م
- معيد النعم ومبيد النقم ، ط١ مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ١٩٦٨ م
٩٥- **السخاوي :** (الحافظ شمس الدين) محمد بن عبد الرحمن (ت٨٣١هـ/١٤٢٧م)
- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، طبعة مصورة بيروت ١٩٧٩
- إرشاد القاصد إلى سنى المقاصد ، نسخة مصورة
٩٦- **السمعاني :** الحافظ أبو سعد عبد الكريم بن أبي بكر المنصور المروزي التميمي (ت٥٦٢هـ/١١٦٦م
- أدب الإملاء والإستملاء ط١ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨١م
٩٧- **السيوطي :** الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ/١٥١٥م)
- إتمام الدراية لقراء النقاية ، ضبطه الشيخ إبراهيم العجوز دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٩٨٥م
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، مطبعة البابي ١٩٦٤
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، مطبعة دار السعادة مصر ط١ ١٣٢٦هـ
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، دار المعرفة بيروت

- تدريب الراوي في شرح تقريب النوواي تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف
- طبقات الحفاظ تحقيق علي محمد عمر ط١ مطبعة الاستقلال الكبرى ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م
- طبقات المفسرين دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٤٠٣هـ/١٩٨١م
- محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر

٩٨- **الشعراني :** العالم الشيخ أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنبا ري (أحياء القرن العاشر الهجري)
- الطبقات الكبرى المسماه بلوا قح الأنوار في طبقات الأخيار ط١ مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٧٣هـ/١٩٥١م

٩٩- **الشهرزوري :** شمس الدين (ت٦٨٧هـ/١٢٨٨م)
- تاريخ الحكماء ، نزهة الأرواح وروضة الأفراح ، تحقيق عبد الكريم أبو شويرب ط١ طرابلس الجماهيرية ١٩٨٨

١٠٠- **الشيزري :** جمال الدين عبد الرحمن بن نصر (ت٥٨٩هـ/١١٩٣م)
- نهاية الرتبة في طلبة الحسبة ، تحقيق السامرائي ، مطبعة المعارف بغداد ١٩٦٨م

١٠١- **شيخ الربوة الدمشقي :** أبو عبد الله شمس الدين محمد الأنصاري (ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م)
- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، بارسبورغ ١٢٨١هـ/١٨٦٥م

١٠٢- **ابن الصلاح الشهرزوري :** الحافظ نقي الدين أبو عمرو عثمان (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م)
- طبقات الفقهاء الشافعية ، هذبه ورتبه أبو بكر زكريا النووي ، بيّض أصوله ونقّحه الإمام أبو الحجاج يوسف ا بن عبد الرحمن المزي ، حققه محيي الدين علي نجيب دار البشائر الإسلامية بيروت ط١ ١٤١٣هـ/١٩٩٢م

١٠٣- **الصفدي :** صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)
- أمراء دمشق في الإسلام ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ط٢ بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م
- نكت الهميان في نكت العميان ، القاهرة دار المدينة ١٩١١
- الوافي بالوفيات ط٢ طبع دار صادر بيروت ١٩٨٢

١٠٤- **طاش كبره زاده :** أحمد بن مصطفى (ت٩٦٨هـ/١٥٦٠م)
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ، ط١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م

١٠٥- **الطوسي :** العالم أبو نصر عبد الله بن علي السراج
- كتاب اللمع في التصوف صححه رنولدالن نيكلسون طبع مطبعة بريل مدينة ليدن ١٩٤١م
١٠٦- **الظاهري :** غرس الدين بن شاهين (ت٨٧٢هـ/١٤٦٧م)
- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تصحيح بولس راويس طبع مطبعة باريس المطبعة الجمهورية ١٨٩٤
١٠٧- **العبدري :** الشيخ الشهير بابن الحاج (ت٧٣٧هـ/١٣٣٦م)
- كتاب المدخل ، المطبعة المصرية بالقاهرة ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م
١٠٨- **عرقلة الكلبي :** الشاعر حسان بن نمير (ت٩٦٧هـ/١١٧١م)
- ديوان عرقلة الكلبي ، تحقيق أحمد الجندي مطبعة دار الحياة دمشق ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م
١٠٩- **العظيم الأبادي :** شمس الحق
- عقود الجمان في جواز تعليم الكتابة للنسوان ، ط١ دمشق ١٣٨١هـ/١٩٦١م
١١٠- **العظيمي الحلبي المؤرخ :** أبو عبد الله محمد (ت٥٥٨هـ/١١٦٢م)
- تاريخ حلب ، تحقيق إبراهيم زعرور دمشق ١٩٨٤
١١١- **العلموي :** عبد الباسط (ت٩٨١هـ/١٥٧٣م)
- مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٧م
١١٢- **الغزالي :** الإمام حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد (ت٥٠٥هـ/١١١١م)
- الأدب في الدين ، المكتبة الثقافية بيروت
- إحياء علوم الدين ، مكتبة الدروبي دمشق درويشية
- أيها الولد
- التبر المسبوك في نصيحة الملوك ، ط١ مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ١٩٦٨
- تهافت الفلاسفة ، سليمان دنيا القاهرة ، طبع دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٧
- إلجام العوام عن علم الكلام ، المطبعة المعينية بمصر المحروسة ١٣٠٩هـ
- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، قدمه رياض مصطفى العبد الله دار الحكمة بيروت دمشق ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م
- القسطاس المستقيم ، تعليق فيكتور طلعت اليسوعي المطبعة الكاثوليكية بيروت
- محك النظر في المنطق ، دار النهضة الحديثة بيروت لبنان ضبط وتصحيح محمد بدر الدين الشعباني ١٩٦٦م

- المستصفى في علم الأصول دار إحياء التراث العربي بيروت
- المستصفى في علم الأصول ، ط١ المطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية ١٣٢٢هـ
- معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر طبع محيي الدين صبري الكردي ط١ ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م
- معيار العلم في فن المنطق ، طبع الرحالة البحّاثة محيي الدين الكردي ط٢ ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م
- المنخول من تعليقات الأصول ، تحقيق محمد حسن هيتو ط٢ دار الفكر ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م
- المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال ، تحقيق جميل صليبا ، كامل عيّاد ط ٥ مطبعة الجامعة السورية ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م
- المنقذ من الضلال وضمّنه الأدب في الدين ، تعليق محمد محمد جابر المكتبة الثقافية بيروت
- مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب طبع ١٩٨٨م
- ميزان الاعتدال
- ميزان العمل ، ضبط سليم سليمان البواب ، منشورات دار الحكمة بيروت ١٩٨٧
- المحبة والشوق والأنس والرضا ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ط١ ١٣٨٠هـ/١٩٦١م
- منهاج العابدين إلى الجنة ، دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م

١١٣- **الفارابي :** العالم أبو نصر محمد بن محمد (ت٣٣٩هـ/٩٥٠م)
- إحصاء العلوم ، وقف على طبعه انجيل غنصليس – بلانسيه مطبعة مائسترين في مدينة مجريط ١٩٥٣
- الموسيقى الكبير ، تحقيق غطاس عبد الملك حسن ، مراجعة محمود أحمد الحفني دار الكاتب العربي للطباعة والنشر في القاهرة

١١٤- **الفارقي :** أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق (ت بعد٥٧٦-٥٧٧هـ/١١٨٠-١١٨١م)
- تاريخ الفارقي ، مراجعة حسن الزين دار الفكر الحديث بيروت طبع ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

١١٥- **الفاسي :** محمد الحسني
- المقنع من أخبار الملوك والخلفاء وولاة مكة الشرفاء ، تحقيق محمد التونجي دار الملاح ط١ ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

١١٦- **القابسي :** من علماء القرن الرابع الهجري / القرن العاشر الميلادي
- التعليم في رأي القابسي ، د. محمود فؤاد الأهواني مطبعة كتب التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م

١١٧- **القرشي :** العالم عبد القادر (أبو الوفاء ت ٧٧٥هـ/١٣٧٣م)
- الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية ، ط١ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد الدكن الهند .

١١٨- **القشيري :** الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن (ت٤٦٥هـ/١٠٧٣م)
- الرسالة القشيرية في علم التصوف د٠ ط – د٠ ت

١١٩- **القزويني :** زكريا بن محمد (ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م)
- آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر بيروت ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م

١٢٠- **قطلوبغا :** أبو العدل زين الدين قاسم (ت٨٧٩هـ/١٤٧٤م)
- تاج التراجم في طبقات الحنفية

١٢١- **القلقشندي :** الكاتب أبو العباس أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية

١٢٢- **القنوجي :** صديق بن حسن (أبو الطيب الحسني البخاري ت ١٣١٧ هـ/١٨١٩م)
- أبجد العلوم في بيان أحوال العلوم ، الوشي المرقوم تحقيق عبد الجبار زكار منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق ١٩٧٨م
- التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول ، تصحيح عبد الكريم شرف الدين ط٢ دار اقرأ بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م

١٢٣- **الكتبي :** صلاح الدين أبو عبد الله محمد بن شاكر (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)
- فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت

١٢٤- **اللكنوي الهندي :** أبو الحسنات محمد عبد الحي ، من أحياء القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي
- الفوائد البهية في تراجم الحنفة ط١ مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٤هـ

١٢٥- **مخلوف :** الإمام محمد بن محمد كان حياً بعد ١١٦٧هـ/١٧٥٣م
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، دار الكتاب العربي بيروت ، المطبعة السلفية طبعة جديدة بالأوفست على الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ

١٢٦- **المسعودي :** المؤرخ أبو الحسن علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م)
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مفيد محمد قميحة دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

١٢٧- **المقدسي الجغرافي :** شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت٢٧٨هـ/٩٩٧م)
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم بيروت

١٢٨- **المقّري :** أحمد بن محمد (ت١٠٤١هـ/١٦٣١م)
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق وضبط محمد محي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة بمصر ١٣٦٣هـ/١٩٤٩م
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت ١٩٨٦

١٢٩- **المقريزي :** تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق محمد حلمي أحمد القاهرة طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م
- المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر ، تحقيق المعهد الفرنسي بالقاهرة مصر ١٩٨١م
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة جديدة بالأوفست دار صادر بيروت
١٣٠- **الموصلي :** ياسين الخطيب العمري (ت١٢٣٢هـ/١٨١٧م)
- الروضة الفيحاء في تاريخ النساء ، تحقيق عماد علي حمزة ط١ الدار العالمية للطباعة والنشر ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م
١٣١- **النابلسي :** الشيخ عبد الغني العارف بالله (ت١١٤٣هـ/١٧٣٠م)
- كتاب خمرة الحان ورنة الألحان ، شرح رسالة الشيخ أرسلان طبع أحمد محمد زكي جوهر وأولاده بأم درمان السودان مطبعة محمد علي صبيح بالأزهر ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م
١٣٢- **النعيمي :** عبد القادر بن محمد (ت٩٢٧هـ/١٥٢٠م)
- الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق جعفر الحسني مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٨م
- دور القرآن في دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد ط٢ بيروت ١٩٧٣م
١٣٣- **النويري :** شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م)
- نهاية الأرب في فنون الأدب مطبوع ٢٨ جزءا ، نسخة مصورة عن مطبعة دار الكتب القاهرة وزارة الثقافة والإرشاد القومي د٠ت
١٣٤- **الهروي :** (أبو الحسن علي بن أبي بكر ت ٦١١هـ/١٢١٤م)
- الزيارات ، تحقيق جانين سورديل – طومين المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية دمشق ١٩٥٣م
١٣٥- **الهيتمي الأنصاري :** أبو العباس أحمد بن محمد بن حجر المكي (ت٩٧٣هـ/١٥٦٥م)
- تحرير المقال في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال ، تحقيق محمد سهيل الدبس ط١ دار ابن كثير دمشق ١٩٨٧م
١٣٦- **الوهراني :** ركن الدين محمد بن محمد بن محرز (ت٥٧٥هـ/١١٧٩م)
- منامات الوهراني ومقاماته ورسائله ، تحقيق إبراهيم شعلان ، محمد نقش عبد العزيز الأهواني القاهرة ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م
١٣٧- **اليافعي :** أبو محمد عبد الله بن أسعد (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م)
- الإرشاد والتطريز في فضل ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه العزيز ، وفضل الأولياء والناسكين والفقراء والمساكين ، راجعه وقدم له عبد الوهاب عبد اللطيف مكتبة القاهرة ١٣٧٨هـ

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان ط١ مطبعة دائرة المعارف النظامية حيدر أباد الدكن ١٣٣٩هـ
- نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية الملقب كفاية المعتقد ونكاية المتقد ، تحقيق إبراهيم عطوة عوض مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ط١ ١٣٨١هـ/١٩٦١م

١٣٨- **ياقوت الحموي :** الجغرافي الأديب شهاب الدين أبو عبد الله (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)
- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ط٣ دار الفكر ١٩٨٠م
- معجم البلدان طبع بيروت ١٩٧٩م

١٣٩- **اليماني :** عبد الباقي عبد المجيد الأديب الشاعر (ت٧٤٣هـ/١٣٤٢م)
- إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين ، تحقيق عبد المجيد دياب ط١ طبع مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ١٩٨٦م

١٤٠- **اليماني الحرضي :** عماد الدين أبو زكريا بن أبي بكر (ت٨٩٣هـ/ ١٤٨٩
- غربال الزمان في وفيات الأعيان ، تحقيق محمد ناجي زعبي العمر بإشراف عبد الرحمن الأرياني مطبعة زيد بن ثابت دمشق طبع ١٩٨٥م

١٤١- **اليونيني :** قطب الدين موسى بن محمد (ت٧٢٦هـ/١٣٢٥م)
- ذيل مرآة الزمان ط١ ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م

ثالثاً : المـــراجـــع العربيـــــة

١- **أبو زهرة :** الشيخ محمد
- محاضرات في الوقف – جامعة الدول العربية – معهد الدراسات العربية العالمية حلب ١٩٥٦م

٢- **د. أمين :** حسين
- الغزالي فقيهاً وفيلسوفاً ومتصوفاً ، مطبعة الإرشاد بغداد ١٩٦٣م

٣- **الأهواني :** أحمد فؤاد
- التربية في الإسلام دار المعارف بمصر ١٩٦٧م

٤ - . **د. الباشا :** حسن
الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، دار النهضة العربية القاهرة ، ٣ أجزاء ١٣٨٥ هـ/١٩٦٥م

٥- **بدران :** الشيخ عبد القادر
- تهذيب تاريخ دمشق ، ط٢ بيروت ١٩٧٩م
- منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ، منشورات المكتب الإسلامي للطباعة والنشر بدمشق ط١ مطبعة روضة الشام ١٣٣١هـ

٦- **بدوي :** أحمد أحمد
- الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ط١ مطبعة نهضة مصر القاهرة
- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام مطبعة نهضة مصر

٧- **التونجي :** محمد
- حول الأدب في العصر السلجوقي ط١ مطبعة بنغازي – ليبية ١٩٧٤م

٨- **جودة :** صادق أحمد داود
- المدارس العصرونية في بلاد الشام ط١ ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

٩- **حاجي خليفة :** مصطفى بن عبد الله القسطنطيني (ت١٠٦٧هـ/١٦٥٦م)
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، دار الفكر ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م

١٠- **حبشي :** حسن
- نور الدين والصليبيون دار الفكر العربي

١١- **حصرية :** عزة
- إمام السالكين ، الشيخ أرسلان ، شروح رسالة الشيخ أرسلان في علوم التوحيد والتصوف ، وضمنه خمرة الحان ورنة الألحان للشيخ عبد الغني النابلسي مطبعة العلم بدمشق ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م

١٢- **الحصني :** محمد أديب
- كتاب منتخبات التواريخ لدمشق ط١ منشورات بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م
- كتاب منتخبات التواريخ لدمشق طبع المطبعة الحديثة بدمشق ١٣٤٦هـ/١٩٢٨م

١٣- **الحكيم :** حسن
- كتاب المنتظم لابن الجوزي ، دراسة في منهجه وموارده وأهميته ط١ ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م

١٤- **حلواني :** أحمد عبد الكريم
- ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد المسلمين في عهد الدولتين النورية والأيوبية ، دراسة وتحقيق دار الفداء للدراسات والنشر والتوزيع

١٥- د. **حلمي:** احمد كمال الدين
- السلاجقة في التاريخ والحضارة ط١ الكويت ١٩٧٥م

١٦- **الخطيب :** حنيفة
- الطب عند العرب بيروت ١٩٨٦م

١٧- **داغر :**
- حضارة العرب

١٨- د. **الدّفاع :** علي عبد الله
- أثر علماء العرب والمسلمين في تطور علم الفلك ، مؤسسة الرسالة بيروت ط٢ / ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣م

١٩- **دهمان :** محمد أحمد
- في رحاب دمشق ط١ دمشق ١٩٨٢م

٢٠- **الديوه جي :** سعيد
- التربية والتعليم في الإسلام ، بمساعدة اللجنة الوطنية في الجمهورية العراقية ١٤٠٢هـ/١٩٧٢م
- بيت الحكمة ، دار الكتب للطباعة والنشر ط٢ ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م
- دور العلاج والرعاية في الإسلام ، مطبعة الجمهورية الموصل ١٣٨٦هـ/١٩٨٦م

٢١- **الذهبي :** حسين
- التفسير والمفسرون ١٩٦٢

٢٢- **رضوان علي :** سيد
- العلوم والفنون عند العرب ودورهم في الحضارة العالمية ، دار المريخ المملكة العربية السعودية

٢٣- **رمضان محمد :** أحمد
- المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية طبع ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م

٢٤ـ د ٠ **السباعي** : مصطفى
من روائع حضارتنا ، دار الوراق بيروت ط١ ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م
٢٥ ـ **الشويري :**
- تذكرة الكتاب في علم الحساب طبع المطبعة الوطنية بيروت ١٨٦٨

٢٦ـ **الطباخ الحلبي :** محمد راغب
- الثقافة الإسلامية
- من أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ط١ ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م
٢٧ـ **طرازي :** فيليب
- خزائن الكتب العربية في الخافقين ، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، لبنان
٢٨ـ **طوطح :**
- التربية عند العرب ، المطبعة التجارية – القدس
٢٩ـ **طوقان :** قدري حافظ
- تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ط٢ منقحة ومزيدة القاهرة جامعة الدول العربية ١٩٥٤م
- العلوم عند العرب بإشراف دار الثقافة العامة بوزارة التربية بمصر ١٩٥٦
٣٠ـ د. **الظاهر** : نعيم
- الحضارة العربية الإسلامية ، دار اليازوري العلمية للنشر عمان الأردن طبعة ١ ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م ص١٢٥
٣١ـ د٠ **عاشور :** عبد الفتاح
- الحركة الصليبية ط٢ مطابع سجل العرب ١٩٧١م
٣٢ـ **عبد الرحمن :** حكمت نجيب
- دراسات في تاريخ العلوم عند العرب وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة الموصل ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م
٣٣ـ **عبد الرحيم :** محمد
- العارف بالله الشيخ رسلان سيرته وكراماته ط١ ١٤١٤هـ/١٩٩٣م
٣٤ـ **عبد المهدي :** عبد الجليل
- الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس الهجري ط١ الجامعة الأردنية عمان ١٩٧٧م
٣٥ـ أ ٠ د٠ **العتر :** نور الدين
- منهج النقد في علوم الحديث ط٣ المطبعة العلمية بدمشق ١٩٨٥
٣٦ـ **العدوي :** القاضي محمود (ت١٠٣٢هـ/
- كتاب الزيارات بدمشق ، تحقيق د٠ صلاح الدين المنجد ، عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة ودمشق ، طبع المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٦٥م

٣٧- **عرجون :** محمد الصادق
- التصوف في الإسلام وأطواره ١٩٦٧
٣٨- **عفيفي :** أبو العلا
- التصوف ، الثورة الروحية في الإسلام ، ط١ دار المعارف ١٩٦٣
٣٩- **العلبي :** أكرم
- خطط دمشق – دراسة تاريخية شاملة على مدى ألف عام – دار الطباع ط١ ١٤١٠هـ/١٩٨٩م
٤٠- **عيسى بك :** أحمد
- تاريخ البيمارستانات في الإسلام ، المطبعة الهاشمية بدمشق ١٣٥٧هـ/١٩٧٩م
٤١- أ ٠د٠ **الفرفور :** محمد عبد اللطيف
- معايير الفكر ، دار المكتبي ط١ دمشق ١٤١٦هـ/١٩٩٦م
- تهافت الفكر الجدلي ، ط١ دار المعرفة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م
٤٢- **فهمي :** أسماء حسن
- مبادىء التربية الإسلامية القاهرة ١٩٤٧
- **د ٠ القيسي** : (نوري حمودي) شعراء أمويون بيروت ط١ ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م
٤٣- **كردعلي :** محمد
- الإسلام والحضارة العربية ط٢ القاهرة ١٩٥٠
- خطط دمشق بيروت ١٩٧٠-١٩٧١
- غوطة دمشق مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٩
- كنوز الأجداد
٤٤- **الماحي :** التجاني
- مقدمة في تاريخ الطب العربي ط١ ١٩٥٩
٤٥- **د٠ مبارك :** زكي
- التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ط١ مطبعة الرسالة ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م
٤٦- **محمد :** أحمد رمضان
- المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية طبع ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م
٤٧- **المدور :** جميل نخلة
- حضارة الإسلام في دار السلام ، مجموعة رسائل إسلامية في القرن الثاني والثالث الهجريين ط٢ مطبعة المؤيد مصر ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م
٤٨- **د٠ مصطفى :** شاكر
- التاريخ العربي والمؤرخون ط٢ بيروت ١٩٨٠

٤٩- **معروف :** ناجي
- علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي ط١ مطبعة الإرشاد بغداد ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م
- نشأة المدارس المستقلة في الإسلام مطبعة الأزهر بغداد ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م
٥٠- **المقداد :** سليمان
- بصرى دليل أثري وتاريخي دمشق ١٩٨٥
٥١- أ٠د٠ **المنجد :** صلاح الدين
- خطط دمشق ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٤٩
- المشرق في نظر المغاربة والأندلس في القرون الوسطى ط١ بيروت ١٩٤٣
٥٢- أ٠د٠ **موسى باشا :** عمر
- أدب الدول المتتابعة ، ط١ دار الفكر الحديث بيروت ١٩٧٦
٥٣- د٠ **موسى :** علي ، مخلص الريس
- علم الفلك ، مفاهيمه وأسسه ، دمشق ١٩٨٢
٥٤- د. **النبراوي** : فتحية
- تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ، دار الفكر العربي طبعة ٧ ١٤١٤هـ/١٩٩٤م
٥٥- **النبهاني :** يوسف بن اسماعيل (ت١٣٥٠هـ/
- جامع كرامات الأولياء ، تحقيق إبراهيم عطوة عوض مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ط٣ ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م
٥٦- **نحلاوي :** عبد الرحمن
- أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع ، ط٢ دار الفكر دمشق ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م
٥٧- **الهرفي :** محمد علي
- شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ط٣ مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م
٥٨- **الوشلي :** عبد الله قاسم
- المسجد ودوره التعليمي عبر العصور من خلال الحلق العلمية ط١ بيروت مؤسسة الرسالة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

رابعاً : المراجع غير العربية (الكتب المترجمة)

١ـ رنسيمان : ستيفن
ـ تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العريني ط١ دار الثقافة بيروت ١٩٨٦م

٢ـ د٠ زكار : سهيل
ـ الحروب الصليبية – الحملتان الأولى والثانية – حسب روايات شهود عيان ، كتبت أصلاً بالإغريقية ، السريانية ، العربية ، اللاتينية ، تحقيق وترجمة د٠ سهيل زكار ، دار حسان للطباعة ط١ دمشق ١٩٨٤م

٣ـ سيزكين : فؤاد
ـ محاضرات في تاريخ العلوم لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر الرياض ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

٤ـ الصوري : وليم ت ٥٨١هـ/١١٨٥م
ـ تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار ، ترجمة د٠ سهيل زكار قسم١ـ٢ قيد الطبع
أو
ـ الحروب الصليبية ترجمة وتعليق د٠ حسن حبشي الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م

خامساً :   الرسائل العلمية غير المنشورة

١- أبو شامة : شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م)

- عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية رسالة ماجستير أحمد ين حسين البيسومي

٢- أبو شريفة : عبد القادر
- صورة الصليبيين في الأدب العربي – كلية الآداب – الجامعة الأردنية رسالة ماجستير ١٩٧٧-١٩٧٨م

سادساً :   المحاضـــــــرات

- محاضرات المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الإسلامية جامعة دمشق كلية الآداب ١٤٠١هـ/١٩٨١م
- مقال المعاهد والمؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي د٠ نجاح القابسي

سابعاً :   الدوريات

- أبحاث المؤتمر السنوي الثالث للجمعية السورية معهد التراث العلمي بحلب ١٩٧٨
- **مقال زقزوق :** عبد الرزاق
  - تاريخ الطب عند العرب في العصر الإسلامي
- **مقال أ٠د٠ موسى باشا** : عمر
  - آداب الطب عند العرب في العصر الوسيط
- **مقال محمد طه الجاسر**
  - إنعاش من بدى عليه الموت في تاريخ الطب عند العرب
- **مقال السمير :** عبد الرزاق
  - الطب البيطري في عصر الحضارة الإسلامية
- المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في ذكرى مرور تسعمائة عام على ولادة ابن عساكر ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م
- **مقال عاشور :** عبد الفتاح
  - بعض أضواء جديدة على ابن عساكر والمجتمع الدمشقي في عصره
- **د٠ بيطار** : أمينة
  - التعليم في دمشق في القرن السادس الهجري
- **بيانكي :**
  - ابن عساكر مؤرخاً علمياً
- **نور سيف** : أحمد
  - مصادر تاريخ ابن عساكر من كتب الحديث والرجال
- **أ٠د٠ بدر** : أحمد
  - الأندلسيون والمغاربة في دمشق
- **أ٠د٠ مصطفى :** شاكر
  - مدرسة الشام

مجلة المجمع العلمي العـربي بـدمشـق

- مقال خليل مردم بك :

- ديوان ابن الخياط ، مجلد ٣٣ ج٣ ١٩٥٨

- مقال الشيخ أبو اليسر عابدين :

- الوجادة مجلد ٣٦ ١٩٦١

مجلة مجمع اللغة العربية الأردني

- مقال سجعان خليفات :

- رسالة في إبطال أحكام النجوم لأبي قاسم عيسى بن علي عدد ٣٢ سنة ١١ عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م

مجلة المجمع العلمي العراقي

- مقال سعيد نفيس :

- المدرسة النظامية في بغداد مجلد ٣ ج١ ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م

مجلة آداب بلاد الرافدين الموصل

- مقال يحيى اسماعيل :

- مفهوم الغزالي للسببية عدد ١١ ١٩٧٩

- مقال محمد جلوب فرحان :

- الطريقة البديهية عند الغزالي عدد ١١ ١٩٧٩

مجلـــــة المشـــرق

- مقال الزيات : حبيب

- الثغريات ، دفائن الخزائن ، ديوان محمد بن نصر القيسراني سنة ٤٥ / ١٩٥١م

مجلـــة التـــراث العـــربـــي

- مقال أ٠د٠ موسى باشا :

- دور العلم عدد٣ سنة١ / ١٩٨٠م
- الإجازات العلمية وضروبها المختلفة ، الإجازات التعليمية الأصلية عدد٤ سنة ٢/ ١٩٨١م

- مقال أ٠د٠ ملكة أبيض :

- تنظيم التعليم في المسجد الجامع بدمشق قبل نشوء المدارس عدد٢٢ سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

مجلـــة دراسات تاريخيـــة

عدد خاص بمناسبة حلول القرن الخامس عشر الهجري

- مقال د٠ حسين أمين :

- المسجد وأثره في تطور التعليم

دائـــرة المعـــــارف

دائرة المعارف الإسلامية إبراهيم زكي خورشيد ، عبد الحميد يونس ، أحمد الشنتناوي ، دار المعرفة بيروت ، لبنان

الحـــوليـــات الســوريـــة

- مقال راضي عقده :

- زوايا حماه مجلد ٣١ ١٩٨١م

ثامناً : المراجع الأجنبية (غير المترجمة)

THE FOREIGN OF REFRENCES

1- ASIS ATIYA
CRUSEDE COMMERCE AND CULTURE OXFORD UNIVERSITY PARESS LONDON 1962
2- COSKUN ALPTEKIN . DIMASK . ATABEGLICI . TOG . TEGINILER ISTANBUL 1985
3- ELISSEEFF NURAD – DIN DAMAS 1967
GILBERT . J . E
4- THE ULAMA OF MEDIEVAL DAMASCUS AND THE INTER NTIONAL WORLD OF ISLAMIC SCHOL ARSHIP LONDON ENGLAND 1978
5- ST EVENSON THE CRUSADERS IN THE EAST 1968

تاسعاً : دائرة المعارف الإسلامية

ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM

NEW EDITION LONDON BRLLY 1979

1 – ARTICLE DIMASHK P2 P282
2 – ARTICLE BANIYS P1 P1047
3 – ARTICLE BURIDS P1 P338
4 – ARTICLE HAMAT P3 P120
5 – ARTICLE HIMS P3 P344
6 – BALABAKK P.1 P.970
7- IBN ASAKIR P.3 P.714
8 – ALGHAZALI P. 1 P.1038

عاشراً : مجلات فصلية

P E R I O D I C A L S

1- RECUEIL HISTORENS DESCROISADES
DE L; ACADEMIE DESINSCRIPTLONS
ETBELLES LETTRES
HISTORIENS ORIENTAU TO ME I I I
PARIS IMPRMRIE NATIONALE
2- SAUVAGET REPERTOIRE CHRONOLOGIQUE
DEPIGRAPHIE ARABE
DELINSTITUT FRANCALIS P8
CLAUDE GAHEN
3- BULLETLND,TUDES ORIENTALES
TOMES VI I I – V I I I LE " BUSTAN AL JAMI "

فهــــرس البحــــث

رقم الصفحة

رقم الصفحة

رقم الصفحة